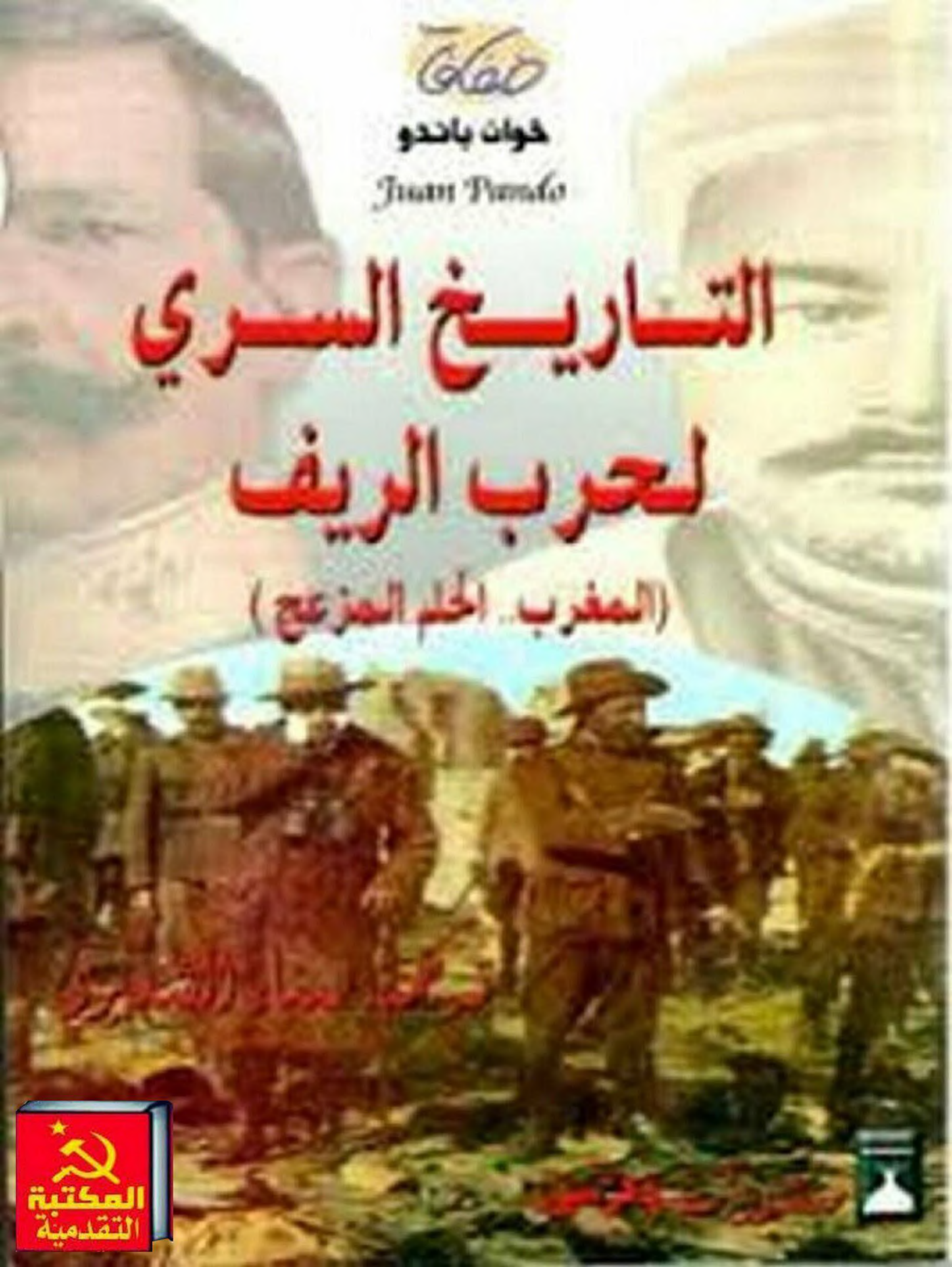

خوان باندو
Juan Pando
التاريخ السري لحرب الريف
(المغرب.. الحلم المزعج)
المكتبة التقدمية

الكتاب الثاني عشر

الإيداع القانوني : 2008/0621
الترقيم الدولي (ردمك) : 9954-408-80-0
طبع 2008 / الطبعة الأولى
النجاح الجديدة - الدار البيضاء
التوزيع: سبريس
ضفاف: سلسلة تعريبات، يشرف عليها الدكتور محمد سبيلا، أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس، الرباط
المدير: عبد الكبير العلوي الإسماعيلي
الإخراج التقني: خديجة فارس
العنوان : 153، شارع سيدي محمد بن عبد الله رقم 7 -العكاري- الرباط
الهاتف + الفاكس : 44 98 29 37 212 00 - الهاتف : 96 34 64 37 212 00
البريد الإلكتروني: e-mail: mazzaman@menara.ma / az_zaman@hotmail.com

خوان باندو

Juan Pando

التــاريـــخ الـــسري
لحرب الريف

(المغرب . . الحلم المزعج)

HISTORIA SECRETA DE
ANNUAL

ترجمة: سناء الشعيري*

- أستاذة باحثة

نشر هذا الكتاب بدعم من المديرية العامة للكتاب والأرشيف والمكتبات،
التابعة لوزارة الثقافة الإسبانية

Esta obra ha sido publicada con la ayuda de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio español de Educación, Cultura y Deportes



خوان باندو

- من مواليد سنة 1943 بمدريد.
- حاصل على الدكتوراه في التاريخ والجغرافية.
- خبير في العلاقات الدولية والتاريخ العسكري.
- القى العديد من المحاضرات على طلبة الماجستير في كلية علوم الإعلام وجامعة كومبلوتينسي والأكاديمية العامة بسرقسطة.
- سنة 1998 تم تكليفه بمعرض "حلم ما وراء البحر" الذي احتضنته المكتبة الوطنية بمدريد.
- يعدّ واحدا من أبرز الأفريقانيين، وعضو شرفي داخل مؤسسة نويسترا سينيورا دي افريكا.
- من كبار المهتمين بقضايا المغرب، خاصة منطقة الريف وجبالة. جاءت زيارته الأولى لمنطقة انوال سنة 1969. فيما بعد تكررت الزيارات، عام 1971، 1972، 1985، 1990 و1998، وذلك للاطلاع على أدق تفاصيل تراجيديا جيش الإسبان بقيادة الجنرال سيلفستري. بموازاة مع ذلك عزز مجهوداته العلمية ببحث وتنقيب دقيقين استغرقا منه ثماني سنوات في الأرشيف العدلي الإسباني.

مقــدمة

كانت المنحدرات الوعرة لجبال إيزومار، ومعها كل ساحات القتال في انوال واعرويت، وشيفت ودار الكبداني وسوق الثلاثاء ببوبكر، تثير بحق دهشة كبيرة، وتخلّف في النفوس وقعا ليس هينا، فبالإضافة إلى تضاريسها الموحشة، تتسم المنطقة بقساوة المناخ الذي لا يرحم إلى يومنا هذا. فكسر شوكة العدو الدخيل، لم تكن لتتأتّى سوى لأناس ولدوا واستطاعوا العيش في تلك البقعة النائية، إذ لا احد كان يستطيع أن يهزمهم. لكن إسبانيا، في عهد ملكها **الفونصو** -ودون سابق معرفة ولا إمكانيات تذكر- هاجمت الريفيين بطريقة مرتجلة، دون أن يكون لها مخطط عسكري ولا سياسي محكم يهدف على الأقل إلى التقرب من شيوخ القبائل المحلية.

وبعد أن تمكن القائد **سيلفستري** من بسط سيطرته على انوال دون مقاومة، ظنت إسبانيا في شخص ملكها **الفونصو الثالث عشر**، أن الريف قد هُزم وانها كسبت رهان القوة الذي أعاد إليها الشعور بالثقة، خاصة بعد نكبة 1898 (اي ضياع كوبا من يد المستعمر الإسباني)، وهكذا أصبح المغرب بديلا مؤسسيا واستراتيجيا عوضا عن كوبا، وكذا البديل الشرعي الذي قد يزوّد البلاد بالخيرات المعدنية، من حديد ورصاص، يُستخرجان من المناجم الريفية، مما ساعد على رفع معنويات الجيش الذي اعتقد انه سيخوض *قتالا عادلا*.

دخلت إسبانيا إلى المغرب أول الأمر بمبادرة شخصية، لتضطلع فيما بعد بوظيفة الوسيط بين مصالح القوى الاستعمارية (الفرنسية منها والبريطانية). وقد أهّلها إلى ذلك، طبيعتها الوديعة بوصفها شريكا في الاستعمار الذي لم يعرف بصلابته، ولكن بقوة

عزيمته. فبعد فشل حملة "فاشودا" (بالسودان عام 1898)، توقف زحف المستعمر الفرنسي -بقيادة الوزير (**دیلكاسي**)- على الحدود الغربية لإفريقيا عند المغرب، حيث كانت القوات البريطانية تعارض وبشدة، منذ استيلائها على مضيق جبل طارق، وجود اي معمر آخر (فرنسا او إسبانيا) يعرقل اتصالاتها مع قناة السويس ومصر. لكن الإسبان والفرنسيين دافعوا عن مصالحهم متكبدين في ذلك خسائر معنوية جسيمة.

وفي شهر يوليوز 1921، وبعد اندحار جيوش **سيلفستري**، كان التجاهل الفرنسي للحدث قاطعا وممتعظا، بيد أن هذا السلوك ما فتئ أن تغير جذريا، خصوصا بعد انهزام فرنسا سنة 1925 أمام العدو الريفي نفسه.

رغم كل الخلافات الاستعمارية الفرنسية-الإسبانية انبثقت نتيجة إيجابية، إذ استطاعت فرنسا سنة 1904 توقيع معاهدة ضد المانيا عرفت بـ (الاتفاق الودي Entente Cordiale) شكلت حجر الزاوية لسياستها الخارجية، بينما ظلت إسبانيا يتيمة في المغرب. لكنها واظبت على دخول غمار الحروب وحدها (حرب **برنكو دي لوبو** Barranco de Lobo عام 1909 وحرب كرت سنة 1912)، الشيء الذي جعل فرنسا -التي كانت تتخوف من اي تحالف إسباني-الماني تقيم لهذا الجار الجنوبي وزنا، فأرشدته نحو اولوية تمثلت في استرجاع الأراضي المقدسة (الألزاس واللورين).

جنت إسبانيا من حيادها المثالي، الذي كان التزاما شخصيا من الملك الفونصو الثالث عشر في الحرب العالمية فوائد معنوية دون تحقيق اية مكاسب استعمارية أو استراتيجية. إذ استمرت في عزلتها مع اوروبا وانغمست أكثر في المغرب -الذي تحول إلى فلانديس إسباني (الأراضي المنخفضة في أوروبا التي كانت مستعمرة إسبانية) جديد ومخيف-، وهناك (اي في المغرب) كانت إسبانيا تدفن اموالها ورجالها، وافضل تطلعاتها المعاصرة إلى تحقيق الوئام الوطني.

في الوقت الذي غنمت فيه فرنسا ما اصطلح عليه بـ"المغرب النافع" مستحوذة على اهم خيرات البلاد الفلاحية والمنجمية والجيوستراتيجية (الإطلال على جزر الكناري والجزء الشمالي من الصحراء الغربية)، جاءت مساعي الملك الفونصو لتثير دهشة تاريخية وتنصب -بلا فائدة- على منطقة صخرية تعج بالعصابات، إنها منطقة جبالة والريف التي لا تتعدى مساحتها واحدا وعشرين الف كيلو متر مربع، والتي حصلت عليها إسبانيا بمقتضى اتفاقية الحماية لسنة 1912.

كان خبر اندحار قوات سلفيستري والانهيار السياسي للقيادة العامة بمليلية مفاجأة ثقيلة للنظام، وواقعا مُرّا للبلاد. اما النظام، فقد فَقدَ هيبته إلى الأبد، وأما البلاد فلم تخسر فقط ثمانية او عشرة آلاف من ابنائها، بل فقدت كذلك ثقتها المطلقة في الملكية، وحتى آمالها في وقف نزيف المآسي الأسرية على ارض المغرب. لم يكن للنظام رد فعل يذكر، لكن الشارع كان له راي آخر. فقد جرت الأحداث على غرار نكبة 1898، إذ وقفت الحكومة امام المأساة مكتوفة الأيدي. لكن الشارع انتفض لجرحاه وموتاه، ولكل المختفين من الجيش.

لم تخسر إسبانيا قط في تاريخها الحديث، وحتى ذلك الحين، جيشا برمته -جيش لقي حتفه بعد استسلامه في مواقعه بوحشية كبيرة- كما هو الحال بالنسبة لجيش الجنرال سلفيستري الذي انتحر على جبهة القتال. وحتى وإن حدثت هزائم عسكرية مفاجئة وشنيعة، تكبدها المستعمر الأوروبي في مواجهة مع الجيش الإيطالي مثلا تحت إمرة **براطيو** Baratiou في عدوة (**إيريطريا** Eritrea في الواحد من مارس 1896)، وقس على ذلك الاندحارات الواسعة النطاق والمتكررة في صفوف البريطانيين ضد **بورس** Boers في جنوب إفريقيا ما بين 1902 و1899، فإن طبيعة المأساة الإسبانية في الريف تبقى الأكثر فظاعة من سابقاتها.

وكرد فعل موالٍ ذهبت الحكومة في اتجاه، والجيش في اتجاه آخر، أما البرلمان، فقد عكس وجهات نظر مختلفة تارجحت بين غالبية اعربت عن هوسها وإصرارها على البقاء في المغرب حتى النصر، واقلية مثل **كامبو** Cambo، و**بسطيرو** Besteiro و**بريطو** Prieto، اصرت على انسحاب يحفظ للدولة كرامتها وماء وجهها. ولو اصغى الفونصوالثالث عشر لتوقعات بعض مستشاريه- ومن بينهم **ماورا** Maura، واعطى أوامره بانسحاب المستعمر فور إطلاق سراح الرهائن واسترجاع السلاح، لنجت الملكية ونجت البلاد من ذلك الانشقاق العسكري الذي افرز حربا اهلية مدمرة.

وفي مقابل الأحداث التي كانت تدور رحاها بإفريقيا، اتُّخذ قرار بفتح تحقيق حول ما حدث في تلك المنطقة. وظهرت بذلك مواقف مشابهة تبناها اولئك الساسة والعسكريون الذين حاولوا تجديد هياكل مؤسساتهم. وكان كل من الجنرال **بيكاسو** Picasso وا**غليرا** Aguilera ممن تحمسوا لهذا القرار. اما عن **البا** Alba و**غارسيا بيرطو**، فقد شكلا ثنائيا

توحدت مواقفه الحكومية. وهكذا تمت عملية إنقاذ الأسرى الإسبان عام 1923، وقبلها طالب مجلس الشيوخ بإعطائه الحق في محاكمة الجنرال برنكر Berenguer.

وفي السياق نفسه، ضم البرلمان بمختلف لجانه ونوابه المعروفين باسم "التسعة عشر" و"الواحد والعشرين" صوته إلى هذه المواقف الهادفة إلى إماطة اللثام عن الحقيقة، بيد ان الانقلاب الذي تزعمه بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera، في العمق وإن لم يقض على كل هذه المخططات إلا انه عرقل مسيرة البحث والتحقيق. إذ أعرب هذا الزعيم عن انشغاله غير المتوقع بالمحاكمة التاريخية، فحاول بذلك كشف النقاب عن كل المسؤوليات منذ عام 1909، فاخفق في محاولاته تلك، لكنه حقق مكسبا آخر تجلى في إعطائه معنى جديدا للمناورات العسكرية، التي توجت بإنهاء الحرب في المغرب عام 1927.

لم تكن نهاية الحرب لتعني بتاتا نهاية الحماس الشعبي، حتى وإن سنّ النظام عفوا شاملا سنة 1924، أدى إلى فتح باب التسيب، فإن الشرخ اتسعت هوته اكثر بين صفوف الجيش الذي اعتبر فاجعة أنوال عارا جماعيا وذنبا تاريخيا لا يغتفر، فعمّ بذلك الإحساس بالظلم والخجل.

وفي خضم الأحداث الاستعمارية، كانت احداث إفريقيا الألفونصوية مهمة، بالنظر إلى كل التغييرات التي حدثت، سواء على مستوى النظام او على مستوى المؤسسات العسكرية، شانها في ذلك شان ما عاشته فرنسا في كل من الهند الصينية ما بين 1949-1954، والجزائر خلال الفترة الممتدة من 1958 إلى 1954، وجمهورية سالاثار في البرتغال الافريقي سنوات (1968-1974). ومثال آخر للانحلال والتفسخ الاجتماعي والسياسي، يتجلى في الحديث عن الولايات المتحدة الأمريكية وجنودها بالفيتنام (1967-1973). اما إسبانيا، فقد انتهى بها الأمر إلى تجاهل ونكران كل شيء، وذلك لحرمانها من شرعيتها في تصفح الوثائق الرسمية وكذلك السرية. اعتبرت سنة 1921 فظيعة، إذ اجبرت المؤسسات على التزام صمت رهيب، جعل كل اولئك الذين عاشوا أحداث الدراما يفضلون التحلي بالصبر. بيد أن البلاد ظلت تحتفظ بشعور رهيب نحو الأمس المفجع، شعور كانت تهيج أواصره كلما ذوى اسم "انوال".

وفي ظل غياب اقتراحات، انضافت الذاكرة الشعبية إلى اللاشعور المهني للجيش، الذي ظل يعد كل ما له علاقة بانوال بمثابة وصمة عار في مسيرته الحديثة. هنا ندخل عالم المفارقات، إذ حدثت كارثة في تدبير شؤون البلاد وتسيير جيشها، وبموازاة

مع ذلك، ظهرت مثالية مدهشة في إدراك معنى الكرامة البرلمانية والمحافظة على الروح الحية للمليشيا، وهكذا قام برلمانيون مثل **الكلا ثامورا** Alcala Zamora، **روديس أو سلانو** Rodés O Solano، وآخرون متميزون بمهارتهم العسكرية مثل **كرسبو دي لارا** Crespo de Lara، **فانخول** Fanjul، **لثاغا** Lazaga **ومرتينيث دي كمبوس** Martinez de Campos، بإبراز مكانة البرلمان الإسباني.

الشيء نفسه قامت به المقاومة الباسلة التي خاض غمارها اشخاص مثل **أمادور** Amador، **اريناس** Arenas، **بنيطيث** Benitez، **برنال** Bernal، **كابابلانكا** Capablanca **دوينياس** Duenas، **إسكريبانو** Escribano، **مانيا** Manella، **موراليس** Morales، **باس اوردونيا** Paz Orduia، **بيريث غارسيا** Pérez Garcia، **وبريمو دي ريفيرا فرناندو**Fernando Primo de Rivera، الذين قضوا نحبهم بجوار عساكرهم. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المقاومة برهنت على انه بالرغم من هزيمة الجيش، فإن مدلول المليشيا لم يندثر قطّ من الجيش الإسباني. فالكثير منهم عانى من عقوبات تاريخية جائرة، إذ ان فضيحة انوال التي طالت ردحا من الزمن، فضيحة مؤسساتية بكل تفرّعاتها (التي سنتناول تفاصيلها في هذا الكتاب) حرمتهم من اعتراف وطني لائق.

في مجال البحث، اصبحت المشاكل اكثر تعقيدا حينما بدات سنة 1990، عملية تنقيب مكثفة عن الوثائق. بيد ان الاختفاء او الإتلاف -الذي كان مفاجئا أو إن صح التعبير، مثيرا للاهتمام- للعديد من النصوص التي تتناول النكبة الإسبانية، مهّد الطريق لكارثة اخرى موازية، تتلخص في حرمان هذا المجهود العلمي من ربط اتصال رصين ومعقلن بين الذاكرة الشخصية وبين البيانات الرسمية. وفي هذا الصدد كان للكاتب حظ كبير، إذ عثر في أرشيفات **ماورا** Maura، على نسخ كاملة من المحادثات التليغرافية التي كانت تجري بين **برنكر** Berenguer **والفيكونت *إيزا***، الذي كان وزيرا للحرب في وزارة **ايندسيلاثار** Allende Salazar. وكان ماورا عند توليه الحكم في غشت 1921، شديد الحرص على ان تسلم إليه المحادثات شخصيا. وإلى جانب هذه الأخيرة، تمت صيانة محادثات اخرى ربطت **برنكر** بـ **ثيرفا**. وهكذا صارت كل هذه المستندات التي لم تنشر بعد، بمثابة راسمال قوي وفعّال بمقدوره أن يكشف عن مجموعة من الحقائق. وانضاف إلى هذا الرصيد، ارشيف آخر لا يقل اهمية عن الأول، وهو بدوره لم ينشر بعد إلى يومنا هذا، يتعلق الأمر بالأرشيف الشخصي للجنرال **بيكاسو** Picasso،

الذي ساعد على إعادة بناء طبيعة الأحداث وتسهيل فهمها. ونضيف إلى كل هـذا، مخـزون الوثـائق لعائلـة **مانيـا** Manella، والأرشيـف الشخصـي الـجديـر بالذكـر لـ **دومينكيز يوسا** Dominiguez llosa.

مع كل هذه الاكتشافات، توضّحت الرؤيا جيدا، وظهر قصور الدراسات التي أجريت حول معركة انوال ونتائجها. وتعد دراسة **جيرمان عياش**، من أدق الدراسات التي انصبت على عائلة عبد الكريم وحرب الريف. بيد أن تسلسل احداث هذه المعركة توقف عند ابران، عند ابواب الكارثة. اما **ولمان** Woolman، فقد انجز بدوره عملا جيدا حول الأزمة الإسبانية الريفية، لكنه كذلك لم يثابر كثيرا في معرفة ما جرى بانوال. فظل عمله -الذي باتت تعوزه مصادر البحث- محدودا بالنظر إلى ضخامة أهدافه.

الأبحاث التي اجريت إلى حد الساعة، سلطت الأضواء على مجموعة من التغييرات التي لحقت بملف بيكاسو، الذي كرّس كل جهوده للبحث عن المسؤولين، خصوصا ما يتعلق بطلب محاكمة برنكر، وهو حدث لم يثر إلى يومنا هذا اهتمام المؤرخين. وبموازاة مع ذلك، فقد اقيمت محاولات للوصول إلى تعريف ببليوغرافي جيد لكل من برنكر، وبيكاسو، وسيلفستري كعسكريين، وكامبو Cambo وماورا بصفتهما مدنيين. وقد فتحت هذه المحاولات آفاقا وسبلا جديدة للبحث، يتخللها حديث عن العلاقات بين إخوان عبد الكريم والمقيمين العامين الإسبان (**إيثبورو** Aizpuru، و**خوردانا** Jordana، و**مورالس** Morales).

إن الحديث عن تَبِعات سياسة النهب الاستعمارية في الريف، والتي انتهت بمذبحة اعرويت، والحديث عن السياسة التي انتهجتها فرنسا في عهد **اليوطي** إزاء الكارثة الإسبانية، وذكر العلاقات بين إسبانيا الألفونصية والمانيا في عهد جمهورية **فايمر** Weimar، والتي بُنيت بغرض صناعة غازات الحرب من **الفوسجين والإيبريت** (Iperita-Fosgeno) في مليلية، والحديث عن ضراوة هذه الحرب الجوية الكيماوية التي امتدت من سنة 1923 إلى سنة 1926، والحديث عن النزاعات الواقعة بين الأحزاب المتعاقبة على الحكم (من ليبراليين ومحافظين) اثناء حرب المغرب، وكذا الحديث عن تاريخ البرلمان ورجالاته، هو حديث محدود لم ينل حقه من البحث والتنقيب، وزد على ذلك الحديث عن الانشقاقات التي حدثت بين صفوف قيادات جيش إفريقيا، يليها الانفصال عن الدولة المستعمرة ابتداء من سنة 1927.

الفصـــل الأول:

في موطن الحرب

عند منتصف شهر يناير 1921، قامت الوحدات الإسبانية المنتشرة غرب مليلية بتحركات واسعة، استهدفت مدينة الحسيمة التي تعد قلب الريف، بغية تقويض المقاومة الريفية والقضاء على المقاومة المغربية التي كانت شرارتها منذ سنة 1909 تتوهج أحيانا، وتخمد أحيانا أخرى. كانت الجيوش التي تغطي جبهات واسعة من المنطقة سلسلة من الفرق العسكرية التي لا يمكن عدها جيشا بالمعنى الأوروبي الحديث للكلمة، حيث إن معداتهم الحربية الفرنسية الصنع كانت قليلة وقديمة، وكانت رشاشاتهم آلات حربية أمريكية متآكلة من نوع كولت "Colt"، أما جنودهم المبتدؤون؛ فقد كانوا مسلحين ببنادق ألمانية من نوع ماوسر Mauser، بنادق عرفت بجودتها، لكن أغلبها كان غير صالح لكونها من مخلفات حرب كوبا والفلبين لعامي 1895-1898. كان الأمر إذن يتعلق بكتيبة مؤلفة من شرذمة من المدافعين وليس بوحدة عسكرية منظمة بالمعنى الكلاسيكي. كانت طليعة الجيش هي المسؤولة عن هذه الصورة، إذ كانت صفوفها الأمامية مكونة من أهالي المنطقة وحرس مدني ونظاميين، وكان مظهرهم يبدو متوحشا.

في الساعات الأولى من منتصف يناير وصلت الدوريات إلى أعالي جبال "إيزومار"، وهي مرتفعات وعرة يصل طولها إلى سبعمائة وخمسين مترا، تشرف على سهل استراتيجي يعرف بانوال وهو واد من الحجارة، والحصى والرمل، تحفّه من الجهة اليسارية ربوة عريضة مكسوة بالأشجار، ونهر صغير بات قاب قوسين أو أدنى من الجفاف، وهو يجري في اتجاه المنخفض. كان المنظر العام يوحي بأن هذا المكان

عـانى -ومنذ سنوات عديدة- من الجفاف. وكـانت الجبـال المحيطة تسد الأفق من جهاته الأربع إلى ان تعانق إيزومار. اما البحر فكان آخر ما يمتد إليه البصر.

وعلى المشارف الاستراتيجية لأنوال، توغلت القوات العسكرية، لم يكن هناك عدو في الواجهة، فأعطيت الأوامر بالتقدم في اتجاه المنخفض. كان حرس المارشال قادما من الخلف، اما الكتائب والمشاة فقد توغلوا داخل المنحدرات الجبلية تتعقبهم بعض المدافع المدوية، إلى جانب الحرس العسكري الذي كانت تليه قوافل التموين.

دون ارتبـاك وصل الجنرال إلى قـمـة الجـبل بإصـرار ونبـوغ، كـان يرأس فـرقـة كثادوريس، ويرتدي سترة جلدية زرقاء في لون البحر، وحذاء يصل إلى حد الركبتين، وحزاما أحمر اللون عليه شارات توحي بأن ذلك الشخص هو قائد الفرقة العسكرية، اما الرباط المذهب، فكان رمزا لقربه من الملك. لم تكن عليه أوسمة شرفية، وكان أعزل من السلاح. كان ذا رباطة جاش وحزم وثقة بالنفس غير معتادين. إنه **مانويل فرنانديث سيلفستري** M.F. Silvestre، اثنتان وخمسون سنة، كان عازما في تلك السنة على القضاء على مقاومة الريف بالقوة العسكرية.

اخذت هياة الأركان الحربية والمساعدون اماكنهم بجوار الجنرال، وبدا الحديث عن المكان الذي من المحتمل أن تحط عنده الجيوش رحالها. فوقع الاختيار مبدئيا على تلك التلال الثلاثة في وسط الساحة. وفيما بعد، تلقى الجنرال اقتراحا آخر. إنه إيزومار القاحل والخالي من السكان، والمتاخم لجبال تمسمان من جهة اليسار، ومرتفعات بني سعيد النائية من جهة اليمين. وفي الخلف كانت هناك الأودية والتلال التابعة لقبيلة بني أوليشك المشرفة على تلك الأراضي، والتي كانت تضم بين دفتيها دوار أنوال المهجور. لم يكن هذا المكان ينبئ بالخطر. واصلت الطوابير زحفها نحو الساحة فتوغلت بكاملها صحبة القوافل داخل الفجاج الجبلية.

في يوم السبت الخامس عشر من يناير، وصل جيش سيلفستري إلى مكانه المتفق عليه، وكانت تفصله عن مليلية مائة وستة كيلومترات، اما خليج الحسيمة الذي كان يسيل له لعاب المستعمر فكان يبعد عنهم بما يزيد عن ثلاثين كيلومتر. كان خيالهم يوحي إليهم بأن الريف بات في قبضة يدهم، وأن حرب إسبانيا مع المغرب ستنتهي في أقرب الآجال.

مع أول إشراقة للصباح، توجهت طوابير سلفيستري نحو أنوال، انطلاقا من سوق إنوناتن من الجهة الجنوبية لجبال إيزومار[1] الصامتة، مخلفة وراءها عند جبهة كرط Kert، ثكنة ابن طيب Ben Tieb، وأبعد من ذلك دار الدريوش، وهما معسكران تم إعدادهما قاعدتين لتكونا مساندتين للهجوم المتميز بصبغته السياسية لا العسكرية، حيث تمكن المستعمر -ما بين الخامس والسادس من دجنبر 1920- من إخضاع قبيلة بني أوليشك Beni Ulixek، وبعدها بخمسة أيام، خضعت قبيلة بني سعيد. وعندما استولى الجنرال الإسباني في الحادي عشر من دجنبر على جبل مورو الأسطوري Monte Mauro، والذي لم تطاه من قبل أرجل غريبة، استسلم عمروش وقدور نعمار، أهم شيوخ هذه القبائل أمام جسارة سيلفستري. أما القبائل الأخرى كبقيوة وتمسمان اللتين كانتا آخر معقل قبلي في اتجاه الحسيمة، فقد باتت ترسل مفاوضين من أجل السلام. لقد كان الريف، إذن، يسقط قطعة قطعة ويستسلم دون مقاومة.

كانت مناورات الزحف الإسباني قد وصلت إلى الشاطئ، ففي الثاني عشر من يناير تم الاستيلاء على سيدي حسين وراس أفراو، الذي كان عبارة عن كتل صخرية متوغلة داخل البحر. يوم واحد بعد ذلك، سقطت محايست Mehayast وازرو، وهي مواقع كانت ماتزال في طور التحصين. أما جبل أزرو الشامخ، الذي كان علوه يصل إلى الف وتسعة واربعين مترا، ذلك العش المهجور للصقور، والواقع على بعد تسع كيلومترات من انوال، فقد تم استغلاله عاجلا كمرصد للمراقبة اثناء الهجوم الواسع النطاق. وقد شاركت في هذه العملية كتيبة يقدر عددها بازيد من ثلاثة آلاف رجل.

خرج سيلفستري وزمرة من قواده من مليلية في اتجاه سوق انوناتن على متن سيارات كثيرة، وذلك على الساعة السادسة والنصف من تلك الصبيحة المشرقة والباردة من شهر يناير. كانت القوات العسكرية تتقدم بخطى ثابتة نحو إيزومار، الذي كان يفصل بين القواعد الإسبانية في ابن طيب ودار الدريوش[2]، وجهة تمسمان المجاورة لرأس كيلاطي Cabo quilates، عند المنحدرات الوعرة للحسيمة. كان تخطي جبال الحسيمة عبر الممر العالي لترغيست يعني النزول عند مصب النكور، اكبر دلتا في شمال المغرب. ومن هناك لم تبق سوى مسافة قصيرة، مسيرة يومين فقط من الحسيمة، ويسقط الريف.

عند مشارف إنوناتن، استبدل القائد وضباطه السيارات بالأحصنة، وصعدوا بعد ذلك إلى أعلى إيزومار. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحا، بعدها نزلوا وببطء في اتجاه انوال، حيث اصبحت الخيام الأولى بادية للعيان. وفي الوقت الذي كانت فيه فرق المهندسين والجنود المكلفين بالحفر منهمكة في بناء التحصينات الدفاعية، والمتمثلة في ثلاثة معسكرات وزعت على التلال الثلاثة. اقترب التنينتي كولونيل فيدل **دافيلا ارونلو**، بصلعته المشعة نحو الضباط، وهو يتخيل عتاب الجنرال له. كان رجل حرب متعقل ومحنك، عارض كل أساليب القتال الهجومية التي كانت تُنتهج آنذاك. ولد دافيلا في برشلونة في ابريل 1878؛ وترعرع في مدن عرفت بطابعها العسكري بين بورغوس Burgos، وسانطونا Santona، ولوغرونيو Logroño وفيطوريا Vitoria ، لم تكن حياته حياة ترف ورخاء، بل كانت حياة مملة. كان والده شخصية عسكرية بارزة في الحزب الليبرالي الذي سطع نجمه أثناء الحرب الكارلوسية guerra Carlista، أما والدته **إرنيي أروندو** Irene Arrondo ، فكانت تشجعه دائما على احترام مهنة أبيه، مع إضافة نصيحة كانت ترددها باستمرار لأبنائها الكثر، إذ كانت دائما تقول: «ابنائي، عليكم بالدراسة فإن الكتب بمثابة الخبز»[3].

دخل دافيلا الشاب غمار الحروب في كوبا وهو في ربيعه الثامن عشر، وبولوجه المدرسة الحربية العليا، عاد إلى وطنه سنة 1897 برتبة ملازم ثاني. وقد استغل دافيلا دراسته تلك فتمت ترقيته إلى درجة تلينتي كولونيل في ماي 1919. وفي يونيو الموالي تم تعيينه بمليلية مع النائب العام **ايثبورو** Aizpuru، الذي انسجم معه انسجاما تاما. وحينما عُوض أيثبورو بفرناندو سيلفستري، كان دافيلا حاضرا بمليلية وقال بعدها عن رئيسه الجديد إنه كان مندفعا ومشهورا بـ «قراراته المتسرعة»[4]. أما سيلفستري فقد لمس في دافيلا صراحته التي لم يكن يخشى فيها لومة لائم، وتميزه عن غيره، وإعداده الدقيق للمناورات والتخطيطات العسكرية. وقد حافظ دافيلا على كل مقومات شخصيته إلى ان تلقى أوامره بغزو انوال، التي شكلت الخطوة الأولى في الهجوم على الحسيمة. كان دافيلا حذرا ومحتارا إن صح التعبير، تدفعه مجريات الأمور إلى التبصر لا إلى الاندفاع في القتال، فعبر عن تشاؤمه الذي شهدت عليه انوال. وما إن رآه سيلفستري حسن المزاج حتى بادره بسؤال ينم عن مكر ودهاء: «ما بك لا تتكلم الآن؟»

ورغم إصراره المتواصل، لم ينزعج دافيلا الذي عقّب بقوله، «سيدي، لن اقول إن شعري قد انتصب، بل اقول إن الشعر قد خرج من ثنايا صلعتي»[5]، وواصل حديثه مستغلا هذه الساعة التي كان فيها سيلفستري، مبتهجا فاشار عليه بالإسراع في الاحتلال الفوري لسيدي إدريس، وإقامة كتائب منيعة هناك. وإذا أمكن، فمن الأفضل أن يكون الهجوم غدا لا بعد غد». كان دافيلا يريد أن يؤمن الحماية للجيش من جهة البحر، وأمام هذا الاقتراح وقف سيلفستري، يفكر مليا، لكن تخمينه لم يدم طويلا، إذ تدخل الكولونيل مورالس Morales في الحديث، وصرح قائلا، «هذا شيء علينا تدارسه»[6]. وهكذا استمع كل من الجنرال والتنينتي كولونيل لما كان يريد قوله مدير الأمن.

كان الكولونيل **غابرييل مورالس إي منديغوديا** Gabriel Morales y Mendigutia مثل سيلفستري، كوبي الأصل. ازداد في الثاني عشر من دجنبر عام 1866 بسنتي سبريتوس Santi Spritus بولاية سانتا كلارا، وكان ابن احد العسكريين على غرار سيلفستري [7]. كان مورالس عضوا في هيئة أركان الحرب، واشتهر في حرب إسبانيا مع أمريكا الشمالية، حيث برز بقتاله المستميت والهادف إلى إحكام القبضة على خط كاوطو Cauto حيث النهر الذي كان يفصل بين الجهة الشرقية ووسط الجزيرة، وقد كانت المنطقة بؤرة توتر بين الإسبان والممبيسس mambises (حركة المقاومة).

في سنة 1899، عاد مورالس من كوبا بترقية عسكرية جديدة، حيث تم توشيحه بثلاث نياشين حمراء. علاوة على شهرته كضابط حازم وثابت. هذا وقد قضى ما تبقى له من مسيرته المهنية بإفريقيا، إذ كان واحدا من أبرز القواد الذين نبغوا في العمليات الحربية التي دارت رحاها في الكوروكو Gurugo. وفي السابع والعشرين من يوليوز 1909، كانت الحادثة الحاسمة، إنها موقعة إلبرانكو دي لوبو El Branco de Lobo التي أصيب حصانه فيها بجراح، ونجا هو بأعجوبة وسط عاصفة هوجاء من الطلقات النارية الريفية التي استهدفت القوات الإسبانية. ومن هناك كانت ترقيته إلى تلينتي كولونيل بفضل إنجازاته الحربية، ومنذ ذلك الحين وهو مولع بإفريقيا وكل ما له علاقة بالمغرب. كان مورالس شغوفا بالبحث التاريخي، فارخ لمدينة مليلية، والف كتابه **"معلومات عن تاريخ مليلية"**. ومنذ اكتوبر 1918، عمل عضوا في الأكاديمية الملكية للتاريخ[8].

كان موراليس رجلا بشوشا، رصينا ومثقفا. كان يتكلم ويترجم من الفرنسية والإنجليزية، ويتقن العربية والأمازيغية، فهذه اللغات كان يتحدث بها بكل طلاقة وسلاسة، علاوة على نفوذه وسيطرته التامة على الرؤساء المحليين للمنطقة.

كان موراليس يكبر سيلفستري بخمس سنوات، إذ كان عمره خمسة وخمسين ربيعا، لكنه كان يبدو اكبر من ذلك بعشرة او خمسة عشر سنة. كانت تبدو عليه علامات التعب، كما كان دائم الشك والارتياب. عيناه فقط هما اللتان كانتا تضفيان على جسده المترهل طابع الحيوية. كان بقامته القصيرة وجسده الهزيل لا يتجاوز كتف سيلفستري، فيبدو وكانه نجله. كان موراليس رجل حرب بامتياز، تشع صفحة خدماته بالصفاء، الشيء الذي اهله لتقلد منصب قائد عام يتباهى ببذلته الرسمية المطرزة الأكمام، غير ان طبعه اللطيف الميال إلى الخجل والارتباك، والشديد التهكم، والخالي من الطموح، حال دون منحه تلك الدرجة التي كان يستحقها عن جدارة. لكن موراليس كان يفتخر دائما بميزة اخرى تتلخص في الولاء الذي كان يقدمه له كل من الضباط والجنود المنضوين تحت لواء الشرطة المركزية التي كان يراسها، اضف إلى ذلك الاحترام الصادق الذي كان يكنه له شيوخ الريف الذين اعتبروه دائما شخصية قديرة تستحق الطاعة، وقد كانت عائلة عبد الكريم من أشد العائلات توددا له، وقد استطاع موراليس تحقيق تقارب مثمر مع سكان المنطقة بفضل موقعه كرئيس للأمن. ومن إنجازاته، مد جسور الحوار مع قبائل بني اوليشك، وتمسمان وبقيوة، وخاصة بني ورياغل، الحامية الكبيرة للحسيمة. كانت إسبانيا قد استوطنت مليلية منذ اربعمائة واربع وعشرين سنة، لكنها لم تستطع قط التقرب من الريف، فجاء موراليس وارسى دعائم الصداقة. وذلك ما عجز عن فعله جنراله سيلفستري.

وفاء وإخلاص متشابهين
ووجهات نظر مختلفة

كان موراليس يحس بخطر توغل طابور عسكري تعوزه كل مقومات الجيش في حفرة أنوال. كما كانت تؤرقه فكرة التخبط في هذه الهوة الشاسعة، دون ربط اية علاقة مسبقة مع من يستطيعون تحويل هذه الحفرة إلى فخ قاتل. كان موراليس يفكر مليا في

هذه الأمور، في الوقت الذي كان فيه كل من دافيلا وسيلفستري يراقبانه في تلك الصبيحة الشتوية في انوال. كان يبدو اكثر رجالات الحرب شيخوخة في إسبانيا، لأنه كان يحمل على كاهله كل تعب وإحباطات الجيش.

وبعد الاستماع إلى شكوك مورالس فيما يتعلق بالهجوم وتوسعاته، تدخل دافيلا واوضح انه مادام القتال قد وصل إلى مشارف انوال «بالرغم من معارضتي الشديدة»، فالأولى بنا ان نسيطر «وبعجالة على سيدي ادريس». اما مورالس؛ فكانت فكرة الوصول إلى انوال تزعجه كثيرا[9]. وانتهى الحوار بتدخل سيلفستري الذي علق على تحفظ مساعديه بانتقادات قاسية وفكاهية في الوقت نفسه، واكد عزمه على المضي قدما نحو الحسيمة.

قام كارلوس لاثرو مونيوث Carlos Lazaro Muaez، قائد المشاة والمصور الكبير، بالتقاط صور كثيرة لتخليد تلك اللحظة[10]. كان الوقت زوالا والفصل شتاء، وقف كارلوس على إحدى تلك التلال الثلاثة بأنوال، فالتقط صورة للأبطال[11]. ظهر سيلفستري بجسده الضخم وهو يشير بيده إلى جهة الغرب، إلى نقطة غير محددة. كان بجواره نفارو Navarro، القيادي الثاني، بينما كان خلفه القائد سباطي Sabaté، رئيس هيئة الأركان الحربية، وكان طويل القامة مثل سيلفستري. اما في الجهة الأمامية، فكان هناك دافيلا الذي كانت تظهر عليه علامات الانكسار، وإلى جانبه مورالس في مقدمة هذا الخط من الجنرالات، وهو يوجه نظراته إلى اعلى نقطة في جبل إيزومار. كان يبدو غارقا في افكاره، وقد اختلطت الأمور في راسه بين توقعات ممكنة وتحديات محتملة.

بعد تناول وجبة خفيفة (صعبة البلوغ والاجتياز والتخطي) كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف زوالا حيث انتشرت الفرق العسكرية، وبعد مضي ساعة من الزمن، خرج من أنوال فيلق مهم من الجيش، وبقيت هناك كتيبة صغيرة. وبعد هنيهة، عادت كل الفرق العسكرية إلى ابن طيب، الذي كان يعد المعسكر الرئيسي. لم يكن دافيلا ومورالس ممن يصرحون بنواياهم إلى الآخرين، لكن مجريات الأمور في انوال جعلتهم يعانون من تانيب الضمير. إذ لم تكن ضراوة العمليات العسكرية التي انطلقت، لتنسيهم انهم هم المسؤولون عن كل ما يقع هناك. وهكذا كتم دافيلا همومه، بينما ابى مورالس إلا أن يكتب هواجسه لاحقا.

كان موارالس يحب ويحترم الجنرال سيلفستري، حيث إن سنّه وتجربته جعلته يفصح عن عاطفة ابوية خالصة. اما دافيلا، فلم يكن يحترم الجنرال إلا لرتبته العسكرية، كان في وفائه للكومندان يخلص للرتبة لا للشخص في حد ذاته. وهكذا، وبعد مرور عدة سنوات، وبعد مثوله امام لجنة تقصي الحقائق، ادلى بتصريحات تفيد ان ،القدرات العسكرية للجنرال سيلفستري بنيت على اسس هشة،. وتاتي حينئذ احداث (السادس عشر من شتنبر 1923)، لتؤكد ان سيلفستري كان ذلك البطل الذي عُجنت قدماه بالرمل لا بالوحل كما كان متداولا، وثبت ان الحظ كان حليفه دائما[12].

أما سيلفستري فكانت معاييره مختلفة، حيث نجده -وإبان الاستيلاء على أنوال بأيام قليلة- يدعو إلى عقد مجلس زعماء مليلية، الذي حضره وفد من قواد الجيش ورؤساء الفرق العسكرية، فضلا عن هيئة أركان الحرب برمتها، ويعلن رفضه ترقية التنينتي كولونيل دافيلا، الذي اندهش لهذا الاقتراح[13]، حسب شهادات البعض. وهكذا، وقّع سيلفستري في الفاتح من فبراير الموالي، على ترقية دافيلا إلى رتبة كولونيل، كما انه وفي المجلس نفسه، وبقرار كله امتنان وود، اقترح ترقية مورالس إلى مساعد عام. الترقية والاعتراف تاخرا في الوصول كثيرا إلى صاحبهما. كان مورالس الرجل الوحيد، من بين الرجال الثلاثة، الذي يعرف الريف وأصحابه حق المعرفة، نظرا لتاريخه واحتكاكه اليومي معهم. ونظرا لخبرته تلك، كانت له المشورة والنصيحة وليس إصدار القرارات. لقد كان يحب المغرب من قلبه.

جغرافيا ، إصرار أرض متمردة على البقاء حية

"مارويكوس Marruecos"، عبارة إسبانية اشتُقت من اسم مدينة مراكش، وهي كلمة بربرية تعني المرور بسرعة وبحذر[14]. وتاتي دلالات العزلة والصمت لتتفق مع عبارة المغرب، وهي كلمة تنحدر من الأصل العربي الذي يعني الغرب، ويرمز لفكرة البعد والغربة والغموض.

كانت كلمة المغرب توحي بالانزواء أو العزلة تقريبا. من هنا، عبارة المغرب الأقصى (في اقصى الغرب). أما الشمال الجغرافي للمغرب، فكان ينقسم إلى خمسة مناطق رئيسية لها مميزاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخاصة بها:

- منطقة جبالة في الغرب، وتضم (مثلث طنجة - تطوان والشاون).

• منطقة اللوكوس جنوب سابقاتها، وتضم (جهة أصيلا - العرائش والقصر الكبير) كما كان يصطلح على هذه الجهة بالغرب.

• منطقة غمارة، المتاخمة لجبالة والممتدة شرقا.

• منطقة الريف (عند الحدود) الواقعة وسط كل ما ذكرناه، وهي مساحة تضم اعلى القمم الجبلية -"تدغين"، الذي يصل علوه الفين وثلاثمائة متر، والتي سمحت بتكوين منخفض شبه قاحل يعرف (بانوال) في جهتها الشرقية.

• بلاد صنهاجة، وتشمل المناطق التي كانت تكثر بها جبال الريف المتوسط والريف الغربي، دون أن تلامس الجنوب الأقصى حيث ورغة. هذا وقد كانت جبالة أكثر المناطق خصوبة، في حين كان الريف اكثر المناطق جفافا. وبخصوص المناطق التي كانت تقع ما بين ملوية واللوكوس، فإنها كانت شرق وغرب المناطق الخاضعة للحماية الإسبانية، وقد كانت إحدى وسبعون قبيلة[15] تقطن تلك المناطق[16]، وكانوا إلى جانب الإيريتيريين اجود مقاتلي إفريقيا بلا نقاش، هذا وقد استطاعت بلاد جبالة والريف ان تفرض هيبتها على باقي المناطق، وذلك لجملة من العوامل أهمها: استفادتها من الانتساب إلى عائلات الأولياء الصالحين، ذلك النسب الذي أضفى عليها شرعية دينية، فضلا عن ثرواتها الفلاحية، ومداخيلها الجبائية المفروضة على العشائر المتمردة، علاوة على قدراتها العسكرية والقتالية في دحر الغزاة بكل تفوق ونجاح. كانت منطقة جبالة تغطي الجهة الغربية، في حين كان الريف يغطي الجهة الشرقية، وكلتا المنطقتين شكلتا قوة انثروبولوجية، ثقافية وسياسية. ومن هناك جاءت عبارة (ريفي-جبلي) للدلالة على مجمل القبائل المكونة لشمال المغرب.

من عبارة ماوروس Maurus اللاتينية القديمة، اخذ الإسبان العبارة الشعبية مورو Moro، التي استعملت نعتا وصفة نسب. في حين احتفظ علم الطوبونيميا بعبارة موريطانيا. بالنسبة للإسبان، استعملوا لفظة موروس moros. أما الفرنسيون فاستعملوا لفظة مور maure، بينما استعملوا البريطانيون موور أو موورش moor O moorish. هذا وقد كان على كل من الريفيين وجبالة ان يعدوا العدة لغزو أوروبي مزدوج، لكن رغم كل هذه التقلبات الهائلة، فإن نمط حياتهم لم يتغير.

كانت الأقاليم الشمالية للمغرب مناطق يطوقها البحر، فتشكل ذلك الفضاء الذي احكمت الطبيعة إغلاقه، وحصنته مقاومة شعبه. وكانت عوامل التعرية والتآكل قد

شوهت معالم تلك الأرض، باستثناء ما خفي من المسالك الجبلية، التي بقيت في مأمن من عوامل التعرية، علاوة على الهزات الأرضية المتواصلة؛ كل هذه العوامل، جعلت هذه الأرض تبدي وعورة واستحالة في ولوج منطقتها الوسطى عبر الساحل، حيث منطقة الريف. وكما يختلف بستان عن أرض جرداء، كانت معالم مدن المحيط الأطلسي (من طنجة واصيلا والعرائش) وامتداداتها الداخلية حتى تطوان وشفشاون تختلف عن معالم مدن وتضاريس الريف من (ترغيست، دار الدريوش والناظور) في فصلي الشتاء والربيع. أما في الصيف الحار، فكانت الأمور تتساوى.

كان الانتقال من فصل إلى آخر في بلاد جبالة، يخفف من حدة "العدوان" الذي تشنه طبيعة تلك الأرض القاسية على الإسبان، بخلاف الريف، الذي كان دائما يعاني من هذه القساوة طيلة السنة. اللهم إذا استثنينا الشهور الممتدة من دجنبر إلى فبراير، والتي كانت تجود بغطاء نباتي بسيط يسر الناظرين.

كانت هذه الأرض تفتقر إلى مصادر مائية، فاختلال الطبقات الأرضية وسنوات الجفاف الطويلة، اتت على كل الأراضي. وإذا حصل ووجدت قناة مائية في تلك البقاع، فإن هذا الحدث كان يعادل العثور على كنز عظيم. وقد تميزت هذه المنطقة المتمردة جغرافيا بعدم خضوعها السياسي لأي قوة أجنبية، سواء كانت إفريقية أو غير إفريقية (اوروبية). وكانت تقطن تلك الربوع ساكنة يفوق عددها نصف مليون نسمة[17].

كانت هذه البقعة الشمالية تُعرف ببلاد السيبة، (منطقة بلا قانون ولا نظام) في الاصطلاح الكلاسيكي، وذلك نسبة إلى الفوضى التي كانت تعم المنطقة. اما فيما يخص باقي اقاليم الساكنة البربرية من الأطلس الكبير والمتوسط، والتي كانت تمتاز بكونها مسرحا للنزاعات، فكان يطلق عليها اسم بلاد المخزن، فقد كانت تخضع خضوعا تاما لنفوذ السلطان -الحاكم في فاس. وإذا اخذنا بعين الاعتبار هذا التقسيم الذي كان في حقيقة الأمر استبداديا وغير عادل، فإن المغرب برمته كان بلاد السيبة. غير ان هذه الفوضى لم تطل العشائر ولم تمس حرياتهم، فظل المفهوم منحصرا على الفوضى في نظام الحكم، الذي طبع الريف وعاداته منذ الأزل.

منذ قرون عدة، ورجال الشمال يعيشون بفضل غنائم الحرب. كانت الشجاعة والدهاء والمهارة في القتال أسلحتهم في الحياة، وكانت حقولهم الجافة تمدهم فقط بما يحتاجونه

من القوت الضروري. وكان هؤلاء الرجال يتناوبون على الري وعلى زراعة البساتين التي يجنون منها البصل والحمص والفول والفلفل والطماطم والجزر.

وكانوا يهتمون كذلك بالبحر وخيراته، لكن رغم مهاراتهم في الصيد، إلا أن طرقهم كانت بدائية وضئيلة الإنتاج. وبديلا لذلك، وجهوا اهتمامهم نحو القنص، واستعملوا فيه عصا طويلة مهيبة الشكل، كانت تُربط بسلك نحاسي وتصوب بقوة كبيرة ودقة مذهلة نحو الفريسة، التي تعددت أصنافها بين طيور وأرانب برية[18].

كان باستطاعة هؤلاء الرجال أن يمكثوا في المكان الواحد مدة يومين أو ثلاثة، لا يأكلون سوى بعض الفواكه الجافة أو القديد (وهو اللحم المجفف)، ينتظرون مرور العدو الدخيل تحت زناد بنادقهم ليجهزوا عليه، وهكذا، وبواسطة بنادقهم الثقيلة من نوع *ريمينغطون* -وهو صنف أتت به إسبانيا لاستعماله في حرب مليلية عام 1893، كانوا يستطيعون (وعلى بعد مائتي متر) النيل من رأس شخص معين، كما كان بمقدورهم الفتك بأحد أعضاء جسده على مسافة قد تصل إلى ثمانمائة متر. والعجيب في الأمر، أنهم كانوا يحسبون وبمهارة عالية وقت سقوط القذيفة وانسيابها مع الهواء.

كان صدى الطلقات النارية الصادرة من البنادق الكبيرة يشبه هذا الصوت، ب-كوم، والمصدر كان هو الريمينغطون، وهو سلاح اشتهر به الريفيون، وكان عبارة عن بندقية من عيار أحد عشر مليمترا، وذخيرته قد تتسبب في جروح بالغة الخطورة. ومن هذا الصوت كذلك (ب-كوم)، وجاءت عبارة باكو Paco، نسبة إلى رجال المقاومة غير العسكريين. وعبارة بكاثو Pacazo، التي تعني صدمة الضحية. أما عن استعمال البنادق في القنص. فهذا الأمر لم يكن مطروحا بتاتا، وذلك لأن الخراطيش كانت مكلفة جدا.

كان الريفيون يزرعون الحبوب (القمح والشعير)، وخاصة الشعير الذي كانوا يعجنون منه خبزا شهيا ومتعدد الأصناف، وبما أن الحروب كانت تستقطب كل اهتماماتهم، فإن زراعة الحقول لم تكن تأخذ من وقتهم سوى ثلاثة أو أربعة أشهر في السنة، مما يسفر عنه ضآلة الإنتاج. أما الأشجار، فكانت تحظى باهتمامهم الكبير، كانت في نظرهم نبتة مباركة، لأنها تتحمل قساوة ذلك الطقس، كما أنهم كانوا خبراء بارعين في شذب وتطعيم وتسميد تلك المساحات الضيقة المخصصة للأشجار. وكانوا يجنون الزيتون بإتقان ومهارة فائقتين -في المنحدرات الجبلية- وذلك لاستخراج الزيت الذي كان غذاء أساسيا في كل وجباتهم اليومية.

كانت شجرة الزيتون واللوز والتين أشجارهم المباركة. ومن أعالي الجبال باعتبار كفاءتهم في تربية النحل، كانوا يستخرجون عسلا خالصا. كما انهم كانوا يهتمون بزراعة الكروم (داليات)، ولكن فقط للاستفادة من العنب لا لعصره واستخراج الخمر الذي حرمته الشريعة الإسلامية، كتحريمها القاطع لأكل لحم الخنزير. ومن الكروم كانوا يصنعون كذلك الزبيب، الذي كان يعد واحدا من أهم مدخراتهم الشتوية المعروفة باسم الفواكه الجافة[19].

كان الجفاف والجوع يهددان الريف دائما. وهكذا عانت المنطقة ومدة ست سنوات متتابعة -من 1915 إلى 1920- من ندرة الأمطار، الشيء الذي تسبب في إتلاف المحصول الزراعي. وقد تفاقم هذا المشكل ليبلغ ذروته سنة 1917، إذ لم يكن من الممكن جمع حصة ولو هزيلة من الحبوب[20]. كانت منابع الماء قد جفّت، وتحولت الأرض إلى صحراء قاحلة. وكان منظر الغابة بنباتاتها الصحراوية الطويلة والكثيفة هو الوحيد المهيمن، إضافة إلى بعض المخلوقات السامة كالعقارب والجراد والأفاعي. كان لجفاف ربيع 1920، أثر سيئ على المحصول الزراعي الذي ضاع بالكامل، فارتفعت بذلك أثمان المواد الغذائية وتزايدت خيبة أمل القبائل[21]. وبوصول سيلفستري إلى أنوال، كانت المجاعة قد سبقته إلى هناك.

في الخريف الماضي، كان الإسبان قد احتلوا مدينة شفشاون، تلك المدينة ذات الإشعاع الديني لشمال المغرب، وذلك في الرابع عشر من أكتوبر 1920. وتعويضا عن هذه الخسارة، جادت السماء على الريف بغيث وفير، لكن الإسبان كانوا قد وطدوا أقدامهم في أنوال، كان يكفي هجوم آخر من الجنرال ذو الشوارب الكثيفة لإحكام القبضة على الريف. جرت الأحداث في الشهر الخامس من السنة الهجرية، وبالضبط في الخامس عشر من جمادى الأولى لعام 1339 هجرية (هجرة الرسول إلى المدينة في السادس عشر من يوليوز 622). حيث كان الريف يتضور جوعا ويترقب العدو اللذوذ.

رجال الشمال:
رجال لا يعرفون الخضوع والاستسلام

في الذهنية الإسبانية، كان سكان جنوب مضيق جبل طارق موروس قبل كل شيء. كانت الواجهة التي تطل على المحيط الأطلسي في زمن الفنيقيين تعرف باسم مَاوْرو

Mahur، والتي اشـتـقت منهـا كلمـة **مـاوروس** Maurus اللاتيـنيـة، وحـيـنمـا دشنت رومـا موريطانيا باسم **طنجيتانا** Mauretania tingitana (المغرب)، جعلت من **نوميديا** Numidia (الجزائر) نقطة لأهم مخازنها الاستراتيجية للحبوب. وبمرور الأيام ودخول **وندال جينسيركو** Genserico، تم القضاء على تلك الأمم عام 427، وبفقدانها لمخازنها انهارت روما في 476. وهكذا، اعتبر **بريني** Pirenne، الحدث بمثابة الضربة القاضية[22]. ومنذ ذلك الحين، أصبح المغرب أرضا معادية لأوروبا.

كان يسود بين العشائر الريفية نظام تحالف معقد، هدفه المحافظة على وحدة القبائل، وإعدادها لمواجهة جماعات اخرى[23]، كانت العائلات في تجمعها تشكل بطونا، والبطون كانت تنضوي تحت لواء القبائل التي كان يدير شؤونها قائد يمثل السلطة السياسية والعسكرية. كانت تعليمات استغلال الأراضي والمياه، تخضع لما يعرف بالحق (القانون) الذي يتماشى مع احتياجاتهم وتقاليدهم[24]، وكان العُرف يتحكم في كل شيء. وانطلاقا من شواطئ مدينة طنجة، ووصولا إلى شواطئ الجزر الجعفرية في شمال المغرب، كان الناس يعيشون كما لو كانوا داخل ثكنة عسكرية يحتمون فيها، ويعتزون بحريتهم القبلية، وتلك كانت أسلحتهم ضد العدو.

وأمام أي غزو أجنبي، كانت القوات الدفاعية لمجمل القبائل تتحرك لمواجهة العدو، فتتم دعوة الجماعات، وتؤطر الفرق التي كانت مقسمة إلى افخاذ، تعرف باسم "الخُمس - الربع - أو الفرقة"، وكل كان يهرع لحمل السلاح في شكل وحدة عائلية حربية[25]. كان العراك ينتهي بسقوط الخصم، وكان الريفيون لا يفرقون بين الخصم المهزوم أو الخصم الميت.

كان الريفيون مسلمين، متعصبين لدينهم. وكانت زواياهم أي رابطاتهم الدينية تحظى باحترامهم الكبير وولائهم الدائم. كما كانوا يظهرون توقيرهم الشديد لأوليائهم الصالحين (بالأمازيغية **إمرابدين** Imrabdhen)، المعروفون عند الإسبان باسم **مورابيطوس** Morabitos، وهو اسم اشتق من العربية (المرابطين جمع مرابط). كما أنهم كانوا يحترمون الجن المقيم في الأشجار الكبيرة والصخور النائية وعيون الماء الدفينة. وكانوا يحبون الحيوان حبا جما ويعتنون به، وخاصة القطط التي كانوا يفضلونها على باقي الفصائل الحيوانية.

كانت عقيدتهم الدينية مستوحاة من أركان الإسلام الخمسة، التي تنص على أداء خمس صلوات في اليوم -مع الوضوء- بالإضافة إلى صوم شهر رمضان، وأداء الزكاة للفقراء، والحج إلى مكة ولو مرة في العمر، وقبلها جميعا، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا نبيه ورسوله. وعلى مستوى آخر، كان الجهاد هدفا نبيلا لديهم، وركنا تكميليا والتزاما مطلقا بشقيه، الجهاد الأكبر، وهو مجاهدة النفس وتغلبها على نقائصها، والجهاد الأصغر، وهو الحرب المقدسة ضد العدو الكافر[26].

كان الريفيون يُعزون شيوخهم كثيرا ويعتنون بهم إلى آخر يوم في حياتهم. والشيخ عندهم، كان منبع تجارب قيمة يستفيد منها كل أفراد العائلة، الذين يدينون لهم بشرف الانتساب إلى ترفيقت (جمع ترفيقن)، وهو شرف يُختزل في الاسم العائلي للقبيلة، بني (اي اولاد فلان) او آيت (قبيلة...).

كان شمل عائلاتهم يرتبط بعقدة النكاح، وكانت طقوس الخطبة والمهر تخضع لحسابات صارمة وبرغماتية.

مثلا، إذا كانت العروس عذراء، كان الزوج يَجُوب البلدة بطلقات نارية من بندقيته المظفرة، وإذا حدث ولم يصل صدى العيار الناري في غضون الليلة الأولى، فإن بوادر النزاع بين كلتا العائلتين كانت تلوح في الأفق. وبالزواج كانت المراة تلتحق بعائلة الزوج للعيش معهم، وبتعدد أفراد هذه العائلة، كانت الروابط الأسرية تتوسع وتتقوى معها شوكة الأسرة، التي تصبح سامة في حالة الإساءة إليها. كان الرجل منهم إذا تزوج بأكثر من امراة يسهم في تشكيل فروع أسرية متعددة ومختلفة، يكون هو جذعها واصلها الوحيد الذي لا يتجزأ.

كان الأمازيغي بطبيعته لا يتزوج بأكثر من امراة واحدة، قليلون من كانوا يستفيدون من ترخيص القرآن بالزواج من أربع. ذلك أن بلاد جبالة والريف كانت فقيرة جدا، وقلة هم الرجال الذين يسمحون لأنفسهم بالتمتع بهذا النعيم الاجتماعي. كان الرجل الريفي-الجبلي يستغل تعاليم القرآن ليثقل كاهل المراة بالأعمال الشاقة: حمل الحطب، والاعتناء بالحيوانات الأليفة، والبستنة، وجني المحصول، والبيت وتربية الأطفال. لم تكن المراة تعني شيئا خارج البيت، ولم يكن أحد يستطيع النظر إليها، وإلا كانت إهانة خطيرة. أما داخل البيت، فكانت الأنثى هي كل شيء، وليس لأحد الحق في اللجوء إليها أو التحدث معها دون إذن من زوجها. وجرت العادة أن يرفض الزوج دائما هذه العروض.

كان فتيل النزاعات يشتعل لأتفه الأسباب، وتذهب ضحيته عائلات بكاملها. فبسبب مقتل كلب دخلت عائلتان من قبيلة آيت عبد الله في حرب إبادة، وكانت الحصيلة وفاة اثنين واربعين شخصا من جهة، واثنين وستين آخرين من جهة أخرى. واستمر الصراع الدامي حتى لم يبق على قيد الحياة سوى الشيوخ والنساء والأطفال، ومن بقي حيا من تاريفيت المهزومة، وجب أن يغادر الريف[27]. وكثيرون هم الريفيون الذين استوطنوا مناطق عدة من المغرب نتيجة هروبهم من نزاعات مماثلة، ونادرا ما كانوا يرجعون إلى أرضهم، لكنهم لم يضمروا أي حقد للريف.

كان الريفيون اناسا كرماء لا يترددون في إعطاء زوارهم افضل ما عندهم من طعام، حتى وإن كان الزائر عدوا. فهذا ما تقتضيه أعراف المنطقة. لكن الحال -إذا كان الضيف عدوا- يتغير بحلول اليوم الموالي، أو حتى في ليلة الوليمة نفسها، حيث لا يبقى العدو صديقا، ولا تُغتفر اخطاؤه ابدا، ولا غرابة في ذلك، فتلك هي قوانين الريف، رد الصفعة بالصفعة والكيل بمكيالين. فكل من تسول له نفسه الاعتداء على أحد من الريفيين، كان يعرف أن مصيره سيحل عاجلا ام آجلا[28]. وللأخذ بالثار، لم يكن الوقت يعني لهم شيئا، فكلما سمحت الفرصة بذلك، يتم الانقضاض على العدو.

كان سكان الشمال يعتبرون انفسهم إمازغيين Imazigen، "شعب"، وكانت اللغة البربرية المتداولة في الشمال الغربي، قواسم صوتية مشتركة مع إمازيغن، جمع تامازيغن بمعنى الناس الأحرار. وكانت هذه اللغة هي سمتهم المميزة، وحصنهم المعنوي الذي يحتمون به أمام الأعداء في عملية دفاع تشبه تلك التي انتهجها إخوانهم في الثقافة نفسها في (الجزائر)[29]. كانوا يعتزّون أيما اعتزاز بجذورهم الثقافية، وكانوا لا يطيقون عقوبة السجن -إذ إن فكرة الحرمان من الحرية كانت تثير غضبهم- على الجرائم الفظيعة. كانت الحسابات تصفى بقوة السلاح، ولم يكن في الريف مكان للسجون[30].

ومن أصل ساكنة تُناهز أربعة ملايين نسمة سنة 1921 كان البرابرة الأصليون يقدر عددهم بمليون وسبعمائة وخمسين الف نسمة، في حين البرابرة المستعربون بلغوا مليون نسمة، وما تبقى كان من "العرب الأصليين"[31].

وباختصار، كان الريف أرض التمرد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، والدخول إليه كان محظورا سواء على السلطة المركزية أو المستعمر الإسباني-الفرنسي[32]. ففي الشمال الإفريقي، لم يكن الريف وجبالة سوى بؤر للتوتر، إذ كان العصيان كبيرا ومستديما.

عائلة من أجدير: عبد الكريم

كانت عائلة آيت ورياغل المعروفة كذلك باسم بني ورياغل، من اشهر العائلات الريفية المقيمة بمنطقة الحسيمة. وبالتوغل اكثر داخل المنطقة، كانت قبيلة أجدير تظهر جليا للعيان، ولم يكن ممكنا اعتبار هذه القبيلة مدينة صغيرة، لأنها كانت تفتقر إلى الكل مقومات المدينة، من قلة السكان الذين لم يكن عددهم يتعدى الف نسمة، ومن جهة اخرى لغياب الحصون كذلك. اما فيما يخص ما تبقى من ساكنة بني ورياغل، وعددهم يناهز اربعين الف نسمة، فكانوا موزعين على الوديان والتلال والجبال المجاورة. كان وادي النكور الشهير، (وبغض النظر عن جريانه غير المنتظم)، يعاني من خراب كبير في فصل الربيع، وجفاف طيلة الصيف والخريف، وكان يصب في خليج الحسيمة. ولم يستطع احد على مر ثلاثة عشر قرنا ان يغير منه شيئا.

اعتنقت قبيلة بني ورياغل الإسلام على يد عقبة بن نافع، الذي مر بمناطقها الجنوبية اثناء انسحابه نحو الشرق المغربي سنة 683م، وذلك بعد أن وصل في السنة الماضية إلى شواطئ طنجة[33]، فهُزم عند مشارف طاهودا Tahuda (قرب بيسكرا Biskra) في الشمال الغربي للجزائر، فسقط هذا البطل المسلم الذي كان يشبه في ملاحمه البطولية رولاند مع كل اتباعه. لم يكن لتاسيس مدينة فاس سنة 789م على يد المولى إدريس الأول -الذي كان اول عاهل مغربي مستقل- أثرفي نفوس الريفيين، وكذلك كان الحال مع إحداث إمارة النكور سنة 726هـ على يد مغامر من أصل يمني يدعى صالح بن منصور الحمياني -الذي أبيدت إمارته على يد يوسف بن تاشفين[34]، مؤسس دولة المرابطين- . كل القوى العظيمة من مرابطين وموحدين، ومرينيين وامويين، وسعديين وعلويين، مروا بجهاتهم مرور الكرام. كما لم تستطع كل تلك الإيديولوجات المتتالية أن تغيرهم. فاندثرت كلها أمام التفوق الحربي للريف.

كانت عائلة عبد الكريم، وأصلها من اجدير، من أهم اسر بني ورياغل. كان الأب -المزداد سنة 1860- شيخا وقورا. ورغم معاداته للأوروبيين، فقد قرر ان يعلم أبناءه، "محمد" الابن الأكبر، والثاني "امحمد" في مدارس المستعمر الإسباني، الذي كان في نظره اقل فظاعة من غيره من المستعمرين. درس محمد في فاس، بعدها انتقل إلى مليلية، وفي كلتا المدينتين كان متفوقا، وكان مثل اخيه امحمد متمكنا إلى حد كبير من اللغة الإسبانية، وكلا الأخوين كان لهما خط جميل، وكانا يتكلمان الإسبانية بلكنة متميزة.

كان الكولونيل موراليس يعرف جيدا الأب والابن الأكبر، وكان يتراسل معهما باستمرار. كان السي أو السيد عبد الكريم الخطابي، المنحدر من فخذة آيت خطاب، قبالة الحسيمة (رئيس القبيلة) وكان تكوينه في الدراسات الإسلامية. اشتغل فقيها (مختصا بالقضاء الإسلامي برتبة قاض)، وكان ينظر في النزاعات القبلية. وباعتباره واحدا من القادة المتمرسين، فقد وقع عليه الاختيار لتمثيل القبيلة في التجمعات، وذلك لمكانته وتفقهه في أمور الشريعة الإسلامية واحترامه لها[35]. وعند انقضاء مدة حكم الملك العلوي التاسع مولاي الحسن الأول حوالي عام 1894، تم تعيينه قائدا، وهو منصب يعادل الرئيس، ولكن بمفهوم «القاضي السياسي» الذي يمثل الجكومة. ومع مرور الأيام منح رجال الخطابي الأوفياء، محمد الابن الكبير، لقب الخطابي لهدف سياسي محض. إذ إن ذلك الاسم كانت له دلالات بعيدة لها علاقة بصلة القرابة مع واحد من الخلفاء الراشدين (عمر، من أصحاب الرسول) فجعلوا من محمد بن عبد الكريم المرشح السياسي والديني المثالي لنيل درجة سلطان أو أمير الريف[36].

كان محمد بن عبد الكريم الخطابي رجلا خشن الطباع، متوسط القامة، قوي البنية، بيضاوي الوجه، لا يهتم كثيرا بمظهره، عذب الحديث، مثقفا وحادا، وكانت له نظرة ثاقبة مباشرة. ولد محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1882 في أجدير، أمام العَلَم الإسباني الذي كان يرفرف خفاقا فوق الجبل الذي احتله أندريس دافلوس Andrés Davalos سنة 1673.

لم يكن والده بخيلا ولا مبذرا، بل كان الهدف من ذلك توفير المصاريف لولديه، حيث تمكن من إرسال محمد إلى مدرسة فاس لتلقي العلم، وامحمد إلى مدريد لدراسة الهندسة المعدنية، لكن وبفشل الاتفاقيات المبرمة بين كل من عائلة عبد الكريم والجنرالات الإسبان سنة 1919، خابت كل آمال الأب.

وهكذا عاد امحمد من مدريد -قبل احتلال انوال بسنتين- دون أن يكمل دراسته، مخلفا وراءه شهادات صريحة على اجتهاده ومثابرته. أما فيما يخص محمد، فإلى جانب عمله في المدرسة مدرسا للأمازيغية في مدينة مليلية (ابتداء من 1908)، فقد تم تعيينه سنة 1904، قاضيا للقضاة، مما خول له كل الصلاحيات للنظر في الشؤون المحلية. وبالإضافة إلى كل هذا، عينه كانديدو لوبيرا Candido Lobera (مؤسس ومدير يومية تلغراف الريف)، رئيسا لتحرير الصفحات التي تصدرها جريدته بالعربية. وفي يوليوز 1911. وتزامنا مع الأزمة التي اندلعت في أوروبا، قبل الحرب، بسبب التحدي الصارخ

الذي شكله وصول بارجة المدافع الألمانية بانثير Panther إلى اغادير، كتب محمد مقالات لاذعة ضد سياسة باريس[37]. اطمأن سيدي عبد الكريم الذي كان دائما يطمح لأن تكون لولديه هيبته نفسها ومكانته بين اهالي اجدير، إلا أن هذا النفوذ وهذه المكانة ما لبثت أن تقلصت عام 1921، بسبب مجموعة من التراكمات لها علاقة بسلسلة قديمة من الاعتداءات والإحباطات والتهديدات والانتقامات. فأحست عائلة عبد الكريم التي كانت صديقة لإسبانيا بالمرارة والاضطهاد. وفي أجدير معقلها، احتقرها البعض وتجاهلها البعض الآخر بسبب تقربها الشديد من الإسبان. إذ دون احترام الأفخاذ والرباع لا تستطيع اية شخصية وجيهة أن تعيش في الريف. وباستيلاء سيلفستري على انوال، تراجعت قدرة عبد الكريم على المناورات، وتراجع نفوذه على القبيلة وانتهى. ولم يكن الريفيون ليباركوا قيادته السياسية ولا العسكرية إذا لم يقدم عملا مميزا. إذن هي الحرب او السلام العادل الذي يضمن لهم استقلالهم وحفاظهم على ممتلكاتهم. هذه هي الرسالة التي مررها القائد السياسي لسيلفستري والقيادة العامة للحرس المدني.

أيذبورو وموراليس،
اثنان من رموز الذكاء الإسباني

كان الكولونيل موراليس يدرك تماما أن الريفيين الموالين له، هم من يستطيعون خدمة مصالح إسبانيا في المغرب. كيف لا، وهو يرى أن الجيوش الإسبانية قد أصبحت في حالة يرثى لها في ظل غياب تداريب ممنهجة، وسيادة طبيعة قاسية. كانت كل الوحدات العسكرية مريضة ومنهوكة القوى من جراء المشي لمسافات طويلة، أما معنوياتهم فكانت تحت الصفر، وكانت كل مجهوداتهم تذهب سدى. وأمام كل هذه الأوضاع، كان الكولونيل موراليس يعي أن جيشه المؤلف من وحدات الحرس المدني، والفرق النظامية، هو الوحيد الذي سيقتحم الريف. وهكذا دخلت إسبانيا غمار الحرب سنة 1921.

ودائما كان الحديث يجري عن المؤهلات الشخصية للجيش، وعن قوة العدو التي كانت تقاس دائما بكمية البنادق. فكل بندقية كانت تعني مقاتلا، وكانت قبيلة بني ورياغل وحدها تمتلك ستة آلاف بندقية. مما كان يعني ستة آلاف رجل مسلح ومستعد كل الاستعداد للهجوم. كان الريفيون يجيدون القتال سواء بالسلاح الأبيض أو بالبنادق. ولم

تكن في المغرب كله قبيلة من هذا النوع، بل حتى إسبانيا نفسها لم تكن تمتلك هذه القوة.

كانت شخصية لويس ايثبورو موندخار تمتاز بالحذر وقوة الحدس، وكان شديد الاحترام لكل ما له علاقة بالريف. كيف لا، وهو المطلع على تحصيناتهم الطبيعية والعسكرية. كان يتكلم الأمازيغية، الشيء الذي ساعده على استيعاب أبعاد المشكلة، وكان في تسييره لقيادة مليلية منذ ربيع 1915 وحتى 1920، ينهج سياسة الشدة واللين في نفس الوقت. وكان **فرانثيسكو غوميث خوردانا** Francisco Gamez Jordana، هو من عينه في هذا المنصب لينتقل بعدها إلى تطوان مندوبا ساميا بدل الجنرال مارينا Marina، وذلك في ظروف غامضة ودرامية تتعلق بملف سيدي اقلعي.

وفي مدة لا تتجاوز خمس سنوات، حقق أيثبورو إنجازات عظيمة ذهبت مع الريح فور تقلد برنكر السلطة في تطوان وانصراف سيلفستري إلى الريف. وبالاستيلاء على انوال، كان ايثبورو متواجدا بمدريد. كان هزيل الجسم يمشي في حزم وثبات، ويفكر بسرعة. وبحلول عام 1921، استطاع هذا الشرس، وهو ابن الرابعة والستين من عمره أن يُخضع القيادة العامة بمليلية لعملية تاطير مستمرة. كان شهما وذا حس تحليلي، وكان يدقق في كل الأمور، كما كانت له القدرة على التخطيط الحربي واقتراح الحلول الناجعة للمشاكل المعتادة. وكان كذلك سياسيا محنكا، حتى إنه يجوز القول انه كان افضل الإسبان بإفريقيا، وإن كان غير محظوظ دائما في إيجاد فرص العمل. كان يصف زحف الجيوش الإسبانية نحو الحسيمة -عبر طريق انوال- بالعمل الجنوني، لقد كان بحق تلميذا لخوردانا.

وحينما كان أيثبورو يطلب النصيحة والمشورة من مورالس ويعطي كل تعليماته وتوصياته، كان سيلفستري يفعل عكس ذلك ويدير ظهره لكل التوصيات. كان بإمكان سيلفستري ان يكون حكيما متبصرا لو كان ياخذ براي مورالس.

أنوال: إسبانيا تدخل أرض العدو

كان مورالس يدرك جيدا كيف أن محمداً، الإبن الأكبر لعبد الكريم، كان مستاءً من إسبانيا وسياستها. ومرد ذلك حبسه في سجن قلعة "كبيريريثاس Cabrerizas" بمليلية، بتهمة تدبير مؤامرات مع عملاء اتراك قدموا إلى اجدير في نونبر 1914، وذلك إلى جانب والده سيدي عبد الكريم. ولم يكن هذا الاتهام ليثير العجب، إذ إنه اثناء الحرب

العالمية الأولى، كان غالبية الوجهاء المسلمين من مصر حتى المغرب يعلنون عن تعاطفهم الكبير مع الأتراك والمانيا، ويعلنون عن إيمانهم بان المانيا قادرة على تفكيك دعائم فرنسا، ومنه لن تستطيع إسبانيا الصمود لوحدها.

كان ايثبورو على علم بتفاصيل هذه المؤامرة المحتملة بفضل بلاغ مفصل، سلمه إياه النقيب فيسنتي سيستي Vicente Siste، رئيس مكتب الشرطة الأهلية في الحسيمة. لكن المؤامرة الريفية لم تكن في واقع الأمر سوى انبهار وإعجاب بالشباب الأتراك، خاصة حزب إنفر باشا Enver Pacha، الذي كان يامل في توحيد صفوف المسلمين ضد الحلفاء، وهو الشيء الذي طرح إمكانية إيقاف زحف المستعمر الإسباني في المغرب. لم يستطع الريف قطّ أن يتحاور مع فرنسا نظرا لقوتها، لكن إسبانيا، نظرا لقلة مؤهلاتها العسكرية، وعزلتها الجيوسياسية، فقد كانت دائما تمنح فرصة عقد المعاهدات والاتفاقيات.

في منتصف غشت 1915 اجرى النقيب سيستي Siste، مقابلة مع محمد بن عبد الكريم، صرح له فيها ودون تحفظ عن نقمته على الفرنسيين، وهو شعور يتقاسمه مع الأسبان كذلك. هذا وقد أعرب الريف دائما عن رغبته الحثيثة في الحفاظ على علاقات جيدة مع إسبانيا. لم تكن فكرة تواجد الإسبان بمليلية وتوسيعهم لرقعة ممتلكاتهم حتى حدود جبهة كرت، بالقرب من إمعروفن وإشافن، وهي مناطق شهدت قديما معارك يعود تاريخها لـ1911-1912، لتزعج الريف. كما كان بإمكان إسبانيا الحفاظ على اعرويت، والباطل وتويزن بلا مشاكل. لكن هذه الثغور، إلى جانب أخرى في اتجاه الغرب، كانت ارضا محرمة على إسبانيا، وعلى اية قوة أخرى، حتى وإن كانت قوة السلطان. وذلك لأنهم كانوا يتمنون بلهفة تحقيق استقلال الريف الذي لم تطاه بعد قدم المستعمر[38].

كان دهاء عبد الكريم يثير العجب، يريد التعامل مع إسبانيا باعتبارها قوة سهلة، وبهذا يجمع بين الحسنيين، الإسبان من جهة، وإيالة فاس التي كان يحكمها مولاي الحسن (العاهل العلوي الثاني عشر) من جهة اخرى. والاثنان معا كانا صديقين لابد من اللعب معهما بصفتهما أعداء بالتناوب، فيوقع على تحالف مع طرف ضد الآخر.

كان بمقدور إسبانيا أن تبسط سيطرتها إلى حدود نقطة اتصال إغان بأغان بالقرب من الباطل. فكل الثغور الواقعة عن يمين هذه النقطة كانت في ملكية إسبانيا، وكل ما هو عن الشمال كان للريف، كما تقدمت إسبانيا بالاستيلاء على مناطق أولاد

ستوت. واعرويت، وسلوان والناظور، زيادة على ضم جبال زايو الوعرة وراس الماء، الذي كان علم آخر احمر واصفر اللون، يرفرف امامه. يتعلق الأمر بعلَم الجزر الجعفرية التي استولت عليها إسبانيا منذ سنة 1848. كان على إسبانيا أن تكتفي بهذا القدر من الأراضي الريفية، لكن مدريد كانت تريد المزيد.

حدث ان تخطَّت إسبانيا ومنذ عام ونصف جبهة الكرط، التي تعد نقطة استراتيجية هامة في اتجاه غرب شمال المغرب. وبعد هذه الخطوة سقطت تحت سيطرتها الاستعمارية سنة 1920، مواقع جد هامة مثل دار الحاج بزان (القصبة الحمراء)، ودار الكبداني، والقندوسي، ودار أزوكاج، ودار الدريوش، وابن طيب، وميضر، وأزرو، وشيف وتفريست في عملية تطويق لكل من قبيلة تمسمان وبني ورياغل. لكن أنوال كانت بحق أرض عداء لإسبانيا، فلم يتم الإعلان عنها مسبقا.

صديق تجرع المرارة ويطالب بالتعويض

كانت فرنسا تَعُدّ الاتصال بالأتراك خطرا بالغا، والحسبان نفسه كانت تتبناه إسبانيا. وفي خضم هذه الأجواء المتوترة، كان خوردانا قلقا ومنشغل البال، فأصدر بذلك أوامره الدقيقة لأيثبورو ليلقي القبض على رئيس القبيلة. كانت الفرصة ملائمة عند ذهاب أيثبورو إلى الحسيمة، في زيارة روتينية تعوّد خلالها أهل أجدير المحترمين أن يقدموا رغم أنوفهم فروض الطاعة والولاء. وجاءت هذه الزيارة للحسيمة في الرابع والعشرين من غشت عام 1915. لكن سيدي عبد الكريم اشتمّ من هذه الزيارة رائحة المكيدة، فامتنع عن الذهاب والحضور لمراسيم الولاء، فأصبح الابن بعده هو الرأس المطالب به. وفي السادس من شتنبر، زُجّ بمحمد بن عبد الكريم في سجن مليلية، وكان المسؤول عن الحادث هو ريكلمي Riquelme الضابط الصديق، فكان الأمر عسيرا عليهما معا. كان أيثبورو يريد الإفراج عن سجين *كبريرثاس* الشهير، معتبرا اعتقاله خطأ وتعسفا كبيرين، لكن خوردانا من تطوان أبى إلا أن يحتفظ به سجينا.

لم يتقبل محمد سجنه الذي اعتبره شنيعا وغير عادل، فعزم على الهروب مستعملا حبلا معقودا. كان الوقت ليلا، وكان أتباعه الأوفياء ينتظرونه في الخارج مدة أربعة أيام في أجدير.

في الثالث والعشرين من دجنبر عام 1915، وبعد أن تمكن من كسر شباك نافذة زنزانته. استطاع محمد بن عبد الكريم التسلل إلى الخارج عبر حائط البرج، لكن الحبل

تمزق من الوسط فسقط عبد الكريم مغمى عليه داخل حفرة مليئة بالحصى، وهو ينزف دما. وامام هول الكارثة، تبين ان الهروب بات مستحيلا فارتاى رفاق المنكوب ان يغادروا المكان. وبعد هنيهة جاءت الدوريات الإسبانية، وحملت الجريح لتسهر على علاجه، لكن العناية كانت سيئة، وكانت النتيجة ان بقي عبد الكريم أعرج طول حياته.

وفي غشت 1916، أخلي سبيل محمد بن عبد الكريم الذي استطاع ان يقضي مع عائلته في اجدير الأيام الأخيرة من رمضان. ومرت تسعة اشهر (حتى مايو 1917)، حتى التحق محمد من جديد بعمله[39].

وبالرغم من الرقابة الشديدة، إلا أن محمد بن عبد الكريم كان يثق في فهم أيثبورو. كانت التجربة قاسية، لكن ليس بالقدر الذي يجعله يثور ضد إسبانيا. آنذاك، قررت عائلة عبد الكريم ان تجتمع وتنضم إلى عائلة بورجيلة التي كان يتزعمها أحمد المعروف ب"الشريف" (القائد السياسي والروحي)، وكان يساعده في مهامه ولده عبد السلام، ساعده الأيمن. وإذا كانت عائلة عبد الكريم تراوغ في إخلاصها لإسبانيا، فإن آل بورجيلة كانوا من مؤيديها وانصارها.

والنتيجة كانت سيئة لكلا الطرفين، فعبد السلام بورجيله نجل احمد، لقي حتفه في كمين نصب له، بالرغم من حرّاسه الأقوياء الذين كانوا يرافقونه، كما أحرقت محاصيل والده الزراعية. ولم تسلم كذلك عائلة عبد الكريم من التهديدات القوية اللهجة، كان يُحرق منزلها وكذا محاصيلها الزراعية. فأشعلت النار في المنتوجات الفلاحية، لكن البيت نجا، وكان ذلك في مارس 1917[40]. لكن مهارة الشيخ الفقيه وتدخله السريع، ساعدا على تفادي وقوع مآسي كبيرة لعائلته.

ويمر الوقت. وتخسر المانيا الحرب. في حين تواصل فرنسا كفاحها المسلح (في هجوم لودیندورف Ludendorff في ربيع 1918)، ويعود عبد الكريم الأب إلى محاولاته للتعاون مع أيثبورو فيما يخص الإنزال العسكري عند خليج الحسيمة. إنها عملية ستتم بعيدا عن الأراضي الخاضعة لبني ورياغل، وقريبا من الأراضي التابعة لتمسمان ومقاطعتها تزوغوت Tugrut المحاذية للشاطئ. فمن هناك كانت تكفي قفزة واحدة للوصول إلى الخليج. التمسمانيون تعهدوا بتقديم مساعدة قوامها تسعمائة رجل مسلح، لم يكن العدد كثيرا، لكن العرض كان مشجعا ومغريا، تفتحت له الحواس الخمس

لأيثبورو. وجاء خوردانا لينعت هذا الاقتراح بـ«المهم جدا». وبما أن محمد بن عبد الكريم كان يتواجد في أجدير، فقد عهد إليه أيثبورو بدور المراقب السامي على هذا النزول العسكري[41]، ودعمه بتلينتي كولونيل كفء يعرف بـ خوسي ريكلمي José Riquelme، يبلغ عمره 38 سنة، وكذا لوبيث باغو Lopez Bago حارسه القديم[42]. كان الرهان خطيرا سواء على إسبانيا أم على الريف.

لم يتأخر عبد الكريم في الوفاء بالتزاماته وإخلاصه لأيثبورو، فقدم لريكلمي استنتاجاته التي تفي بأن النزول في الحسيمة مستحيل أن يتم إلا بعد ضمان ثقة القايد علال، رئيس تزوغوت؛ وحسب عبد الكريم، كان شهر يونيو هو الوقت المثالي للهجوم. لكن ريكلمي وهو الأكثر ذكاء، كان يفضل تأجيل الأمر إلى حدود يوليوز 1918، وذلك لأن غالبية فلاحي الريف المتوسط يكونون وقتها منهمكين في أشغالهم الموسمية بالجزائر، وهكذا، لن تكون هناك بنادق على شواطئ أجدير. أبدت عائلة عبد الكريم موافقتها على هذا المخطط، وفجأة تم إيقاف كل العمليات بأمر إلزامي أصدره خوردانا، الذي وافته المنية فيما بعد بأشهر قليلة في تطوان يوم الثامن عشر من نونبر 1918.

وقتها فقد سكان الشمال آمالهم الكبيرة في ألمانيا، التي استمرت مساعداتها إلى حدود 1918 (لنذكر على سبيل المثال الاستقبال الحافل الذي أقيم لغيوم الثاني في طنجة 1905، بعد انهزام القوى الغربية في ساحات الحرب الأوروبية) لكن البرغماتية الريفية، التي كانت دائما تطالب المعمر بالتعويضات والمحافظة على الاستقلال وإن كان صوريا، أصرت دائما على مواقفها.

راهن كل من أيثبورو وموارلس على عائلة عبد الكريم، كان مخططهم بسيطا، حيث كان ينص على توزيع المال، وتوطيد الثقة بواسطة عمليات عسكرية برمائية، فذهب أيثبورو ليحاول مرة سادسة، لكنه كل مرة كان يردد الأفكار النيرة لغومس خوردانا.

مخطط خوردانا، وثقة موارلس

لم يُحدد التاريخ بالضبط، لكن كل المؤشرات كانت تدل على أن الحدث وقع في صيف 1913، حيث قام المندوب العام بمليلية آنذاك، فرانثيسكو غومس خوردانا -الذي تولى هذا المنصب منذ إحداثه في دجنبر 1912- باتخاذ قرار غير مسبوق له، إذ إنه تقدم للجنرال

لوكي Luque، وزير الحربية في الحكومة الأولى لرومانونيس Romanones، بمخطط جريء يقضي بصرف التعويضات المالية للشرفاء الريفيين باجدير، مع إنزال القوات بالحسيمة. وقد عَرض هذا المشروع على الوزير دون ان تكون للمقيم العام مارينا Marina، دراية بالأمر[43]. كان خوردانا يعي تماما ماهية تصرفاته، كما أن الجنرال لوكي وضع خطة هجوم جريئة على الحسيمة، محددا التاريخ الدقيق لإنزال وانتشار القوات (الثامن عشر من دجنبر 1911). لكن لم يكتب لخطته النجاح، لقد جوبهت بالرفض في الوقت الذي كانت فيه كل الفرق العسكرية على أهبة الاستعداد للقيام بواجبها. وبعد مرور سنتين، وبأفول نجم الثورة الريفية التي قضت نحبها بموت زعيمها الصالح أمزيان في ساحة القتال، عاد الجنرال خوردانا إلى هذه المبادرة الحاسمة ليصقلها سياسيا ويبث فيها من جديد روح التطور العسكري.

في رسالة "جد سرية" توجد نسخة منها في الأكاديمية الملكية للتاريخ، تم تأكيد فكرة تقديم رشوة لمحمد بن عبد الكريم قدرها اربعة واربعون الفا وتسعمائة وخمسة وثلاثين بسيطة تعويضا عن حجم الخسائر التي لحقت بممتلكاته، بالإضافة إلى مائتين او ثلاثمائة الف بسيطة وزّعت على قياد بني ورياغل لاستمالتهم للعملية البرمائية المزمع تنفيذها. ولم يتوان الجنرال خوردانا في التوجه إلى لوكي بهذه العبارات، «إنني لم أذكر شيئا من هذا القبيل للمقيم العام (مارينا)، وإذا حدث وقبلت الحكومة مخططاتي، فسوف أشير عليك بنوعية السياسة التي يجب تطبيقها في هذه المنطقة. أما إذا وجدتم انتم طريقة أخرى افضل، فما علينا إلا الطاعة. لكن يجدر بنا ان نعجل بهذا الهجوم الذي يشغل بالنا قبل انقضاء الشهر المقبل»[44].

كان السيل قد وصل الزبى، وقد عبّر خوردانا عن الخطر الذي كان يحدق بالإسبان والريفيين على حد سواء بهذه العبارات، «إن حياة أصدقائنا باتت في الخطر، فالمتعصبون يترصدون لهم من كل جانب، فإذا لم نقدم لهم يد المساعدة بالاستيلاء على أرضهم، فإنهم سينقلبون علينا للحفاظ على كرامتهم ومصالحهم».

وكان هؤلاء الأصدقاء هم محمد الشدّي، ومحند أبقوي، وسيدي مساند وولده، والكوبيس الذي قال عنه الجنرال، «إنه أصبح قائدا منذ عهد قريب، وإن اباه سيدي مساند كان طريح الفراش في الحسيمة بسبب ورم سرطاني ظهر في وجهه». وأضاف الجنرال، «إن بقاءه على قيد الحياة، يضمن لنا ولاء عائلته، التي تعد واحدة من العائلات التي لها ثقلها في الريف».

وتنضاف إلى ما ذكر آنفا، عائلات أخرى مثل بوبكر بلحاج حاشن، وبوسلمان، وعائلة بورجيلة وعائلة عبد الكريم[45]، التي تسلمت نجمة من درجة ثانية معاشا يُصرف للأب، ونجمة أخرى للابن الذي كان يجب الاحتياط منه، فهو قادر على إلحاق الضرر بنا. نجمتان إذن من الدرجة الثانية أعطتا استحقاقا عسكريا. مُنحت النجمتان، وحُدد معاش لعبد الكريم الوالد مقداره خمسمائة بسيطة. أما ولده محمد، فلن تعوزه أبدا أوسمة إسبانية، إذ لن يوشح بواحدة فقط، بل ستكون له نجمتان تمنحان استحقاقا عسكريا، زيادة على تكريمه بوسام الملكة إزيبلا الكاثوليكية وميدالية إفريقيا.

سنة 1913، تقدم خوردانا إلى الحكومة بطلب نهج سياسة التبصر والاحترام مع الأصدقاء الريفيين... وإمدادهم بعشرين فرقة عسكرية. كانت العدالة والقوة في الريف عنصرين تاريخيين لا ينفصلان. وهكذا، عهد الجنرال خوردانا بالقتال لجيش قوامه ثمانية ألف رجل، عززه بـ"عشرة من البواخر البخارية" و"استاجر ما يلزم من زوارق النقل". فإذا ما رست على الشواطئ، "قفز الرجال إلى الماء". وامتازت هذه العملية بالمساعدة التي منحها إياه أهالي أجدير، الذين تعهدوا له بإحكام القبضة على المواقع، والذود عنها عند نزولهم بها[46]. كان خوردانا يدرك تماما خطورة استعمال القوة مع رجال بني ورياغل الذين لا يهابون الموت، فتصرف معهم بالحكمة، فمد للعدو يدين، الأولى كانت مغطاة بقفاز، والثانية كانت من الفولاذ.

كانت إسبانيا سخية في التعويضات، وفقيرة في الإمدادات

وبعد سنة، وفي جلسة متميزة للمؤتمر الذي عقد لتباحث قضية المغرب، ذكر ميلغيادس آلفرث Melquiádes Alvarez، الجمهوري القديم وزعيم الإصلاح آنذاك، للجنرال رامون إشاكوي Ramón Echagüe، الذي كان عضوا في الوزارة الحربية أثناء حكومة داتو Dato، ما نصه: «ليس من المعقول، سيدي الوزير، أن تضحوا بكل هذه الخسارات، في حرب اعتبرتموها سهلة، اعتمادا على ان القتال سيكون بين جملة من القبائل التي لا تتوفر على نظام عسكري محكم. وبغض النظر عن أن الريفيين هم عناصر لا يستهان بهم، فليس من المنطق سيدي، وخصوصا بعد النتائج التي حصلنا عليها، ان نصرف أزيد من مائة ألف من التعويضات»[47].

لكن الأمر لم يكن يتعلق بـ"مائة الف" من التعويضات، بل كان اكثر من ذلك بكثير. وبالضبط طُرحت قضية إعطاء مائة واثنين وثلاثين الفا وتسعمائة وخمسة وعشرين وساما، إضافة إلى خمسمائة وسبع وثمانين ترقية "بمثابة استحقاقات حربية". وقد نوقشت هذه الأمور في ربيع 1914. حيث تم التنديد بهذه الهلوسة المبالغ فيها في إعطاء التعويضات عن الحروب الإفريقية، التي امتدت منذ 1909 إلى حدود 1913. وقد كانت هذه التعويضات في واقع الأمر محاولة للتخفيف من حدة الهزيمة. والخلاصة ان هذه الهبات كانت نصرا مشوُوما.

وكل هذه الأرقام غير المشكوك فيها، كانت بمثابة سر ثمين حرص انطونيو ماورا على معرفة ادق تفاصيله وفيما بعد تكتم على الأمر. وقد ساعده في ذلك الجنرال خوان دي امبوديا J. de Ampudia، الحاكم العسكري لكورونيا Corunia والشاهد على كل الخروقات[48].

وكان آلفارث Álvarez مُحقا حينما عبّر عن استيائه من هذه الهلوسة، إذ رآها «مفسدة لمعنويات الجيش»، إذ إنها لم تكن حافزا يشجع الجيش على التفاني في أداء المهام المنوطة به، بل كانت تحريضا عن الطمع والتسيب»[49] لم يخطئ خوردانا حينما طلب تلك الأوسمة لعائلة عبد الكريم، وخيرا فعل رومانونس Romanones حينما بارك ذلك التتويج. ولم يخفق ايثبورو -الذي كان آنذاك قائدا عاما بمليلية- في وقوفه إلى جانب عائلة عبد الكريم المتهمة بمناصرتها للألمان. لكن عهد القرارات الحكيمة والمتبصرة انتهى هنا[50]، لتاتي حكومة داتو Dato وايندیسلثار Allendesalzar من جهة، وسفراء برنكر وسيلفستري من جهة اخرى، ليراهنوا على خيار الحرب عوض المباحثات. اصبحت نظريات مورالس وايثبورو في مهب الريح.

رسائل من قلب الريف

في اواخر سنة 1918، طالب محمد بن عبد الكريم بترخيص جديد، يسمح له بالذهاب إلى زيارة عائلته، فحصل عليه، لكنه لم يرجع بعدها إلى مكتبه بمليلية. وفي الوقت نفسه، تلقى امحمد بمدريد أوامر الوالد الصارمة بالعودة إلى الريف. تاخر محمد كثيرا في الالتحاق بمكان عمله بمليلية، الشيء الذي اقلق الجنرال ايثبورو، الذي كلف قائد جهة الحسيمة السيد ثيفانتوس بوينانيو Civantos Buenaño، بإنجاز تقرير مفصل عن غياب محمد. فكتب إليه هذا الأخير يوم العشرين من فبراير عام 1919، رسالة يخبره فيها بأن

السي عبد الكريم بعث إليه مع ابن اخيه برقية عاجلة ينبهه فيها بأنه عازم على عدم إرسال ولديه إلى مناصبهما القديمة. كان السبب بسيطا وحاملا في طياته تهديدا، وذلك ان مجموعة من العائلات من بينها عائلة آيت علي، والمرابطين، وآيت يوسف، حذرت الوالد من ان تقتص إسبانيا من ولديه، وتجعلهما رهائن عندها»[51].

مرت سنة، وأيثبورو مازال على يأسه، إذ تقاعست سلطات مدريد في الإجابة عليه، واصبحت نار الريفيين يُسمع لها شهيق وزفير، وانتهى الأمر بخلع الجنرال من منصبه ليحل محله سيلفستري.

في فبراير 1920، كانت عائلة عبد الكريم ماتزال على ولائها لإسبانيا. وهكذا كانت تخادع قبيلتها تارة، وسلطات مليلية تارة اخرى. لم يكن هناك من خيار آخر أمام هذا الكم الهائل من المشاكل. وقد حلت الكارثة بوفاة الأب مسموما، حسب بعض الروايات[52]. ولم تناول خبر اختفاء السي عبد الكريم -المتوفى في السابع من غشت 1920- سوى يومية *تلغراف الريف*، لدرجة ان كانديدو لوبيرا Càndido Lobera، قال في شان المرحوم إنه: «الريفي الوحيد الذي كان نيرا في عقله»[53].

وفي الخامس عشر من غشت 1920، بعث أبناء عبد الكريم إلى *لوبيرا* برسالة تضمنت آراء الوالد فيما يخص الإسبان والريفيين على حد سواء، فذكروا عبارات الوالد: «كنت أدرك جيدا أنه للعيش في وطن آمن، ومتآخ ومستمر، لابد للشعبين الإسباني والريفي أن يتحابًا وتجمع بينهما روابط الثقة»[54].

وفي خاتمة الرسالة اكدوا قائلين: «نحن أبناء عبد الكريم، لن ننسى فضل إسبانيا على والدنا، وإننا نمنح أصواتنا من أجل إسبانيا مزدهرة، وكذلك نتمنى أن تتوسع منطقتها المحمية، ونحن في ذلك نؤكد على مباركتنا ومساعدتنا لإنجاز هذا العمل». لم يتلق محمد وامحمد جوابا، كان سيلفستري يحكم في مليلية، ولم يكن الجنرال يقرأ الرسائل التي ترد من أجدير، حتى تلك التي تنشر في الجريدة.

وبانقضاء سنة 1920، تلقى محمد بن عبد الكريم بلاغا بريديا من ممثل المناجم في الريف، السيد فرانثيسكو كبايرو Francisco Caballero، (يجب عدم خلط هذا الشخص بخوان بيريث كابيرو J. Pérez C. السياسي). وللإجابة عليه، ضمن الريفي رسالته بتصريح عسكري - سياسي جاء فيه: «ما سوف أقوله لك هو الراي الصحيح والسديد،

إننا ننتظر فقط الفرصة المناسبة لنعبر عن رغبتنا في سلام آمن وشامل تضمنه السلطات الإسبانية للمنطقة، وقد عبرنا دائما عن رغبتنا هذه، وما زلنا مصرين على ذلك. وما عدا هذا فهو حديث اناس يتشدقون بالحديث في المقاهي.

وفي رسالة اخرى إلى *كبايرو* بتاريخ التاسع عشر من مارس 1921، ذكر عبد الكريم ما يلي: «سيادتكم تعرفون جيدا ان قواتكم توجد بالقرب من كرن Karn، فيستحسن أن ياتي واحد منكم إلى سيدي إدريس أو إلى موقع آخر ليعاين عن قرب الطبقات المنجمية. ويرى هل من الممكن استغلالها في هذه الجهة»[55].

لم تكن عائلة عبد الكريم ترغب في قطيعة عسكرية، بل كانت تريد الحفاظ على علاقة اقتصادية مع إسبانيا. لكن زحف سيلفستري، جاء ليجهض كل هذه المحاولات ويقضي على كل هذه الآمال.

اجتماعات مناهضة للحرب
وحرب كرّ وفرّ يومية

كانت إسبانيا متورطة في حرب استعمارية واسعة النطاق، ولم تكن معنوياتها تسمح لها بحرب جديدة، خاصة وانها تفتقر لجيش قوي. وقد تسبب الشعور بضآلة الإمكانيات العسكرية بإفريقيا، زيادة على الحاجة الملحة في انتهاج إصلاح جذري، تقدم بملفه كل من كسولا Cassola لوبيث دومنيكث López Dominguez، وليناريس Linares لوكي Luque، في ازمة خانقة للمؤسسة العسكرية.

حدث أن تزامنت هذه الأزمة مع موجات إضراب صيف 1917، وتُدُورِست تداعياتها في اجتماعات وزارة الدفاع، التي كان يراسها الكولونيل بنيطو ماركيث مارتينيث Benito Márquez Martinez، هذا الضابط الذي أعرب عن امتعاضه الشديد في إشبيلية، مدينته الأم (ولد في 1858)، بعد اتهامه بالغش لعدم تسديده ديونا لضباط آخرين في الفلبين 1896-1897[56]، (والتي قد تكون ديون قمار). وقد سولت له نفسه تهديد النظام الليبرالي وإهانة الفونصو الثالث عشر، بكلمات جارحة وقاسية، كما هدد بإسقاط العاهل كما لو كان كرمويل Cromwell، ولكن ليس على شاكلة النموذج البريطاني. وفي فاتح يونيو 1917، وبقبول حكومة غارسيا بريتو García Prieto لنظرية ماركيث

Márquez واتباعه، جاءت هذه النظريات رد فعل قوي لضباط الدرجة الثانية، الذين ثاروا على جنرالات الجيش والقواد أصدقاء الملك، الذي عاش أسعد لحظات حياته، وإن كانت الخطوة الموالية هي طلبه اللجوء من كوبا، فخلف وراءه جيشا ممزقا وضعيفا.

افزعت مجالس الدفاع التي عَقدت تحت إمرة الجنرال مارينا، كل الحكام والجنرالات والبرلمان والحكومة وكذا العائلة الملكية. عدا شخصا واحدا حافظ على ثباته واتزانه، إنه الجنرال فرانثيسكو اغيليرا إغيا، الذي كان وقتها وزيرا للحربية. وقد اعتبر اغيليرا، -هذا الشخص الذي كان يبلغ من العمر ستين عاما (في 1917)- تيار بونابارت بمثابة حماقة وإهانة للجيش الدستوري. كان اغليرا الشخص الوحيد الذي تصدى لهذه الحركة، لكن سرعان ما وجد نفسه مجبرا على التاقلم مع الأوضاع، خاصة بعد ان تمكنت الحكومة وكذا رومانونس -مستشار الملك فيما يخص هذا الفصل الأسود- من إقناعه. لكن الغموض الذي كان يكتنف الأمور جعله يعاود العصيان والتمرد اثناء محاكمة برنكر.

كانت الحكومة لا تقبل علنا بوجود هذه التيارات، لكنها كانت تتعامل معها كما لو كانت موجودة في الحقيقة.

أعربت هذه المجالس عن نيتها في إقامة جيش جديد، مستعد للقتال ضد عدو مجهول. والخلاصة أن هذه التيارات المناهضة للحرب والجيش، كان لها تاثير كبير في سائر أوروبا.

وفي عام أنوال، بلغت هذه المواقف ذروتها زمن الحماية، فتكونت الميلشيا الزائفة، وفي المغرب خرج قادة الجيش ليلتحقوا بأماكن عملهم، دون أن يتعرفوا على وحدات جيشهم، أما هيئة الضباط، فكانت في حالة يرثى لها. ولم يكن الجنود يعرفون شيئاً آخر سوى إنقاذ حياتهم، كلما دخلوا في قتال ميؤوس منه. لم تكن هناك مخططات، ولا حتى سلطة، ولا دواع عسكرية معقولة. وبالتالي، لم يكن هناك جيش بالطبع.

وبينما كان الجيش يعاني من ويلات حروب طويلة، كانت قيادته العامة -في الشهر الموالي- تعد عدتها لحرب الخمسة عشر يوما. اما في الجهة الأخرى من إفريقيا، فقد كان القواد والملازمون يقضون شهورا عدة في ميادين القتال غير عابئين بالقيادة، وهم يجابهون مسؤوليات جساما، ويشهدون بأعينهم تضحيات رجالاتهم، وهم يعرضون حياتهم للخطر.

لم يتقاعس سيلفستري قط في القيام بمسؤولياته، فكان أول من خرج للقتال بمزاج صاف. وهو يتقدم الصفوف الأولى. كان لا يعرف غير النار، فتلك كانت طريقته

الوحيدة في التعامل. اما جيشه، فلم يطالبه بالعمل والحركة، بقدر ما كان يطالبه بالالتحام والانسجام.

وفي الخامس عشر من يناير 1921، وبعد تجهيز حصن دفاعي في انوال -كان يتخذ صفوفا لرصد العدو، وثكنات عسكرية منعزلة، ومنابع ماء تبعد عن خط السياج باربعمائة متر- خرج سيلفستري في غزوته الأخيرة. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف زوالا، وكان الجو باردا. وفي إنوناتن، كانت سيارته وحرسه في انتظاره، استغرقت الرحلة أربع ساعات، وقبل الثامنة ليلا، حل بمليلية مجددا. كان سيلفستري شديد الثقة بنفسه.

الشيء نفسه فعله في الحادي والعشرين من يناير، باستيلائه على جبل ازرو. حيث خرج من مليلية على الساعة السابعة صباحا، فوصل إلى الجبل في الثانية مساء، وبعدها بساعة واحدة رجع إلى مليلية[57]. كانت عمليات الريف حرب ذهاب وإياب في اليوم الواحد.

كان سيلفستري لا يكلّ، لكنه بتكتيكاته تلك، كان يستنزف قوى قيادته العامة. لم يكن يُمعن النظر في الأمور الريفية، حيث كان يفرض تنقلات واسعة النطاق دون حسبان الشساعة غير المعقولة بين الصفوف، والتي كانت تصل إلى سبعة وستين كلم بين الجبهات. علاوة على ان مؤخرة الجيش، كانت متشابكة وغير واضحة المعالم. وفي هذا التشابك الذي كان يناقض كل حكمة استراتيجية، كان سيلفستري يحتفظ بما لا يقل عن مائة وخمسة وثلاثين موقعا، يحتمي بجدرانه ما يناهز خمسة عشر الف إسباني -أصبحوا حرسا على انفسهم- يترقبون عدوا مجهولا.

كانت مليلية تبعد عن انوال بنصف يوم من المسير على متن السيارة السريعة التي كان يركبها سيلفستري، لكنها كانت تعني بالنسبة للجيش، ثلاثة أيام مشيا على الأقدام. وهناك كان قبر الإسبان قد بدأت هوته تتسع.

هوامش الفصل الأول:

1) يوجد الكثير من الأسماء التي تنطبق على هذا المكان الجغرافي، "إزمر" "إزامر" "إزومارت" "إزومر" و"إيسومار"، وقد وقع اختيارنا على اللفظ الأخير لتشابهه الكبير مع الخط الأصلي. ونفس الشيء حدث مع الموقع الشهير الذي بسطت قوات سيلفستري هيمنتها عليه، يتعلق الأمر بالعبارة التي ظهرت كـ"انوال" و"انال" و"انال مع وضع الشدة على النون" في العديد من النصوص المكتوبة باللغة الإسبانية، لكن الكلمة المتداولة دائما هي "انوال".

2) دار الدريوش الواقعة بمحاذاة وادي كرط، وابن طيب آخر معقل قبل انوال، تم احتلالهما يوم 15 مايو ويوم 6 دجنبر 1920.

3) دافيلا خلون Davilá Jalon، *حياة في خدمة إسبانيا، الجنرال دون فيدل دافيلا اروندو (1962-1978)* الصحافة الإسبانية، مدريد 1978. صفحة 17.

4) المصدر نفسه، ص. 200.

5) المصدر نفسه، ص. 396.

6) المصدر نفسه، ص. 397.

7) كان أبواه هم، السيد خوصي مورالس مونطيرو دي إسبينوسا José Morales y montero de Espinosa الكولونيل في صفوف المشاة، والسيدة انا مندغوتيا نفارو Ana Mendigutia Navvaro . الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية المخطوط. M-4.104.

8) الأرشيف نفسه، المجموعة الأولى. المخطوط M-4.104.

9) دافيلا خلون، المصدر نفسه، ص. 397.

10) ارشيف شيقوبية، المجموعة الأولى. الملف رقم L-440.

11) المصادر الأصلية لـ "لاثرو Lazáro" جاءت من فيض المعلومات المخطوطة التي تمخضت عن غارات المغرب، كانت مصادر تقريرية، شمولية وهادفة في تطرقها لكل ما هو عسكري، وفي صورها التي كتبت في ظهر المستندات ظهرت عبارات لا يمكن أن يستعملها سوى عسكري مدرب. وسنة 1996 وجدت في إحدى مقالات صحيفة (الصول) إشارة إلى "الكومندان لاثرو" الذي كان حاضرا في عمليات احتلال شفشاون سنة (1926)، فظننت أنه هو، لكن جهلي باسمه العائلي الثاني جعلني أظن انه من المستحيل العثور عليه في أرشيف شيقوبية. وكان خوان دييث Juan Díez هو من أعرب عن إصرار قوي في البحث عنه، وإليه يعود الفضل في هذا النسب الكامل لكارلوس لاثرو إلى مونيوث Carlos Lázaro Muñoz الذي وصل إلى رتبة جنرال.

12) دافيلا خلون، المصدر نفسه، ص. 201.

13) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

14) سانتيث دياث رامون Sánchez Díaz Ramín "*المغرب*" في مجلة التاريخ العسكري، سنة 27، مدريد 1982. رقم 53. الصفحات، 151-173.

15) بونماتي، خوصي فرمين Bonmati, José Fermín *الإسبان في المغرب، خلال القرنين 19 و20*، مطبعة مابفري، مدريد 1992، ص. 244، تجدر الإشارة إلى أن عبارة قبيلة (عشيرة) تطرح بعض الإشكاليات، وذلك لأن كل قبيلة كبيرة تضم قبائل او بطونا اخرى. وفي نصنا ارتأينا ان نستعمل عبارة "قبيلة" في هذا المعنى، وإن لم يكن صحيحا، وذلك تفاديا للبس.

16) اعتمدنا كثيرا على أعمال طوماس غارسيا فيغيراس في تقسيمه للقبائل وذلك من خلال مؤلفه: *المغرب، العمليات الإسبانية في شمال المغرب*. دار النشر إف-إيي، برشلونة 1939.

17) جرمان عياش في كتابه *أصول حرب الريف*، الرباط، 1981، ص. 80. يتحدث عن "600.000 نسمة" في حين يتحدث نستور غامبيطا Nestor Gambeta في كتابه، -*إسبانيا في المغرب*، ورشات الصحافة، ليما 1928، صفحة 37- عن الإحصاء الذي نظم سنة 1917مدليا بالنتائج التالية، في المنطقة الفرنسية كان هناك 3.500.000 نسمة، أما المنطقة الإسبانية فكان عدد سكانها يناهز 404.000 ساكن، 60.000 كانت في المنطقة الدولية لطنجة، والمجموع هو 3.964.000 نسمة في مجمل ربوع المغرب.

18) بلانكو إساغا. إميليو Blanco Izaga, Emilio: كولونيل في الريف، تأليف وتحقيق دافيد هارت، سير، David M.Hart, Seyer. مالقة 1995. الصفحات، 237-238.

19) هذه العبارات مأخوذة من العامية المغربية، وفي ذلك اعتمدنا على مؤلف الفرنسيسكاني، والعالم خوصي لرشوندي José Lerchundi المعنون بـ"اللفظ الإسباني - العربي في العامية المغربية". المطبعة الإسبانية العربية للمبشرين الكاثوليك. طنجة 1932، 856 صفحة. أما فيما يخص اللغة الأمازيغية، فقد اعتمدنا على دراسات بلانكو إساغا، وغابريل ديل برل وبالضبط: *الجغرافية العامة لإقليم الريف*، كتب مقدمته الجنرال فرانثيسكو غومس خوردانا. مطبعة تلغراف الريف. مليلية 1911، 178 صفحة.

20) جرمان عياش، نفس المصدر، الصفحات، 243-291.

21) كان سيلفستري بنفس المصدر يحذر في تقاريره الشهرية التي كان يبعث بها إلى برنكر من استياء الشعب الريفي فجاء خطابه كالتالي، ،إن السكان الأصليين يعانون بشكل مهول من المجاعة، المصلحة التاريخية العسكرية، المعسكر العام للإقامة العامة بمليلية 1920. ملف 28.

22) بريني هنري Pirenne, Henri: محمد وكارلو مانغو، الترجمة بالإسبانية لإستر بنيتيث. دار النشر اليانسا إديطوريال مدريد 1979، ص. 26.

23) حول هذه القضايا العرقية - الاجتماعية انظر مؤلف هارت مونطغومري دافيد Hart Mongomery, David المعنون *"تنوغرافية الريفيين، قبيلة بني ورياغل"* والمصنف ضمن مجلة الدراسات المغربية، السنة الثانية، تطوان 1954. الصفحات 51-86. أيت ورياغل هي قبيلة بني ورياغل الواقعة في منطقة أجدير (الحسيمة).

24) بالنكو إساغا، نفس المصدر، الصفحات، 275-421.

25) "تخماست" (أي الجزء الخامس) تعني بالنسبة لبلانكو إساغا فرقة سياسية ريفية، مقابلها بالعربية الخمس، وهو المتداول عند هارت (ص. 163)، وهكذا يتماشى تماما مع التقسيم الذي نهجته قبيلة بني ورياغل ومن تم عبارتها (تخماسين) وهي قبائل أخرى لا علاقة لها بهذا المفهوم، ولا بهذه التعقيدات الاجتماعية وفي المقابل يستحسن استعمال فكرة الأربع (الجزء الرابع) المعروفة في باقي أرجاء الريف (ص. 165).

26) حوار مع سهى عبود هاجر، غشت 1998.

27) بلانكو إساغا، نفس المصدر، الصفحات، 72-77.

28) جاموس، ريموند Jamous, Raymound: *الشرف والبركة. البنية الاجتماعية التقليدية للريف*. مطبعة دار العلوم، باريس 1989 الصفحات 65-97.

29) غرون غيوم، جيلبر Grand Guillaume, Gilbert: *التعريب وسياسة اللسانيات بالمغرب*، مطبعة الدار الجديدة، باريس 1983، ص. 13.

اللغات الأمازيغية الأخرى كانت بدورها غنية، الشلوح في جنوب المغرب (الأطلس الكبير) الشاوية في ناحية الجزائر، المزابي (نسبة إلى مزاب وهي منطقة في الغرب الجزائري معروفة بسلوكياتها الديموقراطية) والطوارق في بطن الصحراء، وما تبقى من اللهجة الأمازيغية في تونس كان يظهر بمنطقة مدنين.

30) بلانكو إساغا، إميليو وهوامش مونتغومري هارت، دافيد، المصدر نفسه، الصفحات، 217-237.

31) معلومات قدمها هاريس، والتر Harris Walter في، فرنسا إسبانيا والريف، إدوارد ارنولد، لندن 1927 صفحة 21. وجاءت كتوجيهات اثارت العديد من الجدل. وفي الوقت الراهن نصف الساكنة البربرية المقدر عددها بعشرين مليون توجد في المغرب.

32) ولمان. دافيد، *عبد الكريم وحرب الريف*، قامت بترجمة النص إلى الإسبانية مارغريتا غراتكوس، دار النشر، اويكوس-طاو. برشلونة 1971. ص. 45.

33) العروي احمد، *تاريخ المغرب، محاولة للتلخيص*، ماسبرو، باريس 1970. عدد الصفحات، 76-78.

34) ملاحظات مونتغومري هارت على كتاب بلانكو إساغا. نفس المصدر، ص. 225.

35) بلانكو إساغا، نفس المصدر، ص. 137.

36) عياش جرمان، *أصول حرب الريف*، نفس المصدر، ص. 169.

37) المصدر نفسه، ص. 182.

38) المصدر نفسه، ص.217-219.

39) المصدر نفسه، ص. 221-236-242.

40) المصدر نفسه، ص. 240-241.

41) نفس المصدر، ص. 246.

42) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، المجموعة الأولى، الملف 1.319-R.

43) منذ سنوات ونحن نعتقد ان صاحب هذا التخطيط الجريء هو ايثبورو، لكن الوثائق التي عثرنا عليها في ارشيف مجلس النواب - في الملف رقم 643 أقنعتنا بان المؤسس الحقيقي هو خوردانا.

44) ارشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ، مضامين رومانونيس، الملف 6.

45) جرمان عياش، المصدر نفسه (الصفحات 154-155) ذكر هذه الأماكن الأربعة الأخيرة، وحدد موقعها في قبيلة ايت خطاب التي تنحدر منها عائلة عبد الكريم.

46) الملف رقم 6. رسالة محتملة من خوردانا إلى لوكي صفحة 3.

47) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة الثلاثاء 19 مايو 1914 صفحة 743.

48) في خضم ذلك الفيض من الجوائز -54 نجمة سان فرناندو، 878 نجمة ماريا كرستينا، 28.771 نجمة حمراء كاستحقاق عسكري، منحت مع صرف المعاش و100.605 نجمات أخرى دون معاشات، كل هذا دون احتساب 1587 ترقية (42 منها أعطيت لرتبة جنرال)- لم يتم ذكر جوائز اخرى وصلت إلى 2618 نجمات حمراء وبيضاء منحت كاستحقاقات حربية، علاوة على نجمة سان فرناندو. اثناء التوزيع الأول منحت 169 نجمة حمراء "للمغربي الذي ينتمي إلى عدة قبائل" 368 نجمة حمراء "للمورو من وحدات الشرطة الأهلية" و495 نجمة اخرى منحت دون صرف المعاش والمجموع هو 1032 نجمة وبقي 1586 وسام شرفي، استفاد منه العديدون، إذ بغض النظر عن 1.252 نجمة حمراء منحت لـ"قواد، وضباط القوات المسلحة" اعطيت 4 نجمات أخرى و54 نجمة من الدرجة الثانية دون ان يعرف اصحابها. ورغم كل هذا بقيت 276 نجمة كاستحقاق حربي وزعت على الشكل

التالي، 109 لأهالي البلد، 31 للممرضات 31 للمكلفين بالبرقيات والتقنيين، 31 اخرى وزّعت على الأطباء، والمتمرنين. وحاملي النقالات ومساعدي الصحة، 28 منحت لمستخدمي البريد، 17 لراهبات الإحسان، 16 لمستخدمي وكالة الأسفار البحرية، 13 للمفتشين، والآليين والمكلفون بالآلات البخارية، ورؤساء القطارات، 9 لعمال الأشغال العمومية، 5 لطلبة العلم، 4 لمترجمين إلى العربية، 3 لأصحاب المطاعم داخل المعسكرات، 3 لمهندس صناعي و"محام" و"قائد حربي متقاعد" وفي الدفعات الأخيرة ورد اسم "الجنرال رئيس هيئة أركان الحرب" و"قبطان المنطقة السادسة" وهكذا يكون العدد الإجمالي للميزات هو 132.925. ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا الملف رقم 9/359.

49) وثائق المجالس التشريعية لسنة 1914، صفحة 743.

50) الأرشيف العام. الملف رقم 9/497.

51) جرمان عياش. المصدر نفسه، الصفحات، 248-250.

52) إنها أطروحة ونظرية مؤلف كتاب عبد الكريم وحرب الريف، لكن يبدو ان ولمان Woolman في الصفحة 94، اخطأ في تاريخ الوفاة "شتنبر 1920" إذ قال، "في حين كان كل شيء يشير إلى ان الوفاة كانت في غشت، حسب لوبرا Lobera المتحدث باسم *تلغراف الريف*.

53) *تلغراف الريف*، نشرة 11 من غشت 1920.

54) الرسالة التي نحن بصددها، تم التطرق إليها، بعد مرور سنوات، وقد تحدث عنها النائب لاساغا Lazaga داخل البرلمان. في إطار المحادثات الأولى بصدد تقصي الحقائق حول أحداث المغرب. مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة 20 أكتوبر 1921 الصفحات 3.676 و3677.

55) كانت رسالة عبد الكريم إلى كبايرو تحمل تاريخ 27 دجنبر 1920. أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، عدد 278.

56) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. عدد م-813.

57) دافيلا خلون، المصدر نفسه الصفحات 392-394.

❖ ❖ ❖

الفصل الثاني:

عيون الملك على المغرب

رجل حرب اشتد عوده، وازدادت صلابته فيما وراء البحار

كان الجنرال مانويل فيرنانديث سيلفستري -قائد الجيش الذي احتل انوال- رجلا شجاعا ومنضبطا في تعامله مع الآخرين، دون أن يستهدف من وراء ذلك كسب استلطاف احد. لم يكن اصدقاؤه ابدا من نظرائه من الجنرالات، بل كانوا دائما من مرؤوسيه. لم يتردد قط في تانيب رؤسائه إذا اقتضى الأمر ذلك، وكان يعامل ضباطه وقادته ببساطة دون الوقوع في السوقية. وبطبيعة الحال، كان هناك من يهابه وكان هناك ايضا من يبجله. كان ذلك هو سيلفستري، رجل الحرب حتى النخاع، من مواليد كاني Caney. كان يبدو عليه انه متشبع بالطابع البطولي "للشرق الكوبي"[1] الشهير، حيث ولد في ضواحيه في السادس عشر من دجنبر سنة 1871، وقتئذ كان اماديو دي سابويا Amadeo De Saboya الأول، قد اتم السنة الأولى من حكمه.

كان ارتباط عائلة سيلفستري بالجيش تقليدا متواصلا، كما هو الشأن بالنسبة للعديد من مشاهير الضباط من اصل كوبي مثله في إفريقيا. برنكر، كاباث Capaz كبليكانتي Cavalcante، ومولا Mola، ومورالس Morales، وتيمبرانو Temprano.

كان والد سيلفستري، الكولونيل بيكتور فرنانديث إي بنتيغا Vict F y Pantiga، المزداد في ايونييغو Olloniego (استورياس)، قد انسحب من الخدمة العسكرية برتبة كومندان[2].

اما والدته إيليوتيريا سيلفستري إي كيسادا Eleutoria Sil. y quesada، -أرملة فرانسيسكو دراغو إي آبيلا F Drago. y Ávila- فقد تزوجت للمرة الثانية في السادس عشر من يناير من نفس السنة (1871) بوالد الجنرال الذي كان آنذاك ملازما في المدفعية، عن سن الثالثة والثلاثين[3]. عند بلوغه السابعة عشر من عمره، رحل فرناندو سيلفستري إلى إسبانيا. وفي الثلاثين من غشت عام 1889، انخرط في الأكاديمية الحربية بطليطلة، حيث كان تلميذا مثاليا بمؤهلات عالية - كانت معدلاته تتراوح بين 8/6 في (الجبر، الهندسة واللغة الفرنسية)، و9 في (الآداب، والبروتوكولات العسكرية والتخطيط الحربي)، و10 في (الفروسية، والنظافة الذاتية، ورياضة الجمباز والميكانياك). كان ذلك خلال مدة إقامته في الأكاديمية الحربية العامة بطليطلة مرورا بعد ذلك إلى الأكاديمية التطبيقية للفرسان (في بلد الوليد)، حيث تخرج من هذه الأخيرة في مارس 1893 برتبة ملازم ثان.

إلى جانب فرنانديث سيلفستري، كان هناك زميل القسم وزميل الفوج، الذي يبدو انه كان يواجه صعوبات في الدراسة، يتعلق الأمر بـ دامسو برنكر فوسطي، الذي كان يصغره بعامين. كان اقل منه قوة واقصر قامة واقل صراحة وجراة، لكنه كان كذلك من اصل كوبي، إذ ولد في ريمديوس Remedios، وهي بلدة قريبة من هافانا Habana.

وفي الخامس عشر من يونيو 1895، وبعد أن رست سفينته "بيوينوس أيريس Aires Buenos" بنويبيتاس Nuevitas "شمال كوبا" قادما من قادس، لفت فرنانديث سيلفستري الأنظار بسبب قامته التي تجاوزت المعدلات المتداولة آنذاك (1,72 متر) وبنيته القوية. وقد خرج في حملات عسكرية استغرقت سنتين، حقق خلالها عدة انتصارات أهمها، *لابيكتوريا*، إذ استطاع على راس فرقته ان ينال من العدو مخلفا وراءه ثمانية وعشرين قتيلا بالسلاح الأبيض، في عملية عرفت بـ"ارانغو" Arango (في الثامن من يناير 1896). ثم عملية لسانغري، حيث أصيب فيها بجرح في جبينه بسبب طلقة نارية من بندقية.كادت أن تقضي عليه في منطقة "سابانا دي مايث" Sabana De maiz، في الثاني من دجنبر. وعملية *لابوينا إستريا* La buena estrella، حيث إن الاصطدام كان عند لادلوروسا La Dolorosa في بينار دي ريو Pinar De Rio، يومي الثالث عشر والرابع عشر من دجنبر 1896، وهناك فقد ثلاثة من الأحصنة في قتال عنيف، لكنه استطاع أن يعثر على مطية رابعة ليعود بإصرار إلى المعركة[4].

وكما هو الشأن بالنسبة لكل الجنود الإسبان في تلك الفترة العصيبة، قضى فرنانديث سيلفستري بعض الوقت بالمستشفيات المرعبة، إذ وصل عدد المصابين بمستشفيات كوبا ما بين مارس ودجنبر 1895، إلى تسعة واربعين الفا. وقد ارتفع هذا العدد في سنة 1896 [5]، ليصل إلى حدود مائتين واثنين وثلاثين الفا، لم يغادرها سوى القليلين. وقد كتبت الصحافة المحلية منددة بالوضع، وفي مقالة افتتاحية لها نشرت جريدة الإمبرثيال El Imparcial بوضوح في عددها ليوم ثاني دجنبر سنة 1897، ،انه من جملة مائتي الف رجل رحلوا إلى كوبا في غضون سنة واحدة، لم يبق اليوم سوى مائة واربعة عشر الف وتسعمائة، [6].

كان فرنانديث سيلفستري واحدا من المرضى (المحظوظين)، ففي العاشر من يوليوز 1897، دخل إلى مستشفى بلاثيتاس Placetas، تنتابه حمى قوية (كانت نوبة قوية من المالاريا)، تحملها دون عناء بفضل بنيته القوية. في هذه الظروف، تمكنا نحن من معرفة لون عينيه البُنّيتَيْن وتكوينه الجسماني الجيد، أما فيما يخص طبعه، فقد قيل انه كان "لطيفا" بالرغم من ان "مزاجه" "وميولاته" لم يكن احد يعرفهما[7]. كانت صورة شخصية سيلفستري الرجل العسكري، على وشك الاكتمال، كان اجتماعيا وودودا، شجاعا وصبورا، وجريئا وحازما وغامضا كذلك.

حينما حاولت فرقة القائد ثيرفيرا Cervera، التخلص من الحصار المفروض عليها في سانتياغو دي كوبا (في الثالث من يوليوز 1898)، جاء اجلها على يد فرقة شلي Shley آنذاك. فكر الجنرال تورال كابيلا Toral cavila، في كيفية الاستسلام امام قوات شافتر shafter -وهو ما حدث في الأربعة عشر يوما الموالية-. وقتها كان فيرنناندث سيلفستري، مايزال في فترة النقاهة، إذ خرج لتوه من مستشفى المرون Morron. لكنه وفي الشهور السالفة، كان قد أصبح قائدا ذا سيطرة وشهرة كبيرتين رغم كل الجروح التي كانت تكسوه. كان كل جسده مثخما بالجروح، التي وصل عددها إلى اثنين وعشرين جرحا. واحد وعشرون منها كانت بسبب طلقات نارية أصيب بها في قتاله الشهير بمزرعة "لاكريداد" (في مكان مخصص لتربية الخيول تحيط به البحيرات. هنالك هاجم سيلفستري المامبيس Los Mambies، مرتين على رأس ثلة من الفرسان المحبطين، والذين كانوا من فرقة "الأمير" الثانية للفرسان.

أثناء الهجوم الأول في الحادي عشر من يناير 1898، أصيب القائد سيلفستري بعيارين ناريين، كما أصيب بثلاثة عيارات أخرى في هجوم ثان حدث وسط وابل من

الخناجر التي جرحته ثلاث عشرة مرة في راسه وجسده واطرافه[8]، فسقط مغمى عليه. كان يبدو كانه ميت كحصانه الذي بجانبه، الشيء الذي حال دون الإجهاز عليه. وقد خرج من هذا الحادث بعدة جروح وبإعاقة في ذراعه الأيسر، كان يخفيها بمهارة.

طلب سيلفستري وبنصيحة من لجنة طبية ,رخصة مرضية مدتها اربعة اشهر، وذلك للذهاب إلى إسبانيا حتى يتماثل للشفاء، كان بإمكانه ان يذكر في طلبه -الذي وقعه في الثامن من غشت 1898 بخط مذبذب- كل جروحه، خاصة الجروح الاثنين والعشرين[9]، التي افزعت لجنة الطب العسكري، التي كان يراسها خواكين مورينو دي لاتخيتا Joqauín Moreno De La Tejeta، والتي أجرت على جسمه المليء بالجروح، فحوصات في هابانا Habana، وليس بمستشفى المرون الذي هرب منه قبل أن يستعيد عافيته.

عاد سيلفستري من كوبا على متن باخرة مونتسيراط Montserrat، برفقة مساعده الجندي إدواردو خوردان ميرايس Eduardo Jordan Miralles. وفي التاسع والعشرين من غشت 1898، وصلت إلى لاكورونيا الجيوش الإسبانية التي قاتلت في ما وراء البحار. كان الحزن والأسى والسخط باديا على محياها، كيف لا وقد رجعت بخفي حنين. كان الاحتقار المؤسسي للجيش شنيعا، بخلاف الشارع والمؤسسة الرائدة للصليب الأحمر، التي بادرت إلى مساعدة أولئك الآلاف من المنبوذين (الجيش). استمرت سلسلة المآسي إلى ربيع 1900، وذلك بعودة آخر فوج من الذين بقوا على قيد الحياة، وهو ما يقارب ستة آلاف من الأسرى القادمين من لوثون Luzon.

وفي شتنبر 1898، تم الاعتراف لسيلفستري برتبة كومندان. كان ذلك اعترافا ببطولته في "لاكاريداد". وإلى حدود شهر أبريل 1899، كان مايزال غير قادر على القيام بأي مهمة. وفي غشت الموالي، طلب الترخيص القانوني ليعقد قرانه على إلفيرا دوارتي إي اوتيثا Elvira Duarte y Oteiza، التي رزق منها بولدين هما، إلفيرا ومانويل.

جولات عسكرية بمليلية المنجمية

ضيعت إسبانيا ممتلكاتها واصبحت دون إمبراطورية، رغم احتفاظها ببعض الثغور في غينيا، وإفني -التي لم تحتل بعد-، والصحراء والحصانين الإفريقيين. كما أن منافِستها الأوروبية فرنسا، كانت تمر كذلك بلحظات عصيبة. فعلاوة على قضية دريفوس Dreyfus،

التي تورط فيها الجيش الغالي، انضافت أزمة أخرى غير متوقعة، تمثلت في انسحاب قوات مارشند Marchand، أمام جيوش كتشنر Kitchener بفشودا Fachoda (بالسودان في شتنبر 1898). ونتيجة لذلك قرر وزير الخارجية الجديد تيوفيل ديلكاسي Théophile Delcassé، ان يأخذ العبرة من هذه الهزيمة، فوضع مخططا استراتيجيا جريئا ومعقدا، يقضي بالتصدي لبريطانيا في حالة معارضتها لاستيلاء فرنسا على بلدان حوض النيل. في هذه الحالة، ستوجه هذه الأخيرة قواتها الاستعمارية نحو شمال إفريقيا، وبذلك ستستعيد هيبتها الاستعمارية. حيث ستؤسس حلفا مع منافستها (إسبانيا)، ومعا سيتصديان للعدو اللذوذ، المانيا. وهكذا وقعت معاهدة "الاتفاق الودي" Entente Cordiale سنة 1904، لترسيخ هذه السياسة الاحترازية. ولكي تبسط سيطرتها على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، كانت فرنسا تحتاج لصديق ليس بالقوي ولا بالضعيف، هذا الصديق هو إسبانيا. البلد الذي تجرع المرارة بسبب أحداث 1898.

عرضت فرنسا، في شخص وزيرها دلكاسي، على سيلفيلا Silvela، مشروع المشاركة في تقسيم المغرب، غير أن سيلفيلا ساورته المخاوف، بعد ان عرف أن المحادثات جرت تشاورا مع بريطانيا العظمى، وفيما بعد حضر ماورا ليزيح بعض الغموض، فوقع معاهدة سرية في سنة 1904، والتي بموجبها أصبحت منطقة الريف من نصيب إسبانيا. أرض قاحلة ذات تضاريس وعرة، يفترض انها غنية بالثروات المعدنية. لكن مقاتليها كانوا ذوي شجاعة معروفة.

وجد سيلفستري نفسه في إفريقيا وبالضبط في مليلية، التي وصل إليها في يناير 1904، بعد رحلة شاقة مر خلالها عبر مناطق عسكرية في شبه الجزيرة، متوقفا بقلعة هنارس بوادي الحجارة، مدريد، وسرقسطة، وفي أول مدينة ساحلية بالريف، تراس سيلفستري كتيبة كاثادورس، التي ترك فيها بصماته واضحة. وفي مليلية شرع في دراسة اللغات الإسلامية لمدة ثلاث سنوات، وقد أحرز في سنة 1908 على دبلوم "إتقان اللغة العربية"، بالإضافة إلى جائزة تقدر بـ الفي بسيطة ،تقديرا للنجاح الباهر الذي حققه في الامتحانات،[10]. كما حصل سيلفستري على ميزة "جيد جدا" وهو تقدير تَفَوق به على زملائه الأربعة عشر. ثلاثة عشر منهم كانوا عسكريين. وفي تلك السنة الدراسية لعام 1908، وبعد اجتياز الامتحانات، أحرز على لقب "مترجم اللغة العربية"، والذي ينص على ترجمة العديد من المخطوطات وإجراء محادثة مع أحد الأساتذة المساعدين بمدرسة

سي علال الورطي، كانت الشخصية المختارة، تاجرا مثقفا ومعروفا بمليلية[11]، واستاذا للغة العربية. يتعلق الأمر برجل ريفي محافظ ذي نظرة ثاقبة للأمور، ينحدر نسبه من عائلة من اجدير لها وزنها الاجتماعي؛ إنه محمد عبد الكريم، الذي كان يبلغ من العمر ستة وعشرين سنة، وهو من أعطى ميزة جيد جدا للقائد سيلفستري على إنجازاته[12].

أصبح النجاح الذي أحرزه سيلفستري في امتحانات اللغة العربية، وفي قيادته اليومية لفرقته العسكرية، بلسما خفف عنه احزانه. كيف لا، وهو الذي أصبح وحيدا ومنزويا بعد وفاة زوجته إلفيرا دوارطي أوتيسا بمليلية منذ عام واحد بطريقة مفاجئة. وهكذا، وبعد ثمان سنوات من الزواج، أصبح ارملاً.

كانت زوجته إلفيرا امراة جميلة، وجاءت وفاتها بطريقة مفاجئة؛ إذ لا شيء كان ينبئ بدنو أجلها. ففي صبيحة يوم السبت التاسع عشر من يناير 1907، وبعد استيقاظها من النوم بقليل، تعرّضت لنزيف في الدماغ فقدت على إثره الوعي. وفارقت الحياة في الخامسة مساء من نفس اليوم[13].

في مارس 1908، ازدادت أهمية مليلية من الناحية المنجمية والجيوسياسية؛ وذلك على إثر عملية مشتركة بين السلطات الإسبانية والقيادة الريفية المحلية. إذ قرّر المقيم العام بمليلية خوصي مرينا فيغاJosé Marina vega، النزول بجبهة رستينغا Restinga، وهي جبهة ساحلية طبيعية تُوفر الحماية للريف الداخلي الذي شهد بدء عمليات استغلال مناجم الحديد بـ (بني بوإفرور)، والرصاص بمنطقة (عفرة Afra). لكن إسبانيا لم تكن هي الوحيدة المستفيدة، بل كذلك مجموع المقاولات الأوروبية المتمثلة في تكتلات اقتصادية مثل، دلبرل، وكين، ووليامس نسمان، بالإضافة إلى كُبريات شركات صناعة الأسلحة، كرويسط، وكراب، وشنيدر، وفيكر. وقد أظهر اهتماما بالغا بهذه الثروات المعدنية التي تزخر بها منطقة شمال المغرب. كل هذه الأطماع اختزلت في اسم تجاري، كانت له فيما بعد نتائج سياسية جد معقدة، ويتعلق الأمر، بالشركة الإسبانية لمناجم الريف.

هذا وقد قامت عائلات إسبانية ذات وزن اقتصادي، كعائلة كومياس Comillas، وفيغيرو Figueroa، وغارسيا اليكس Garcia Alex، وغويل Güell ولإيغليسيا Laiglesia، بالتدخل في مراقبة الريف. وكانت عائلة فيغيرو من أبرز العائلات في القائمة، وذلك بالنظر للوزن السياسي الذي كان يحظى به واحد من افرادها، وهو الفارو فيغيرو إي

طوريس Álvaro Figueroa y torres، عمدة مدريد (ما بين 1894-1895 و1897-1899). كما تقلد هذا الأخير اربع مرات، منصب الوزير في عدة حكومات ليبرالية. وفي سنة 1921، وعن سن تناهز الثامنة والخمسين عاما، كان السياسي الأكثر معرفة بواقع المغرب وصعوبة المحافظة عليه، وقبل ذلك بسنة واحدة، لقي ولده الملازم خوصي فيغيرو إي الونسو مارتينث José Figueoa y Alonso Martinez حتفه، بسبب طلقة نارية اصابته في رأسه في تفريست (امام شفشاون).

كان الفرنسيون هم السباقين إلى عمليات التنقيب الهستيري التي انتهجتها أوروبا في التراب المغربي، وذلك عن طريق الشركة المغربية، ثم الشركة العامة للمغرب الشهيرة سنة 1903 . فبدأت بذلك عمليات استنزاف خيرات الإمبراطورية الريفية، كانت إسبانيا بطيئة جدا في تنقيباتها[14]، مع العلم ان ما جنته لم يكن بالشيء اليسير. وفي يوليوز 1907، وبعد سنة من بدء السباق الاستعماري الذي انطلق من الجزيرة الخضراء، والذي كان يهدف إلى القضاء على المغرب بصفته دولة، تم الحصول على ترخيص من قواد ريفيين يسمح باستغلال منطقة ويكسان Uixán -المجاورة لبني بويفرور-. ارتبط هذا الترخيص ببناء سكة حديدية لنقل المعادن المستخرجة إلى مدينة مليلية. كان احتلال المغرب يهدف في العمق إلى أمور تفوق بكثير استخراج حديد الريف ونقله في اتجاه أوروبا الجشعة.

لم يكن مارينا يهتم بالشكليات، وكذلك الشأن بالنسبة للجيلالي بن ادريس عبد السلام اليوسف. خلاصة القول، إن هذا الأخير لقب نفسه بـ"الروكي" وطالب بأحقيته في عرش فاس. كان محتالا كلاسيكيا، ذا شخصية جذابة، تفتقر إلى كل الخصال الحميدة.

هزم الروكي مقدمة جيش السلطان مولاي عبد العزيز، وحكم سيدا على الريف انطلاقا من مزرعته بسلوان (تبعد عن جنوب مليلية بثلاثين كلم)، دون ان تكون له سلطة على أجدير، حيث كان بنو ورياغل يتمتعون باستقلالية تامة.

كان الروكي بحاجة إلى المساعدة الإسبانية، خاصة بعد مطالبة مولاي حفيظ، -الذي أعلن انفصاله في شتنبر من سنة 1907 عن السلطان عبد العزيز، الذي كان يهوى اقتناء السيارات الفاخرة والحيوانات النادرة الغريبة- بحقه في العرش، لكن الروكي ورغم حاجته الماسة إلى تلك المساعدة، فقد حافظ على هدوئه خوفا على هيبته. لأجل ذلك اتفق مع مارينا على القيام بعملية عسكرية وهمية في ريستينغا،

تتلخص في مجيء قوات إسبانية ضخمة يتراجع أمامها الروكي دون أي مساس بسلطته. وفيما بعد، يوقع الطرفان اتفاقية السلام التي تتماشى ومصالح المتعاقدين.

وبعد مرور أيام على هذه التمثيلية الهزلية، جاء مارينا ليتفقد بنفسه قواته في الثامن من مارس 1908، وبما أن الأمر كان يتعلق بمحاولة لاستعراض العضلات ليس إلا، فإن الجنرال طلب إرسال حرس شخصي متميز، فالتحق به سيلفستري على رأس أربعين من فرسان كاثادورس بمليلية، كان منظر هؤلاء الفرسان وقائدهم يثير الهيبة في النفوس[15]. ومن المؤكد أن الروكي انبهر بذلك القائد صاحب الشارب الكثيف، والزي الأنيق والتعامل السلس. كان هذا النوع من التخطيط يسمى (التكتيك) بالجولات العسكرية.

لم يخدم هذا التمويه مصالح الروكي، فمارينا نفسه ساعد على إعطاء الضربة القاضية للروكي على أرض الريف. والقصة أن أهالي أجدير رفضوا أداء ما عليهم من خراج، فتضايق الروكي وأرسل ضد المتمردين فرقة عسكرية ضخمة يقودها الجنرال الذي كان يلقب بـ"الأسود" (الجيلالي مول الأودو). وعند وصول الجيلالي إلى منحدرات إمزورن بالقرب من النكور[16] في السابع من شتنبر 1908، سقط في كمين نصب له. وبالرغم من أن الجنود الإسبان المتمركزين بالحسيمة شاهدوا المأساة من بعيد، إلا أنهم لم يطلقوا ولو رصاصة إنذار واحدة، انتقيادا لأوامر مارينا.

وهكذا اشتد لهيب التمرد ضد الروكي، الذي اضطر إلى إضرام النيران في سلوان الغالية عليه في أكتوبر 1908. وبعد شهور من المقاومة، تمكن بنو ورياغل من محاصرته وتقديمه للسلطان (من جهة المؤرخين المغاربة فإن قبائل بني مستارة "نواحي وزان" هي التي ألقت القبض على الروكي [المترجم]). وفي الرابع والعشرين من غشت 1909، دخل إلى فاس بشموخه المعتاد مكبلا بسلاسل وأغلال في قفصه الحديدي. وقد صاحبه الناس بصراخهم وسخطهم، وهناك أعدّوا له حفرة مليئة بالأسود وأُطلقت النيران على جثّته، التي أحرقت فيما بعد لكي لا يبقى في شمال المغرب[17] أي أثر للتمردات الانفصالية. في تلك الفترة، كانت إسبانيا تستعد لعدو أكبر، إنه الكوروكو وحاميته القوية.

كان سيلفستري -أثناء موقعة وادي الذئاب (يوليوز 1909)- منشغلا بتفتيش طوابير الشرطة الأهلية بطنجة وتطوان والعرائش. وفي الوقت الذي كانت فيه القيادات الإسبانية تتلظى تحت لهيب النيران الشديدة التي أحدثها الريفيون، وتتعرض لخطر

الأمراض، كان سيلفستري يجوب الأراضي الغربية لشمال المغرب في غارة شاسعة تقدر مساحتها بثمانمائة كلم، قطعها ابتداء من سبتة وأصيلا، ووصولا إلى القصر الكبير ووزان[18]. وقد كللت هذه الحرب بالانتصار. عُرف سيلفستري بتحمسه للحرب، وعشقه للموت، الذي لم يصادفه في منخفضات الكوروكو Gurugo.

سيلفستري يتعلم دهاليز الحماية

بعد تجربته في مليلية، رحل سيلفستري إلى مدينة الدار البيضاء ليتولى منصب قيادة الفيلق الرابع لشرطة المدنية. هناك انيطت به مهمة صعبة تمثلت في مراقبة هذه المدينة الأطلسية التي مازالت رائحة الدمار تفوح منها، كيف لا، وهي التي شهدت قصفا مكثفا شنته فرنسا منذ الثلاثين من يوليوز وحتى السابع من غشت 1907، وفيما بعد، نهبتها الجيوش السينغالية والفرق الأجنبية في عمليات سطو وحشية. كل هذا العنف جاء انتقاما وردّ فعل لمقتل تسعة من العمال الأوروبيين (ثلاثة منهم إسبان)، فسقط الكثير من الضحايا، حيث وصلت الحصيلة إلى الفي قتيل[19].

وفي الدار البيضاء، لم يتردد سيلفستري في اتباع نصائح النقيب إنريكي أوبيلو Enrique Ovelo، الذي اقنعه بالتخلي عن هذه المهام. فتنازل سيلفستري عن طواعية عن متابعة الفرنسيين وقمعهم.

كانت تصرفات سيلفستري بالدار البيضاء -والتي تزامنت مع حكومة كناليخاس Canalejas- سببا في تأهله في الثالث والعشرين من يوليوز 1910، للارتقاء إلى منصب "شريف"[20]. وبالرغم من ان علاقته بالفونصو الثالث عشر كانت علاقة شكلية فقط، إلا انها كانت كافية لزرع بذور الثقة في نفسية سيلفستري، الذي بات يطرح أفكاره في حضرة الملك بكل صراحة.

وباستيلاء قوات الجنرال موانيي Moinier على مدينة فاس في الواحد والعشرين من مايو 1911، أطلقت فرنسا العنان من جديد لتحركاتها العسكرية. وهكذا فقدت سلطة مولاي عبد الحفيظ هيبتها، واندلعت الثورة الشعبية التي امتد وهيجها إلى مدينة القصر الكبير والعرائش، حيث تعرض المعمرون الإسبان من تجار، وقساوسة، ومربين إلى جملة من الاعتداءات. وأمام هذه الأحداث، استاء خوصي كناليخاس مينديث زعيم الليبراليين، الذي لم تتحقق احلامه الرامية إلى تطبيق استعمار ليبرالي.

كما اندهش كناليخاس للسرعة الفائقة التي انهى بها الفونصو الثالث عشر الأزمة، إذ عهد إلى الجنرال سيلفستري قيادة العرائش.

لم يكن الاستيلاء على ذلك الميناء في السواحل الأطلسية المغربية عند خط اللوكوس، بالعمل الدفاعي للمعمر، لقد كان عملية توسعية إسبانية خالصة.

وبعد توقيع المعاهدات مع فرنسا، صرح خواكين سانشيث دي طوكا Joaquin Sanchez de Toca -داخل مجلس الشيوخ سنة 1913- بما يلي، «إننا مدينون كثيرا لفراسة الملك وحسن تبصره»، وحسب عمدة مدريد سابقا، كان الملك الفونصو الثالث عشر، يمتلك فراسة قلما تخطئ، واكد انه لضمان المجهود الاستعماري، يجب، «الا نتنازل عن الأراضي التي احتلها الإسبان». وكرر الزعيم المحافظ بأن، «الانتصار على العرائش، يرجع الفضل فيه إلى تبصر وحدس الملك»[21].

لم تكن فراسة الملك الفونصو الثالث عشر وحدها تكفي لحل الأمور، فظهر في هذه اللحظة شخص غريب الأطوار، إنه الريسوني.

إسبانيا، في عهد سيلفستري ومغرب الريسوني

ولد مولاي أحمد بن محمد بن عبد الله الريسوني، اليونسي أو (الإدريسي)، بقرية الزينات بقصبة طنجة، بمنطقة الفحص عام 1873[22]. وكان سليل الشريف مولاي عبد السلام بن مشيش، الولي الصالح بجبل العلم، وهو جبل مقدس عند اهالي جبالة وجهة بني عروس، التي سيتزعمها لاحقا. قضى الريسوني أربع سنوات كابوسية (1897-1900) في السجون العلوية المظلمة بالصويرة[23]، (هذه المدينة التي كانت تُعرف قديما بـ موكادور عند البرتغاليين)، وذلك بتحريض من با احمد، وزير عبد العزيز الفاسق. شُدّ وثاق الريسوني إلى الحائط، وكُبّل بأغلال وسلاسل حديدية، وبجواره كانت تقبع جثث الأسرى الآخرين، تنخرها الفئران حتى العظام. لم يخرج الريسوني من موكادور ثائرا، بل رجلا قاسيا لا يرحم. فبادر إلى خطف الصحفي البريطاني والتر هاريس Walter Harris (في يونيو 1903)، والمليونير الأمريكي -ذي الأصل الإغريقي- جون هانفورد بردكاريس John Hanford Perdcaris لكن الرئيس تيودور روزفلت، تدخل وقتها، وهمّ بإرسال سرب من البواخر (في ماي ويونيو 1904)، وذلك لإرغام الريسوني على إرسال الرهائن إلى طنجة.

كان الريسوني سليل عائلة الأولياء، الشيء الذي يفسر تمتعه بسلطة روحية وسياسية مطلقة فرضها على أبناء بلدته. وكانت له كذلك شرعية عسكرية نالها بفضل جهاده ضد الخونة. وشعبية كبيرة حظي بها لوقوفه موقف المعارضة في وجه نظام الحكم الفاسد. ولم تكن هذه المواقف لتحرمه من تقلد منصب حاكم مدينة طنجة واصيلا -هذه الأخيرة ستصبح فيما بعد حصنه المنيع- بأمر من السلطان مولاي حفيظ.

كان الريسوني رجلا ضخم البنية، بالرغم من بعض عاهاته التي شوهت جسمه، وكان يرغب في أن يصبح خليفة، والخليفة هنا بمعنى خليفة الله في ارضه، والتابع لسنّة نبيه وامير المؤمنين، وهي أشياء اضفت عليه صفة النبل والشرف. وكان كذلك رجل تقوى وورع، وصاحب تفنن في القساوة، لا تعوزه الصراحة ولا الصرامة ابدا، كانت له روح وأنماط الشعراء، يكتب رسائل رقيقة مزخرفة تتضمن نوايا حادة، ومازالت هذه البرقيات محفوظة تذكارا رسائليا لسياسة إفريقيا الشمالية. كان مولاي احمد يحرك جسمه بصعوبة واضحة (إذ كان وزنه يصل إلى مائة وخمسة عشر كلغ)، ولم يكن هذا الأمر وحده مصدر سخرية وتهكم الناس منه، بل كذلك منظر راسه الكبير ووجهه المكسو بلحية سوداء كثيفة، ونظراته الثاقبة والمتفحصة. كل هذه العناصر، كانت تقلق وتضايق مخاطبيه. كان الريسوني قد استنزف كل قوته الجسمانية بالأمس القريب، حينما كان مقاتلا بارعا.

وفي سنة 1911، كان الريسوني يعيش باصيلا، باشا، له حرية التصرف في كل الأمور. وكانت العرائش والقصر الكبير تخضعان لسلطة قضائه المطلقة، كما كان بيده الحل والعقد. ولو شاء لكان دخول الاستعمار الإسباني قد توج بكارثة عظمى.

وفي السابع من يوليوز 1911، أذيع خبر مقتل عائلة ابن مالك الموالية لإسبانيا، بعد أن اختطفت في الثلاثين من مايو الماضي من طرف البكار (مولاي احمد التازية)، المعروف بإثارة الفتن. وهكذا، تمزّقت كل روابط السلم مع غرب المغرب، وتسببت هذه الجريمة في فوضى، حرّضت الشعب ضد الأجانب[24]. فكانت رؤوس احمد بن مالك ونجليه الاثنين يتجول بهما في الأسواق. وكردّ فعل مباشر، تكتلت مجموعة من القوى التي توحّدَت قراراتها، فأعلن التازية عن عدائه للريسوني، وابتعد الزعيم الجبلي عن الصخب الشعبي المتاجج، بعدما تحركت إسبانيا لتثار من هذه الجريمة. وهكذا، وجد كاناليخاس Canalejas نفسه مضطرا إلى التدخل في الأمر، خصوصا بعد أن عبأ الفونصو الثالث عشر، الجيوش اللازمة للقيام بهذه العملية.

وفي العرائش، قرر اوفيلو Ovilo، شن هجوم بجيش قوامه مائة وستة وستين رجلا. كانت الوحدات العسكرية مكونة من فرق بحرية، ومشاة مستقطبين من كاطالونيا، علاوة على بعض العناصر التي أُخذت من الطابور العسكري الخاص[25]. كانت الخطة تقضي بالزحف نحو داخل منطقة العدو بكل شجاعة ورباطة جاش. وبعد عشرين ساعة متتالية من المشي على الأقدام، مرورا بنهر اللوكوس الممتلئ بالماء ووصولا إلى مدينة القصر الكبير، سقطت المدينة. لكن الجنود مكثوا بعيدا، واحتمت زمرة من الإسبان بأسوار المنطقة خوفا من اي هجوم قبائلي شامل. ورغم كل هذه الصعوبات، كان هناك امل واحد يدغدغهم، وهو وصول قوة عظمى، إذ ظهرت باخرة إسبانيا España، التي رست في وسط حشد كبير اندهش كثيرا لمنظر البارجة، التي نزل من ادراجها الجنرال سيلفستري، القادم من الدار البيضاء حيث توصل هذا الأخير، بقرار التوجه إلى العرائش في الثالث عشر من يونيو، فصعد في اول مركب، دون ان يعد حقائبه او يستعد للرحلة. لم يشأ سيلفستري ان يتغيب عن اكبر واول مغامرة له بصفته زعيما إفريقيا، فلم يُخفق بل انتصر. حطّ سيلفستري رحاله دون مساعدين، كانت الغطرسة تتملكه وعلامات التهديد تبدو على وجهه جلية للعيان. اما الريسوني، فقد انبهر لجراة هذا الجنرال. ولكي يرضي رغبته في الانتقام من التازية، اصدر أوامره بفتح الأبواب على مصراعيها للإسبان.

انسجم كل من الريسوني وسيلفستري، فكلاهما كانا يتصرفان وفقا لما يمليه الضمير المتبصر. فإلى جانب سيلفستري المقاتل الكبير في مانيغوا Manigua ومحارب المامبيس، كان الريسوني المفاوض والمقاتل الذي ذاع صيته في المغرب.

احتجت حكومة غايو Gaillaux، التي اعتبرت هذا التواجد بالعرائش عملا غير مبرر[26]، ومنافيا لروح ميثاق الجزيرة الخضراء. لكن إسبانيا لم تلطخ يدها كثيرا بدماء ضحايا العرائش، مقارنة مع ما خلفته فرنسا من قتلى بالدار البيضاء. وهكذا وبتدشينها لمركز القيادة بالعرائش، ضربت المدينة في مؤهلاتها اللوجستيكية، فكان هذا خطأ فادحا واد موارد إسبانيا الاستعمارية.

وفي مدريد، واثناء اجتماع سياسي اقيم في منتجع جاي-الاي Jai-Alai، ذكر ميلكياديس الفريث Melquiádes Álvarez، «اننا ذهبنا إلى المغرب بدافع الغزو، مدفوعين بحماسة بعض العسكريين الذين لا يحبون وطنهم»[27].

وتفاقمت الأزمة بوصول باخرة بانثير Panther الألمانية إلى اكادير في الواحد من يوليوز 1911، إذ لم تشأ المانيا أن تكون اقل من إسبانيا. ولم ينته هذا المشكل سوى في الرابع من نونبر، وذلك بانتصار البرغماتية الاستعمارية، فربحت المانيا ما مقداره مائتين وخمسة وسبعين الف كيلو متر مربع من الأراضي في الكونغو، في حين استعدت فرنسا لبسط سيطرتها على المغرب، واكتفت إسبانيا بأن تكون حليفا سعيدا بحظه.

عنصر ثالث في الخلاف:

مغرب اليوطي

اكتسى وجود القوى الاستعمارية الفرنسية بالمغرب، طابعا يوحي بحرية التصرف، إذ كان على السلطان مولاي حفيظ أن يوقع أولا المعاهدة الفرنسية-الألمانية، التي قدمها له الخائن رونو Regnault -قنصل فرنسا في مدينة فاس- ليقبل فيما بعد، وبالضبط في الثلاثين من مارس 1912، بنظام الحماية. فاختفت بذلك صورة المغرب بصفته دولة، وتحولت العائلة الملكية إلى مجرد قطعة ديكور بسيطة.

ثارت ساكنة مدينة فاس ومعها الجنود الأهليون، فلقي الضباط الفرنسيون التابعون للجيش الشريفي مصرعهم، وبات المغرب يغرق في بحر من الفوضى (17-18 من أبريل). وغير بعيد عن نوايا فرنسا، عاد موانييMoinier بفرق عسكرية اكبر من المرة الأولى. وصل عددها إلى أربعين الف رجل. كانت هممهم عالية، لكن حصيلة القتلى لم تكن كبيرة مقارنة مع أحداث الدار البيضاء، ولكن كادت ان تعادلها، إذ إنه وفي الواحد والعشرين من مايو، كان على المواطنين المغاربة أن يتوحدوا في صف واحد، ويولوا وجوههم شطر قبورهم، ليقتلوا رميا بالرصاص على ظهورهم.

عُرض خيار النفي على مولاي عبد الحفيظ، فقبله هذا العلوي بنفس راضية مرضية. كان يخاف أن يقذف به إلى الأسود، مثلما فعلوا مع الروكي، فرحل إلى خارج الوطن، واستوطن فرنسا وإسبانيا لمدة طويلة. عاش خلالها على حساب نفقات كثيرة لا تنتهي، كان مولاي حفيظ يحس بنعيم كبير، وبعد انصرافه إلى الخارج، خَلَفه في الحكم أخوه مولاي يوسف، هذه الشخصية الهشة، التي نالت إعجاب قياديي الحماية. كانت فرنسا تستعد لبسط سيطرتها المطلقة على المغرب، فجاءت بصحبة أحد

زعمائها البارعين، أومبرت ليوطي، الذي انتهج سياسة الصرامة واللين في الآن نفسه. فلم تسجل خلال هذه الحقبة حماقات عسكرية، بل كان الاتفاق والإجماع سيد الموقف، حيث إن أعيان البلاد، كان لهم كذلك حق التدخل، أما فيما يخص الانفصاليين، فقد أعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ليرهبوهم.

أما فيما يخص الجانب العسكري والاستعماري، فقد كان ليوطي ينتهج السياسة المطبقة في الجزائر. فانتهج في المغرب سياسة استعمارية ذكية، الهدف منها تقديم المغرب إكليلا من الزهور للإمبراطورية الفرنسية. كان ليوطي صارما ومتسامحا، وكان ضميره هو أعز أصدقائه الذي يتفانى في خدمته، كان لا يقبل بأية سياسة تخالف وطريقته الدقيقة في التعامل. حقا، لقد كان هذا التعايش مع ضميره أخويا.

كان ليوطي رجلا شارد الفكر، عنيدا، مستهترا، فطنا، قليل الكلام، ومجتهدا في عمله، وكان أفضل ممثل للاستعمار، وبطبيعته الفخمة، سحر اليوطي جمهور المغاربة الذين قبلوا به سلطانا عليهم، وهو صاحب الثمانية والخمسين من عمره، فأخلص لهم ولم يخذلهم.

سيلفستري وترشيحه للريسوني خليفة

كان سيلفستري يدرس بهدوء الأحداث الفرنسية-المغربية في مقره بالعرائش، وفي رسالة "سرية" بعث بها إلى فليب الفاو Felipe Alfau، الكاتب العام بسبتة جاء فيها: «إن الأخبار التي تتعلق بأحداث فاس تؤكد أهمية الانقلاب، وتلقي بظلالها على فشل رونو ومونيي، وهما نموذجان غير متبصرين»، ويضيف قائلا: «إنني أحسب أنه من الخطأ أن تكون بهذه البلاد سلطات متعددة الاختصاصات، في حين أن الحل الوحيد هو الحرب. الحرب فقط هي التي ستعيد الأمور إلى نصابها»[28]. وهنا أشار سيلفستري إلى الصعوبات التي واجهته في زمن رئاسة برنكر للإقامة العامة، وهو منصب سياسي تزامن مع إشرافه هو على الجيش بإفريقيا.

لم يشأ سيلفستري أن يتنازل عن شروطه (الحرب)، وهو في هذا يشبه كلاوسويت Clausewitz تماما، ومن ناحية أخرى، كان شخصا لا يقبل بالحلول الوسطى. وفي الرسالة نفسها الموجهة إلى الفاو، المكتوبة بتاريخ الرابع من مايو 1912، عدّ سيلفستري تعيين الخليفة (نائب السلطان)، واحدا من الأهداف المهمة جدا، وأضاف

قائلا، .إن وضع رجل من البلاط الملكي في ذلك المنصب، سيكون خطأ فادحا،. لم يخطئ سيلفستري حينما سلط الضوء على من يفضل في هذا المنصب، حيث قال، .رجل حرب يستطيع بمركزه ونفوذه، أن يضع رهن إشارتنا دون سفك دماء أو تبذير أموال، محافظة نستطيع أن ننهج فيها سياسة مناسبة تمكننا من توسيع نفوذنا...،.

لم يكن المرشح لهذا المنصب شخصا آخر سوى الريسوني، ولم يتوانَ سيلفستري في أن يبرز لألفاو Alfau أوجه التشابه التي تجمع الريسوني بالروكي، املا في تجنب الخطأ نفسه الذي اقترف مع الريفي. وتمر الأيام، ويكتب سيلفستري لألفونصو الثالث عشر، مدافعا أمام جلالته عن طلب ترشيح الريسوني، بوصفه رجلا ذا موهبة، وكذلك لأنه يمتلك في المنطقة التي نحتلها الآن عدة مصالح تهمنا[29].

كان سيلفستري ديبلوماسيا كبيرا، وكان موضوع الجيش يثير اهتمامه كثيرا، فحشد في العرائش جيشا قوامه أربعة آلاف رجل، وذلك في صيف 1912. ولم يعارض الريسوني هذه التحركات، فكلما كانت القوة الإسبانية أكبر، كلما قل الخطر القادم من فرنسا وحلفائها. وهكذا، حانت فرصة تحالف إسبانيا مع هذا الجبلي في إحدى العمليات عند أصيلا، هذه المدينة التي كانت شبه محتلة من طرف فيلق عسكري فرنسي، مد خطوطه التلغرافية مع طنجة. وصل سيلفستري في السابع عشر من غشت 1912، مع حاميته إلى عين المكان، وقذف الرعب في نفوس الفرنسيين الذين اندهشوا لهذا الموقف.

ذعرت مدريد ونددت بهذا السلوك، في حين غضبت فرنسا وبقي الريسوني قلقا، كان الإسبان عدوانيين عدوانا كبير، واكتفى سيلفستري بالتبسم. لقد رد الصاع صاعين انتقاما للهجومات التي نالتهم في العرائش فيما مضى بسنتين، أمام كل من القنصل بواست Boisset والملازم ثريت Thieriet [30]. اعتبر كناليخاس Canalejas، سيلفستري رجل حرب تجاوز حدوده، ورغم ذلك تركه هذا القائد الليبرالي وشأنه. كانت ساعة توقيع المعاهدة مع فرنسا تقترب، وكان رجال آخرون يستعدون لتسيير نظام الحماية.

إسبانيا - فرنسا، رقعة شطرنج معقدة

في الثاني عشر من نونبر 1912، اطلق مانويل بارديناس سيراطو (وباحترافية كبيرة) رصاصتين اخترقتا ظهر رجل كان منحنيا على واجهة مكتبة سان مارتين. كان الرجل

يبحث عما جد في سوق النشر. كان قريبا من السمنة، يرتدي بذلة سوداء طويلة. وباغتياله فقدت إسبانيا احسن ممثل لها في نظام الملكية. لقد قضى الرصاص، الذي خرب رأس كنالخاس على التيار الإصلاحي الذي دشنه الفونصو، والذي حظي بثقة كبيرة، ومثل افضل تطلعات واحلام الشعب.

لزمت إسبانيا الصمت إزاء هذه الجريمة، وفضلت الملكية ان تختبئ في شخصية رومانونيس Romanones، فاستسلمت للقدر. وبموازاة مع ذلك، كانت آلية الاستعمار تسرع خطاها.

اصدر راموند بوان كري Ramond Poin caré، تعليماته لقنصله في مدريد السيد جيوفراي Geoffray، وبتوقيع ما أسَمُوه بـ إبسو فكطو Ipso facto، وهي اتفاقية لم يتم التصويت عليها بالإجماع. لكن الإسبان، قبلوا بها عن تراض. نصت البنود على عدم التنازل عن الشريط الأيمن لملوية، ولا الأيسر للوكوس. وأُجهضت كل محاولة للحديث عن وهران أو وزان. ورضي رومانونيس بذلك التقسيم، واكتفى بما أعطوه من الأراضي (واحدا وعشرين الف كيلو متر مربع)، مقابل أربعمائة وخمسة عشر الف كيلو متر مربع، وهي مساحة كانت من نصيب فرنسا. تلك إذن كانت هدية مسمومة قُدمت لإسبانيا، واستعمارا بالمقايضة[31]. فضاعت طنجة -المنطقة الدولية- وشريط ورغة. وبقيت مليلية منكمشة داخل حدودها، بالرغم من أن إسبانيا استولت على راس الماء والجزر الجعفرية، التي كانت قاب قوسين او ادنى من الضياع.

وعلى سبيل المكافاة الهزلية، توصلت إسبانيا بمصادقة على ممتلكات كانت في حوزتها سابقا، كإفني والصحراء الغربية الشاسعة، التي تبلغ مساحتها (282.820 كيلو متر مربع). وكانت هذه المنطقة الصحراوية خالية من احواض الملح ومناجم الحديد الموريطانية، التي كانت تُسوق منتوجاتها إلى فرنسا. وبقي رومانونيس مسرورا بمناجم الريف... ويوم الثلاثين من نونبر 1912، وبعد انتهاء مراسيم دفن كناليخاس، تم التوقيع على كل المعاهدات التي أهدت إسبانيا مساحات ترابية، فكانت حصتها لا تتجاوز 5٪ من مجمل الأراضي المغربية. وهكذا، وبعد مرور أربع عشرة سنة من فقدان ممتلكاتها فيما وراء البحار، ربحت إسبانيا إمبراطورية او على الأقل هذا ما توهمته.

وفي الفاتح من يونيو 1898، وبعد مرور شهر على غرق أسطول مونتوخو في منطقة كافيتي، اقترح بونومر (السيد فرانثيسكو ميري إي كولوم)، استبدال كوبا بالمغرب، في

محاولة لاستعادة الثقة وتعويض كل الخسائر. وقد قدم اقتراحه بتوصية من القوى العظمى وكان بونومر هذا، سفيرا بروما، وكان يحث كثيرا على العنصر الاقتصادي، .فالأولى بالإسبان بيع كوبا للأمريكان بأربع مائة مليون دولار. وتمت هذه المحاولة -بعد تكرارها سبع مرات- وفي النهاية، جاءت محاولة بريم لسنة 1869، والتي فشلت بسبب مواقف الوزراء المحافظين، الذين تبنوا هذه العملية. ولم يول سغاسطا، ولا الملكة الوصية على العرش، أي اهتمام لتقارير بونومر، التي كانت سرية جدا، والتي كانت تضم سبع عشرة صفحة مليئة بالاقتراحات[32]، فالاثنان معا، كانا لا يميلان للمغامرات في إفريقيا.

سيلفستري الإفريقي:
من رجل ديبلوماسي، إلى رجل يرفع لواء الحرب الصليبية

في يناير 1913، وافق مجلس النواب على ترقية سيلفستري إلى درجة كولونيل. آنذاك، كان المعني بالأمر في مدريد، يتحاور مع رومانونيس ووزراء حكومته ووزراء الدفاع والبحرية، بشأن ترشيح الريسوني خليفة. وفيما بعد، عاد إلى المغرب منتشيا بالسلطة والمشاريع. وفي أصيلا، كانت المشاكل تنتظر سيلفستري، إذ كان عليه أن يتقصى حقائق المعاملة اللاإنسانية، التي ينتهجها الريسوني مع أسراه. وبحذر كبير، اتخذ تدابيره، فعهد بهذه المهمة إلى واحد من ضباطه الذين يثق بهم، وهو القائد غيديا Guedea، رئيس مكتب الشؤون الأهلية. فحدث أن اكتست هذه المهام طابعا روائيا، بفضل أعمال لوبيث ريندا، الذي تحدث عن بطولات قروسطية، بطلها سيلفستري حامي الأبرياء وقاهر المعتدين.

وفجأة تأزمت الأوضاع، وبدت المبالغة في الأمور جلية، وتفجرت طاقات رومانسية كانت لا تتناسب والأحداث، الشيء الذي افرز شرخا عميقا في طبيعة العلاقة بين إسبانيا والمغرب. كان المبرر هو الدفاع عن حقوق الإنسان، وكان السبب تافها لدى الواقع المغربي المر. يتعلق الأمر بإنقاذ لصوص نهبوا ماشية من دوار الرملة Ramla، فاعتقلهم الريسوني في حصنه بأصيلا. وتدخل الجنرال الفاو Alfau لحل المشكل، وطلب من سيلفستري التوسط للإفراج عن أولئك الأسرى، مشددا على طلبه بخبر آخر، .اثنان من جبالة اعتُقلوا لسبب تافه جدا، وهو انهم تودّدوا للقبطان غيديا،.

ويتحفنا لوبيث ريندا بتصوير تاريخي لهذا الحدث، الذي كتب عنه في الثالث والعشرين من يناير 1913، فيروي ان كتيبة إسبانية بزعامة الجنرال ذي الشوارب الكثيفة، وصلت يوما إلى حدود اسوار أصيلة. فسال الجنرال عن الريسوني، فاطل هذا الأخير برأسه من الباب والسرور يلفّه للقاء الضيف. واحتراما لطقوس الزيارات، قُدم الشاي الذي رفضه الجنرال، كان سيلفستري قد ضاق ذرعا بالانتظار، فطلب رؤية الأسرى فورا، فلم يمانع الريسوني. فكانت الفاجعة: مئات من المعتقلين مُعلقين وكأنهم خفافيش إنسانية. كان الجوع يكاد يقتلهم، وانهكت الأمراض قواهم، وعميت ابصارهم من جراء الظلام الحالك، وكان الغائط والحشرات تلفهم من كل جانب. فطلب الجنرال تفسيرات لما راى، فعلت في المكان صيحات الأسرى، الذين احسوا بدنو ساعة الإفراج، وشرع سيلفستري يحسب الأسرى واحدا تلو الآخر، فوصل إلى ثمانية وتسعين معتقلا، (وهو رقم صحيح). لم يكن لصوص الماشية وحدهم هناك، بل كان إلى جانبهم تجار، وبدويون وملاكون صغار، وهاربون من الجندية. عاملهم الريسوني معاملة الكلاب، وقد علّل فعلته بكدر: «إن عدالتي سديدة»، واستفسر الجنرال فيما بعد: «اتصدقهم وتكذبني انا؟». فاصدر سيلفستري أوامره لرجاله قائلا وآمرا: «أطلقوا سراح كل المعتقلين فورا»[33]. هذه الحكاية، إذا أُخذت ماخذ الأسطورة فهي رائعة، اما إذا أُخذت ماخذ الواقع فهي محزنة.

وبالطبع لم تكن مداخلات غيديا بهذه الحدة، وإن كان قد انتهج سياسة سيلفستري. فتحررت رقاب كل الأسرى، وتمت مصادرة السلاح وجل الذخائر الحربية. فجاء هذا الحدث بمثابة صفعة للريسوني، الذي احس بإهانة كبيرة. إذ لو ان الأمر صدر من سيلفستري شخصيا، لما تعدت الشتيمة كونها مجرد خصومة بسيطة. لكن ان يكون مصدر هذا الفعل مجرد قبطان، فهذه جريمة لا تغتفر.

وبحديث لوبيث ريندا عن بطولات سيلفستري، التي لم تكن من صنيعه وإن كانت بموافقته، يكون قد فتح بابا لشهرته، وفخّا هوت فيه مكانته السياسية. وفي هذا الخضم، غابت إسبانيا الفونصو الاستعمارية. تلك إذن كانت الأسطورة التي تمخضت عنها اسطورات اخرى. بدءا من رواية طوماس غرسيا فيغيراس Tomas Garcia Figuras، غير ان كتاب طسينير Tessainer حول الريسوني، يبقى هو المؤلف المحقق والجدير بالتصديق[34].

والواقع أن الريسوني لم يفر، بل ذهب إلى مدينة طنجة ليبث شكواه لإسبانيين آخرين، كخوان ثوغاستي Juan Zugasti، ولويس فليرا Luis Valera (مركيز فيا سيندا). واخفق سيلفستري هذه المرة بتنصيبه حراسا راقبوا تحركات زوجة الريسوني وابنه الأكبر، وفيما بعد، كتب سيلفستري إلى لوكي Luque (وزير الدفاع). وحينما طلب منه هذا الأخير التزام الهدوء، رمى له الجنرال -عبر التلغراف- استقالته التي جوبهت بالرفض. فمكث بالعرائش يعض أصابع وأنامل يديه غيظا. أما الريسوني، فقد أقسم على رد الصاع صاعين، فرحل إلى الجبال ليجدد العهد مع الحروب.

وبعد مشكل أصيلا، ومن أجل ضمانات وقائية لسلامة المؤسسات، كان من المفروض عزل سيلفستري عن القيادة، لكن ما جرى هو ترقيته إلى درجة بريغادير في العاشر من يوليوز 1913. وفيما بعد، بثلاثة أسابيع، تلقى زميله القديم ومنافسه في المستقبل دامسو برنكر الترقية نفسها[35].

برنكر: التلميذ بالمدرسة الحربية الذي أصبح وزيرا

كان برنكر ابنا للسيد دامسو برنكر إي بونيميتي Domaso Berengue y bonimeti، الذي كان ملازم عقيد للمشاة، والسيدة دولورس فوسطى إي بيسطروس Dolores Fusté y ballesteros. ولد بمنطقة رمديوس remedios -وهي بلدة قريبة من لاهابانا- في الرابع من أكتوبر 1873. كان يصغر سيلفستري بسنتين، وأثناء دراسته بطليطلة ولج الكلية الحربية العامة في شتنبر 1889 الكلية الحربية العامة- وكان عليه أن يحضر لتسع مواد: الجبر والهندسة، الفيزياء والتداريب العسكرية، الأدب والميكانيك، المراسيم والتكتيك والإبراق. وفي سنة 1892 نجح فيه، وتخرج في السنة نفسها، مع سيلفستري في دُفعة واحدة من بلد الوليد برتبة ملازم ثان. وفيما بعد، عاد برنكر إلى كوبا، فقاوم بشدة مناخ المنطقة وتصدى لنيران العدو. وبعد نيله للنجمات الحمراء الأربعة استحقاقا عسكريا، ونجمة ماريا كريستينا التي يتمناها كل عسكري، ترقى إلى رتبة قائد -وذلك لشجاعته في الأحداث الدموية العنيفة التي دارت رحاها في أوراس Auras في غشت 1898، وهو المكان نفسه الذي استسلم عنده الإسبان في ما وراء البحار، حيث استسلم مانيلا Manila لـ مريت Merrit في تلك الأيام، التي خمدت فيها الهمم الوطنية خمودا كبيرا.

وفي شهر اكتوبر الموالي، عاد برنكر إلى شبه الجزيرة، والتقى من جديد مع سيلفستري، إذ تم تعيينه في نفس الفرقة العسكرية، المشاة الاحتياطيين لمدريد رقم 39. وبعد شهور، دخل مرحلة جديدة في مسيرته العسكرية، إذ صار مساعد ميدان للقائد العام باندلوسيا (من 1899 إلى 1902)، كما تلقى مناصب متتالية في بلديات المنسا Almansa، واوسريا دي لارينا Hosarea de la reina إلى حدود سنة 1905. كما اشتغل مدرسا بمدرسة الفروسية العسكرية، فقام بجولات كثيرة باوربا عضوا في لجنة المباريات، التي تقام بشأن الفروسية الدولية (1906). إضافة إلى تحريره لجملة من القوانين التنظيمية لفرق المشاة (من 1907 إلى 1908). اما ترقيته إلى منصب تيلينتي كولونيل فقد تمت في يوليوز 1909. وفيما بعد، اصبح مساعد ميدان لوزير الدفاع لوكي Luque. لاحقا، كان الموعد حاسما مع منصب ترك بصماته واضحة في مسيرته المهنية، يتعلق الأمر برئاسة مقر القيادة لأرانخويث، المنتجع الملكي. وهناك، ربط علاقات طيبة مع العائلة الملكية. وبعد مدة، رحل إلى مليلية حيث منحوه قيادة فرقة كاثادورس، ثم قيادة كتائب حديثة التكوين (1910).

وبعد غياب سببه الذهاب للمشاركة بصفته فارسا في المباريات الدولية، عاد برنكر إلى مليلية لينضم في يوليوز 1911 إلى الفرق النظامية الأهلية، ومعها خاض غمار الحروب. وهكذا، شارك في الثامن عشر من يناير 1912 في الاستيلاء على جبل أعرويت. وبعد مرور شهر، هاجم بني بويحيى (وهم أصحاب أعرويت)، حيث قضى عليهم في هجوم غنم فيه مكاسب مهمة. وإثر هذا الحدث، ترقى إلى رتبة كولونيل. لم يكن برنكر يتصور أن الأماكن التي شهدت انتصاراته بالأمس، ستشهد ثانية على تدهور مسيرته المهنية. ورغم ذلك، لم تنطفئ شعلة شهرته، بل توهجت من جديد. خاصة، بعد أن تمكنت فرقة من العساكر النظاميين، من قتل سيدي محمد امزيان، الزعيم الروحي للحَرَكَة الريفية، وذلك بجوار الخنادق الدامية لبني سيدل، في الثاني عشر من مايو 1912. وكانت النتيجة، أن تلقى برنكر نجمة ماريا كريستينا، وهي الثالثة من نوعها. وبعد سنة، ترقى إلى درجة بريغادير. وفي غضون ستة أعوام، أصبح وزيرا، وفي العام الثامن، كان مسؤولا عاما عن الأمن وقائدا بإفريقيا.

ورويدا رويدا، ابتعد برنكر عن المعارك في إفريقيا. في حين رفع سيلفستري، شعار الحرب في المغرب.

رومانونيس، يقترح
إرسال جيوش المرتزقة إلى المغرب

بعد مرور شهر على خصومة سيلفستري والريسوني، عرفت البلاد موجة من المشاكل، قضت على ما تبقى من سياسة الاستعمار المعتدلة، التي كان ينهجها كناليخاس. فالجنرال الفاو، الذي كان يواصل مهامه في سبتة، كانت تربطه علاقات طيبة مع الشيوخ التطوانيين، لكن فجاة، خدعهم ودخل إلى المدينة بجيش قوامه الفي رجل، وذلك في التاسع عشر من فبراير 1913. فاندهشت تطوان، التي لم تر جيوشا إسبانية منذ عهد أودونيل والروس دي أولانو، فلم تجد من خيار آخر سوى الاستسلام. وكان ذلك مبررا آخر لكي تدوم الحرب طويلا.

الجنرال الفاو الذي كان ينفذ أوامر مدريد، كوفئ على ولائه بتعيينه في الثالث عشر من أبريل مقيما عاما. وفيما بعد، حلت الكارثة التي كانت بمثابة الضربة القاضية. وبدافع من رغبة حربية صرفة، عين رومانونيس مولاي المهدي، الذي كان شخصية سوقية وجبانة وفاجرة، في منصب الخليفة، وصرفت له إسبانيا ميزانية مماثلة لتلك التي يتقاضاها الفونصو الثالث عشر، والتي تقدر بعشرة ملايين بسيطة.

كان المهدي بمثابة دمية، صورة هزلية لزعيم ليس له من هذا المنصب سوى الاسم، وكارثة اخلاقية لا توصف. كل هذه الأوصاف والنعوت، شكّلت إهانة ثانية للريسوني، الذي اغتاض كثيرا عند اطلاعه على مراسيم الاستقبال المهيب، التي اقامها الإسبان في تطوان وسط تعزيزات امنية مشددة، على شرف الخليفة الجديد، الذي اغتصب منصبه في السابع والعشرين من أبريل. كان الإسبان يطلقون عليه اسم "السّليطين" (تصغير سلطان)، وفيما بعد بثلاث سنوات أصبح محط سخريتهم، فنعتوه بـ"الحلوف" اي الخنزير. كل هذه الأحداث، تطرق إليها باهتمام كبير، قائد عسكري إسباني مجهول الاسم. كانت له خبرة كبيرة بمنطقة جبالة، كما كان شخصية قريبة من سانشيث دي طوكا Sánchez de Toca، الزعيم المحافظ الذي سلم بدوره ذلك التقرير إلى انطونيو ماورا[36]، في الثالث عشر من يوليوز 1916. كان سيلفستري قد ارتكب اخطاء فادحة في أصيلا، وإن كانت الدوافع نبيلة، لكن قرارات رومانونيس بغزو تطوان، وتعيين أرجوز

غريب خليفة، (إذ إن المهدي لم يكن من جبالة) زاد من تفاقم الوضع. كما انه بهذا الإجراء، لم يسئ فقط إلى سكان جبالة، بل أجبر إسبانيا على تعبئة جيش لا تتوفر عليه، ولن تمتلكه مهما طال الزمان. وبما أن إسبانيا كانت فقيرة عسكريا، بالرغم من توفرها على خبراء جيدين، فإن رومانونيس اقترح تعديلا مميزا، يتجلى في إعداد جيش من نوع خاص. وهكذا، فكر هذا السياسي الليبرالي في حشد مئات الآلاف من المقاتلين المأجورين، (الذين يتقاضون اجورا)، وتكليفهم بمسؤولية تقديم المغرب في سلاسل واغلال إلى إسبانيا. وجرت نفقات هذا الجيش على حساب شركة تُمَول من قبل الدولة.

كان السيناتور توماس مايستري إي بيريث واحدا من مساعدي رومانونيس الأوفياء، حدث ان بعث به هذا الأخير إلى مدينة طنجة وتطوان لتدارس الأوضاع هناك. وما إن علم مايستري بطبيعة الاقتراح، حتى فقد ثقته الكاملة في الحاكم، الذي كان صديقا بالأمس القريب. وبعد أن نفد صبره، وفي إحدى اللقاءات التي حضرها بصحبة الفاو، الطبيب الشهير والسيناتور الذي كان عمره يناهز ستة وخمسين عاما، ثارت ثائرته واتهم رومانونيس بالتحيز لخيار الحرب، فتذمر رومانونيس من هذا الموقف، ولم يجد مايستري من حل آخر سوى إرسال رسالة كتبها في الفاتح من غشت 1913 من سان خافيير (بمورسيا) بعد عودته من منطقة جبالة، التي كانت نيران الحرب قد التهمتها، وهذا نصها، «إن اقوالك منافية لتصرفاتك، فهل انت من مناصري السلام؟ كيف ذلك، وانت الذي اذنت بإعطاء اثنا عشر مليون بسيطة هدية لشركة في القطاع الخاص، تُعنى بجمع اربعين الف متطوع لغزو المغرب. إنك تهدم كل المحاولات السلمية التي يسعى إليها الفاو»[37].

كان مايستري يحاول ان يجنب سيلفستري -الذي كان يصول ويجول في البلاد قارعا طبول الحرب- خطر الكتائب العسكرية التابعة لجبالة، والتي كان يقدر عددها بثمانية آلاف رجل. وفور تاكده من أن كل مساعيه السلمية لم تؤت اكلها، وبعد شهرين من الاتصالات المكثفة مع اعيان المنطقة، خاصة مع سيدي محمد ولد سيدي بركة، شريف منطقة انجرة، والعدو اللدود للريسوني أكد لرومانونيس قائلا: «يجب علينا ام نتوخى السلام في المغرب مع المورو دون تكاليف باهضة، فإسبانيا اليوم فقيرة ولها التزامات اخرى»[38].

كان السيناتور الأليكنتي، قد ضاق ذرعا بالأحداث. إذ منذ سنة 1909، وهو يندد بالأوضاع المتردية في المغرب، نتيجة سوء التسيير وضعف الخبرات العسكرية. وحدث

أن استدعاه الجنرال مارينا للدخول معه في تحد عبر عنه في مقالاته، التي نشرت في صحيفة *الموندو*، والتي أشارت كذلك لماورا بالدخول في هذه الزوبعة، فرفض هذا الزعيم المحافظ المشاركة، الشيء الذي ترتب عنه استقالة المقيم العام في مليلية. وبعد مرور أربع سنوات، أدرك مايستري أن إسبانيا باتت تتوغل في مستنقع عميق. ففي المغرب، كانت توجد ما نسبته ستون الف جندي إسباني ربما يرتفع العدد إلى ثمانين الف. كان مايستري لا يريد المزيد من إراقة الدماء، وكان يصبو إلى تحقيق النزاهة والشرف. وفي الرسالة نفسها التي كتبها في الفاتح من غشت 1913، صب جام غضبه ليس فقط على رومانونيس، بل انتقد كذلك سياسة الملك الفونصو. وبعد أن أوضح لرومانونيس انه قادر على التصرف كما يشاء برسالته، ذكر له قائلا، «لقد اخفقت، لأنني لا اعرف من يجلس على كرسي الحكم، وإنني أستثني من هذه القاعدة السيد انطونيو ماورا». وأضاف، «لم يعرف الوطن الحزين، وحتى في السنوات المفجعة والأخيرة من حكم عائلة استورياس، تدهورا وفوضى مثل هاته».

وعند استقالته، لم يتخلَ مايستري قطّ عن الإدلاء بانتقاداته، «الإسراف، والفوضى والارتجال، والجهل والخمول والأنانية وسوء التصرف وإراقة دماء جنودنا. كل هذه الأمور، هي من صنيع ساساتنا، فعوض أن يكون المغرب نقطة انفراج لهمومنا، أصبح قبرا لأحلام امتنا»[39].

وفاة الأبرياء وموت ضمير الحكومة

بعد إقالة الفاو بالقوة، تم تعويضه في الخامس عشر من غشت 1913 بخصمه الذي كان يتحداه، إنه الجنرال مارينا. وفضل رومانونيس، الذي كان يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يخبر ماورا بوجهة نظره حول الأحداث. ورغم الحيف الذي تلقاه هذا السياسي الميوركي المحنك، إلا انه حافظ عل مكانته وخبرته الواسعة بالمغرب. وبدهشة كبيرة، قرا له ما جاء على لسان واحد من الأرستقراطيين المناصرين لألفونصو، «لقد تمت إقالة الفاو من منصبه، لعجزه عن التاويل الصحيح وفهم نظام الحماية»[40]. وهنا كانت سياسة رومانونيس في اوج عظمتها وهي التي اقرت بأن المساعدين والأتباع، لا يفهمون جيدا لغة الرؤساء.

حشد مارينا ثمانين الفا من الجنود الإسبان، وهو رقم كان يهابه مايستري، لأنه تعلم الكثير من معركة برانكو دي اللوبو Barranco del Lobo. ففكر في أن السلام هو الخيار الأفضل، سواء بالنسبة لجيشه أو بالنسبة لحكومة داتو، التي تشكلت على انقاض حكومة رومانونيس. لكن التحالف القذر بين الإسبان وجبالة المتعطشين للدماء، نحّى هذا المشروع النبيل جانبا.

ويوم الثاني عشر من مايو 1915، كان الموعد حاسما مع أبشع صور الوحشية، والحدث جاء إثر إلقاء القبض على الطالب سيدي علي بن احمد اقلعي، المبعوث الشخصي لمارينا، الذي كان يحمل معه إذنا بالمرور مُوقعا من طرف المقيم العام بنفسه. والحادثة وقعت بـ كوستا كولورادا (شمال شرق العرائش)، حيث اعترضت سبيله مجموعة من اللصوص، سرقوا منه كل ما بحوزته ثم اخلوا سبيله. وبعد لحظات قصيرة، سقط في كمين نُصب له، فلقي حتفه وسط الجبال، وسقط إلى جانب خادمه الوفي محمد الكرفطي، الذي فقئت عيناه في اشتباك دافع فيه بشجاعة عن سيده.

كان اقلعي يحاول الوصول إلى تازروت، معقل الريسوني في الجنوب الغربي لتطوان، وذلك لعقد هدنة بين الإسبان وجبالة. فرُميت جثته وجثة الكرفطي في وادي طيمبلاديرا Tembladera، مكبلة بالحجارة والحبال[41]. كان النهر ممتلئا من جراء تساقطات فصل الربيع الأخيرة، فجرف مع جريانه السريع تلك الجثث التي طفت على سطح الماء. وبعد ثلاثة أيام، اكتشفها صيادون فذعروا لهول المنظر، فعمت الفضيحة في كل مكان.

مسؤولية هذه الجريمة الشنيعة، وقعت على ضباط ثلاثة ينتمون إلى مكتب الشرطة الأهلية بالعرائش، دبّروا هذه المؤامرة بتنسيق مع باشا أصيلا السيد إدريس الريفي، وهو شخصية خبيثة تعوّدت خيانة الإسبان تارة وجبالة تارة أخرى. كان الريفي عوض الريسوني، مراقبا سياسيا في أصيلا. وكان عدوا لدودا للشريف، فأراد أن يقضي على خيار السلام الذي كان ساريا، ليأمن مكر الشريف. فعهد إلى أولئك الجزارين، مقدم ابن دحاس وعساكر المتوغي وكورسان، بمهمة تنفيذ نواياه الإجرامية.

اندهش سيلفستري كثيرا للحدث، بصفته رئيسا للقيادة العامة بالعرائش، وشعر بمسؤولياته. ورغم أنه لم يتأخر في إشعار مارينا بالكارثة، إلا ان هذا الأخير، وجه إليه انتقادات لاذعة تذكره بحجم مسؤولياته بصفته قائدا. فكبح سيلفستري جماح نفسه، وقام بتعيين لجنة لتقصي الحقائق يترأسها القائد لويس أورغاس يولدي Luis Orgaz Yoldi، الذي

أصبح فيما بعد مقيما عاما مع الجنرال فرانكو. كان اورغاس رجلا مدققا وحازما، شانه في ذلك شان الكولونيل ماريانو غومس نفارو Mariano Gomez Navarro قاضي التحقيق، الذي تكلف بالقضية. وقد تفوق الاثنان في مهامهما، وتوصلا إلى أن القائد لويس رويداسLuis Ruedas، والملازم مانويل غرسيا دي لا سوطا M.García de la Sota، ورمون مورالس R. Morales، كانوا بدورهم متورطين في الجريمة، وان هذين الأخيرين كانا شاهدي عيان على تلك الجريمة المزدوجة. ولم يستطع رويداس Ruedas، وهو الضابط الأكثر تورطا في هذه الجريمة الجنائية، وبعد تاكيده لسيلفستري انه وقتها كان باصيلا لأجل مهام تخص العمل[42]، أن يصمد طويلا أمام ضراوة التحقيق الذي قام به غومس نفارو، والذي حضر بنفسه إلى كوستا كولورادا لمعاينة ملابسات الأحداث. كان رويداس، هو من انتزع الإذن بالمرور الذي كان بحوزة اقلعي، وكذا رسائل اخرى ذات اهمية، قام بحرقها[43].

أما الجيش، فقد تعامل مع القضية بحزم وثبات منفذا كل الأوامر التي تدخل في دائرة اختصاصه. لكن حكومة داتو Dato، كانت خائفة، فجاءت النتيجة سلبية تماما.

لم يكن ممكنا التستر على الجريمة، لكن مقترفيها غير المباشرين تم اعتقالهم في تكتم مُهيب، وبقي مارينا وسيلفستري مكتوفي الأيدي. وفيما بعد، تم توشيحهم بأوسمة سامية كنجمة ماريا كريستينا، التي كانت من نصيب سيلفستري، ونجمة سان فرناندو التي كانت من نصيب مارينا. وهي ميزات غير معتادة وخارقة للعادة، وكان حريا تم الانتصار فيها. ولم يكن الأمر كذلك، فالحرب خسرها متهورون تم العفو عنهم لاحقا في سرية بالغة.

طلب فيليب رويداس -البرلماني الكتلاني- الذي كان وزيرا للتعليم العمومي في حكومة غارسيا بريطو عام 1917- من رامون إشاغوي أن يُحضر إلى القاعة الملف الخاص بمنح النجمات، ليتاكد من صحة ما كان رائجا من اخبار تفي بصدور مرسوم ملكي لم يسجل في الجريدة الرسمية لوزارة الحرب، يقضي بترقية مارينا. وبما أن الوزير نفى نفيا قطعيا هذا الادعاء، بادره رويداس بالحديث قائلا: «احضر الملف أولا ولنرى هل تتوفر الشروط اللازمة في الجنرال مارينا حتى يكون أهلا للنجمة الكبرى لسان فرناندو»[44]، فأجاب الجنرال إشاغوي: «هذا شيء آخر. عندها علت الضجة وسط القاعة.

ومع مرور الوقت، أصبح سيلفستري مساعد الملك الفونصو الثالث عشر، الذي اجبره فيما بعد على مغادرة المغرب. وما أن علم رويداس بالخبر، حتى هم بالكتابة من

معتقله في المستشفى العسكري بالعرائش، فبعث برسالة إلى سيلفستري يوم الحادي عشر من يوليوز 1915، جاء فيها، «عزيزي الجنرال، عندما تلقيت البارحة نبأ رحيلك إلى إسبانيا، اسودت الدنيا في وجهي. فهذا اسوأ خبر سمعته منذ مجيئي إلى هذا السجن، ليس لأنني اخاف عليك أو اخاف ان تهجرني كلا، بل لأن رحيلك سيسبب خسارة لإسبانيا، فانت الوحيد الذي استطاع ان ينشر حضارتنا، دون الحاجة إلى شراء ضمائر المورو بالرشوة أو الصدقات. انت الوحيد الذي كشف لنا عن نقاط القوة في حضارتنا، فكان تعاملنا مع المورو، على انه شعب دوني يجب تعليمه وإرشاده إلى ان يصل إلى مستوانا، تعاملا صائبا...»[45]. ومن خلال إيديولوجيته، اقر رويداس بذنبه وذكر لسيلفستري ما يلي، «سيدي الجنرال، لقد كنت انت معلمي في جهة الغرب التي شهدت انتصاراتي ومثلي الأعلى، فاسمح بارك الله فيك، لهذا التلميذ الذي زاغ عن الطريق الذي رسمه له معلمه، بان يُقبّل يد مرشده قبل رحيله، ويُسلم على قدوته، الجنرال صاحب الروح والقلب الكبير. بكل تأثر يَطلب منك هذا مُساعدك الوفي لويس رويداس ليدسما»[46].

احتفظ سيلفستري بهذه الرسالة بين وثائقه، لكنه لم يجب عليها مدة أربع سنوات، كرس كل وقته لمهام روتينية تتعلق بعمله حارسا للعائلة الملكية. لكنه أحيانا، كان يفر لدراسة أساليب فرنسا المستعملة في الحرب الكبيرة. وفي دجنبر 1916، زار الموقع القيادي للجنرال كسطلنو Castelnau في لاشمبانيا، وفي الخامس من يوليوز 1918، تمت ترقيته إلى رئيس قسم، وفي التاريخ نفسه تلقى برنكر نفس التعيين. ترقية الاثنين جاءت عن طريق الأقدمية للتاسع والعشرين من يونيو[47]، والتي الغيت فور انتقالهم للعمل رؤساء اقسام. وقد ربط الفونصو الثالث عشر، مع الاثنين صداقة متينة، طيلة ثلاث سنوات متعاقبة (من 1919 إلى 1921)، كان كل من سيلفستري وبرنكر عيون الملك على المغرب.

مقيم عام يقدم شكواه للحكومة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة

بعد انصراف مارينا، خلفه في الحكم فرانثيسكو غوميس خوردانا، الذي أعرب عن وفائه المنقطع النظير للدولة، كما كان صديقا لأيثبورو[48]. طيلة اربع سنوات، شهد

خوردانا تعاقب اربع حكومات، داتو، رومانونيس، غارسيا بريطو، داتو مرة أخرى، غارسيا بريطو من جديد، وماورا فيما بعد، وغارسيا بريطو مرة ثالثة، واخيرا رومانونيس. وكانت هذه المجموعة تضم عشرة اعضاء من وزارة الدفاع، تسعة من وزارة البحرية، وتسعة آخرين من وزارة الداخلية، وعشرة من وزارة الدعم، وتسعة وزراء الحكومة، وعشرة من وزارة المالية. لكل فرد من هؤلاء الوزراء، البالغ عددهم سبعة وخمسين رجلا، حق التدخل في شؤون الإقامة العامة، فكان كل يصدر اوامره، وكل يشترط ويطالب. والخلاصة، ان المقيم العام تذمر كثيرا من هذا الوضع.

توفي خوردانا فوق مائدة مكتبه بتطوان، في الساعات الأولى من مساء الثامن عشر من نونبر 1918، وهو يراجع مذكرة إهانات وسب طويلة انتهى لتوه من كتابتها، والتي كان ينوي إرسالها إلى رومانونيس -رئيس المجلس ووزير الحكومة-. كان خوردانا يطالب بالتلاحم والصرامة، وهي مطالب كان من المستحسن التماسها من النظام؛ والأمر في كلتا الحالتين كان وهماً. وبوفاته، بقي ملف التفاهم مع الريسوني عالقا وحده. ففي العشرين من مايو 1916، تم التعاقد على السلم في فندق عين الجديدة بطريق تطوان - طنجة، في احتفال كانت له صبغة خاصة، حيث تصالحت حركة الريسوني مع جيوش خوردانا. كان الجيشان قد تشابكا في قتال من اجل موقع "البَيُوت" التابع لأنجرة في التاسع والعشرين من يونيو، وعجز خوردانا فيما بعد عن مطالبة الحكومة بإقالة مولاي المهدي التعس، لتعود الخلافة إلى من يستحقها، الريسوني.

وحدث الصلح والعناق بين الإسبان وجبالة في الفندق، في مكان ليس ببعيد عن تلك الشجرة الكبيرة التي وقّع عندها في 1860، كل من ادونيل ومولاي العباس نهاية الحرب، لقد كان شجر البلوط بظلاله الوفيرة شاهدا على تلك المعاهدات النبيلة، التي قضى عليها الثنائي برنكر-سيلفستري بلا هوادة.

سيلفستري يعود إلى المغرب، وبيكاسو يتنازل عن منصب الوزير

وبعد اربعة اعوام من ذلك الحادث المشؤوم لأقلعي، عاد سيلفستري إلى المغرب. ففي الثاني عشر من غشت 1919، تقلد منصب "رائد" في سبتة. وفي تطوان، كان في انتظاره برنكر الذي لم يكن فقط مسؤولا عاما عن الأمن بالمنطقة، بل كان كذلك واحدا من قواعد النظام.

وفي سنة 1916، تم تعيين برنكر حاكما عسكريا على مالقة، وهو منصب أهله للارتقاء إلى رئاسة قسم في الخامس من يوليوز 1918. بعدها دخل إلى عالم السياسة الذي يستهويه. وفي الثلاثين من يوليوز الموالي، رحل إلى مدريد ليعمل وكيلا للوزارة الحربية تحت امرة الجنرال مارينا، صاحب كرسي في الحكومة الثالثة لماورا.

وبصحبة الليبراليين، رفاق غارسيا بريطو في الحكم، مُنحت لبرنكر حقيبة الوزارة الحربية، التي لم يرفضها. وفي التاسع من نونبر 1918، عُين وزيرا.

وتقريبا في الشهر نفسه الذي توفي فيه خوردانا، أي في الحادي عشر من دجنبر 1918، حصل برنكر من الفونصو الثالث عشر -بدافع من تجربتنا مع نظام الحماية في المغرب- على توقيع مرسوم ملكي يقضي بإلغاء منصب القائد العام للجيش الإسباني بإفريقيا، وفصله عن وظائف الإقامة العامة. وقد صادق كل من البرلمان والصحافة على هذه المبادرة التي رأوها طيبة.

لم يُكتب لحكومة **غارسيا بريطو** الثالثة أن تدوم طويلا، ففي الخامس من دجنبر 1918، عاد إلى القصر الكونت **رومانونيس**، ودخل برنكر في تركيبة وزارية جديدة، ما فتئ أن تخلى عنها، مقررا تكريس كل جهوده وطاقاته للمغرب. وهكذا، تم تعيينه مقيما عاما في السادس والعشرين من يناير 1919، فاتخذ منصبه في تطوان في اليوم الثاني من فبراير الموالي. وقد جاء هذا التعيين بعد جدال حاد دار بين الفونصو الثالث عشر، وبرنكر نفسه ورومانونيس. كما حاول الأرستقراطي إقناع مرشحه السيد مانويل غونثالث انطوريا Manuel González Hontoria، بالتنازل عن هذا المنصب، وهو شيء وضحه في مؤتمر 1921 بقوله: «... بموت الجنرال خوردانا، وبقاء منصب الإقامة العامة شاغراً مدة شهرين، كان علي أن أتصدى لإغراءات الطمع في المنصب الذي كان يدفعني إليه السيد الكونت رومانونيس، صديقي العزيز (وتعالت الضجة في المكان)»[49].

وبذهاب برنكر إلى المغرب، شغل شخص غريب الأطوار منصب وكيل وزارة الدفاع بريغادير، كان رجلا كتوما، لم يعهد الناس رؤيته كثيرا في ممرات قصر بوينابيستا. وكان كذلك ضابطا في هيئة الأركان الحربية، وله نجمة شرفية نالها عام 1893. كان اسمه خوان بيكاسو، اثنان وستون سنة، وشخصية شبه مجهولة في الميليشيا. وفي فبراير 1919، اقترحوا عليه منصب الوزير.

كانت دهشة بيكاسو كبيرة، لكن جوابه اثار العجب. لقد رَد بلطف على من اقترح عليه المنصب (ربما كان رومانونيس) قائلا، «لكنني لا ارغب في تغيير عملي، وافضل ان ابقى عسكريا بشرفي»[50].

مقيم عام يتراجع عن مواقفه، وكومندان يطالب بمراجعة الحسابات

في ربيع 1919، تقلد برنكر منصب إدارة الإقامة العامة، بعدما كان وزيرا في حكومة غارسيا بريطو وورومانونيس. وفي نظر الكثير من المتتبعين، لم يكن برنكر مؤهلا لهذا المنصب الجديد لا سياسيا ولا عسكريا. ولملء هذا الفراغ، ارتأى المقيم العام الجديد أن يجمع حوله كفاءات عالية، وأن يعين في المناصب الحساسة أصدقاء يثق بهم. فوقع الاختيار على سيلفستري، وانصرف أيثبورو الذي كان وقتها كومندان عام بمليلية لحال سبيله.

توصل كل من برنكر وسيلفستري إلى توقيع اتفاقية عسكرية مشتركة حول المغرب، فتكلف برنكر بالجانب التشريعي، في حين اختص سيلفستري بالجانب التنفيذي. وما قيل عن خصوماتهم القديمة، لم يظهر لها أثر في صيف 1919.

وبما أن منصب تلينتي جنرال بقي شاغرا، فقد تقدم لملئه مترشحان وهما، ميغيل بريمو دي ريفيرا Miguel Primo de Rivera، وايثبورو نفسه، فكان المستفيد هو بريمو، وكان سيلفستري الذي لايزال بجوار الملك، اول من اطلع على النتائج، فبادر إلى إخبار برنكر بهذا الاختيار فرد عليه هذا الأخير من تطوان في التاسع عشر من يوليوز 1919 قائلا، «عزيزي منولو، لقد تلقيت رسالتك التي اخبرتني فيها بفوز ميغيل بريمو دي ريفيرا. إن مشاريعنا ستتغير حتما، وعلينا تاجيلها. لقد سررت لفوز بريمو. نعم، ولكنني آسف لعدم إمكانية تطبيق خططنا في الوقت الراهن. ورغم أنني سعيد جدا بتواجدي مع ايثبورو الذي احسن في واقع الأمر إدارة الريف، وها هو الآن يحصد بكل سهولة ثمار السياسة التي زرعها هناك، إلا انني كنت سأسر اكثر إذا ما كنت انت هناك. فمَعاً سنحل كل القضايا العالقة، وافكارنا نحن الاثنين ستساعد على الإحاطة بكل الإنجازات التي لم ترَ النور بعد...»[51]. وبعدها اشار برنكر إلى تعويض آخر محتمل، «اما فيما يخص سبتة، فإنني اظن رحيل ارّايس Arraiz، إشاعة عارضة لم أعرها اهتماما،

واحتـراسـا من وقوع هذا الحـادث، كتـبت إلى الوزير (لويس دي سنطيـاغو) لينظر في وضعيتي في هذه المنطقة (المحمية)، مستغلا هذا الظرف،، وقد كانت هذه التوقعات محتملة، لأن فاجعة كدية الروضة كانت عند منعطف الطريق[52].

وقبل ان يكتب برنكر لسيلفستري بخمسة أيام، وفي الثاني عشر من يوليوز 1919، داهمت حركة الريسوني أفضل المواقع الإسبانية بكدية الروضة الواقعة عند واد الراس، حيث دارت آخر المعارك الدموية لسنة 1860. وبعد اشتباك قوي وقتال عنيف، تمكنت الحركة من تشتيت وحدات الكولونيل رودريغيث ديل باريو Rodriguez del barrio، وانتهت المعركة بانتصار جبالة لحزمها واستعمالها آلات عصرية حديثة، حيث استعملت قنابل يدوية، حصلت عليها من عمليات تهريب السلاح، الشيء الذي أضعف الجبهة الدفاعية الإسبانية. وقد تكبد الطرفان خسائر فادحة، فهذه العملية التي عدّها أرايس كوندرينا Arraiz Conderena، القائد العام بسبتة، مجرد "دورية عادية للشرطة، انتهت بضربات مميتة، خلفت انطباعات سلبية. فالمغرب، هذه المستعمرة الوديعة والمطيعة تمرّدت من جديد، وذبحت مُحتليها. ففي صفحات الصول، تم الحديث عن ثلاثمائة او أربع مائة قتيل إسباني، وبعدها، أُعطي رقم مائة وأربع وعشرين ضحية، منهم ثمانية وثلاثون لقوا حتفهم، من بينهم أربعة ضباط. وتدخلت الصحافة لتهدئ من روع الفوران الشعبي، ونشرت أنباء بأن اربعة وثلاثين قتيلا كلهم من الأهالي (عنصر واحد من النظاميين)، فارتاحت إسبانيا[53]. لكن حجم الخسائر البشرية كان كبيرا، مائة وثلاثة وثمانون، وحصيلة القتلى وصلت إلى تسعة وسبعين، منهم سبعة ضباط وتسعة وثلاثون من العساكر الأوربيين[54].

تمت ترقية رودريغث ديل باريو إلى درجة بريغادير. وتم عزل أرايس بسرعة من منصبه. وتعويضه بسيلفستري وذلك بعد حادث كدية الروضة بثلاثين يوما، وقتها كانت نية العمل مع برنكر قد أصبحت جاهزة.

وقد خلّف هذا التعيين ارتياحا كبيرا لدى برنكر، الذي رأى أن الوقت قد حان لإحكام القبضة على المغرب. وفي الخامس والعشرين من غشت، صدر مرسوم ملكي أضفى صورة الشرعية على هذه السلطة الشمولية. اكتفى انطونيو طوفار Antonio Tovar، الذي كان وقتها عضوا في وزارة الدفاع، بالمصادقة على بعض التغييرات الوزارية المقترحة عليه والتي وافق عليها الملك.

لم تكن هذه التغييرات الوزارية تافهة، بل بالعكس، فمن اختصاصات المقيم العام المبادرة بالعمليات العسكرية وتهييء الخطط لها، وتحمل مسؤولية السياسة المتبعة في منطقة الحماية. وإضافة إلى «التسيير المباشر لوكالات وخدمات الإعلام والشرطة. ومن مهامه كذلك، التدخل المباشر في استخدام الأموال المخصصة للحملات العسكرية، والتي لا يمكن أن تصرف إلا بترخيص مسبق منه. وأخيرا، توضع رهن إشارته جميع المراسلات اللاسلكية والهاتفية بأحقية تفوق كل السلط التابعة له، وكذلك الاستفادة من جميع وسائل النقل»[55].

وإن لم يكن كل هذا كافيا، فالمقيم العام كان يقوم بمهام مفتش الجيش بإفريقيا. كان برنكر يريد أن يرتب كل شيء بنفسه، ويعرف كل شيء عن المغرب. وقد تأتى له ذلك، ولكن تسييره أغرقه في متاهات من المسؤوليات. ولم ينسَ كل من بيكاسو واغيليرا أن يذكروا في تقاريرهم كل هذه التفاصيل الدقيقة وكل هذه الاختصاصات.

وبعد أسبوع، عاد الشعور بعدم الارتياح ليخامر برنكر، الذي لم يعد راضيا عن موقفه من الإشكالية الاستعمارية. لكن في الفاتح من شتنبر 1919، صدر مرسوم ملكي آخر ليوضح هذه الالتباسات.

هذا وقد حصل برنكر من الملك على جواب تقدم به إليه بعشرة أشهر مضت، حينما كان وزيرا. يتعلق الأمر بفصل المديرية العامة للأمن عن منصب القائد العام للجيش بإفريقيا، فاحتفظ هو بالمنصبين. وحدث أن تراجع الجنرال عن مواقفه، وتراجعت معه الحكومة. لكن بقيت كل السلط والمسؤوليات من اختصاصاته. كان برنكر يريد أن يكون أول قنصل في إفريقيا، وقد تأتى له ذلك. ورغم كل النتائج، كان لا يريد أن يترك هامشا للأخطاء في صيف 1919، غير أنه شرع في ارتكابها. وفي تصريحات له أدلى بها ليومية الصول، قال: «على الشعب الإسباني أن يثق تماما بأن الأمور في المغرب تسير على ما يرام وبنجاح ودون قتال». كان برنكر يأمل في تحقيق واجباته على أحسن وجه دون خسائر في الأرواح، بغض النظر عن الحوادث الطارئة، معتقدا أنه من الخطأ طلب المزيد من الجيوش[56].

لكن الأخطاء كانت هناك، منها ما يتعلق بعدم إدراك -أو عدم التنبه- لمؤشرات الخطر التي كانت تلوح على مقربة من مدينة تطوان، وبالضبط عند مرتفعات بني صالح التي تبعد بكيلومترين عن المدينة. فبمنظار جيد، كان بالإمكان تمييز جثث ثلاثة وثلاثين رجلا، أربعة منهم إسبان (ثلاثة ضباط ونقيب)، وتسعة وعشرين من المورو النظاميين، اثنان منهم

ضباط. لقد لقي الكل حتفه على يد إسبانيا، ولم يبق منهم سوى هياكلهم العظمية، التي لبثت بالمكان منذ الخامس من ابريل إلى أن عثر عليها رجال الريسوني في هجوم آخر[57].

وقد بقيت جثث بني صالح بأماكنها حتى يناير 1920، إلى حين خروج واحد من العسكريين الكبار، وهو الملازم العقيد كاسترو خيرونا Castro Girona، مع رجاله من مدينة تطوان. وفي تقدم سريع، وصل إلى ذلك المُرتفع الذي انشأ فيه حصنا خشبيا دون إطلاق اي عيار ناري، فبنى قبورا لتلك الأشلاء التي أصبحت مع عامل الزمن ونبش الصقور، في حالة يصعب معها تحديد هوية الموتى[58].

وتقدم سيلفستري إلى داخل الروضة، وهو ما فعله كاسترو خيرونا في بني صالح بعد شهور. وكانت زيارة سيلفستري في غشت 1919، مهمة للرفع من معنويات الجيش. وفي الثامن من اكتوبر، صعد في حزم إلى كدية الروضة، ومن هناك أصدر أوامره بتفكيك المعسكر، وكذلك بدفن كل الجثث العارية الجاثمة هناك في ساحة المعركة منذ شهر يوليوز[59]. كانت كل الأجساد مشوهة، ثمانية وعشرون منها محروقة، وكثيرون هم الذين عُذبوا قبل وفاتهم، كان هذا إنذار بأبران.

وبسبب ما اصطلح عليه بأحداث الروضة، عاشت إسبانيا أياما معدودة من التيه. وبعد فتور الغضب الشعبي، عاد الروتين وعادت معه السياسة والجيش مشلولين دون حركة.

وإذا ما نحينا جانبا أحد البرلمانيين، الذي كان قائدا في هيئة الأركان الحربية، كانت كل الأصوات تدوي عاليا داخل قبة البرلمان في التاسع عشر من غشت 1919، وتحذر من وقوع كارثة بالمغرب. لذا، يجب فتح تحقيق لمعرفة من المسؤول، لأنه إذا ما حلت الكارثة فإن كل اللوم سيقع حتما على الجيش، الذي يفتقد لكل المقومات اللازمة للعمل هناك. فإذن، انتم يا رجال الحكومة، يا أيها المسؤولون الحقيقيون عن السياسة المغربية، ما تفعلونه هو اللامبالاة، وإلقاء كل المسؤولية على عاتق رجال يرتدون الزي العسكري. وفي أيام مضت، وجه البرلماني نفسه انتقادات جاء فيها: «هذا هو المشهد الذي يعطيه البرلمان بانشغاله بأمور صغيرة، متناسيا الأمور المهمة للحياة الوطنية»، فإذا كان هذا الموقف يولد عند الكثيرين "الاشمئزاز" فهو عنده يولد "الاحتقار" الذي يفرز هيجانا وفورانا متواصلا[60]. كان هذا البرلماني يُدعى خواكين فانجول غوني Joaquín Fanjul Goñi، من فيتوريا، وكان عمره يناهز التاسعة والثلاثين ربيعا. أما كتابه الذي اهتم بإجراء حسابات حول الشؤون المغربية، فلم يفتح ولم تقرا صفحاته أبدا داخل البرلمان.

هوامش الفصل الثاني

1) نعني بحديثنا بلدة "كاني" وهي مقاطعة تبعد بـ 795 كلم عن سنتياغو Santiago وهو المكان الذي شهد ملاحم وبطولات فارا دي ريي واتباعه يوم الواحد من يوليوز 1898 إزاء التقسيم الأمريكي لـ لاوطون Lawton. كما نعرف "كاني" اخرى باسم "ديل ستيو" وهناك "سان لويس دي اورينطي" و"سان لويس دي كاني" الشيء الذي يصعب معه تحديد مكان وفاة سيلفستري بدقة.

2) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، العدد ف-1025، في بعض الوثائق المدرجة داخل ملفه، يظهر اسم والد سيلفستري كـ "بانتيغا" Pantiga عوض اسم "فرنانديث" الأكثر شيوعا.

3) المصدر نفسه والصفحة مفسها. وقد اكد ذلك مانويل ماريانو إسبينو بريطو Manuel Mariano Espino Prieto، قس دير سان لويس دي كاني، حيث اكد أن المتعاقدين "اقروا بذنوبهم، واعترفوا وتم التعامل معهم على أساس انهم من الديانة المسيحية" فتم ضم اسمهم "إلى كتاب الزواج" كانت إلوطريا Eleuteria تنحدر من نفس المكان، "كاني" الذي كانت تنحدر منه أمها، السيدة فرانثيسكا، في حين كان والدها السيد خوان سيلفستري من "باغور" (بخيرونا) Bagur، انظر إلى نسخة من عقد الازدياد لوالدي مانويل فرناندس سيلفستري، فيكتور والوطريا الموقعة في سانتياغو دي كوبا يوم الثاني من يونيو 1887، والتي تم تجديدها يوم الثاني من غشت 1889 من لدن الموثق سغوندو الونصو ثيان Segundo Alonso Cillan وإولوخيو باربرو كينطرو Elogio Barbero Quintero، وقد تمت مطالبة فيكتور فرنانديث، والد سيلفستري بهذه الوثيقة العدلية -التي وضع خاتمه عليها- ليسجل نجله في الأكاديمية العسكرية بطليطلة.

4) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

5) باين ستانلي. خ. Payne stanely G: القوات *العسكرية والسياسية في إسبانيا الحديثة* ترجمة خوان طوماس سالاس Juan Tomas Salas مطبعة ساربي، مدريد 1986، صفحة 85.

6) دار النشر "لارثون إيس نويسترا" طبعة يوم الجمعة 2 دجنبر 1897.

7) الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية، العدد ف-1.205 المستشفى العسكري، 18 يونيو 1897. بعد ثمانية ايام من عودة سيلفستري.

8) الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية، العدد ف-205.1، كانت حصيلة الجروح، بالإضافة إلى عدد ثقوب القذائف تصل إلى 21. اما العدد 22 فكان يرمز لتلك العلامة المحفورة في جبينه من جراء عيار ناري، والتي لازمته طول حياته.

9) المصدر نفسه والصفحة نفسها، حينما يتم الحديث عن الجروح التي أصابت سيلفستري خلال الحرب، فإن غالبية الكتاب يتحدثون عن "ستة عشر جرحا".

10) الأرشيف العسكري العام. العدد ف-1.025، نفس الجائزة التي تقدر قيمتها بالفي بسيطة احرز عليها القبطان لاثرو Lázaro عام 1920 لدروسه بالعربية.

11) غارسيا فرنانديث، خيرونيمو "*الأكاديميات الأولى للعربية بسبتة ومليلية*" مجلة الجيش صفحة 19.

12) محادثات مع خوان ديث وخوصي ماركيث لوبيث بشان جمعية الدراسات بمليلية، في يونيو 1997.

13) *تلغراف الريف*، يوم الأحد 20 يناير 1907.

14) أهم مؤلف كتب بهذا الصدد هو للكاتب ايندي سلاسار، خوصي مانويل والمعنون بـ"*الديبلوماسية الإسبانية والمغرب 1907-1909*"، المكتبة الديبلوماسية الإسبانية. مدريد 1990. صفحات 136-138، انظر كذلك في كتاب لموراليس لسانكو فيكتور، *الاستعمار الإسباني-الفرنسي بالمغرب (1927-1989) القرن الواحد والعشرين*. مدريد 1976 الصفحات، 72-78.

15) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية العدد 1، الملف رقم ف-1.025.

16) بلانكو إساغا، المصدر نفسه، ص. 264.

17) بيكر غونثاليث، خيرونيمو، *تاريخ المغرب*، المؤسسة الطوبغرافية لجيمس راطيس، مدريد 1915، ص. 505.

18) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. الملف رقم ف-1025.

19) جوليان، شارل أندري، *المغرب إيزاء الإمبريالية*، دار النشر خ.ا باريس 1978. الصفحات، 73-75. لم تشارك إسبانيا في تلك المجازر، إذ أن القبطان آلفارو دي بثان الذي كان على رأس المدفعية، والذي أرسله ماورا للميناء المغربي لم يشارك في هذه العملية الحقيرة، رغم إرساله فيلقا من البحرية للدفاع عن القنصل الإسباني. وفيما بعد ابحر الكمندان "فوستينو سانطا اولايا على راس 420 رجلا وذلك للقيام بمهام المحافظة على الأمن، مأخوذ عن مؤلف إيندي سلاسار. نفس المصدر صفحة 66-69.

20) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، المجموعة رقم ف-1025.

21) مذكرة جلسات مجلس الشيوخ، دورة 25 أكتوبر 1913.

22) سنوات أخرى محتملة لتاريخ الازدياد هي 1868-1871.

23) عياش جرمان، نفس المصدر السالف، ص. 259.

24) *تاريخ الحملات العسكرية بالمغرب*، المصلحة التاريخية العسكرية. مدريد 1951، الجزء II، ص. 658.

25) غارسيا فيغيراس، طوماس وإرنانديث دي غريرا كارلوس، *عمليات التدخل الإسباني في المغرب (1492-1927)*، مطبعة البلدية، مدريد 1929، الصفحات، 118-119.

26) جاء هذا في بيان غير رسمي تسرب إلى صحافة باريس وليس كما أشيع على أنها تنديد للدولة.

27) **صحيفة لاليبرطاط**، نشرة 25 يونيو 1911.

28) لوبص ريندا، رفائيل، *الريسوني. من سيلفستري إلى بورغوطي*، الشركة العامة للمكتبات، مدريد، 1923. ص. 65.

29) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

30) حول هذه الأحداث، انظر *تاريخ الحملات العسكرية على المغرب*، نفس المصدر، الجزء II، الصفحات، 662-664.

31) جوليان، شارل أندري، نفس المصدر، ص. 87.

32) الأرشيف العام للقصر الملكي، الخزانة 5 /28.

33) لوبس ريندا، في *مواجهة الفشل*... الصفحات، 85-108.

34) غارسيا فيغيراس، طوماس، *بيوغرافية الجنرال فرنانديث سيلفستري وما انجزه في منطقة العرائش*، مطبعة الجيوش الاستعمارية سبتة 1929. صفحة 16. ولنفس الكاتب مؤلف، *من الأسطورة إلى التاريخ، الكولونيل سيلفستري ومعتقل الشريف الريسوني باصيلا* -وهو عمل نشر سنة 1947 بصحيفة *الإسبنيول*- بعدها نشر في دراسات تاريخية مختارة حول المغرب، دار النشر المغربية، العرائش. 1949، الصفحات، 424-429. طسينر وطوماسين كارلوس فيديريكو، *الريسوني، حليف وعدو إسبانيا*، الكزاره، مالقة 1998. ص. 118.

35) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، قسم "المشاهير"، ملف ب-6.

36) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، الملف 344/14.
37) أرشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ، خزانة رومانونيس، الملف 17.
38) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
39) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
40) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا. المجموعة 351/6.
41) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. المجموعة ر 3328.
42) لوبس ريندا. نفس المصدر، ص. 154.
43) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية، المجموعة ر 3328.
44) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة فيليب رودس بالدريش Felipe Rodés y Baldrich في دورة الأربعاء 17 نونبر 1915، ص. 251.
45) المصلحة التاريخية العسكرية. مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، الدفتر 6.
46) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
47) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. مجموعة ف-1.025 وب-6 .
48) محادثات مع حفيدات الجنرال ايثبورو، امبارو، بيلار وصوفيا بمنزلهما في مدريد. مايو 1997.
49) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة الجمعة 4 نونبر 1921، صفحة 3973 آنذاك كان غونثاليث انطوريا وزير الدولة في حكومة ماورا الذي عوض أيندي سلاسار.
50) محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو لوبيث. في مايو 1997. وما تزال الشكوك قائمة حول ما إذا كان رومانونيس أو ماورا الذي لم يتاخر كثيرا في تشكيل حكومته الرابعة هو من تقدم بالاقتراح إلى الجنرال.
51) المصلحة التاريخية العسكرية. مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري" الدفتر 3.
52) صحيفة *الصول*، نشرة الأربعاء 16 يونيو 1919.
53) *تاريخ الحملات العسكرية على المغرب*. الجزء الثالث، ص. 45.
55) القرار الملكي الصادر يوم 25 غشت 1919، في فقراته المخصصة لـ "الحملات العسكرية"، "الشؤون والسلطات المحلية" و"القروض".
56) صحيفة *الصول*، في عددها الصادر يوم 19 يوليوز 1919.
57) *تاريخ الحملات*... الجزء الثالث، ص. 21.
58) غوميث إدالغو، فرانثيسكو، *التراجيديا المتوقعة*، مطبعة خوان بويو Juan Pueyo، مدريد 1921. الصفحات، 126-128.
59) الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. المجموعة، ف-1025.
60) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة 9 غشت 1919، الصفحتان، 954-955.

◆ ◆ ◆

الفصل الثالث:
طريق أنوال

الجيش والمال والمغرب،
كلها معضلات ذات أمد بعيد

كان الجيش الذي ورثه الملك الفونصو الثالث عشر سنة 1902، كتيبة هزيلة رغم عددها الكبير. ففي بيانات الأقدمية للموظفين لسنة 1900، كان يوجد خمسمائة وتسعة وعشرون جنرالا (مائتان وثلاثة منهم في الاحتياط)، وليس باقل من ثلاثة وعشرين الفا وسبعمائة وسبعة وستين ضابطا (منهم سبعة آلاف وتسعمائة وعشرة في الاحتياط)، وكانوا يراسون الجيش على مختلف درجاته. علاوة على وجود جنود مكونين من مائة وعشرة آلاف وتسعمائة وستة وعشرين رجلا. وهو ما معناه، انه على راس كل اربعة عساكر كان يوجد ضابط واحد[1] وما يماثله هو وجود جنرال واحد على راس كل مائتين واربع وثلاثين فرقة عسكرية.

من الممكن إيجاد ستة جنرالات على راس كل فرقة عسكرية، وتلك كانت حماقة كبيرة، فهذا يعني، انه من المحتمل ان يُسير الكولونيلات طوابير الجيش. وقد يراس القبطانات الفصائل العسكرية، كما ان الملازمين كانوا اقل عددا ممن لهم درجة نقيب. والخلاصة أن هذا الجيش، كان جيش ضباط لا جيش عساكر ميدان. وكانت التمارين والتداريب العسكرية غائبة تماما.

وفي السنة الأولى لمأساة الكوروكو (1909)، كان عدد الجنرالات التابعين للجيوش الإسبانية يُضاعف كثيرا عدد الجنرالات في الصفوف الإنجليزية، والعدد هو ستون من

الإسبان مقابل اربعة وثلاثين من الإنجليز. وبموازاة مع ذلك، سجلت إسبانيا انخفاضا ملحوظا في عدد الجنود المتواجدين في نقطة الهجوم، إذ لم يتجاوز عدد الجيوش مائة واحد عشر الفا واربعمائة وخمسة وثلاثين (111.435)، مقابل ثلاثمائة واربعة وسبعين (374.000) من العناصر البريطانية، لكن التساوي سُجل في عدد البريغاديرات (مائة وعشرون من الإسبان مقابل مائة وتسعة عشر (119) من الإنجليز). كما ان إسبانيا تجاوزت بريطانيا تجاوزا كبيرا فيما يخص عدد الكولونيلات وتلينتي كولونيل، والأرقام هي: اربعمائة وتسعة عشر (419) وثمانمائة وسبعة وخمسون (857) مقابل ثلاثمائة وسبعة وسبعون(377) واربعمائة واربعون(440) من الإنجليز. وكانت تلك الجيوش الإسبانية تتوفر على ثلاثين عنصرا من التنينتي جنرال -لا احد منهم قاتل في المغرب سنة 1909- في حين كان عدد تلينتي جنرال عند فرنسا والبرتغال، لا يتجاوز الثلاثة، وعند إيطاليا كان العدد هو خمسة. اما بريطانيا العظمى فكانت حصتها هي عشرون من تلينتي جنرال[2].

هذا وقد تم تدارك خطأ الإعفاء من الجندية -الذي كان يتم بطريقة عشوائية عبر دفع المال- وذلك بسن قانون التجنيد لعام 1912، على يد الجنرال لوكي Luque. بيد ان هذا الإصلاح لم يكن في جوهره إلا وَهْما، إذ كان ينص على إمكانية التخلص من مدة التجنيد المتبقية (واحد وثلاثين شهرا)، وذلك بعد قضاء الأشهر الخمسة الأولى (وهي المدة التي من المفروض اجتيازها للتدريب). كان الإعفاء كذلك يجري بدفع اثني عشر الف بسيطة، تُسلم مع تقرير مسبق يُعده الضباط عن صاحب الطلب[3]. وقد انتهى هذا النظام بإفراز سلسلة من التعسفات، التي لا يمكن وصفها. ناهيك عن المخلفات والخدع المتعددة الأوصاف والألوان.

إذا كانت النسب في المانيا وإيطاليا تُحسب على النحو التالي: ضابط واحد على راس كل عشرين جنديا -وهو معدل يرتفع إلى ضابط واحد على راس ثلاثة وعشرين جنديا في حالة الجيش الفرنسي- فإن الحال مع إسبانيا يبقى غامضا، إذ إن العدد هو ضابط واحد لكل اربعة جنود. وهو معدل تغير بعد احداث انوال، محققا نسبا معقولة تلخصت في هذا الترتيب: ضابط واحد على راس كل سبعة عشر جنديا.

وكان من نتائج هذه السياسة الارتجالية، ان ضاعت تقريبا نصف ميزانية الدولة في المدة المتراوحة ما بين 1900-1906، في عملية صرف الأجور، التي حالت دون أي إصلاح جدي للجانب المادي، وعكس ذلك وقع مع إيطاليا، التي كانت تصرف فقط سدس

ميزانياتها على اجور الجيش، بينما يرتفع العدد مع فرنسا، التي كانت تخصص سُبع ميزانياتها لذلك الغرض، في الوقت الذي كانت المانيا تفوقهم في حصصها. وبعد كارثة ما وراء البحار، خرج للوجود جيش هزيل، قوامه ضباط كثيرون، كانوا دائما في صراع مع القدر. كان هذا الجيش يرتدي أزياء رسمية، لكنه كان لا يعرف وجهته ولا حتى مطالبه. كان عبارة عن ميليشيا تعتز بكرامتها، لكنها كانت محبطة وفقيرة. ميليشيا اتُهمت بكل هزيمة، في حين أن هذه الهزيمة كانت من صنيع سياسة الدولة الفاشلة.

هذا وقد استطاع بسطيرو Besteiro، ان يُحلل هذه الأزمة وتداعياتها عام 1921، بعد العودة من وراء البحار إذ قال: «لقد شن رواد التيار المحافظ حملة على الجيش، فكسروا دعائمه لكي لا يزرع بذور الثورة في البلاد. وبانهياره، جاء الوطنيون الغيورون على الهوية الإسبانية، فصنعوا جيشا آخر. وبطرحه للسؤال، هل سيكون هذا الجيش "وطنيا"، أوضح البرلماني الاشتراكي قائلا: «كلا، بل ستكون هيئة كبيرة من الضباط لا فائدة منها، وهكذا شرعت الأكاديميات العسكرية في تكوين أطر، لا أحد يعرف ما الفائدة منها»[4].

وسنة 1895، وهو تاريخ كانت تواجه فيه كوبا آخر ثوراتها، كانت إسبانيا تتوفر على خمسمائة واثنين وستين جنرالا (مائتين وواحد وخمسين منهم في الاحتياط)، إلى جانب الف وسبعمائة وتسعة وستين كولونيلا وتلينتي كولونيل. وعام انوال 1921، ارتفع عدد الجنرالات وتلينتي جنرال ليصل إلى الفين وستمائة وستة وخمسين، اي بنسبة تفوق 50٪ عما كانت عليه سنة 1895. لكن الجنرالات وصل عددهم إلى ثمانمائة واثنين وثلاثين، وهو معدل يقدر بأزيد من 48٪. وكان جيش الاحتياط من الجنرالات يثير الاشمئزاز، إذ ارتفع عددهم في غضون ستة وعشرين سنة، من مائتين وواحد وخمسين إلى ستمائة وواحد وستين، أي بنسبة 163٪.

وظهرت سنة 1918، إرادة جديدة للحد من هذه الاختلالات، وذلك بوضع مشروع يهدف إلى تقليص هذه النسب بمعدل 25٪ من المناصب الشاغرة. بيد أن هذه المحاولة باءت بالفشل، وانتهت بمهزلة. وقد اوضح البرلماني المستقل السيد أوغسطو برثيا طريبس Augusto Barcía y trelles، داخل البرلمان، وهو يلوّح بأرقام رسمية، انه إذا كانت رخص توقف عن العمل بالنسبة لسبعمائة وواحد وخمسين كولونيلا في الفترة الممتدة ما بين يناير 1918 ويوليوز 1922، فإن عدد من استأنف العمل هو سبعمائة وسبعة وثلاثين. وبالتالي، لم تتم الاستفادة سوى من أربعة عشر منصبا. وتلك نسبة

بعيدة عن رقم مائة وتسعين منصبا التي كانت متوقعة. والأسوء من ذلك، ما حصل في صفوف تلينتي كولونيل، إذ سجلت حالات التوقف عن العمل نسبا تصل إلى الف وأربعمائة وواحدة وأربعين. وحالات الالتحاق بالعمل، سجلت نسبة الف وستمائة وأربعين، وهذه زيادة بقيمة مائة وتسعة وتسعين منصبا. في خضم هذا النظام الجديد[5]، ذكر هذا برثيا ساخطا. وفي حالة الكومندانات، سُجلت الفين ومائة وثلاثة حالة انقطاع عن العمل، تحولت بعدها إلى الفين واربعمائة وست عشرة حالة التحاق بالعمل.

وفي سنوات مضت، اعد كامبو Cambó، تقريرا يكشف فيه عن ازمة الجيش. ففي حوار جمعه سنة 1919، مع السيد لاثيربا La Cierva، الذي كان وزيرا للمالية في حكومة ماورا الرابعة. ذكر انه، «إذا كانت أجور الكولونيلات وقواد الجيش، غير كافية في إسبانيا، فالمشكلة لن تُحل بترقية الكولونيل إلى الجنرال، ولا قائد الجيش إلى تلينتي كولونيل، الحل هو الزيادة في الأجور، مع محافظة كل إطار على درجته»[6] فتمت المصادقة على الأقوال التي لم تطبق قط.

كان المال متوفرا، لكن استخدامه كان سيئا. فإذا كانت ميزانية وزارة الدفاع قد ارتفعت لمائتين وثمانية عشر مليون بسيطة سنة 1909، فإنها سنة 1915، ارتفعت ارتفاعا ملحوظا لتصل إلى ثلاثمائة وأربعة وستين مليون بسيطة، وسنة 1918، كان الرقم قد سجل ارتفاعا كبيرا، اربعمائة وتسعة وعشرين مليونا -كان لإسبانيا بصفتها إمبراطورية استعمارية، ثلاثمائة وسبعة عشر مليونا، والميزانية التي خصصتها للمغرب، وصلت إلى مائة واثني عشر مليونا-[7] واستقر المبلغ ما بين 1920-1921، عند ستمائة وسبعة وعشرين مليون بسيطة، بصفتها إمبراطوية استعمارية، اربعمائة وثمانين مليونا، وللمغرب مائة وسبعة وأربعين مليونا[8]. الأمر الذي أثار الاستغراب والتعجب، فالحرب كانت في المغرب لا في إسبانيا، في حين كانت نسبة 76,55٪ من ميزانية الجيش تصرف في إسبانيا، ناهيك عن مصاريف وزارة البحرية التي لم تكن باليسيرة (الفين ومائتين واثنين وثمانين مليونا ما بين 1908 و1921)[9].

ومع وفاة سيلفستري وجنوده كافة، تغيرت الأوضاع. ففي ميزانية 1921–1922 ارتفعت مصاريف وزارة الدفاع إلى 1036 مليونا، خصصت خمسمائة واربعة وثلاثين منها لإسبانيا، وخمسمائة واثنين للمغرب[10]. اما عن عجز الميزانية الإسبانية، فالرقم حقق نسبة 1410 مليون. وقد كانت ميزانية سنة 1909، تقدر بخمسة وثلاثين مليونا. ففي ظرف اثنتي عشرة سنة تضاعف هذا العدد أربعين مرة.

كل هذه الخروقات في ميزانية الدولة والنظام العسكري، لم تزد الوضع إلا تأزما. لكن وبحلول 1918، أُصدر قانون يقضي بإعداد جيش مكون من ست عشرة فرقة قال بريمو دي ريفرا بشأنها: «اثنتا عشر فرقة كافية لسد حاجات بلادنا»[11]. ولم تكن في إسبانيا برمتها فرقة عسكرية واحدة، حينما طالب بها سيلفستري في ذلك المساء المشؤوم للواحد والعشرين من يوليوز 1921. ولا فرقة واحدة مكتملة وجاهزة، فرقة كان عليها أن تكون مستعدة للإبحار من الموانئ الجنوبية لشبه الجزيرة في اتجاه مليلية لتصل إلى مكانها في غضون اثنتي عشرة ساعة، كما ذكر بذلك البرلماني بريطو Préito، داخل البرلمان[12]. لكن هذه الفرقة لم تخرج إلى الوجود قط، ولا حتى فصيلة منها. ونتيجة لذلك، مات سيلفستري ومن معه.

ومنذ سنة 1913، وبعد تثبيت نظام الحماية، وإلى حدود سنة 1921، ارتفعت وتيرة مصاريف وزارة الدفاع إلى الفين وثلاثمائة وخمسة وثلاثين مليونا. وإذا ما أضفنا إلى هذه القيمة، ثمانمائة وواحد وتسعين مليونا، التي أُنفقت في المغرب في الفترة نفسها، يصبح العدد ثلاثة آلاف ومائتين وواحدا واربعين مليونا. بالإضافة إلى الف وثمانمائة وسبعة وتسعين مليونا المستثمرة في البحرية في نفس السنة (1913). إذن فالمجموع يصل إلى خمسة آلاف ومائة وواحد واربعين مليون بسيطة، وهو رقم خيالي[13].

وقد حدثت خروقات اخرى، فبمقتضى قانون 1918، كان الحرس المسلح، الذي كان في معظمه يتالف من ضباط الصف، يتقاضى راتبا سنويا مقداره الفا بسيطة. لكنه وفي السابع عشر من اكتوبر 1919، وبمقتضى مرسوم ملكي، اصبح يتقاضى رواتب من فئة ستة آلاف بسيطة. وتسمح له بالترقية إلى رتبة قائد، بيد انهم اكتفوا بدرجة نائب[14]. في حين أن نواب الجيش، الذين كانت أجورهم السنوية لا تزيد عن ألف وخمسمائة بسيطة سنويا، اصبحوا يتقاضون بعدها بسنوات، الفين ومائتين وإحدى واربعين بسيطة[15]. والحصيلة كانت مرتفعة بنسبة 200٪، لفائدة الحرس الملكي، و49,40٪ لفائدة ضباط الصف.

كان الظلم والتعسف بمثابة معول انهال على معنويات الجند، فإذا كانت نسبة الهاربين من الجندية قد وصلت إلى 4,62٪، في خضم الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية، فإن هذه النسبة ارتفعت إلى ارقام هائلة: 22,09٪[16].

أصبحت إسبانيا بلا جيش، وهي في غفلة من أمرها. فمفهوم الجيش لم يعد يخطر على بال الميليشيات، ولا على بال السلطة كذلك. كما أن الحكومة، وإلى جانبها الأطر العليا في الجيش، نسيت أهم التدابير في الأمور العسكرية، كتكوين الجيش تكوينا جيدا، ومعاملته معاملة تليق به، وتسليمه اجود العتاد الحربي، وتعيين كفاءات عليا بعد عمليات انتقاء صارمة. لكن التدابير الثلاثة لم تكن حاضرة. ونتيجة لذلك، تفككت أواصر الجيش وحلّ شبح الفوضى.

الملكية والجيش، رهائن الغزو

شكلت الأراضي المغربية عند إسبانيا التي كانت بلدا منهوكا عسكريا عند مستهل القرن، بديلا ساعد الجند على إرضاء ضميرهم أمام التاريخ. فالكفاح المسلح في المغرب ضد أراضيه ومناخه ورجاله، جاء ليرد الاعتبار للنفس، بعد الهزيمة النكراء أمام الولايات المتحدة. هذه الهزيمة التي لاحقت الذاكرة الجماعية. وباتت تؤرقها كثيرا. فمعظم الضباط الذين تم تعيينهم في إفريقيا، كانوا مقاتلين في كوبا والفلبين، فحانت الفرصة لمحو العار بالقتال، أمام عدو شرس. وهكذا وقع الاختيار على المغرب بصفته افضل مجال، يمكنه ان يستجيب لكل هذه التحديات؛ مجال أسطوري -نزلت ذكرى موقعة (1859-60) بثقلها الكبير- يلائم هذا الحماس نحو شؤون إفريقيا، وفضاء شجع الكثير على التفكير في التبشير، فاستهل نظام الحماية مشروعه مشهرا اهدافه، وكأنه غزو نبيل له شعاراته، كالدفاع عن الوحدة الترابية لإسبانيا، انطلاقا من السواحل الإفريقية الغنية بالخيرات الباطنية، والأراضي الخصبة. وتلك كانت خدعة كبيرة، شعار آخر ركز اهتمامه على إنقاذ الأرواح من الظلال، وتلقين حضارة أوروبية ومسيحية لأناس اميين ودون المستوى. ونفس الأفكار تبناها الفرنسيون في عهد بوانكاريي Poincaré. نقطة الاختلاف، كانت انهم اخذوا معهم أجود ما عندهم من الجنرالات.

وهكذا أصبح عبور مضيق جبل طارق عنوان الغزو، فوضع الآلاف من العسكريين، ومئات العائلات من المعمرين، ثقتهم في سياسة غير مسؤولة -روادها رومانونيس وداتو-، خرجت للوجود بعد إنهاء اتفاقيات الحماية، التي تمت في نونبر 1912، والتي بمقتضاها فُرضت التبعية للقوى الفرنسية-البريطانية. لكن الإسبان كانوا هم الوحيدين الذين غامروا ليس فقط بمجهوداتهم في المجال الاجتماعي، بل حتى بحياة جنودهم وسياستهم الداخلية ووحدة النظام الملكي.

كان الجندي الإسباني رجل المستحيلات، وبهذه الروح الجريئة والعنيدة المشابهة لروح كورطيس وبيثارو Cortés y Pizarro، دخل عالم المغامرات الإفريقية من بابه الواسع، فتحول الريف وجبالة بالنسبة إليه إلى ساحات المبارزة.

تحمل الفونصو الثالث عشر بصفته ممثلا للملكية مسؤولية استعمار المغرب، لكن التناقضات كانت حاضرة بثقلها فإذا ما توفرت الإمكانيات الاقتصادية غاب المسيرون، وبالتالي لم تكن النتائج مقنعة ولم تكن بوادر الأمل موجودة، وقد تحدث كامبو Cambó عن فكرة الاستعمار هاته داخل البرلمان فقال «أي مشروع المغرب هذا الذي تتحدثون عنه، إذا كانت كل المؤشرات تدل وبوضوح على ان إسبانيا تعوزها كل المقومات لنكون بلدا مستعمرا»[17]. فعهد الملك بحماية هذا المجهود الجبار للأمة، والجيش والنظام، وفي الحقيقة لم يكن للجيش وجود، ولم تكن الرغبة في إيجاد جيش يخلص لمهامه، فبقيت سياسة الدولة مكتوفة الأيدي. وَوُضعت البلاد برمتها على محك تجربة قاسية.

هذا وقد حذر فرانثيسك كامبو Francesc Cambó، في خطاب آخر ألقاه أمام البرلمان، من عواقب هذا التدخل قائلا: «يوما بعد يوم، أصبح بصيص الأمل في أن يكون تدخلنا في المغرب إيجابيا يتلاشى، خصوصا بعد التجربة المخجلة في استعمار مناطق ما وراء البحار. هذه التجربة أعطت لإسبانيا، التي ما يزال دمها ينزف بسبب نزاعات أبنائها، درسا ألّف بيننا وولّد عندنا شعورا جديدا بالوطنية...».

وفي الرابع من نونبر 1913، حذر كامبو من مغبة انتهاج نفس السياسة التي طبقت في كوبا، حيث قال: «إننا نستعد لكارثة مماثلة لتلك التي عشناها في ما وراء البحار، ولنا معها موعد عند بوابة أوروبا. وهناك سنكشف للرأي العام العالمي عن العار، الذي جنيناه، عن عوراتنا، وعن كل مؤشرات انحطاطنا». وقد أشار هذا الزعيم للعائلة الملكية، بضرورة اتخاذ تدابير حاسمة قائلا: «من الواجب أن نضع حدا لمسألة المغرب وبعُجالة، وذلك بتدخل الملكية. فالمغرب قد يكون فصلا أسود في مستقبل إسبانيا».

وكأنه كان يتوقع ترقية الفونصو الثالث عشر، إلى الدرجات العليا. وفي تدخله لفائدة أسرى الحرب لسنة 1914 /1918، أضاف كامبو ما يلي: «تذكّروا جيدا أيها المهتمون بالتاريخ، أن اللحظات الأكثر شعبية عند الأمراء، تكون في غالب الأحيان إنذارا بتغيير الأنظمة»[18]. وهكذا، وفي غضون سنتين، تلقى نظام الفونصو الشديد الحياد، تشريفات

عالمية[19]. لكن وبعد ثمان سنوات، حلّت أنوال، وبعدها بعشر سنوات، تم الإعلان عن الجمهورية الثانية. ولا أحد كان بجوار الملك الشهم، حتى الجيش.

طرق متعددة لإعلان الحرب واحتلال الريف

بعد العروض العسكرية الهائلة التي قام بها سيلفستري إلى جانب مرينا سنة 1808، بمناسبة اختتام وانتهاء الاحتلال الإسباني بمنطقة ريستينغا زمن الروكي. لم يكن يعلم انه يدشن طريقة جديدة في الاحتلال، تتلخص في التفاوض مع الأعيان الريفيين بواسطة المال، على أساس تكوين حلف عسكري مشترك يقضي، بانسحاب الريفيين فور تقدم قوات الاحتلال الإسبانية. وهذا ما اقترحه كل من خوردانا وايثبورو على عائلة عبد الكريم.

وهكذا، ظل موضوع احتلال المغرب مختزلا في امرين، فإما احتلال البلاد بموت العباد، وإما الاحتلال دون إراقة دماء. فكان الاختيار الثاني، وهذه فصول أجراته، كان الضابط الإسباني يبعث ببرقية إلى زعيم القبيلة المستهدفة، موضحا له أن إسبانيا ستدفع له مبلغا يقدر بنحو خمسمائة بسيطة إذا ما أعرب عن استعداده لمساعدة إسبانيا. وتقديم يد العون لها. فكان من واجب زعيم القبيلة، الذي أسال المال لعابه، أن يشرع في تكوين حشد من الأتباع، ويدفع لهم مرتبا يوميا يصل إلى بسيطتين. وبهذا تشكلت حركة هزلية، ليس لها من الاسم سوى معنى فلكوري. وقد لخص بيتا Pita، كل هذه الأمور فقال، «على إسبانيا أن لا تنسى أن اي عملية توغل داخل التراب الإفريقي، تتوقف على امور ثلاثة، الدين والسياسة والمال. فهذا افضل من السلاح، وإن كان أحيانا لابد من استعمال المال والقوة إذا اقتضت الضرورة ذلك»[20].

وفيما بعد، كان زعيم القبيلة يتلقى من الضابط إشعارا آخرا، يحثّه فيه على ضرورة إقامة مركز إسباني داخل أراضيه، وينبهه إلى انه قد حان الوقت لخدمة إسبانيا. وكانت الخدمة تتلخص في الاستيلاء على المركز الواقع على الخط الذي ستزحف بمحاذاته القوات الإسبانية. فإذا ما وصلت هذه الأخيرة إلى هناك، كان على القائد المرتشي أن يلعب لعبته، ويتظاهر وكأنه عدو لإسبانيا. فيدخل في تمثيلية الاشتباك والقتال. وبعد أن يصل إلى المكان المنشود، يترك حرية التصرف للقوات المحتلة»[21].

وبهذه الوسيلة، تراضى الطرفان فيما بينهما، فالإسبان حققوا انتصارات عسكرية باهرة، وتلقى الريفيون المال والفرحة تملأهم، كيف لا، وقد جنوا الكثير مقابل خدمة بسيطة. وعقب الرفاهية حلت الأزمات، فبعد أن اطلع الشيوخ على هذه اللعبة، خرجوا من اجتماعاتهم بفكرة إجبار زميلهم المرتشي على إشراكهم في العملية، وإعطائهم حقهم من الوزيعة، فشيخ القبيلة ونظرا لمكانته، كان لابد من مشاركته في الأحداث. وهكذا وفي العملية الموالية، وأثناء العرض العسكري للقوات الإسبانية، قام الزعيم الريفي بمعية الفرقة التي شكلها، والمال الذي أعطوه إياه بفتح النار فجأة، عوض شن غارة بسيطة ثم الانسحاب. وقد لخص رودريغيث بيغوري Rodríguez de Viguri هذه الوضعية فقال: «هذا ما كان يُعرف بالسياسة الأهلية الذكية»[22].

كان أيثبيطيا Azpeitia، شخصا على اطلاع بالأكاذيب الاستعمارية، وقد أعطى وجهة نظره وهذا نصها: «إن المورو يعرف حق المعرفة، أننا ننتفخ فخرا بالانتصارات التي نشتريها بالرشاوى، وأننا نعد أنفسنا منتصرين في حروب هي نتاج الرشوة»[23].

وعليه سنستدل بحادثة القائد خوان ريدوندو Juan Redondo، الذي كان يعمل بقسم الشرطة الأهلية. فهذا الجندي، عند وصوله إلى قبيلة بني بويحيى رفقة فيلقه العسكري، قطع أراضي أعرويت التي كانت تحت دائرة اختصاصه بكل شجاعة. فاندهش الـمير El Mir، الذي كان واحدا من أعيان المنطقة، لجراة هذا القائد فبعث له برقاص (رسول) يحمل معه تحديا شخصيا يدعوه للمواجهة. إنها المبارزة إذن ما بين الرؤساء. فكان أن تقررت نتيجة الحملة إثر الاشتباك -الفظيع- الذي جمع الشخصين، إذ قَبِل الإسباني هذا التحدي، فباغث عدوه بوصوله إلى المعسكر الريفي، فتقدم لوحده مجردا من السلاح، وتعجب قائد القبيلة لهذه الشجاعة التي لم يملك إزاءها سوى التعبير عن إعجابه قائلا: «لأجل هذا، ولأنك بطل شجاع، فإن كل قبيلتي هي منذ الآن ملك لإسبانيا، ولك فيها إن شئت الحكم». وقد قال الماركيس فالدري Marqués Valderrey، بشأن هذه الحادثة: «لقد حرك هذا الحادث مشاعري بطريقة هائلة»[24]. ومن المحتمل أن يكون ريدوندو، هو صاحب النهاية المفجعة في شفشاون (في العاشر من نونبر 1920)، بعد الاستيلاء على المدينة المقدسة بقليل. وشيء مماثل لبطولة ريدوندو، قام به لاريا في معركة برانكو دي لوبو آنذاك سنة 1909 . كان فرانثيسكو لاريا ليسو Francesco Larrea Liso، واحدا من

الكولونيلات الموجودين بإفريقيا، وقليل من كان يعرف أن هذا الجندي النفاري، الذي يبلغ من العمر اربعة وثلاثين سنة، والملتحي بلحية بيضاء، والحامل لنظارات يضعها دائما على ارنبة انفه، كان رجل إصلاح منذ نشأته، وصاحب مقالة حول التنظيم العسكري لإسبانيا سنة 1893، كشف فيها النقاب عن مواهبه. وسنة 1906، تعامل لاريا بسجيته الصارمة والصريحة، والحساسة والعنيدة، مع الروكي. وقد ساعده على ذلك، تمكنه من اللغة المحلية، ومعرفته بالعادات والتقاليد الريفية. كما كانت له القدرة على تحمل مهام اخرى انيطت به كالمحافظة على مليلية، عن طريق الهجوم المضاد على السواحل. وكُتب له النجاح حينما كلفه مارينا بعملية هجوم على القبيلة المتمردة "كبدانة". وفي الثالث من شتنبر، خرج "لاريا" يتعقب هدفه برفقة ثمانمائة رجل وحَركة مساعده[25]. وكان سكان مليلية يشكون في عودتهم، وظنوا ان لاريا ورجاله مهزومون لا محالة.

وصل لاريا إلى كبدانة، وتفاوض مع شيوخ القبائل، فعمل على استمالتهم. لقد ادهشهم بطريقته الحسنة في التفاوض. وفي النهاية تمكن من إقناعهم بالتعاون مع إسبانيا. وهكذا، وفي غضون ستة ايام، حقق انتصارا باهرا وتمكن من إخضاع القبيلة.

وبتدابيره المتبصرة، عرف لاريا كيف يتغلب على مشكل آخر مخيف، كان يشبه الكوروكو، يتعلق الأمر بمرتفعات كبدانة، التي يصل طولها إلى الف وثمانمائة متر، وكذا الجهة المعنية بإجراء الاتصالات مع قوات الزحف الإسباني، التي كانت تبعد بمائة خندق وواحد. وسنة 1921، تحدث شاهد عيان، وهو الصحافي ليو بولدو روميو سانث Leo Poldo Romeo Sanz، الذي التحق بعدها بالبرلمان على يد بلشيطي Belchite، عن شجاعة ووضوح لاريا، وعن الأرض التي سيطر عليها قائلا: «إنها منطقة تحتاج فقط إلى اربعمائة رجل لشل حركة ثلاثين او أربعين الف نَفَر. وانهى كلامه قائلا: «حسنا، لقد استسلمت كبدانة دون إطلاق عيار ناري واحد»[26].

وبعد هذه الإنجازات، تم تعيين لاريا -الذي كان سنة 1909 بريغادير، وسنة 1911 رئيس قسم، قائدا عاما بسبتة، فتقلد زمام الأمر في منصبه الجديد في الثامن من مايو 1914، وفي اليوم الموالي وافته المنية، فراح ضحية التهاب رئوي عنيف وغير مألوف. وبرحيله خسرت إسبانيا واحدا من أفضل رجالاتها في إفريقيا، كان مثل مورالس.

أعرويت، نهب الأراضي وقتل ثلاثة آلاف من الأرواح

في يونيو 1914، استولى الإسبان على سهل غاريت Garet [27] المنهار، هناك، قامت الوكالة الاستعمارية التي كان -الماركس فالدري شريكا فيها- بشراء ثلاثين الف هكتار. كان الدافع هو استغلال الثروات المنجمية وتحويل المنطقة إلى ساحات صالحة للزراعة.

وشرع المعمرون في الوصول، كان غالبيتهم من أصل إسباني. قدموا من أوْرَانيِسَادُو Oranesado بنية الهرب من الجندية الفرنسية، وفرارا من الموت المحقق عند جبهات القتال، أثناء الحرب العالمية الأولى. لكن الملاكين الجدد للأراضي لم يمنحوهم الأرض المدعوة والهناء، وهو شيء متوقع من شركة تعتمد نشاطاتها على اقتناء الأراضي بأربع بسيطات لتعيد بيعها بعشرين، فغادر الكثيرون المنطقة، إذ إن الوكالة الاستعمارية عاملتهم بشح وابتزار، وجعلتهم يتنازلون عن أهدافهم، للعودة إلى الجزائر.[28] وهذا شيء يحفظ لهم ماء وجههم ويحفظ لهم حياتهم.

وهكذا أصبح الملاكون الحقيقيون لتلك الأراضي، وهم سكان بني بويحيى بلا ممتلكات، لأن آلاف الريالات التي قبل بها -شيوخهم- كطُعم للدخول في صفقة مشؤومة، لم تكن لتسمن أو تغني من جوع. فتجسدت المعاناة، إذ لم يكن لهم الحق في العمل في حقولهم، ولم يعاملوا معاملة حسنة داخل المناجم، حيث الأفضلية للعمال الإسبان. كما ان الأجانب يمنعونهم من اخذ تلك البسيطات الثلاث أو الأربع إلى منازلهم، والتي كانت تعني الفرق بين عيش كريم، أو المعاناة من شظف عيش، كان يُترجم في حمل ما مقداره ثلاثون كيلو غراما من الحطب على الظهر، والسير به عشرين كيلومترا مشيا على الأقدام لبيعه في مليلية بريالين حسنيين.

كان الرجل الريفي يقدر تماما قيمة ما انتزع منه، سواء تعلق الأمر بكثير من الأراضي أو قليل من المناجم ذات الثروات المبالغ فيها، فبالنسبة إليه تم نهب كل شيء. ولم يكن هذا الرجل حيوانا كما كان رائجا، أو بهيمة للأثقال. وهذا أمر ذكره روميو، الذي اعتبر أحداث يونيو 1922 سببا في الفاجعة[29]. انتُزعت الملكيات إذن، وانتشرت السرقة وعَمَّ الجوع واليأس والكراهية والانتظار، وبقى سكان بني بويحيى بلا زاد ولا مشاريع ولا صواب. ضاع منهم كل شيء، فاللعنة على "غاريت". وهكذا، وبعد سنوات قام هؤلاء البدويون بقتل

المعمرين، واغتصاب نسائهم وحرق مزارعهم ومخازنهم، وتوحدوا في صفين وصوبوا ووجهوا بنادقهم تجاه مخرج المعسكر الذي استسلمت حاميته من جراء العطش، وتفشي الأوبئة واليأس، وذلك بعد تأخر ذويهم في المجيء لإنقاذهم، فبقوا تحت رحمة قوانين الحرب. وما دامت القوانين غير موجودة، فالعفو كذلك غير موجود. فأجهزوا عليهم كلهم، والحصيلة كانت الفين وخمسمائة وثمانية وتسعين قتيلا في خمسة عشر دقيقة. والتهمة هي السطو على أراض لم تكن من حقهم، ولم يتعرفوا أبدا على أصحابها. حدث هذا في جبل اعرويت يوم الثلاثاء، التاسع من غشت 1921.

وزير متميز: سعادة الدوق إيزا

وقع خبر وصول جيش سيلفستري إلى أنوال، باردا في أوساط مدريد، إذ لم يعر داتو Dato رئيس الحكومة للأمر اهتماما كبيرا.

كان إدواردو داتو إرادير Eduardo Dato Iradier، يخوض غمار السياسة عن قناعة وحاجة حيوية. كان محاميا بارزا، تخلى عن مناصرته لـ كانوفاس، قبل أن يلقى هذا الأخير مصرعه سنة 1897، وبمباركة سيلفيلا Silvela، ترقى إلى مناصب عديدة، إلى أن وصل إلى عمدة مدريد. وولج بعدها رئاسة البرلمان. اصطدم هناك مع ماورا، وذلك لأن هذا السياسي الميوركي كان أكثر ليبرالية من غيره، وكانت مواقفه الصارمة تجاه الحكومة مختلفة كثيرا. وبعد أن رفض ماورا أن يخلف رومانونيس في الحكم، استغل داتو الفرصة ليشكل حكومته الأولى، التي جاءت للمرة الثالثة، فتشكلت في الخامس من مايو 1920. كان ينوي الاستفادة لوقت أطول من هذه الثقة الكبيرة. كان داتو قصير القامة، متوقد الذهن، تنط على جبهته المشرقة خصلات شعر بيضاء، كما كان نحيفا ورشيقا، يحترمه الكل من داخل بلاط الملك. وكان كبار رجال الأعمال يطلبون مشورته دائما، وكانت الذكريات والغربة تجتذبه إلى مسقط رأسه لاكورونيا. وعن سن تناهز الخامسة والستين عاما، شعر بالراحة في مدريد وهو يحكم البلاد بنظام. كما أن المغرب لم يكن يشكل له أية مشكلة، خصوصا بعد أن أعرب وزير الدفاع عن استعداده للنظر في أي حالة مستعصية ومعقدة.

كان لويس مريشالار إي مونريال Luis de Marichalar y Monreal الفيكونت إيزا، عضوا غير عاد داخل وزارة الدفاع، ففي مكتبه ببوينابيستا Buena Vista، والذي كان مقرا

اعتادت الهيئات العليا للجيش المرور به في صخب، كان يبدو بقبعاته الأنيقة، وأزيائه المتقنة التفصيل، وابتسامته الخجولة، وحديثه اللطيف وكأنه رجل مرهف الحس، يتحمس للأمور العسكرية، كان أصله من مدريد وعمره تسعة وأربعين سنة، كما كان يعمل في مختلف القطاعات، وفي مختلف أجهزة الدولة، إذ كانت له دراية كبيرة بمختلف الوزارات بحكم المناصب التي شغلها سابقا. فمنذ 1899 إلى 1914، انتخب في "صوريا" داخل هيئة البرلمان، وبعدها دخل مجلس الشيوخ، كان ينتمي إلى اكاديمية العلوم النفسية والسياسية.

كان إيزا خبيرا بالأمور الاقتصادية والفلاحية، وحينما كان مديرا عاما للفلاحة في حكومة ماورا سنة (1907)، أو وزيرا للدعم في حكومة داتو اثناء ولايته الثانية سنة 1917. اعترف انه يعمل في قطاعات تدخل تحت دائرة اختصاصاته. كانت البلاد قد أعلنت الحرب، وكان هو المؤتمن الوحيد، لأن من سبقوه، مونيوث كوبوس Muñoz Cobos وسنتياغو Santiago، وطوفار بيلبا Tovar Villalba، لم يكونوا موضع ثقة بالنسبة للرئيس. وقد سبق أن اختبره داتو اثناء المحنة العالمية فنال إعجابه، وكان الشعور متبادلا. كان إيزا مخلصا للملكية، ومخلصا لعمله. كما كان يتفاهم جيدا مع داتو، الذي احتفظ به ساعدا أيمن. فقط كانت تعوزه الخبرة في أمرين اثنين، كانا في غاية الخطورة بالنسبة لمنصبه؛ يجري الحديث هنا عن جهله بالمسائل الاستراتيجية، وأُميته فيما يخص معدات السلاح العصرية. ومن خصاله، سَعْيه في استقطاب المتطوعين داخل الجيش، وهو أمر زاد من شعبيته بين الجنرالات.

هذا وقد عرف كيف يبرهن عن قدراته التحليلية، إزاء وضعية عسكرية معقدة، ارتبطت بتكوين جيش من الأجانب. فالمبادرة كانت من صديقه الوفي خوصي مِيان أسطراي José Millán Astray، فتشكل بذلك جيش للدفاع، يتقاضى راتبه من الحكومة، وليس المعنى هنا، جيوش المرتزقة كما كان الحال مع رومانونيس سنة 1913. كان الجيش الأجنبي نسخة من جيش المتطوعين الفرنسي، الذي تشكل عقب ذهاب مؤسسه في جولة استطلاعية للجزائر، فتشكل وكان اللبنة الأساسية لجيش استعماري، تسعى إسبانيا لبنائه. جيش محترف في القتال، وله مردودية في السياسة. وهكذا، وبالأجر الجديد والمتمثل في سبعمائة بسيطة مكافأة لمن تطوع للجندية خمس سنوات أو ثلاثمائة بسيطة لمن تطوع مرة واحدة فقط، كان بالإمكان الموت في المغرب على حساب الدولة دون لوم

البرلمان. كانت نية إيزا تهدئة التوتر الاجتماعي الذي تاجج كثيرا بسبب العدد الكبير من ضحايا المغرب. الأمر الذي هيج المعارضة، واضعف روح التجنيد السنوي.

لقي مشروع تكوين الجيش انتقادات لاذعة، فحتى سيلفستري نفسه، كان من المعارضين. وهذا ما اوضحه لبرنكر في رسالة بعث بها إليه في السادس من فبراير 1921 قائلا: «لست من مؤيدي فكرة تكوين جيش من الأجانب، وتوزيعه في هذه الربوع، وذلك لأسباب عدة سوف اشرحها لك عند مجيئك»[30]. وحجة سيلفستري، هي أن رواتب هذا الجيش الجديد اغرت العديد من المحترفين في جيشه (الف وخمسمائة، والفي جندي طلبوا منصبا)، الشيء الذي يعني الانتقال إلى مسرح آخر للحرب. فالجيش الجديد كان في جبالة، وليس في الريف.

بغض النظر عن كل التقارير المضادة، اخذ إيزا الملف الذي كان بحوزة الوزارة، واتجه نحو مجلس الوزراء الذي كان يرأسه داتو. كان يعي ضرورة الإسراع بالمشروع، فالقانون الذي أصدر سنة 1918، رخص للتجنيد التطوعي سواء كان من قلب إسبانيا او من الأهليين. كان إيزا شديد التبصر في تصرفاته، لا تخونه الشجاعة ابدا خصوصا في المواقف المستجدة. وبعد مرور سنوات، استساغ الأفكار التي كانت تراوده سنة 1920، مواطنا مدنيا، لا يهمه أن يدفع الملايين الأربعة المخصصة لتداريب الجيش الأجنبي، إذ بإمكان هذه الملايين ان توفر أربعمائة مليون. وخصوصا، إذا كانت النتيجة هي فتح الطريق للحصول على جيش استعماري»[31].

لقد وصلت تكلفة إسبانيا في المغرب منذ 1913 إلى 1921، إلى الف وخمسة وعشرين مليون بسيطة، صُرفت في الأمور العسكرية، وفي دوريات 1921-22 /1922-23. صرفت ميزانية اخرى، مبلغها ثمانمائة وثمانية وستون مليونا. اما نفقات إسبانيا في منطقة الكاربي، في الفترة المتراوحة ما بين 1895-1899، فقد وصلت إلى الفين ومائتين وتسعة وعشرين مليونا، وكانت مخصصة لشراء السلاح والعتاد، ولاستعمار المغرب. لقد خصصت اعتمادات مالية مشابهة لتلك التي صرفت في كوبا والفلبين وبورتوريكو[32].

فالامتناع عن دفع المال لمساندة حرب دامت اثني عشر عاما، واغرقت البلاد في بحر من الدم، كان قرارا حكوميا بليدا لم يعارضه إيزا. فالصواب هو، منح قروض محددة

للحصول على جيش قوي، وتفادي هذه الحرب، أو الانسحاب من المغرب بلا مماطلة. لكن داتو لم يفكر في هذه الحلول، ولا حتى إيزا.

كانت الحكومة تُنفق وتُنفق في المغرب، لكنها كانت تعجز عن وضع خطة استعمارية متناسقة. اما الجيش فقد كان يعيش بالمصروف الذي يُصرف لـه، وفي المقابل كان يمتنع عن الاستثمار في العتاد واقتراح الأفكار الاستعمارية. وبهذا، كان يبدو وكأنه حريص على أن يعيش فقط. وفي الواقع، كان يموت شنقا.

ترقيعات في الميزانية وجيش باحذية رياضية

كان المغرب بمثابة كيس ممزق تتسرب منه اموال إسبانيا، واحيانا كانت الحكومة تخصص ميزانية محددة، لكنها في النهاية لا تستخدم، ولنا ان نستدل بالدفاع المستميت الذي كان بشفشاون، بعد غزو هذه المدينة الشريفة. فمدينة شفشاون لم تسقط بالقوة الوحشية، ولكن بتضافر الذكاء والجراة المتمثلين في شخصية البيرطو كاسترو خيرونا Alberto Castro Girona التنينتي كولونيل، الذي كان يبلغ من العمر خمسة واربعين سنة. والحادث وقع كالتالي: تسلل البيرطو بزيّ بائع الفحم من جهة الأخماس إلى داخل شفشاون بوجه مغبر، وثياب رثة. فكشف عن هويته الحقيقية أمام مجلس الوجهاء الذي فغر فاه، فنصحهم بلغة امازيغية سَلِسَة، بالاستسلام أو الموت أمام أربعة من الكتائب الإسبانية القوية، كتيبة نفارو، وكتيبة ساليكيط Saliquet بايخو Vallejo وكتيبته هو كذلك. فربما بسبب هذا التهديد، أو بسبب تقديم المال الذي من شانه أن يهدئ من روع الحروب[33]، سقطت هذه الحاضرة الشريفة لشمال المغرب. وبسقوطها، استوجب الدفاع عنها. وهكذا، سيطر الغماريون على المرتفعات، وفتحوا النار على الإسبان من مخابئهم.

وهكذا تحولت شفشاون، هذا المعسكر العملاق إلى مجزرة. سُجلت خسائر جسيمة في الواحد والعشرين من اكتوبر، إذ وصلت الحصيلة إلى مائة وواحد وثلاثين قتيلا حسب البعض[34]، أو مائة وثمانية قتلى حسب مصادر موثوقة[35]. فوقع خصاص كبير في الذخيرة والأكل والدواء والأكياس الأرضية، التي كانت تستخدم روعا. لكن ميزانية 1919-1920، سجلت أرقاما مبالغا فيها، سبعمائة واربعون الف بسيطة خصصت لكل المستلزمات.

وبعد مضي سنة على انتهاء الكارثة بإفريقيا، تحدث كومبني Companys، إلى إيزا عن تداعيات شفشاون، واشار إلى ان الأكياس الأرضية لم يُطلبها الجنرال برنكر. فقاطعه الوزير السابق ليؤكد ذلك قائلا: «بالضبط». وأمام دهشة الحاضرين بالغرفة اضاف إيزا قائلا: «الصراحة مع البرلمان»[36]. واعتبر حدث حدث استيلاؤهم على شفشاون في عهد برنكر، انتصارا باهرا في حد ذاته، عمّ انطباع يوحي بأن الحرب قد انتهت. خصوصا، وان المدينة كانت ماتزال محاصرة. وقد بقيت على حصارها إلى أن حان وقت الانسحاب المفجع لسنة 1924. لكن إشعاع الانتصار خدم مصالح برنكر الذي اصبح كونت شفشاون، وهي نعمة انعم بها الملك عليه.

كان إيزا يتحكم في جيش حافي القدمين، جيش تائه يرتجف من البرد. وقد جاء في رسالة بعث بها إلى برنكر في الرابع من فبراير 1921، ما يلي: «إن الجيش لا يتوفر على مكان يحتمي فيه، ويقيه من البرد ساعة الأكل. ومرارا رقدوا تحت رحمة السماء بسبب نقص الخيام، (...) ولن نتحدث عن الأحذية التي كانت من النوع الرياضي، الذي لا يفي بالغرض في فصل الشتاء، ساعة الأمطار والأوحال».

هذا وقد، ندد برنكر بالحالة المزرية للسلاح، فكتب: «كم من بندقية خفيفة وثقيلة غير صالحة، دون نسيان المدافع الرشاشة من نوع كولط Colt، التي كانت غالبيتها تتوقف عن العمل فور إطلاق الرصاصة الأولى»، واضاف إلى حديثه، النقص في الذخيرة الحربية من مدفعية. واشار إلى حالة الطيران، التي كانت وحداتها غير متناسقة بالنظر إلى تعدد وحداتها، والنقص الحاصل في قطع الغيار الجيد[37]. وبعد الانتهاء من قراءة يوميات الألم هاته، وجد إيزا نفسه وجها لوجه أمام خيارين اثنين: إما البحث عن المال لتسوية هذا الوضع، وإما الاستقالة. كان بإمكانه اتخاذ قرار آخر، وهو العودة إلى المغرب لتدارس أسباب الأوضاع المتردية، لكنه لم يشأ أن يعاود التجربة، فاكتفى بالبقاء مع جيش شبه أعزل من السلاح، وجاهل بالتكتكات الحربية. كانت الكارثة تشرف على الأبواب.

وزير في سفر: معاينة، كتمان وانتظار

صرح إيزا في بيان له قائلا: «إن امور المغرب دائما تشغلني»[38]، لكن المشكل، كان في ترجمة هذا الانشغال على أرض الواقع.

رحل إيزا إلى المغرب ما بين التاسع والعشرين من يوليوز 1920، فزار الثكنات العسكرية، وتراس العروض العسكرية، وحضر الولائم وتجول بداخل الأحصنة الخشبية والمعسكرات. وتيقن ان مضيفيه يريدونه ان يعود إلى مدريد مرتاح البال. فعاد إيزا قلقا، بيد أنه لم يخبر الملك بشيء، وفي رسالة بعث بها إلى "ليما"من مدريد في الثالث عشر من غشت، ذكر له ان المقيم العام يفتقر لشيء من الصعب تحديده، فهو يحتاج إلى روح تمكنه من اتخاذ التدابير اللازمة.

وتوصل "إيزا" إلى ان برنكر كان يدير المغرب ولا يحكم قبضته عليه، والدليل على ذلك هو تردد المقيم العام وعدم جراته على اتخاذ القرارات الحاسمة، وعدم استخدام سلطته[39]. والحقيقة، أن تصورات إيزا كانت في محلها، لكنه لم يبثها لبرنكر. فقط "ليما" كان على علم بها. لم يكن إيزا يتصرف بصفته وزير دفاع حقيقي، ففاقد الشيء لا يعطيه. فهو بدوره لم يكن يختلف عن برنكر، والأمر عنده كان يقتصر على المعاينة والكتمان والانتظار.

واثناء السفر وصل إيزا إلى شيفت، وهي مقدمة الخط الإسباني الواقع في قلب الريف المتوسط، وبرفقة الحاشية، صعد إلى حدود الأسوار. كان برنكر على يمينه والجنرال سيلفستري على يساره. وبعد سنتين، تذكر هذا المشهد داخل البرلمان[40]. وفي الأمام، كانت تفريست تطل برأسها.

استغل سيلفستري الوضع واوضح لإيزا انه بالوصول إلى شيفت يمكن اللحاق بتفريست ،بطفرة واحدة،، فتدخل برنكر موضحا ،انه بإمكانه فعل ذلك، فأنا الذي يرخص للعمليات، وأعين الحد الأقصى الذي يجب الوقوف عنده، لكنني لا احدد امتار الأرض، فهذا امر لا يدخل في دائرة اختصاصي،.

كانت ضربة مدفع واحدة تفصل تفريست عن شيفت، سبعة آلاف متر كانت في متناول اجود مدفعية إسبانية في الحملة كلها. لكن سيلفستري أبى أن يبتلع الخديعة، فأجاب برنكر بصراحة ادهشت إيزا، ،هذا لا يا سيدي الوزير، لأنه بغض النظر عن الشهرة التي اذيعت عني بكوني احمق، فلا يمكنني فعل شيء لا يأمرني به المقيم العام،، وعقب برنكر على هذا الحديث بتعابير ديبلوماسية حسب قول إيزا، ،تلك اشياء تتعلق بتطوير خطة تقع مسؤوليتها على من يختص بتنفيذها، فحينما ترى أن الوقت قد

حان، فلك رخصة فعل ذلك». عاد إيزا إلى مدريد، وبقي سيلفستري أمام تفريست يمعن النظر في الهجوم، فقرر المضي قُدما، لكنه هذه المرة أخبر برنكر، الذي حول بدوره الخبر إلى إيزا في اليوم الثاني من غشت. لم يكن جنرالا عاصيا، فقد كان يتصرف وفق إمكانياته ووفق ما يمليه عليه ضميره.

جندي إنجليزي مندهش، وصاحب مدفعية إسباني متعنت

في السابع من غشت 1920، انقض سيلفستري على تفريسيت واحتلها. وقد حضر هذه العملية الخطيرة شاهد عيان يدعى الجنرال ويليام رودكين Wiliam Rudkin، الذي كان مساعد الملك خورخي رودكين Jorge Rudkin، فعاش هذا الجنرال الهجوم الإسباني الجسور، وبقي مندهشا أمام نهاية الحدث المفاجئ. كانت وحدات سيلفستري قد انتشرت في الواجهة، فتحول هذا القتال الذي جرت فصوله دون استعمال مدفعية واقية، إلى هجوم انتحاري. أما عن الجناح المكلف بالتصدي للضربات الريفية، فقد تمكن من الفرار في لحظة بلبلة عرفها العدو.

بعد إحساسه العميق بالكارثة، طلب رودكين من الجنرال مونتيبيردي Monteverde، الرئيس الثاني بمليلية، الذي كان عضوا في لجان إسبانية متعددة خلال الحرب العالمية، والذي كان يجيد التحدث باللغة الإنجليزية، طلب الحضور إلى عين المكان. وبوصول مونتيبيردي، طلب منه رودكين أن يترجم إلى الإسبانية ما يلي: «إذا طلبوا من جنرال إنجليزي أن يفعل هذا سيجيب: ايتها الحكومة هذا شيء لن افعله أنا. اصنعيه انت، حقا إن منصبي تحت إمرتكم، وإنني لا اخاف من ان تمرغ كرامتي، التي لا تساوي شيئا، في التراب. ولكن تهمني سمعة البلاد ومستقبلها»، وقد اقتنع رودكين بما قاله، فتوجه نحو سيلفستري قائلا: «قمت بمعجزة حقيقية رغم ضآلة الوسائل المتاحة»[41]. وماهي إلا خمسة اشهر حتى كان الإسبان في انوال.

آنذاك، دُشنت حملة واسعة لجمع التبرعات في مليلية، كان الهدف منها هو بناء كنيسة لرجال الدين المرافقين. وقد صدرت هذه الفكرة عن السيدة إلوطوريا Eleutoria، والدة سيلفستري، وهكذا وُزعت رسائل على ضباط مليلية[42]. وفي السادس والعشرين

من ابريل 1920، تلقى واحد من الضباط هذا النداء، فطلبوا منه خمس بسيطات، وبعد مُضي يومين، أجابهم بقوله: «لست ممن يوافقون على بناء كنيسة عسكرية». ولتفادي الشكوك انهى خطابه بقوله: «لا يمكنني أن أساهم بأي شيء لهذا الغرض، دائما في خدمتكم السيد دييغو فلوميستا مويا Diego Flomesta Moya»[43].

وحدث رد فعل عنيف بمليلية، حينما قامت والدة القائد العام بطلب المال من الجميع، للمساهمة في هذا العمل الخيري. فوصل الحد بأحد الملازمين إلى التعبير عن رفضه كتابة.

وحتى الريفيون حاملو الأحجار، لم يوافقوا على هذا العرض ساعة شروعهم في العمل بضواحي ساحة إسبانيا. أما العمال الإسبان المرافقون، فقد اغاظهم منظر الأهالي الريفيين الماكرين، الذين لم يتوقفوا عن الهمس بكلمات، لا تخلو من السخرية: «احملوا، احملوا الأحجار، لبناء كنيسة للمسيحيين، فغدا سيصبحون "مورو" بداخلها»[44]. ومثل هذه التنبؤات، حدثت أيام أبران.

هوامش الفصل الثالث

1) السجل العسكري السنوي لإسبانيا 1900.

2) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا. المجموعة 15 /401.

3) أولئك الجنود الذين قدموا خدماتهم لمدة عشرة شهور، ولم يتم اعتبارهم من المجندين، كان بالإمكان إعفاؤهم من 3 سنوات من الخدمة مع دفع 1500 بسيطة.

4) مذكرات الجلسات البرلمانية، مداخلة السيد بسطيرو Besteiro في جلسة الخميس 3 نونبر 1921، ص. 3947.

5) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة 28 يونيو 1922، ص. 101.3

6) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة الجمعة 8 غشت 1919، ص. 900

7) مذكرات الجلسات البرلمانية، صفحة، 3025، مداخلة النائب بسيطرو في جلسة الثلاثاء 27 يونيو 1922.

8) رومانونيس كونت، *المسؤوليات السياسية للنظام السابق من 1879 إلى 1923*، النهضة، مدريد، الصفحات، 126-127.

9) معلومات ماخوذة من حسابات الدولة الإسبانية منذ 1908 إلى 1923-1924. نشرة معهد الدراسات المالية. مدريد. 1979. كانت الكميات المالية التي تصرفها الوزارة البحرية معروفة، وتمت تصفيتها على فترات سنوية.

10) أعطى رومانونيس حسب كتابه السالف الذكر ما قدره 495 مليون لمصاريف المغرب، وذلك لإنجاز هذا العمل لسنة 1921-1922. وصرفت 534 مليون بسيطة انفقت على وزارة الدفاع. الحصيلة كانت 169 و439 مليون.

11) خوليان بسطيرو أمام هيئة البرلمان، في جلسة 27 يونيو 1922. مذكرات الجلسات البرلمانية، ص. 3951.

12) مذكرات الجلسات البرلمانية. دورة 27 أكتوبر 1922، ص. 3.832.

13) أوضح رومانونيس في كتابه السالف الذكر ما يلي: «إن المصاريف العسكرية التي ابتلعها المغرب منذ 1903 إلى 1913 لا يمكن تحديدها، وذلك لأنها تشكل جزءا وتندمج مع المصاريف العامة للوزارة الحربية. ولم تظهر بشكل مستقل سوى في العقود الأخيرة لهذه السنوات».

14) مداخلة النائب سالفادور كناليس في جلسة 27 يونيو 1922، مذكرات الجلسات البرلمانية. صفحة 3060.

15) مداخلة النائب رودريغس دي فيغوري في نفس الجلسة (لـ 27 يونيو 1922) مذكرات الجلسات البرلمانية. الصفحات 3508 و3509.

16) بايني، المصدر نفسه، الصفحات، 114-116.

17) ذكر بذلك خوليان بسطيرو في الجلسة البرلمانية ليوم الخميس 3 نونبر 1921، مذكرات الجلسات البرلمانية ص. 3965.

18) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

19) باندو، دسبيرطو خوان «*المساعدات الإسبانية لفائدة الأسرى في الحرب الكبرى*» في السيرة 16، رقم 227، مارس 1995. الصفحات،27-38؛ هذا وقد وصف دايلي مايل Daly Mail الملك الفونصو الثالث عشر بالفارس، وهذه الفروسية أثرت بشكل عام في المليون ونصف مليون من الأسرى المرابطين في الميادين القتالية.

20) بيتا، فرديركو، *المغرب. ما فعلناه وما كان يجب ان نفعله في الحماية الإسبانية*. دار النشر الفنون إكسبرس. مليلية، ص. 80.

21) مذكرات الجلسات البرلمانية. مداخلة رودريغس دي فيغوري في جلسة الأربعاء 2 نونبر 1921، ص. 3.908. فيغوري كانت له تجربة مدتها سبع سنوات، تقلد فيها مناصب استعمارية عديدة.

22) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

23) أثبيطيا أنطونيو Azpeitia, Antonio: *المغرب البذرة الخبيثة*، المطبعة الإسبانية الكلاسيكية، مدريد 1921، ص. 20.

24) مذكرات الجلسات البرلمانية، ص. 4150 مداخلة النائب المحافظ مانويل بيدال Manuel Pidal وبرنالدو دي كيروس Bernaldo de Quiros، ماركيز فال دري (المنتخب من لدن مقاطعة المندرلخو، بيبادخوس) في جلسة الثلاثاء 15 نونبر 1921.

25) *أبطال إسبانيا*، تنسيق خوصي ماريا غراطي، قرطبة، دار النشر: أورنيغراف، مدريد، 1969، ص. 245.

26) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة الخميس 29 يونيو 1922، ص. 3182.

27) *تاريخ الحملات*... المصدر نفسه، الجزء الثاني، الصفحات، 512-595.

28) أثبيطيا، أنطونيو، المصدر نفسه، ص. 21.

29) مذكرات الجلسات البرلمانية. مداخلة النائب بلشيطي ليوبولدو روميو Belchite, Leopoldo Romeo في جلسة الجمعة 30 يونيو 1922، ص. 3209.

30) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، الدفتر 41.

31) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة 29 نونبر 1922،ص. 4412.

32) رومانونيس. المصدر نفسه، الصفحات، 126-127.

33) أطروحة ولمان (المصدر السابق، ص. 86).

34) الأرقام التي أعطاها "ولمان"(نفس المصدر السابق، ص. 87).

35) *تاريخ الحملات*... الجزء III، ص. 150-152.

36) مذكرات الجلسات البرلمانية، جلسة 11 نونبر 1921، ص. 4113

37) تعد رسالة برنكر إلى إيزا من أكثر الرسائل شيوعا للتاريخ لتلك الفترة، بيد أن "إيزا" لم يعلن عنها في خطاباته أمام البرلمان لسنة 1921 ؛ في حين قام النائب الاشتراكي إنداليثيو بريطو Indalecio Prieto بالتحدث عنها في جلسة الثلاثاء الثامن من نونبر 1921، مذكرات الجلسات البرلمانية، ص. 3831.

38) رسالة إلى برنكر في الرابع من شتنبر 1920، تم الكشف عنها داخل البرلمان، مذكرات الجلسات البرلمانية، 29 نونبر 1922 ؛ ص. 4417.

39) إيزا، فيكونت (لويس دي ماريشال ومونريل)، مسؤوليتي في كارثة مليلية، مدريد، كرافيكس رونيداس 1923. الصفحات، 141-148.

40) مداخلة إيزا أمام هيئة مجلس النواب. مذكرات الجلسات البرلمانية. جلسة 29 من نونبر 1922، ص. 4404.

41) دافيلا خالون، المصدر السابق، الصفحات، 270-271.

42) على هذا النحو ظهرت في لائحة مفصلة أسماء المساعدين المجندين لهذا المشروع في: *المصلحة التاريخية العسكرية*، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري".

43) رسالة حصل عليها الكاتب بمعية جنرال المدفعية دون أنطونيو نوغيراس Don Antonio Nogueras. مايو 1996.

44) صحيفة *أ-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 23 غشت 1921.

الفصل الرابع:
أبراه عند نهاية فصل الربيع

صورة سيلفستري: الأب الطيب والعاهل العسكري

في سنة 1921 كان **مانويل فرنانديث سيلفستري إي بانطيغا** يُعرف باسم "سيلفستري" فقط. وكان يتمتع بشهرة كبيرة توحي بأنه رجل حرب يجيد التحليل، وكان معروفا بقدرته على تخطي كل المواقف الصعبة، كما كانت له القدرة على تعقيد الأمور إن هو اراد ذلك، كان سيلفستري قد اخذ العبرة من اخطائه في زمن العرائش. فكان حذرا في الريف، بخلاف ما كان عليه في جبالة. ولم يكن مبذرا، فقد كان يبعث براتبه الشهري كاملا إلى أمه السيدة **إلوطريا** التي كانت تعيش في مليلية مع إخوته. وكانت العائلة تحتفظ بشقة في مدريد تقع في شارع الماكرو، رقم 11، انتقلوا إليها من بيت سابق كان بشارع سان برناردينو رقم 7 [1]. ومن باب المبالغة، لم يكن سيلفستري وفيا إلا لشهرته. فراج عنه انه كان يمتلك نجمة متالقة هي الوحيدة التي يتباهى بها.

كان الجنرال الذي فَقَدَ ابنته الوحيدة **إلفيرا** عن عمر قصير -والظاهر أنه وارى جثمانها في قلعة هنارس- مسرورا بولده مانويل الذي ولج الأكاديمية سنة 1917 ليتخرج منها عام 1920 برتبة ملازم ثان. وعن سن تناهز العشرين ربيعا أصبح مانويل شابا أطول من أبيه، أنيقا، شديد النحافة، وبسيطا في حركاته. ومن الأشياء القليلة والعظيمة التي عُرفت عن سيلفستري، هي تربيته لولده؛ فقد درس مانويل في أحسن المدارس، وكان يجيد التحدث باللغة الإنجليزية والفرنسية. وقد عُين مع فرقة **كثادورس دي الكانطر** Cazadores de Alcántara ليلتحق بعدها بصفوف الجيوش النظامية الأهلية رقم 2 [2]. كان مانويل شديد الإعجاب بأبيه، وكانت نهايته كذلك مفجعة.

وداخل الميليشيا كان الإعجاب بسيلفستري واضحا، لكن لا أحد كان يحبه. كان طبعه التلقائي وغير المنافق يثير حنق العديدين، باستثناء مناصريه مثل **كابابلانكا** Capablanca، **فرنانديث طماريت** Fernández Tamarit، **لوبيث رويث** López Ruiz، **مانيرا** Manera، كما كان يُنظر إليه من داخل الجيش والمجتمع وكأنه واحد من الغزاة. وقد حجبت هذه الصورة الأخيرة -التي كان يشار إليها بالأصبع في الأسطورة الشعبية- حقيقة ان الجنرال كان ارملا منذ سنة 1907. وفي الفترة ما قبل انوال كان سيلفستري يعيش مع امه وإخوته، كارمن وميرثيديس وولده مانويل في مليلية. وكان يقوم بزيارات متفرقة إلى مدريد.

وداخل قصر الملك كان مناصرو سيلفستري هم **لاثيربا** La Cierva، **إيزا** Eza، **إمليو ماريا دي طوريس** Emilio María de Torres سكرتير الملك، **والفونصو** الثالث عشر الذي كان يكن له تقديرا كبيرا.

كان الناس يخشون سيلفستري، أما هو فكان لا يعرف الخوف، كان رجل قتال لا يشق له غبار، يقبل كل الرهانات بلا تردد، وكان كذلك العاهل العسكري بمليلية، فترك سياسة إسبانيا جانبا، واهتم بجيشه الذي لم يكن له وجود بالمعنى الحقيقي، ولم يعترف أبدا بضعف هذا الجيش. كان يخدع نفسه بالثقة في أحلامه. كان سيلفستري يشن حربين؛ حرب فاشلة ضد الفساد المؤسساتي والخمول الذي أصاب هيئة الجيش، وحرب كان يأمل الانتصار فيها ضد عدو حسبه ضعيفا وبلا مؤهلات. وقُدر أن يكون هذا العدو الثاني عبارة عن جماعات من العصابات فريدة من نوعها. لا تملك مدافع ولا رشاشات، لا طائرات ولا مدرعات، ولكنها كانت تملك الشجاعة، وقوة الإيمان. وقد اختارت هذه الجماعات لاحقا زعيما لها انضوت تحت لوائه، كان يعرف باسم عبد الكريم. لم يكن سلفستري يتوفر على جيش ولا على افكار، بالرغم من توفره على سندين قويين وهما دافيلا وموارلس. لكن كل هذه الأمور لم تجد نفعا في الريف.

جنرال شجاع إزاء مجاعة تلتهم الريف

حلّت أواخر فصل الشتاء لسنة 1921 المجاعة التي التهمت الريف في وقت كان سيلفستري يتخبط في مجموعة من الأزمات، منها ما يتعلق بالاتصالات، ومنها ما يتعلق بولاء

القبائل المشكوك في صدقها أو ولائها، بالإضافة إلى النقص الحاد في العتاد والدخيرة. وقس على ذلك الأزمة الخطيرة والسريعة الانتشار التي اتت لتلقي بظلالها المأساوية على المنطقة. وكانت المفارقة، ان حلت هذه الأزمة والأمطار تنهمر بغزارة(3).

كان سيلفستري شاهد عيان، ففي الثامن والعشرين من فبراير 1921 كتب لبرنكر، «إن هذه السنة الفلاحية جيدة. والأمطار لا تنقطع وإذا استمر الحال على ما هو عليه فإن المحصول سيكون وفيرا»(4)، وبعد هذه الرسالة انكشف الوجه الثاني للعملة «إن إشراقة الأمل التي يتطلع بها الفلاحون إلى غد افضل، تتعارض وبفظاظة مع حالة البؤس التي تعمّ سائر البلاد في الوقت الراهن»، فقد تفشت ظاهرة الفقر في كل من قبيلة متالزة Metalza، بني بويحيى، كبدانة، اولاد ستوت حيث كان الألم والعجز سيدا الموقف، فلا ماء بالأرض، ولا شيء ينهمر من السماء لأن السحاب كان يتكاثف بعيدا، فيسقي الريف من جهته الغربية (كتامة) فحسب.

كان شرق الريف بمثابة صحراء جرداء. ويروي سيلفستري لبرنكر تفاصيل الوضع قائلا، «كل ما استطيع قوله لك، لا يمت للواقع بصلة، ولهذا لن اصف لك لوحة المجاعة والفظاعة التي تتجلى في اعين كل الناس، ليس فقط في البادية، بل حتى هنا في مليلية». هذا وقد أصدر الجنرال أوامره للشرطة الأهلية «بالبحث عن ملاجئ تتسع قدرتها الاستيعابية لأزيد من مائتي امراة وطفل وعجوز كانوا يتسكّعون في الشوارع في حالة يرثى لها»، وبواقعية وشفافية يضيف لبرنكر، «وبسبب قلة الطعام، كان الكثيرون يدخلون إلى المستشفى ليموتوا في اليوم الموالي»، فتدخلت حكومة داتو «لتَهَب مجانا ما مقداره نصف قنطار من الشعير يوميا لكل من الناظور، زيو، سوق الأربعاء، حَسي بركان، افسو، ثلاثزا، دار الدريوش وجبل اعرويت والباطل»، نصف قنطار إذن، أي خمسون كيلوغراما لكل بلدة. كان المجموع تسع مدن،ست منها رئيسية وثلاث ثانوية. وقد كانت هذه المراكز التسعة تموّل القبائل التالية، مَزوزة عند مشارف مليلية، والبالغ عدد سكانها اثني عشر الف ساكن، ثم قبيلة بني شيكار في الغرب، ومجموع سكانها ثمانية آلاف ساكن، ثم قبيلة بني إفرور التي كانت تعد مركزا منجميا بامتياز، وعدد سكانها عشرة آلاف نسمة، ثم قبيلة بني بو غفار من الجهة الأخرى لجبل تريس فوركاس Tres forcas بنحو خمسة آلاف(5) نسمة، وبني سيدل عند جبهة كرط بساكنة

تبلغ عشرة آلاف ساكن، وكبدانة بأربعة عشر الف شخص، وقبيلة بني بويحيى وهم اصحاب اعرويت المقدر عددهم بخمسة عشر الف نسمة، ومتالزا اصحاب دار الدريوش بساكنة وصلت إلى سبعة آلاف نسمة. المجموع هو ثمانية قبائل، كانت بمثابة خيوط النسيج الاجتماعي للريف، وقد وصل المجموع إلى واحد وثمانين الف نسمة دون احتساب قبائل بني سعيد، بني اوريشك (اصحاب انوال) تفريست، تمسمان، بني توزين وبني ورياغل، وكلها قبائل محاذية لخط الزحف الاستعماري.

كان على الريفيين -الذين وصل عددهم إلى واحد وثمانين الف ساكن- أن يقتاتوا من القناطر التسعة الهزيلة التي خصصتها لهم حكومة داتو. تسعة قناطر، أربعمائة وخمسين كيلوغراما. اي ما مقداره 5,5 غرام للفرد، ولا غرابة، والحالة هاته، أن يطلب سيلفستري مساعدات اكبر «لأن الناس تموت جوعا».

وفي شتاء 1921، ظهر سيلفستري بشجاعته المعهودة. لكنه هذه المرة انتقد الجمود الرسمي بشدة، وانتقد كل من يشك في نظام الحماية، إنه إذن سيلفستري البارع، العسكري الفظ الذي تجاوب مع الأزمة أكثر من النظام الحاكم فقال: «إنه لمن دواعي العار أن ندع أرضا جئنا نحن لحمايتها وعصرنتها تموت جوعا، ولن تتاتى لنا فرصة أفضل من هذه ليرى السكان الأصليون إيجابية تدخلنا، فيحسون بالحنان والامتنان لأمة انقذتهم من براثن الفقر والموت، وإنها لمناسبة لترى بلدان أخرى اننا قادرون على التصدي لهذه المعضلة بنجاح، باتخاذنا تدابير مناسبة عوض أن نبقى مكتوفي الأيدي، ننظر إلى كل أولئك الذين يموتون بسبب الحرمان والمعاناة، ونرى كيف أن عددا كبيرا منهم أصبح فريسة لفقر الدم والهزال الشديد حتى صاروا جثثا متجولة لا أمل لهم في النجاة من الموت»[6].

هذا إذن هو سيلفستري. الرجل الذي قاوم الظلم بأصيلا، فأخفق هناك، والسبب كان سياسيا، لكنه حقق في الريف نجاحا كبيرا، فتجاوز المأساة التي كانت السماء مصدرها (قلة الأمطار). كانت الأوضاع متردية نتيجة فساد الدولة والحكومة، غير أن سيلفستري، المقاتل، وصاحب القلب الطيب في سياسته، عرض على برنكر جملة افكاره التي تتعلق بالمساعدات الإنسانية: «إن الكمية التي يتلقاها كل شيخ عن قبيلته، خمسة قناطر أو مائتان وخمسون كيلوغراما غير كافية ولا تسد الحاجة، لكن الكمية

الأخيرة، افضل بكثير مما كان يوزع في السابق. كان سيلفستري لا يكتفي بذلك القدر، وكان يقترح المزيد من المساعدات ويرفعها إلى «الفين او ثلاثة آلاف قنطار»، ويضيف قائلا: «وبإمكاني ان أؤكد لكم استعادة هذه الحصص عن طريق فرض ضريبة تقدر بـ3٪ حسب الطوارئ المتوقعة»، كما يجب توفير فرص للعمل، وهو ما حرص عليه الجنرال بالدفع بالأشغال العمومية إلى الأمام. فجاء هذا الاستنتاج من سيلفستري: «إذا ما وفرنا العمل للأشخاص، فإنهم سيوفرون الخبز لعائلاتهم، فينضاف الإحسان إلى العمل، ونكون بذلك قد تجاوزنا الأزمة الخطيرة التي نمر بها». جرت موجة من الاتصالات بين الإسبان، فاتخذوا تدابير أمنية مكثفة، وهي نفس السياسة التي كان اليوطي ينتهجها كذلك في منطقته.

وبما أنه لم يكن بوسع سيلفستري تشغيل عمال من المُورو، وذكر لبرنكر في السادس والعشرين من يناير 1921 «إنني افكر في تشغيل مجموعة من المهندسين والمشاة»، كما اقترح تشغيل «مائة واثني عشر الف بسيطة جُمعت من الأسواق (الجمارك)، والتي كانت مودعة في بنك إسبانيا»، لكن لم يجبه أحد. وبعد مضي شهر، كانت إمكانيات سيلفستري محدودة بالريف، وفي رسالة كتبها في الثامن والعشرين من فبراير، سرد تفاصيل المعضلة، إذ لم يكن يملك سوى «مائتين من المورو، يشتغلون بين دار الدريوش وابن طيب، في الوقت الذي كانت الحاجة فيه ماسة إلى أضعاف ذلك العدد بخمس مرات. ففي الطريق المؤدية إلى أفصو Afso -حيث عَيّن إرميلا التي كانت مورد الماء الأساسي لكل المناطق الجنوبية بمواقعها الأربعة والعشرون، بما فيها المعسكرات الحيوية للباطل Batel وتيزطوطين وسوق الثلاثاء[7]- لم يكن بحوزته مال يصرف به اجر اجير.

وبفضل إصراره، طلب من برنكر أن يوافيه بـ «ثلاثمائة رجل (الدريوش - ابن طيب) ومائتين اخرى (لأفصو)». هي خمسمائة راتب يومي من فئة اربع بسيطات كانت تصرف، وتؤدى لكل واحد من الجيش. أي ستون الف بسيطة لحفظ السلام وإنقاذ الجيش. لا ندري ماذا كان جواب برنكر، هذا إن كان قد اجابه. لكننا عرفنا ما حدث، إذ لم تعبد الطرق آنذاك، وتلاشى السلام نهائيا وضاع الجيش برمته.

خصاص في المراكب والطرق وغياب قطار الحرب

إلى جانب العزلة الاجتماعية والبرية والسياسية، انضافت العزلة البحرية. ففي رسالة بعث بها برنكر بتاريخ الواحد والعشرين من يناير 1921 جاء فيها: «كما تعرف جيدا، تنقصنا الوحدات البحرية». كان سيلفستري يعي تماما هذا المشكل، إذ كانت على مشارف مليلية بارجة لايا Laya -وهي حاملة للمدافع- وكل آلاتها كانت في حراك دائم ليل نهار، الشيء الذي كلف ميزانية اقتصادية «وصلت إلى مبلغ كبير، وكأن القاطرة كانت تبحر يوميا»، على حسب عبارات برنكر نفسه. كما كان هناك إلى جانب حاملة المدافع يخت يعرف باسم "الخيرالدا" كان يرسو في سبتة، وكلاهما كانا يرقبان أربعمائة كلم من الشواطئ الحافلة بالأحداث، ويترصدان لعمليات تهريب الأسلحة، فكانت مهمتهم تتلخص في حراسة النشاط البحري، والقيام بمهمة المساعدة المدفعية لقوات البر. وهنا يتبادر السؤال الذي يطرح نفسه: ما هو دور باقي الفرق العسكرية؟ ويأتي الاستفسار عن تخمينات وزير البحرية الذي كان آنذاك إدواردو داتو وكذلك رئيس المجلس.

كانت لإسبانيا فرقة سانتا باربرا التي كانت تغط في نوم عميق عند الموانئ الإسبانية بأمر من الحكومة. فالأولى كان بها ربط الاتصالات مع الريف، لكن هذا لم يحدث. ففي رسالة "شخصية وسرية" بعث بها سيلفستري إلى برنكر في السادس والعشرين من يناير 1921 ذكر له: «إن أنوال الواقعة عند حدود تمسمان، هي اليوم في تقديري معزولة، إذ لا يفصلنا عنها سوى طريق وعرة تحتاج إلى أربع ساعات فقط، لقطع الكيلومترات الستة عشر التي تفصلها عن ابن طيب»، ساعات أربع تكفي إذن لستة عشر كيلومترا، بمعنى 4,5 كلم في الساعة.

وفي رسالة أخرى بعث بها سيلفستري في السادس من فبراير 1921 إلى برنكر يشرح له فيها كيف تمت مسألة إنزال المدفعية بأنوال: «لكي تكون لديك فكرة إجمالية عن المنطقة، ومسالكها الوعرة أحيطك علما بأن نقل بعض القطع (بطاريتين) للمدفعية من ابن طيب إلى أنوال، استغرق أياما عدة وتتطلب جهدا كبيرا»[17]. خمسة أيام شاقة لقطع ثمانية عشر كيلومترا، وهو ما معدله 3,5 كيلومتر في اليوم. أو مائة وسبعة وأربعون مترا في الساعة. هكذا إذن كانت تتقدم المدفعية الإسبانية على الأرض المغربية.

كل هذا الجهد الكبير، بالرغم من أن انوال كانت تتموقع في المنخفض وليس في قمة الجبل، كبقية المواقع المرتفعة التي كانت تحتاج إلى حمل المدافع باليد، وحمل الماء في سطول أو صفائح بترولية -البترولينات الشهيرة Las petrolinas- الشيء الذي كان يكلف جهدا جنونيا واستنزافا للذكاء العسكري. وبعد وصول كل تلك القطع الحربية إلى اماكنها، كانت الحصيلة هي الآلاف من الجرحى ومن البغال المنهوكة، وخرقت بذلك كل القوانين المنظمة للمدفعية.

كان سيلفستري يركز كثيرا على اهمية الاتصالات التي كانت تعني بالنسبة إليه الحبل السري الذي يربط بين رجاله -وواجباته الشخصية- والبقاء على قيد الحياة. فإذا ما تمزق هذا الرابط فالكل سيموت حتما.

وفي ختام رسالته المبعوث بها في السادس والعشرين من يناير 1921 إلى المقيم العام. وخشية أن يبدو مساعدا عنيدا ومثيرا للمتاعب قال لبرنكر، «اتوسل إليك ان تمعن النظر في ضرورة تعبيد هذه الطرق بعجالة لأنها هي المسالك الوحيدة التي ستساعدنا على التوغل داخل الحسيمة، وعلينا ان ناخذ وقتنا للاستعداد. فلا حاجة لأن اذكرك بالأهمية القصوى التي تحظى بها الاتصالات في زمن الحروب، ولن أصر على شيء أنت سيد العارفين به»، كان سيلفستري يصر ويصر، ولا حياة لمن تنادي، ولا قرار من برنكر، ولا حتى من الحكومة.

وياتي جواب برنكر في رسالة السادس عشر من يناير 1921 وهي نسخة مما كتبه بصفته مقيما عاما إلى إيزا «لقد لونت الموضوع بألوان الواقع التي هي في حقيقة الأمر سوداء، وآمل أن تعطي الحكومة -كما وعدت بذلك- حلولا سريعة لوضعيتنا المزرية»[9]. بدا برنكر هنا واضحا، امام زميله في القوات العسكرية، بيد أنه أدار ظهره للمجلس التنفيذي المحافظ فلم يواجهه البتة. كان برنكر وسيلفستري يمدّان ايديهما، ويتوسلان طالبين أبسط متطلبات الحرب: المال، فكلاهما طالب ولمدة سنة كاملة بقرض يصل إلى أربعة ملايين بسيطة -التي وعد بها إيزا في يوليوز 1920- وكلاهما تلقى نفس الجواب: مجرد كلمات. كان سيلفستري شديد الامتعاض، ولم يتوان في إصدار تحذيرات صادقة للحكومة الألفونصية، وذلك في وثيقته "الشخصية والسرية جدا" التي ورد فيها «لو فكّر ساساتنا في الأمر مليا لراوا انه من القسوة والشؤم مساومتنا في حفنة من البسيطات قد

تُصرف إذا استمر الوضع على ما هو عليه، في دفع مصاريف الإقامة بالمستشفيات، والتطبيب، وصرف معاشات للجرحى او المعطوبين، في تمرد اجتماعي نابع من كره طبيعي لبلدنا تجاه القرار الدموي الذي اتخذناه بشأن هذا المشكل. وهو ما من شأنه، اخيرا، التقليل من قيمة بلدنا»[10].

كان سيلفستري يكتب، ولمرات عديدة، إلى برنكر فهل كان يكتب إلى الملك؟ ربما، نحن نتوفر فقط على اخبار، وردت من مساعده لوبيث رويث López Ruiz، تفيد بمراسلاته إلى إيزا «في شهر يناير، فبراير، وابريل، وحتى مايو (1921)، إذ كان يبعث إليه برسائل يوضح فيها تفاصيل التدهور العام الذي آلت إليه هيئة المهندسين بمليلية، والتي باتت تفتقر إلى القروض اللازمة لسد الحاجيات الضرورية»، وقد تكفل بحمل تلك الرسائل «رؤساء المهندسين: **كامبوس** Campos، و**سوسانا** Susana والقائد **ريكسا** Reixa». وساهمت هذه الوثائق في عزل كبير المفاوضين بالمغرب -التنينتي كولونيل **كارلوس لوبيث لاميلا** Carlos López de Lamela- عن عمله داخل الوزارة «كان الجنرال فرنانديث سيلفستري يراسل هذا الأخير مرارا ويطلب منه مساعدته في تسيير الأمور، فكانت تصله بسرعة كل المواد التي كان يحتاج إليها»[11].

لم يكن التوجه إلى الحسيمة مطروحا في تلك الآونة، غير انه، وللمكوث بأنوال بدون مشاكل لوجيستيكية، كان لابد من التفكير في قاعدة دار الدريوش المناسبة لمؤخرة الجيش. فهذا الموقع المتوغل جدا داخل مقاطعة كرط، كان يتوفر على ميادين تصلح للمناورات المدفعية، كما أن الماء الصالح للشرب كان ينساب على بعد ثلاثين مترا من أسوار المنطقة. وللوصول إلى الدريوش انطلاقا من انوال كان لابد من الصعود والنزول بايزومار، والمرور بابن طيب والنزول إلى السهل. وبعد هنيهة تظهر أبراج الدريوش الحمراء التي تشبه حصنا صغيرا منزويا في الصحراء الريفية. كانت المسافة تقدر بخمسة وثلاثين كيلومترا، وتفصلها عن مليلية واحد وستون كلم اخرى. ساعة ونصف في القطار، لكن الدريوش كانت لا تتوفر على قطار.

كان قطار مليلية يصل فقط إلى تيزطوطن، وهي نقطة ينقطع عندها التيار. لكن السكك الحديدية كانت تمتد اكثر في اتجاه الباطل Batel، وهناك كانت نهايتها. لأنها كانت تتشقق بفعل الثلوج وموجات الحر الشديد التي تضرب الريف منذ سنة 1917. وكان

الذي بنى حصنا فوق ارض ضريح سيدي اورياش. كان سيلفستري لا يريد المزيد من الحروب لأسباب دينية، ففرح الريفيون ومعهم مورالس.

تم احتلال سيدي ادريس في الثاني عشر من مارس، وتسبب هذا التاخير في (إثارة غضب) دافيلا، ومن جهة اخرى اقلقت هذه الجراة مورالس. آنذاك كان الكولونيل الشيخ (مورالس) رجلا متقاعدا بمليلية، انتقل إليها في شهر فبراير رفقة سيلفستري ،الذي رتب كل الأمور ليعود إلى منصبه»[17]. لم يكن الأمر يتعلق بعقوبة، ولكن لتخفيف الأجواء المتوترة بين الرجلين، وفقط لأن مورالس كان يجنح إلى الهدوء وحسن تدبير الوقت، في حين كان سيلفستري يفسر هذا الانتظار وكانه احتياط غير منطقي، وكان ينظر إليه بتشاؤم غير مرغوب فيه، وليس بصحيح ما قيل عن مورالس انه ضاق ذرعا بالأوضاع، لكن الحقيقة هي أن سيلفستري لم يعد يطيق الانتظار.

وقد اعترف بذلك مورالس في رسالة بعث بها إلى انطونيو غوط الذي كان محل ثقة لأوراثيو إشيفريطا Horacio Echevarrieta الذي كان يعمل بالبنك، -وكانت لغوط علاقة بالوكالة الإسبانية لمناجم الريف- وبعد نزوله بشواطئ الحسيمة في السادس من ابريل، للتباحث من جديد مع بني ورياغل حول المناجم، الشيء الذي كان يتطلب إلغاء كل معاملة عنف مع الورياغليين، لكن هؤلاء واصلوا نهجهم التعسفي والعنيف، فخاطب مورالس غوط بقوله في الرابع عشر من ابريل 1921 ،من الضروري جدا أن يسارع عبد الكريم إلى تعجيل عمليات (السلام)، فالجنرال رجل غير صبور»[19].

تم تعويض مورالس في مهامه ومعاملاته مع زعماء القبائل، بالقائد خسوس بيار Jesús Villar الذي كان شخصية حيوية ووقحة تماشت كثيرا مع روح وطموحات سيلفستري. فبيار كان متهورا، فيما يتعلق بالأمور السياسية وغير متضلع في الأمور العسكرية -كما بدا لاحقا- فرمى بكل ما صنعه سيلفستري إلى التهلكة. كان سيلفستري يريد ان يجعل من انوال ابن طيب ثانية، فكانت خطته هي الانقضاض على جبهة تمسمان، وقطع خط امكران Amekran إلى اثنين، وبخطى سريعة يصل إلى مصب النكور، ومن هناك يقبض في راحة يده على مدينة الحسيمة الشامخة، التي باتت بالنسبة إليه حلما صعب المنال.

ولم يكن أيثبورو ولاخوردانا من مناصري هذه الخطط فعارضا وبشدة أي هجوم وأي تصعيد في المواقف قبل التأكد من صدق التحالف مع عائلة عبد الكريم، ومع أصدقاء آخرين من الإسبان، وكذلك الاطمئنان على الهجوم البحري والبري من ناحية الائتلاف.

كان ميناء خليج الحسيمة الهلالي الشكل، والذي تبلغ مساحته سبعة وعشرين كلم، يعد من اكبر موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانت سيادته تخضع لسيطرة ثلاثة قبائل مهمة، منها قبيلة بني ورياغل في الوسط، قبالة الصخرة، وهي تضم شاطئ السواني كذراع وقائي، وعلى اليمين قبيلة تمسمان التي تستند إلى مرتفعات تنتهي عند راس كيلاطس Cabo Quilates وتضم شاطئ الحراش، بواجهته الرملية والمطلة على الجهة الغربية، وعلى اليسار قبيلة بقيوة المتموقعة وسط كتل من الصخر -مورو نويبو ومورو فييخو- ثم تبقى الجهة المطلة على البحر التي تحفها مناطق إيجدين وحقول الشعير.

كان سيلفستري يريد التوغل في الجبال الريفية ليصل إلى بحر الريف، فيقطع صدر اجدير. وكان ايثبورو يريد أن يمد يده لمن يحبونه في اجدير، وباتحاد القوتين يهدم الجبل الريفي. وامام هذه الاقتراحات ظهر حل شبه سحري وغير متوقع، النزول والمرور من وراء ظهر الورياغليين.

كان صاحب هذه الفكرة رجلا ريفيا، اعتبره المغرب واحدا من الخونة للقضية المغربية، واعتبرته "بقيوة"، بطلا مغوارا لا يشق له غبار. كان هذا الشخص يُعرف باسم ثيفيرا، وقديما كان قرصانا. لكنه في شتاء 1921، اصبح ملاكا ثريا وشخصا ذا حظوة كبيرة بين عشيرته. كان ثيفيرا يُضمر حقدا أبديا، وعداوة كبيرة لجيرانه في بني ورياغل، فاقترح على سيلفستري التعاون معه، والسماح له بإنزال قواته في قبيلته (بمورو نويبو) ومن هناك انقض برفقة الحامية الإسبانية على الورياغليين، ظنا منه انهم سيستسلمون بعد محاصرتهم، وبهذا يتأتى له الانتقام من ثار قديم.

تلقت قبيلة "بقيوة" سنة 1898 زيارة مفاجاة للوفد العسكري التابع للسلطان، الذي حضر استجابة للاحتجاجات الكثيرة التي صرحت بها مختلف القوى الأوروبية التي نددت بتعسفات القبيلة. فانضم الورياغليون البرغماتيون إلى العلويين. ولإخماد ثورات البقيويين كان لابد من إخضاع الحدود الغربية، وإرسال إشعار جدي للشرق حيث تمسمان. فلم ينس البقيويون هذه المطاردة الثنائية، فظلوا يتحينون الفرصة للانتقام، واعتقدوا أن سيلفستري هو من سيساعدهم على الأخذ بالثار.

قصد ثيفيرا مليلية للتحاور مع سيلفستري، فاقترح عليه إحكام القبضة على الحسيمة. كان ثيفيرا خبيرا بالأمور الاستراتيجية، كيف لا، وهو الذي كان في الماضي قرصانا، فسحرت هذه الفكرة الجنرال والكولونيل مورالس، وكلاهما كانا شاهدين على هذا اللقاء. احس سيلفستري بأهمية هذا العرض فسارع بتبليغه إلى برنكر بقوله، «خلال المباحثات اخبرني أنه من وجهة نظره يستحسن النزول بمورو نويبو، وهو ما ستفعله كتيبة عسكرية مؤلفة من الفي رجل دون أن تطلق رصاصة واحدة».

كان سيلفستري يطالب بمعطيات عملية، وكان ثيفيرا يتعهد، «وذكر لي بأنهم يستطيعون الهجوم على بني ورياغل فور صدور الإشارة عني، وذلك لتصفية حسابات قديمة تعود إلى اكثر من عشرين عاما، زمن مساعدتهم لمولاي بوبكر سنة 1898»[20]. وهكذا تم تحريض السكان ونزلت القوات الإسبانية بمنطقتهم[21]. ائتلفت بقيوة مع الإسبان، وكلاهما كانا يريدان نفس الشيء، كسر شوكة بني ورياغل.

طالب سيلفستري ثيفيرا بمساعدات اكبر بالرغم من تواجد فرقة إزمورن بشقيها، ازكار وتاغيديس «وهذا معناه كل القبيلة»، فوافق ثيفيرا، ووعد بالاتفاق مع مانويل ثيفانطوس بونانيو الذي كان وقتها كومندان الحسيمة. وفجاة تخلى سيلفستري عن كل المخططات. بالرغم من اعتبار ثيفيرا «رجلا يعمل بكل وفاء»[22] فيا ترى أي طيف خطير مَرَّ بمخيلة الجنرال؟.

اختلى سيلفستري بنفسه. ورسم أمام عينيه كل الخطط التي قد تسمح له بغزو الحسيمة، وها هو قد اضاع من يده الآن الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه ان يضمن له الانتصار.

سيلفستري يطلب المساعدة والمشورة من مورالس

قبل ان يكون بطلا لأنوال، كان سيلفستري محط إطراءات الإقامة العامة. فمن تطوان بعث له برنكر برسالة جاء فيها، «عزيزي مانولو، بوصولي إلى تطوان وجدت رسالتك التي بعثت بها إليّ يومه الثامن عشر، والتي تخبرني فيها بمراحل التقدم الهائل الذي انجزته ببني سعيد، فلك أن تعتبر هذا العمل فصلا مشرقا في مسيرتك العسكرية، فليس بالإمكان ان نفعل احسن او افضل مما صنعت انت، فلتطمئن ولتقر عينا»[23].

وقد استغل المقيم العام هذه الفرصة وطلب من سيلفستري تقريرا عن الاحتلال المستقبلي لمدينة الحسيمة باعتباره «النقطة الأساسية التي تجب دراستها».

كانت افكار سيلفستري تتناسب كثيرا مع افكار برنكر، ففي حديثه جاء ما يلي: «بالنظر إلى المواقع التي نحتلها اليوم، سوف يكون من السهل المضي قدما عبر الشاطئ، وليس عبر الجبال بحثا عن منابع النكور»، لكنه في نفس الوقت حذر سيلفستري قائلا: «كما تعلم جيدا، علينا ان نحتاط من جملة الصعوبات التي قد تحذق بنا، فقد لا تصلنا الجيوش التي نحتاجها لنامن مكر اعدائنا على طول هذا الخط».

إلى هنا كان برنكر واضحا مع نفسه، لكنه في الأخير، طرح على سيلفستري إشكالية اربكته «أيستحسن ان نواصل الطريق عبر هذا الخط (الساحلي) دون توغلنا (في الجبال)، ام من الأفضل المضي نحو نقط اخرى من جهة اليسار قبل التقدم في هذا الاتجاه؟»[24].

زعزعت هذه الطروحات كل ترتيبات سيلفستري، فالمخطط الموالي لا يدخل في دائرة اختصاصه، كانت هذه تكتيكات برنكر المضنية، وما عليه الآن إلا ان يجيب عن كل تلك الطروحات. لأجل هذا الغرض التجأ إلى مورالس لطلب المشورة والمساعدة، فأجاب هذا الأخير باحتراسه المعهود، معطيا نظرة موضوعية عن الأمور الحربية، وقدم تقريره الذي وجهه إلى سيلفستري في السادس عشر من فبراير، وقت انتهاء عمليات بناء تل بوجماجن.

تحدث مورالس عن «صفوف الجيوش التي امتدت على طول الخط» وذكر ان الزحف نحو الأمام لن يتم إلا «بانتهاء تداريب التجنيد في أواخر ابريل». كان مورالس يأخذ بعين الاعتبار ظرفا آخرا «يتجلى في تعاطفه مع ما حدث لحمو بولجريف، النجل الكبير لصديقنا الشيخ محمد بولجريف الذي قُتل في اكتوبر، فأفضل اصدقاء إسبانيا لقوا حتفهم ونصبت لهم كمائن».

أصدر سيلفستري تعليماته الصارمة للبحث في الحادث، كان يخشى ان تكون «الجريمة من صنيع رؤساء متميزين في منطقتنا، تورطوا في الحادث بسبب مشاكل مع وكالة المناجم، وإن كان الأمر كذلك، فالمشكلة ستكون مقلقة وخطيرة للغاية»، لكن تداعيات الجريمة كانت مشؤومة «إذ تربصت مجموعة من اللصوص منتظرة خروج المدعوين من

إحدى حفلات الزفاف، فترصدوا لبولجريف الذي ذهب ضحية، لقد عرف ابناؤه قاتل ابيهم، فاستاجروا رجلا تولى مهمة تنحية القاتل، فكان الأمر كذلك، لكن اخ القتيل الثاني، لم يهدأ له بال إلى ان انتقم من قدور بولجريف، وهو واحد من ابناء الضحية[25].

كان مورالس يهتم كثيرا بهذه التفاصيل، وفجاة وجد نفسه امام قيادة منهارة لقبيلة بولجريف، وامام شكوك ولاء عائلة عبد الكريم، قرر تاجيل كل عملية عنف، وتكريس الوقت في توطيد دعائم تمسمان ،ولن تنتهي هذه العمليات حتى يوليوز او غشت،، وبالوصول إلى هذه النقطة طرح على نفسه السؤال التالي، ،ايمكن لنا ان نفكر في مواصلة الزحف تجاه النكور؟ الجواب كان لا،.

لقد تذكر مورالس ،العلاقة الطيبة التي تجمع، ومنذ عهود طويلة، اعيان اجدير بسلطاتنا،، فالقبيلة ،كانت توزع فيما بينها بالكامل العشرة آلاف بسيطة التي كانت تصرف كمعاشات،، وفي خلاصته، لم يترك مورالس مجالا آخر للاختيار ،هذا هو رأي الرئيس الذي من واجبه التحذير من المرور بالنكور قبل الخريف المقبل، هذا إذا أردنا ان يكون النجاح ثمرة الحيطة والتبصر، لا ثمرة التسرع والتهور،.

في اتجاه الحسيمة: مخطط لغزو العالم

مرت اسابيع وسيلفستري ما يزال غارقا في تخميناته، وبعد مدة زمنية قرر الهجوم بطريقة شمولية. وبما أن تكتيكاته الحربية كانت تحث على تقويض اجدير من الداخل، فإن رسمه التخطيطي جعله في مواجهة أربع قبائل في نفس الوقت: تمسمان، وبني توزين، وتفريست وبني ورياغل، ومن الوراء كانت قبيلة بني أوليشك المنضوية تحت لوائها كل من انوال وإيزومار، وقبيلة بني سعيد التي كانت تهيمن على جبل ماورو، ومن جهة اليمين كانت هناك دار الكبداني ومطالسة التي كانت تسيطر عليها دار الدريوش، وسوق الثلاثاء في جهة اليسار، واخيرا قبيلة بني بويحيى التي ضاعت منها أعرويت وغدت بؤرة للتوتر الريفي.

وفي العاشر من مارس 1921 اخبر سيلفستري برنكر بمخططه وظل ينتظر الموافقة أو المعارضة.

وبعد سنوات عديدة من وفاته، وإلى حد الآن، مازالت أصابع الاتهام تتجه نحو سيلفستري بسبب إصراره على الوصول إلى الحسيمة. وبعد وفاته ووفاة كل جيشه بسبب اعتماده لسياسة مشؤومة -تنص على غزو المغرب بالقوة-، وبسبب الجرأة التي منعته من البوح لرؤسائه -برنكر والملك نفسه- بخبر الانتحار الذي اقدم عليه برفقة الجيش، يئس الشعب برمته من هذه السياسة.

ورغم محاولات سيلفستري تفادي شكوك برنكر المنصبة على تقديم اليمين وتاخير اليسار، فقد وجد نفسه في النهاية حبيس هذه الشكوك. ورغم ثقته الكاملة في تخطيطاته التي ترمي إلى الهجوم (عبر الشاطئ)، إلا ان الأمور اختلطت عليه، وتشتتت قواته، والغيت كل إمكانيات الانتصار بسبب خطته التي تقضي بالانطلاق من ثلاثة محاور، من اليمين ومن جهة البحر توجه الضربات لسيدي ادريس وسوق الثلاثاء، وسوق السبت، من الوسط في اتجاه الداخل لأنوال، وسوق الخميس، وسوق الأربعاء، واخيرا، ومن جهة اليسار، المنطقة الصخرية العليا انطلاقا من خط الهجوم تزي عزة، وإجرموس وسوق الأحد.

في البداية صُوبت أولى الهجمات نحو جبل أبران في ضربة وُجهت إلى الأعلى، وفيما بعد انحرفت في اتجاه البحر مرورا بقبيلة بني بويدر، ووصولا إلى خليج الحسيمة. وشُنّت عمليات أخرى في اتجاه الجبل، واتخذت طريقها في اتجاه توغروت Tugrut -التي ساندت أيثبورو سابقا- وقبيلة بني اسكي، وكلتا القبيلتين كانتا من فخذ التمسمانيين، فيما حققت عمليات أخرى بالهجمات الأولى، وكان الهدف منها هو السيطرة على المجرى السفلي للنكور، والتاكد من التحكم من الحسيمة. كان هجوما كلاسيكيا ثلاثيا، وفي حد ذاته كان حماقة.

لم يكن هدف سيلفستري في البداية إحكام القبضة على النكور ثم التقدم فيما بعد نحو الحسيمة، بل كان يريد غزو العالم. ففي إعلانه الحرب على أربع قبائل قوية، تاركا وراءه أربع قبائل اخرى في الخلف لا تقل أهمية عن الأولى -ظنا منه أنها مطيعة مذعنة- كان يتخيل إليه أنه الخاندرو Alejandro في طريقه إلى الهند الوسطى. فَقَدَ سيلفستري هيبته، واصبح رجلا آخر، رجلا لم يعط مهلة لبطولته المستقبلية، وعن اي بطولة تتحدث في غياب الجيش ووسائل هذا الهجوم؟ ليست القضية قضية مرونة بل قضية تبصر، كان

ينص عليها مورالس منذ البداية، لم يكن هناك جيش للقيام ولو بهجوم واحد، فكيف التحمس لهجوم ثلاثي يُشن عند جبهة عريضة لا حد لها ولا حصر. كانت مسافة عشرين كيلومترا التي تفصل شواطئ سيدي ادريس عن المرتفعات الوعرة لتيزي عزة، مسافة قد تصبح تقريبا أربعين كلم إذا ما توهجت نيران المدافع عند بدء الهجوم.

كان سيلفستري تطبيق لإنجاز كل ما ذكره لبرنكر. ستين الف رجل (خمس فرق) وثلاثمائة مدفع رشاش، وطائرات ودبابات واسطول بحري، هي الكمية التي وُضعت سنة 1926 على طول الخط لإعادة احتلال انوال. لكن سيلفستري لم يتمكن سنة 1921 من حشد سوى اثني عشر الف شخص، وذلك بعد إدماج جيوش الصف الأول والثاني والثالث في جبهة واحدة. كان الأمر يتعلق بجيوش نظامية وليس باناس مبتدئين، كانت الصفوف حبلى بعساكر مؤهلين وليس بأشخاص تلقوا تدريبات رديئة غير كافية ومعنوياتهم تحت الصفر، كما تم إدماج ضباط جيش وليس فرقا مزيفة تجنح للخمول والركون للراحة كما كان حال البعض..

ظن سيلفستري ان النجمة التي تتلألأ فوق كتفه تكفيه لإحكام القبضة على الريف، ففي تفريست، أعرب عن جراة لا تخلو من الحيطة، لكنه في ليالي شهر مارس 1921، ضاعت منه كل الفرص في مليلية. وبقيت جراته هي الرفيق الوحيد له. كان سيلفستري يستوعب فكرة هجومه، وكأنها نسخة طبق الأصل للمقاومة البطولية التي ابداها زميله إدوارد دي كاستلونو Edouard de Castelnau بفلاندس flandes، حينما شاهده في دجنبر 1916 في قلب الميدان، يقاوم الألمان بفرقة عسكرية يصل عددها إلى مائة جندي وستة، مقابل مائة جندي وواحد وعشرين في عملية دفاع مستميتة عن سبعمائة كلم[27]، وهو ما يعني عشر فرق، ونصف فرقة على راس كل سبعين كلم. اي بمعدل فرقة لكل سبعة كيلومترات. لم يكن الريفيون كالألمان طبعا، لكن عداوتهم كانت اسوا، حقا لا يتوفرون على قوات جوية، ولا على مدفعية او رشاشات او قاذفات هاون، ولم تكن في حوزتهم دبابات ولا قذائف غازية، وكانوا يفتقرون إلى هيئة ضباط جيش عليا، إلا انهم كانوا مهرة في تصويب السلاح، مهارة شيطانية، وكانت لهم شراسة ومقاومة خيالية اثارت دهشة الجندي الأوربي اثناء القتال، حيث كان كل واحد منهم رئيسا، خنجرا أو حجرا. لم يكونوا عساكر بل كانوا عصابات ومقاومين.

لم تكن لسيلفستري فرقة عسكرية بالمعنى الصحيح، لكنه ورغم ذلك فكر في الهجوم على مقربة ثلاثين او اربعين كلم، كان لا يعرف متى، وكيف ولا باية وسيلة سيتم الهجوم. وقبل الموت المحقق بساعات قليلة، وفي مكان يقع ما بين انوال والدريوش احصى سيلفستري رجاله الأوفياء الموزعين على نقط معينة في الجبال، والمقدر عددهم باكثر بقليل من ستة آلاف او سبعة آلاف رجل. اما الرقم: خمسة وعشرين الفا وسبعمائة وثمانية وتسعين رجلا فقد كان مكتوبا على الورق فقط.

وفي المقابل كان عدد الورياغليين يقدر بستة آلاف رجل مسلح بالبنادق، وعدد التمسمانيين هو الفين وثمانمائة رجل، والتوزنيين الفين وخمسمائة رجل، والتفريسيين ستة آلاف رجل، كان الواحد منهم يواجه اثنين من جند العدو بمنطقة انوال - الدريوش، كل هذا دون احتساب مؤخرة الجيش التي حافظت على هدوئها، هكذا إذن كان رهان الإسبان. تلقى برنكر الخطة فاعجبته اشياء، واغاظته اشياء اخرى، وكان ينظر بعين الريب إلى ما جاء في هذا المخطط من الأمور السياسية، خاصة تلك التي تتعلق -بالعلاقة مع القبائل التي كان يُعتقد انها موالية لهم- لكنه لم يجرؤ على تغيير أي شيء، واكتفى باعتبار المخطط وثيقة قابلة للإصلاح، وان اقتراح مخطط آخر لن يفي بالغرض، لأن إصلاحه سيغير معالمه بالمرة. فقرر برنكر الذهاب إلى الريف للتحدث مع صاحب المخطط.

برنكر بانوال: هوس بالغزو

في الثامن والعشرين من مارس خرج برنكر قاصدا مليلية على متن يخت حربي يَعرف "بالخيرالدا"، فالتقى في "ترغة" بشيوخ غمارة وعرض عليهم «التقدم بجيوشهم في اقرب الآجال» رفقة جيوش سيلفستري، فقبل الغماريون لتيقنهم من صدق حديث الجنرال. بعدها واصل هذا الأخير رحلته، وتفقد في طريقه مدينة الحسيمة، وهناك كان سيلفستري في انتظاره على متن بارجة صغيرة تعرف باسم لايا Laya. كان برنكر يصر كثيرا على تمركز السفن الحربية على الساحل، وهو عرض قبل به سيلفستري، واذهل كثيرا الكولونيل مورالس الذي فكر في الوضع السلبي الذي قد يخلفه هذا الاستعراض الحربي الهائل في نفسية سكان اجدير.

لم يعر برنكر اهتماما كبيرا لهذه التحذيرات، ومرت الشهور، فبعث نجل الكولونيل مورالس -المسمى كذلك بغابريل- بوثيقة فريدة من نوعها إلى بيكاسو، يتحدث فيها باسم المقيم العام ،وحتى يتبين للناس اجتهاده، وصل في صبيحة يوم مشرق إلى ساحة الحسيمة في موكب فاخر تحفه عدة بواخر حربية. وحسب غابريل مورالس ،فإن مكتب الشؤون الأهلية (بالحسيمة) وصف هذه الزيارة بالغير المناسبة، نظرا للوقت الذي جاءت فيه، كما نعتها كذلك بالمشؤومة نظرا لنتائجها،[28].

وقع إذن الحدث المشؤوم، ولم يبق من حل آخر سوى متابعة الحفل إلى النهاية، نزل سيلفستري بالحسيمة، ولم يستطع برنكر اللحاق به لاضطراب أمواج البحر وهيجانه، فعوضه الكولونيل غوميس سوثا Gómez Souza، نجل خوردانا. فيما بعد استقبل سيلفستري وغوميس سوثا بعثة من وجهاء أجدير، ولم تسفر المحادثات عن اي اتفاق، وتروي بعض الروايات ان الغضب كان سيد الموقف ،لأن سيلفستري استقبل الوافدين ببرودة تامة،[29].

وثمة تغيير حدث في هذه المواقف فور نزول برنكر في (الفاتح من ابريل) بعين المكان، واستقبل نفس الوجهاء ،الواصل عددهم إلى نحو ثمانية عشر او عشرين نفرا،، بيد ان أولئك الزعماء وبعد إهانة سيلفستري، لم تعد لهم رغبة في الاجتماع مع الإسبان، وبما أن اللقاء هذه المرة عقد مع جنرال جديد لا تربطهم به أي مودة أو احترام، فإن الشكوك المتداولة لن تتغير، والمتمثلة في أن سكان الشواطئ بإمكانهم التعاون مع الإسبان، بينما كان جواب البنوورياغليين سكان الجبال معقدا.

ودع برنكر شيوخ القبائل، وفي رسالة بعث بها في السابع عشر من ابريل إلى "إيزا" ذكر له في عجرفة كبيرة، ،ليس هناك من صعوبات تُذكر في العملية العسكرية التي نتوخى من ورائها احتلال خليج الحسيمة،[30]، وهكذا بارك برنكر مخطط سيلفستري. بعدها رحل إلى مليلية للذهاب من هناك إلى انوال. وليته اخذ العبرة من هذه السفرية الطويلة، لأنه لم يكن من قراء خوردانا.

الحسيمة هي من دفعت ثمن الفاتورة باهضا، وهذا ما عبر عنه غابريل مورالس قائلا، ،وبعد ساعات قليلة من (رحيل برنكر) قام المورس بإشعال فتيل العداوة في المنطقة التي كانت تنعم دائما بالسلام،[31].

استقر برنكر بدار الدريوش التي جعل منها مقامه، ومن هناك كان يتفقد المواقع والصفوف الأمامية، وكانت تتراءى امام عينيه صورة جيش هزيل، بكسوة رثة، جيش يؤدي التحية في تثاقل، ويكشف عن تداريب عسكرية دون المستوى. اما شيوخ المنطقة فلم يتوانوا في تقديم فروض الطاعة والولاء المتمثلة في ذبح كبش للاحتفال بنهاية الخلاف، وكان برنكر مبتهلا مسرورا، وفيما بعد رحل إلى ابن طيب ومنها إلى إيزومار إلى أن وصل إلى الحفرة الكبيرة (انوال).

لم تلفت طبيعة المنطقة انتباه برنكر الذي وصل لتوه إلى (انوال)، وفي ود ومحبة كانت القبائل الموالية، من بني اوليشك وتمسمان تتفاوض امام ناظري المقيم العام. كان برنكر لا يميز بين هذه التمثيلية وما سيحل لاحقا، «اما فيما يخص هذه الأرض المنبسطة، فاظنها سهلة الاحتلال، إن انوال هي جنة الاستعمار».

كان برنكر يظن انه من السهل احتلال «كل ثنايا هذه الأرض البطحاء، بمعنى السيطرة على نهر "امكران" بكل تفرعاته التي تصب في سيدي ادريس»[32]، ومن هناك، كانت تتراءى في المقدمة وعلى مسافة 35-40 كلم كل مرتفعات تيزي عزة الهشة، التي كانت تقطع الطريق على الحلم التوسعي الكبير. كان برنكر مهووسا بهذا الغزو الذي بدات تتضح معالمه، فاضحى يتخيل العديد من الصور، ثم توجه إلى إيزا بقوله «من الناحية العسكرية، اظن ان مشكل الحسيمة يمكن اعتباره في متناول ايدينا»[33]، كان هذا تفاؤلا كبيرا ومستحيلا. وفي السادس من ابريل زادت حماسة برنكر فاصدر اوامر عامة دُونت في مليلية، وارسلت إلى الجيش بطائق التهنئة على الإنجازات العظيمة، «إنجازات سياسة مقتدرة ومتبصرة، استندت في تطورها على كفاءات عليا، حتى انتهت إلى ضرورة استعمال السلاح» وعن سيلفستري قال «إنه شرف القيادة الإسبانية، وربما يمنعني الحنان الأخوي الذي اكنه له من مدحه بإسهاب كبير» وانهى كلامه بقوله «لكم مني احر التهاني، التي آمل ان أعيدها عليكم قريبا عند الحسيمة ونحن نواظب على مهامنا...»[34]، كان برنكر هو سيلفستري الحقيقي. فلم تكن لديه شكوك ولا تخوفات، كان الإيمان بالنصر هو المعول الأول وليس المخطط.

وفجاة كان الموعد مع مفاجاة تاريخية، ابران والتي راج عنها ان سيلفيستري اخفى احداثها عن برنكر، وهذا خطا كبير، ففي رسالة سياسية بعث بها برنكر إلى إيزا

-في السابع عشر من ابريل- جاء فيها ،بينما كنت انا بانوال كان الجنرال سيلفستري يستعد للقيام بعمليات صغيرة، الهدف منها هو العبور إلى الضفة الأخرى لنهر امكران والسيطرة على جملة من المواقع، وذلك بعد إحكام قبضته على منبع النهر ومؤخرة السهل المحاذي لبني توزين. فلا أدري إن كان مايزال مصرا على فكرته فارخص له بذلك،، والحقيقة أن سيلفستري كان قد حصل على ترخيص للذهاب،إلى أبران، ونفس الشيء بالنسبة لتفريست. كانت الظروف والوسائل والوقت والمخاطر تنصاع كلها لمعاييره كما جرت العادة.

وبعد مضي فترة من الزمن، وبالضبط في الثلاثين من مايو، عاود برنكر مكاتبة إيزا مخاطبا إياه، ،فيما يخص مليلية فليس لدي شيء أضيفه، كل الأمور ما تزال على حالها، وبخصوص سيلفستري أوضح، ،أنه في الأخير لم يحتل واد امكران بغية الحصول على ترخيص،، لكن وبإعطائه هذا الضوء الأخضر خرج سيلفستري في اتجاه المكان المنشود، فاحتله في الفجر الموالي للواحد من يونيو 1921، وهو بذلك لم يخبر المقيم العام بقوله، "إنني ذاهب" لأن رخصة الذهاب كانت بحوزته.

قصف سوق، وسفرية إلى بلد الوليد

بعد صدور اوامر برنكر (في السابع من ابريل) تغيرت الأوضاع بالحسيمة. فكل شيوخ القبائل -بمن فيهم القرصان ثيفرا- الذين تفاوضوا مع برنكر وسيلفستري تلقوا تحذيرات وتهديدات ،بإحراق كل منازلهم باعتبارهم أصدقاء مواليين للإسبان،[36]، فقام محمد بن عبد الكريم، الذي نصبته قبيلته زعيما على الحركة بتعقب البقيويين، فقرر ثيفيرا وزملاؤه المقاومة، آنذاك شعر سيلفستري بأن الفرصة قد حانت للنزول بمورو نويبو، لكن برنكر لم يجرؤ على ذلك، فجاء قرار المقيم العام هذه المرة صائبا[37]. لكن وبتوالي اخطاء الجنرالان، تم التوصل في الثالث عشر من ابريل إلى قرار جنوني يقضي بقصف ميادين الريفيين بحجة تخويف المتمردين وضمان وفاء الموالين لإسبانيا.

كان اليوم يوم اربعاء، وهو مناسبة اسبوعية لسوق اجدير، وبينما كان الناس منهمكين في التسوق، إذ سمع دوي الطلقات النارية التي أصابت الناس والسلع. فسقط الموتى والجرحى،

وواصلت المدافع قصفها في اتجاه البيوت الرئيسية، وكانت النتيجة هي توحيد الصفوف، فلم يكن هناك فقط ورياغليون وبقيويون، بل الكل كان ريفيا وعدوا لإسبانيا.

وبعد اسبوع -وفي الواحد والعشرين من ابريل- أبحر سيلفستري من مليلية في اتجاه مالقة، مخلفا وراءه ريفا قد تحالفت قبائله ضده، وفي شبه الجزيرة الإيبيرية كان على موعد مع حدث عسكري مهم، يتمثل في «حضوره الحفل المقام ببلد الوليد بمناسبة تسليم مقاليد رئاسة فرقة كاثادورس إلى سمو الملكة فيكتوريا اوخينيا، وكان سيلفستري هو الكولونيل الشرفي»، تزامن هذا الحدث الاحتفالي مع وضع حجر الأساس "لمبنى الأكاديمية". وهناك ببلد الوليد حيى سيلفستري الأسرة الملكية التي اعربت له مجددا عن إعجابها به، متمنية له المزيد من الانتصارات في إفريقيا، كما كان بانتظاره هناك الوزير إيزا.

وفي بلد الوليد، وبتاريخ الثالث والعشرين من ابريل 1921، التقى سيلفستري بأشهر بطل عرفه تاريخ الفروسية الإسبانية، يتعلق الأمر بالتنينتي كولونيل فرناندو بريمو دي ريفيرا أوربانيخا Fenando Primo de Rivera Orbanija، الذي كان يبلغ من العمر اثنين واربعين سنة، وكان سليل عائلة عسكرية ذات باع طويل، وكان خاله فرناندو بريمو دي ريفيرا إي سوبريمونطي F. P. de Rivera y sobremonte (بعد اتكاراغا Azcárraga) احسن قائد عام بالفلبين، بعد إثكاراغا Azcarraga. اما اخوه، السيد ميغيل بريمو، فقد كان جنرال قسم، تم توشيحه في حرب مليلية لعام 1893 إثر استعادته لمدفع سَطَا عليه الريفيون، وقد اشتهر منذ سنة 1917 بمحادثاته التي تصب في صالح مغادرة المغرب، فكانت فكرته جريئة في حد ذاتها، ورغم ذلك لم يتنازل عنها. لم يكن فرناندو قوي البنية كسيلفستري، ولكنه برز بقامته الطويلة جدا، فكانت له هيئة متميزة، حيث ترعرع في مهد الفروسية الفرنسية بسومير Saumur، وكان بطل مسايفة، كما برهن على شجاعته في الريف حيث كان الرئيس الثاني لفرقة الكانطرا Alcantara، والحقيقة انه كان ضابطا مثقفا ومحبوبا عند الناس، لم يكن بطلا مغوارا امام العدو فقط، بل حتى مع اصحاب الكمائن. حدث أن تجرا في الحفل الاختتامي في بلد الوليد على ذكر اشياء معروفة لكنها كانت سرية للغاية، وذلك امام «جمهرة من الناس» فذكر «انه إذا استمر الوضع على ما هو عليه في إفريقيا من روتين وانغماس العديد من الضباط

والرؤساء في اللعب والقمار، فإن الوضع لن يتاخر كثيرا في إفراز كارثة حقيقية»[39]، وقبل وفاته صب فرناندو بريمو دي ريفيرا، هذا الرجل الذي دخل تاريخ الفروسية الإسبانية كواحد من ابطالها، جام غضبه على بعض المسؤولين فيما يخص الموت المحقق الذي ينتظر الجيوش الإسبانية بإفريقيا.

هذا وقد القى البرلماني كريسبو دي لارا على مسامع البرلمان بعد مضي سنة كاملة على الأرقام الرسمية لهذه المهزلة البيانات التالية: فقد سجل ما بين سنة 1920و1921 «سبعة واربعين انتحارا في صفوف الرؤساء والضباط»، «وخسر واحد وأربعون منهم منصبه بعد إصدار قرار لجنة المتابعة، وكان اغلب الضحايا من لاعبي القمار، ناهيك عن الفصل الأسود لقضية الاختلاسات والفساد المالي، والتي كان «اقطابها كثيرين: حوالي تسعة وخمسين رئيسا وضابطا، ثلاثون منهم كانوا في إفريقيا»[40]. كان فرناندو بريمو دي ريفيرا يحذر من وقوع الكارثة، ويحذر من قبر يخشى الوقوع فيه العديد من الضحايا.

عاد كل من سيلفستري وإيزا إلى مدريد، وتناولا معا وجبة الغذاء مرتين في العاصمة، والتقيا مرة اخرى للاجتماع -كما جاء على لسان الوزير-[41] في قصر بونافيستا، وهناك طالب سيلفستري بما يلزمه من مال ورجال وعتاد وسرعة في التنفيذ، فامده إيزا بما في وسعه: فلا سرعة في الأداء ولا في المال.

لم يكن الوزير وفيا (لجنراله العزيز)، وذلك لأن اللجنة المكلفة ببيع الأسلحة، والمؤلفة من غارسيا مورينو ومونيوث كوبوس إي فيالبا García Moreno, Muñoz Cobos y villalba، كانت منهمكة في تقييم الكم الهائل من العتاد الحربي العصري الذي تم اقتناؤه مجددا، وبعد فترة زمنية محددة، تلقى إيزا في مكتبه بيانا توضيحيا وتقريرا مفصلا عن حجم المشتريات الوافدة من مخازن حرب الحلفاء، وفي الثاني والعشرين من مايو الموالي[42] تمت مناقشة ذلك الملف بمجلس الدفاع. كان الأمر يتعلق بلائحة عريضة تضم المئات من قذائف الهاون، ومئات المدافع الرشاشة، وبنادق رشاشة، ودبابات، وبطاريات مضادة للطائرات، وقذائف ومدافع من عيار 240 و350 وذخائر حربية. كان ثمن هذه الكميات يقدر بثمانية ملايين بسيطة، قد تصل إلى اثني عشر مليونا، اي ما يعادل ثمن إنشاء السكة الحديدية إلى مدينة شفشاون. سكت الوزير خوفا

على الميزانية العامة. أما سيلفستري فقد غادر المكان تاركا وراءه هذا الأمل الكبير في التسلح، أمل اخفاه كذلك عن برنكر.

وبعد اللقاء الأخير الذي كان هذه المرة بروتوكوليا، ودع الوزير سيلفستري موشحا إياه بالنجمة الكبيرة كاستحقاق حربي، فكانت الرحلة إلى مليلية، و«على ظهر السفينة» حيتى سيلفيستري الجموع التي اتت لاستقباله في الميناء بكل هدوء وثقة، إنه ذاهب إلى الحسيمة وبترخيص من "الملك"[43]، وبعد النكبة لم يكن لبريطو Prieto من خيار آخر سوى كشف الأوراق داخل البرلمان، فقد جاء في تصريحه الذي صادق عليه إيزا بنفسه سنة 1922 ما يلي: «لقد اتضح الآن ان سيلفستري -وبوصوله إلى مليلية- كان يتنمق في عباراته، ولا شان لي بذلك، فكما تعلمون نحن جميعا وبصريح العبارة، من هواة التشدق بالكلام...»[45].

وفي السابع عشر من مايو عقد سيلفستري اجتماعا مع ضباطه، ومن بينهم الملازم كولونيل فرنانديث طماريت Fernández Tamarit وكبابلانكا capablanca، كانت معنويات الجنرال خليطا من التشاؤم المكتوم والسخط الظاهر. فتوجه نحو طماريت وهو يشتعل غضبا، محذرا إياه قائلا: «لم يكن لدي من خيار آخر سوى الذهاب إلى الحسيمة، فقد افسدت زيارة برنكر إلى الجزيرة كل شيء، كان علي الذهاب بسرعة، ولم تكن الظروف ملائمة، فكانت الحاجة ماسة إلى ابسط الإمكانيات الموجودة وبوفرة في جبالة...». كان سيلفستري محقا، وكان يتذمر بشدة، ففعالية العتاد الذي كان «مودعا في مليلية كان يخرج في اتجاه آخر (نحو سبتة والعرائش)، ولم يستقبل هو اي شيء»[45]، ولم يكن بمقدور فرنانديث طماريت وكبابلانكا فعل شيء سوى الإعلان عن تأييدهم للجنرال الذي بدا عاجزا وهو يتخبط في ازمة ضمير مشؤومة تملي عليه إما الهجوم بلا عتاد ولا حلفاء او التخلي عن القيادة، ولا شيء من هذا القبيل حدث.

كان فصل الربيع يودع الريف، والحسيمة تنتظر سيلفستري، وكانت ترخيصات الدولة بحوزة الجنرال. كان برنكر وإيزا على علم بهذه الأمور، اما الملك فقد اعطى الضوء الأخضر، إذن فلتكن الانطلاقة ، فانطلق سيلفستري بدون ثقة. وبعد مضي سنة، ذكر الكلاثامورا Álcala zamora، ان القائد العام بمليلية توجه نحو الحسيمة بدون قوات كافية، وبدون مخطط متناسق، ولا حتى مشروع للانسحاب قائلا: «إن الجنرال

سيلفستري تحالف مع النصر وإلا، فإن التحالف سيكون مع الموت،[46] ولم يكن هذا الأمر صحيحا لأن سيلفستري كان وفيا لكلمته.

انتهى الأمر بجيش إفريقيا إلى جسد تنخره الديدان

في الوقت الذي كان يسافر فيه سيلفستري يذهب فيه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ويعود منها عازما على غزو الحسيمة، كان الكسل والانحلال يتعقبان مشاريعه. لكن هذه المرة عاد بكل رباطة جاش للانتصار في حرب خاض غمارها بلا جيش، بل بفرق عسكرية هزيلة.

لم يكن هناك من وجه تشابه بين جيوش 1921 وجيوش 1909 إذ لا يمكن الحديث عن نفس مستوى الأخلاقيات التي كانت لجيوش عام 1859. باختصار شديد، لم يكن هذا الجيش إفريقيا، ولم يكن لديه إحساس بأنه يحتل ارضا، فغالبيتهم توهموا أن الخطر بسيط، وأن هناك مكافآت في الطريق. وقد استبدل البعض هذه التطلعات، بعدم احترام الأوامر، واستبزاز مالية الدولة، حيث قررت هذه المجموعة الثانية القليلة العدد والجريئة من حيث استهتارها، وقلة حيادها ان تتاجر بالمغرب. وقد كشف الصحفي الغرناطي رفائيل لوبيث ريندا R. López Reinda الستار عن مؤامرتهم القذرة والمتعلقة بمخزن العرائش، حيث الأمور كانت تجري بسرية تامة، لكن العدالة العسكرية قامت بمهامها، كما أن الأرقام كانت مهولة، فإذا كان المخزن يدير ما يقدر بخمسة عشر مليون بسيطة سنويا، فإن الاختلاسات الشهرية كانت تصل إلى ثلاثمائة الف بسيطة، وهذا مبلغ هائل، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الراتب الشهري للقائد العسكري هو ستمائة بسيطة شهريا. وقد ظلت هذه الاختلاسات على حالها منذ سنة 1918 اي منذ تولى مانويل خوردانا بيريث مهمة صرف الرواتب الشهرية بإدارة الإمدادات والتموين بالمخزن، وكان عمره آنذاك أربعة وثلاثين سنة، وكان معروفا بحياته ،التي لا تخلو من تعليقات،[47].

هكذا إذن، مهدت هذه التشكيلة العسكرية الإسبانية المعتوهة في المغرب السبيل لعمليات غش واحتيال إجرامية، في وقت كانت فيه العشرات من المواقع النائية تحتاج إلى الكثير من المواد الغذائية لكي تقتات. فموقع واحد كمِسِراح Meserah، كان يحتاج

إلى إمدادات تقدر بأربعمائة وخمسين حمولة، وقافلة أسبوعية، وحسب الحسابات الرسمية كانت الحمولة الواحدة تساوي ستة وثلاثين بسيطة، في حين كان الثمن الحقيقي هو 19,85 بسيطة[48]، وكان هذا الثمن يرتفع أكثر كلما زادت الشحنة، وكانت الحصص يتعاقد عليها، لكنها كانت لا تصل بالرغم من دفع ثمنها مسبقا. وإذا حدث ووصلت الحمولة، فإن المتعاقد كان يقدم وصلا بكمية مضاعفة، وهذا بالضبط ما حصل لأوركيزا Urquiza، التاجر التعيس الذي سلم أربعمائة وخمسين طنا من التبن، وكان مجبرا على إعطاء وصل بثمانمائة طن، فيتقاضى ثمن أربعمائة طن فقط[49].

كانت الحصص المتفاوتة في المال تودع في جيوب من وصفهم لوبيث ريندا بجماعة البخلاء، المكونة من القائد إميليو مونيوث كالشنيري Emilio Muñoz Calchineri (مدير المخزن) وخوصي غارسيا رسطريبادا José García Restrebada (رئيس الإدارة بالعرائش) والقائدان فرناندو غرسيا بريمون Fernando García Bremón، وماورو رودريغس آيير إي خوردان Mauro Rodriguez Aller y Jorda، إضافة إلى وكيل وزارة الدفاع البرلماني السابق، الجنرال فرانثيسكو مونطيس ديل كستيو، فهذا الأخير كان يتقاضى راتبه في العرائش، ويعيش بمدينة طنجة في فيلا تعرف باسم "بورشيط"، وكانت له حاشية عريضة من الخدم، ومجموعة من السيارات من نوع بانهرد Panhard ودلهاي Delahaye.

استمرت هذه الخروقات إلى حدود حرب أنوال، بداية مع السيد خوردان الذي أعطى لنفسه رخصة لمدة شهرين، لأسباب مرضية مفتعلة، فذهب إلى مدينة روندة الإسبانية حيث يملك مزرعة هناك ،يقدر ثمنها بثلاث ملايين بسيطة، ثم حلّ بعدها بميناء سانتا ماريا ،حيث تعيش عشيقته[50]. وبعودته إلى العرائش، طلب تأجيل مجموعة من الملفات، فعلل زملاؤه الموقف بأنه باسم القانون لا يمكن مطالبته بشيء. كان خوردان قد أقسم على الانتقام، وكان يتحين الفرصة فقط، فحلت هذه الأخيرة في فاتح شتنبر 1921 بعد انتهائه من إغلاق حسابات الشهر المنصرم. فخلال تلك الأيام المشؤومة التي كان فيها جيش سيلفستري، والذي كان يقدر عدده بعشرة آلاف رجل، يعاني ألم الحصار والموت، كان القائد خوردان يجمع الأرباح الطائلة التي وصلت إلى مليون وخمسة وخمسين ألف بسيطة، جنيت من جراء تجويع الجيش، ورداءة

أسلحته. وأمام هذا الكم الهائل من الثروة اتخذ خوردان قراره بالاحتفاظ بكل شيء في حوزته، ووضع زملاءه المندهشين أمام خيارين، فإما الكتمان وعدم البوح بشيء مقابل توقيع الاستقالة من الجيش، وإما كشف الأوراق وفضح المستور[51]، فحصل ما لم يكن متوقعا، إذ وشى اللصوص باللص الكبير، وبدوره تكلم خوردان بكل وضوح واعترف بكل الحقائق.

اجريت محاكمة لسان خورخو الذي صار فيما بعد كومندان عام بالعرائش، وكذا "البورغيطي" Burguete المقيم العام الجديد بعد استقالة برنكر سنة 1922، وخلال جلسات التحقيق كان الأضناء مجبرين على تقديم توضيحات بشأن «النتائج الخطيرة للقضية»[52] التي تابع ملابساتها الجنرال جرمان خيل يوسطي Germán Gil Yuste. وحسب لوبيث ريندا، دفع مونطيس ديل كسطيو Montes del Castillo غرامة تقدر بـ الف وخمسمائة طن من الشعير المخزون باسمه في الدار البيضاء[53]، وحُكم على خوردان بعشرين سنة حبسا، نُفذت ابتداء من يونيو 1923. اما عن المحامي الذي تولى الدفاع عن القضية، وهو العميد خوان اونثيطا Juan Unceta فقد أصابه الندم من المرافعة، وبالتالي تنازل عن الملف. كما تقدمت السيدة دورا دي خيلس Dora de Giles زوجة خوردان الوفية بطلب عفو من الملك. وهكذا وبتاريخ الثاني عشر من يوليوز 1927 كان خوردان مايزال سجينا بحصن الآشو El Hacho بسبتة «في انتظار ان يتم أربعة عشر سنة وثلاثة شهور وتسعة ايام في السجن»[54]. ولم نستطع نحن التأكد من قتل القائد بعيار ناري بعد الإفراج عنه كما كان شائعا.

بعد هذه العقوبات لم يتجرا احد على التورط في فضيحة من هذا النوع، وإن كانت هناك تحقيقات تفيد عكس ذلك (انظر التقارير التفصيلية لكريسبو دي لارا في البرلمان)، حتى الجيش لم يكن بمعزل عن هذه الاختلاسات ، فالجنود كانوا يرون كيف أن الضباط كانوا يسرقون، فبادروا هم كذلك بالسرقة والنهب بطريقة جد سهلة وجد انتحارية، تلخّصت في بيع الأسلحة والرصاص لرجال القبيلة.

وصل الجنون بالجيش إلى ذروته، فرضِي أولئك الجنود اللصوص ببيع حياتهم إلى قتَلتِهم، وبما انهم كانوا يعرفون ان الرجل الريفي أو الجبلي هو شخص خبير بالأسلحة، يرفض شراء كل سلاح انتهت صلاحيته، فإنهم كانوا يقدمون لأعدائهم اجود ما لديهم

من عتاد حربي، وكانت عملية البيع والشراء تتم على هذا المنوال؛ يقوم المشتري بفتح فوهة البندقية، ويدقق النظر في الزناد، ويقلب كل آليات المدفع، وكان البائعون يقبلون بالاحتفاظ بالسلاح الذي لا ينفع ولا يجدي، أما ربحهم فكان لا يتعدى المائة أو ثلاثمائة بسيطة للبندقية الجيدة، او خمسة وعشرين ريالا مقابل بيع خمسة وعشرين رصاصة، وكل رصاصة كانت تعني النيل من حياة جندي إسباني. لقد كان البخل شديدا إلى درجة ان الأثمان كانت جد بخسة، وقد تحدث تقرير سري أرسله السكرتير الخاص لألفونصو الثالث عشر ما بين 1909 و1931 إلى إميليو ماريا دي طورس Emilio María de Torres، عن طبيعة هذه القذارة بدون تحفظ.

وجاء في هذا التقرير المصنف بـ"السري" والمؤرخ في التاسع من اكتوبر 1919، أن خبر تزويد القبائل الريفية بالسلاح من جهة الشمال، وبالضبط من طنجة ومن جهة الحدود المتاخمة لمنطقة الحماية الفرنسية لا يعدو كونه "اسطورة"، والحقيقة هي ،انه منذ احداث مليلية لسنة 1893 وحتى أحداث تطوان وطنجة، والمقاومة الريفية تشتري من الجنود الإسبان كل خراطيشهم، سواء تلك التي يبيعونها أو تلك التي تسقط منهم من احزمة الرصاص،[55].

ولكي يدعم وجهة نظره، ذكر المخبر المجهول الاسم -والذي يذكرنا أسلوبه بأسلوب فيالبا Villalba- أن ،افضل دليل على ذلك، هو الذخيرة الحربية من نوع ماوسر Mauser، فاجودها كان رخيصا ومتوفرا، أما الأسلحة الأخرى ذات الجودة العالية فكانت باهضة الثمن، وقد فكر هذا المُخاطب في تقديم حل ينص على ،انه لا يوجد من حل آخر لتقويض المقاومة الريفية والجبلية سوى إمداد جيوش إفريقيا ببنادق ورشاشات من عيار مخالف "للماوسر"، وهذا شيء رخيص ومتيسر في نفس الآن، إذا ما اخذنا بعين الاعتبار ما تكتنزه مخازن الأوروبيين،.

كان برنكر وقتها وزيرا للدفاع، ولم يصدر عنه اي اقتراح للملك، وامام علم هذا الأخير بالمشكل الرهيب من طرف طوريس Torres، نحى برنكر وخلفه في المنصب إيزا، وداخل إدارة الإمدادات والتموين. كان عدد الضباط الذين يسرقون كثيرا، واغلبهم كانوا من الجنود الذين باعوا حياتهم بالخراطيش التي سوف تخترق اجسادهم يوما. فقد كان الطمع في الحصول على المال يقابل الموت المُحتوم.

وفي سنة 1921 كانت المتاجرات الحقيرة مازالت سارية المفعول، فقد كان جيش إفريقيا كان ينهار يوما بعد يوم، في حين كان هناك جيش آخر يقوم بمهام الأول، نخص بالذكر هنا الجيوش الأهلية، فعوض أن نرسل افضل الضباط لقيادة أجود العساكر، كانت المناصب في الشرطة الأهلية -والتي كانت تحظى بعناية كبيرة في زمن لاريا Larrea وايثبورو- بيد هيئة ضباط فاسدة، جاهلة ومستهترة بطبيعة الرجل الريفي والجبلي[56].

ففي الريف الإسباني، كانت هناك فوضى حقيقية في النظام، وقليل هم الضباط الذين يواظبون على الحضور، وعلى قيادة وحداتهم العسكرية بأنفسهم، فالكل كان يفضل الإقامة بمليلية، مدينة النزوات والراحة. اما والي إقليم الناظور، التينتي كولونيل باردو اغودين Pardo Agudin فقد كان يقيم بدوره في مليلية ،بصفة دائمة،، أما الملازمون الآخرون والقياد فقد كانوا ،يتناوبون على قيادة الطوابير كل عشرة أو خمسة عشر يوما،، في حين كان ،رؤساء الأركان الحربية يُعينون ليلة خروج الطوابير، وكان من الصعب جدا أن يخرج نفس الضابط مع الطابور الواحد إذا ما كانت هناك عمليتين عسكريتين مختلفتين،[57].

كان المشكل العويص يتلخص في العدد، عدد الجنود الحقيقيين المتواجدين على ساحة المعركة، ففي الثلاثين من يوليوز 1921، كان جيش سيلفستري يتالف من ثلاثمائة ضابط، وتسعة آلاف جندي وثلاثمائة وثلاثة، موزعين على مائة وواحد وعشرون موقعا، وكانت برفقتهم الفان وخمسمائة وثمانية وسبعون دابة، وبعد مرور ثلاثة أسابيع، ارتفع العدد لينتقل إلى خمسمائة وثمانية وثمانين ضابطا وستة عشر الفا وخمسمائة واثنين وثمانين جنديا، واكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة واثنين وتسعين دابة موزعة على مائة واربع وأربعين موقعا.

وفي عملية جديدة لتفقد صفوف الجيش تم إحصاء ثمانمائة وخمسة وأربعون رئيسا وضابطا وعشرين الف جندي ومائة وتسعة وثلاثين وخمسة آلاف ومائتين وواحد وخمسين دابة[58].

وفيما يخص النقاش حول الدواب، يوافينا كريسبو دي لارا Crespo de Lara بتعليقات مضحكة، فقد ذكر في إحدى جلسات البرلمان ،أن الجياد والبغال، كانت

تموت كلها تقريبا في نهاية الشهر، ونادرا ما تموت في مستهل أو منتصف الشهر. ومنذ ان حطّ الجيش دحاله، والدواب تموت في الأيام الأخيرة للشهر، وبعدها احتدم النقاش حول علف تلك الدواب، وكانها كانت تعيش الشهر كله،[59].

ومن جملة الابتزازات التي كانت موجودة كذلك، نجد سوء استعمال ما كان يصطلح عليه "بالسايرات العسكرية السريعة"، ففي سنة 1915 ندد بابلو إغليسياس Pablo Iglesias بكل تلك الخروقات[60].

وكل ما في الأمر، ان عائلة واحد من الجنود الاحتياطيين بإفريقيا، اقتنت سيارة عسكرية سريعة من طراز "فورد اش-ب 20" -بثمن يقدر باربعة آلاف بسيطة- ووهبتها للجيش، واشترطت أن يبقى الجندي صاحب السيارة سائقا... ويصحبه واحد من المساعدين، وقد عُرفت هذه العملية القذرة باسم "كمين فورد" حيث ندد السيناتور خوان سرديل فراس Juan Sarradell Farras من اليسار الليبرالي ،باولئك الجنود اصحاب السيارة، الذين استغلوا هذه الهدية،[61]. واضاف قائلا، ،إن اقل ما يمكن ان يطالب به جيش، هو العدالة في التضحيات، والمساواة امام العدو. ففي المغرب لم تكن لهذه المساواة وجود،.

قال السيد آنخل رومانوس إي سانتا رومانا Ángel Romános y Santa Romana بخصوص هذه السيارات العسكرية السريعة، إنه كان من الأولى ،البحث فيما إذا كانت هذه المركبات ملكا لهيئة الجيش، وإن كان الحال كذلك، فبأي طريقة تم اقتناؤها، وما مصدر المصاريف التي تُصرف للحفاظ عليها،.

وحسب رومانوس ساعد ،هذا الكم من الأخطاء السياسية-العسكرية القومية وكذا الأخلاقية، في تقزيم قوة القيادات، واضعف روابط النظام بينها، فإذا ما حلت الساعة، لم يجد هذا الجيش قوة يجابه بها الشتات والرعب،، وانهى كلامه بهذا الحكم ،لا القيادة كانت تثق في اتباعها ولا هؤلاء كانوا يثقون في القيادة،[62]، وفاجعة انوال يمكن تلخيصها في هاته العبارات.

وبعد وفاته بشهور، تمت معاقبة الكومندان العام بمليلية داخل البرلمان بهذه العبارات، ،إن ما وقع للجنرال سيلفستري جاء نتيجة لجهله وبعده عن جنوده،[63]، لكن سيلفستري كان واعيا تماما بحالة جيوشه، عيبه الوحيد هو انه كان على علم بفئة

معينة من ضباطه، أولئك الذين لقوا حتفهم بجواره، أو أولئك الذين صمدوا وقاوموا حتى النهاية، اما الآخرون فمنهم من فر بجلده، ومنهم من استسلم.

سحابة سوداء ووعود أخرى غير واضحة المعالم

بانتهاء فصل الربيع لسنة 1921، دخل سيلفستري مرحلة تشاؤم غير معهودة. ففي رسالة بعث بها إلى برنكير بتاريخ التاسع والعشرين من ماي 1921، تطرق إلى المواقف الغامضة لكل من قبيلة بني ورياغل، بني أوليشك، بني تويزن وغيرها، واستدل موضحا انه سيتقدم نحو الأمام إذا ما حصل على مساندة هذه القبائل، وإلا ،فعليه ان يفكر جيدا، قبل اتخاذ اي خطوة لأنهم حتما سوف يواجهون اشتباكات دامية، تختلف كثيرا عن كل المعارك التي خاضوها على هذه الأرض»[64]. وفي نفس الرسالة -التي مررها غابريل نجل الكولونيل مورالس إلى بيكاسو- استعمل سيلفستري اسلوبا متميزا، مليئا بالعبارات المجازية للتعبير عن مواقفه فقال: «إن الغمامة السوداء التي حلت بالمنطقة المحتلة، وتسببت في قلقي، مصدرها الطائفة العلوية التي ساتطرق لها في رسالة اخرى. ليس لغرض سوى ترتيب الأرشيفات وتصنيف الوثائق»، ولم نجد نحن تفاصيل عن الحادث، ولو أن بعض الإشاعات راجت وتحدثت عن قدوم ملك من المورو، وبالطبع لم يكن هذا بعبد الكريم ولا بالسلطان مولاي يوسف.

وصف سيلفستري عبد الكريم بطريقة متميزة فقال: «إذا كان في حياة أبيه كما يقولون، لا يجرؤ على فعل اي شيء، فإنه يجرؤ على كل شيء بعد وفاة أبيه، فنبذ كل العادات التي اكتسبها في حياته من جراء احتكاكه بنا، وأصبح اليوم يصول ويجول في البلاد كأي جبلي متسخ احرقته اشعة الشمس»، وبموازاة هذه النعوت، كانت هناك معلومات أخرى تكشف عن الكيفية التي كان يعبئ بها عبد الكريم البني ورياغليين ،كان يمدهم بالأعلام ويشيد الخنادق، ويعزّز الصفوف بمدفعين وبندقيتين رشاشتين (مما استعمل في معركة ابران)، فوضع إحداهما في جبل القامة والاخرى أمام الحسيمة».

وفي السادس عشر من مايو، تحاور عبد الكريم مع غوط Got -الذي كان بدوره على علاقة مع المقاول اوراثيو إشيبريطا Horacio Echevarrieta- واعرب له عن رغبته في تنظيم قوة امن قوامها خمسمائة او الف رجل ،وذلك بهدف تعزيز الأمن في القبيلة،

فيما بعد ياتي دورالتفاوض مع إسبانيا،، فاجاب سيلفستري عن هذا المشروع بما يلي، ،إن هذا لوهم وخيال، ولكنه خيال خطير من شانه ان يعرقل مخططاتنا،[65].

وفي الثامن عشر والتاسع عشر من مايو، بعث الزعيم الريفي بالعديد من الرسائل إلى مورالس يتحدث فيها بصيغة الجمع، كناية على أن النص يحمل كلماته وكلمات أخيه امحمد، ففي البداية رحب بالتحركات السلمية التي ينشدها الكولونيل واعرب عن استعداده الكامل للمشاركة في هذا الهدف النبيل،، لكن فيما بعد طلب منه الكولونيل أن يبعث إليه مع ،بخريطو (محمد ازرقان) بالشروحات اللازمة علّها تنفعنا في المستقبل،. وفي الختام، أوكل لمورالس تبليغ ،تحياتنا إلى سيلفستري،[66].

ماذا كان موقف سيلفستري من كل هذه العبارات؟ جاء في حديثه مع برنكير ،ليس لدي ما أقوله الآن، وأتمنى أن تسعفني الأحداث في اتخاذ موقف معين، أما فيما يخص عبارات الود الصادرة عن الريفي، فقد اعتبرها سيلفستري ،حيلة للاحتياط، إذا ما ساءت الأمور،، وشاءت الأقدار ان يستقبل سيلفستري لتوه رسالة اخرى من صديق قديم منذ أيام الدراسة، رسالة تحمل تنديدات وتحذيرات وعبارات صادقة وحازمة ونبوءة جاء فيها، إن الريف الإسباني هو بمثابة بركان.

فرنانديث طماريت يكتب
رسالـــة فريـدة من نوعهـــا

كانت الرسالة التي تلقاها سيلفستري في السادس عشر من مايو 1921 تحمل توقيع ريكاردو فرنانديث طماريت Ricardo Fernandez Tamarit، التنينتي كولونيل الذي يبلغ من العمر سبعة واربعين سنة، والذي كتب الرسالة من مكتب الرئاسة بموقعه بسوق الثلاثاء التابع لبوبكر، ذلك الحصن الجنوبي الذي بناه بنفسه، والذي تخلى عن قيادته لأسباب صحية، فعوضه غارسيا إستيبان García Esteban الذي قام في يوليوز بانسحاب مفجع.

أجاب طماريت على "رسالة" و"بيان" سيلفستري المُسلَّمين إليه من طرف زميله بيكيراس Piqueras. هذا الشخص الذي تولى كذلك مهمة نقل رسالة طماريت ،وتسليمها شخصيا إلى الإقامة العامة، في السادس والعشرين من ابريل[67]، وقد جاء تبادل هذه الرسائل بين الزعماء إثر معاتبة سيلفستري لمساعده عقب عمليات

الاستطلاع التي قام بها في الممرات الاستراتيجية والموحشة لعين زوراح Ain Zorah وتل بوسفمادن Busfemadan، وهي منطقة وصفها ضباط الشرطة الأهلية بأنها ،وكر العدو المرعب، (البني ورياغليين).

وفي الثاني عشر من ابريل، اجرى فرنانديث طماريت رحلة استطلاعية إلى الجبال العالية برفقة مجموعة من المرشدين الريفيين الأوفياء دون أن يصحب معه الحرس المسلح من الإسبان، وعاد بلا مشاكل، وبينما هو في الطريق أثار انتباهه ،الماء الغزير، والكلأ الوفير، وخيرات اخرى، فأكد لسيلفستري أن ،هذه العناصر الثلاثة ستفيدهم كثيرا،، بمعنى انه بإمكان الجيش المرور من بوسفمادن.

وصف سيلفستري هذه الجولة الاستطلاعية ذات الأهمية التكتيكية لتطويق أجدير، "بالرحلة غير المجدية"، كما نعت صاحبها "بالدمية" "التي تقامر بحياتها بجنون"[68].

حاول التنينتي كولونيل أن يهدئ من روع الجنرال موضحا له أن غضبه استند إلى تقارير خاطئة مصدرها قيادات الشرطة الأهلية، التي كانت تكتفي بإضفاء صبغة المبالغة ساعة حديثها عن التضاريس الوعرة للمنطقة وعن عدوانية أهل بوسفمادن، فعناصر الشرطة كانت ،تتظاهر بالإخلاص في إنجاز مهامها التي كانت لا تؤديها في الواقع، فجئت أنا وأسدلت الستار عن هذه الأكذوبة، وبالطبع لن يغفروا لي ذلك،[69] وأضاف طماريت مخاطبا سيلفستري، ،المعذرة، إن خاطبتك بكل هذه الصراحة، فضميري يحثني على ذلك،، ودون أن يتوقف عن الحديث، حذره بقوله، ،بالرغم من مظهرك القوي الذي يوحي بأنك رجل حيوي وذو عنفوان، فأنت ما تزال ذلك الطفل الكبير الذي يختبئ تحت شاربه، فإن حلقته يوما فأنت ضائع لا محالة،[70].

وروى طماريت لسيلفستري أسباب نجاحه لوحده في الجولات الاستطلاعية بمنطقة بوسفمادن، فالأمر يتعلق بأحداث مروعة ارتبطت بردود فعل مشرفة، يروي أنه قبل بضعة أسابيع، وبينما هو بمكتبه، سمع صوت "امرأة تصرخ في يأس"، فقفز من مكانه بسرعة حيث وجد عند سياج المعسكر "فتاة شابة حسناء" تصرخ بشدة، وهي في يد ستة من رجال الشرطة الأهلية قبضوا عليها بأمر من خادم الملازم (سالاما)، وإزاء هذا المنظر التفت جمهرة من الجنود (الإسبان) الذين وبخوا الشرطة التي تمكّنت ،من إلقاء القبض على الفتاة بعد أن أشبعوا الأم والأخت ضربا عند محاولتهما إنقاذ البنت،، واستمع طماريت لشكوى تلك الريفية الشابة ،التي انحنت على ركبتيه وهي تبكي وكل

فرائصها ترتعد». فجمع طماريت همته وأمر بجلد كل واحد من الشرطة "أربعين جلدة"، و"ستين جلدة لخادم الجندي" الذي أدى غرامة "تصل إلى مائة ريال سلمت لأم البنت"، وبعدها بقليل ظهر الراس المدبر لهذه الجريمة، فتلقى من سيده سَيْلاً من التوبيخات. وبموازاة ذلك، واتباعا لتوجيهات طماريت، قام واحد من مساعديه وهو الملازم ميي Mille الشجاع -الذي لقي حتفه في فاجعة يوليوز- بسفرية إلى البلدة ،صحبة فرقتين من الكانطرا وهدد باستعمال السلاح إذا ما حاول احد الاعتداء على الفتاة.

فهذا الحادث بقدر ما رفع من قيمة طماريث والجنود الإسبان في نظر الريفيين، بقدر ما قضى على ما تبقى من مكانة عالية لقياديي الشرطة، وبعد أيام حضرت شخصيات ريفية بارزة إلى المعسكر، كـ"مزيان علي من بني بويخمي، وحامد من مطالسة، وبوطالب من فرشة"، واكدوا لطماريت بإسبانية ركيكة ،انه، وبالنظر لعدالته، يمكنه التجوال في المنطقة كما يشاء»[71]. ومن هناك كانت "الرحلة" إلى عين زوراح.

وفي طريق العودة، وعند ثكنة سياش Siach، التقى طماريت بالملازم بنيطيث Benítez وهو "سكران لا يدري ما حوله"، ومما زاد الطين بلة انه ليلة الاستيلاء على طاجنيت Tajanit اتجه طماريت إلى المعسكر بعدما تعذر عليه ربط المكالمات الهاتفية مع الطرف الآخر، فدخل ،دون أن يراه أو يعترض سبيله احد»، فوجد ،السماعات داخل مخدع الهاتف في غير موضعها»، وداخل الخيمة كان كل الضباط نائمين ،حيث وجد ثلاثة منهم في حالة سكر تشمئز منها النفوس»[72].

حذر طماريت سيلفستري فاستطرد قائلا: ،توجد داخل الشرطة عناصر فاسدة، أثارت سلوكياتها الخبيثة موجة من الكراهية، ومن يدري فقد تتحول هذه الكراهية إلى ثورة عامة وغير متوقعة»، وأضاف ،انه داخل الشرطة نفسها يوجد العديد من الضباط المحترمين»، وهم يعدون على رؤوس الأصابع، كـ كلافيط Calvet، وكيولا Cayuela، وكابابلانكا Capablanca، ولوثون Luzón، وسان مارتينن؛ فهؤلاء كانوا بمثابة مصابيح مضيئة في هيئة مظلمة.

وبصراحته المعهودة خاطب فرنانديث طماريت سيلفستري قائلا: ،إنه لا يعقل أن نكتفي بطرد بوميس Pomes (هذا الضابط صاحب السلوكيات الفظيعة التي تحدث عنها بيكاسو)، بل يجب ان نطرد كذلك كاراسكو Carrasco، بنيطو Benito، سالاما Salama، وآخرين ممن اصبحت تصرفاتهم معروفة ومشهورة، وإنني لأتعجّب كيف تجهل هذه الأمور، وانت الذي تملك وسائل الاتصال التي لا يتوفر عليها مورالس».

لم يكن طماريت يخشى في قول الحق لومة لائم، فعلّق على جراة رئيسه بقوله: «لقد حططت رحالك مبكرا بسيدي ادريس، وافراو وانوال»، وذكره بقوله: «ولم تعزز مؤخرة الجيش بالمرة»، كما حذره من ان القبائل التي بقيت في الخلف لم تكن مستسلمة وموالية، وانه «بحدوث اي مشكل فإنك ستجد خمسة او ستة آلاف فوهة بندقية موجهة إلى ظهرك»، كما اكد له ان تمسمان سوف تعلن عن عدائها قريبا، لأن «ضغوطات بني ورياغل كبيرة ويصعب مقاومتها»، وواصل حديثه مخبرا بأن الجيوش ليست على اتم الاستعداد، وانهى كلامه بجملة مجازية صالحة لكل الإسبان المتواجدين بالريف عام 1921 قائلا: «إننا نَحْيَى في فوهة بركان».

وعند استقالته المشرفة، والتي نزلت كالصاعقة، ذكر طماريت لسيلفستري «حقا، انه لمن العار ان يُرَخص للكولونيلات بقضاء وقتهم بمليلية او إسبانيا يحكون بطونهم، ولا يذهبون إلى الميدان إلا نادرا»، وردا على جواب الجنرال الذي تضمن عبارات تسيء إلى ذكورته، اردف طماريث قائلا: «وبشان ما ذكرته لي عن الخصيات الثلاث، وهو امر ما كان لك أن تقوله لي، فيسعدني ان اذكرك بانه لدي خصيتين فقط، وبما انني مقتنع بان كل عنايتي بهما غير كافية، فانا اسعى للحفاظ عليهما قدر المستطاع. وإنني اتوسل إليك من أجل الصالح العام ان لا ترهق مبكرا خصيتيك انت. كما أنه من غير اللائق بك، ولا بمركزك المتسامي أن تستعمل مثل هذه العبارات، اظن انني أجبت بالتفصيل عن بيانك، فإذا ما احتجت إلى توضيحات اخرى ادليت لك بها يوم الثامن عشر عند مجيئي لمليلية، كما امرت بذلك»[74].

كانت هذه الرسالة العجيبة خلاصة ريف سيلفستري. وعن صاحبها ذكر روبيو Rubio أن سعادة الكونتيسة دي باردو بثان Pardo Bazán، قالت بشانه: «كان من اكبر الجند المثقفين الذين تعاملت معهم»[75].

إسبانية أبران التي كانت تغط في النوم

لم يستقر سيلفستري على راي محدد، فضل أن يقلب خياراته حتى حدود الواحد والثلاثين من ماي، والحقيقة أن مدة ثمانية واربعين ساعة من التأمل والتفكير كانت طويلة بالنسبة لعملية زحف بسيطة، لكن الجنرال كان يدرك تماما ان ابران تمثل رهانا

أخطر من تفريست، وسبق له أن استشار طماريت بشأن هذه العملية، فأجابه التنينتي كولونيل قائلا: «إن هذه الخطوة لم يحن أوانها بعد، ويستحسن تأجيلها»[76]، كان سيلفستري يثق كثيرا بخلف مورالس السيد بيار Villar، صاحب الجولات العديدة في المنطقة -رفقة القائد خوان غارسيا مارغايو Juan García Margallo- وكان بيار واثقا من الصلاحيات العسكرية للمنطقة، ومتيقنا من ولاء حامية تمسمان التي طالبت «بتعجيل السطو على ابران»[77]. كان سيلفستري يثق كذلك في آنجلو خريي Angelo Girelli، المغامر الإيطالي والجاسوس المحنك الذي كان يعرف المناطق الريفية شبرا شبرا. وقد خرج خريي هذا في مهمة سرية، رغم أن دوره «اقتصر على التقاط بعض الصور لأبران وتيزي تاركيسيت»[78]، وحدث أن اختلف التمسمانيون فيما بينهم، فتراجعوا عن مواقفهم في حضرة بيار، وطلبوا منه أن لا ينكس العلم الإسباني في أبران. وجاء تحذير السيد محمد أوقرقاش بأن ابران قد تمتص حياة ثلاثة آلاف شخص، إلا أن الكومندان لم يجرؤ على التراجع عن مواقفه امام جنراله.

كان بيار يحضّر لمغامراته في الخفاء دون أن يعلم به زملاؤه، ونفس الحال سُجل مع قائد المهندسين السيد إميليو الثوغاراي غيكواشيا Emilio Alzugaray Goicoechea المسؤول عن الجيش بانوال، ولاحتياط بسيط توجه الثوغاراي في الواحد والثلاثين من مايو إلى خيمة رئيس الحملة يستفسره «عن الموقع الموالي للاحتلال»، فأجابه دافيلا بأن الاختيار وقع على ابران، وفي دهشة كبيرة أوضح الثوغاراي لكبيره «أن ذلك الموقع لا يشكل أي هدف عسكري، وفي حالة الهجوم عليه، فإنه سيكون من العسير إمداده بالمؤونات كما يستحيل إنقاذه»، ثم أجاب دافيلا في رباطة جاش قائلا: «إن العمليات ستجري بطريقة حبية وحميمية»[79]، كان رئيس الحملة العسكرية يعارض وبشدة هذه العمليات، فكتب عنه غابريل مورالس قائلا: «نتيجة لهذه الأحداث، فإن التنينتي كولونيل دافيلا تخلى عن القيادة، ورحل هذا الرجل المتواضع والعظيم»[80].

وفي ظروف مشابهة، علم مانويل روس سانشيث Manuel Ros Sánchez، الذي كان تلينتي كولونيل لثرنيولا Ceriñola، بالأحداث، فتلقى أمرا «بتسليم عشرة آلاف خراطيش من نوع ريمنغطون Remington للحركة الصديقة»، والتي ما لبثت أن ثارت فور حصولها على السلاح. وفي غياب العراقيل أصدر بيار أوامره للجنود بالخروج، كان العدد يقدر بألف وأربعمائة وواحد وستين رجلا، وأربعمائة وخمسة وثمانين دابة،

واحضرت "كل البغال" التي كانت في انوال[81]، كانت الساعة تشير إلى الواحدة من فجر الواحد من يونيو 1921.

وفي تلك الليلة الوضّاحة من الصيف الريفي، تقدمت الطوابير في هدوء، كانت الكيلومترات الخمسة عشر تمتد أمام أعينهم قبل الوصول إلى الهدف، كان الجيش مجبرا على السير المتواصل، فيصعدون وينزلون، وينعطفون مع الطريق المنعرج. وبعد مضي أربع ساعات ونصف، تم الوصول إلى قمة الجبل العظيم الذي يبلغ طوله ستمائة متر، إنه دار أوبران أو أبران. كان على الجنود أن يتقدموا واحدا واحدا، وقد شكلوا مع دوابهم المصطفة طابورا طويلا، ووصل الفوج الأول، وبعد ساعتين التحقت الفرق العسكرية المتبقية، واشرقت الشمس على منظر جيوش منهوكة تسترد انفاسها لمدة نصف ساعة، قبل أن تشرع في عمليات التحصين.

كان المنظر رائعا، فمن الجهة الغربية وتحت نور الصباح الدافئ، كانت تتراءى المساحات الحالمة للحسيمة، ومن جهة الشمال كان البحر، ومن الشرق كان جبل المورو الشامخ، أما من جهة الجنوب، وبالضبط في الوسط كانت هناك انوال متربعة على عرشها والظلام مازال يكتنفها، وفي الخلف كان إيزومار، وعلى اليمين كانت هناك تلال إيغريبن الصفراء والقاحلة، وفي المؤخرة كانت هناك جبال تيزي عزة الشاهقة بقممها العجيبة والحصينة، وبالقرب من الحسيمة كان هناك جبل آخر يدعى جبل القامة، وتظهر عليه حركة آدميين يتنقلون، إنهم الريفيون، لكن لا يبدو أنهم عدوانيون، كانوا يمعنون النظر في الإسبان وينتظرون. وحدث أن نصح القائد الحاج قدور الذي كان بصحبة بيار بعدم إنزال القوات بأبران. كان المكان موحشا، لكن بيار وبقوة عزم مهيبة أصدر تعليماته بالشروع في البناء والتحصين[82]. كانت المفاجأة الأولى بأبران هي انعدام الماء، والثانية ندرة الحجر والصخر ووفرة التراب، أما المفاجأة الثالثة فتمثلت في ،أن الأكياس التي ستُستعمل حواجز وقائية، كانت بالية ومثقوبة[83]، فبادر الجنود إلى وضع الأكياس فوق بعضها البعض إلى أن وصل طولها إلى متر ونصف. لم يكن الجندي الإسباني طويل القامة، ومع ذلك لم تق هذه الدروع سوى صدورهم، وفيما بعد جاء دور المدافع كذلك، فبجوار القطع الأربع من عيار 75 مليمتر، وضعت القذائف (ثلاثمائة وستون منها كان بمثابة ذخيرة للمدافع الرشاشة والقنابل الفتاكة)، ثم شيد السياج والأسلاك. كل العمليات كانت تجري سيئة كالعادة، ومما زاد الطين بلة هو وقوف صفين من الجنود على بعد ثلاثين متر من

الحاجز الواقي، فهذه المسافة كانت تعني إمكانية انقضاض الرجل الريفي المستعد لكل شيء عليهم في ظرف تسع ثوان من الركض، وهذه هي المدة الزمنية التي كان يملكها الإسبان للذود عن انفسهم في الهجوم الأخير، مدة تقتسمها العمليات التالية: تصويب الهدف، إطلاق النار بعد شحن السلاح وإفراغه، ثم معاودة ملئه لإفراغه للمرة الأخيرة. ثلاث طلقات إذن في تسع ثوان توجه لأشخاص محنكين.

كانت الجبهة الجنوبية لأبران والتي تطل على انوال، عبارة عن منحدر بارز تكسوه الغابات بأشجارها الكثيفة والباسقة، التي يصل طولها إلى متر. تأمل بيار هذا المنظر بكل ثقة وذكر لضباطه -اويلفا وسلافرانكا Huelva y Solafranca، والملازمون كامينو Camino فلوميستا إي رييس Flomesta y Reyes، وآلفريث فرنانذث Álferez Fernández- «إن هذه الجبهة تشكل في حد ذاتها حصنا منيعا»[84]. والواقع ان العدو اتخذ من هذه النقطة مرصدا لعملياته الهجومية ضد المعسكر.

قضى مورالس ليلته في انوال والقلق يضاجعه، شانه في ذلك شان اولئك الجنود الذين سيخوضون غمار القتال في ابران ضد كل تلك الأكياس المتعفّنة، هذا وقد شهد التينتي كولونيل روس Ros محادثة جرت «بين المقيم العام ومورالس»، حيث «كشفت عن أوجه الخلاف العميق بين وجهات النظر، فيما يخص نسبة نجاح هذه العملية العسكرية التي خرجت لتوها إلى حيز الوجود»[85].

سيلفستري وابران: جدال تاريخي. حسب بريطو Prieto الذي اكد الخبر وطريقة قطعية داخل البرلمان[86]، واستنادا إلى التقارير الرسمية التي نشرت في صحافة مليلية، وتارجحت تعليقاتها بين معارضين ومؤيدين، فثمة معلومات تفيد ان بيار اخذ المدافع إلى ابران وتركها هناك، وبعودته إلى انوال اخذ معه فرقتين من ذوي المدافع الرشاشة، فبقيت ابران مجردة من الأسلحة الأتوماتيكية. تالم سيلفستري لهذا الوضع، واعترف لمساعديه بمليلية بعجزه عن إيجاد حل لهذه الإشكالية، فتعقّدت الأمور، وذلك بسبب عدم تطبيق اوامره، لأن الطوابير اخذت طريقها للعودة[87]. نقطة اخرى تجلّت في اجتماع الريفيين وتطويقهم للجبل، كان عددهم كبيرا بالنسبة لعدو قليل بالرغم من مدفعيته، وحسب بريطو Prieto كان هدفهم «حسب الإشاعات الرائجة في مليلية»، إلقاء القبض على الجنرال صاحب الشارب، والذي «لم يخرج يوما من مركزه»[88].

كانت أشباح الآدميين التي تظهر من بعيد على جبل القامة، قد اجتمعت وكونت حَرَكة التمسمانيين، كان عددهم يفوق ألفي نفر، توزعوا على طول التلال. وانضم إليهم البنو ورياغليين، كانت المسافة التي تفصلهم عن الإسبان تتراوح ما بين تسعمائة وألف وستمائة متر، وهي مسافة لم تمنعهم من تصويب أسلحتهم، ومن النيل من البنادق العصرية.

كان كل من الإسبان والريفيين في حالة جس للنبض واستراق للسمع وإمعان للنظر، أما بيار وفي تحديه الكبير لصور التهديد الماثلة أمامه، فقد صدر عنه كلام فاحش وصل إلى أنوال، وفيما بعد أمر قواته بالرجوع إلى القاعدة العسكرية، فلم يبق داخل المعسكر سوى ثمانية وعشرين من أصحاب المدفعية ومائتين وخمسين رجلا، من بينهم مائتين من الأهليين. وإزاء هذا العرض الهائل للمقاومين، كان القلق سيد الموقف.

حدث آخر جاء ليلقي بظلاله السوداوية على هذه الأحداث، فمنذ شهرين كاملين لم يتقاض بعض أفراد الجنود النظاميين رواتبهم الشهرية[89]، ونفس الحال كان في صفوف الشرطة الأهلية التي خرج قائدها السيد **رامون أويلفا** Ramón Huelva، رئيس الفرقة الثالثة عشر المعروفة بأبران، «يحمل في حقيبته كل وثائق الفرقة، وفي محفظته كل ميزانيتها»، وحسب شهادة فورطيا Fortea كان الجنود «في حالة انتظار منذ الخامس عشر من يناير، وكانوا حفاة يلبسون ثيابا بالية»[90]، ولم يستطع أحد أن يشرح سبب خروج "أويلفا"في هذه الرحلة مع عدد كبير من الفرق الأمنية، حيث تدخلت في أبران الفرقة الخامسة والعاشرة والحادية عشر، في حين كانت في حوزته ميزانية فرق أخرى. كان "أويلفا" أول من لقي حتفه، على يد المقاومين الأصدقاء الذين قتلوه بطلقة نارية في رأسه، حيث تمرّدوا على القائد ونَحَوْه بمجرد خروجهم من أبران.

خرج بيار مع رجاله، ثم عاد أدراجه إلى أنوال، كانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع زوالا، وكان الطابور يُعرض على أعين الحَرْكة، كان السير يجري بسرعة تشبه الركض، وكانت رائحة الألغام والكمائن تفوح في الهواء، ولا سبيل إلى تفاديها سوى الابتعاد عن هذه الطريق والتسلل عبر الأشجار، كان الجيش مشتتا وقلقا، يقلب ناظريه هنا وهناك في كل الاتجاهات، وفي تلك اللحظة سُمع دوي اثنين من العيارات النارية «كل عيار اشتمل على خمسين طلقة»[91]، تُرى اتمكن الإسبان من الحَرْكة؟ لا، بل

بالعكس، إنه هجوم الريفيين ببنادقهم الرشاشة، وفيما بعد دوّى صوت البنادق عاليا؛ كان فلومستا Flomesta واتباعه يبذلون قصارى جهدهم ويفعلون ما بوسعهم للذود عن انفسهم، وسمع بيار كغيره دوي الطلقات النارية فاصابه الذهول، وامر الجيش بالتقدم إلى الأمام، تعثر الكثيرون في خطاهم، وبين الفينة والأخرى كانوا يرجعون ابصارهم إلى الخلف حيث ابران الذي عمت فيه أصداع المدفعية الجسورة.

كان على راس مدافع ابران السيد ديغو فلوميستا Diego Flomesta، الضابط الذي لم يشا ان يسهم في بناء مصلّى مليلية لفائدة الإكليروس، كان عمره يناهز الواحد والثلاثين سنة. كان هذا الرجل المرسي (من مرسية، وبالضبط من بوياس Bullas) الطويل القامة والشديد الاعتزاز بالنفس، محترفا كبيرا، وخبيرا جيدا في إدارة أسلحته. قاومت ابران ولمدة اربع ساعات، ولم تُقوّض المقاومة إلا بعد ان انقلب جنود الشرطة الأهلية ضد الضباط، وصوبوا بنادقهم نحوهم، فسقط صريعا كل من كامينو Camino، وفرنانديث إي رييس Fernández y Reyes واخيرا سالفرانكا Salafranca، فانتشرت المذابح في كل مكان، وفر الكثيرون، كما جُرح فلوميستا الذي تمكن رغم إصابته الخطيرة من إتلاف ثلاث قطع حربية كان يديرها بمهارة، اما الريفيون، فعوض ان يُجهزوا عليه نهائيا، فإنهم طلبوا منه إعادة إصلاح المدافع، والتمسوا منه ان يكشف لهم عن اسرار شحن تلك القطع وتصويبها نحو الهدف، وكذا كيفية إطلاق النار منها، وقبل أن يوافق فلوميستا على هذا الفعل الشنيع وافته المنية في 30 يوليوز، حيث مات جوعا خلال فترة اسره.

كانت كل الأجواء في انوال تنذر بالفاجعة، فمن ابران كانت تتصاعد اعمدة دخان كثيفة تسبب فيها الريفيون الذين احرقوا كل ما لا يلزمهم من معدات غير صالحة للاستعمال، وكذا جثث الأعداء، في حين عادت كتائب بيار ادراجها في موكب يحفه العار والخذلان. وعن هذا المشهد غاب سيلفستري الذي بعث ببرقية إلى برنكير قبل خروجه إلى مليلية جاء فيها: «لقد أخذنا ابران دون خسائر في الأرواح»[92]، وفي السادسة مساء، دخل سيلفستري إلى مليلية، بعد ساعتين تقريبا من تحول ابران إلى مقبرة لجنوده، فكانت بذلك وصمة عار سجلت في سجله المهني، وداخل الإقامة العامة استقبله واحد من ضباطه الذين يثق بهم، وهو الكولونيل رفائيل كابابلانكا غاريغو Rafael Capablanca Garrigó

والذي هناه ،بالنهاية السعيدة، للعملية التي اطلع عليها من برقية وصلت من انوال، لم يظهر الهدوء على محيا سيلفستري، وبعد ان انسحب للركون إلى الراحة، اوضح لكابابلانكا نقيض الأمر، والسبب كان يكمن في نفاذ المدافع الرشاشة[93]. وعند عودة كابابلانكا إلى مكتبه سلم له حارسه برقية موجزة وصلت من انوال، برفقة دافيلا، ففك رموز الرسالة التي تقول: ،لقد شُن هجوم على ابران، واستنفذت كل مفجرات القنابل،، وفيما بعد سلمت برقية اخرى لكلا الرئيسين جاء فيها: ،لقد وصل بعض المقاتلين والأهليين، [94]، كان دافيلا يحس بهول الموقف، فاستطرد قائلا: ،لقد التهموا الموقع،[95]. ومن انوال دائما، وصلت برقية ثالثة كشفت في عبارات ملتبسة ومقتضبة عن العجز والكارثة التي حلت في عبارة: ،إننا لا نرى شيئا، فقط قليلا من الدخان،[96].

دخلت الإقامة العامة بمليلية مرحلة عصيبة منذ حرب 1911-1912، فكل العيون كانت متوجهة إلى سيلفستري الذي كان يفتل شواربه الطويلة في عصبية لا تخفى على ضباطه، كان الجنرال متوترا، فطلب سيارة القيادة، واصدر اوامره بالخروج الفوري، باسرع ما يمكن إلى انوال، حيث كان الظلام يخيم على المكان، وعبثا حاول الكولونيلات والملازمون ان يقنعوا سيلفستري بالتنازل عن فكرته، لكنه خرج كلمح البصر، ووصل إلى الباطل وقد ارخى الليل سدوله. وهناك كان في انتظاره الصديق المخلص فرنانديث طماريت رفقة القائد **خوصي غارنيرو إي غالفيث** José Garnero y Gálvez، ودون ان يتمالك نفسه ارتمى سيلفستري في احضان التنينتي كولونيل قائلا وقد انحدرت العبرات من عينيه: ،لقد كنت محقا، فقد حدث ما توقعته انت، وإني اطلب منك الآن خدمة الذهاب إلى انوال رفقة ثلاثة من المتطوعين لتاخذ البطارية الخفيفة التي توجد بالدريوش،، وفيما بعد اكد في صرامة قائلا: ،ساذهب حالا بالسيارة إلى انوال، ولنرى هل سيقتلونني هناك، فهذا افضل بكثير، فقد ذهبت ضحية لأسباب خارجة عن إرادتي،[97].

حاول طماريت ان يهدئ من روع الجنرال، محاولا إقناعه بعدم الإقدام على ارتكاب حماقة كتلك التي ينوي فعلها، لكن سيلفستري لم يعره اهتماما وواصل اوامره بالزحف اماما، وفي الطريق، فتح العديد من المقاومين النار على السيارة التي كانت تسير نحو منحدرات إيزومار، فكان الرصاص يصيب هيكل السيارة دون ان يصل إلى الجنرال، قطعت العربة الميناء وتوغلت بعمق في حفرة انوال.

وفي نفس الليلة، قررّت نفس "الحركة" المنتشية بالانتصار على أبران مهاجمة سيدي ادريس، كان التمسمانيون والبنو ورياغليون قد اتحدوا وأصبحوا يدا واحدة، وكان عددهم كثيرا، لكنهم هذه المرة اصطدموا بزعيم قوي كانت له خبرة كبيرة في القتال، إنه القائد بنطيث Benítez، المالقي (من مالقة) العنيد، الذي لم يدع للريفيين فرصة تنفس الصعداء، فقاوم وانقذ سيدي ادريس، بفضل كتيبة محترفة من المشاة البحرية، المكونة من خمسة عشر رجلا، يراسهم ملازم الباخرة بيدرو بيريث غوثمان Pedro Pérez Guzmán، الذي صعد في حزم إلى الموقع، وعيّن هناك رجاله مزودين باثنين من المدافع الرشاشة، فاتخذوا مكانهم بجوار ثلاث مدرعات كان يديرها الملازم غلان Galan، واقبل الريفيون مثل عاصفة هوجاء، بقوة كسرت الأسلاك إلى أن وصلوا إلى ستة امتار من الحاجز[98]، لكن بيريث غوثمان ومساعديه كانوا هناك في انتظارهم، فقصفوهم عن قريب، فانسحب الريفيون ملطخين بالدماء، لدفن تسعة وعشرين من انصارهم، لكن أمارات الانهزام كانت لا تبدو عليهم. وفي اليوم الموالي، وبعد أن استرجع هدوءه، أخبر سيلفستري برنكر بمستجدات الأمور، فقرّر المقيم العام الذي تلقى في غضون اربع وعشرين ساعة نبأ «الاحتلال المظفر» لأبران ثم ضياعه المفجع، التحدث إلى سيلفستري، فلا أحد كان يُخبر بالكوارث.

الكارثة كانت عظيمة، والكل كان يغط في نوم عميق، فأحداث أبران لم تحرك مشاعر أحد، وظل سيلفستري وبرنكر والحكومة والملك في غفلتهم، فالكل اعتبر المصيبة بمثابة غيبوبة أو نكبة أو محنة استعمارية، وفي الجهة الأخرى كانت مدافع أبران سلعة يتجول بها داخل الأسواق الريفية، وكان الهدف هو إذكاء روح الحماسة في الجيش واستقطاب المتطوعين.

محادثات الجنرالات
على متن "الأسبونطانيو"

حينما اتفق برنكر وسيلفستري على إجراء المحادثات، كان الاتفاق هذه المرة على اللقاء في باخرة حربية لم تكن بـ"لايا" ولا بـ"الخيرالدا"، فهاتان البارجتان أصبحتا غير قادرتين على تحمل ضربات الموج الذي يضرب الشواطئ الريفية، فوقع الاختيار على باخرة *اميرة استورياس*. وضُرب موعد يوم الخامس من يونيو في سيدي ادريس.

كانت باخرة *اميرة استورياس* تشكل في حد ذاتها خلاصة العيوب التي ترتبط بالنظام الصناعي - العسكري الإسباني، كانت عبارة عن باخرة تصل حمولتها إلى سبعة آلاف طن، مثلت المشروع الشهير والفاشل لإعادة تسليح البحرية، والمعروف باسم «مشروع بيرانخير Beranger»، نسبة إلى خوصي ماريا بيرانخير José María Béranger، ورويث ابوداكا Ruiz Apodaca وزير البحرية برفقة ساغسطا Sagasta (وذلك في الفترة ما بين نونبر 1885 واكتوبر 1886)، حيث لم تتوحد الرؤى بين اصحاب المدفعية والبحرية. كانت حكاية إقلاع هذا المركب من قاعدة قادس المعروفة بلاكراكا La Carraca من الطرائف الكوميدية، ففي اليوم الثامن من اكتوبر 1896، تم الإعلان عن إقلاع السفينة، التي ما فتئت ان تقدمت قليلا ببعض امتار حتى رست من جديد في مكانها، أمام دهشة السلطات والعامة من الناس، وأعيدت المحاولة مرة ثانية، فزحفت السفينة عشرة امتار اخرى وبقيت عند حافة البحر. ومن فكاهة سكان اندلوسيا ان اطلقوا لقب "المتثاقل" علي هذا المركب، إذ بقي على ذلك الوضع غير المستقر لمدة ايام، والناس لا تكف عن النكت، والسلطة في حرج، وفجاة، وفي السابع عشر من اكتوبر، تحركت السفينة لوحدها واخذت نفسا عميقا، وامام دهشة العاملين «قفزت لوحدها»[99]، ووسط سخرية الجميع تغير اللقب إلى "الأسبونطانيو"، وهو ما يعني المركب التلقائي او العفوي.

وحول المحادثات التي دارت بين برنكير وسيلفستري توجد شهادات عديدة، اهمها تلك التي ساقها القائد **طوليو لوبيث رويث** Tulio López Ruiz، والكولونيل **كابابلانكا** في ملف محاكمة برنكر، حيث تبادل الجنرالان التحية في ترحاب معهود ومدروس، واعترف سيلفستري امام برنكر «بان الضربة كانت موجعة جدا، وانه لن يتقدم بخطوة واحدة، إذا لم تُعزز الصفوف العسكرية التي يعتبرها رديئة جدا»[100]، حيث عاود مطالبه القديمة والمتمثلة في إمداده بالمال لإصلاح الطرق، وتوفير الأسلحة والذخيرة، وتدريب جيش آخر تتكون وحداته من فرق دفاعية تنبثق من مجموعة النظاميين لمدينة الحسيمة. وبعد سماع برنكر لهذه الأسطوانة التي ملّ من الإصغاء إليها شهرا بعد شهر، أجاب سيلفستري بسخرية وتهكّم قائلا: «فيم الحاجة إلى فرق عسكرية اخرى، وفي منطقتك جيوش لا عمل لها سوى الراحة». لقد كان برنكر على حق، لكن ذلك كان في ابريل وليس في يونيو 1921.

تبادل الجنرالان عبارات اللوم والسخط، وبعد قليل، خيم صمت ثقيل تقطع حبله مجددا، حيث تطايرت الفاظ الاستنكار والعتاب، وتصدّعت بذلك صداقة الجنرالين وتفسختت، وذُعر قياد السفينة امام هذا المشهد المروع، وتدخل ربان الباخرة ،ليهدئ من روعهم وذلك حتى يبقى طاقم السفينة في منأى عن هذا الشجار[101]، وبعد كل هذا الصخب عاد برنكر إلى سبتة، كان بإمكانه النزول والمرور بالريف، لكنه لم يفعل، فقد كان غرضه التفاهم مع سيلفستري، غير انه لم يتفاهم معه، لأنه لم تكن لديه رغبة في تضييع الوقت لفهم الريف، إذ إن جبالة كانت هي المغناطيس الذي يجتَذِبُه ويستحوذ على كل تفكيره.

وصل سيلفستري وآثار اللقاء واضحة على قسمات وجهه، فالتف حوله مساعدوه في اهتمام كبير لمعرفة التفاصيل، فدنا منه كابابلانكا الذي كان يعرف انه محل ثقة قائده وساله في ود، ،ماذا هناك سيدي الجنرال، فاجابه سيلفستري، بامتعاض شديد، ،او تدري ماذا قال لي؟، فاسترسل بعد ان اطلق صيحة مدوية توجز فشل اللقاء في هذه العبارات، ،لقد ذكر لي انه ولمدة ثلاثة اشهر لم يستطع ان يمدني بما يلزمني من قوات، وانه سيكتفي بإرسال طابور **التيرثيو** Tercio وذخيرة فرق النظامين بسبتة، فلنقل إذن لعبد الكريم ان ينتظر، ،وهل سينتظرهم يا ترى؟،[102]. فقد سيلفستري صوابه، وانعكست على وجهه علامات الأسى القوي، كان صدره يهيج كلما تذكر الكتيبتين والذخيرة التي سيرسلها برنكر -حفنة من الرجال واربعة آليات مصفحة- في غضون ثلاثة اشهر. ولا غرابة في جواب سيلفستري على كابابلانكا، والذي جاء في شكل هجوم على المقيم العام قائلا، ،لقد افسد هذا السكير كل خططنا،[103].

كان سيلفستري يريد لنفسه القوات الأهلية، وبذلك يحرم خصومه منها. لقد لخص الصحافي روبيو فرنانديث Rubio Fernández هذه الاستراتيجية فقال، ،كان الجنديْ المورو يعني الشيء الكثير،[104].

وبعد مرور يومين، بعث التمسمانيون إلى أنوال بإعلان جاء فيه، ،إذا أردتم جثث الضحايا التي سقطت في ابران، فعليكم بتادية اربعة آلاف بسيطة للجثة الواحدة،[105]. فبادر أصدقاء سلافرنكا Salafranca باسترجاع اشلاء زميلهم الشجاع، كما استَرجعت جثة رئيس المدفعية السيد دانيال سغاطي Daniel Zarate، التي كانت مبتورة، واشار

برنكر في برقيته "لإيزا"، في السابع من يونيو على الساعة الثانية عشر إلا ربع، بعد أن احصى عدد الضحايا، إلى وصول جثمان سغاطي قائلا، «... وجثة اخرى يبدو انها للقائد سلافرانكا»[106].

سياسة "توافقية" وجيش في طريق الاعتداك

لم تكن إسبانية أبران تشير بأصبعها للتيار المحافظ الذي يمثله داتو، بل كانت ترمز لليبرالية المهمومة في شخص آيندي سلاسار Allende Salazar.

دخل ايندي سلاسار عالم السياسة بقناعات ثقافية وليس بدافع الطمع أو الرغبة في تحقيق طموحات معينة، في الأصل كان مهندسا زراعيا وكان استاذا كرسيا في مدرسة تخصصه، اما موطنه فكان غيرنيكا (فيسكايا)، وكان عضوا في الحزب المحافظ، ولأربع مرات وكلت إليه حقائب وزارية معينة، كان وزيرا للمالية سنة (1901)، وللإرشادات العامة (1902)، ووزيرا للفلاحة (1903)، واخيرا وزيرا للحكومة سنة (1907).

وبعد الانشقاقات في صفوف الحزب المحافظ الذي انفصل إلى شطرين بسبب قضية ماورا Maura، ظهر داتو، فاعلن ايندي سلاسار بعصبية وتطرف شديدين تبعيته لماورا. كان أيندي سلاسار رجلا طويل القامة، ضخم البنية، قليل الكلام بين الناس، لا يتحدث إلا مع الأصدقاء الذين يثق بهم، كان رجل سياسة متبصرا ومهذبا، وجديرا بالثقة، مؤمنا بقضية إفريقيا الألفونصية.

وفي صيف 1921 عوض ايندي سلاسار في حكومته الثانية، "داتو" الذي تعرض لهجوم في صبيحة، الخامس من مارس 1921، حيث استهدفت بعض الطلقات سيارته اثناء مرورها ببطء بمنعرج باب القلعة Puerta Alcalá، والحادث تعلق بمجموعة من المسلحين الفوضويين الذين فتحوا النار عليه -من مسدسات أوتوماتيكية من نوع ماوسر-، لكن هذه الطلقات الواحدة والعشرون لم تخترق فقط الجسد الصغير لداتو، بل توغلت كذلك داخل نظام الفونصو.

ورث ايندي سلاسار من داتو حكومة فاسدة، فالأزمات كانت عديدة، نذكر منها على سبيل المثال ثورات مطقة كاطلونيا، والاحتقانات الحقوقية التي كانت بين الجمعيات النقابية والمنظمات الحكومية، فضلا عن مشكل آخر ظهر ليزيد الطين بلة، وهو مشكل المغرب

الذي كان خطيرا ومخيفا للغاية؛ فالأزمة الأولى، جعلت سلفادور سيغي Salvador Seguí في مواجهة مع الجنرال سيفيريانو مارتينث انيدو Serveiano Martínez Anido، الذي كان ديكتاتورا لا حاكما على بلدة برشلونة بالمعنى الصحيح للكلمة، كانت إسبانيا مهد التجمعات السياسية المجهولة، وبداخلها كانت تحاك الدسائس والمؤامرات وتُطلق الرصاصات، فيقع الموتى على الأرض، بعد ان تترصدهم نيران البنادق إما من الأمام او من الخلف. لم تكن هناك قوانين سوى الأخذ بالثار. إسبانيا العُلوية، وإلى جانبها كانت هناك إسبانيا اخرى ساذجة وجاهلة بكل ما يدور في المغرب، وكانت هذه الأخيرة على وشك الموت بسبب الكمائن التي نصبت لها، فبقيت هناك تنزف دما.

حافظ ايندي سلاسار على نفس تركيبة الجيش التي كانت في الماضي، وحافظ إيزا على منصبه في الوزارة، وكذلك كان الحال مع برنكر وسيلفستري اللذين واصلا سيطرتهما على المغرب. وإلى حدود فصل الربيع كان الجنرالان على صداقتهما المعهودة، لكن مع حلول فصل الصيف نشبت العداوة بينهما، بسبب المحادثات التي جرت على متن باخرة أميرة أستورياس، التي وضعت حدا فاصلا بينهما. لكن ورغم ذلك، حافظ الزعيمان على الشكليات. كان جيش إفريقا ممزقا ومقسما على قيادتين، كل واحدة منها تخوض حربا مختلفة؛ فبرنكر كان ينوي القضاء على الريسوني، بينما سيلفستري لم يعد يرغب في تنحية عبد الكريم، كان كل ما يريده هو فترة استراحة، وتلك امنية لم تتحقق له أبدا.

كان برنكر يتقدم بجيوشه ليضع حدا لحرب جبالة، وفي المقابل كان سيلفستري حائرا لا يدري ما السبيل لمواصلة الحرب التي بدات في الريف، فلا عتاد لديه ولا رجال ولا خطط حربية. كان يعلم في قرارة نفسه أن برنكر لن يمده بالرجال والمدافع ولن يدفع له بسيطة واحدة إذا لم ينته هو من القضاء على الحركة الريسونية. فتلاشت كل احلامه ولم يبق له من خيار آخر سوى تحمل فصل الصيف الحار بالريف، اي الصمود حتى حلول الخريف، كما ذكر مورالس.

ومن نفس الباخرة التي اقالته إلى سبتة، بعث برنكر ببرقية موجزة إلى إيزا، كان الوقت زوالا وشمس الخامس من يونيو 1921 تستعد للرحيل، وقتها شرع المكلف

بالبرقيات بتلاوة الرسالة، «الساعة السابعة والنصف بسيدي ادريس على متن باخرة أميرة أستورياس». وتحدث برنكر بفم سيلفستري قائلا، «خلاصة القول، أن الأمور في مجملها معقدة»، وحسب القائد العام، فإنه يجب علينا اتخاذ الاحتياطات اللازمة والتصرف بحذر»، ثم استرسل برنكر في هذا التحليل المدهش قائلا، «من جهتي أنا، فلا شيء يدعو إلى القلق حتى الوقت الراهن»[107]، ولكي يعزز تفاؤله أرسل برنكر ببرقية اخرى إلى إيزا فور وصوله إلى تطوان في السادس من يونيو جاء فيها، «لا شيء في (الريف) يثير الرعب او القلق».

شيء واحد كان يؤرق برنكر، هو الخوف من الهزيمة في معركته مع الريسوني، واعترف بهذا الشعور في مذكراته حيث قال، «... لقد عدت إلى مخططي الأول الذي يقضي بترك هذا المشكل الجاد والمتمثل في (الريف)، حتى الانتهاء من السيطرة على الساحل»[108]، إنه جنرال حذق، لا يريد الخوض في حرب قبل الانتهاء من حرب اخرى، لكنه لم ينتبه إلى حقيقة ان حرب الريف هي سيف مشهر سينضم إلى جبالة فيطعنه هو والنظام معا.

وفي أنوال قام شاب يدعى إرنيسطو نوغيس باريرا Ernesto Nougués Barrera، وهو ملازم يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنة، بكتابة رسالة إلى أعمامه في الثاني عشر من يوليوز 1921، وذلك بعد مضي عشرة ايام على الكارثة، فتحدث عن الحالة النفسية لجيش سيلفستري، كما تطرق كذلك إلى طبيعة الترتيبات الحربية.

وقد ذكر في مستهل رسالته ما يلي، «لقد مررنا بأيام عصيبة جدا، اثرت كثيرا في معنوياتنا»، وفيما بعد انتقد الأحداث فاستطرد قائلا، «لقد حدث ما كان متوقعا، ولم يكترث أحد من قبل لنقاط ضعفنا، وحلت بنا محن، نظن اننا على صواب، وهذا امر مستحيل. خلاصة القول هنا، انه إذا لم يحفظنا الإله فإننا لن ننعم بإفريقيا ولو للحظة واحدة»[109]. وحدث أن تحققت نبوءة نوغيس الشجاع فيما يخص "إفريقيا" التي كانت تخوض الحرب حتى نهاية يوليوز 1927.

هوامش الفصل الرابع

1) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري" الدفتر 1.

2) بالاستناد إلى ملخص بيوغرافي وجيز عثر عليه في المصلحة التاريخية العسكرية. مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري" المجلد 1، وإشارات بيوغرافية اخرى حول نجل سيلفستري ظهرت في نشرة *أ-ب-سي* التي وزعت في إشبيلية، يوم الثلاثاء 28 مايو 1937.

3) سيلفستري تحدث عن "أربع سنوات كان المحصول فيها متوسطا أو منعدما" لكن هذا الفقر لم يكن جديدا، إذ إن جذوره تمتد إلى 1915.

4) المصلحة العسكرية التاريخية مجموعة "فرنانديث سيلفستري"، مجلد 11.

5) برنكر، خوان، الملازم الثاني (وفيما بعد مدير جريدة البوبولار بمليلية)، *الجيش هو الشعب. انتصاراتنا بميادين إفريقيا*، دار النشر، بوسطال إكسبريس. مليلية 1922. ص. 36.

6) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

7) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث "مقاطعة الثلاثاء. العلاقة بين مختلف المواقع، مسطرة من طرف الوزارة الحربية، 30 يونيو 1921".

8) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م.فرنانديث سيلفستري"، المجلد 10.

9) برنكر دامسو، *الحملات العسكرية في الريف وجبالة 1921-1922*، ملاحظات ووثائق جمعتها في منكرتي عن العمليات الحربية الموالية لفيلاسكو. مدريد 1923، ص. 262.

10) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م.فرنانيث سيلفستري"، المجلد 10.

11) الصفحة 15 من نشرة الأخبار الحكومية التي فتحت لتوضيح الملابسات والظروف التي تشابكت وتسببت في الانسحاب من المواقع التابعة للإقامة العامة بمليلية، وذلك في شهر يوليوز 1921. وأصبحت هذه النشرة وثيقة ثمينة للمطالبة بالمحاكمات داخل مجلس الشيوخ سنة 1922، وذلك بهدف مقاضاة الجنرال برنكر وستتطرق إليها فيما بعد في "محاكمة برنكر".

12) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م.فرنانديث سيلفستري" رسالة 26 يناير.

13) هذا الاحتياط كان لميغيل فينوفا وزير الدولة والدعم والمالية والبحرية في العديد من الحكومات الليبرالية. مذكرات الجلسات البرلمانية (منكرة الجلسات البرلمانية) الخميس 29 يونيو 1922، ص. 3141.

14) (مذكرة الجلسات البرلمانية) مداخلة إدواردو أوثيكا أيكاسيط، في جلسة الثلاثاء 8 نونبر 1921، ص. 4008. أما بالنسبة للمصاريف التي صرفت في منطقة ماوراء البحار فقد قدرها رومانونيس في 1.969 مليون (المصدر السابق نفسه. صفحة 126) علاوة على 260 مليون أخرى دفعت كرسوم إجباريا.

15) منكرة الجلسات البرلمانية، إدواردو أورتيكا إكاسيط في جلسة 8 نونبر 1921، ص. 4008.

16) رسالة إلى برنكر، بمليلية تحمل تاريخ 29 فبراير 1921. المصلحة التاريخية العسكرية مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.

17) غارسيا فيغيراس إي إرنانديث إريرا المصدر السابق نفسه، ص.307.

18) نشرت هذه الرسالة بكاملها في صحيفة *الصول* يوم الخميس 3 نونبر 1921.

19) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م. فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.
20) حسب عياش في (المصدر السابق نفسه، ص. 154) كان الشخص هو ابن البغدادي، وحسب بلانكو إزاغا كان بوشتى البغدادي (في نفس المصدر السابق، ص. 244).
21) ما يناهز 1500 من العلويين كانوا على متن باخرة حربية مغربية، نزلت بجوار مليلية، وعبروا منطقة الريف من الوسط، إلى أن وصلوا إلى الحسيمة، وبعد تلقي مساعدة بني ورياغل هاجموا أصحاب بقيوة، ذكر هذا "بيكر خيرونيمو" في *تاريخ المغرب*، المعهد الطويغرافي، لخيمي راطي. مدريد 1915، ص. 410.
22) رسالة من سيلفستري إلى برنكر، تحمل تاريخ 28 فبراير 1921 بمليلية، المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.
23) رسالة من برنكر إلى سيلفستري. بتاريخ، 21 يناير 1921 بتطوان. المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "م. فرنانديث سيلفستري"، المجلد 11.
24) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
25) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
26) تقارير الكولونيل مورالس نشرها إيزا، وتحدث عنها داخل مجلس النواب في جلسة الأربعاء 29 نونبر 1922. مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 4415.
27) فالي، بيير إي ديغفورك هنري Vally, Pierre y Durfoucq, Henri *تاريخ الحرب العالمية الأولى*، ترجمة أ. م ماينش مورول A. M. Mayench Murull. دار النشر كاروجيو. برشلونة 1972، الجزء الأول، ص.213 والجزء الثاني، ص. 6. انظر كذلك الأرشيف العسكري العام لشيقوبية. المجموعة 1، العدد ف-1.025.
28) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير عن شهادة غابريل مورالس، بعث بها إلى الجنرال بيكاسو، في غشت 1921، ص. 8.
29) أطروحة غارسيا فيغيراس وإرنانديث إريرا (ص. 309).
30) رسالة أعلن عنها داخل البرلمان من لدن إيزا. مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الأربعاء 29 نونبر 1922، ص. 4401.
31) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مغراس، ص. 8.
32) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 29 نونبر 1922، ص. 4402.
33) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
34) الأوامر العليا التي أصدرها برنكر، والتي صادق عليها "خوردانا وسوسا" الكولونيل، ورئيس هيئة أركان الحرب.
35) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 29 نونبر 1922، ص. 4402.
36) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مغرالس، ص. 8 و9.
37) برقيات متبادلة بين برنكر وسيلفستري (10-13 أبريل 1921) المصلحة التاريخية العسكرية، الإقامة العامة بمليلية. مجموعة 278.
38) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد ف-1025.
39) حادث رواه فيليبي كريسبو دي لارا، النائب البرلماني المحافظ في مداخلته أمام البرلمان في جلسة الخميس 6 يوليوز 1922، مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3460.

40) مداخلة كريسبو دي لارا في جلسة الأربعاء 28 يونيو 1922 مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3093.
41) مداخلة إيزا أمام البرلمان في جلسة الجمعة 21 اكتوبر 1921 مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3723.
42) هذا هو التاريخ الذي أعطاه الكونت رومانونيس بكل دقة بعد ان قاطع الدوق إيزا في الجلسة البرلمانية ليوم الأربعاء 29 نونبر 1922، فرد عليه الوزير انه يمتلك بيانا عن الاجتماع "يحمل تاريخ 13 يوليوز 1921" مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 4409.
43) مذكرة الجلسات البرلمانية، ص. 3831، مداخلة بريطو في جلسة الخميس 27 اكتوبر 1921.
44) المرجع نفسه، ص. 4404، مداخلة إيزا في البرلمان في جلسة الأربعاء 29 نونبر 1922.
45) البيان... (محاكمة برنكر)، ص. 12.
46) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الجمعة 24 نونبر 1922 الصفحات، 4316 /4325.
47) صحيفة *لا ليبرطاط* (الحرية)، نشرة 7 شتنبر 1922.
48) ريندا لوبيث، *فضيحة المليون بالعرائش. بيانات، سوابق ونتائج الفساد بالمغرب*، مطبعة إخوان ساينس. مدريد 1922، ص. 35.
49) المصدر نفسه، ص. 36-38.
50) *صحيفة الحرية*، 7 شتنبر 1922.
51) لوبيث ريندا، فضيحة...، ص. 95.
52) *صحيفة الصول*، نشرة الجمعة 8 شتنبر 1922.
53) لوبس ريندا، فضيحة...، ص. 70.
54) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. الملف ج.824.
55) الأرشيف العام للقصر الملكي، الخزانة، 5 /15.765.
56) المصلحة التاريخية العسكرية، مجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري"، المجلد 21.
57) وثائق مرتبطة بالتقارير التي انجزها الجنرال خوان بيكاسو حول مسؤوليات التدخل الإسباني في المغرب خلال يوليوز 1921. وهو ملخص مطبوع من نفس المرجع (الذي يتكون من 2.433 ورقة) ونشرته دور موراطا بمدريد، (حوالي سنة 1922)، ص. 55، وسوف نتطرق إلى هذا الملخص، انطلاقا من الآن، ونذكره باسم وثائق... (تقرير بيكاسو). ولا يعقل خلطه مع ما أسميناه (بالتصريح الموجز) للشهود، الذي اعتمد عليه بيكاسو والمعروف بالملحق، والذي تصفحه نواب البرلمان لاحقا وزمرة من الشخصيات الأخرى. وهكذا سنسمي (التصريح الموجز) الذي يشير إلى أوراق التقارير (تقارير بيكاسو الأصلية).
58) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 95.
59) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة فيليبي كريسبو دي لارا في جلسة الأربعاء 28 يونيو 1922، ص. 3074.
60) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 17 نونبر 1915، ص. 215.
61) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلات سراديل Sarradell في جلسات 7 و28 أبريل 1922. الصفحات، 734 و1032.
62) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 96.
63) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة النائب البرلماني مارتينيث دي كامبوس في جلسة الأربعاء 9 نونبر 1921. ص. 4055.

64) إيزا- فيكونت، *مسؤوليتي وزيرا للحرب في كارثة مليلية*، المصدر السابق نفسه، الصفحات 415-419.
65) المصدر نفسه، ص. 5 و6.
66) المصدر نفسه، ص. 9 و10.
67) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا (ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا) رسالة من التنينتي كولونيل فرنانديث طماريت إلى الجنرال سيلفستري، وقد جاءت في تسع صفحات مرقنة، تحتوي كل صفحة منها على 62 سطرا. هذا وقد قام التنينتي كولونيل المهندس خوصي غارسيا بنيتيث بإخراج أربع نسخ من هذه الرسالة. واحدة منها توجد في الأكاديمية العامة لثاراغوثا.
68) المصدر نفسه، ص. 2و3.
69) المصدر نفسه، ص. 5.
70) المصدر نفسه، ص. 1.
71) المصدر نفسه، ص. 5.
72) المصدر نفسه، ص. 6.
73) المصدر نفسه، ص. 7.
74) المصدر نفسه، ص. 9.
75) روبيو فرنانديث، إدواردو، *مليلية، على هامش الكارثة (ماي-غشت لسنة 1921)* دار النشر- سيرفانطس. برشلونة 1921. ص. 30.
76) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (التصريح الموجز) للتنينتي كولونيل ريكاردو فرنانديث طماريت (5 اكتوبر 1921) على الورقة 1.197 التي تنتسب إلى (تقارير بيكاسو الأصلية).
77) نفس المصدر، (التصريح الموجز) للقبطان خوان غارسيا مارغايو (5 اكتوبر 1921) على الورقة 1.210 المنتسبة (لتقارير بيكاسو الأصلية).
78) المصدر نفسه، ت. م (التصريح الموجز) التنينتي كولونيل فيدل دافيلا اروندو (11 اكتوبر 1921) المكتوب على الورقة 1284 المنتسبة لـ ت.ب.ا (تقارير بيكاسو الأصلية).
79) وثائق... (تقارير بيكاسو) ص. 411.
80) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مورالس، ص. 10.
81) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتلينتي كولونيل مانويل رويث سانتيث (17 اكتوبر 1921) المكتوب على الورقة 1.367 التي يتضمنها ت-ب-ا (تقارير بيكاسو الأصلية).
82) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 98.
83) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتلينتي كولونيل مانويل رويث سانتيث.
84) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 97.
85) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتلينتي كولونيل مانويل رويث سانتيث.
86) مذكرات الجلسات البرلمانية (مذكرة الجلسات البرلمانية) جلسة 27 اكتوبر 1921، ص. 3820.
87) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.
88) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27 اكتوبر 1921، ص. 3820.

89) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 8 نونبر 1921، ص. 4002.

90) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 71.

91) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا (ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا)، المجموعة 9/442. هذا الحادث ظهر في البرقية رقم 6.949 والتي ذيلت بعبارة "برقية مستعجلة، شخصية وسرية"، كان برنكر يعاود إرسالها لإيزا من تطوان على الساعة الحادية عشر وخمسة وثلاثين دقيقة، يوم 3 يونيو 1921، وتزامنت هذه الرسالة مع الرسالة التي بعث بها سيلفستري إلى برنكر يوم 29 مايو يحدثه فيها عن "مدفعين رشاشين".

92) عرض النائب البرلماني (الإقليمي) فرانثيسكو باسطوس انسارط في جلسة 25 اكتوبر 1921 (مذكرة الجلسات البرلمانية)، ص. 3764.

93) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.

94) اثناء تلك المحادثة التلغرافية التي جرت بين الكومندان غلارسا Galarsa، رئيس المصلحة ببوينابيستا Bue-navista والجنرال نفارو تم الحديث عن "الفارين من العدالة، وكان من بينهم 72 جريحا ومصابا بكسور، 25 منهم كانوا اوربيين، لكن 3 منهم فقط كانوا في حالة خطرة، ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا المجموعة 9/442.

95) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.

96) عرض النائب البرلماني باسطوس في جلسة امام البرلمان يوم الثلاثاء 25 اكتوبر 1921 (مذكرة الجلسات البرلمانية)، ص. 3764.

97) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 4.

98) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، برقية "شخصية وسرية" رقم 6.979 من برنكر إلى إيزا، يوم 04 يونيو 1921 على الساعة الرابعة مساء.

99) رودريكز غونثالس، اغوستين رامون، *السياسة البحرية لإعادة النظام السابق (1875-1898)* سان مارتين. مدريد 1988، ص. 290.

100) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 14.

101) عرض النائب البرلماني خوليان بسطيرو في جلسة الخميس 3 نونبر 1921 (مذكرة الجلسات البرلمانية)، ص. 3940.

102) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 10.

103) اسبيطيا، انطونيو، *البذرة الخبيثة*، المطبعة الكلاسيكية الإسبانية، مدريد، 1921، ص. 84.

104) ريبو فرنانذث، *مليلية، على هامش الكارثة* (مايو-غشت 1921) المصدر السابق نفسه. الصفحات 40-41.

105) نفس المصدر. ص. 47.

106) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 552.

107) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442 البرقية رقم 1054.

108) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 42.

109) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 596.

◆ ◆ ◆

الفصل الخامس:
جنرال النزول الثاني

جيش في رخصة، وكولونيل يصر على البقاء

بعد مضي ثمانية واربعين ساعة على ضياع ابران، اتخذ سيلفستري مجموعة من التدابير تلخصت في إقامة معسكر بمنطقة تاليلت Talilit في منتصف الطريق بين سيدي "ادريس" و"افراو"، وأمّن بوجماجن، وهو جبل ومركز امامي. وكرر نفس العملية في ثلاث نقاط مهمة معبأ مؤخرة الجيش، فكانت المجموعة "أ" (امام ابن طيب)، في حين المجموعة "ب" و"ت" امام ممر إيزومار.

وفي السابع من يونيو، انهى سيلفستري تجهيزاته بعملية جريئة جديدة تلخصت في الإجهاز على إيغريبن، تلك الربوة الصفراء التي كانت تظهر من أبران، وتثير الخوف من قريب. أما مورد الماء فكان يبعد باربع كيلومترات ونصف، وهكذا كان الارتواء من المنبع مشقة يومية، وبالتالي كان يعوّل على انوال التي كانت بدورها تعول على إيغريبن. تمت التضحية بجيش مقابل كتلة صخرية، وبمحاذاة إيغريبن كانت هناك ربوة تشبه في شكلها شكل النقانق، اتخذها الجيش مكانا للاختباء فيه، وقد تاتى لهم ذلك، نظرا لاستحالة السطو على ربوة الأشجار المعروفة بـ"لوما دي لوس اربوليس".

وحسب ما لاحظ الطبيب الملازم "باثكيث بيرنابيو"[1]، فإن بوجماجن -التي صورها ملطخة بالدماء في خندق يقع على بعد مائة متر تقريا - كانت في واقع الأمر موقعا دفاعيا افضل بكثير من أنوال. لكن سيلفستري رفض الفكرة بعد دراسته لإمكانية التغيير.

وفي تلك الأيام، منح سيلفستري لعساكر التجنيد الإجباري لعام 1918 رخصة ،غير محدودة، فضلا عن "ترخيص مؤقت" مُنح لهم ما بين سنتي 1918-1919، وفجاة خسر سيلفستري ثلاثة آلاف رجل من جنوده المحنكين، الذين تم تعويضهم بجنود 1920، جنود لم يتلقوا اي تدريبات، ويخافون من "المورو" خوفا كبيرا[2].

كرر سيلفستري طلبه مجددا بإمداده بقوات النظاميين من الحسيمة، وهو طلب لقي جواب الرفض مرة اخرى، وكذلك إمداده باسلحة اوتوماتيكية، وقام إيزا بإرسال تجهيزات عدة لا تسد الحاجة ولا تفي بالغرض، إذ بعث بعشرين بندقية رشاشة من نوع "كولت" كانت سيئة للغاية، ذلك ان الحاجة كانت ماسة إلى مائة بندقية اخرى، والحال ان إسبانيا كانت تمتلك بنادق ذات جودة عالية مثل (الماكسيم 08)، وهي آلات المانية الصنع تم استعمالها في الكاميرون، واودعها الجيش الإسباني في مخازن الأسلحة سنة 1914 بعد هزيمته النكراء.

كان برنكر على علم بوجود هذه الأسلحة، إذ تكلم عنها مع لاثيريا، اما سيلفستري فلم يكن على علم بشيء عن هذه الآليات، وكذلك الحال مع إيزا الذي لم تكن لديه اي معلومات عن الأمر.

استمر مورالس في مساعيه السلمية وتحركاته المناهضة للعنف، فقام باستدعاء مجموعة من الأعيان إلى اجتماع سري عقد بدوار بوجماجن، حضره إحدى عشر رجلا، ثلاثة من الإسبان وهم: **مورالس** ومساعديه، الملازم **ثيفانطوس** Civantos، والقبطان **غارسيا مارغايو** García Margallo، وثمانية من الريفيين وهم: **سي عمار المحمدي**، و**سي دادي المحمدي** من قبيلة بني ورياغل، و**عمار الصديق**، و**محند الصادق**، و**بوزين ادريس** من قبيلة احديفة، و**سي عبد الله الحاج** من قبيلة بني عبد الله، و**الفقيه العربي** من بني يطف، وثامنهم كان مجهول الهوية (سي دادي...؟) من تفْسنا (بقيوة).

كان هدف مورالس يتلخص في تكوين حزب إسباني، نعم كان الحزب هو بيت القصيد. ولتحقيق هذا الهدف، سلم مائة دينار لكل واحد من الحاضرين للبدء في المهام المنوطة بهم[3]، لم يكن هدف هذه التحركات القضاء على قبيلة عبد الكريم، بل كان السعي واضحا لوضع حد لمجازفات وتهورات بيار، كان مورالس يستشعر الخطر.

تحدث محمد عبد الكريم بنفسه عن هذه التفاصيل في رسالته التي كتبها في السادس والعشرين من يونيو 1921، والتي جاء فيها ما يلي: «لقد وقع ما حدث في أبران وفي كل أرجاء تمسمان، لكن الذنب ليس ذنبنا، فنحن دائما كنا على اتصال بمورالس، وقبل انتهاء المدة الزمنية للاتفاقيات، انطلقت العمليات المفاجئة التي أصفها بالخيانة. وفيما بعد تحدث عن ضرورة التوصل إلى حل سريع للحد من إراقة الدماء، وأشار بشكل ضمني إلى مشاركته في الثورة المسلحة. وفي الختام، تساءل في حذر ورمزية قائلا: «لماذا لا نلجأ إلى الطريق[4]، طريق السلم، طريق مورالس؟

لم يسفر اللقاء الإسباني-الريفي عن نتائج تذكر، لأنه في الحادي عشر من يوليوز، بعث سيلفستري ببرقية إلى برنكر يخبره فيها بموعد مقابلة جديدة ستجري غدا الثلاثاء، لكن الأخبار والتقارير انقطعت.

كان دافيلا مريضا، فطلب رخصة ورحل عن المكان[5]، وبعد انتهائه من جمع لوازمه خطب قائلا: غابريل؟ أنا ذاهب، إنني مريض، ولديّ أربعة أطفال. فأجابه رئيس الشرطة الأهلية قائلا: وأنا كذلك يا فيدل Fidel، لكنني سأظل هنا[6].

ربوة ضائعة وسط اشتباكات دامية

في التاسع من يوليوز 1921، وبالضبط من موقع بوجماجن، استطاع باثكيث بيرنابيو Vázquez Bernabeu استشعار هول الخطر المخيم على إيغريبن، فالريفيون بنوا جدرانا عليها ثُقب يصوب من خلالها السلاح، ومدّوا الحواجز مستعملين أكياسا رملية وضعت على طول مسافة الخط الواقع عند تلة الأشجار "لا لوما دي لوس آربوليس". كل هذه التحصينات كانت مخبأة خلف أكوام التبن[7]، ومن حجر الحسيمة، لاحظ رئيس الفرقة العسكرية الملازم كولونيل ثيفانطوس اشتعال نيران تدفع حَرَكة جبل المصور[8] إلى إعطاء إشارة الانطلاقة لقبائل المنطقة.

وفي السابع عشر من يوليوز كان الهجوم الأول على إيغريبن، أسفر عن انتصار الريفيين بعد أن تمكنوا من إحباط محاولات أبناء جلدتهم في الشرطة الأهلية. وبحلول الليل، تم تقييم حجم الخسائر التي وصلت إلى سبعة عشر قتيلا وثلاثة وخمسين جريحا، لكن سيلفستري أبلغ برنكر في تقريره، بأن الخسائر البشرية وصلت إلى

الخمسين ولم يذكر له شيء عن الهدف من ذلك الصراع عند "لا لوما دي لوس آربوليس" (ربوة الأشجار) سنة 1923، وفيما بعد اشتكى برنكر من التستر على هذا الخطر وتساءل: «لماذا لم يذكروا لي انه وبعد هجومات عديدة لم تتمكن القوات من الوصول إلى هدفها، وان الأمر انتهى بها إلى الفرار»[9].

طلب سيلفستري من برنكر الإذن للقيام بهجوم مضاد، مع إعطاء ضمانات كاملة بالانتصار[10]، وبعد معاينة دقيقة اجاب برنكر: «... هذا لا يعني انك يجب أن تبقى مكتوف الأيدي، بل بالعكس فانا اعتقد انه عليك ان تستغل كل الفرص المتاحة لك للهجوم»[11]. لقد كان ذلك الرد بمثابة موافقة.

اما في انوال، فقد كانت ازمة الذخيرة الحربية قد بلغت ذروتها، ففي الثامن عشر من يوليوز وعلى الساعة الواحدة إلا ربع سمح الكولونيل خواكين ارغويس دي دلوس ريوس Juaquín Argüelles de Los Ríos رئيس المدفعية ورئيس المنطقة العسكرية، بإرسال البرقية التالية لسيلفستري: «لم يبق لدينا سوى مائة وثمانية وثمانين قذيفة يدوية واثنتي عشرة مفرقعة وست عشرة علبة ذخيرة للرشاشات، وثلاثمائة وخمسين قذيفة هاون، ومائتين وواحد وثمانين الف رصاصة للبنادق». وبعد ذلك باثنتي عشرة ساعة، لم تبق هناك ولو قذيفة واحدة. هذا ما اكده قائد آخر كتب البرقية التالية: «18 /7/ 1921. الثانية عشر وخمسة واربعون دقيقة. الرمز: ب: ليس لدينا ذخيرة للمدافع في الجبل. العدو يهاجم بوجماجن من جهة "الزاوية" وربوة "تيسنغارت"، لا نستطيع إمدادكم بذخيرة المدافع. انطونيو فالكارثيل Antonio Valcárcel. تم تشفير رموز الرسالة وفيما بعد مزقت النسخة الأصلية»[12].

ملازم شجاع لم يكن ببطل نظامي

كان يجب مساعدة إيغريبن مهما كلف الأمر، وهو ما حاولت فعله قافلة محملة بالمساعدات الإنسانية، يديرها الكومندان خوان روميرو لوبيث Juan Romero López، الذي اصيب بجراح قاتلة من جراء رصاصة اطلقها احد المقاومين. كانت القافلة تسير قُدما تحرسها فرقة من الجنود النظاميين برئاسة القائد **ثيبوينو بون ليندسمان**

Cebollino Von Lindesman، وفي وسط القافلة كانت هناك فصائل عسكرية مكونة من سبعة عشر من المدفعيين بقيادة السرقسطي **نوغيس باريرا** Nougués Barrera.

كانت البغال -وعددها سبعة وستون- تحمل المؤن ومساعدات اخرى وزعت على الشكل التالي، عشرة دواب محملة بالماء، واثنتا عشر بالطعام، وإحدى وأربعون دابة محملة بالذخيرة الحربية وأربعة حاملات (لنقل الجرحى)، أما الذخيرة فكانت عبارة عن ثلاثمائة وستة وثلاثين مفرقعة من عيار 75، وستة وثلاثين قذيفة، ومائة وستة وسبعين قنبلة، ورشاشات مدفعية وعشرة صناديق من الخراطيش.

طاردت الطلقات النارية والصيحات الريفية قافلة ليندمان فتفرقت الجموع. وما هي إلا دقائق حتى استأنف رجال المقاومة إطلاق النار من مخابئهم، فسقط الرجال والدواب. كان رجال الحركة يحكمون هذه المرة تصويب بنادقهم، فكانت النتيجة تشتيت صفوف القافلة، أما البغالون فاستمروا في وكز دوابهم تارة بالصياح وتارة بالسياط، أما الجنود فقد التفوا حول بعضهم البعض وفتحوا النار.

وعند الصعود إلى إيغريبن، سقط نوغيس من أعلى صهوة جواده الذي سقط بدوره ميتا. وبالرغم من ذلك لم تفتر عزيمته وهمته، فوقف من جديد وتقدم بجنوده والمسدس بيده مصرا على وصول القافلة إلى مصيرها بعد مشقة وجهد في الطريق(13). وبعد مقتل العديد من البغال، تدحرجت العديد من الحمولات على سفح الجبل. لكن رد فعل نوغيس ورجاله كان هو الإصرار على شحن المدفعية، فشمرت سواعد الجيش لأجل ذلك الغرض. ومن فرقته المكونة من سبعة عشر رجلا، أصيب ثمانية منهم بجراح خطيرة، وهو ما معناه 50٪ من حجم الخسائر البشرية، الشيء الذي كان يحتم منح وسام سان فرناندو، لكن نوغيس الذي مكث بإيغريبن رفقة سبعة من الجرحى -وصل واحد منهم رغم جراحه الخطيرة إلى انوال، لم يُوشّح احد صدره باي وسام. تلك امور لها علاقة بالنظام.

ارخى الليل سدوله وبدات "الحركة" تشن هجومها. كانت إيغريبن تفتقر إلى التحصينات، فحاجر الأكياس الرملية نُصب على بعد عشرة امتار من الخيام، ورغم ذلك صمدت بقوة. وخلال الاشتباك وصل الريفيون إلى السياج، فتم صدهم بقنابل يدوية ووابل من الرشاشات وكذلك برؤوس البنادق المسنّنة. كان "نوغيس" يمد يد

المساعدة إلى رجال المدفعية، ويطلق النار من المدفع المبرمج على درجة الصفر التي تعادل مائة متر وذلك لقرب المهاجمين. ومن المرتفعات المجاورة بدأ الريفيون بإطلاق النار على البغال، وشرعت الدواب الجريحة بالركل والرفس مذعورة، فاصطدمت بالسياج وحطمته. ومع طلوع الفجر، لم يبق منها إلا القليل واجتمعت على جثثها الحشرات، كانت الدواب تئن من الألم بسبب إصابتها في القوائم أو في العين، فاضطر الجنود للإجهاز عليها. وما إن حلت الظهيرة بحرارتها اللاذعة التي وصلت إلى خمسة وخمسين درجة، حتى فاحت جثث الحيوانات الميتة والمنتفخة، وتحلّلت بسبب الحر الشديد إلى أكوام من اللحم والروث، فانبعثت منها روائح كريهة جعلت المدافعين (الإسبان) يتقيؤون. لكن الأدهى من ذلك هو أن هذه الجثث شكلت درجا متعفنا في المدخل كان بإمكان الريفيين استعماله للصعود.

وفي السابع من يوليوز 1923، قيل بشأن نوغيس: انه وبالرغم من أن تصرفه كان عملا بطوليا، إلا انه وحسب المادة السادسة من البند التاسع والأربعين من القانون المنظم والمُوَقّع (بتوقيع غير مقروء)، فإن الموقف المشار إليه يعتبر رد فعل عادي يتعلق بضرورة حماية حمولة القافلة أكثر من سائقيها. ودقق نفس المدعي العام في كلامه بقوله، وحتى إن كان هذا القانون ساري المفعول، فيجب التأكد من سلامة أسلحة وذخائر كل من لقي حتفه، وهذا ما لم يجري التحقيق فيه[14]. ضاعت الأسلحة بالطبع، فكيف بالذخائر أن لا تضيع، ولم ينج أحد من الضباط، فقد قتلوا برمتهم، ماعدا واحدا منهم رفقة ضباطه، هذا هو النظام.

إيغريبن: "حضيرة" الرجال الشجعان

يوم الثامن عشر من يوليوز، كانت نيران المدفعية تهزّ المنطقة بشكل عنيف، وقام المهندسون بسرعة فائقة بإقامة حاجز قطع على الحركة طريق إيزومار[15]. كانت مسألة الحفاظ على إيزومار "راس انوال الشامخ" بالنسبة لآلاف الرجال مسألة حياة أو موت. بيد أن المرتفعات الاستراتيجية بقيت كالعادة تحت مسؤولية وحراسة مائة أربعة وأربعين من المشاة، بالإضافة إلى واحد وعشرين رجلا من المدفعية، وأربع آليات من عيار 75 مليمتر[16]. كل ذلك اعتبر دفاعا كافيا، لكن إيزومار كانت تفتقر إلى الشجعان.

جُهزت قافلة اخرى لمساعدة الرجال المحاصرين في الجبال، وكانت القيادة هذه المرة للقائد السابق لسيدي ادريس الكومندان **خوليو بنيتيث بنيتيث** Julio Benítez Benítez الذي كان عمره يناهز ثالثة وثلاثين سنة. كان ضابطا متيقظا، وهادئ الطبع، إلا أن نظّاراته المستديرة وحاجبيه المقطبين دائما وروحه المتشائمة كانت تضفي عليه هيئة الانهزامي. ومع ذلك لم يكف عن حث رجاله المتواجدين في ايغريبن (بؤرة التوتر الشديد والفوران الدائم الذي أطلق عليه خوليو هذا اسم "الحضيرة الصغيرة") على الصمود لأجل هدف سام وشبه مستحيل، تمثل في صيانة هيبة وكرامة الجيش.

وفيما يخص المساعدات الجوية، فكانت البداية مع طائرة واحدة، انضمت إليها فيما بعد طائرات اخرى كانت تقذف بقنابل ضعيفة لا تخيف سكان الريف. وكان اهالي إيغريبن يتتبعون بأعينهم ابتعاد هذه الطائرات في اتجاه مليلية، وهي تحلّق في أجواء الظهيرة الساخنة. وبعد ان علم بهول المأساة التي حلت، عاد نفارو الذي كان وقتها بإسبانيا.

كان الأربعاء تاسع عشر من يوليوز، يوما آخر من القصف الشديد، والحر الخانق، والطلقات النارية المكثفة، وقتها خرجت قافلة اخرى في اتجاه إيغريبن يقودها نونييث دي برادو Nuñez de Prado برفقة ستة من فرق المشاة، وفيلقين من النظاميين، وآليات حربية خاصة بالجبال. كان المجموع يقدر بنحو الف رجل وأربعة مدافع، كما أن القافلة كانت مزودة باثنتي عشرة حمولة من المؤن تكفي لثلاثة ايام، وثلاثة وخمسين برميل ماء تم إفراغه في حاويات المعسكر للتزود من جديد من اي عين قريبة إذا أمكن ذلك، بالإضافة إلى شحنة من القذائف لكل من اوردونيا ونوغيس Orduña y Nougués، ومائة قنبلة يدوية وعشرة صناديق من البنادق وثمانية براميل من البترول لحرق قطيع الماشية الميت[17].

كان رجال المقاومة يقطعون الطريق، كالعادة، كانت طلقاتهم دقيقة تصيب هدفها، أصيب التنينتي كولونيل نونييث بجراح في ساعده، ومع ذلك تحمل الموقف. كان رجاله يختبئون وراء كتل صخرية ملتهبة بفعل حرارة الشمس، وبمرور الساعات، امتطى ثيبويينو Cebollino صهوة جواده واتجه نحو انوال، تحت وابل الطلقات النارية. كان هدفه هو تنبيه **ارغوييث** Argüelles بأن الزحف نحو الأمام أمر مستحيل، لكنه عاد خالي الوفاض سوى من أمر يجبرهم على الصمود في نفس المكان. وفيما بعد، أرسل نونييث دي برادو واحدا

من مساعديه، وهو القائد ثابينو Zappino الذي شق طريقه بدوره تحت وابل من رصاص العدو، فلم يتغير جواب أرغوييث، بل بقي هو نفسه، مواصلة المقاومة. بعدها حاول كارلوس ثابينو العودة لكنه لم يصل، إذ اصابته رصاصة فاردته قتيلا.

توقف القبطان للحظة، فراعه هول ما راى من انعدام النظام والانضباط وانعدام الشجاعة عند الجنود. وحينما اشتكى الضابط برودة الجيش، اقسم على إيصال القافلة او يهلك دون ذلك، فقُتل برصاص العدو[18]. وفيما بعد نشر نعي وفاته في يومية أ-بي-سي في عددها الصادر يوم الجمعة الثاني والعشرين من يوليوز، جاء فيه أن الهالك قُتل في التاسع عشر من يوليوز بارض انوال دفاعا وخدمة للوطن. كان أول وآخر قتيل اهتمت به الصحافة ووسائل الإعلام في كارثة جيش سيلفستري، فتذكرته الجماهير دائما في مدريد. فيما بعد سقط المئات بل الآلاف، ولكن دون ان يُنْشر نعيهم، فتالمت كل إسبانيا من أجلهم. كانت الساعة تشير إلى الثانية زوالا حينما وصل إلى انوال الكولونيل مانيلا، وهو على أتم الاستعداد لتعويض أرغيوس. وبفرح تشوبه الحيرة قبل هذا الأخير هذا التناوب، وصل قائد حقيقي بمعنى الكلمة. وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الضباط طالبوا بهذا التعويض، فاعتز الكولونيل مانيلا كثيرا بهذه الثقة، والدليل فيما ذكره لزوجته السيدة ماريا دو كسني María du Quesne في آخر رسالة كتبها لها في الثامن عشر من يوليوز، والتي قراتها بنفسها بعد انهيار معنويات مدريد وبعد معرفتها بكارثة إفريقيا، إذ اعتبر زوجها في عداد "المفقودين"، وقد ظل هذا الاعتقاد قائما لمدة سبعة وستين سنة إلى ان كشف الحقيقة مجموعة من الأسرى، كانوا تحت إمرة نائب، وكومندان مليلية، وكبير الشرطة بتطوان، ووزير الدفاع بمدريد، فذكروا أن مانيلا قتل، وبعد التعرف على جثمانه دفن بمكان قريب جدا من انوال.

قائد تم نسيانه وطلب "عاجل جدا"

كان فرانثيسكو خفيير مانيلا كوراليس Francisco Javier Manella Corrales رجل حرب بمعنى الكلمة، كانت له دراية واسعة بالقتال، فهو الذي خاض الحرب في كوبا وإفريقيا، وفي كليهما اثبت براعته بامتياز. كان هذا الشخص المنحدر من مدينة قادس، والذي يبلغ من العمر واحد وخمسين سنة، صاحب بنية قوية رغم نحافته،

ومظهر حسن، كما كان كذلك من اكثر رجال سيلفستري وفاء، فقد خدمه طويلا. وبالرغم من انه لم يَحضر ساعة وفاته، لأن مانيلا لقي حتفه في ساحة المعركة، فإنه على الأقل شارك في بناء أسطورته. كان بحق رجل فروسية، مثله في ذلك مثل مانيرا فالديس Manera Valdés، الذي كان يبلغ من العمر تسعة وأربعين سنة، وكان مساعدا لسيلفستري، وكوبي المنشأ مثله[19].

منذ الواحد والعشرين من مايو، كان مانيلا بمليلية يخرج في دوريات جديدة، وبوصوله إلى المكان وجد الوحدات التي كانت تحت إمرته سابقا، والمعروفة بفرقة الخيالة الرابعة عشر الكانطرا، موزعة على مناطق الريف بشكل عشوائي جدا، ذلك ان الكتائب وفصائل الجيش كانت منتشرة على طول خط يصل إلى مائة وعشرين كيلومتر[20]، وبالإضافة إلى هذا الشتات كان هناك العبث والبطء والخمول وفقدان الإرادة، فجاء مانيلا فأعاد نظام وترتيب الصفوف، واحيى الرغبة في الجيش وذكر في الثالث عشر من يونيو، كانت الفرق العسكرية قد تعودت على الخمول والكسل، وها هي الآن تتحرك بسرعة كبيرة.

ورغم الحذر الكبير الذي كان يلف رسائل قائد الكانطرا، فإنها نادرا ما كانت تخلو من عبارات معينة كان يبعثها لزوجته مثل: "سري" أو "خاص" أو "لا تخبري احدا بالأمر". وقد قال عن الضابط الذي عوضه دون أن يذكر اسمه: «حسب ما سمعت، وهذا شيء أعرفه انا تماما، فالكولونيل السابق كان رجل إدارة أكثر من رجل حرب او قائد فرقة حربية»[21].

وفي الرابع عشر من يونيو، توجه مانيلا إلى انوال ليباشر مهامه الأولى بصفته رئيسا لتلك المنطقة، وذكر لزوجته ما لقيه من عناية من عائلة سيلفستري التي قال عنها: «إنها عائلة حنونة جدا، ودائما يدعونني للطعام في منزلهم»، وختم حديثه بقوله: «وكما تعلمين جيدا فانا لست اجتماعيا بطبعي»[22]. وتمر خمسة ايام ويكتب من جديد لعزيزته ماريا (وهي العبارة التي يستهل بها دائما رسائله) من انوال قائلا: «انا هنا على رأس جيش لن أعود أبدا لقيادته ولو صرت جنرالا». فقد انصبت انتقاداته على «هذه المنطقة التي ينتظر فيها رجال سيلفستري ساعة الموت. ويضيف هامسا: «أكتب لك هذا لتقرئيه إلى بولي Poli (نجله فرانثيسكو دي أسيس، اثنا عشر سنة، والذي سيصبح لاحقا جنرالا)، واخبريه أن لدي عشرين مدفعا وستين بندقية رشاشة». وفيما بعد تحدث مانيلا عن الضباط الشباب المتواجدين بانوال، حيث يوجد فتيان بارزون من

بينهم ابناء سيلفستري ونفارو وشباب آخرون ينتمون إلى عائلات معروفة قائلا في شانهم، «عليهم ان يكونوا المثل الأعلى للآخرين».

وقبيل وفاته بأسبوع واحد، وفي حديثه عن نيران الحرب التي اندلعت وتأجّجت بإيغريبن انطلاقا من سيدي ادريس، تحدث إلى زوجته قائلا، «انظري إلى هؤلاء الفتيان، شباب في العقد الثاني من عمرهم يسقطون في ساحة المعركة، وستتحسرين اكثر على تجاهل (مدريد)، فالناس لا تفكر إلا في نفسها، تبا لهذه الأنانية». وقبلها بعشرة ايام اعرب عن رغبة الكثيرين في الالتحاق بمؤخرة الجيش، واقر لماريا، «سأحكي لك فيما بعد تفاصيل الأحداث، وستدركين تماما كم هي الخروقات التي اصلحتها، وما بقي دون إصلاح...»[23] لكن الموت حال بينه وبين ذلك.

ادهشت الحرب المعلنة على الريف الكولونيل الذي فغَر فاه، لم يكن سبب الدهشة، الثقة الكبيرة في النصر، لأن الجيوش الإسبانية كانت تفتقر إلى كل مقومات القتال، بدءا بصراحة برنكر وتوقعات إيزا. وفي الليلة التي سبقت إحكام الحصار الريفي على إيغريبن في الثامن من يوليوز، صرح مانيلا بما يلي، «لا اظن اننا سنناور الآن، إذ لا شيء لدينا، ومن المحزن ان يكون كل العتاد الحربي تقريبا بإسبانيا او بتطوان»، هذا وقد اتسمت تصريحات ضباط سيلفستري بالواقعية في محاكمة برنكر، هؤلاء الذين تمكنوا من الفرار والبقاء على قيد الحياة، وفي حديثه عن رئيسه قال، «مسكين، لا تذكري شيئا عن الجنرال سيلفستري، كيف انهم... (عبارات لا تقرا)، واظن، ومثلي كثير، أن مسالة الحسيمة سيتكلف بها المقيم العام لأننا نبعد عن المكان بواحد وثلاثين كلم، وامامنا عدو قوي وشديد الباس»[24].

وجاء يوم الرحيل، كان يوم الثلاثاء الثامن عشر من يوليوز، وقتها بعث فرانثيسكو إلى ماريا برسالته الأخيرة، فمن انوال صدرت الأوامر التي تقضي بذهابه الفوري لتعويض كولونيل المدفعية (ارغويس)، وفي ختام رسالته، قال، «في هذه اللحظة توصلت بالبلاغ. وقد سقط العديد من القتلى والجرحى، فذكّر لي الجنرال (سيلفستري) انهم قد اخطأوا (وسطر على هذه العبارة). مسكين اغوستين Agustin سيصابوا بالذهول حينما يعلم بالأمر -لا تقولي شيئا- ولك من عزيزك باكو Paco آلاف القبلات».

قام باكو مانيلا بدوريات في انوال، فالتقى وجها لوجه بالقافلة المحاصرة هناك. كانت الساعة تشير إلى الرابعة زوالا من يوم التاسع عشر من يوليوز، فخطط للهجوم الأخير، واصدر أوامره لمن استطاع من رجاله بتسليم وعاء مائه للجنود النظاميين المتوجهين نحو إيغريبن[25]، لكن هذا المخطط باء بالفشل الذريع، لأن طلقات المدفعية كانت تصل إلى التلة الصفراء فقط، بل كان بعضها يسقط على نفس التحصينات الإسبانية، بينما كان الريفيون في الأعلى.

وفي التاسع عشر من يوليوز 1921، توفي مانيلا دون التوصل إلى هدنة في إيغريبن، وحدث أن احتفظ مناصروه ببوله الذي راج عنه انه إذا برد وانضافت إليه قطع السكر يمكن شربه. وفي الليلة الموالية استمر القتال على نفس النحو، إذ اشتدت المعارك عند الأسوار، ولم يستسلم الريفيون ولا الإسبانيون. وعند الحادية عشر والنصف ليلا بمليلية، كتب سيلفستري برقية مختصرة إلى إيزا يطالبه فيها بإرسال العتاد والذخيرة التالية: خمس عشرة قذيفة من عيار 70 ملم، بالإضافة إلى خمس عشرة قذيفة اخرى متنوعة ضرورية لتعزيز صفوف الجيش، وعشرين ألف مفرقعة، وعشرة ملايين خرطوشة من نوع ماوسر، ومليوني خرطوشة ريمنغطون، وستين الف قذيفة للمدافع، واثني عشر صاصة للبنادق. لكن عتادا من هذا الحجم لم يكن متوفرا بتاتا، وكان سيلفستري على علم بهذا الخصاص ومع ذلك حدد الأجل قائلا: «إنها حاجيات ملحة، ولهذا ارجو من سيادتكم الموقرة أن تعجلوا بهذا الطلب وباستخراجهم لهذا العتاد من اي مخزن قريب لهذا المكان، وإرساله لنا في أجل اقصاه عشرة ايام»[26]. لم يكن في حسبان سيلفستري انه سيعيش ليومين ونصف فقط، ثم توافيه المنية. لقد وصل الطلب المُستعجل باثنتي عشر ساعة من التأخير إلى بوينا بيستا، فجاء الجواب من رئيس قسم جهة المغرب كالآتي: «بعد أن تلقينا البارحة برقية بشأن إرسال العتاد والذخيرة، أصدرنا أوامرنا بضرورة الإسراع لتنفيذ هذا الطلب، وإمداد الميدان بكل ما يحتاجه، مع تحيات كارلوس لوبيث دي لاميلا Carlos López de Lamela». لقد ضاع الوقت كثيرا، لكن المقاومة استمرت في الهضبة الصفراء، وثمة مؤشرات أوضحت أن تلك الهضبة الصغيرة والعالية كان من العسير احتلالها.

برقيات عاجلة وعطلة صيفية رسمية مقطوعة

كان برنكر منغمسا في حملته، وحربه داخل معسكره الجبلي في "ركبة الغزال" مواجهة للخطوط الريوسنية، وكانت ترد عليه انباء مقلقة تفيد بأن الريف قد انتفض.

وكانت تشغل المقيم العام صعوبات التواصل مع مليلية، لأنه كان بحاجة إلى متابعة الأحداث عن كثب، وها هي هذه الانتفاضة المفاجئة "للحركة" تقلب عليه مواجعه[27]، لكنه لم يغادر "الركبة" التي وصلت إليها برقية مشفرة اخرى من سيلفستري في الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة يوم العشرين من يوليوز.

اخبر سيلفستري برنكر ان «جل القوات الحاضرة بانوال تحركت، وبعد تامين مؤخرة الجيش بحامية من القبائل»، وفيما بعد ذكّره بفشل القافلة الأخيرة، ووعد بإصلاح قريب .... حالة إيغريبن يرثى لها، وغداً ستعالج الأمور».

فيما بعد كشف سيلفستري لبرنكر عن خطة الطوارئ التي اعدها: «سوف اشكل طابورا من الوحدات الميدانية (...) وساعينه يوم الخميس على القندوسي، وذلك بهدف التركيز على واد صالح شرق سيدي ادريس، وهو المكان الذي انوي إقامة قاعدة تموين به، ستكون القوة الضاربة وذلك بتقوية الميمنة، وتحصين مركز على الشاطئ يضمن لنا سلامة الجيش». لم تنجز هذه التحصينات، وعاد سيلفستري يطالب بالمساعدة ولكنه هذه المرة ترك المبادرة بيد رئيسه، «إنه من اللازم إرسال قوات دعم من رجال وعتاد في كميات تراها سعادتكم كافية»[28].

ارسل برنكر مرة أخرى برقية سيلفستري إلى مدريد، فقراها لوبيث دي لاميلا في بوينا بيستا، فقام هذا التنينتي كولونيل بإرسال نسخة موجزة منها إلى إيزا، الذي كان بسان سيباستيان في عطلة صيفية رسمية، وذكر له فيها ما يلي: «ابلغ سعادتكم الموقرة بما جاء في برقية المقيم العام بعد اطلاعي عليها، وتجدر بكم العودة إلى القصر...»[29].

وصل نفارو إلى انوال، في الوقت الذي دخلت فيه إيغريبن اليوم الرابع من الحصار، ومن مليلية كان سيلفستري يواصل القتال، ويواصل في نفس الوقت إرسال برقيات إلى برنكر. وفي برقية ارسلها في نفس اليوم، اي في العشرين من يوليوز على الساعة الثانية وخمسة وثلاثين دقيقة، طلب الإذن لإجراء عمليتين حيويتين تتلخصان في تعاون الفصائل العسكرية، ووصول الدعم الجوي.

كان الهدف من العملية الأولى «إرساء ثلاثة او اربعة قطع حربية بخليج الحسيمة، للتفاخر بعروض القوة مع قصف كل الخط الساحلي بنيرانها»، كان سيلفستري في احتراسه يقدر ما

يمكن ان تعنيه عملية هجومية من هذا النوع، فاعلن لبرنكر ان هذا القصف المزعوم لابد وان يتحقق، ولكن ليس قبل ،إخلاء المنطقة التي تضم اصدقاء اوفياء لنا،[30].

وبشان العملية الثانية، قدم سيلفستري التوضيحات التالية، ،اظن انه من الضروري إرسال فيلق جوي مهم من إسبانيا، يتكون من ست طائرات، في حين ان برنكر لم يكن يملك سوى ثمان عشرة طائرة موزعة على ميادين القتال بتطوان، واربع طائرات اخرى بالعرائش[31]. اثنان وعشرون طائرة إذن، (ثمة إحصاءات اخرى تحدثت عن اربع عشرة طائرة في منطقة جبالة) كان هذا العدد يفوق، بخمس مرات، عدد الطائرات الموجودة في مليلية، فمن بين الطائرات الستة التي كانت متوفرة، واحدة فقط كانت معطلة. كان سيلفستري لا يجرؤ على طلب هذا الدعم الجوي الذي كان من الممكن ان يصله فورا، وفي غضون اقل من ساعتين من مدينة تطوان.

فاجابه برنكر الذي تظاهر بانه مقتنع بوجهة نظره، ورغم ذلك لم يحرك لا معدات جوية ولم يحث إيزا على الاستعجال بالشروع في قصف اجدير. ومما زاد الطين بلة قوله، ،... اطلب من الحكومة الوسائل اللازمة لنقل الإمدادات التي سيحتاجها سيلفستري، وسوف اكون ممتنا لكم لو اسرعتم في التنفيذ،[32]. والسؤال المطروح هو ،ما هو عدد الجنود والعتاد الذي كان سيرضي سيلفستري؟،، فكل هذه الإكراهات انضافت إلى معضلة ضياع الوقت.

وسنة 1921 ، وبإنهاء كل من ايالا Ayala ورويث دي لا فونطي Ruiz de la Fuente لشهادتهما اثناء محاكمة برنكر، اوضحا ان هذا الجواب يستجيب لقرارات غير عملية ،كشفت غياب مبررات تعلل الحاجة إلى الدعم الجوي، وابلغ دليل على ذلك هو سوء وتردي الوضعية،[33].

وكان من المفارقات الغريبة ما جاء في برقية بعث بها برنكر إلى إيزا يوم الثاني عشر من يوليوز على الساعة الثانية والنصف زوالا، حيث اعرب عن استحسانه لفكرة استخدام الترسانة البحرية والجوية، وفي نظرة لا تخلو من التشاؤم قال، ،وبما ان الأمر ليس بيدي لكي ارضي رغباته (رغبات سيلفستري)، فإني ارفع هذا الملف إلى الحكومة لتبث فيه، وإني اعتبر انه من اللائق العناية بهذا الموضوع،[34]. فلتات الحلول إذن من جهات اخرى، في حين ان الحل والعقد كان بيده هو.

رسالة وصلت متأخرة جدا

في الخامس عشر من يوليوز 1921، وقبل يومين من حصار إيغريبن، كتب سيلفستري إلى برنكر، وهو مايزال يطالبه بالدعم الحربي، ويطالب بسداد اجور الأهالي التي تأخرت بنحو اربعة شهور، كان يذكّر دائما بالخطأ الكبير الذي ارتكب لعدم مد السكة الحديدية إلى ابن طيب، وحذره من تدهور الأمور، وانه يفتقر إلى الشاحنات، وسيارات الإسعاف التي لا يملك منها سوى ثلاثة، ورغم الخصاص الكبير لم يفقد سيلفستري ثقته، واعتبر مهمة كسر شوكة العدو أمرا ممكنا وسهل التحقيق، وذلك بإجراء عمليات صغيرة ومتتابعة[35].

هكذا إذن كشف سيلفستري من جديد عن طبعه القتالي، وفيما بعد، اقترح فكرة حكيمة على برنكر، كانت بمثابة النجاة للجيش، «اعتبر انه من المناسب جدا، أن يستغل مصب واد صالح لإرسال الإمدادات للجيش، وذلك عبر البحر. خاصة وان معسكر سيدي ادريس لم يعد يفي بالغرض، فإذا ما حصنّا هذا الموقع الجديد (خط انوال - تاليليت)، بمجموعة من الحصون الخشبية، فإننا سنكون قد امّنّا وصول الإمدادات البرية والبحرية، فبين البحر وانوال مسافة اثنا عشر كلم. وإني التمس موافقتك لتنفيذ هذا المخطط». كان سيلفستري يخفي قلقه الذي تمكن برنكر بفطنته من ملاحظته.

خانت الشجاعة سيلفستري، فلم يجرؤ على طلب خروج القوات البحرية، فشرح الواضحات عنده كان من المفضحات. لكن حكومة ايندي سلاسار ووزيرها في البحرية كانت تصم اذنها تجاه الأحداث.

ليلة العشرين من يوليوز
وظهور مخطط فريد من نوعه

بعد خمسة ايام ظهر سيلفستري بوجه آخر، فاصدر اوامره إلى كل القوات بتكوين فرق -عرضية- والسبب هو الخصاص في الرجال (وقوات الاحتياط)، ورغم ذلك كان مخططه الحربي جاهزا.

وفي العشرين من يوليوز، وعلى الساعة التاسعة ليلا، تلقى قائد هيئة اركان الحرب السيد الفونصو فرنانديث مارتينيث امرا عاجلا بالمثول امام سيلفستري. كانت القيادة

العامة بمليلية تشبه في شدة حركتها مساكن النمل، فالأوامر كانت تصدر بسرعة، والمكالمات الهاتفية لا تنقطع والبرقيات في وصول مستمر، والأخبار الحاسمة أو المبررات المخجلة ترد في كل حين. كانت الأزمة عامة.

استقبل سيلفستري فرنانديث وساله عما ،إذا كان يعرف طريقا سهلا يؤمن انتقال الجيش من منطقة الكبداني إلى نقطة معينة على الساحل تكون حلقة وصل بين أفراو وسيدي ادريس،، فأجاب فرنانديث وهو واحد من أعضاء لجنة خارطة الحرب بالإيجاب. واندهش اندهاشا كبيرا حينما شرح له سيلفستري تفاصيل السبب حيث قال، ،لأجل أن نقيم هناك معسكرا نشق من خلاله طريقا يربط معسكر انوال بالبحر، وذلك لتفادي المشاكل التي قد تقع في الطريق الرابطة بين ابن طيب وإيزومار،[36]. أدرك فرنانديث فورا أن ثمة استعدادات تجري للانسحاب التام من انوال، وان سيلفستري ليس مطمئنا لأي انسحاب عبر مليلية برا، بل فضل طريق البحر، وذلك لنقل الجيش عن طريق السفن. كان هذا مخططا فريدا من نوعه، جعل فرنانديث في حيرة من امره، يقلب الأمور ويدرس حيثياتها ومخاطرها.

قطع سيلفستري على الكومندان حبل افكاره، وامره بالالتحاق بدار الكبداني لقيادة الجيش عبر الطريق المذكور. لم يكن الجنرال يريد مماطلات ولا حيرة باعتبارهما عنصرين من عناصر الفشل. وحدث ان أُسنِدت رئاسة هذا الطابور المبتدئ إلى الكولونيل اراخو Arájo، اما مهمة فرنانديث فارتكزت على إرشاد هؤلاء الرجال المقدر عددهم بألف شخص، في الاتجاه الصحيح، وكان هذا هو آخر امل لإنقاذ الجيش إلى حدود الساحل، وبالتالي الاحتماء هناك وانتظار الدعم من انوال.

وافق فرنانديث، وخرج في مهمته الجديدة رغم الشكوك التي تساوره. كان يدرك تماما ان طريق البحر تشكل في حد ذاتها كابوسا مرعبا، ونفس الشيء بالنسبة لطريق انوال في اتجاه واد صالح، فكلا الطريقين كانا مخيفين وموحشين. كما جاء في تصريح له يوم العاشر من شتنبر 1921 أمام بيكاسو، والأدهى من ذلك انه كان على اطلاع بشيء آخر اكثر اهمية، وهو ندرة الماء بالمنطقة حيث يوجد معسكره. خرج فرنانديث من مكتب سيلفستري دون ان يذكر شيئا عن هذا الأمر، لأن الجنرال اصدر الأوامر في حضرة العديد من القياد. لم تكن مخاوف الكومندان تكمن في معارضة الجنرال، بل

كان يخشى ان يظهر امام الآخرين جاهلا لكميات الماء وتضاريس المنطقة، فقرر ترقب اللحظة المناسبة ليحذر سيلفستري على انفراد بثغرات ومخاطر المخطط. وقد تسنى له ذلك في نفس الليلة العشرين من الشهر، فتنازل الجنرال حالا عن تطبيق مخططه[37].

لم يكن في حوزة سيلفستري سوى بارجة لايا Laya وحاملة مدافع تعرف بلاوريا Lauria اتت من سبتة، وفي برقية بعث بها يوم العشرين من يوليوز، طلب برنكر من إيزا إمداده، «ببارجة شبيهة باميرة استورياس (المتواجدة بطنجة) لتكون تحت إمرته، وكان من الضروري ان تُقلع هذه البارجة، ومعها كل الأسطول البحري، يوم العشرين. لكن لم تخرج سوى بارجة الفارو دي بثان وبوستمانتي وبونيفاث وخيرالدا يوم الواحد والعشرين من يوليوز[38] فماذا عن باقي البواخر والمدرعات؟ بلا شك كانوا يغطّون في قيلولة استعمارية عميقة.

بالإضافة إلى ذلك، تقدم برنكر لإيزا بطلب دعمه بباخرة تجارية معروفة باسم المرانطي لوبو لحمل ما يناهز الف رجل، وحوالي مائتي راس من القطيع إلى مليلية إذا اقتضت الضرورة. فمنح برنكر لسيلفستري نفس الإمدادات التي وعده بها يوم الخامس من يونيو وذلك اثناء محادثتهما على متن باخرة لبرنثيسا، وكان إلحاحه متعبا.

لحظات وداع بمليلية وفيلق الجيش غير الضروري

كان من المقرر ان يخرج سيلفستري إلى انوال في الصباح الباكر، فاخذ معه كل ما استطاع جمعه من الرجال، والحصلية كانت، ثمانمائة وواحد وثمانين رجلا خرجوا إلى مصير مجهول. وكان برفقتهم مساعده خوان بيدرو إرنانديث أولاغيبيل J. Pedro Hernández Olaguibel.

وبعد انتهائه عند الفجر من تحضير لوازم الطريق، ودع الكومندان إرنانديث زوجته، وعند الباب كانت تنتظره واحدة من السيارات العسكرية السريعة (من نوع فورد 20 أش-ب) لتقله إلى مقر القيادة العامة. ويوم الواحد والعشرين من يوليوز اشرق عليه الصباح في مليلية.

كان إرنانديث ضابطا مدققا يحسب كل حركاته، وكان شديد الوفاء لسيلفستري، يحفظ كل وثائقه الخاصة والسرية، فمعا كانا يشكلان قوة كبيرة، والاثنين كانا على علم بوجود خمسة فصائل من فرقة الكانطرا في انتظارهم خلف انوال، وكانت هذه الفرق

المتجمهرة عند الدريوش تمثل النموذج الوحيد لوحدات الخيالة الأوروبية، وأصبحت هذه الفرق نواة الجيش، فإذا ما تم تدمير هذه النواة فسيموت الجيش كله.

وقبل الصعود إلى سيارة فورد، وضع إرنانديث في يد زوجته السيدة لويسا كناليس دي لاس إيراس Luisa Canales de Las Heras مفاتيح كانت تخص الجنرال فيليب نفارو، وأشياء أخرى لا يعلمها سوى الزوجين معا. فاندهشت لويسا عند رؤية تلك الأمتعة الشخصية، فساورتها القناعة بأن زوجها لن يعود حيا من مهمته، خاصة وانه شرح لها وبدقة آخر مهامه ورغباته[39]، تعانق الزوجان بقوة، ثم خرجت السيارة في اتجاه القيادة العامة.

انضمت إلى كل تلك القوات وحدات احتياطية مكونة من جنود لا يهم مصيرهم كثيرا، وكان مجموعهم حوالي ثلاثمائة رجل يُعرفون بفيلق الجيش غير الضروري. خرجوا والرعب يتملكهم، لم يكونوا مدربين على المشي عشرات الكيلومترات، كان البعض مزودا بمسدسات تتعطل عن العمل فور إطلاق الرصاصة الأولى، كما أن هذا النوع من السلاح كان جد خطير بالنسبة لمن يستعمله، ويعرف باسم كامبو خيرو Campogiro، هذه "الخردة السيئة جدا"، حسب تعبير رامون سولانو Ramón Solano [40]. وكان البعض الآخر يحمل على كتفيه بنادق محشوة بعيارات نارية من أحجام مختلفة، وآخرون يحملون جراب بنادق مشوهة، كان هذا هو كل زادهم للدفاع[41]. وكانت وجهتهم نحو مواقع نُصبت كفخ على طول جبهة كرط، وهي مواقع تم تفكيكها منذ حرب 1912، ولم يكن بالمنطقة سوى غرابيب سود تحلق فوق السماء والجيوب المقاومة.

استيقظت مليلية في تثاقل، والوحدات الأخيرة تستعد للخروج، كان عددها خمسة وأربعين رجلا، منهم طباخون، وكتبة، وسعاة بريد، وموسيقيون، بل وحتى الحراس خرجوا تاركين أكشاك حراستهم خالية، فلم يبق في المعسكر سوى خمسة وعشرين رجلا يقومون بدور الحراسة[42]. اصطفت الجيوش في كسل وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم، وكان الجندي أندري مارتينيث Andrés Martínez ضمن الفرقة الثانية المهملة، وكان يقودهم القائد أغوستين لوبيث Agustín López من وحدة الاحتياط، وهو الذي كان رئيسا للأرشيف.

أصدر القائد -رئيس الأرشيف- أوامره بالانطلاق فخرج الكل، خمسة وأربعون جنديا غير نظامي، وبصحبتهم اثنين من البغال محملة بقليل من المؤونة، والماء والقليل من الذخيرة، كان ذلك يوم الواحد والعشرين من يوليوز 1921. ومن مليلية خرج آخر

الجنود للدفاع عن إسبانية الفونصو الثالث عشر في المغرب، كانت منحدرات الريف قد ارهقتهم كثيرا. وكذلك الحال بالنسبة لحرارة الجو التي استنزفت قواهم، فسقط احد النواب المساعدين وفقد وعيه، فحملوه على ظهر بغل، وتركوه في المؤخرة. أما قائد الجيش فكان يمشي ببطء متخلفا عن الركب بسبب بدانته المفرطة، وظن البعض أن تأخره في اللحاق بالرفاق يعكس همته، لكنهم كانوا مخطئين.

وبالوصول إلى الضفة اليمنى لكرط حلت المأساة، وذلك لأن فرقة رئيس الأرشيف التقت بمجموعة من الإسبان الفارين من مطاردة الريفيين، فانتشر الخوف المريع، وركض الكل في اتجاه مليلية ماعدا قائدهم. فـ اغوستين لوبيث كان على وعي بضعف حركيته، فاختار الزمان والمكان لموته. حيث اخذ المسدس بيده، وقام بتضحيات جسيمة لإنقاذ رجاله الذين لم يتمكنوا من الفرار، فمات الكل باستثناء المساعد المغمى عليه والجندي مارتينيث الذي روى تفاصيل هذه المأساة لدومينكز يوسا Domínguez llosa قبل وفاته بمليلية[43].

رجال يعرفون كيف يموتون، رجال بنيتيث

اشرق صباح يوم الواحد والعشرين من يوليوز على إيغريبن، والموقع عبارة عن كتلة من الأجساد المنهكة، والجرحى ينتظرون رعاية طبية، في ظل غياب الأدوية والضمادات التي نفذت، وقتلى دثرت اجسادهم بلباسهم الرسمي الملطخ بالدماء. كان المقاتلون يحتملون اهوال الليل على قدر استطاعتهم، وهم يمتصون ما بقي في حوزتهم من بطاطس، ويشربون العطور (الجرحى) بل حتى حتى حبر الكتابة، ويطفئون نار العطش الملتهبة بشرب البول المحلى بالسكر. كانت الأسلاك الشائكة قد انهارت، وسقطت الخيام على الأرض من جراء إطلاق النار والقنابل اليدوية وطلقات المدافع. ونصب الريفيون عند هضبة معروفة باسم "عمار اوسعيد" على بعد الف وثلاثمائة متر، مدفعين سطوا عليهما إثر احداث ابران. لم تصب طلقاتهم الأولى هدفها، لكن الرجل الريفي كان يتعلم بسرعة، وما هي إلا لحظات، حتى كانت قذائفهم تدخل إيغريبن وتحرق الأخضر واليابس[44]. فلم يبق، من بين مائتين وأربعة وأربعين رجلا عند بداية الحصار، سوى بعض المئات القادرين على حمل السلاح. كانوا يرفضون الاستسلام ولا يفكرون فيه.

كان على رأس أنوال الجنرال نفارو، الذي وصل إلى عين المكان في اليوم السابق، وقام بإرسال برقيات تشجيع إلى إيغريبن يصف فيها الجند بأبطال يرفعون اسم إسبانيا عاليا، وكان يحمسهم بقوله: «قاوموا لساعات أكثر، فإن سمعة إسبانيا بين أيديكم». كانت إيغريبن هي إسبانيا، لكن وبإصرار بنيتيث على تحمل الوضعية المأساوية التي يعيشها رجاله من نتونة الجثث، والجروح التي تسببت في موتهم بسبب الروائح الكريهة، وندرة المياه، ونفاذ المؤن؛ أرسل نفارو برقية أخرى جاء فيها: «قاوموا هذه الليلة، أقسم أنكم ستنجحون. وإلا اكتفينا بشرف القتال»[45].

ومع بزوغ أول خيوط فجر يوم الواحد والعشرين من يوليوز، بعث نفارو ببرقية إلى سيلفستري يطالبه بإعداد قافلة إغاثة أخرى، إذ دفعته طبيعة المنطقة إلى تقسيم الوحدات إلى كتيبتين اثنتين. وفيما بعد تطرق إلى معنويات الجيش ووصفها بغير الكافية للتصدي لحالة الضعف. كان نفارو يجس نبض الجيش، فاستنتج أنه ضعيف، خائر القوى، ومرتاب، لهذا جاءت عباراته لسيلفستري كالآتي: «لا أظن أننا منتصرون، وكان ينتظر الأوامر بخصوص انتظار القافلة أو الاستعداد للانسحاب من إيغريبن»[46].

لم تأت الأوامر، ولم تكن هناك أي حلول، فالبرقية وصلت إلى مليلية في وقت كان فيه سيلفستري غائبا. وفي أنوال كان مانيلا ومورالس يترأسان جناحين من أقوى كتائب الإنقاذ، وعددهم يصل إلى ثلاثة آلاف رجل تقريبا. كان الكولونيلان يعملان معا بجد وإصرار، لكن اليأس دبّ إلى نفوسهم بسبب معنويات الجيش التي كانت تحت الصفر، فالجيش كان يقاتل بلا قوة ولا ثبات، كما أن شجاعته لم تكن بالكافية، فلم يبق أمام مانيلا ومورالس من حل سوى الاستسلام، وهكذا شرعا في الانسحاب. أما إيغريبن فغدت بؤرة للانفجارات والدخان المتصاعد، فلا صوت يعلو هناك سوى دوي البنادق، وطقطقة المدفعية المزعجة.

وفي تلك اللحظات الحاسمة ظهر سيلفستري، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف زوالا من يوم الواحد والعشرين من يوليوز، حيث علم الجنرال بفشل القافلة، فتطاير الغضب من عينيه، واغتاظ أكثر عند استماعه لتلاوة برقية بنيتيث التي جاء فيها: «لا أصدق كيف أنكم تتركون إخوانكم الإسبان يموتون ويضحون بحياتهم أمام أعينكم»[47].

غضب سيلفستري كثيرا، فأصدر أوامره لضباطه بتشكيل الكتائب وإيصالها إلى إيغريبن. لكن مساعديه إرنانديث، ولوبيث رويث، ومنيرا حاولوا إقناعه بالعدول عن قراره، وشيئا فشيئا هدأ سيلفستري من روعه. وفيما بعد أصدر تعليماته لبنيتيث بالذهاب للتفاوض مع العدو، فغضب بنيتيث من هذا القرار غير الصائب قائلا: «لقد قُتل ضباط إيغريبن، لكنهم لم يستسلموا»، فجاء هذا التصريح ضربة موجعة لسيلفستري الذي تحسر على عجزه. وهناك بالهضبة الصفراء كانت تخيم معنويات شبيهة بمعنويات جيش نابليون القديم.

طرح خيار آخر، تمثل في وضع المدفعية في منطقة عالية بغية قصف "الحركة" من الجهة الجانبية، لكن مدفيعة إيزومار كانت تخفق دائما في إصابتها الهدف، فأمر سيلفستري القائد بلانكو بإعداد وتحريك جنوده المتواجدين على راس المدفعية الجبلية الخامسة، والمكونة من اربع قطع من عيار 70 ملم. كان رامون بلانكو إي دياث دي لا إيسلا Ramón Blanco y Diaz de la Isla شابا في الخامسة والعشرين من عمره، ترك الأكاديمية الحربية التي كان يشتغل بها مدرسا، وطلب المجيء إلى المغرب، فمكث بمليلية أربعة اشهر[48]. وبتلقيه الأوامر حرك رجاله وآلياته بسرعة، ومن موقعه هاجم المقاومين بقذائف مدمرة، لكن مساعدته وصلت متأخرة[49].

لم تكن مقدمة الجيوش الإسبانية تبعد عن إيغريبن سوى بنصف كيلومتر. وحدث أن اخلى بنيتيث سبيل رجاله، فكان لابد من إخلاء الموقع، الآن أو البقاء فيه إلى الأبد.

شرعت الكتائب في الانسحاب بسرعة، واتخذ بلانكو مع معداته الحربية ركنا منزويا. لم يكن هناك من سبيل للذهاب إلى أنوال، فاتخذ قراره الوحيد بالانعطاف نحو إيزومار، لحماية المدافع وتفادي العدو. كان سيصل إلى هناك حتما، في الوقت المناسب وفي الصبيحة الحاسمة، لم يكن هناك خيار آخر لإنقاذ الجيش من الدمار.

وعاد بريق الانفجارات يشع من جديد من جهة إيغريبن، وفي انوال كانت تفك رموز رسالة غريبة جاء فيها: «لم يبق سوى اثنتي عشر قذيفة مدفع، سنشرع في إطلاقها الآن لرد الهجوم، إحسبوها، فعند الطلقة الأخيرة ستُفتح النيران علينا، وسيدخل "المورس" والإسبان في مواجهة مباشرة»[50]. إنه بنيتيث يتحدث بوضوح، كان الموقف بطوليا حتى النخاع.

جاء قرار بنيتيث وضباطه يحث على اللحاق بمؤخرة الجيش، حيث فكروا في تشكيل طابور صغير، وهذا ما حصل بالفعل. فقد اصطف كل من القواد، أرتورو بولنيس Arturo Bulnes، وفيدريكو دي لا باث أوردونيا F. de la Paz Orduña، والملازمين خوليو بوستمانتي إي بيبيس Julio Bustamante y Vives، ولويس كسادو إسكوديرو Luis Casado Escudero، ومانويل كاسترو مونيوث M. Castro Muñoz، والفونصو غالان أزبال A. Galán Arrabal، واوبيدو رودريغيس Oviedo Rodriguez، وخوليان سيرا سيرانو Julián Sierra Serrano [51]، بالإضافة إلى رفائيل بيانوبيا هوبر Rafael Villanova Hopper، وإنريكي روييث أوسونا برتبة ملازم ثان.

سارت الطليعة تحت إمرة بولنيس Bulnes، أما الجناح الأيسر فكان يقوده غالان Galan، والميمنة كانت تحت قيادة كسادو Casado، في حين بقيت مسؤولية الشطر الأعظم من الجيش ملقاة على عاتق بنيتيث الذي تولى السهر على الجرحى والمرضى. وفيما يخص مؤخرة الجيش فقد تولى أمرها باث أوردونيا Paz Orduña. فوزعت على الطابور الذخيرة الحربية (عشرون خرطوشة لكل واحد). كما وزعت النقود التي كانت في الصندوق (خمس عشرة الف بسيطة)، وزعها بنيتيث على جيش لا تفارقه الدهشة، وتم الاتفاق على إعادة المال إلى المعسكر إذا ما تيسر المرور[52].

كانت المجموعات في تآزرها على اهبة الاستعداد للخروج، لكنها سرعان ما تفككت دعائمها وطوقها الموت من كل جانب، فهرولت الحشود تتسلق الأسوار بغية إعطاء العدو فرصة التلذذ بمقتلهم، وذلك ليفوز الآخرون بالحياة وينجون بجلودهم ولو لثوان معدودة، كان بعض الجنود يقفزون عاليا، ومنهم من كان يعانق صاحبه قبل الموت، وتلك حالة بوستمانتي (المتخم بالجروح) ونوغيس، وذي لاباث، وكلهم كانوا على رأس المدفعية بإيغريبن. وتجدر الإشارة إلى أن دي لاباث أوردونيا كان له اخ آخر يدعى ميغيل، وبدوره كان يسير مدفعية في انوال، وكلاهما كان يقدر حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، فإذا ما نفذت قذائف المدافع فقد يقصف الواحد منهم الآخر، كان عدد الطلقات والانفجارات يحسب كذلك، اثنتي عشر. وبالتالي بات من الضروري إطلاق القذائف من جهة واستقبالها من جهة اخرى. لكن انوال لازمت الصمت، صمت استغله فيديركو دي لاباث وأتلف في مهارة عالية مفاتيح مدافعه التي مات بجوارها.

إجراء قرعة وكولونيل يذهب إلى "بوينا بيستا"

وصل إلى انوال وبعد مشقة كبيرة، كل الفارين من ويلات إيغريبن. لم يكونوا رجالا بل أشباحا مخيفة، كان مجموعهم اثنا عشر او ستة عشر رجلا وحسب إحصائيات اخرى كان العدد هو ستة وثلاثون[53]. كان منظرهم مرعبا للغاية بعيونهم الجاحظة، ووجوههم المعفرة بالتراب. أربعة منهم لقوا حتفهم من جراء شرب كميات كبيرة من الماء إلى حد امتلاء بطونهم، ضاربين عرض الحائط كل النصائح التي أسديت لهم. وأمام هذا المنظر لزم كل أفراد المعسكر الصمت، وأعرب البعض عن سخطهم، وتاثرت معنويات العديدين. وعند الجبل لم يبق سوى شخصين على قيد الحياة وهما، جندي (نجهل اسمه) والملازم كسادو، حيث أصيب الاثنان بجروح خطيرة فأغمي عليهما، وحسبهما الريفيون في عداد الموتى، لكن تم أسرهم فيما بعد.

كان انطونيو اندرو مودول Antonio Andreu Modol واحد من رجال المدفعية الذين تمكنوا من الفرار من الهضبة الصفراء، وكان يدين بحياته «لهمة واحد من مساعدي الفرقة الطبية العسكرية، الذي تصدى للموروس من شرطة ونظاميين...» كان "بيكاسو" يتمنى الحصول على اسم هذا الرجل الشجاع، لكن بلا جدوى[54]. كان سيلفستري شاحب الوجه مثل مودول، ولم يكن يرغب في سقوط قتلى آخرين، فأصدر أوامره لنفارو بالرجوع إلى مليلية، فأبى هذا الأخير ولم يجد سيلفستري من حل آخر سوى إعادة الأوامر من جديد، فامتثل نفارو هذه المرة.

تحدث سيلفستري إلى ضابطيه، القائد لويث رويث والتلتني كولونيل مانيرا وأمرهما بإجراء قرعة فيما بينهما لمعرفة من سيبقى إلى جانبه، فهو الآن يريد الاحتفاظ بمساعد واحد فقط[55]. لم يكن ممكنا التخلص من إرنانديث أولاغيبل Hernández Olaguibel، الذي قرر السير على خطى قائده، ومرافقته مهما كانت النتائج. أما عن توليو لويث رويث Tulio López Ruiz، وإنريكي مانيرا فالديس Valdés Manera Enríque، فقد رفضا بدورهما المشاركة في القرعة، فكرامتهما لا تسمح بذلك. لكن سيلفستري كان حازما وأصر على طلبه فأجريت القرعة، وأدرك كل من كان حاضرا بالمكان أن الجنرال عقد نيته على الموت في انوال.

كان لابد من إعادة القرعة ثلاث مرات، وخسر مانيرا الذي بدا عليه الارتياح لهذا القرار الارتجالي. فجاءت لحظات الوداع قصيرة ومؤثرة ومشحونة بالمشاعر الجياشة. سلم سيلفستري للوبيث رويث مفاتيح مكتبه بالقيادة العامة بمليلية، وكلفه بسحب «أشياء خاصة به والف بسيطة (وبالضبط الف واثنين وعشرين بسيطة) وتسليمها إلى امه ذاكرا له بأن هذا هو كل ما يملك من مذخرات»[56]. كما طلب الجنرال من الكومندان وهو يضمه إليه بحرارة شديدة بأن يقبل كاتبة مذكراته (السيدة إلوطريا Eleuteria)، كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف من يوم الواحد والعشرين من يوليوز.

وفي تلك اللحظات خرج سيلفستري عن صوابه، كيف لا وهو القائد العام لجيش محاصر. وهذا ما فهمناه من برقيته التي بعث بها إلى برنكر في مليلية على الساعة الرابعة وثلاث عشرة دقيقة: «القائد العام للجيش من انوال، يخبرك انه من الضروري إرسال فريق من عمال السكة الحديدية والمعدات اللازمة لإنشاء خط حديدي يربط ابن طيب بتيزطوطين»[57].

بعد أن قرأ بيكاسو هذه البرقية، لم يتردد في وصف مضمونها بالمطالبة غير المناسبة[58]. فالطلبات كانت كثيرة: معدات لإنشاء سكة حديدية يصل طولها إلى ثمانية وثلاثين كلم (وهي المسافة التي تفصل ابن طيب عن تيزطوطين) في وقت كان الجيش يلفظ انفاسه الأخيرة، كان هذا الطلب غير معقول، بل غير منطقي أبدا. فاندهش برنكر للأمر، لكن المقيم العام لازم الصمت، ولم يذكر شيئا مما ذكره سيلفستري في نفس البرقية عن الستين الفا من القنابل. كان ذلك لا يهم كثيرا، ومرت ستة ايام وعاد سيلفستري ليذكر -إيزا وبرنكر- بالحقيقة المعروفة: نفاذ الذخيرة. ففي انوال لم يبق سوى مائتي الف من الخراطيش، وستمائة قذيفة. وبما أن عدد المدافع كان لا يتعدى خمس قطع، فكل مدفع كانت تخصص له ثلاثون قذيفة، وهو ما يكفي لمعركة واحدة. لكن مدافع أنوال لم تف بالغرض.

وفي برقية أُرسلت على الساعة السابعة والنصف، وصف سيلفستري بكل صراحة بشاعة الأحداث في إيغريبن، فقد تحدث عن قواد وضباط انتحروا عند التحصينات. وذكر الانسحاب الدامي للغاية، وعن نفسه قال: إنه بقي في انوال وقد أحاط به العدو من

كل جانب. وفي ثلاث عشرة كلمة، كان لها وقع خاص، طلب ما يلي: «ونظرا لهذه الوضعية الخطيرة والمزرية، أطلب من سيادتكم موافاتنا بفرق كاملة ومجهزة بالكامل»[59].

لقد طلب "فرقا" بصيغة الجمع وليس فرقة واحدة فقط، في حين أن إسبانيا كانت فقيرة لا تملك فرقة واحدة، وقد تدارك سيلفستري خطأ تعبيره، وبعد إرسال هذه البرقية إلى الراديو، نزل مساعد الجنرال السيد مانيرا لتصحيح العبارة وتعويضها بأخرى تشير إلى أن القوات المعنية هي كتيبة مختلطة. ثلاثة آلاف رجل مقابل عشرين ألفا. كان سيلفستري يخشى رد فعل الحكومة إزاء هذه الطلبات[60] فأخفى الوضعية الحقيقية.

خلفت هذه البرقية التي تتحدث عن الفرق العسكرية أثرا قويا، وأدرك لاميلا Lamela المتتبع الوحيد للأحداث الإفريقية بكل تفاصيلها ولحظاتها أن أنوال تسير نحو التهلكة. واستمر إيزا في غيابه عن ساحة الأحداث، لكن مراسلاته لم تنقطع، ففي إحدى برقياته، التي أرسلت على الساعة 22:23 و23:18، جاءت الأوامر لبرنكر بالقيام بمجموعة من الإجراءات والتحركات، «أصدر أوامرك بالاستيلاء على البواخر التي ترسو في سبتة، وقم بشحنها بالمواد الضرورية، وذلك للنزول بسيدي ادريس أو أي منطقة أخرى يعينها القائد العام بمليلية»[61]. وكإجراء وقائي أعطى الوزير أوامره إلى الحاكم العسكري بقادس بتحريك البواخر.

لم يتوقف لاملا Lamela عن تحويل برقيات سيلفستري إلى تطوان وسان سيباستيان. وفي كل مرة كان يذكّر برنكر «بالوضعية المأساوية في أنوال» وفيما يخص بارجة لوريا وبونيفاس، تجرا لاميلا على مطالبة برنكر بإرسالها إلى الحسيمة وذلك لمدّ يدِ المساعدة لسيلفستري الذي أصبح في وضعية لا تحتمل التاخير في التنفيذ.

ونفس البرقية تلقاها إيزا من لاملا، مع إضافة جاء فيها: «أخبر سعادتكم بهذه الأمور على أمل أن تتفضلوا بإيصال هذه البرقية إلى يد عاهلنا المعظم»[62]. كان الفونصو الثالث عشر لا يعلم شيئا عن المآسي التي تدور رحاها في إفريقيا، ففي تلك اللحظات كان على متن القطار في طريق العودة إلى سان سيباستيان، بعد رحلته في بورغوس التي قصدها لحضور إحدى المراسيم.

وفي مليلية كان هناك جندي آخر يستعد للخروج إلى انوال، يتعلق الأمر بسيغفريدو ساينث غوتييريس Sigfredo Saínz Gutiérrez، احد قادة هيئة الأركان الحربية الذي تقدم متطوعا، وتمثلت اوامره في إقامة معسكر عند خندق بني عزة، وذلك للتنسيق مع العمل الدفاعي لبريمو دي ريفرا، وتسليمه يدا بيد خطة الهجوم المضاد. كان من المنتظر ان يتدخل كل الفرسان -من نظاميين والكانطرا، وهو مؤشر يعكس صعوبة الوضع. كانت انوال بمثابة مصيدة للفئران، هكذا على الأقل كان ينعتها العديد من الضباط.

تلقى سانيث تعليمات صارمة بتنفيذ مهمته مستعملا كل الوسائل المتوفرة لديه. واعتمد في ذلك على ثلاث فرق سيرينيولا Ceriñola، اثنان منها بقيت خلف الأسوار. وبما أن بلوغ القمة كان أمرا عسيرا، فإن النصيحة كانت بحمل اكياس وحبال كإجراء وقائي. وكانت انوال عشاء آخر للنسور في الريف الإسباني. وبما أن المنطقة كانت تفتقر إلى الماء، فإن البعض نصحه بإرسال شاحنة محملة بثمانين برميلا من الماء. كما أن كابابلانكا وعده بسيارة خفيفة ستكون في انتظاره مع منتصف الليل عند باب القيادة العامة[63].

تبادل برقيات أخرى في ظروف مختلفة

انتقل برنكر إلى "الفندق"، ومن ذلك المكان، ذكر لإيزا في الرابعة إلا ربع من يوم الثاني والعشرين من يوليوز أن برقيات سيلفستري التي يحولها الوزير بدوره إلى جهات أخرى لم تصله، وكل شيء يوحي بأن الوضع خطير جدا[64]. واي خطورة هاته؟ فالأمور كانت من سيئ إلى أسوأ منذ الثامن عشر من يوليوز.

لم تكن انوال غارقة في الصمت، بل كانت محطة فوران متصل، فبجوار خيمة سيلفستري كانت هناك محطة عصرية لبث وتلقي البرقيات اللاسلكية من نوع تيليفونكين Telefunken. وقد وضعت في عربة كانت تستخدم منذ ايام، وكان يعمل بها ارياس Arías، وهو ملازم شاب من فرقة الاتصالات اللاسلكية في الحرب، وكذا مانويل دي لاس إيرس Manuel de Las Heras من نفس الفرقة. وصل الاثنان على متن دراجة نارية[65] إلى عين المكان. هذا وقد حدد بيكاسو في رسمه التخطيطي موقع جهاز الراديو بالقرب من قمة تلك الهضبة، بجوار خيمة الجنرال. وكان يساعد كلا من ارياس ولاس إيراس احد عشر رجلا آخر.

بلغ الأمر ببرنكر إلى حد قوله لإيزا في الثاني والعشرين من يوليوز على الساعة الثالثة إلا ربع، بان التحول المفاجئ لموقع العمليات العسكرية بالمغرب، سيتم، بالطبع، على حساب الحرب على بني عروس التي لم يكتمل نجاحها[66]. بعدها ذكّر بالمساعدة التي ارسلها لسيلفستري، فرقتان من المشاة، وفرقتان من الجيش النظامي لسبتة واربع طوابير اخرى مؤلفة من حوالي الفي رجل. واوضح انه ارسل «مدفعا وسيارة إسعاف باعتبارهما المعدات الوحيدة التي يمكن ان يستغني عنها القائد العام لسبتة (آلفاريث دي مانثانو Álarez de Manzano). وذكر انه سيرسل كذلك الجنرال سان خورخو. ولإنقاذ ونجدة سيلفستري، حرك برنكر اربعة مدافع، وسيارة إسعاف واحدة وألفي رجل، وجنرالا واحدا. وهذا في حد ذاته يشكل تَحسنا كبيرا إذا ما قورنت هذه المعطيات بالمساعدات الممنوحة يومه الخامس من يونيو.

صدرت عن المقيم العام اعذار واهية لتبرير موقفه، إذ ذكر لإيزا في نفس البرقية التي ارسلت على الساعة الرابعة إلا ربع ما يلي: «ايجب ان اخبركم سيدي، بانني اتوصل ببرقياتكم التي لم اتلق فيها اخبارا مقلقة، الأمر الذي يدل على ان القائد العام بمليلية يطلب فقط ما انوي فعله، والآن كل المساعدات جاهزة للإرسال».

وبعد ثمان ساعات، وبالضبط على الساعة الحادية عشر وخمسة وخمسين دقيقة، ذكر برنكر من "الركبة" لإيزا ما يلي: «وبعد، ونظرا للحالة المزرية التي وصل إليها مقر القيادة العامة، فإنني اعتبر -ولو ان الأمر يؤلمني ويصعب شرحه بهذه الطريقة إلى الحكومة- انه من الضروري إرسال قوات من إسبانيا إلى مليلية، وبالكميات التي يعتبرها سيلفستري كافية»[67]. لم يكن هناك شيء "ضروري" وإن كان "حقا مؤلما". في تلك السويعات كان سيلفستري ميت في خيمته، اما جيشه فقد ابيد عن آخره عند مرتفعات إيزومار.

مواكب احتفالية بمدينة بورغوس، وخطب لتابين الراحل (إلسيد) el Cid

في صبيحة الخميس الواحد والعشرين من يوليوز، كان الملك الفونصوالثالث عشر وزوجته السيدة فيكتوريا إيوخنيا Victoría Eugenña بمدينة بورغوس، بهدف حضور مراسيم حفل كبير، يتعلق بنقل رفات "إلسيد" El Cid Campeador في موكب جنائزي

كبير، انطلق من البلدية ووصل إلى الضريح الذي اقيم له في وسط الكنيسة. المناسبة جاءت إحياء للذكرى المائوية، في دورتها السابعة، لفعاليات الأنشطة التي تقام بهذه الكنيسة الكبيرة.

تراس الفونصوالثالث عشر الاستعراض العسكري للجيش، كان عمره آنذاك ستة وثلاثين سنة. كان على نحافته ورشاقته المعهودتين، ولم تكن تظهر تحت عينيه تلك الهالات السوداء التي بدت عليه في الأعوام العصيبة ما بين (1915-1917). لم تكن هيبة تلك اللحظات، ولا اللباس الرسمي الخاص بالقائد الأعلى، ليمنعاه من الظهور بمنظره المتواضع والبسيط. كان سكان مدينة بورغوس يهتفون باسمه بحماس، وكانت الملكة إلى جانبه في لباس الحداد، تغطي رأسها بوشاح حريري اسود مطرز، فأضفت على المكان هيبة ووقارا. وعند توقف الموكب الملكي، قُدم استعراض جوي قام به سرب من الطائرات على شكل عروض بهلوانية خطيرة[68]، نعم كانت العروض خطيرة، جدا لدرجة أن إحدى الطائرات ارتطمت بالأرض، لكن الطيارين -انطون وغونثاليث- تمكنا من النجاة. واضاف هذا الأسطول الجوي، الذي كانت إفريقيا في أمس الحاجة إليه بعض الألعاب الأخرى لينسحب فيما بعد بطريقة غير منتظمة، وعاد إلى قاعدته في مدريد في شكل طيران جماعي لا يخلو من احداث مختلفة.

وبانتهاء العروض العسكرية دخل الموكب إلى الكنيسة، وقام المستشارون بنقل الصندوق الذي يحمل رفات "إلسيد" El Cid. كان دوي نواقيس الكنيسة يتردد في المكان، ويمتزج بطلقات المدافع وهتافات الشعب للعاهلين. في النهاية وقّع الملك محضر تسليم جثمان الزعيم القشتالي الذي وضع في صندوق من رصاص، واغلق القبر بوضع اللحد[69].

أحيى القديس مطران بلنسية السيد رييج Reig، اما الصلاة فقد رتلها اسقف فيتوريا إيخو Eújo، حيث ذكر بأمجاد "إلسيد El Cid"، وتحدث بإعجاب عن بطولاته التي سار على نهجها رجال آخرون، كالجنود الإسبان الذين يقاتلون في المغرب ضد العدو الأبدي، المورو اي المغاربة. بعدها أخذ الكلمة الكردينال بنلوش Benlloch الذي هتف بعد الانتهاء من خطبته الموجزة وامام دهشة الجميع بعبارة فليحيا إلسيد؛ فسرت قشعريرة بين الحاضرين، اما الفونصوالثالث عشر فقد اختصر كثيرا كلمته التي القاها في اتزان وهدوء، وشكر ساكنة بورغوس على حسن استقبالها، وانهى حديثه بعبارة، «إنني اثق في إسبانيا»[70].

وبعد انتهاء الحفل، توجه العاهلان إلى حلبة مصارعة الثيران، وهناك قدم لهم **اورفيون اسكويتيا** Orfeón Azcoitía حفلا موسيقيا رائعا. وبعدها عاد الملكان إلى سان سيباستيان، وتوجهت حشود كثيفة من الناس لتوديعهم عند المحطة. وقتها كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء من يوم الثاني عشر من يوليوز.

لم يكن سيلفستري في انوال ينتظر معجزات، بل كان يتحين الفرص، كان ينظر بترقب إلى الجهاز الذي يشغله كل من أرياس ولاس إيراس، لكن الجهاز لم يصدر اي صوت.

انعقاد مجالس حربية في خيمة الجنرال سيلفستري

حلت ليلة الواحد والعشرين من يوليوز، ومعسكر انوال مازال تحت الحصار، كان الكل يخاف الاقتراب من منبع الماء، بسبب وابل رصاص العدو. اما الدواب المجتمعة والمذعورة فكانت كثيرة العدد (ازيد من الف راس)، وكان رجال المدفعية منهوكين بسبب العطش، فقد قضوا يومين دون شرب جرعة ماء واحدة[71]. ووصلت انباء إلى المعسكر مفادها أن بعض الريفيين من جهة والشرطة من جهة اخرى، اكدوا ان عدد أفراد الحركة يصل إلى ثمانية أو عشرة آلاف رجل[72].

اما الإسبان فكان عددهم يقدر بنحو خمسة آلاف وثلاثمائة وتسعة وسبعين رجلا موزعين على الشكل التالي: مائة وأربعة وتسعون من الضباط؛ خمسة آلاف ومائة وخمس وثمانون من الجند -حسب "التقرير" الدقيق لبيكاسو- سيموت منهم الف في الصباح. أما الريفيون فكانت غالبيتهم مسلحة ببنادق اكثر سرعة في الأداء من الماوسر وهي "الرباعية" كما يطلق عليها بالعربية.

وعلى الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة، كتب سيلفستري إلى برنكر برقية أخرى فضحت يأسه، لكنه لم يفقد القدرة على التفكير والتقرير. وهذا نص البرقية: «بمساعدة قطع بحرية ذات حمولة كبيرة وقوات بحرية، يمكن إقامة جبهة ساحلية عند انوال، انطلاقا من مصب تازكين ما بين سيدي صالح وراس أفراو. ومن المحتمل ان تتعاون معنا جهات صديقة من (بني سعيد). المرجو أن يلقى طلبي هذا آذانا صاغية وإجابة عاجلة، وإلا فإن الأمر لن ينفع، كان المخطط بمثابة محاولة ثالثة لنفس الفكرة، الفكرة التي جاءت في رسالة الخامس عشر، والسابع عشر من يوليوز، مرفوقة

بمشروع الإغاثة الذي تكلف به طابور أراوخو Araújo بقيادة الكومندان فرنانديث. كان هذا المخطط سينقذ حياة العديد من الجند لو نُفذ من قبل يومين، ولو وُجد رجال قادرون على تطبيقه على الوجه الأكمل في كل من مدريد وتطوان.

كان سيلفستري يتحدث عن بوارج حربية ذات حمولة كبيرة، وكانت الإشارة واضحة إلى البوارج المدرعة. كان الجنرال يومئ إلى هذه البواخر الثلاث المعروفة باسم إسبانيا ألفونصوالثالث عشر وخايمي الأول، وكانت هذه الأخيرة حديثة الصنع، لكنها لم تُسلم بعد للأسطول الحربي بالرغم من انها كانت ثمرة خطة فرنانديث لسنة 1908. المهم أن سيلفستري كان يرغب في خروج هذه البوارج في اتجاه سواحل الريف بكل سرعة. لم تعد المسألة مسالة تامين بعض المواقع، بل أصبح الأمر يتعلق بإنقاذ رجال وليس بإنقاذ موقف سياسي. لكن إيزا وفرنانديث بريدا Fernandez Prida (وزير البحرية) لا علاقة لهما بروح المبادرة، ونفس الحال كان مع أينديسلاثار.

كان سيلفستري يعي تماما حالة الاستسلام والإذعان التي دبّت في نفوس القيادات داخل الحكومة، لذلك أضاف هذه العبارات: ،لكن بسرعة كبيرة وإلا فإن كل التدابير لن تنفع، كان هذا بمثابة إنذار إلى كل من يقرا برقيته، بمعنى انه إذا لم تُجند الضمائر والشجاعة والسرعة فلا داع لأن يزعجوا انفسهم. واعتمد كذلك على سيناريو خاطئ إذ تحدث عن حركات صديقة في إشارة إلى قدور نمار، قائد بني سعيد الذي كان وحسب مصادر موثوقة يتواجد بأنوال يومي الواحد والعشرين والثاني والعشرين من يوليوز[73]. لكن هذا الرهان كان غير منطقي؛ فكل القبائل كانت تتمنى كسر شوكة سيلفستري مرة أخرى، ليس بهدف التخلص منه وإنما بهدف القضاء على جيشه.

وأمام هذه الملابسات، لم يجد بيكاسو من طريقة أخرى للتعليق على تلك الكوارث المتعاقبة سوى ما جاء في تصريح له: ،ليس هناك من طريقة لإنقاذ الموقف سوى التشبث بروح عسكرية عالية، ليس فقط على مستوى المعنويات وما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولكن كذلك على مستوى التطبيق. فإذا كان مستحيلا تعويض كل الخسائر، فعلى الأقل يمكن تقليصها إلى الحد الأدنى، وذلك لتفادي الكارثة الأخيرة،[74]. وحدث أن ظهرت هذه الروح العالية في سيلفستري، خاصة في المرة الأخيرة حينما بادر بنقل جيشه عبر البحر مرة ثانية.

دعا الجنرال ضباطه لعقد اجتماع حربي جديد، وحسب بعض الشهود، والإحصائيات، كان هذا اللقاء الثالث من نوعه في اقل من اثنتي عشر ساعة، وحضر الاجتماع كل من الكولونيل مورالس (عن الشرطة المحلية)، ومانيلا (عن فرقة الكانطرا)، والتنينتي كولونيل مارينا (عن سرنيولا Ciriñola)، وبيريث أورطيث (عن سان فرناندو)، ومساعدا سيلفستري، الكومندان إرنانديث ومانيرا، والثوغاراي عن هيئة (المهندسين)، ويامس Llamas عن فرقة (النظاميين)، وإسيخا Ecija عن (المدفعية)، وبيار عن (الشرطة)، إضافة إلى القائد سباتي Sabaté عن هيئة الأركان الحربية، وبالكارثيل Valcárcel (عن هيئة المهندسين)[75].

كما حضر الاجتماع نجل سيلفستري، وإن لم يكن له الحق في الكلمة. وجاء اقتراح الجنرال بسيطا للغاية لكنه كان خطيرا في نفس الآن، فإما الانسحاب أو المقاومة حتى آخر رمق. وبالنظر إلى مجريات الأمور، يمكن القول بأن سيلفستري اخطأ في طرح هذا الخيار. فالأولى به كان فرض قراره وما تمليه عليه خبرته وشخصيته، المقاومة إذن كانت هي الخيار الوحيد، لكن الجنرال تنازل عن هذا الحل الأخير.

امتلأت خيمة الجنرال سيلفستري برجال يرتدون أزياء عسكرية يعلوها الغبار، كانت أجسادهم تلف أجسادا جامدة، ونظراتهم قاسية. جلس الرجال المدعوون (كان عددهم كثيرا بالنسبة لفضاء صغير مليء بالأسرة والأمتعة الشخصية) لم يتبادلوا التحية الرسمية ولم تبدُ عليهم امارات الحماس. وتفاجأ الكل، بوجه الجنرال المكفهر، تطرق سيلفستري مباشرة إلى الموضوع فقال، «أيها السادة، قريبا جدا سيقتحم العدو معسكرنا...»[76]. وبعد أن افصح سيلفستري عن تخوفاته من تمرد قبيلة بني أولشيك، حذر قائلا، «ليس لأننا لا نملك ذخيرة كافيــة للصمــود في معركــة واحــدة، بل وحتى لا تتكرر اخطاء إيغريبن اظن انه علينا ان نشق طريقنا غدا صباحا إلى ابن طيب»، توقف سيلفستري عن الكلام وتفحص وقع كلماته في وجوه الحاضرين، ثم تابع حديثه، «وبالرغم من أن هذه العملية ستكبدنا خسائر بشرية قد تصل إلى 50٪، فهذا افضل من أن نبقى مكتوفي الأيدي ونهلك جميعا».

اعتلى الذهول والقلق محيا الحاضرين، فالكل كان ينتظر من الجنرال رد فعل مغاير. كان أملهم أن يزرع فيهم روح الحماسة، وها هو الآن يقنعهم بضرورة الانسحاب. ثم استطرد قائلا، «هذا هو رايي واحب أن اعرف إن كان لأحدكم حل آخر».

ولتبسيط عملية الانسحاب، قدم سيلفستري شروحات مقلقة، ،يجب تعطيل المدفعية وإتلافها، مع ترك كل شيء في المعسكر على حاله. وذلك لتحويل انظار العدو عنا،[77]، ومنع حمل الأمتعة او حقائب اليد، ووجه هذا التحذير إلى كل الضباط.

في البداية، تضاربت الآراء، كان البعض يرى ضرورة المقاومة بكل شراسة مهما كلف الثمن، وكان البعض الآخر يجنح للانسحاب بسلام. ومن الأسباب التي طُرحت لتبرير الانسحاب كان نفاذ الذخيرة، وحالة الجيش المتردية، وغياب الأمن بكل اشكاله. لكن الكولونيل مورالس عارض بكل قوة وشراسة هذا القرار قائلا، ،لقد فات اوان الانسحاب،، واصر على اقواله، ،من المستحيل الوصول إلى ابن طيب،[78]، هذا الحصن الذي اتفقت عليه الأغلبية. وحدث أن نزلت تصريحات قائد الشرطة الأهلية كالصاعقة على جموع الحاضرين باستثناء مانيلا الذي كان يسانده. ورفض مورالس تقديم أي إيضاحات رغم إصرار العديدين. وحسب فيفيرو Vivero كانت كلمات مورالس واضحة، واستطرد قائلا، ،إنه من اللازم الخروج حالا للمقاومة،[79]. وهذا ما كان يجب فعله حقا، الخروج ليلا ومباغتة العدو ومداهمته بتحطيم حصونه، وتجنب الصعود إلى إيزومار تحت حرارة الشمس الريفية. كان هذا اقتراحا آخر، لم يوله أحد اهمية.

وفجاة طرحت فكرة المفاوضات وعقد معاهدة هدنة مع عبد الكريم، لا أحد يعرف مصدر هذا الخيار. فأولئك الذين بقوا على قيد الحياة فضلوا الكتمان والتستر على كل ماهو حساس. فاجاب سيلفستري باحتقار ان الزعيم المذكور لا قيمة له، وأردف انه إذا وافق الزعيم الريفي على الهدنة، فإن اتباعه سيقتلونه[80]. وبعد مشادات كلامية، تضارب موقفان اثنان، الأول ويمثله مورالس الذي يدعو إلى المقاومة والصمود في نفس المكان، والموقف الثاني الذي تبنته الأغلبية، ويقضي بالانسحاب الفوري. وفي الوسط كان مانيلا متوترا ومغتاظا يرقب عن كثب كل حركات الجنرال. فإذا وافق هذا الأخير على الخيار الثاني، فهذا يعني انه لن يشهد عمليات الانسحاب لأنه سيقدم على الانتحار. كان مانيلا يدعم مورالس دون ان ينطق أو يهمس بكلمة.

لم يتنازل مورالس عن موقفه عكس سيلفستري، وهذا مؤشر صادق على إحساسه بالعذاب وحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه. وفي النهاية أصدر قرار "الانسحاب المباغت" رغم معارضة مورالس. وانتهت الجلسة بتحديد موعد آخر للاجتماع في

الصبيحة الموالية على الساعة السادسة، وذلك لترتيب أمور الانسحاب، كإجراءات أولية تحثّ على المصادقة على سير المدفعية في الصف الثاني، مسبوقة بالأمتعة، والجرحى الذين (يصل عددهم ربما إلى مائتين) إضافة إلى ما تبقى من الذخيرة. أما الجنود المشاة كإجراء احتياطي ووقائي فمكانهم المؤخرة[81]. لم يكن الجنود يعرفون وجهتهم، ونفس الشيء بالنسبة للضباط، باستثناء البعض منهم.

وعند طلوع الفجر، وعلى الساعة الثالثة وخمسة واربعين دقيقة، كاتب برنكر سيلفستري من فندقه، «تلقيت في هذا المعسكر، برقية من الوزير يوافيني فيها برسالة كنت قد بعثت بها انت إليه من انوال، والتي من خلالها تعرفت على الوضعية المقلقة التي تجتازها، لذلك أود أن أعرف عنها المزيد من التفاصيل للنظر فيها». كيف يُعقل أن يحتاج برنكر للمزيد من التفاصيل عن الأحداث بعد كل ما عرفه من إيزا، وبعد كل ما يجب أن يستشعره بالنظر إلى منصبه وموقعه؟ كان برنكر يرغب فقط في إخبار سيلفستري بشأن المساعدات التي كان ينوي إرسالها، والتي اخبره بها إيزا. فما ضرورة العتاب إذن، واضاف، «بالرغم من ان هذه الإمدادات كانت ستؤمن لي النجاح على جبهة بني عروس التي دخلت الآن مرحلة هامة من الصراع»[82].

كانت هذه المساعدات الموعودة، تثير قلق المجلس في انوال أكثر مما تطمئنه. ففي اجتماع للرؤساء، تم اعتبار المساعدات التي يقدمها المقيم العام غير كافية، وان الجيش يساق إلى كفاح مسلح عقيم، ستكون نتائجه وخيمة جدا على باقي الأراضي وعلى الأمة جمعاء[83].

وقبل انتهاء الجلسة، حضر واحد من المكلفين بجهاز الإرسال (لاس إيراس) يحمل بيده برقية أدهشت الكل. كانت الأنباء من مدريد تفيد بوجود كتيبتين في الساحل المجاور، سيتم إرسالهما في القريب العاجل. كان هذا بمثابة حلم، خلّف نوعا من الارتياح، لكن، وبمراجعة حسابات الزمن والأرقام، اتضح أن الحال لن يتغير عما هو عليه. فجاء رد فعل سيلفستري أمام هيئة المجلس برمته بنوع من "العجرفة والتكبر"، واصر على تحمله مسؤولية إصدار الأوامر بالخروج من هذه المواقع، واخبر الكل قائلا، «إنني سأتولى إخبار الحكومة بهذا القرار، وأكد انه سيجيب عن كل الاستفسارات بنفسه شخصيا، وحذر قائلا، «وتذكروا جيدا في الغد ما قلته اليوم»[84].

وفيما بعد قرر سيلفستري موافاة إيزا ببرقية اخرى، ستكون الأخيرة من نوعها، ونفس الشيء فعل مع برنكر.

كان الجنرال متوترا جدا، وقد لاحظ القائد بالكارثيل Valcárcel كيف أن سيلفستري أعاد كتابة النص مرتين وطفق في مراجعته. كانت النسخة الثالثة احسن بكثير من سابقاتها. وحول الوضع في المنطقة قال: «إن قواتي بأنوال تتعرض لهجوم مستمر، ومنابع المياه بعيدة عنا، أما العدو فقد قطع علينا خط التموين واصبح من المستحيل الاعتناء بجرحانا؛ ليس لدي ذخيرة تكفي ولو لمعركة واحدة، وختم قوله بما يلي: «لهذا فإنني اتخذت قرارات سريعة بالانسحاب، وانا اتحمل كل المسؤولية في ذلك. والبداية ستكون في اتجاه خط ابن طيب - بن سعيد. حدث أن سُجل خطأ في البرقية، "فابن سعيد" لم تكن نقطة طوبوغرافية ولكنها كانت قبيلة. وظن سيلفستري انها ماتزال وفية لإسبانيا.

كان سيلفستري يسعى لإرضاء ضميره بقوله لإيزا انه واثناء عملية الانسحاب: «سأستولي على كل المواقع التي ستسقط في يدي ريثما اتلقى المساعدات التي ستوافيني بها سعادتك»[85]. كان لا يتطرق في حديثه إلى ابن طيب، وكأنه عدل عن الهروب. فالانسحاب بالنسبة له كان استسلاما وعارا وليس عملية إنقاذ الجيش. ولكي ينجو من تأنيب الضمير وملاحقة العار فكر في الموت. كان غموض النص دليلا على قرب حلول فاجعة عسكرية، وكان سيلفستري يطلب من إيزا موافاته بالمساعدات عبر مليلية. كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحا بأنوال حينما أرسل إيزا ردا باستلامه للبرقية بعدها بنصف ساعة.

واشرقت الشمس على تلك الحفرة الكبيرة، حيث طلب التنينتي كولونيل مارينا من القبطان كوريا Correa العمل على تشكيل وحداته، والتقدم بها نحو منبع الماء لإقامة حصن هناك. كان كوريا لا يعلم شيئا، فأطاع الأوامر، وشق طريقه نحو المكان المشار إليه. وفيما بعد ندّد النائب العام السيد آنخيل رومانونس في محضر أعده ايالا إي رويث دي لافونتي Ayala Ruiz de La Fuente[86] بهذا الإجراء، معتبرا أن كوريا كان ضحية استغلال. وكانت النتيجة أن وضع مارينا في قفص الاتهام. وبموازاة مع ذلك، أُصدرت اوامر اخرى تقضي بانسحاب معسكرات تاليليت نحو أنوال، ومعسكرات بوجماجن نحو افراو، اما فرق الكانطرا فانتقلت إلى المناطق الخلفية

لإيزومار، وذلك لتامين عملية الانسحاب. أما أصحاب المدفعية التي كانت في أعلى الممر فلم يخبرهم أحد.

ثمة ضوضاء غير عادية كان مصدرها خيمة سيلفستري، كان الضباط يدخلون ويخرجون في عجلة، والنتيجة كانت إلغاء الانسحاب، فالجنرال غير رايه: "سوف نقاوم".

رغم عدم الدعوة إلى عقد اجتماع ثان، فإن الأمور كانت تستدعي انعقاد لقاء آخر، حتى وإن غابت اغلبية العناصر المشاركة في صنع القرار. فحدث أن حضرت شخصيات بارزة ومرموقة كمورالس ومانيلا، وهناك اعلن كولونيل الكانطرا قراره بمساندة طرح الرئيس المسؤول عن الأمن (موراليس). وامام هذه القناعات الثنائية، تراجع سيلفستري عن موقفه. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا من يوم الجمعة الثاني والعشرين من يوليوز.

ارسل سابتي Sobaté برقية إلى القائد دولز Dolz المتواجد في الدريوش، وطلب منه موافاته بنصف مليون خرطوشة من نوع ماوسر، والف قذيفة لمدافع الجبال. كما طلب منه مدافع رشاشة، لأن أغلب الآليات كانت مترهلة ومتآكلة. وفيما بعد طلب من الملازم كورا Cura من هيئة المهندسين الذي كان بجواره، إعداد أدوات لتحصين الموقع[87]. كانت انوال تبدو مستعدة لأقصى مقاومة ممكنة.

وبعد ذلك استدعى سيلفستري الكومندان يامس Llamas والكولونيل مانيلا، وأوضح لهما، بدون مراوغة، اخطار الموقف وضرورة مغادرة المعسكر، لأن البقاء فيه يعني معاودة مأساة إيغريبن...[88]. فتلقى يامس وමارينا الأوامر بالاستعداد للانسحاب.

خرج ساينث Saínz من الدريوش بعد ان قضى ليلة من السفر على متن شاحنة ركبها بعد ان تعطلت سيارته. ونتيجة تاخره في الخروج من مليلية، التقى في الطريق بصديقين رغبا في معرفة وجهته، ولكي لا يُحدث ضجة اجابهما قائلا: «لا ادري، أظن انني ساتوجه إلى انوال». وصلت السيارة، وظن ساينث انه ليس من الضروري العودة إلى بيته لوداع زوجته مرة ثانية، فقد سبق وان قال لها: «إلى اللقاء، سآتي قبل موعد العشاء»[89]، لكنه سوف يتاخر ثمانية عشر شهرا قبل رؤيتها مرة اخرى.

شتات بانوال وحقيبة سيلفستري

حوالي الساعة العاشرة صباحا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز، سُلمت في مليلية للكومندان لوبيث رويث برقية عاجلة وصلت لتوها من انوال. فقرا توليو لوبيث نص هذه البرقية، «نحن بخير. سلام حار. خوان»[90] في ثلاث كلمات إذن، هذا مساعد سيلفستري السيد خوان نظيره إيرنانديث اولاغيبل، فاطمانت القيادة العسكرية، وما هي إلا دقائق حتى تغير كل شيء.

كان المجلس العسكري يعقد جلساته، بكيفية مستمرة، داخل خيمة سيلفستري، وفجاة دخل الكومندان بيار (وتحدث شهود عيان عن قائد آخر من شرطة الأهالي وهو السيد كارسكو) المسؤول عن كارثة ابران، وطفق يتحدث في صياح وجلبة عن خطر وشيك. فخرج الضباط لتقصي الأخبار، وهناك وتحت اشعة الشمس المحرقة تجلت للعيان "الحَركة" وهي تتقدم بخطوات متزنة عبر الطريق الملتوية. كانت الأعداد كبيرة، وقد وُزعت إلى ثلاث أو خمس فرق بحيث لا نتوفر على ارقام مضبوطة بشانها، فاعطت الانطباع على وجود جيش منظم وقوي. فعمَّ القلق، وفجاة بدات طلقات النيران تدوي عاليا، وعمّت الفوضى، فنادى سيلفستري على يامس Llamas، فوجد هذا الأخير صعوبة جمة في الصعود إلى خيمة الجنرال. وكرر سيلفستري اوامره التي جاءت على النحو التالي، «يجب أن لا يذكر القادة شيئا لضباطهم حتى لا يتسرب النبأ إلى الجيش، فيدبّ الرعب في النفوس وتعم الفوضى». وذكر سيلفستري يامس مرة أخرى بثلاثة امور، تلخصت في تعطيل وإتلاف المدفعية الخفيفة (اربع قطع) مع ترك المعسكر على حاله، واخيرا منع كليا اخذ الأمتعة[91]. قبل سيلفستري بفكرة الانسحاب لكنه لن يتحمل شبح العار الذي سيطارده بسبب هذا الهروب الجماعي، لكن ما حدث هو أن الكُل عارض الأوامر.

تجمهر عدد من القادة عند مدخل خيمة سيلفستري، ودخلوا في نقاش حاد وهم يتبادلون عبارات اللوم والعتاب الصارخ. وفي الجهة الأخرى كانت رصاصات الريفيين تحصد أرواحا على الدواب والرجال. واحتدم النقاش بين الضباط غير العابئين بالفوضى التي تحيط بهم، وراى القائد بيدرو شاكون فالديكانياس Pedro Chacón Valdecañas من

المدفعية، كيف أن الكولونيل مانيلا الذي كان رئيسا على تلك الثكنة، يحتج بقوله إنه الشخص الوحيد الذي صوت داخل مجلس الرؤساء بعدم مغادرة الموقع، وإنه مستعد للانتحار عوض الانسحاب. وفي رباطة جاش توسل شاكون لمانيلا بالعدول عن موقفه، لأن هذا سيؤثر سلبا على معنويات الجيش الذي يسمعه. لكن الكولونيل عقب بقوله إن الأمر لم يعد يهمه. تملك الجميع الشعور بالكارثة، وسرت بين الجند إشاعات مرعبة تفيد بأن الجنرال يبحث عن مسدس ليقدم على الانتحار[92]. كان الأمر منطقيا، فسيلفستري نادرا ما كان يحمل السلاح.

وحانت لحظة وداع أخرى مع مانويل فرنانديث سيلفستري دوارتي Manuel Fernández Silv. Duarte وهو يودع أباه ويقدم له التحية الرسمية. كان الاثنان يرغبان في كتم عواطفهما، واستعد الملازم للصعود إلى السيارة، ثم استدار عند سماعه لصوت الجنرال وهو يناديه بلقب الدلّل، كما في طفولته ،وداعا Bolete، "بوليطي"،. وسيروي مانويل هذا المشهد الدرامي للملك الفونصو الثالث عشر الذي استقبله بعد الحدث بخمسة أيام في جلسة خاصة. واعترف، ،خرجت دون أن أسلم عليه لتضايقي من الأحداث،[93].

كان جهاز الراديو مايزال بخير، وقام سيلفستري بإرسال آخر برقية إلى برنكر يخبره فيها بأن العدو يتقدم نحو الأمام في فرق يزداد عددها في كل لحظة، ولا شيء في حوزته سوى مائة خرطوشة لكل رجل، وانه أصدر اوامره بالرحيل إلى ابن طيب. وفي فندق تطوان تسلم البرقية ضابط طويل القامة يعرف باسم الكومندان خوان بيغبيدر اتيينثا Juan Beigbeder Atienza كان عمره 33 سنة، وهو من أصبح فيما بعد مقيما عاما ثم وزيرا للشؤون الخارجية (ما بين1942 و1944) في عهد فرانكو. وسجل بيغبيدر هذه الجمل المأساوية التي تنذر بحلول فاجعة قريبة وأسرع بتسليم النص إلى رئيسه برنكر[94].

كانت الساعة تشير إلى العاشرة وخمسين دقيقة، حينما انفجر المقيم العام غضبا، إذ تعجب من صدور قرار بالانسحاب دون إذن منه، خصوصا في لحظة حرجة ضرب فيها العدو الحصار على الجنود. كان برنكر يهم بالخروج زوالا إلى عاصمة المستعمرة، بالرغم من وعيه وقناعته بأن خطوة كهاته لم تعد مهمة بالنظر إلى الأحداث، وأحس

بأن السفر إلى مليلية، لا جدوى منه من الناحية التكتيكية. وكان بجواره كل من الجنرالان مارثو Marzo وباريرا Barrera. كان الأول رئيسا للقوات بتطوان، والثاني قائدا عاما بالعرائش. وذُهل الاثنان عند سماع الخبر، فاستشعروا هول الكارثة، التي ستنزل بكل ثقلها ليس فقط على سيلفستري، ولكن كذلك على الجيش وعلى إسبانيا. فكتب برنكر جوابه قائلا: «لقد علمت بالنبأ في هذه اللحظات العصيبة، واتمنى أن تفكروا في سمعة وهيبة إسبانيا قبل كل شيء». بعدها حول لإيزا برقية سيلفستري وضمنها تعقيبا ربما كان قاسيا -حسب تصريحات بعض المتتبعين- بوصول تلك البرقية إلى مليلية وبعد أن قراها نفارو على مسامع ضباطه ذكر واحد من الشهود وهو الكومندان لوبيث رويث أن البرقية المذكورة تم التعليق عليها بقسوة شديدة[95].

وحسب تصريحات فيفرو Vivero، كان الصواب هو الرد على سيلفستري بهذه الطريقة: «إنني أؤمن بقدراتك المعهودة وببسالة الجند المنضوين تحت لوائك، وهي أمور كافية للتصدي للوضعية الحرجة التي أخبرتني بها والتي تجتازها»[96]. كان بقاء الجيش رهينا ببقاء سمعة الجنرال، لكن هذه السمعة كانت على وشك الانهيار.

ولنا أن نتخيل رد فعل سيلفستري، فبالرغم من أن الجنرال لم يعد يهمه سوى إنقاذ شاراته العسكرية وأخلاقياته المهنية، وإنقاذ أوسمته كجنرال والحفاظ على وسام مساعد الملك، وربما حزام القيادة الأحمر كذلك، فإن العادة جرت بخروج سيلفستري للحملات العسكرية وهو يشد خاصرته برباط غير مزخرف، وهذا ما أكده سائقه الخصوصي أيوسيبيو كاسانوباس Eusebio Casanovas.

سلم سيلفستري لكاسانوباس كل لوازمه وقال له: «خذ هذه الحقيبة إلى البيت، فإذا تعذر عليك إيصالها، فالأولى بك الا تصل انت كذلك... مفهوم»[97].

لم تكن انوال تشبه إيغريبن، بل ابران بمساحاتها الشاسعة، وفوهاتها المفتوحة التي تتصاعد منها اعمدة دخان الحريق، كان الجنود المحاصرون منهكين. هكذا سقطت هذه المنطقة الاستعمارية التي كلفت اثنا عشرة سنة من العناء، وراح ضحيتها ثمانية آلاف أو عشرة آلاف من الإسبان، وكانت هذه الأحداث سببا لحفر نعش النظام.

صعد ساينث إلى إيزومار من جهته الجنوبية بعد أن خرج من الدريوش محملا بألفي كيس مملوء بالتراب، وهو كل ما تبقى في المعسكر. كانت الأوامر تنص على ثمانية

آلاف كيس لكن العدد كان أكثر بقليل من ذلك، وكان الهدف هو إقامة ثكنة عسكرية ما بين جبل الكديه وإينطيرميديا "ب". تلقى ساينث وعداً بالمساعدات الموعودة والمتمثلة في ثمانية آلاف خرطوشة للبنادق، لكنه كان يجهل تماما كل التفاصيل التي تخص شاحنات الماء. وعند مرتفعات إيزومار التقى بالقائد فورتيا Fortea والتنينتي كولونيل بريمو دي ريفيرا، ومن هناك شاهدوا هروب الجيش وعلموا ما حل بجنراله.

إيزومار: انهيار رجل جيش

لم تخرج من انوال كتيبة عسكرية منظمة، بل خرجت حشود تجردت من سلاحها عن طواعية. وضاعت كل المدفعية تقريبا، ولم يبق من عشرين مدفعا سوى ستة مدافع. وقام مئات الجنود برمي بنادقهم وعلامات التعب بادية على محياهم من جراء الركض السريع لإنقاذ حياتهم. لم يكن عدد الضباط الذين ساروا على هذا النهج بقليل، فدمروا بذلك الجيش تدميرا.

وبهذا التصرف وأد الضباط الذين خرجوا في السيارات العسكرية الأولى ما تبقى من روح المعنويات عند الجيش. ورغم إصرار سيلفستري على ترك الأمتعة، إلا أن هذه الأخيرة كانت تظهر جلية على السيارات، ففضحت بالتالي عمليات الهروب، كان الضباط يفرون وهم يحملون حقائبهم، وقُدر للقائد ساينث أن يكون شاهدا على وصمة العار هذه[98]. كما تسببت السيارات السريعة التي كانت تسابق الريح في زرع روح الدمار والشتات في صفوف الجيش. أما عن الضباط الذين لزموا أماكنهم، فقد علت وجوههم مسحة من الخجل والحيرة من سوء ما بشروا به من فرار، فاستعصى عليهم شرح الموقف لجنودهم الذين تملّكهم الغيظ والرعب، ففضلوا مغادرة رؤسائهم والفرار بدورهم. وتجدر الإشارة إلى أن بعض القياد رفضوا وبشدة كل اشكال الذل والهوان، فصمدوا إزاء الوضع. فكانت النتيجة أن ذبحهم رجالهم الذين تحولوا إلى وحوش، ومكث البعض الآخر عند الأسوار في انتظار ملك الموت. وحدث أن أعطى هؤلاء القلة النموذج المثالي للآخرين.

كان هاجس كل الفارين يتلخص في عبور ممرات إيزومار بسرعة، ومن حسن الحظ كان الجو يومها ملائما في تلك الظهيرة، فالشمس كانت في الخلف، وتجدر الإشارة إلى

أن إيزومار كان سلاح الريفيين الذي يرمز للفناء. وما هي إلا لحظات حتى انتشرت المذابح في الآفاق. وفور ولوج الحشود الكثيفة إلى الفج الجبلي، وتفرق وحدات الشرطة وفرق النظاميين، وصوبت الشرطة سلاحها نحو الجموع المزدحمة، فحلت الخيانة أو الثأر. المهم هو أن المجازر كانت على أوجها. وانصرف جزء من النظاميين لحال سبيلهم، في حين، لازم البعض الآخر أماكنهم لمواصلة القتال بقيادة الكومندان يامس[99].

عمّ الرعب والحقد الفج الجبلي الذي يمتد على مساحة قدرها ست كيلومترات، وتتخللها مجموعة من الخنادق العميقة. أصبح إيزومار بمثابة مقبرة جماعية ضمّت بين دفتيها كل الذين أُعدموا من الخلف وذبحوا بالسيوف، فضاع الجيش برمته. وحدثت مشاهد تقشعر منها الألباب، حيث كان يقذف بالجرحى إلى الأرض، فيتم الاستيلاء على دوابهم. وضاعت المدفعية بسبب تفرق شمل الخيول التي كانت تحملها، فتاهت البغال هائجة واعتلى صهوتها الجنود، ولقي بعض الضباط مصرعهم على يد جنودهم بسبب محاولتهم صد هذه الهيستيريا التي تفشّت بشكل مخيف، ونزع البعض الآخر ليس فقط أوسمتهم الشرفية، بل كذلك احذيتهم العسكرية، واحزمتهم التي تدل على وظيفتهم، التي كان من واجبهم الإخلاص إليها بصفتهم قادة جيش.

طاب المقام لسكان القبائل في المرتفعات، في حين بقيت مجموعات من اللصوص في الأسفل تنتظر انحدار الجنود الإسبان وأمتعتهم من الأعلى لينهبوهم. وهكذا راح الإسبان ضحية مذبحة منظمة، فلاحت من بعيد كوكبة من النساء الريفيات وقد اتين من المداشر المجاورة ليشاركن في هذه المذبحة الشرسة، مدفوعات بأحقاد قديمة ودفينة، ورغبة في الأخذ بالثأر سريعا، كن يجهزن على الجرحى بالسكاكين والهراوات وبالأيدي كذلك، ويرشقونهم بالحجارة. فيسخرون منهم ويذلونهم كما كان الحال مع القائد سباتي الذي سيئت معاملته من طرف النساء الريفيات، حيث جرّدنه من ثيابه واخذن كل ممتلكاته النفيسة[100].

واخيرا ضاعت المدافع، والعربات، والبغال، والرشاشات، والأمتعة، وصناديق الذخيرة، والشاحنات المحملة بالجرحى، الحالمين بالفرار أحياء من قلب إيزومار.

اما الأحياء، فقد واصلوا طريقهم وسط زوبعة من الغبار الخانق، لا يُسمع من خلاله سوى صوت صياح وجلبه.

ومن جهة الفجاج الجبلية، ظهرت فجاة مجموعات اخرى من الجلادين، كانت غالبيتهم من الشباب والشيوخ المسلحين بـ"غُميات" Gumías، كان الغضب يتملكهم، فراحوا يبحثون عن الجرحى فيجهزون عليهم دون رحمة ولا شفقة، غير عابئين بتوسلاتهم، فيقضون عليهم وينزعون عنهم سراويلهم ليبتروا في عصبية شديدة أعضاءهم التناسلية ويضعونها في أفواههم.

موقع برنيسين، ونفس الرحيل

اصبحت القشلة التي تحيط بإيزومار، مهجورة وخاوية على عروشها وهي تنفث دخان الحريق الذي نسفها. ولم يبق من المدافع التي كانت هناك حتى فجر الواحد والعشرين من يوليوز سوى مدفع واحد. وفي الصبيحة الباكرة غادر القبطان بلانكو المكان بعد قضاء ليلة مع جنده. في انتظار اوامر سيلفستري، وعند وقوفه بإحدى الساحات، لمح من بعيد سحابة كثيفة من الغبار، وما هي إلا لحظات حتى عمت الفوضى أرجاء المنطقة، ودنت منه حشود الريفيين. ولم يبق له من الوقت سوى خمسة أو ستة دقائق، فرفع عينيه نحو إيزومار. هناك كانت مدافع اخرى تكفي لحماية الرجال المنضوين تحت لوائه ومسؤوليته، وعددهم مائة رجل[101]. وبكل هدوء أصدر أوامره لأتباعه بتوجيه فوهة المدرعات نحو مصدر الضجيج. كانت المدفعية الجبلية الخامسة هي الوحيدة التي تمكنت من الوصول إلى الدريوش سليمة.

كانت النار تلتهم إيزومار في شراهة، في حين كانت المدافع تصوب فواهاتها نحو افق يشهد على احتضار الجيش.

وعلى راس إيزومار كانت هناك قيادتان مشؤومتان، اصبحتا مصدر غموض وإحباط معنوي لكل وحدات الجيش، إذ كان القائد خواكين بيريث فالديفيا Joaquín Perez valdivia على راس هذا الموقع، يتزعم ثمانية وتسعين رجلا، ويساعده في ذلك مساعداه، الملازم اغوستين الفار غونثاليث Agustin Alvar González، وإنريكي بالدس Enrique valdes، وينضاف إليهم خوصي غديا ميان José Guedea Millan برفقة ستة وثلاثين

رجلا، علاوة على خمسة جنود من المهندسين، والطبيب بريميتيفو غوتييرس اورطاسون Primitivo Gutiérrez Urtasun، والملازم رومان رودريغيس ارانـدو R. Rodríguez Arando بتسعة عشر جنديا من فرقة المدفعية، وكان هو المسؤول عن المدافع. المجموع كان هو مائة وستة وستين نفرا. وكان هناك كذلك ضابط سابع وهو الكومندان خسوالدو مارتينث فيفاس Jesualdo Martínez Vivas المكلف بالسهر على العتاد الحربي، والمتواجد بتلك النقطة الاستراتيجية، فكان يقوم باستبدال القطع القديمة من نوع كروب Krupp باخرى من عيار 75 ملم وطراز سان شامون[102].

وصل مارتينث فيفياس إلى إيزومار يوم الثامن عشر من يوليوز. وخلال اربعة ايام كون فكرة شمولية عن التكتيكات. فإيغريبن كانت محاصرة، وانوال تتلفظ انفاسها الأخيرة وإيزومار يبسط جناحيه لحماية الجيش[103].

اعتبر مارتينيث فيفاس أن بيريث فالديفيا هو المسؤول عن إدارة تلك الثكنة العسكرية، فاحتدم النقاش حول هذه المشاذاة اللامعقولة في الكلام، فانبثقت كارثة أخرى.

وصبيحة الثاني والعشرين من يوليوز كان بيريث فالدفيا ومارتينس فيفاس بالقرب من اسوار إيزومار. وفجاة، لمحوا من بعيد عند منحدرات (الجبل) مجموعة من المورو وهم يهرولون في اتجاه انوال.

وبالرغم من أن الضابطين شهدا معا قدوم فيالق عسكرية في أعداد كبيرة، وجدّ منظمة تسير في اتجاه انوال، إلا انهما لم يتحركا وظنا انها قوات صديقة. وماهي إلا لحظات حتى دنت منهما سيارة عسكرية واقترب منهم، فارس كان يعتلي صهوة جواده فاخبرهما أن المقيم العام قد جاء في السيارة، وأنه يجب الانسحاب حالا من المعسكر[104]، فامتثلا للأوامر لأن هذا الأمر كان يناسبهما.

وعندما نزل المساعد غيديا إلى أسفل الطريق من دون حذر ليستطلع الأمر بعد أن ادهشته الضجة التي عمت المكان. لم يجد من حيلة اخرى سوى أن يعود أدراجه بسرعة. وبوصوله وجد كتيبته العسكرية مستعدة للخروج، فاخبره المساعد بانه تلقى الأوامر بالانسحاب من المكان تماما، كما فعلت الكتائب الأخرى[105].

وكانت هناك معلومة ذات اهمية كبيرة ساقها غيديا لبيكاسو، وتخص القوات المذكورة حيث قال عنها إنها شرعت في الانسحاب قبيل بدء الهجوم، فقامت

بتعطيل وإتلاف المعدات الحربية، واضرمت النار في المعسكر، هكذا وصل غيديا واتباعه إلى ابن طيب.

وفي دفاعه عن نفسه، ذكر مارتينث ان قوات إيزومار اتخذت قرارها بالانسحاب من الموقع، بعد ان علمت ان قوات انوال قد تخلّت عن ثكناتها. كما لو ان هذا القرار اتخذ باستفتاء الجنود والضباط. وقد بنى مارتنيث تأكيداته على ما صدر من أنوال من تقارير تفيد بانسحاب كل الكتيبة، وتوجهها إلى ابن طيب، وكذا بانسحاب مواقع الخط الاول في اتجاه نفس المكان[106].

واعتمد مارتينيث فيفاس على هذه الأحداث التي لم تثبت صحتها (حسب بيكاسو) ليوضح اسباب فراره الذي لم يعترض عليه "بيريث فلدفيا". وصلت الإهانة إلى اقصى حد عند التأكد بان المدافع التي كانت مشحونة لم تطلق النار، لأنها لم تلمح العدو الماثل امامها[107].

الجهة الأخرى لإيزومار: تحصينات من الفرسان والمشاة

كانت الكتائب الخمسة من الفرقة الرابع عشرة للفرسان، والمسلحة بالسيوف والمدافع الرشاشة، قد اتخذت مكانها خلف إيزومار. وكان فرناندو بريمو دي ريفيرا إي أوربانيخا F. Primo de Rivera y Orbaneja، هذا الأرستقراطي من خريس Jerez والماهر في المسايفة، والبالغ من العمر اثنين وأربعين سنة، والمنتمي لفوج 1898 هو الرئيس الثاني لهذه الفرق. لم يكن يعرف شيئا عن مانيلا، لكنه كان يثق في لقاء قريب مع هذا الكولونيل، كان يراس أربعمائة وواحدا وستين رجلا؛ اثنان وعشرون منهم ضباط، واربعمائة وتسعة وثلاثون جنديا حسب لوائح بيكاسو[108]. هذا كل ما كان في الدريوش.

منذ سقوط إيغريبن، والتنينتي كولونيل يحافظ على حالة الاستنفار بين وحداته العسكرية. وعند الليل توقف دوي المدافع الصادر من انوال. كان الكل يعلم بأن نفارو يتواجد بمليلية، في مباحثات لمساعدة سيلفستري. لم يذكر بريمو لرجاله شيئا عن هذا القبيل، حيث تقدّمت كتائب النظاميين في اتجاه الخندق الكبير، وعمّ صمت رهيب في الخلف.

ومن أعلى إيزومار، راقب فرسان بريمو عن كثب تحركات جنود بيريث فلدفيا. كانت مدافع القائد بلانكو قريبة من المكان، وبعيدة قليلا عن سفح الجبل. وكانت المدفعية تبدو

جاهزة وعلى اهبة الاستعداد لإطلاق أول قذائفها. لم تكن فكرة الانسحاب تخطر على بال احد. وفجاة سمع ذوي إطلاق نار قوي تردد صداه في الجبال، ولاحظ فرسان بريمو ارتفاع زوبعة من الغبار في الشق الشمالي لإيزومار. لم يكن بإمكانهم التوقع او التنبا بالأحداث التي افرزت هذه الضجة، بهذه السرعة الهائلة. وفي هذه الأثناء مرت سيارة عسكرية سريعة، تتبعها شاحنات محملة بالجرحى، فتقدمت بكل سرعة نحو الجهة الجنوبية للممر الضيق، وما ان راى السائق الفرق العسكرية حتى اوقف سيارته، وفي ثلاث جمل مقتضبة لخّص الضابط الطبيب الفاجعة بقوله إن سيلفستري ربما لقي حتفه ومعه كل مساعديه، واضاف ان شرطة الأهالي انضمت إلى العدو وقامت بقتل كثير من ضباطها، فتشتتت طوابير انوال. لم يعرف احد مصير مانيلا ومورالس، وهكذا انصرفت السيارة، وتنبا بريمو بالنتائج قائلا: «سيهرب كل الجيش»، وهو المسؤول عن الفرق.

وصلت سيارات عسكرية اخرى، ونزل من إحداها قائد توجه نحو ساينث، حيث وافاه بالخبر اليقين، خبر ارتعدت له فرائص ضابط هيئة الأركان. إنها نهاية الجيش، «لقد انتحر الجنرال»[109].

جمع بريمو دي ريفيرا ضباطه، وشرح لهم تفاصيل ما جرى، مؤكدا أن الوقت قد حان للتضحية في سبيل الوطن. وهكذا انتظمت مدفعية بلانكو جانبا، واصطفت المدافع والعربات وكذا الخيول والرجال في صفين جد متناسقين. فتبادلت الفرقتان التحية عند تقاطعهما، واخذت كل واحدة منهما طريقها.

كان الغبار يلف إيزومار، وكان الرجال كالحمقى يهرولون عن اليمين وعن الشمال. كان الكل يركض ويركض، وسقط العديد من جراء القصف، وقام رجال فرقة الكانطرا بامتطاء صهوة جيادهم بعد ان وضعوا المدافع في المكان المناسب.

وقبيل انطلاق الهجوم الأول، لم يبق لبريمو دي ريفيرا سوى وجهات ثلاث على اليمين وفي الأعلى، ولم تبق أي راية إسبانية ترفرف في إيزومار. كانت قوات بريث فلديفيا قد اعلنت انسحابها. وفي الخلف جهة اليمين، كانت الطلقات النارية جد قوية في الجهة الوسطى "ب"، وكان رجال بيريث غارسيا يقاومون. وفي الخلف جهة اليسار، كان علم الحرب يرفرف خفاقا في المنطقة "أ". حيث كان إسكريبانو Escribano واتباعه

يقاومون. كانت فرقة الكانطرا على وشك الوقوع في فخ الحصار. شيء واحد كان يلوح في الأفق، الهجوم في الحال.

كانت فرق كل من الملازم بواس Púas والقائد شيكوطي Chicote تفتح النار على المقاومين باستمرار، فجرت فصول قتال شرس في الهضاب، والخنادق، والمنحدرات، وحتى على الطريق نفسها. وبعد دقائق اضرمت النيران. فبقي رجال الكانطرا لوحدهم. احترم العدو مقاومتهم وفضل أن يصب جام غضبه على الفارين الذين كان من السهل قتلهم. في حين بقيت قشلة ابن طيب تنتظر الإغاثة. فخطط بريمو دي ريفيرا لعملية إنقاذ محكمة، وفيما بعد خرجت الفرق العسكرية بخطى مرتابة، متوجهة نحو الدريوش.

وبالنسبة للمواقع الوسطى الثلاثة "ا" - "ب" - "ت" المرابطة بإيزومار، فإن الموقع الأخير أُبيد أثناء عملية الفرار الجماعية. فلقي الكل حتفهم، وذكر ميغيل برس غرسيا Míguel Peréz García رئيس المعسكر "ب" للقائد خيسوس خيمينيث أورطونيدا Jesús Jiménez Ortoneda أنه لم يتوصل باي أوامر، ومع ذلك كان سيموت وهو يؤدي مهمته[110]. كان خيمينيث من رجال الشرطة المكلفين بالدوريات الاستطلاعية. وقبل هذه الأحداث بيوم واحد تلقى اوامر صارمة من القائد بيار، تنص على مراقبة تحركات القائدين، بورحاي وعبد الله وقتلهما إذا ما حاولا الفرار. واكتفى القائد بمراقبتهما حتى الدريوش، حيث هرب بُورحاي ليلة الثاني والعشرين والثالث والعشرين من يوليوز في اتجاه وجدة. وقد تمكن هذا الريفي من خيانة الفرق الأهالية، فبعد ان تملكته الشفقة والرافة، اخلى سبيل خمسة من الجنود الإسبان الذين كانوا هناك[111]. ومن إيزومار، كان خمينيث يلاحظ كيف ان بوجماجن Buymeyan كانت تحترق، بينما في المقابل كانت أنوال تغرق في صمتها. وبعد ان انهى حديثه مع بيريث، استأنف مسيرته، إذ كان على موعد آخر مع القائد فورتيا الذي كان يصحب العديد من «القياد المورو» الذين ابعدوه عن الجبل حتى لا يرى الكارثة[112]، وعندما لم يعثر خمينيث على احد، واصل سيره حتى ابن طيب.

كان المعسكر "ب" يستعد لمواجهة العدو، وكان بيريث واثقا من نفسه. فظن ان جيوشه كافية لخوض القتال. فالعدد لم يكن هينا، خمسة وتسعون من جند سرنيولا،

وأربع مهندسين، وأزيد من أربعين رجلا من شرطة الأهالي. وكان بجوار القائد كل من الملازمين مانويل سوطو كوندي Manuel Soto Conde، وإنريكي دي أورا ميلغارس Enrique de Hora Melgares، علاوة على المساعد إسديرو لوبيث كمنيا Isidoro López Camiña، كان القائد يتوقع هجوما شرسا، وما هي إلا لحظات حتى حلت الصواعق بصعود مجموعات من الريفيين إلى الجبل. واستمرت الهجمات والقتال طيلة خمس ساعات، توفي خلالها بيريث وواحد من مساعديه. فحاول القائدان الآخران صحبة ثلة من الأحياء الانسحاب، لكنهم حوصروا في الوادي المحادي للمعسكر حيث لقوا حتفهم، باستثناء ثلاثة من الجنود الذين تم أسرهم[113].

وفاة سيلفستري الأسطورة، جنرال يتكشف

شكلت وفاة سيلفستري بأنوال جزءا من الملحمة الإسبانية والملحمة العسكرية، فصارت قصة كلاسيكية، أسالت الكثير من المداد. كانت نهاية رجل يائس تلمس في الظلام طريق الهدى والنجاة. نهاية جنرال أرهقه القلق والشعور بالذنب، نهاية رجل حرب كان كل همه هو إنقاذ شرف الجيش، في حين، كان العديد من القياد والضباط الآخرين لا يهتمون سوى بإنقاذ حياتهم ومكتسباتهم. إنها نهاية قائد شجاع أبى أن يطاطئ رأسه، ويستسلم في حضرة وزيره أو ملكه. نهاية خادم أبيّ خدم الحكومة، وكانت له صداقة وطيدة بالمقيم العام، فتركه الكل لوحده يواجه مصيره ويتزلف للانتحار.

وقصة وفاته أسالت الكثير من المداد، كما سلف الذكر، فتعددت الروايات التي اتخذت في اغلب الأحيان طابعا أسطوريا[114]، وتعددت الإشارة إلى المغامرة الألفونصية بالمغرب، والحكايات جسدت وفاة شخص ماتت معه اخلاقيات وسياسة الدولة والنظام برمته.

حافظ سيلفستري على مناعته وهدوئه، ويمكن القول بأنه استعاد الهدوء أخيرا بعد غياب طويل. فبات يتحكم في اعتداله. فودع ولده، وقطع جل اتصالاته مع العالم الخارجي، كما أصدر اوامره لكل من أرياس ولاس إيراس بتحطيم محطة المكالمات اللاسلكية. كان مانويل أرياس دي لاباث في الثانية والعشرين من عمره[115]، وبجواره كان

لاس إيراس، لم يكن تحطيم جهاز الاستقبال يعني فقط التنازل عن أي مساعدة خارجية، بل كان في حد ذاته رفضا لأي حل من الحلول. فامتثل ارياس ولاس إيراس للأوامر وانهالا على الجهاز بالفأس[116]. كانت بضع ضربات كافية لتنفيذ المهمة.

واحيطت بسرية بالغة قصة ما إذا كان سيلفستري قد اجرى محادثات ام لا، مع المقيم العام في تلك اللحظات الحرجة. فهناك من يؤكد صحة هذا القول (الثوغاراي Alzugray)[117]، وهناك من يكذبه (برنكر)، اما بيكاسو فقد وصف الاسقاطات باللحظة المظلمة في تاريخ الخروج من انوال[118]. واما سيلفستري فكان يتحين الفرصة المناسبة والمعقولة لينهي الأمر مرة واحدة.

لمح القائد سباتي sabaté، رئيس اركان الهيئة الحربية سيلفستري من بعيد، لكنه لم يجرؤ على التحدث إليه. لن ينسى ابدا تلك الصورة «صورة الجنرال وهو يخترق شساعة الكارثة، كان يبدو وكأنه غير عابئ بالخطر الذي يحدق به هناك خارج المعسكر العام، وهو معرض مباشرة للنيران الكثيفة. كان صامتا لا يبالي بكل ما يلف به من اهوال»[119]، فذهب سباتي للبحث عن مانيلا وموارلس، في حين بقي سيلفستري وحيدا مقتنعا باختياره.

وكثيرون من راوه هناك (بيريث اورتيث، يامس، ثيفانطوس) بهيئته الشامخة والأبية، الشَجاعة والمتوثرة كذلك. وفي تلك اللحظة الحرجة تماما صاح في وجه كل المهرولين الذين مروا أمامه، والذين ذُعروا لمشهده وهو يقف في حزم وثبات لا يبالي بكل ما يحدث من حوله، ولربما كانت تلك هي اللحظة التي قال فيها، «ايها الجنود، اركضوا، اركضوا، فإن الغول آت» وهو ما يتنافى مع طبعه المتحدي والهزلي إزاء الموت. ومن يدري فربما كانت تلك الساعة كذلك ساعة سؤاله، «اتظنون انكم بهذه الطريقة ستصلون إلى بر الأمان؟»[120]، كانت المعنويات قد هوت إلى الدرك الأسفل، وهذا ما عكسته عمليات الفرار السريعة؛ إذ في اقل من نصف ساعة بات المعسكر مهجورا[121]. فلم يعد هناك احد يستطيع ان يصرخ سيلفستري في وجهه.

ركب الملازم أرياس والمساعد لاس إيراس دراجتهما النارية، كانت النيران الريفية ماتزال على اوجها، فراحت الكتائب ضحية الهجوم، وسقط الكل صرعى عند منحدرات

إيزومار، كان يجب الانصراف سريعا، فشهد الرجلان معا كيف أن سيلفستري ولج خيمته في صمت. تحرك الرجلان وما أن ابتعدا عن المعسكر بخمسين مترا حتى سمعا دوي طلقة نارية داخل خيمة الجنرال، لقد انتحر بلا شك[122]. أسرع أرياس ولاس إيراس بدراجتهما، وتوغلا داخل مجازر إيزومار، فعبراها إلى الدريوش ووصلا إلى اعرويت. فبقي لاس إيراس على قيد الحياة[123]. والتحق أرياس بالموتى (حسب رواية لاس إيراس سنة 1956 التي حكاها للوبيث فيرير López Ferrer) بعد أن أصبح هذا الملازم جنرالا.

اقتنص سيلفستري لحظة خلوة فوضع حدا لحياته. كانت النهاية سهلة، فهو لم يقم بهجمات انتحارية في مقدمة فرقته (التي ضاعت)، ولم يقم بمقاومات يائسة عند الأسوار. كانت ملحمة بسيطة.

كل المؤشرات دلت على أن سيلفستري، هذا المحارب البسيط اختار لحياته في لحظاتها الأخيرة بطولة متناقضة، فوفاته جاءت موجزة، رخيصة وغامضة. مات في خيمته. وكان بإمكانه أن يلقي بنفسه من مرتفع ليتبع مانيلا وموارلس، لكن الاختيار الصائب وقع على الانتحار داخل الخيمة، باعتبارها المكان الذي يحوي شاراته والنياشين الشخصية، والذي كان يؤمن حماية ولو ضئيلة أمام كل تلك الحماقات التي كانت فصولها تدور بالخارج.

قيمة رصاصة صائبة، وآخر رجال أنوال

حينما دخل سيلفستري إلى خيمته، ابتعد عنه مانيلا وموارلس، وهذا ما وثقه الجندي مورينو مارتين Moreno Martin الذي بقي على قيد الحياة من فرقة الكانطرا. كانت الطلقات الريفية ماتزال على تقاطرها دون أن تخلف ضحايا، لأن الشطر الكبير من الجيش كان قد فر بجلده، كانت الأرض مكسوة بالأمتعة والسلاح والسيارات، وكذا بالجنود الموتى الذين أبلوا البلاء الحسن في القتال والصمود.

كان السؤال الذي طرحه برنكر في قسوة «هل كان هناك قتال في أنوال؟»[124]، فكان يجب طرحه على قيادات الجيش والحكومة حتى على الدولة نفسها.

ذكر أحد حرس سيلفستري وهو إيوسيبيو كاسانوفار Eusebio Casanovar أنه انتظر الجنرال في أنوال، حتى آخر لحظة، وأن محرك سيارته لم يتوقف عن الحركة حتى

الدقيقة الأخيرة. وحسب شهادته، فإن الكومندان إيرنانديث هو من الح عليه بالعودة إلى مليلية. وفي النهاية، امتثل للأوامر بعد ان جمع بعض حقائب وامتعة الجنرال. رحل كاسانوفار لوحده على متن سيارة سيلفستري، وفيما بعد ذكر انه اوقف السيارة عند وصوله إلى إيزومار، فربما يحتاجها الجنرال[12]. وعلى بعد ستة كيلومترات من انوال المهجورة، والتي باتت النيران تلتهمها، كانت هناك رواية اخرى تستر عليها كاسانوفار، وهو انه كان يحمل معه نجل سيلفستري. وهو ما يعلل انتظاره الملح للجنرال عند قمة إيزومار، انتظار لا فائدة منه.

كان **إرنانديث** (سكرتير سيلفستري)، و**مانيرا** (مساعد الجنرال) من الأوائل الذين سقطوا ضحية الهجوم. ربما انهما انتحرا اقتداء بالجنرال، فهذا ما كان يتطلبه شرفهم، وهذا ما سمحت به الأهوال التي كانت تحيط بهم.

وبقي مورالس ومانيلا صحبة خمسة وعشرين من الجنود، فشكلوا حلقة دفاع مؤثرة. وصعد الجميع إلى إيزومار. كانوا آخر من خرج من المعسكر تقريبا، إذ بقيت ثلة من المقاومين في الخلف. وكانوا هم الأوائل الذين لقوا حتفهم؛ بدءا من جثث الكتيبة الأولى للقبطان انطونيو غوميث إغليسياس antonio Gámez Iglesías، ومجموعة من المهندسين الجنود تحت إمرة الكومندان سانتياغو غونثاليث موني Santíago González Muné، وكوكبة من رجال المدفعية الملتفون حول القبطان ميغيل دي لاباث أوردونيا M. de la Paz Orduña، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثين سنة، وكان يكبر اخاه فيدريكو الذي توفي بإيغريين بسنة واحدة.

لقي دي لاباث أوردونيا حتفه، وسقط بعده سانتياغو موني الذي قُتل عند اسوار المنطقة. وما هي إلا لحظات حتى قُتل بونثي Poncé عند مشارف المعسكر. فتوفي الكل، باستثناء غوميس إغليسياس[126]. ورغم ذلك بقيت قلة من الجنود مع الملازم أورناطو إرنانديث روميرو Hornato Hernández Romero، الذي احتمى بإحدى التلال. كان إرنانديث يصدر أوامره بإطلاق صفارات[127]. وما أن رأى الكولونيل مورالس ومانيلا يدخلان في اشتباكات شرسة عند الفجاج الجبلية حتى امر رجاله بالتراجع. وحسب ما يبدو فإن إرنانديث وجنوده كانوا من الأواخر في انوال.

كان مورالس ومانيلا مايزالان في المقدمة، يتبعهما كل من خواكين داركور Juaquín D.Harcourt، وغوط Got الطبيب، وإميليو سباتي رئيس هيئة الحرب. وانضم إلى

القافلة فيما بعد كل من الكومندان اندريس بنيا رودريغيس Andrés Piña Rodríguez، والقائد إميليو مورالس ترافالينا Emilio Morales Travalina برفقة عدد قليل من الجنود (لا يتعدى العشرين)، فالتحمت الإرادات المتماسكة وصعدوا في حزم في اتجاه إيزومار. سلك إرنانديث صحبة فرقته نفس الطريق، واعطى الكولونيلان معا مثالا عظيما وهما يقاتلان في ساحة المعركة والمسدسات في أيديهما، كانا يرتديان ازياءهما الرسمية واوسمتهما. ولم يكن لديهما الاستعداد للاستسلام. كان بجوار مانيلا مساعد القائد رامون أرثي إرادير Ramón Arce Iradier الذي اثخنته الجراح فسقط ميتا بجوار قائده.

حصل الملازم خوصي ثيفانطوس كانيس José Civantos Canés، (مساعد مورالس في الميدان)، على إذن من الكولونيل، يسمح له بالذهاب للبحث عن حصان عوض ذاك الذي قُتل في معركة البارحة، فوجد ضالته. لكن، وفي طريق العودة إلى المعسكر، طالته رصاصة عدو (من جنود الشرطة الأهلية)، فقتلت الحصان الجديد الذي كان يمتطيه، وجرح الفارس بشكل طفيف في يده اليسرى. أصاب الجرح أصبعه فرتقه بشكل بسيط. وفي هذه الواقعة ضيع ثيفانطوس عشرين دقيقة حالت دون اجتماعه برئيسه الكولونيل[128].

وقتها كان سيلفستري في عداد الموتى، وكان من واجب الكولونيل مورالس ان يتقصى ملابسات الحادث. ومرة سمعه زملاؤه يؤكد وبشكل قطعي: «لن اقدم على الانتحار حتى ولو ضاقت بي الدنيا بما رحبت»[129]، واقسم الكل على ان يقتل بعضهم البعض إذا ما أصيبوا بجروح خطيرة، وذلك لتفادي عمليات التعذيب التي ينتهجها الريفيون في حق أعدائهم. وتحسبا لحالة الطوارئ وقف كل من بينيا Piña والقائد مورالس رفقة ثلة من الجنود عند جانب الطريق بنية الوصول إلى قمة إيزومار، وتلك رغبة لم تتحقق، إذ طالت رصاصات العدو كل من بينيا ومورالس فاردتهما أرضا، في حين ذهب الآخرون عبر الطريق وتوغلوا داخل الخندق.

كان مانيلا يتقدم نحو الأمام وهو يمتطي صهوة جواده، وكان الريفيون من جهة اخرى يتتبعون خطواته انطلاقا من عبوات بنادقهم. بداية، دخل إلى الخندق النحس الذي أصبح فيما بعد مقبرة، فخرج من هذا الفخ واقترب من إيزومار، هذا المعسكر الذي كان على بيريث فالدفيا ومارتينث فيفاس أن يدافعا عنه دفاع المستميت حتى

الموت. كان مانيلا واعيا بأهميته الحيوية، فحاول تنظيم نواة للمقاومة في الطريق، لكنه لم يتسنى له ذلك، فبقي هناك واقفا وسط الميدان الرحب يدافع عن نفسه بمسدسه، قرر الصمود حتى النهاية. فتوفي هناك.

اما عن مجموعة الكولونيل مورالس، فقد واصلت زحفها وصعودها عبر مرتفعات إيزومار الممتلئة بالدماء. كان الموكب يتقدم وسط دهشة ونيران الريفيين، وقبل الموت بلحظات، استدار مورالس في اتجاه القائد سباتي وقال له: «ارايت كيف انني كنت على حق؟»[130].

احتفظ الكولونيل بمسدسه، واخرج بندقية دافع بها عن نفسه، وثمة لبس حجب الحقيقة عن ساعة إصابة مورالس بعيار ناري في ساقه، فهل حدث ذلك عند نهاية الطريق أو عند دخوله إلى المنحدر الجنوبي؟. وما هي إلا لحظات حتى اخترقت رصاصة اخرى قفصه الصدري. وحسب رواية نفارو: «لما أحس مورالس بجراحه الخطيرة جدا، لم يجد من حل آخر سوى تحفيز اتباعه على المقاومة وتشجيعهم على التخلص من جسده الذي لن يكون سوى عبء ثقيل عليهم»[131]. وحسب رواية داركور، توفي مورالس عند عبوره الخندق، وحُمل على حصان، كان جسده مثخنا بالجراح[132]. ويمكن تلخيص رواية بيكاسو الجديرة بالتصديق على هذا المنوال: سقط مورالس جريحا، وكان يعرف أن تلك هي نهايته، بصفته قائدا ورجل حرب عمد إلى حث رجاله على الوفاء بالعهد، فلم يجرؤ أحد على فعل ذلك. وأدلى القائد داركور (الذي كان بدوره مصابا بجراح) بشهادة تفي بأن الكولونيل توفي حينما تخلى زملاؤه عنه، وتلك تصريحات لم يقبلها بيكاسو، بل ادانها[133]. أحاط الريفيون بمورالس فلم يتعرفوا على الكولونيل ذي الشخصية المتميزة، وقبل أن يقتلوه، عذبوه وفتحوا له جرحا كبيرا في وجهه.

وفي نفس المكان بإيزومار، استمرت الفوضى. ويشهد داركور كيف انه رأى واحدا من القواد يصرخ في وجه "ضابط" كان يستعد للفرار: «أيها الضابط لا تركض وتَقَدم للمقاومة»[134].

حصل الملازم ثيفانطوس على بغل اعطاه إياه عسكري من المدفعية، فأنهى به طريقه إيزومار ثم واصل سيره، لكنه لم يعثر على الكولونيل. فقد سبقه بلا شك، أو ربما مر بجانبه فلم ينتبه للأمر. وما هي إلا خطوات، حتى التقى ثيفانطوس وجها لوجه مع الكانطرا، فطلب من رئيس الفرقة المنكب على ردع الحركة المتاججة بإعطاء جواد أفضل من ذاك الذي كان بحوزته. فتملكت الشفقة بريمو دي ريفيرا فناوله إحدى

الخيول التي قتل اصحابها. وهكذا حصل ثيفانطوس على مطية ثالثة اثناء عملية انسحابه. وفي الدريوش ركب سيارة عسكرية سريعة، وفي نفس ليلة الثاني والعشرين من يوليوز حل بمليلية. وكان من أوائل الفارين من انوال.

لم يكن لغيره هذا الحظ، ولم يكن هذا الحظ مطلبا غاليا بالنسبة إليهم. وفي ابن طيب توفي الملازم إرنانديث.

خمسة دقائق على الهاتف في ابن طيب وإسبانيا لا تجيب:

وصلت السيارة التي كانت تقل نجل سيلفستري إلى ابن طيب وتوقفت هناك. فالسائق كان مجبرا على الوقوف، فتلك هي النقطة التي كان من المنتظر ان يلتقي عندها بالجيش المنسحب. لكن لا احد كان بالمكان، لا الأب ولا الجيش، فقط مجموعة خائفة من الجنود، وربما عند تلك النقطة الحساسة توصل مانويل فرنانديث - سيلفستري بالخبر اليقين عن النهاية المأساوية للجنرال.

كان جيش سيلفستري يحتفظ بأحسن وأجود احتياطاته بمنطقة ابن طيب. وكانت الثكنة العسكرية مكونة من مجموعة من المهندسين، وإدارتين للتموين والإمدادات، ونصف فرقة سان فرناندو، والفرقة الخامسة لألكانطرا، علاوة على فرق المدفعية التي كانت تمتلك قطعتين حربيتين من عيار 75 ملميتر، وجنود فرقة الهندسة البحرية وأطباء عسكريين. وحسب وثائق بيكاسو، وبتاريخ الثاني والعشرين من يوليوز كانت منطقة ابن طيب تحوي عددا كبيرا من الجنود، ستمائة وواحد وخمسون رجلا (اربعة وعشرون منهم من الضباط، وستمائة وسبعة وعشرون من الجنود) ومائة وتسعة وثمانون من الدواب[135].

ونظرا لأهمية الترسانة الحربية وخطورة الوضع، كانت ابن طيب تعتبر من الثكنات العسكرية المهمة جدا. لذا وجب وضعها تحت قيادة احد الكولونيلات. لكن مليلية فقدت كل رجالها، فثمة مجموعة كانت ماتزال هناك، ومنهم اراوخو Araujo (رئيس فرقة مليلية)، وارغويس Argüelles (رئيس فرقة المدفعية المختلطة)، وفرنانديث دي كوردوبا Fernández de Cordoba (رئيس قوات التدخل)، وخمينيس اوريبو Jiménes arroyo (رئيس فرقة إفريقيا)، ومورالس رينوسو Reinoso Morales (رئيس فرق سيرنيولا)،

وسالثيدو مولينويفو Salcedo Molinuevo (رئيس فرقة سان فرناندو)، وسانتيث مونخي Sánchez Monje (قائد هيئة أركان الحرب للإقامة العامة)، وفونطان سانتاماريا Fontán Santaímaría (رئيس إدارة التموين)، وطريفنيو Triviño (رئيس الصحة العسكرية). وبالنسبة لريكلمي Riquelme (رئيس سرينيولا) فقد كان في مدريد في فترة نقاهة دامت شهرا ونصف بسبب عملية جراحية اجريت له. لكنه لم يعلم بالكارثة حتى عودته إلى مليلية في الثالث والعشرين من يوليوز. الحصيلة كانت إحدى عشر عنصرا من القيادات العليا كانت حاضرة، وكان واحد منهم غائبا.

ولتبرئة كل من لوبيث بوثاس López Pozas وسانشيث مونخي Sánchez Monje، تجدر الإشارة إلى انهما امتثلا فقط لأوامر نفارو. وبقيت بذلك ابن طيب تحت إمرة قائد أثار -غيظ- وحنق بيكاسو بشكل كبير. إنه انطونيو لوبو ريسطوري Antonio Lobo Ristori الذي كان قائدا منذ شتنبر 1915، وينحدر هذا الشخص الذي ولد بقادس، من عائلة بحارة بسان فرناند، كان عمره يناهز السابعة والثلاثين ربيعا، كما كان من قدماء المحاربين بافريقيا، وبالرغم من أن مسيرته العسكرية عرفت جمودا وفتورا سنة 1921 [136]. فقد اظهر هذا القائد شجاعة وروحا ارتجالية، وقدرة على مواجهة رؤسائه ساعة ركونهم للخمول، ولكنه كان يفتقر إلى شيئين اساسيين، خطة المقاومة والأوامر.

أمران خطيران كانا يثقلان كاهل لوبو، الجرحى المتواجدون بالموقع، وقيمة المعدات الحربية التي لديه. فإذا قاوم بما لديه، فإن الجرحى سيموتون حتما، حتى وإن قاوموا فلا شيء يضمن سلامة مخازن السلاح وعدم سقوطها في يد العدو. لهذا قرر طلب التعليمات، كان هدفه هو الحصول على مساندة رسمية من احد قادته.

وبجوار الخنادق الكبيرة للمعسكر، انتظمت خطوط عريضة من الذخيرة. ودقق بيكاسو الذي رفع بيده خارطة ابن طيب، واستنتج انها ذخيرة أُعدت لأنوال، ولم يفته كذلك أن يُذكر بعرض الطريق (عشرة امتار)، واضاف الجنرال مفاجاة وثائقية جاءت عبارة عن رسم للقطع الأربع للمدفعية التي كانت منتظمة ومُعرفة بهذا الشكل، تينت Tent وإينريلي Enrile اللتان تم سحبهما من إيزومار، وهي قطع كروب القديمة التي عوضها مارتينيز فيفاس[137]. كانت لابن طيب أسباب قوية للذود عن نفسها، إذ كان في حوزتها ستمائة وواحدا وخمسين رجلا وستة مدافع، وماء وفيرا، علاوة على أغذية وذخيرة توفرت بكميات كبيرة.

كان بجوار لوبو، القائد خوصي كيريخيتا بابون José Querejeta Pavón والملازمان خايمي كامبس كوردون Jaime Camps Cordon وفيسنطي طورو طيشيا F. Toro Tellecheaa وكذا طبيب المعسكر الملازم فيليب بنيا مارتينيث Felipe Peña Martinez الذي اعتمد بيكاسو على شهاداته لإعداد تقاريره. وحوالي العاشرة صباحا خرج هؤلاء الضباط من خيامهم في انتظار معرفة مصير أنوال كان الضباط الذين ذاع صيتهم في الآفاق قلقين، كيف لا وصدى القتال يصلهم من بعيد، ودوي الرصاص ياتي من الجهة الأخرى لإيزومار. وفجاة تجلت لهم صورة واضحة من الصعب طمسها أو نسيانها، فعلى الطريق مرت، بسرعة كبيرة، ثلاثة بغال وحصان يركضون بلا فرسان في اتجاه السهل، فيما تقدمت في صخب الوفود الأولى من الرجال، وقد تبعثرت الوحدات العسكرية وعمت فوضى كبيرة. فالكل كان يركض حسب استطاعته في غياب قيادة واضحة[138]، كل هذا حدث بعد الزوال.

دمرت عمليات الانسحاب المرعبة روح المروءة فقتلت معنويات الجند، كما قضت على كل أمل في الانتظار والانتصار. كان مانويل فرنانديث سيلفستري دوراتي يتوقع الأسوأ، فإذا كان الجيش يفر على هذا المنوال، فإن والده قد مات بلا شك. فهو يستبعد ان يتزعم اباه عمليات الفرار هاته، وربما اكد هذا التقدير المؤلم السيد الثوغراي Alzugaray الذي كان برفقته هناك، واستاذن الكومندان بالصعود إلى سيارة أبيه، فوافق الملازم، وخرجا معا في اتجاه الدريوش. وواصلت الجيوش تقاطعها، واصطدامها مع بعضها البعض، كانوا كالموج العنيف الذي يصطدم بكل ما وُجد في طريقه، وفيما بعد واصلوا طريقهم إلى حدود أبواب ابن طيب للموت هناك.

نزل كل من لوبو وضباطه إلى قارعة الطريق، بهدف إقناع العناصر النافعة بالعدول عن فكرة الفرار. كان لوبو واتباعه يصدرون الأوامر ويهددون، حتى إنهم دخلوا في اشتباكات عنيفة، بنية استمالة الفارين، لكن كل الجهود ذهبت سدى، لأن الرعب تملك الجميع. وفيما بعد قصد لوبو أولئك الضباط الذين لمحهم من بين الحشود المتناثرة، والتمس منهم إعادة تشكيل قواتهم والدخول إلى المعسكر لتامين حمايته. لكن كل هذه التوسلات لم تجد آذانا صاغية، فعللوا موقفهم بعدم وجود أوامر بهذا الشان. عاود لوبو طلبه للتنينتي كولونيل مارينا الذي كان رئيسا ثانيا لفرقة سيرنيولا، والذي وصل في الساعات

الأولى من المساء صحبة مائة من الجنود الآخرين، فرفض مارينا. وبعد استراحة قصيرة رحل مع فرقته الخائفة. كان الملازم غيديبا شاهدا على هذه الأحداث. فهذا الضابط كان يصحب معه فرقته كاملة (والمكونة من ستة وثلاثين رجلا) بما فيهم ،ضحايا حادث الاختناق. كما رحل غيديبا مع قوات سرينيولا حيث كان مارينا رئيسا له، فوصل إلى الدريوش وهناك قرا اللائحة، وسلم الميت الذي كان معهم[139].

كانت نجدة ابن طيب متوقفة على قرارات قيادها العسكريين، ومدى قدرة الجيش على الصمود وتحمل المقاومة، ولولا فرسان الكانطرا الذين واصلوا في حزم دفاعهم المستميت، لسقط المعسكر بيد الحَرْكة. وواصلت أفواج الفارين من انوال عبورها، لم يكن العدد كبيرا، فالجموع تفرقت وتناثرت، كانت الشمس تميل نحو المغيب، وكان هذا نذير شؤم، على أن ساعة القرار حانت.

اتصل لوبو هاتفيا بدار الدريوش، للمرة الثانية أو الثالثة، وثمة مؤشرات دلت على تحدثه مع القائد دولز Dolz الذي سبق لسباتي وان كلمه بساعات قليلة وطلب منه إمداده بكميات كبيرة من الذخيرة. اغتنم لوبو هذه المناسبة، وطالب بصلاحية إصداره للأوامر، والح في التحدث مع أصحاب القرار. وفي الدريوش دائما، كان الملازم هناك الفاريث ديل كورال Álvarez del Corral الذي كان رئيسا على المنطقة، فاصر لوبو على التحدث إليه، أو إلى مرووسيه، لكن نفارو تاخر في الوصول. كان الوقت يمر بسرعة ولا حلول تلوح في الأفق، فقرر لوبو اتخاذ قرارات صارمة من تلقاء نفسه، وأخبر مخاطبه (دولز أو ضابط آخر) انه إذا لم يتلق اوامر في غضون خمس دقائق، وبالنظر إلى الحالة المعقدة التي يعيشها، فإنه سوف يعتبر هذا الصمت امرا بالانسحاب[140]. هكذا تقدم ضابط بإنذار اخير لرؤسائه، أأقاوم ام انسحب؟ اجيبوني بالله عليكم، لكن لا حياة لمن تنادي، إسبانيا لا تجيب.

كانت هذه لحظة عجيبة، لحظة حدد فيها القائد اجلا معينا، ليس فقط لرؤسائه، ولكن للنظام العسكري الإسباني برمته. كان لابد من اتخاذ قرار سريع، فإما القتال أو الفرار. لم يكن لوبو مسؤولا عن ستمائة وواحد وخمسين رجلا فقط، بل أيضا عن سبعين جريحا كان الملازم بنيا يعتني بهم. كان لوبو يعي جيدا النتائج الوخيمة، اعتبارا لما سمع وما راى، الشيء الذي جعله يحدد اجلا قصيرا، وحتى الخمس دقائق باتت بالنسبة إليه مدة طويلة.

ولنا أن نتخيل صورة لوبو وهو ينظر من خلال نافذة عنبره إلى طريق انوال التي باتت خالية من الجنود الفارين. كان لوبو يرفع سماعة الهاتف، وثمة صمت ثقيل يخيم على الخط من الجهة الأخرى. أما عن فرسان الكانطرا فقد لازموا أماكنهم، كانت عزيمتهم هي حصنهم المنيع، وكانت الأوامر الصادرة تؤكد على عدم الاستسلام. فإذا ما انسحبوا كانت تلك هي النهاية لا محالة. ومرت الدقائق ثقيلة، ولا حياة لمن تنادي في الدريوش. أصيبت إسبانيا بالخرس، وهو أمر اجبر لوبو (وهو يعرف انه سيُتهم وسيُحاكم على تصرفه ذلك) على إصدار امر بالانسحاب الفوري. تُرى اكان هذا هو الحل الوحيد الممكن؟ وكيف استقبل القواد الثلاثة الآخرين تعليمات زميلهم؟ لا شيء، لا أحد يدري، حيث إن الثلاثة **كيريخيتا** Querejeta **واوغستين غارثيا اندوخار** Agustin García Andújar، **خوصي بيريث بينيا ماريا** José Pérez Peña María، اعتُبروا في عداد «المفقودين». ونفس الشأن بالنسبة للوبو الذي لقي حتفه بجبل اعرويت، ولم يسلم القواد الأربعة والعشرون المتواجدون بابن طيب من الأذى باستثناء سبعة من الجنود الذين تمكنوا من العودة إلى مليلية[141].

وما هي إلا دقائق معدودة حتى أصبحت ابن طيب خالية على عروشها، وخرج كل الجرحى سالمين، كانت النجاة ليوم واحد فقط. وشاءت الأقدار أن يموت العديد في الطريق الرابطة بين الدريوش وجبل أعرويت، ومنهم من توفي في هذه الأخيرة.

خرجت الكتيبة من ابن طيب بفضل **ريكاردو شيكوطي اركو** Ricardo Chicote Arco، هذا الفارس الكاطالاني المغوار، ذو الستة والعشرين سنة من عمره[142]. كان قائدا منذ سنة 1918، وبإجراء اتفاق مع لوبو وكيرخيتا نظم هذا الفارس عملية الانسحاب على النحو التالي، الخيول إلى اليسار لتلفت أنظار العدو، والمشاة إلى اليمين، والجرحى في الوسط بجوار بنيا، ولوبو في المقدمة. فخرجت الكتيبة في اتجاه الدريوش، وبدأت النيران تشتعل في ابن طيب.

كان الدخان الكثيف يتصاعد نتيجة انفجار البارود، ويذكر نفارو بالعزلة، ويشير إلى ضياع عتاد حربي قيم. وقصد الريفيون هذه الإشارة السوداء، فأخذوا في نهب ما وجدوا من الغنائم.

واعرب بيكاسو عن استيائه الشديد من هذه الأمور، ووصف ما حدث بكونه نتيجة حتمية لحالة الفوضى والتفسخ التي عمت المنطقة، فشعر بغصة عميقة بسبب ضياع المدافع الستة.

خواطر وأحاسيس تعزف على إيقاع سريع جدا

عاد لويس رويث إلى مقر القيادة بمليلية بعد حضوره مراسيم دفن كل من ثابينو وروميرو zappino y Romero. وفور دخوله إلى المبنى، علم بأن انوال قد استسلمت. وقبل الاستيقاظ من الدهشة، وصله أمر من نفارو يدعوه للحاق به فورا[143]. كان من الضروري الخروج ،حالا، في اتجاه الدريوش. وانضم إليه ضابطان من هيئة الأركان الحربية، الكومندان إلوي غونثاليث سيميوني Eloy González simeoni والقائد إنريكي سانتيث مونخي إي كروز E. S. Monje y Cruz اللذان لقيا حتفهما في جبل أعرويت. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف زوالا من يوم الجمعة، الثاني والعشرين من يوليوز، حينما صعدوا إلى السيارات.

كانت القافلة الصغيرة تخترق وتقطع الطرق الجبلية باقصى سرعة ممكنة، فمرت عبر الناظور التي كانت في غفلة من امرها، وكذلك سلوان التي وجدوها في نفس الحالة من الهدوء. وفجاة بدت لهم عربة اخرى تقترب منهم بنفس السرعة، فتوقفت السيارتان، ،لقد التقينا بسيارة القائد العام،، فاطل القائد الثوغاراي براسه. ومما زاد من دهشة مجموعة نفارو هو وجه الملازم فرنانديث سيلفستري المكفهر. كان عمره لا يتعدى العشرين ربيعا[144]، وبجمل متقطعة حاول أن يروي لهم تفاصيل الأحداث. لكن الثوغاراي هو من تولى هذه المهمة واخبر بفاجعة الانسحاب، وموت الجنرال سيلفستري منتحرا، فنزل هذا الخبر كالصاعقة على الجميع. فوافق نفارو على مواصلة الطريق حتى مليلية. كانت حالة نجل سيلفستري، يرثى لها فامر نفارو لويس رويث بمرافقته، وأوكل إليه مهمة إشعار أخوات الجنرال بالخبر، وذلك بطريقة لبقة، حتى لا تعلم أمه التي كانت حالتها جد صعبة في تلك الأيام[145].

واصل الملازم والكومندان معا طريقهما نحو مليلية، وبالقرب من سلوان ظهرت سيارة عسكرية اخرى، كان اللقاء مع التنينتي كولونيل لويس أوغرطي Luis Ugarte من المهندسين، قدم الثوغاراي التحية واخذا طريقهما إلى الدريوش[146]. وحمل لويس رويث ونجل سيلفستري نبأ وفاة الجنرال إلى المعسكر.

مكالمة هاتفية إلى موقع المأساة:

حقا إنها كارثة

لم يترك نفارو خلفا له طيلة مدة غيابه، لأنه كان يفكر بالرجوع، وهو أمر نابع من قناعته وتفاؤله. كان المنصب سيؤول إلى ماسايير Masaller اعتبارا لأقدميته، لكن فرانثيسكو ماسايير إي الباريدا Francisco Masaller y Albareda، كولونيل المدفعية، ذو الستين عاما، لم يشأ أن يشغل هذا المنصب خصوصا بعد سماعه للإشاعات. فآل المنصب إلى الكولونيل خراردو سانتيث مونخي Gerardo S. Monje الذي ودعه للتو ولده إنريكي، واستلم في نفس الليلة القيادة داخل المعسكر. كان قراره هذا سببا في رفع دعوى قضائية ضده، وضد ماسايير[147].

بعث سانتيث مونخي ببرقية إلى وزارة الدفاع، يخبر فيها المسؤولين بالنهاية المأساوية لسيلفستري. لم يكن الوزير متواجدا بمقره في بوينا بيستا، فتلقى لاميلا Lamela الذي لا يكل ولا يمل نبأ الكارثة، وحملها لإيزا ونقلها هذا الأخير إلى الملك.

وهذا ما جاء في نص تلك البرقية التي وصلت إلى مدريد في الثاني والعشرين من يوليوز على الساعة الخامسة وخمسين دقيقة: «أخبر سيادتكم الموقرة، وبكل أسف، بنبأ بعث به نجل القائد العام، وهو أن والده الجنرال سيلفستري انتحر بعد عمليات إخلاء أنوال». عاود لاميلا إرسال البرقية إلى برنكر، مضيفا اقتراحا كاد أن يكون أمرا: «ونظرا للوضعية الصعبة، فإنني أرى أنه من الضروري والمستعجل جدا حضوركم إلى هذا المعسكر[148]».

وبعد ساعات، واصل المقيم العام طريقه في اتجاه عاصمة المستعمرة، كان ذلك يوم الثاني والعشرين من يوليوز، وحل الليل في الطريق على خندق العين الجديدة بتطوان، وتجاوز المقيم العام بسيارته صفوف الجنود المنتظمة والمتوجهة نحو سبتة، وعن تلك اللحظات. وأولئك الجنود تحدث برنكر بشكل مبالغ فيه (بصفته أولا رجل حرب، وثانيا شخصية قادرة على سبر أغوار النفوس)، عن هدف تلك القوات التي كانت ذاهبة للتخفيف من عبء الحزن الذي خلفته الهزيمة، وحتى إن تحركت مشاعرهم للتضحية في سبيل الوطن، والرغبة في رد الاعتبار والانتقام من هذا العار، إلا أن الإحباط والإحساس العميق بالحزن، والشك في سبل الانتصار، كان يردعهم[149].

وعلى الساعة الثانية صباحا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز، وبالضبط في منطقة الركبة، أيقظ التنيتي كولونيل ميان اسطراي Millán Astray الكومندان فرانكو قائد اللواء الأول، وبعُجالة كبيرة أخبره أن الهدف هو الوصول إلى الفندق، وذلك لإجراء "قرعة" بين مختلف الفصائل (وتلك ممارسة كان العمل جار بها في حالة الطوارئ). وبما ان الاختيار وقع عليه فليس امامه اكثر من ساعتين للرحيل[150]. وبعد القرعة وقع الاختيار على اللواء الأول الذي كان عليه الخروج للموت وتحدي المصير، وفيما بعد انصرف فرانكو واتباعه. وما هي إلا لحظات حتى تحركت الفرق الأخرى. لم تكن القرعة كافية.

قام أولئك الجنود المحترفون بمجهودات جد شاقة، حيث قطعوا المسافة الفاصلة بين الركبة والفندق في سبعة عشر ساعة مشيا على الأقدام. كانوا يمشون وكانهم اناس آليون، وبعد نوم دام ثلاث ساعات على قارعة الطريق (حيث لم يكن لديهم وقت ولا قوة لإقامة الخيام)، واصلوا السير حتى تطوان. فوصلوا على الساعة العاشرة صباحا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز. قطعوا ما يناهز مائة كلم في يوم ونصف[151].

وفي تطوان، كان برنكر على علم بمصير سيلفستري الذي اعتبره الكل في عداد المفقودين؛ اي في عداد القتلى. وكان يعي تماما حالة الجيش الذي بات بدوره يواجه خطر الاختفاء، لكنه لم يعرب عن هذه الانطباعات لإيزا، ولم يعرف شيئا عن نفارو.

كان نفارو، بالدريوش، في حيرة من أمره لا يدري ما العمل، فقد وصل إلى هناك على الساعة الخامسة والنصف، ولم يجد في المعسكر سوى الخراب والدمار. فجلس يتأمل في ما تبقى من الجيش، وبعد هنيهة شرع الجنود في الوصول، كانوا منهكين، تؤلمهم أقدامهم من جراء المشي، (لم يعودوا قادرين على السير). كان الجند يحلمون بالنجاة بأي ثمن، (وهو ما تؤكده صورة ثلاثة رجال فوق دابة واحدة) فاداروا ظهورهم لرؤسائهم الذين اهملوا بدورهم وحداتهم. كان هاجس الكل هو الارتواء بالماء حتى الانتفاخ، والارتماء في ركن من الأركان. كانوا كالمجانين.

وبعد وصول الجنرال نفارو بعشر دقائق، ظهر القائد لوبو متزعما فصائل ابن طيب التي تمكنت من النجاة، في حين لم تَسلم الجياد من الأذى. كان الدخان الأسود المتصاعد من تلك المنطقة البعيدة التي هجروها، دليلا على احتواء المكان لأكبر ترسانة إسبانية في الريف... كانت أصداء انفجارات ابن طيب ماتزال على قوتها، فمخازن العتاد كانت تشتغل اكثر وتحترق كلما وصلت إليها نيران لوبو واتباعه.

ضيع نفارو ازيد من ساعة واحدة ليتنبه في الأخير إلى خطورة واهمية التزاماته، فتحدث في إحدى برقياته التي بعث بها على الساعة السادسة إلا ربع عن مفاجأة مؤلمة، ،لقد التقيت بشلة من الجنود القادمين من انوال، والمعسكرات التي كانت في الجهة الوسطى، واعرب عن حيرته بقوله ،ليس لدي معلومات دقيقة حول الأحداث، وواصل حديثه قائلا، ،كما انني لا أعلم بالضبط مصير القائد العام،، ثم تطرق فيما بعد لموضوع كانت آثاره تظهر من بعيد حين قال، ،لقد اخبروني بانهم انسحبوا من ابن طيب، واشعلوا النار فيها، وهكذا تقدم باقتراح للنجاة فقال، ،ساحاول تنظيم كل العناصر التي تراكمت هنا،[152]. ولما قرا برنكر برقية نفارو وحللها بحضور إيزا، لم يتردد في وصف النص -بالمختصر جدا-[153]. ولا عجب في الأمر، فقد جرت العادة على أن تكون بداية الكوارث على هذا الشكل.

واخيرا استطاع إيزا تحديد مكان المقيم العام، فاجرى معه اتصالا تلغرافيا على الساعة الحادية عشر والربع من يوم الثاني والعشرين من يوليوز، حيث ذكر له، ،اظن انكم قد علمتم بما حل بمليلية كنتيجة حتمية لكارثة انوال،. آنذاك ذكر برنكر لإيزا برقية نفارو القادمة من الدريوش واضاف، ،ساتولى بنفسي معالجة هذا الوضع الحرج الذي أرهقنيْ وعجزت انا شخصيا عن تقديم الحلول له، بسبب التضحية الكريمة والبطولية للجنرال سيلفستري، وانهى برنكر حديثه مع إيزا بإعطاء تحليلات للوضع، حيث قال، لقد هزم الجيش، ومات الجنرال، وبات من المستحيل إصلاح الوضع. حقا إنها كارثة.

بات من واجب برنكر تعبئة كل قواته البرية والجوية، فطلب من إيزا أن يمده بسبعة كتائب من المجندين في الخدمة العسكرية، وذلك لتنفيذ الخدمات. وذكر إمكانية استغنائه عن جنود الصف او الفرسان. وفي نفس المكالمة الهاتفية ذكر للوزير انه ينوي الخروج إلى مليلية في غضون بضع ساعات، وذكره كذلك ،لن اجري اتصالات معك خلال السفر، لأن الناقلة الوحيدة التي استطيع التوفر عليها، لا تتوفر على جهاز لإرسال اللاسلكي،[154]. لن يتفاجا برنكر في أعالي البحار عند حدوث عطب في جهاز استقبال بارجة الأدميرال بونيفاث Almirante Bonifaz، فقد صعد إلى هذه المدمرة وهو يعلم بالعزلة التي سيغرق فيها والحكومة كلها.

كانت شمس نهار الثاني والعشرين من يوليوز قد اقتربت من المغيب، وواصلت وفود الأحياء من الجيش تقاطرها على الدريوش. كان الجنود ظمآى ومنهكين، اما معنوياتهم

فكانت تحت الصفر. والتقى الجندي فيثنطي غاريدو كوسيرو Vicente Garrido Cauceira المنحدر من كورونيا بالقائد لوبيث فيثينطي، الذي وصل في حالة يرثى لها، فقدم له الماء. وفي تلك اللحظة ظهر الملازم ثان بالسيرو Balseiro، وما ان لمحه حتى نهره بقوله، ،اغرب عن وجهي،. كانت الدريوش صورة للإرهاق وتانيب الضمير، وفيما بعد تم تعيين حرس للمنطقة. وحل الليل، وضاء بضوء القمر[155]، وظن الناس ان القائد خسوس لوبيث فيثينطي والملازم ثان البيرطو بالسيرو قد ابتلعتهما هذه المأساة[156].

ضياع جنرال في الدريوش وأدراج مكتبه تُفتح بالقوة

في يوم الثاني والعشرين من يوليوز، وعلى الساعة العاشرة إلا ربع، وصل إلى وزارة الدفاع خبر انسحاب جديد. إنه نفارو، فبعد إعداده للائحة بأسماء المواقع التي ضاعت، اكد ان معنويات الجيش ضعيفة، ولن يتعهد بقتال جديد. فتنازل بذلك عن المقاومة في الدريوش، وواصل حديثه قائلا، ،ارى انه لا سبيل إلى إنقاذ هذا الوضع سوى إرسال قوات للنجدة، قوات تكون كبيرة العدد وجد منظمة. بيد انني لا اشك في أن انسحابا من هذا النوع، اي بطريقة متدرجة، سيقلص حتما من رقعة الأراضي التي نحتلها،[157]. وصلت هذه البرقية إلى مدريد في الثانية وعشر دقائق من يوم الثالث والعشرين من يوليوز.

ينتمي فيليب نفارو إي ثيبايوس إسكاليرال F. N y Ceballos escaleral وهو "بارون" كاسا داباليوس إلى فرقة الفرسان، وهي نخبة الجيش. ولد بمدريد في الواحد والعشرين من يوليوز 1872، كان ابوه "بريغادير" يدعى كارلوس نفارو باديا Carlos Navarro Padillo [158]. كان فيليب نحيفا، تغطي وجهه لحية كثيفة. وكان حاد الطبع، وقلما يسهب في الحديث مع ضباطه، وكان دائما يقف بعيدا عن الجنود. كان شجاعا، لكنه لم يكن جسورا، ولا شعبيا كسيلفستري، كان يعرف مهمته نعم، بيد انه كان جاهلا بالخطط الحربية واستراتيجية الحروب، كما كان بسيطا في أوامره، تراه مضطربا خلال فترة الأزمات، وقد بقي في عزلة عن الحقائق التي دارت رحالها في أعرويت، وهو طبع اقلع عنه في أجدير عندما كان في الأسر. هذا وقد اجبرته الظروف على إثبات الذات في الدريوش

ويعود الكولونيل العجوز للجيش الميت

وفي نفس يوم الثاني والعشرين من يوليوز او بعد ذلك بقليل، عثر عبد الكريم عند منحدرات إيزومار على جثة تعرف على صاحبها بالرغم من الجراح التي كانت تكسوها؛ إنه الكولونيل موراليس. فتأثر عبد الكريم كثيرا بعدها اتخذ قرارا إنسانيا وفريدا من نوعه، إذ عزم على إشعار مليلية بالنبأ، وذلك لتحديد موعد تسليم جثة الشخص الذي كان مسؤولا عن الأمن القومي.

ذعرت السلطات الإسبانية من هول ما سمعته من عبد الكريم، وأسرعت لتسهيل هذا اللقاء. فتولت بارجة "لايا" مسؤولية تنفيذ هذه المهمة، وضُرب موعد في سيدي ادريس. وفي صبيحة الثلاثاء الثالث من غشت، لمح كومندان البارجة السيد خافيير دي سالاس Javier de salas من خلال منظاره علما أبيضا، وعلما إسبانيا، التفت حوله جموع من المورو وبعض الجنود الأسرى[163].

وخشية الوقوع في الفخ، وكإجراء وقائي، اكتفى "سالاس" بإرسال زورق يتألف كل طاقمه من الريفيين. لم تكن هناك حيلة ولا فخاخ منصوبة، ففي وسط المقاومين الريفيين كان يرقد جثمان موراليس، وقد نُزعت عنه بذلته الرسمية، فظهر فقط بملابسه الداخلية القاتمة اللون. كان الجسد موضوعا فوق نعش بغطاء. هذا وقد تكلف الأسرى الإسبان بوضع الجثة في تابوت من زنك أعد لهذا الغرض. كانت العودة إلى البارجة سريعة جدا، وتأهبت "لايا" للإبحار. وقتها، علم "سالاس" بوجود مساعد واحد واثني عشر جنديا من الأسرى بدون تبغ وبدون تغذية جيدة بسيدي ادريس، فأمر بإمدادهم بنصف كيلوغرام من التبغ وكذا ببعض المواد الغذائية. وبعد هذه المهمة الإنسانية خرجت البارجة إلى عرض البحر، وأبحرت بسرعة نحو الشرق. لازم الأسرى الإسبان اماكنهم على الشاطئ، ومكثوا هناك إلى أن ابتلع الأفق المركب الصغير. وفي مليلية كانت عائلة موراليس تنتظر بارجة "لايا" ومعها بعض رؤساء المعسكر من بينهم الكولونيل ارغوييس، خوردانا، ماساير، وسانتيث مونخي. كانت شخصية الكومندان بيغبيدر Beigbeder، مساعد برنكر هي الأكثر بروزا في الجناح القيادي الذي كان يتزعمه الجنرال فرسنيدا Fresneda حاكم المنطقة.

رست بارجة "لايا"، وتقدمت زمرة من البحارة لحمل التابوت المغطى بالعلم الوطني ووضعه على ارضية الرصيف، وحدث ما لم يكن متوقعا، إذ تدخل برطولومي دي مورالس Bartolomé de Morales قائد الباخرة، وقطع حبل الصمت الرهيب الذي كان يلف المكان، وطلب بالكشف عن الجثة ليتاكد ما إذا كانت تخص اخاه أم لا. فخيمت لحظة من الحيرة والتردد، لكن برطولومي كان على حق. فتمت تلبية طلبه فأزيح الغطاء عن النعش، فاطل على وجه الكولونيل وقد شوهت معالمه بجرح عريض[164]، وبالرغم من هذا الجرح المتوحش، تمكن برطولومي من التعرف على غابريل، كان تاثره بليغا إلى درجة انه لم يستطع البكاء. اغلق التابوت من جديد وخرج الموكب في اتجاه المقبرة. وهناك في مقبرة الأبطال، احتشد جمع من الناس ينتظرون في ترقب واحترام وصول الزعيم الوحيد الذي أعاده العدو. إنه القائد العجوز لجيش ميت.

أنوال: معركة الأرقام

كم كان عدد الجنود الإسبان المتواجدين بانوال ؟ لم يكن العدد "ستين الف" وهو رقم خيالي اشاعته الأسطورة المغربية، ومازالت تتبناه إلى حد الآن. ولم يكن العدد "عشرين الفا" كما كان يشير البعض[165].

فور انتهاء المعارك الحقيقية بارض الريف، ظهرت تطاحنات كبيرة بين المسؤولين، وبرزت خلافات حادة حول الأرقام، امتد شعاعها إلى يومنا هذا. ففي إحدى الجلسات الصاخبة للبرلمان، بتاريخ السابع والعشرين من اكتوبر 1921، والتي انعقدت لتدارس الموضوع، اكد إيزا انه في شهر يوليوز كان عدد الإسبان المتواجدين بمقر الإقامة العامة بمليلية هو خمسة وعشرين الفا وسبعمائة وواحدا وتسعين. فاعقب بريطو Prieto، وهو يحمل بيده لوائح تبين إحصاءات اخرى ولوائح تهم كل فرقة على حدة، ان العدد الإجمالي كان هو أربعة وعشرين الفا وثلاثمائة واثنين وعشرين. فإذا طرحنا من هذا العدد نسب الضحايا التي تقدر بثلاثة عشر الفا ومائة واثنين وتسعين قتيلا. ونستثني من هذا العدد نسبة الأهالي المقدر عددهم باربعة آلاف وخمسمائة واربعة وعشرين، فإن الحاصل النهائي للخسائر البشرية هو ثمانية آلاف وستمائة وثمانية وستون قتيلا. آنذاك اكد بريطو انه من واجب مجلس المستشارين، والدولة أن يؤكدا ان عدد القتلى هو ثمانية آلاف قتيل[166].

وهذا هو الرقم الذي تم الاعتماد عليه كأكثر الأرقام صوابا إلى يومنا هذا، إلى أن ظهرت وثائق ومخطوطات خاصة بالإقامة العامة بمليلية ومستندات عثر عليها ضمن الوثائق الشخصية للجنرال بيكاسو، والتي أضافت معلومات أخرى. فقد جاء في هذه الوثائق أنه في الثاني والعشرين من يوليوز، وهو اليوم الحاسم، كان عدد الجيوش الحاضرة هو تسعة عشر ألفا وتسعمائة وثلاثة وعشرين جنديا، من بينهم أربعة آلاف وستمائة وثمانية وسبعين من الأهالي. وبالتالي فإن نسبة خمسة عشر ألفا ومائتين وخمسة وأربعين هي الخاصة بالجنود الإسبان. ألف وثمانمائة وثلاثون منهم كانوا موزعين على الميادين، والبقية كانت تتدخل في شكل طوابير أو فرق ثابتة، دون احتساب المرضى والجرحى، الذين يمكن تحديد عددهم في أربعمائة شخص. إذن فالعدد النهائي هو ثلاثة عشر ألفا.

وإذا ما نقصنا من هذا العدد أسرى أنوال وأجدير المقدر عددهم بأربعمائة وتسعة وثلاثين رجلا، وكذا أولئك الذين التجؤوا إلى مليلية أو الصخرتين والجزر الجعفرية، وعددهم ألفين ومائة، وأولئك المستسلمون في الناظور، والذين تم إرجاعهم إلى الخطوط الإسبانية، الذين استطاعوا الاختباء في القبائل ثم عادوا فيما بعد بشهور (وعددهم ثلاثمائة وسبعة وثمانون حتى حدود مايو 1922)، فإن الفارق سيمثله المختفون، والمجموع هو عشرة آلاف كلهم تقريبا من القتلى.

وفي الثاني والعشرين من يوليوز 1921، كان عدد الجنود بأنوال هو خمسة آلاف وثلاثمائة وتسعة وسبعين رجلا (مائة وأربعة وتسعون ضابطا وخمسة آلاف ومائة وخمسة وثمانون من الجند)، وأزيد من عشرين مدفعا، وخمس آليات وألف وسبعمائة وستة وثمانون دابة. هذه هي الأرقام النهائية التي درسها وراجعها بيكاسو[167].

وهكذا عمت فوضى الأرقام، ولم يسلم من هذه المبالغات سوى اثنين من الكتاب وهما: كابايرو بوبيدا Caballero Poveda ودومينغيث يوسا Domínguez Llosa اللذان قدما أرقاما معقولة[168]. دفع حصار إيغريبن والهجوم الذي نفذه الريفيون على خط الجبهة الجنرال سيلفستري إلى تحريك كل قواته التي استعصى عليه جمعها وتوحيد صفوفها بعد تمزقها، ولم يتمكن من جمع سوى فرقة عسكرية واحدة، كانت بمثابة كتيبة.

وإذا ما أضفنا إلى جيوش انوال المقدر عددهم بنحو خمسة آلاف وثلاثمائة وتسعة وسبعين نفرا، بنسبة الف وثلاثمائة وواحد وثمانين جنديا في الدريوش، وأزيد من تسعمائة وثمانية وتسعين رجلا تحت إمرة أراوخو Araújo بدار الكبداني، وتسعمائة وسبعين جنديا تابعين لغرسيا إسطيبن بسوق تلاتز، وستمائة وأربعة رجال في شيفت، بقيادة روميرو اوريغو Romero Orrego، فإن الحصيلة سترتفع إلى تسعة آلاف ومائة وثلاثة وثلاثين رجلا[169]، وهي نسب قوات التدخل الإسباني في الريف، تنضاف إليها اربعة آلاف او اقل من الجنود الموزعين على الجبال والتلال، الذين كانوا يعانون من العزلة ونقص في العتاد. فكان محكوما عليهم بالموت.



زيارة الدوق **إيزا** إلى المغرب (في يوليوز 1920)؛ وبعد مأدبة عشاء أقيمت على شرفه، جلس في الصف الثالث كل من: **برنكر** (وهو يستند إلى عصا) وإلى يساره **سيلفستري**؛ وعلى يسار هذا الأخير: جلس الجنرال **مونتي بيردي** Monte Verde. المصور مجهول الهوية. (المصدر مجموعة وثائق المؤلف).



القائد العام بمليلية: **سيلفستري**، في محادثة مع قائد ألكانطرا، الكولونيل **مانيلا** (يدير ظهره)؛ بعد زيارة تفقدية لفرقة ألكانطرا في أزغانغن في مايو أو يونيو لعام 1921؛ (تُجهل هوية المصور) الصورة منحت من طرف عائلة **مانيلا**.



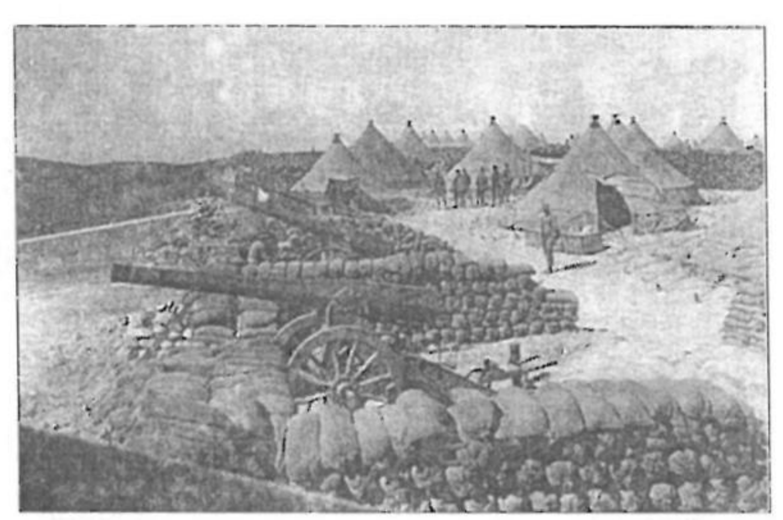
صورة للجنرالات، **سيلفستري** (يدير ظهره ويده اليمنى مسندة إلى خاصرته)، **نفارو** (يضع يديه في جيبه) و(صورة جانبية) **لباريرا** Barrera في جهة ابن طيب، أنوال، 1921. المصدر مجهول. مجموعة وثائق المؤلف.



الكولونيل **مورالس** (يدير ظهره) في محادثة مع المقيم العام **برنكر**، خلال رحلة قام بها هذا الأخير إلى منطقة الدريوش - أنوال (في أبريل 1921). المصور مجهول والصورة مهداة من طرف **كارمن أورمايشي مورالس** .Carmen Ormaeche de Morales



مجموعة من الضباط الغير معروفين بجوار سيارتين قياديتين أو «سيارتين عسكريتين سريعتين» (فورد 20 هـ - ب). مصور الصورة مجهول 1921. مجموعة وثائق المؤلف.



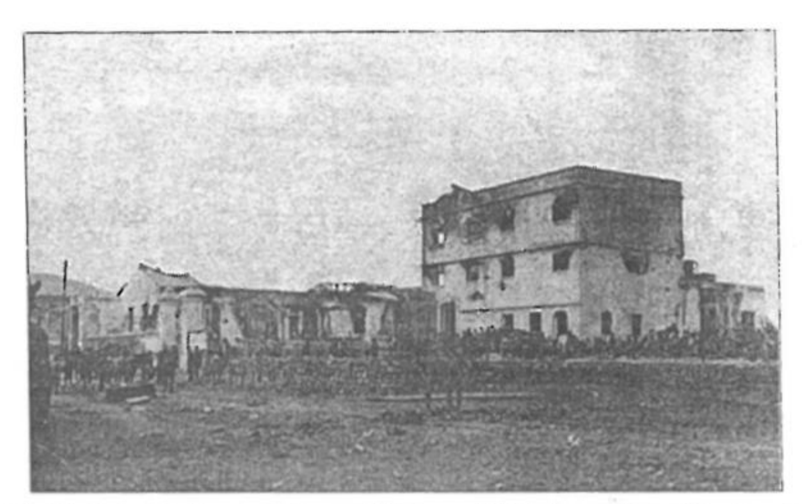
مدافع جاهزة بمعسكر سوق الحاج (بمليلية): آخر حصن دفاعي بعد كارثة انوال. صورة «لاثارو Lázaro» - غشت/ شتنبر 1921- مجموعة وثائق المؤلف.



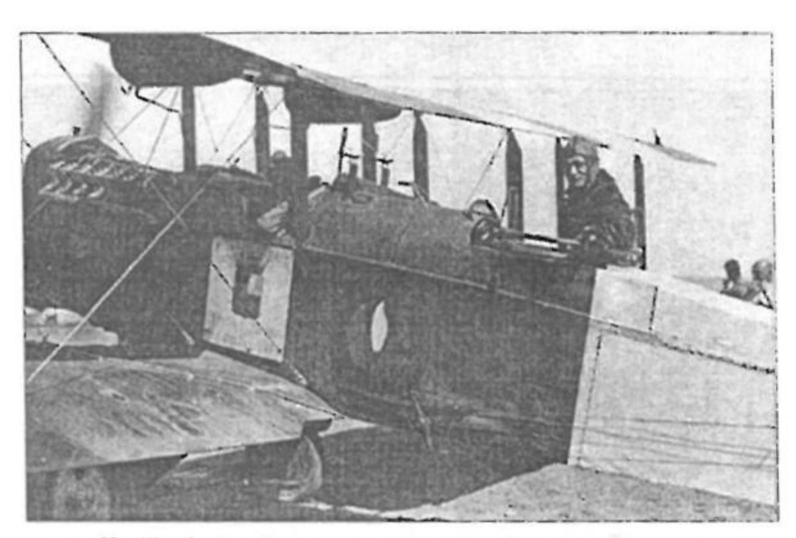
ضباط وجنود بعد الاستيلاء على هضبة أشدو Haxdu (بالكوروكو). والتمكن من المدافع التي كانت تقصف مليلية في العاشر من أكتوبر 1921. صورة **لاثارو**. مجموعة وثائق المؤلف.



المقيم العام: **برنكر** يحتفل مع ضباطه - الكولونيل **خوردانا سوثا** على يمينه - بنشوة الانتصار بعد الهجوم المضاد بمليلية. صورة **لاثارو** 1921. مجموعة وثائق المؤلف.



صورة «لمصنع دقيق» تم تدميره في الناظور حيث كانت وحدات الحرس المدني بزعامة الملازم **فرينسو** Frenso؛ تقاوم وبشدة في حرب استرجعوا بعدها المدينة (17 شتنبر 1921) ملتقط الصورة مجهول. مجموعة وثائق المؤلف.



قائد المهندسين - **سوريانو** - عند مقود قاذفة قنابل من نوع هافيياند Havilland تم الحصول عليها بمساعدة من مدينة ثاراغوثا التي يظهر شعارها على الجانب الأيسر للطائرة؛ صورة **لاثارو** 1921. مجموعة وثائق المؤلف.



برنكر: (يشد على أنفه بمنديل) وهو يتجول بين أطلال عيادة الجرحى لأعرويت، حيث قُتل ما لا يقل عن 107 جريح إسباني. الصورة ربما التقطها لاثارو. الرابع والعشرين من أكتوبر 1921.



جنود فرق التطهير تحت أنظار ،بعض القساوسة المسيحيين، وهم يجمعون رفات الإسبان المتناثرة عند ضواحي أعرويت. صورة **لاثارو** أكتوبر 1921. مجموعة وثائق المؤلف.



صورة ضابط من طابور **كابنياس** Cabanellas وهو ينحني احتراما أمام جثث الإسبان عند منحدرات أعرويت. الصورة **لألفونصو (ألفونصو سانتيث بورتيلا** Alfonso Sánchez Portela) في الرابع والعشرين من أكتوبر 1921.



زعماء قبيلة بني بوإفرور وهم يسلمون أسلحتهم للكولونيل **ريكلمي**. صورة "**لاثارو**" حملة 1921-1922. مجموعة وثائق المؤلف.



مجموعة من الصحفيين والجنود الإسبان وهم يحتفلون في سرور بالاستيلاء على "الكوركو" الصورة لمصور مجهول. التقطت في العاشر من أكتوبر 1921.



عائلات ريفية، من قبيلة غير معروفة (ربما بني بو يحيى) ذاهبة للاستسلام إلى السلطات الإسبانية في مليلية. صورة **خوصي ماريا كساريغو** José M. Casariego شتاء عام 1922.

فهرس الفصل الخامس

1) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 80.
2) المذكرة العالمية، نشرة 13 نونبر 1921.
3) برنكر. المصدر السابق نفسه، ص. 237.
4) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 278.
5) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 426.
6) الأبناء الأربعة لموارلس هم، أنا ماريا، فرانثيسكا، كارمن وغابريل، محادثات مع السيدة كارمن اورمايشي موارلس- زوجة ابن موارلس. أبريل 1997.
7) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 80.
8) المصدرنفسه، ص. 82.
9) برنكر، المصدر نفسه، ص. 46-47.
10) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 44-45.
11) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 238.
12) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا (أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا) "برقيات انوال" يوليوز 1921.
13) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، تداعيات رفض ملف توشيح الملازم نوغيس بالوسام الشرفي. المجموعة، ن /571.
14) المصدر نفسه، جاء قرار المجلس الأعلى للشؤون الحربية والبحرية يوم 10 يوليوز 1923، وحدث أن طالبت -السيدة إميليا باريرا Emilia Barrera، والدة الملازم- بهذا المكسب يوم 30 مايو 1924 مقدمة بين يدي المصالح المختصة شهود عيان جدد عايشوا بطولات ولدها، لكن مطالبها ووجهت بالرفض بعلة انقضاء الأجل الذي كان على "الملتمسة ان تستغله في (نونبر ودجنبر 1922)".
15) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 85.
16) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، حول مخططات وزارة الحرب التي ضمت إلى "الثكنة العسكرية، المدفعية الجبلية الخامسة (بقيادة بلانكو) علاوة على حصن يضم 140 رجلا و4 قطع حربية. بيد ان كل هذه المدفعية كانت توجد "خارج" المعسكر ساعة الفتنة.
17) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 495.
18) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا، بيان "الوجيز في العمليات والتقييمات" للجنرال فيليب نفارو الذي عرضه على الإدارة العسكرية، بتاريخ 2 شتنبر 1924 بمدريد، ص. 4.
19) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة م.338 وم.340 ومحادثات مع السيدة كونثبثيون مانيا دوكيسني Concepcion Manella Duquesne حفيدة الكولونيل، يوليوز 1998.
20) المجموعة الوثائقية لعائلة مانيلا (المجموعة الوثائقية لعائلة مانيلا) رسالة الكولونيل في (10 يونيو 1921) إلى زوجته، ماريا دوكسني مونطالبو Maria Du Quesne Mpntalvo.
21) المصدر نفسه، رسالة بتاريخ 10 يونيو 1921 بمليلية.
22) المصدر نفسه، رسالة بتاريخ 13 يونيو 1921 بمليلية.

23) المصدر نفسه. رسائل من الكولونيل مانيلا إلى زوجته، من انوال (19 يونيو) ومن مليلية (15 يوليوز) لعام 1921.
24) رسالة مانيلا بتاريخ 8 من يوليوز 1921.
25) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 496.
26) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442، برقية مسجلة تحت رقم 8.650 وتم التوصل بالبرقية في مدريد على الساعة 11،30 يوم 20 يوليوز.
27) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 71.
28) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 47.
29) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442 برقية مسجلة تحت رقم 8.395.
30) بيانات... (محاكمة برنكر) ص. 47.
31) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الجمعة 17 نونبر 1921 ص. 4.234 مداخلة النائب البرلماني والكومندان فيليب كرسبو دي لارا، المشهود له بكفاءته العالية، والتجربة الطويلة في الملاحة الجوية.
32) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 48.
33) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
34) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا،المجموعة9/442 البرقية المسجلة تحت رقم 8.703، وتم التوصل بهذه الرسالة في مدريد يوم 21 يوليوز على الساعة السادسة وخمسة وأربعين دقيقة.
35) برنكر، المصدر السابق نفسه، ص. 243-245.
36) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 444.
37) المصدر نفسه.
38) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/942 إرساليات مستعجلة مسجلة تحت الأرقام التالية،-3.941- 3.947- تهم تعبئة وتحريك الرجال والبواخر (21 يوليوز 1921) التي كانت تحت إمرة انطون إبليون. البحار وقائد هيئة أركان الحرب العليا للقوات المسلحة. كانت الوحدات الحربية توجد في مياه كارطاخينا وسان فرناند و(قادس).
39) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، إ-730.
40) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الثلاثاء 27 يونيو 1922، ص. 3.005. كان رامون سولانو Ramon Solano ومانسو سونيغا Manso Zu-iga بطلان في الرماية فالكل كان يعترف لهما بمهارتهما في هذه الرياضة.
41) هذا البرنامج المثير تمت دراسته من لدن سانتياغو دومينكز يوسا -ومنه استنبطنا هذه المعلومات- الذي تحدث ما بين 1990 و1992 مع العديد من الأحياء الذين خرجوا سالمين من تلك المأساة.
42) رسالة إلى الكاتب خطها ستياغو دومينكز يوسا في ثلاث صفحات وبعثها بتاريخ 9 مايو 1997 إلى مليلية.
43) محادثات مع سانتياغو دومينكز يوسا، يوليوز 1998، كان دومينكز قد تحدث مع مارتينز حينما كان عمره 90 عاما.
44) *تاريخ الحملات*...، الجزء III، ص. 641.
45) المصدر نفسه، ص. 642.
46) بيانات...، (محاكمة برنكر) ص. 49.
47) غارسيا فيغيراس وإرنانديث إريرا. المصدر السابق نفسه، ص.327.
48) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، ب- 3.195.

49) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا "*المعلومات العسكرية في انوال*" يوليوز 1921.

50) *تاريخ الحملات*...، الجزء الثاني، ص. 643.

51) المصدر نفسه والصفحة، الجزء الثالث، ص. 640. هناك شكوك قوية تحوم حول ما إذا كان هذا الضابط، المعروف باسم سيرا سرانو Sierra Serrano والذي أصيب بجروح خطيرة، يوم 18 يوليوز، كان مايزال على قيد الحياة ساعة الانسحاب من إيغريبن.

52) مذكرات تخص المدفعية، 1921. الصفحات، 913-914.

(53) *تاريخ الحملات*...، الجزء الثالث، ص. 430.

54) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث،(ت-م) لأنطونيو اندرو مودول Antonio Andrew Modol (في 28 اكتوبر 1921)، والمكتوب على الورقة 1.482 التي توجد ضمن (تقارير بيكاسو الأصلية). وكذلك الرسالة التي بعث بها بيكاسو شخصيا لبرنكر، يوم 15 يناير 1922.

55) بيانات... (محاكمة برنكر) ص. 15.

56) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

57) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

58) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 95.

59) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 51.

60) المصدر نفسه والصفحة نفسها، انظر إلى البرقية التي بعث بها سيلفستري إلى برنكر يوم 21 يوليوز 1921 على الساعة السابعة وثلاثين دقيقة.

61) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 50.

62) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، البرقيات المسجلة تحت رقم 8.401 و8.403.

63) ساينث غوتيريث سيغفريدو Sanz Gutiérrez, Sigfredo *مع الجنرال نفارو في الحرب والأسر*، دار النشر، سوثيسور دي ريفادينيرا مدريد، 1924. ص. 2 و3. وتجدر الإشارة إلى أن الكاتب اخطأ في ضبط المواقيت، إذ تحدث عن "الثانية عشر زوالا" ليوم 21 يوليوز، وهو ما يتعارض تماما مع حالته في إيزومار يوم 22.

64) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 9/442 هذه البرقية سجلت تحت رقم 8.726، وتم التوصل بها في مدريد 22 يوليوز على الساعة الرابعة وثمانية واربعين دقيقة.

65) رسالة من خواكين لوبيث فيرير Joaquin Lopez Ferrer إلى الكومندان إيوخينيو دي سانطوس رودريغو Eugenio de Santos Rodrigo بتاريخ 24 مايو 1976، (م-ت-ع) المجموعة "مانويل فرنانديث سيلفستري".

66) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442 البرقية رقم 8.726.

67) المصدر نفسه، البرقية رقم 8.730.

68) صحيفة أ-ب-سي، نشرة الجمعة 22 يوليوز 1921.

69) المصدر نفسه، ص. 7.

70) المصدر نفسه، ص. 8.

71) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات، 97 و490.

72) المصدر نفسه، ص. 506.

73) وكذلك قوات الكولونيل ارغوييس Argüelles الذي تحدث عن انضمام "حركة بني سعيد" إلى جيوش سيلفستري يوم 21. وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 491.
74) المصدر نفسه، ص. 331-332.
75) من الممكن انه، بجانب الكومندان يامس مارتين Llamas Martin الذي كان من الفرق النظامية رقم 2، كان هناك كذلك اندريس بنيا رودريكز Andrés Pía Rodriguez من إفريقيا.
76)بريث اورتيث، إدواردو، كولونيل، *من انوال إلى جبل اعرويت، وثمانية عشر شهرا من الأسر*. حكاية شاهد عيان، ارتيس غرافيكس بوسطال-إكسبرس، مليلية، 1923، ص. 17.
77) المصدر نفسه، ص. 18.
78) وثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 96.
79) فيفرو، اوغوستو، الانهيار، الناشر رفائيل كارو راجيو، مدريد 1922، ص. 164.
80) بريث اورتيث، المصدر السابق نفسه، ص. 18.
81) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 96.
82) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 51.
83) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 506.
84) بريث أورتيث، المصدر السابق نفسه، ص. 19.
85) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 17.
86) المصدر نفسه، ص. 141. الجملة كانت لمارينا.
87) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 507.
88) المصدر نفسه، ص. 524.
89) ساينث، غوتيريث. المصدر السابق نفسه. ص. 4.
90) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 15.
91) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 526، حسب "ياماس" فإن هذه الأحداث وقعت حوالي التاسعة صباحا.
92) المصدر نفسه، ص. 500.
93) صحيفة *الصول*، نشرة الجمعة 29 يوليوز 1921.
94) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 52.
95) المصدر نفسه، ص. 15.
96) فيفرو ا. المصدر السابق نفسه، ص. 168-169.
97) صحيفة *ا-ب-سي*. نشرة الجمعة 26 غشت 1921، في هذا المقال، وكغيره من المقالات تم التستر على هوية كسانوفاس الذي يظهر فقط "سائقا للمقيم العام".
98) ساينث غوتيريث، المصدر السابق نفسه، ص. 7.
99) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات 448-452 شهادة التنينتي كولونيل نونيوث دي برادو الذي تحدث عن الخسائر البشرية التي بلغ حجمها ثلاثمائة من القتلى في صفوف النظاميين ساعة الانسحاب من انوال، ذكره ليون فيافردي، انطونيو في "مدينة مليلية، والقوات النظامية" ضمن تلغراف مليلية، نشرة الأحد 17 غشت 1997.

100) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 6.
101) ما تبقى بعد معارك البارحة، التي كان يخوض غمارها 138 رجلا. (ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث) "في مواقع إيزومار".
102) (ارشيف سنتياغو دومينكز يوسا)، المجموعة، "المواقع التابعة لأنوال".
103) (ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث)، (ت.م) (التصريح الموجز) للكومندان خوالدو مارتينث فيفاس (ليوم 3 اكتوبر 1921) المكتوب على الورقة رقم 1.153 (لتقارير بيكاسو الأصلية).
104) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
105) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 114.
106) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم الثاني خوصي غديا ميان (الواحد من اكتوبر 1921) في الورقة 1.248 لتقارير بيكاسو الأصلية.
107) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 105.
108) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، حالة القوات العسكرية بدار الدريوش. 22 يوليوز 1921.
109) ساينث غوتيريث، المصدر السابق نفسه، ص. 7.
110) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 115.
111) غارسيا فيغيراس إيريرا، نفس المصدر السابق، ص. 356.
112) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات، 458-469.
113) *تاريخ الحملات...*، الجزء الثالث، ص. 460.
114) ضمن العديد من البيانات الإخبارية، نورد تلك التي نشرت في *لاكورسبوندنثيا دي إسبانيا*، تحت عنوان، *كشوفات مثيرة*، وفي عنوان صغير اكد "التنينتي كولونيل السيد كابنياس ان الجنرال سيلفستري ما يزال حيا"، نشرة الاثنين 12 دجنبر 1921.
115) لقد عثرنا على نسبه كاملا في السجل العسكري السنوي لسنة 1921. وهكذا تكون سنة ولادته هي 17 يوليوز 1899.
116) (المصلحة التاريخية العسكرية)، رسالة خواكين لوبيث فيرير.
117) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 414. لقد كان الثوغاراي هو من تعرف على القبطان كاراسكو، وتحدث عنه بكونه الضابط الذي ولج خيمة سيلفستري وذلك ليخبر الكولونيل (مانيا) ويريه الحركة التي كانت قادمة في طوابير ثلاثة.
118) المصدر نفسه، ص. 334.
119) المصدر نفسه، ص. 530.
120) *لاكورسبوندنثيا دي إسبانيا*، نشرة الجمعة 01 دجنبر 1921. كل عبارات الشتم التي قذفها سيلفستري في حق "رجال الشرطة الذين هموا بالفرار، ينعتهم بالجبناء"، اكدها الجندي مورنو مارتين في الوثائق التي توجد ضمن (تقارير بيكاسو)، ص. 101.
121) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 98.
122) المصلحة التاريخية العسكرية، المجموعة المتعلقة بـ "مانويل فرنانديث سيلفستري"، رسالة خواكين لوبيث فيرير.

123) نجاة "لاس إراس" من الحرب بإفريقيا ومن المشاكل الأهلية. وسنة 1956 حينما كان رئيسا على الورش بـ"سنطاندر إلكطريكا" تعرف على خواكين لوبيث فيرير المهندس، وآنذاك روى له لاس إراس التفاصيل التي يعرفها حول وفاة سيلفستري. كان خواكين، نجل لوشيانو لوبيث فيرير الذي كان سكرتيرا عاما في الإقامة العامة ما بين سنتي (1921-1923).

124) برنكر. المصدر السابق نفسه، ص. 79.

125) *صحيفة أ-ب-سي*، نشرة الخميس 4 غشت 1921.

126) ارشيف ستياغو دومينكز يوسا، "*الوجيز في العمليات والتقييمات*"، ص. 53 و(ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث) "معسكر انوال" لوائح الخسائر البشرية.

127) المصدر نفسه، ص. 5.

128) (ارشيف ستياغو دومينكز يوسا) مجموعة "الوثائق القضائية التي تهم تحديد المسؤوليات في أحداث عام 1921" وفي مقالتي المعنونة بـ "*كارثة انوال" (تاريخ 16 يوليوز 1996)* وضعت ثيفانطوس بجوار مورالس ومانيلا. وكان هذا خطأ استدللنا عليه بموجب البحث في الوثائق الجديدة ومراجعة المصادر القديمة.

129) *جريدة أ-ب-سي*، نشرة الخميس 28 يوليوز 1921.

130) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقرير غابريل مورالس (الابن) ص. 13.

131) ارشيف ستياغو دومينكز يوسا، "*الوجيز في العمليات والتقييمات*"، ص. 3.

132) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت-م) لخواكين أركورطي كوط في (28 شتنبر 1921) على الورقة 120 من تقرير بيكاسو.

133) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 386 .

134) المصدر نفسه، ص. 103.

135) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث "معسكر ابن طيب" في 22 يوليوز 1921.

136) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، ل-865.

137) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تصميم خطي لبيكاسو. انظر الملحق.

138) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 472.

139) المصدر نفسه، ص. 588.

140) المصدر نفسه، ص. 473.

141) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر ابن طيب" لائحة الخسائر البشرية.

142) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، م- 150.

143) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 15.

144) وُلد مانويل فرنانديث دوارطي سيلفستري يوم 16 مايو 1901 السجل العسكري السنوي. 1926 (ص. 372) خلال هذه السنة كان ملازما ثانيا. وتم تعيينه في المدرسة المركزية للرماية.

145) بيانات... (مخاكمة برنكر)، ص. 15..

146) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 415.

147) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9 /442، رقم الإرسالية 8.729.

148) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9 /442، رقم الإرسالية 8.729.

149) برنكر، د، المصدر السابق نفسه، ص. 64-65.

150) سيرفا، ريكاردو، فرانثيسكو فرانكو. *عهد إسبانيا*، دار النشر الوطنية، مدريد 1973، ص. 176.

151) *الفرق العسكرية الإسبانية (خمسون عاما من التاريخ)*، كتاب من إعداد وتنسيق الملازم كولونيل انطونيو مارتينس دي لاكاسا. مدريد 1975. ص. 107-109.

152) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة، 9/442، البرقية 8.737.

153) نفس المصدر، محاضرة مع برنكر على الساعة الثالثة وثلاث وعشرين دقيقة.

154) نفس المحاضرة الفت يوم 22 من يوليوز على الساعة الحادية عشر وخمسة وأربعين دقيقة.

(155) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 481.

156) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "انوال" لائحة الأحياء والأموات.

157) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442. البرقية المسجلة تحت رقم 8741.

158) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد ن-71.

159) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 57.

160) المصدر نفسه، ص. 16.

161) *صحيفة الصول*. نشرة الخميس 28 يوليوز 1921.

162) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، محضر غابريل مورالس، ص. 8. فحسب طيوفيلو مورو الذي كان متزوجا من إحدى بنات برطولومي مورالس، كان الكولونيل يحتفظ "ضمن اوراقه الشخصية" بإحدى عشرة رسالة، كتبت إلى برنكر سنة 1920. وإليكم تواريخ إرسالها -19 مارس، 10 ابريل، 6 يونيو، 29 يوليوز، 24و28 غشت، 11 و27 اكتوبر، 14و22 نونبر، و18 دجنبر- علاوة على خمس رسائل اخرى لسنة 1921 بعثت في -26 يناير، و28 فبراير، و28 مارس و26 ابريل، و29 مايو- إضافة إلى هذه الرسائل كان الكولونيل يحتفظ كذلك بجملة من الوثائق التي كانت ترسل إلى سيلفستري ومنها: محضر 1 يناير، مذكرة 13 فبراير، ومحضر 2 مارس، ومذكرة 19 يوليوز، إضافة إلى المحضر الشهير ليوم 16 فبراير 1921.

163) صحيفة *أ-ب-سي*، نشرة الأربعاء 3 غشت 1921.

164) نفس المصدر، والصفحة.

165) الغرباوي أحمد، في: *تعاليم الحرب الشعبية المناهضة للاستعمار في الريف*، دار النشر، البيان، الرباط 1975، ص 21. ذكر في حديثه عن معركة انوال أن "خمسة آلاف من الريفيين طوقوا 20.000 من الإسبان المسلحين"، وهذا الكاتب في حديثه عن سيلفستري وصل إلى القول بان سيلفستري شارك في "حرب شارل" (وكيف كانت هذه المشاركة وهو ابن خمس سنوات؟ لأنه ولد عام 1871 وتلك المعركة لم تنته سوى عام 1876)، وذكر الكاتب كذلك أن سيلفستري شارك في حرب الفليبين، وهذا خطأ لأن الجنرال لم يعرف قط هذا المكان. ص. 19.

166) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27 اكتوبر 1921، ص. 3820.

167) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "الوضعية يوم 22 يوليوز" في مقاطعة انوال، لائحة بكل الوحدات.

168) تحدث كبايرو بوفيدا فرناندو، في "المغرب، معركة 21. ارقام واقعية (الأول والثاني)" عن 5252 رجلا كانوا بانوال. و14.641 "من المقاتلين" (زيادة على الأهالي) فكل هذه الأعداد كانت تابعة لجيش سيلفستري. اما دومينكز يوسا فقد احصى في رسالته التي بعث بها إلى الكاتب السالف الذكر يوم 9 مايو 1997 عدد الجنود وحصرهم في "1200"، وهو الرقم الحقيقي بالنظر إلى اللوائح الكثيرة والمبالغ فيها.

169) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، لوائح "معسكر دار الكبداني" "موقع سوق الثلاثاء" و"معسكر شيفت" 22 يوليوز 1921.

الفصل السادس:
أزيد من ثلاثة آلاف قتيل في أعروين، وآخرون كثير

كانت الحكومة تدرك
حقيقة الأمور بإفريقيا لكنها، كانت متجاهلة

قصد الملك الفونصوالثالث عشر وصاحبة السمو الملكي السيدة "فيكتوريا اوخنيا" مدينة سان سيباستيان بعد العودة من بورغوس، وتزامنت عودتهما مع عيد ميلاد الأميرة ماريا كريستينا، الذي احتفلا به يوم الخميس الواحد والعشرين من يوليوز. وعشية يوم الثاني والعشرين، تلقى العاهلان في نفس المدينة "سان سيباستيان" الأنباء الأولى حول المأساة الإسبانية في المغرب، سيلفستري في عداد القتلى، والجيش كله في مهب الريح. فطلب الفونصوالثالث عشر تجهيز قطار كيفما كان نوعه للرحيل.

كان "إيزا" أيضا بسان سيباستيان، وكان ينوي التوجه نحو الحدود الفرنسية لاستقبال ابنته التي كانت تدرس بإحدى المدارس في لندن. وهناك في المحطة، سلم الجنرال كيرول Querol لوزير الدفاع برقية كاتب الوزارة، والتي تضمنت رسالة المقيم العام الذي يخبره فيها بالتقدم الجديد الذي احرزته قواتنا في المغرب والاستيلاء على مواقع جديدة[1]. كانت الساعة تشير إلى الواحدة زوالا من يوم الثاني والعشرين من يوليوز. سافر إيزا وهموم النكبة تلاحقه بالرغم من أن الصحيفة اليومية الوحيدة والمتحيزة للملكية، حاولت إثبات عكس تلك الحقائق. وفي تلك الأثناء وصل إلى سان سيباستيان في القطار القادم من مدريد، **خوصي سانتيش غيرا** José Sánchez Guerra رئيس الحكومة وزعيم الحزب المحافظ الذي التف حوله الصحفيون وامطروه بالأسئلة،

فلم يجد من جواب سوى «لا اعرف شيئا». وعند سؤاله عن رحلة الملك إلى العاصمة، اجاب في غموض: «ربما هي أمور تخص الضفة الأخرى»[2].

كان ذلك بمثابة تأكيد للكارثة العسكرية، فالضفة الأخرى هي المغرب. وفي مدريد كانت تروج إشاعات تنذر بالخطر وتنذر بسقوط مليلية.

عاد إيزا ادراجه بشكل سريع، في حين، استقل العاهل (الذي لم يكن ضمن برنامجه فكرة المجيء إلى القصر) القطار السريع الذي يقلع بالليل ليصل إلى مدريد في الساعات الأولى من النهار[3]. وفي انتظار وصول الملك وإيزا، اجتمع "ايندي سلشار" بثلة من الوزراء -كانت الوزارة شبه خالية لأن الكل كان في عطلة- في مجلس صغير عجز عن تقديم اي حلول.

وعلى الساعة التاسعة وخمسين دقيقة من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، وصل الفونصوالثالث عشر إلى المحطة الشمالية التي كانت تعرف بـ(برينثيبي بيو). وهناك كانت الحكومة في استقباله، وكذا شخصيات لم تتمكن من حضور اجتماع أيند يسلاشار، فضرب لها موعداً في تلك المحطة. وتوجه الكل نحو القصر حيث انعقد مجلس الوزراء. وفي الختام، اكد إيزا امام حشد كبير من الصحفيين ما نصه: «لا الجنرال نفارو ولا انا لدينا معلومات عن السيد فرنانديث سيلفستري» وبعدها اكد في جراة وبشكل قطعي: «وانا مازلت على اتصال بالجنرال نفارو». في حين ان القائد الثاني للإقامة العامة بمليلية، لم يكن باستطاعته ان يربط اتصالا مع القيادة، إذ كان كل همه هو الوصول إلى "الباطل" Batel.

كان الصحفيون يستفزون إيزا بهدف معرفة مصير الجنرال سيلفستري وما حل به، فاجاب الوزير بعبارات مقتضبة لا تشفي الغليل. لكن الفاجعة تأكدت بطريقة غير مباشرة، فمن خلال إشارات وإيماءات صدرت عن بعض الوزراء، تأكد الصحفيون من ان الإشاعة التي روج لها كانت حقيقية للأسف.

كان مانويل ايندي سلاشار، الذي يبلغ من العمر خمسة وستين عاما، يبدو شيخا في تلك اللحظات، كان القلق باديا عليه. وفي محاولته لطمأنة البلاد، تضمن خطابه هذه العبارة: «هذا شيء مؤسف للغاية، ولكن سوف ترون كيف ان الأمور ستعالج بسرعة». لكن قسم تحرير جريدة "الصول El Sol" لم ينتظر، فنشر في اربع اعمدة ما سوف يكون العنوان الأكثر وضوحا: «وفاة الجنرال فرنانديث سيلفستري»[4]. وتطرقت جريدة أ-ب-سي،

بدورها لهذا الموضوع، وتحدثت عن موت القائد العام لمليلية. لكنها، وفي عنوان عريض، ذكرت أن موقع أنوال تحاصره حركة بني ورياغل[5].

كتيبة شيفت: الكولونيل آخر شخص خرج

وفي نفس اليوم (السبت الثالث والعشرين)، وبعد أن تحولت نواحي أنوال إلى مجزرة، قام الريفيون بحملات تمشيط واسعة للمنطقة. ورغم هذه الدوريات والتحركات الريفية، بقيت ثلاث قوات إسبانية بمعزل عن الأذى وهي الأهم: قوات "أراوخو" المتواجدة بدار الكبداني، وقوات سوق الثلاثاء بقيادة غرسيا إستيبان، وقوات أخرى بمنطقة "شيفت". كانت الوحدات الأولى تغطي الجانب الأيمن من الساحل، أما الوحدات الثانية فتموقعت على اليسار من الداخل، وبجانبها كانت الفرقة الثالثة في المقدمة.

كان عددهم الإجمالي حوالي ألفين وخمسمائة رجل، عدد كبير بالنسبة للإمكانيات الهزيلة والمتاحة لنفارو. كانت الطوابير الثلاثة عرضة للضياع.

تقع "شيفت" بمنطقة تعرف بمضيق ميضار، على الهامش الأيسر لكرط، في قلب بني توزين. كان الموقع يضم ما يعرف بالطابور المتحرك لفرق مليلية، وهو عبارة عن خمس فرق (من بينها فرق المدافع الرشاشة) علاوة على القطار النظامي. كان المجموع هو ستمائة وأربعة رجال (تسعة عشر من الضباط، وخمسمائة وخمسة وثمانين من الجند) يترأسهم التنينتي كولونيل روميرو Romero [6]. حطت هذه القوات رحالها في منطقة تفتقر إلى الماء، وتلك حماقة أخرى زادت من دهشة بيكاسو. ورغم هذا الاختيار اللامعقول، أرغم الجيش على الذهاب إلى الدريوش، التي تبعد بسبع كيلومترات، للبحث عن الماء، أو التوجه إلى بوهفورا Buhafora التي كانت أكثر قربا. بيد أن طريقها كان محفوفا بالمخاطر. في حين كان على قطعان الماشية أن تقصد كرط (التي تبعد بثلاث كلمترات) للارتواء. كل هذا أدى إلى نتائج مأساوية تمثلت في إصابة العديد من الجند بالمالاريا وأمراض الجلد الناتجة عن النتونة وكثرة الأوساخ[7].

وعلى الساعة الرابعة والربع صباحا من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، تم إرسال برقية عاجلة إلى رُميرو. كان التنينتي كولونيل يشاهد بأم عينيه كيف كانت الجبال تشعل نارا، وسمع دوي الاشتباكات بين جنود إنطرميديا-أ- ومسلحين من بوهفورا. قرأ

روميرو بارتياح البرقية التي بعث بها نفارو، والتي كانت تتضمن أمرا بالانسحاب نحو الدريوش. فأصدر أوامره بتعطيل وإتلاف القطعتين الحربيتين من نوع شنيدر والاستعداد للانسحاب. وتوالت الإشعارات المماثلة في الوصول إلى مواقع أخرى، عين كرط، وعزيب ميضار، وازرو، وحمودة، وإيسن لسن.

كان **خوصي روميرو أوريغو** José Romero Orrego يبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما، ورغم السن كان خفيف الحركة، فقطع واحدا وعشرين كلم حتى الدريوش بخطوات غريبة وخطيرة، حسب رواية بيكاسو. لكن روميرو اقترف خطأ واحدا كان فادحا وقاتلا -حسب تصريحات نفارو فيما بعد- إذ قرر أن لا يترك شيئا للعدو، فأمر بحرق مخازن السلاح. كانت أعمدة الدخان الكثيف تتصاعد وكأنها علم حرب نكس على الأراضي المفتوحة لشيفت. فانتبه الريفيون للحدث، وهرولوا إلى المكان في حشد كبير، فتشتت شمل الكتيبة التي كانت منتظمة، بفعل إطلاق الرصاص وتفككت صفوفها بشكل مخيف[8]، فهرول الكل. كان التنينتي كولونيل هو آخر من التحق بالركب، فبقي هناك مع حارسه وبشجاعة لا متناهية، كان يحاول حماية سير الكتيبة. غير أنه بعد هذا الحدث، لم يعلم أحد بنهايته.

كان نفارو في الدريوش، فبعث بفرسان الكانطرا في اتجاه شيفت بنية تسهيل عملية الانسحاب وتفادي وقوع مجازر. لكن وبالرغم من ذلك، خلفت الاشتباكات مائة وأربعة وعشرين قتيلا، دون أن تصل وفود شيفت إلى بر الأمان. وفي الدريوش، كانت تجري استعدادات أخرى يائسة للخروج.

وفي أقل من خمس ساعات، قطع جنود شيفت، الذين بقوا على قيد الحياة، مسافة كل الأراضي المرتفعة والمؤدية إلى مليلية في رحلتين كانتا محفوفتين بمخاطر الحياة أو الموت، وقليلون هم الذين تمكنوا من النجاة. وفي الرابع والعشرين من يوليوز، وعلى الساعة التاسعة والنصف صباحا، قام القائد **فليكس المانسا دياث** Felix AlManza Díaz بإحصاء جديد للرجال والعتاد، فجاءت نتيجة إحصاء العتاد سريعة ومهولة، كيف لا، والعدد لم يكن يتعدى مدفعا رشاشا واحدا، وأربع بنادق قصيرة، وثلاث بنادق، وخمس بغال. أما بالنسبة لعدد الرجال، فالنتيجة كانت أكثر سوءا. إذ إن الحصيلة لم تتجاوز ستة من الضباط، وثلاثة من المساعدين، وثمانية وعشرين من الجند، إذن سبعة وثلاثون

من اصل ستمائة واربعة رجال[9]، وهو ما يعني 94٪ من الخسائر. كما ابيدت كتيبة "روميرو" عن آخرها.

أراوخو واستراتجياته المتميزة

في اتجاه مليلية، وباتباع المنعرجات الجبلية حيث قبيلة بني سعيد، وليس ببعيد عن الشريط الساحلي لكرط، كانت القندوسي. وهناك كانت متمركزة كتيبة "اراوخو" قبل خروجها في اتجاه الكبداني. ولو ان "أراوخو" اتبع أوامر "سيلفستري" للتمكن من تحقيق هدفين أساسيين وهما: الوصول إلى مصب واد صالح، والنزول هناك لإنشاء ميدان تحيط به الخنادق، ثم الانحراف في اتجاه إيزومار ونشر القوات خلف انوال. وفي القندوسي بقي ثمانية وثمانون رجلا يتحكمون في مخازن مهمة من العتاد والذخيرة.

لم يكن سيلفريو أراوخو طوريس Silverio Araújo Torres قائد حرب، بل قائد الإرساليات. كان يعيش كبقية زملائه في مليلية، وفي وقت وجيز لا يتعدى الأربعة والعشرين ساعة، تزعم جيشا قوامه الف رجل. إذ انضافت إلى الفرق الخمس التي كانت برفقته، أربع فرق من حاملي البنادق، وفرقة واحدة من حاملي المدافع الرشاشة، علاوة على ثلاث كتائب من الجيوش المرابطة بالقندوسي بزعامة "الكومندان سانث غرسيا"، إضافة إلى بعض العناصر المسلحة الأخرى ومدفعية واحدة[10]. كان "سيلفستري" قد التجأ إلى سيلفيريو واوكل إليه مهمة إنقاذ انوال والجيش، لكن حجم هذه المسؤوليات المتراكمة حال دون تحقيق أهدافه.

كان "أراوخو" يبلغ من العمر سبعة وخمسين سنة، وبالرغم من صحته السليمة التي منحته القوة خلال الأشهر الثمانية عشر من الأسر التي قضاها في أجدير، فإن نفسيته لم تكن مستعدة لهذا النوع من التعبئة المفاجئة والحازمة[11]. وبعد احداث انوال التي اطلع عليها من خلال تصريحات الفارين وبعض البرقيات، بقي أراوخو معزولا وبعيدا عن تعليمات من يثق بهم، وبعيدا كذلك عن الدريوش ومليلية. فتعكر مزاجه من جراء هذه العزلة والفراغ الاستراتيجي. وقبل البدء في الصراع، الذي كان يستشعر ضراوته، فكر في ابنه، القائد "إدواردو أراوخو سولر" Eduardo Araújo Soler الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنة[12].

كان أراوخو على علم بوجود "نفارو" في الدريوش، ومع ذلك مر يوم الثاني والعشرين باكمله دون ان يتخذ اي قرار. وفي الوقت نفسه، كانت تصله إلى معسكره انباء مقلقة عن مواقع تُهاجم ومواقع تُحاصر، ومواقع صامتة لا تجيب. علاوة على طلبات مستعجلة بالنجدة لم يُعرها أراوخو اهتماما[13]. وفي الليل، كانت عشرات المواقع الريفية تحترق. بقي "أراوخو" مشلولا، ففي كل ساعة، كانت تضيع فرص المناورات وتزهق أرواح الأشخاص. وقد لخص بيكاسو هذه القواعد في هذه العبارات، «كانت الوضعية واضحة جدا، فإما التمركز على جبهة كرط (لتكوين خط دفاعي ثان من جهة النهر)، وإما الصبر والمقاومة بمعية الكتائب العسكرية التي كانت موجودة، والتي كانت تبدو كافية. لكن لم يحصل شيء من هذا القبيل»[14].

وفي اليوم الموالي، السبت الثالث والعشرون، قرر أراوخو طلب تعليمات من نفارو. لم تكن الخطوط الهاتفية مقطوعة مع الدريوش، ورغم ذلك فضل إرسال كل من الضابطين، الفونصو فرنانديث مارتينيث، (الكومندان الذي عهد إليه سيلفستري بمخطط بالانسحاب)، ومساعده الذي كان ابنه إدواردو. فانطلق الاثنان في اتجاه الدريوش على متن سيارة عسكرية سريعة.

لم تستغرق سيارة فرنانديث واراوخو للوصول إلى الدريوش سوى ساعة واحدة، مرورا بطريق القندوسي -بوكسادا- دار ازوجاغ. كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا حينما طلب الضابطان الاجتماع بممثلي السلطة العليا بمليلية، فدخل الرجلان في محادثات مع الجنرال نفارو دامت ساعة واحدة[15]. وفي ساحات الدريوش، كانت جيوش أنوال المتبقية تنتظم داخل الصفوف ومعها كتائب شيفت التي وصلت لتوها منهكة القوى.

فسر "نفارو" لضباط أراوخو التدابير اللازم اتخاذها، وذكر أن أولى الخطوات تتجلى في الإسراع بالانسحاب في اتجاه القندوسي. وتم تبليغ هذا الأمر البديهي إلى دار الكبداني بواسطة الوسيلة الأكثر سرعة، وهي الهاتف الذي لم يكن معطلا. فرجع الضابطان من رحلة سفر لم تكن ضرورية. وهكذا حصل الكولونيل على الأمر الذي كان يبحث عنه، لكنه لم يفعل شيئا.

تلقى "فرنانديث مارتينيث" و"أراوخو" انباء تفيد بأن الطريق عبر بوكسادا في اتجاه الكبداني مقطوعة، وذلك بسبب سيطرة زعيم ريفي يدعى بوحراي Buharray على

المنطقة. ونتيجة لذلك، قررا التوجه نحو الباطل، ومن ثم الانعطاف في اتجاه الغرب للوصول إلى القندوسي. وفي الباطل، ومن مصادر موثوقة، تلقى الضابطان اخبارا جديدة أخرى تفيد بحدوث ثورة هنالك، فتعذر عليهما الذهاب إلى القندوسي، وهناك التقيا الكولونيل خمينث أرّويو Jiménez arroyo الذي وصل لتوه من مليلية، فطلبا منه قوات لحمايتهما. فكان الجواب بالنفي طبعا وذلك لقلة الجنود. فاجرى فرنانديث واراوخو مكالمة هاتفية مع القاعدة التي ينتميان إليها، فوقع ما لم يكن متوقعا، حيث إنه ،وبعد إجراء المكالمات مع الكبداني، قرر الضابطان الرجوع إلى مليلية دون تقديم خدماتهما للكولونيل خمينس ارويو. اعتمد القائد اراوخو في رجوعه على إذن من رئيسه (والده) الذي سمح له هاتفيا بالرجوع. ونفس الشيء بالنسبة للكومندان فرنانديث.

وهكذا، انقذ كل من الكومندان فرنانديث مارتينيث والقائد أراوخو حياتهما ومسيرتهما العسكرية، وأصدر المجلس الحربي حكما مخففا في حقهما، ينص على سنة واحدة من السجن التأديبي مع الإعفاء من تقديم الخدمات طيلة مدة السجن. وصادق على هذا الحكم قاضي التحقيق، والمستشار السيد "خوصي ماريا دي سنتمينات إي فونتكوبرتا" José María de sentmenat y Fontcuberta في مليلية يوم الثلاثين من مايو 1923 [16].

الخروج من الدريوش وحفرة "إغان"

حينما جمع بيكاسو كل المعلومات التي تهم الانسحاب من الدريوش، أوضح في إحدى رسوماته اليدوية -والضرورية جدا لمعرفة أحداث الريف لسنة 1921- كل الخصائص التي كانت تمتاز بها المنطقة، والتي كانت تتكون من معقلين دفاعيين اثنين؛ المعسكر شمالا، والمستوصف والمخازن وأفران الخبز والطهي يمينا، وتفصل بين الجهتين الطريق المؤدية إلى ابن طيب، ومساحتها تقدر بست مائة متر. كانت نيران البنادق هي الوسيلة الوحيدة لجعل هذه المنطقة حصنا منيعا لا يمكن اختراقه.

كانت في حوزة نفارو ثلاث مدفعيات حربية؛ الأولى والخامسة "جبلية" برئاسة القائدين روبيو Rubio وبلانكو Blanco، ومدفعية "عرضية" للملازم ايالا Ayala، ومدفع القائد روانو Ruano الذي سلم من النهب، وقطعتين حربيتين من نوع "شنيدر" كانتا في مخازن الدريوش، والتي تولى أمرها الملازم إنريلي Enrile ولوبث دي مورلا López de Morla.

والمجموع كان هو ثلاثة عشر أو خمسة عشر مدفعا، وتلك كانت اظن، قوة نارية مهمة، بالإضافة إلى اربعمائة وتسعة وثمانين رجلا، ومائتين وخمسة وعشرين حصانا. وحدث ان تنازل رئيس هذه المدفعية الحربية الكومندان إثيخا Ecija عن القيادة لزميل له في نفس الرتبة يدعى ماركري Marquerie.

وعلى الساعة الرابعة صباحا من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، استدعى نفارو الكومندان إدواردو ارميخو غرسيا Eduardo Armijo García من إدارة التموين، للتشاور معه حول ما يمكن فعله، فإما المواصلة في الدريوش أو الخروج منها. وكوجهة نظر شخصية، اقترح ارميخو على رئيسه المكوث هناك، كانت حججه تستند إلى القدرة الاستيعابية الهائلة للمعسكر، وتوفره على مورد ماء وكميات كبيرة من الذخيرة[17]. لم يكن متوقعا من أرميخو شخصا احترافيا في الميدان أن يعتبر خمسين الف خرطوشة فقط -وهذا هو الرقم الذي سجله تاريخ هذه الدراما- ذخيرة كبيرة. هذا، دون إدراج مطالبة "سباتي" العاجلة "لدولز" بنصف مليون من خراطيش البنادق، والف قذيفة مدفعية. فاحتمال ضياع هذه القذائف المدفعية في الطريق نحو ابن طيب كان جد وارد، حيث وردت تقارير تفيد ان قافلة كبيرة مكونة من اربعمائة ناقة تبددت وضاعت في نفس يوم الثاني من يوليوز.

كانت الدريوش خلاف "اعرويت" بمثابة حصن منيع له تاميناته، ووصف بريث أورتيث Pérez Ortiz (الذي كان يدير أعمال المعسكر) المكان بالمناسب جدا للدفاع، مما جعله يؤكد قائلا: «نظرا لقرب الدريوش من منبع المياه، وتطويقها للمراكز الأمامية لـ"حمان" (بالقرب من كرط)، فإنني اظن اننا في موضع قوة نستطيع بذلك المقاومة منه لشهور عدة. وفي رأيي، علينا البقاء هنا»[18].

وفي تلك الليلة (الثالث والعشرين من يوليوز)، وحينما سال نفارو ضباطه عن عدد القوات المعتمد عليها، سلمه بيريث اورتيس ورقة تتضمن الجواب: الف وستمائة وأربعة وعشرين جنديا (من بينهم كتائب انوال والدريوش). وفي اليوم الموالي، ومع وصول قوات شيفت والمناطق الأخرى، انضاف إلى العدد الف من الجنود الآخرين. وبعد التحدث إلى أرميخو، أصدر نفارو (وهو الأدرى براي بيريث اورتيث والمقتنع بإمكانياته) امرا بوقف الانسحاب.

كل ما جنته وربحته الدريوش من مؤهلات دفاعية هائلة، كان موازيا لخسارتها لروح الحماسة عند الجيش، ويحكي الكومندان "اندريس فرنانديث موليرو" Andrés Fernández Mulero مدير قسم النقل والاتصالات اللاسلكية، كيف انه اعد العدة لرحيل كل السيارات العسكرية نحو مليلية، وهي تنقل على متنها الضباط الجرحى والمرضى، وآخرين ممن رَخص لهم الجنرال بالعودة إلى مليلية[19]. كانت المعنويات في الحضيض منذ أحداث انوال، كما استمر انعدام الحيطة والتبصر. وفي الساعات الأولى من مساء الثاني والعشرين من يوليوز، شاهد أرميخو وصول القائد كاراسكو Carrasco العائد إلى الدريوش، في سيارة عسكرية صحبة العديد من الأشخاص، وهو يروي حكايات انوال دون تحفظ وعلى مسامع الجند. مما استدعي تحذيره بضرورة التزام الصمت، حتى لا يقضي على ما تبقى من معنويات الجيش[20].

وعند الفجر، استيقظت الدريوش على مشهد مؤلم؛ مشهد عازفي البوق الثلاثة عشر لفرقة الكانطرا، وهم يعزفون نشيد الاستيقاظ، لقد تابع كل أولئك الذين بقوا على قيد الحياة من كارثة انوال، هذا العرض بإعجاب وتفاؤل. وبعد أن انتهى هذا التقليد العسكري، بدا بعض الأمل إذ شُكّلت فرقة الفرسان التي لم تتمكن من إنقاذ سوى بواق واحد متخم بالجراح.

وبحلول ظهيرة الثالث والعشرين من يوليوز، وفي ركن من اركان المعسكر، القى بيريث أورتيث خطبة على رجاله، مؤكدا لهم ضرورة الصمود وعدم الانسحاب من الدريوش، وفي نفس الأثناء، وصل نفارو وذكر له في حدة وصلابة بأن الظروف تقتضي إفراغ المركز[21]. وانطلاقا من معرفتنا بطبيعة وشخصية التنينتي كولونيل، كان من المحتمل وقوع مشادات كلامية مع جنراله، غير أن "بريث" تفادى الحديث عن هذه الأمور في مذكراته. وهكذا، بقيت هيئة ضباط سان فرناندو في حيرة من أمرها، أما زعيمها فقد حاول ابتلاع الإهانة.

نزل خبر الانسحاب من الدريوش كالصاعقة على الجيش، مما ادى إلى تدفق حشود كبيرة من الجنود، سواء المصابين منهم بجروح طفيفة أو غير المصابين على الشاحنات. فكان يركب الشاحنة الواحدة ما يزيد عن ستين رجلا، وبإقلاع الشاحنات وقطعها لبعض الكيلومترات كانت تنقلب تحت وطأة الوزن الثقيل، أو تتعطل بسبب تضرر النوابض. وأمام هذا الوضع، هب الريفيون لنهب الشاحنات المعطلة في سرعة

البرق، أما تلك التي مازالت صالحة، فقد واصلت طريقها دون التوقف أمام المشاهد الدرامية التي كانت تعترضها.

وفي إحدى سيارات الإسعاف المتبقية، جاء الملازم إسماعيل ريوس غرسيا Ismail Ríos García الذي وصل إلى الدريوش قادما من شيفت جريحا. وحدث أن تعطلت السيارة من جراء الحمولة الثقيلة، فتوقفت عن السير. وفجأة، انقض عليها حشد كبير من الريفيين، وفتحوا النار على السائق وضربوا الجرحى بسكاكينهم. وبعد عملية نهب جنونية للجثث، انسحب المهاجمون. لم يدر "ريوس" ماذا يفعل وسط القتلى، فاستغل الفرصة لاستجماع قواه وطلب النجدة بعد ذلك.

كان جسد "ريوس" متخما بثمانية وعشرين طعنة بالخنجر، فكثرت الثقب على بدلته الرسمية، ولطخ الدم كل اكمامها وطياتها، فوقف في وسط الطريق يحاول إيقاف اي سيارة مارة، وهو يلوح بدراعيه المفتوحتين لطلب النجدة. فلم يتوقف احد امام هذا المنظر المرعب، حيث مرت عليه أولا سيارة تتبعها شاحنة بنفس السرعة دون أن تعير إلى المستنجد اهتماما. فيئس "ريوس" وقبل ان يفقد الأمل بالمرة، مرت شاحنة اخرى ابطأت السير دون أن تتوقف، فتعلق الضابط بها وساعده الراكبون على الصعود. وهكذا، تمكن ريوس من الوصول إلى تيزطوطين، ومن هناك إلى مليلية[22].

تم الانسحاب من الدريوش، وخرج الجنود في أربعة افواج: فرقة "سرنيولا" أولا تتعقبها مائتان واثنان وخمسون من الجرحى، وبعض عربات المؤن والمدفعية، وفي المؤخرة قوات سان فرناندو المكونة لمؤخرة الجيش. كان المجموع هو الفين وستمائة وستة وستين رجلا مصحوبين بالمدفعية، وواحد وتسعين حصانا، ومائة وثلاثة وتسعين بغلا[23]. وللوصول إلى تيزطوطين، كان على الكل قطع مسافة عشرين كلم للوصول إلى السكة الحديدية. لكن، لم يتمكن احد من الوصول إلى المكان، إذ ان حفرة "إغان" كانت تنتظرهم.

اصدر "نفارو" اوامره بإحراق كل شيء، وهو بالضبط ما فعله "روميرو" في شيفت، تكرر نفس الخطأ ونفس الكارثة. اندهش الريفيون لانسحاب الإسبان في تلك الساعة -الواحدة زوالا-، فانحدروا من الجبال المجاورة في اتجاه المعسكر، الذي تصاعدت منه اعمدة الدخان الكثيف. كان "نفارو" مايزال في الدريوش صحبة ثلة من الحرس وسائقه الوفي، المساعد ميلون Melón، الذي كان أمام مقود السيارة. اسرعت الكتيبة، وبالرغم

من العياء الشديد،ضاعفوا من سرعتهم. لأن الخطر كان يحذق بهم من كل جانب. وفجاة، وجدوا الشاحنات التي تقل الجرحى. كانت معظمها مخربة ومحروقة او مقلوبة عند المنحدرات الجانبية. أما ركابها، فلم تكن حالتهم تختلف عن هذه الشاحنات. كل الممارسات الريفية المرعبة تجسدت هناك أمام أعينهم.

وفي الدريوش، أعطى "نفارو" إلى "ميلون" إشارته بالانطلاق، فضغط المساعد بكل قوة على بنزين السيارة التي خرجت تتعقب الكتيبة. وفي طريقها، داست بقوة كل الجثث وكتل الحجارة التي كانت تعترض سبيلها[24]. كل هذه الأحداث، رواها "ميلون" للكومندان "فرنانديث موليرو" الذي تمكن من النجاة رفقة بعض الشاحنات التي كانت تحت إمرته، ووُفّق بذلك في الوصول إلى اعرويت على الساعة الخامسة مساء. وبعيدا، بقيت الكتيبة تواصل سيرها في انكسار. لقد عمت الفوضى ودبّ العصيان في صفوفها بسبب تعليمات نفارو التي أصدرها. لقد راى ان الجيش اصبح يمر بالطريق ولا يعبأ بالمجازر التي وقعت.

امتلأ نفارو غيظا وأمر بجمع الجثث من الأرض وحملها على البغال وعربات المدافع، فتبادل الجنود -عدد ليس بالقليل من الضباط- نظرات الحيرة. إنها الثالثة زوالا، ورئيسهم يأمرهم الآن ليس بحفر القبور، ولكن بحمل الجثث وإيصالها إلى الباطل، التي كانت تبعد بنحو عشر كيلومترات. فلاحت بعض بوادر الاعتراض التي اخرجت نفارو عن صوابه، فحذر قائلا، ،إذا بقيت هنا جثة واحدة فلن تخرج الكتيبة.كان نفارو يريد من ضباطه أن يساندوه ويقدموا له يد العون، فبادر القواد والملازمون والسلاح بأيديهم بتحفيز وإرغام الجنود على حمل الموتى. وحدث ما لم يكن متوقعا، فقد أصبحت البغال لا تقوى على حمولتها، مما دفع الجرحى إلى رمي الموتى أرضا ليركبوا هم[25].

وفي خضم هذه الفوضى الأخلاقية، اصطدمت الكتيبة بحاجز اعترض سبيلها، إنه خندق "إغان".

كان الريفيون هناك بانتظار الإسبان، فاربكت نيرانهم صفوف الجيوش الإسبانية، ورغم ذلك امر نفارو بمواصلة السير. لكن يبدو انه لم يعد يملك اي سلطة على جيشه، فتقدم ساينث Sainz من هيئة اركان الحرب وشكّل -وهو يصرخ بأعلى صوته- بعض الفرق. فاجتمع حشد من الجنود وبادروا بإطلاق النار، لكن عددهم كان قليلا لأن باقي

الجيش امتنع عن المشاركة حتى في عملية الدفاع عن نفسه. وتعالى صراخ الجنود وهم يتوجهون لقائدهم بطلب انضمام الضباط إليهم، عوض بقائهم على الطريق يحتمون وراء البغال من نيران العدو. شحب وجه "نفارو" و"ساينث"، لم يكن السبب هو التمزق الذي هز الجيش، بل إحساسهم بأن النهاية باتت وشيكة، وقتها ظهر القائد بلانكو الذي حاول أن يخلص الضباط المعنيين من جبنهم، لكن دون جدوى.

كان "رامون بلانكو" على رأس المدفعية الخامسة بكل من انوال وإيزومار. وهناك بإغان بدا موقفه رائعا وهو يعاتب بشدة زملاءه (بعدما رأى ضياع ثلاثة مدافع)، ويعطي مثالا للجنود في الصمود، فانقذ الموقف. بعدها جاء الحدث الحاسم مع فرقة الكانطرا[26].

توقف بريمو دي ريفيرا وجنوده أمام خندق إغان، وفكر مليا فيما يجب فعله. فهل يتصدى بنيرانه إلى كل الريفيين المرابطين هناك لإنقاذ ما تبقى من الجيش؟ أم يكتفي بنجدة عناصر فرقته؟ فجاء القرار حاسما، حيث انطلقت إلى هناك وحدات الكانطرا. كان الفرسان يصوبون سلاحهم نحو الصفوف الريفية المتراصة، فدمروها عن آخرها، وسقط الرجال والدواب. وعلى هذا الحال، وجدوا بعد مرور خمسة أشهر على الحادث. كان النصر حليفهم هذه المرة. وهكذا، تمكنوا من إنقاذ كتيبة نفارو وتحويل تلك الهزيمة إلى ملحمة.

صاحبة مطعم "الباطل" وعصا نفارو

وانتهت حكايات إغان بمشهد مروع تقشعرّ له الأبدان، إذ شهد الجندي "بيثينتي غاريدو كووثيرو" Vicente Garrido Couceiro، الذي كان آخر من عبر الممر، منظر دراجة نارية تجر قاطرة تحمل شخصا عاري الجسد ومتخما بالطعنات، وقد غطي برداء صاحبة مطعم معسكر الباطل[27]، المعروفة باسم خوانا مارتينيث لوبيث Juana Martínez López، أما زميلها فلم يعرف اسمه[28].

بوصوله إلى الباطل، لم يجد نفارو سوى مؤن قليلة وهزيلة، أما الماء فكان متوفرا، لكنه كان أجاجا. علاوة على أن كل خطوط الاتصال مع أعرويت كانت مقطوعة. فتمثلت العزلة بوجهها. خيبة أمل أخرى كانت مع السكة الحديدية، إذ لم يأت على متنها أي قطار من مليلية. كانت تيزطوطين قريبة، لكن نفارو كان يراها بعيدة المنال في ذلك اليوم. واصلت الفرق الريفية إطلاق النار من مخابئها بلا هوادة، فذعر الجند. وبعيدا، كان يظهر جبل أعرويت الذي وصل إليه بعض جنود نفارو في الليل سيرا على الأقدام.

استنفذ نفارو كل صبره، خصوصا في تلك الساعات التعيسة في "الباطل". واستمر وصول الضباط. كانوا منهوكي القوى ضعيفي المعنويات، مجردين من أوسمتهم. علاوة على ان فرقهم العسكرية تخلت عنهم. هذا وقد راى الجندي "دومينكو طورطوسا لينارس" Domingo Tortosa Linares من فرقة إفريقيا، كيف ان الجنرال وصل به الأمر إلى ضرب ملازم بعصاه لأنه كان لا يحمل (مثل آخرين) لا نجمات ولا شارات. وفي الوقت الذي كان فيه نفارو ينهال على الضابط التعس ضربا بالعصا، سمع "طورطوسا" والدهشة تمتلكه صوت الجنرال وهو يهتف، «إنني عجوز، لا اريد ماء، فليذهب من يشاء»[29].

لم تكن القيادة العليا في مدريد على علم بنهاية "نفارو"، عكس مليلية التي كانت على اطلاع بمصيره ومصير كتيبته. ففي زوال يوم الثالث والعشرين من يوليوز، اكتشف ركاب طائرة "برسطول" Brístol و"هافييان" Havilland التي كانت تحط بسلوان، جثثه بدهشة. فتكشفت الهزيمة النكراء التي تجلت بوضوح في السماء، فظهرت الجثث ومدافعها وشاحناتها، وكل أصناف الأمتعة المنتشرة من إيزومار إلى الباطل، وتصاعدت العشرات من أعمدة الدخان الأسود على طول وعرض الجبال، تنبئ باحتراق العديد من المراكز، وكذا احتراق أجساد المدافعين عنها.

"برنكر" يبحر قبالة شاطئ تأكله النيران

مساء الثالث والعشرين من يوليوز، صعد "برنكر" إلى باخرة "البونيفاس" Bonífaz، وهي الباخرة التي دخلت الخدمة سنة 1911، وتصل حمولتها إلى ثمانمائة طن، وقوة 1024 حصان، أما قدرتها الاستيعابية فكانت تتسع لمائة وسبعة وعشرين بحارا لتحريك أربع مدافع من عيار 76,2 ميليمتر، واثنين من المدافع الرشاشة[30]. آنذاك، كانت بريطانيا العظمى قد اطلقت سفنا مدمرة من نوع "افريدي" Afridi، تصل سرعتها إلى اربع وثلاثين عقدة بحرية. وظهرت بعدها بواخر "مانداتي" Mandate[31]، التي تصل حمولتها إلى الف وخمسة وعشرين طنا، ولها نفس السرعة في الإبحار، والتي تصل إلي اربع وثلاثين عقدة بحرية، مزوّدة بثلاث قطع من عيار 102ميليمتر[32].

كانت هذه هي الآليات البريطانية التي كانت تفوق بكثير البونيفاس، وسبق أن عرضت لندن على مدريد منذ زمن قريب، صفقة لبيع هذه السفن بأثمنة جد بخسة، تراوحت بين

(مائة وخمسين الف، ومائتي الف بسيطة). كل هذه الأنباء، تحدث عنها الماركيز "كورتينا" Cortina في رسالة بعث بها إلى لاثيرفا في الرابع عشر من نونبر 1921[33].

واخيرا خرج "برنكر" نحو مليلية، وانطلق "البونيفاس" من سبتة، وتقدم نحو الأمام باقصى سرعة ممكنة، سرعة لم تكن تتجاوز الاثني عشر عقدة.

ومن مقر القيادة، راقب "برنكر" وضباطه ساحل غمارة وقت الغروب. وبعد الانعطاف نحو خليج بادس، لاحت من بعيد العلامات الأولى التي تنبئ بهول الثورة الريفية، كيف لا وقمم جبال الحسيمة كانت تحترق، كانت النيران المشتعلة تنذر بالتعبئة القتالية الشاملة للريفيين.

تجاوزت باخرة "البونيفاس" القوس الجغرافي الواسع لمدينة الحسيمة، كانت الصخور التي تحتضن الخليج غارقة في صمت رهيب. لكن، وبتخطي صخرة راس كيلاطس، سمع دوي قوي للرصاص، وبدت سيدي ادريس بؤرة تشع منها ومضات الانفجارات الكثيفة، ومنطقة تعج بالمقاومة وتطالب بالمساندة من مدفعية "لايا" واميرة "استورياس"، اللتين كانتا هناك تقدّمان يد المساعدة في حدود المستطاع. تبادل ركاب البواخر التحية النظامية، واخبر قبطان باخرة "الأميرة" السيد "إيليسيو سانتيثيث" Eliseo Sánchiz بانه لا يستطيع الاتصال بالثكنة، التي لم يعد يعرف عنها سوى انها أصبحت بدون ماء، وذلك لأن كل مصادر المياه والشاطئ نفسه بات بيد الحركة. اما رجال الكومندان فيلاثكيث -والمقدر عددهم بثلاثمائة رجل انضافت إليهم مائتان وأربعة وسبعون ممن جاؤوا من تاليليت على قيد الحياة- فكانت مقاومتهم تبدو جيدة. لكن الظمأ والعجز بسبب استنزاف كل الذخيرة، جعل رجال سيدي ادريس الثلاثمائة يستشعرون دنو أجلهم. كان طيف وذكريات إيغريبن تلوحان في الأفق.

وبعد قليل، تابعت "البونيفاس" سيرها ظهر رصيف راس "افراو"، وهو موقع آخر تمت مهاجمته ومحاصرته. ومما زاد الطين بلة، هو عدم وصول اية مساعدة بحرية. ولأن مركب "لاوريا" Lauria الذي اقلع بسرعة من الجزيرة الخضراء تاخر عن الوصول إلى المياه الريفية، ونتيجة لذلك، بقي ما يناهز مائة وثمانين جنديا، كانوا تحت إمرة الملازم "خواكين فارا دي ريي" Joaquin Vara de Rey بعد غياب القائد (فرانثيسكو رييس F. reyes) الذي كان في رخصة بإسبانيا، يقاومون[34] او على الأقل هذا ما كان

يبدو. كان من المستحيل الاتصال بهم. وظل الصمت يخيم على أفراو، وكذلك الشأن بالنسبة للمقيم العام الذي لم يفتح فمه.

خلفت "البونيفاس" وراءها كل الحصون المحاذية للبحر، وبدأت تقترب من هدفها مليلية التي لاحت من بعيد. ومن هناك لمح "برنكر" جبلا من النار، كانت نيران "الكوروكو" تعد بالعشرات.

مدينة مجردة من السلاح وقيادة منهارة

وليلة الثالث والعشرين من يوليوز وعلى الساعة الحادية عشر، قطعت باخرة "البونيفاس" مضيق مليلية. كانت عاصمة الريف الإسباني تظن في هذه اللحظات أنها تعيش آخر ساعاتها تحت هذا الحكم، خاصة بعد أن أكد نجل الجنرال "سيلفستري" نبأ وفاة والده، ووصلت لاحقا المئات -بل الآلاف- من المعمرين الفارين من غاريت Garet، والمناطق المنجمية لبني أفرور. كل هذا تسبب في فقدان ثقة الشعب، حيث خيم جو من الرعب على الميناء. كانت المدينة -وهي بدون سلاح- توشك أن تستسلم.

كان مجموع القوات العسكرية المتوفرة بالمدينة لا يتجاوز الفا وثمانمائة رجل، وكان متوقعا أن يقوم العدو في أي لحظة بهجوم جماعي في الفجر. خاصة بعد أن تمكن الريفيون من تجاوز خط "كرط" بكل سهولة، علاوة على ذلك، كانت كل الحصون في حاجة إلى مدفعية عصرية، فكل ما كان متوفرا من قطع حربية قوية كان موجها إما نحو البحر أو كان لا يفي بالغرض، كقطع "كروب" على سبيل المثال، وأوردونييث Ordóñeez التي تعود إلى زمن مارغايو Margallo. كما أن الذخيرة لم تكن كافية، ناهيك عن معنويات الجيش التي كانت في الحضيض ولا سبيل إلى إنعاشها.

تفاقم الاستياء الشعبي، خاصة بعد أن تبين أن "البونيفاس" وصلت لوحدها دون قافلة كبيرة محملة بالجيوش. فما حاجة سكان مليلية لجنرال يصحبه حارسه؟ إنهم في حاجة إلى جيش لا إلى مقيم عام. فاشتعل فتيل التمرد وانهال الناس ضربا على الجند الحرس والبحارة المتواجدين بالميناء، فاحتدم الاشتباك بالأيدي وتم تبادل الشتائم المبتذلة والتهديدات بالموت، وحاول العديد الهجوم على الزوارق ومراكب النقل التي كانت ترسو هناك. وتدخل الجيش والقوات البحرية لتفرقة المتظاهرين والحد من الفوضى بكل ما أوتوا من قوة. وعاين "برنكر" هذا المشهد الدرامي، وبخيبة أمل أحنى

رأسه ليستمع للأخبار التي نقلها إليه "سانتيثث مونخي" Sánchez Monje، الذي صعد لتوه إلى البارجة. كانت الأنباء تتضارب حول انقطاع خطوط الاتصال مع "نفارو" في الدريوش، وسقوط المعسكرات الواحدة تلو الأخرى. والكوركو الذي بات قاب قوسين او أدنى من الضياع. لم تكن بمليلية قوات لحراسة المدينة، فبالأحرى إرسالها لنجدة الناظور وسلوان، وفي حالة إعلان قبيلة بني شيكر (التي كانت تحرس مليلية من الخلف في اتجاه الغرب) عصيانها، فإن المدينة ستسقط لا محالة. وفي الميناء كان في انتظار المقيم العام زمرة من اعيان الولاية الذين تم استدعاؤهم ببرقيات، وذلك قبل خروج "برنكر" من سبتة، فكان عليه ان يلتقي بهم هناك دون تاخير.

استحضر "برنكر" تلك اللحظات العصيبة وعبر عنها بهذه العبارات: «لقد كانت ساعات عسيرة حقا، احسستُ فيها بثقل المسؤولية، وتلمست تخبط وخوف شعب ينتظر من حاكمه، ان يحمله إلى بر الأمان...»[35]. تفرقت الجموع، لقد كان الوقت فجرا ولم يعد هناك ما يمكن انتظاره، فربما تقع المعجزة غدا، هذا إذا ما تاخر الريفيون قليلا ولم يهاجموا في الساعات الأولى. واسترجع "برنكر" ذكرياته، كان الشعور بالأسى عظيما وانت تتامل هذا المشهد الحزين لتلك الحشود التي تفرقت في صمت وغم وهي تقصد بيوتها، وكلها امل في غد مجهول. وعاش "برنكر" ليلة أسوأ من تلك التي قضاها "كورتيس" في "اوتومبا" Otumbra، ليلة خلدها في صفحات تاريخ إسبانيا بقوله: «لقد كانت بحق ليلة مأساوية لم يسجل تاريخنا مثلها...»[36].

كان الأعيان الريفيون ينتظرون بدورهم "برنكر"، وما ان شاهدوه حتى أعربوا عن ارتياب منطقي ومعقول، لأنهم مثل سكان مليلية، كانوا ينتظرون قدوم قوات ضخمة، وها هي إسبانيا تبعث لهم بجنرال منهوك القوى. لم تكن المسألة بالنسبة إليهم ولفترات مبعث ثقة ولا مبعث خوف، إذ الأغلبية قد اختارت المقاومة. فانصرف البعض من الميناء ومكث البعض الآخر، كان ابن شلال Chel-Lal، اكثر الحاضرين ارتيابا، وبجواره كان الشرفاء (احفاد النبي محمد)، وامزيان الذين تاخروا في الانصراف ليطلبوا منه عدم تصديق كل الإشاعات والأخبار التي وصلته بشأن انشقاقهم عنه[37]. اما الآخرون، فقد ساروا على درب الخيانة، وتلك حالة ابن شلال زعيم بني افرور، الذي ارغمته الأحداث وعواطفه وتخوفاته على تغيير مواقفه.

تحمس "روبيرتو كانو" Roberto Cano، احد كتاب مليلية، وبادر بمطالبة السلاح بهدف تكوين جيش من المواطنين المتطوعين. فكر "كانو" في الملازم فرنانديث طماريت قائدا مناسبا لهذه الكتائب المدنية، غير ان السلطات العسكرية تخوفت من افكاره التي تروم تنظيم ميليشيات، فرفضت إمداده بالسلاح[38].

وفي مدريد، كان المراسلون الصحافيون يحاصرون مكاتب "بوينابيستا". وكان "إيزا" على علم بأن "برنكر" بات في مليلية، لا يتوفر على معلومات دقيقة عن الحادث، وهو بدوره يجهل ما يجب فعله في الضفة الأخرى. وبكل صراحة، ذكر للصحفيين المشدوهين قائلا، «لقد وصلت لتوي، ولا اعرف شيئا إلى حد الساعة، تعالوا إلى الوزارة وسأمدكم بالأخبار لاحقا»[39].

وفي مليلية، كان "برنكر" يتاهب لإجراء مكالمة هاتفية مع "إيزا" في فجر الرابع والعشرين من يوليوز على الساعة الثانية صباحا تقريبا.

واثناء المكالمة الهاتفية، حاول المقيم العام ان يختصر في حديثه مع الوزير. فالكوارث التي حلت وتلك التي ما زالت في الطريق، جعلت "برنكر" يختصر في شروحاته ووصفه للدراما الإفريقية. لقد اخبر عن الحصار المضروب على سيدي إدريس وأفراو، وبما أن الفوضى الشعبية التي تعيشها أرصفة مليلية ماتزال في أوجها، فقد ذكر لإيزا انباء نصفها حقيقي والنصف الآخر افتراء، حيث قال: «لقد وجدت الشعب في حالة نفسية سيئة، وهم ينتظرون بكل ثقة مساعدة الحكومة»[40].

وفي محاولة فاشلة لتصنع الهدوء، تحدث "برنكر" لـ"إيزا" عن عدم تمكنه من الاتصال "بنفارو"، وذكر ان الانسحاب الذي تزعمته البقية المتبقية من كتائب أنوال، واصل تقدمه في اتجاه الباطل. وعلى ما يبدو، فإن هذه الفرق تحركت من جديد في اتجاه جبل أعرويت. في هذه اللحظات، شرعت في الوصول بشكل ارتجالي وغير منظم». (بعد كل هذه التصريحات) صوّر "برنكر" المأساة قائلا: «... لم يعد هناك شيء يمكن الاستفادة منه، فكل الأجهزة باتت تتخبط في فوضى كبيرة، واصبحت الذخيرة كلها تقريبا في يد العدو، وتبعثرت القوات وضاعت كل قياداتها». وقبل ان يعقب الوزير، بادره "برنكر" بقوله: «ولأن حالة المعدات الحربية يرثى لها، فإني أعلم ان معنويات الجند أسوا حالا، لقد دب الرعب في صفوف الجيش كله».

كان "إيزا" مايزال على صمته حينما انهى "برنكر" كلامه قائلا، «وفي كلمة واحدة، اخبرك بان الإقامة العامة لن تصمد طويلا، إذ لم يعد فيها شيء صالح، يجب بناء كل شيء من جديد»[41]. حينما علم وزير الدفاع بان جيشه قد ضاع، كانت الساعة تشير إلى الواحدة واربعين دقيقة من يوم الرابع والعشرين من يوليوز. ورغم انه توقع فقدان منصبه الذي سيظل شاغرا داخل الحكومة، إلا انه استبعد انهيار النظام كما انهارت الإقامة العامة بمليلية.

استقبل إيزا الصحفيين في «بوينابيستا»، كانت الساعة تشير إلى الرابعة إلا ربع صباحا، حيث تقمص هذا الوزير دور ممثل بارع يجسد التفاؤل الرسمي، ففي مدريد الحزينة ليوم (الرابع والعشرين من يوليون) لعب "إيزا" دورا مهما في مسرحية عبثية غير معقولة، حيث صرح قائلا، «إن انطباع الشعب في مليلية ممتاز، فقد لمس "برنكر" عند كل الناس روح تفاؤل كبيرة، وكل زعماء القبائل المجاورة للمدينة، قدموا مجددا ولاءهم لإسبانيا، ومن المنتظر ان يعاد تنظيم الإقامة العامة وترتيب أجهزتها في اقرب الآجال». واوضح اخيرا بانه لم يستلم بعد، بيانا لحجم الخسائر البشرية، وانه سيدلي بها في غضون يومين[42].

إنقاذ مليلية بفضل قَسَم ثلاث رجال بالانتحار ثلاث مرات

افزعت انباء أنوال كل المستوطنين في اراضي افراو وجبهة كرط ومناجم ويكسان، وكذا جيوب الناظور وسلوان. وكان لهذه الأنباء وقع خاص في الشاحنات المحملة بالجرحى، والسيارات العسكرية التي تحمل على متنها الضباط المنكسرين، وقوافل فرق المدفعية دون آلياتهم، والكتائب المفككة. كانوا كلهم منهوكي القوى، ولهم نفس الوجهة، مليلية.

كانت مليلية تحتاج إلى يوم كامل لتسترجع انفاسها، وشرعت قيادات المقاطعات والفرق الكبيرة في الخروج إلى الجبهة. فقرر قائد فرقة إفريقيا "خمينس ارويو" Jiménez Arroyo، (الذي تم إيقاظه من منزله على الساعة الخامسة والنصف من صباح الثالث والعشرين من يوليوز من طرف ضباط الصف التابعين للإقامة العامة)، الخروج إلى "الباطل" رفقة

"التنينتي كولونيل بيكيراس" Piqueras ومساعده "القبطان خوصي دي لاما" José de Lama، فاستقلوا إحدى السيارات العسكرية، وفي أقل من ساعتين وصلوا إلى وجهتهم.

كانت الطريق إلى الدريوش مؤمنة، لكن "خمينس أرويو" فضل الاتصال هاتفيا. وعلى الجهة الأخرى من الخط، ومن الدريوش بالضبط اجابه "إنريكي" نجل الكولونيل، والح عليه بأن يستعجل نفارو بهذه التعليمات، كان تبقى (المدفعية) بالباطل، وان تجرى عملية انتقاء صارمة للجند المحملين على ظهر الشاحنات. فمن لم يكن بإمكانه البقاء، فبإمكانه متابعة السير نحو مليلية[43]. والحقيقة ان هذه التعليمات لم تكن اوامر، بل انباء عن كارثة شمولية.

وفي الوقت الذي اتخذ "خمينس أرويو" قراره، اتصل به نائبه "غارسيا إستيبان" من المعسكر في سوق الثلاثاء، وهو المكان الذي كان من واجب خمينس أن يكون حاضرا فيه في تلك اللحظات، لأن خيرة جنده كانت محاصرة هناك. فكان جواب الكولونيل لغرسيا إستيبان بالصمود، حتى يرى إن كان بوسعه إمداده بالمساعدات[44].

وبوصول فرق الدريوش إلى الباطل في بلبلة وفوضى كبيرتين، ضاقت معنويات "فرانثيسكو خيمنس أرويو" الذي كان يبلغ من العمر خمسة وخمسين سنة. كان قد نسي تجربته في القتال، وكان له ولد لابد ان يسهر عليه. وحوالي الثالثة زوالا، قرر الذهاب إلى أعرويت إلى معرفة هل نفذت أوامره. فانتهز فرصة خروج سيارة فورد من الدريوش، والتي كانت تقل قبطانا وملازما وجنديا من فرق الخيالة، بالإضافة إلى ولد له كان ملازما ثانيا في الجيوش النظامية، فركب السيارة، وفي غضون خمسة عشر دقيقة وصل كل الفريق إلى أعرويت.

كانت الدهشة والتهاون تخيمان على أرض ستتحول في بضع دقائق إلى مقبرة للجيش، وكان القبطان "كاراسكو" قائد فرقة "ميبا" من الشرطة الأهلية المعسكرة هناك، يتحمل جزء من هذه الأفعال المؤلمة. وفور عزمه مغادرة أعرويت تاركا وراءه رجاله، تم ذبح كل من سولت له نفسه الفرار من المكان. لكن وقبل وقوع هذا الحدث المنزوع، قام كل من "كاراسكو" و"خمينس ارويو" وقبطان آخر غير معروف بفعل مشرف، تلخص في إرغام كل اولئك الذين كانوا على متن الشاحنات بالنزول. وقد اقتضى الحال تهديدهم بمسدساتهم حتى يمتثل الكل لأوامرهم. كانت فاجعة أنوال قد

افقدت الرجال صوابهم، فتحولوا من ابطال إلى أنذال، وعاشوا تحت رحمة قوة متارجحة لا تعرف معنى للمقاومة او الصمود.

وفي محطة القطار، حل القبطان "لويس روانو إي بينيا" Luís Ruano y Peña الذي كان بانوال على راس البطارية الجبلية الثالثة، على الساعة الرابعة مساء، واحضر معه عددا من البغال، والكثير من الرجال العزّل. وما ان رآهم "خمينس ارويو" حتى امرهم بالبقاء كلهم باعرويت. فاعترض القبطان بسبب نقص العلف ونقص الذخيرة والمؤن. فتراجع الكولونيل عن رايه وقبل ببقاء ثلاثة من الضباط ومائة من فرقة المدفعية. آنذاك سال "روانو" خمينس أرويو عما إذا كان ينوي المكوث باعرويت. ونفس السؤال كرره لكاراسكو، فاجابه الاثنان بالإيجاب والزموه أمر التوجه إلى مليلية مع بقية قواته. تفحص "روانو" الضابطين معا، وعندما ادلى بشهادته قال، «لم الاحظ شيئا غريبا في مظهر الأول ولا في مظهر الثاني». كانت الساعة تشير إلى السادسة والأربعين دقيقة من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، وسارت البقية من البطارية الثالثة في اتجاه مليلية. وبمحاذاتها كانت هناك كتيبة اخرى تقصد نفس المكان، إنها بطارية القبطان "غالبيس" Galbis.

كان القطار الأخير يستعد للخروج نحو الباطل، فقصده كل من "خمينس أرويو" و"كاراسكو"، وما إن صعد الكولونيل إلى القاطرة حتى أصيب بحالة إغماء من جراء جلطة في الدماغ. لكنه كان يبدو في كامل وعيه. والدليل على ذلك، مطالبته بإحضار سيارته التي صعد إليها دون عناء، فانطلقت السيارة. اندلعت الفوضى باعرويت، حيث انتفضت عناصر الشرطة وخرجت من معسكراتها، ففتحت النار على الجيش، وعلى كل أولئك الفارين الذين كانوا مايزالون يتوافدون على المعسكر.

واصل "روانو" طريقه صحبة اتباعه في اتجاه سلوان، فلحقت بهم إحدى السيارات التي توقفت. كانت الدهشة كبيرة حين اكتشف ان "خمينس ارويو" و"كاراسكو" كانا على متن هذه العربة. اشار "كاراسكو" لزميله "روانو" بأن الشرطة تطاردهما في الخلف. فحسب القبطان انهم فرسان قادمون لحماية رجاله، لكن تبين له فيما بعد ان الشرطة السالفة الذكر، ما هي إلا مجموعة مكونة من اربعة رجال يمتطون صهوة جيادهم، مروا عليه دون التفاتة وولوا وجوههم نحو مليلية[45]. وفي الواحدة صباحا، وصل "روانو"

وفرقته الصغيرة إلى الناظور، وبعد استراحة استمرت ساعتين، وصلوا إلى مليلية على الساعة الخامسة والنصف صباحا.

وصبيحة الرابع والعشرين من يوليوز، وصل إلى الناظور قطار محمل برجال معنوياتهم في الحضيض. كان "ريكاردو فرنسو أورثايث" Ricardo Fresno Urzaáz، الضابط الشجاع من الحرس المدني يقوم بعمليات تفتيش بالمحطة. وتلخصت دورياته في إنزال الجند المسلحين من القاطرة، وعرضهم على "باردو اغودين" Pardo Agudín. ولم يسلم من هذه العمليات سوى اثنين أو ثلاثة من الجنود الذين كانوا يسهرون على أمتعة الكولونيل خمينس أرويو الذي اعطى تعليمات بذلك[46].

جاءت نجاة مليلية على يد ثلاث رجال شجعان وهم، زعيم قبيلة بني شيكار، الذي اقنع رعيته بعدم التمرد. وضابطان إسبانيان اثنان -نجهل اسمهما- قدما له مساعدة قوامها ستين او ثمانون رجلا فقط. واقسم الثلاثة بالانتحار، إذا لم تصل المساعدات من إسبانيا.

وقد روى هذا الرهان المرعب -فيما بعد- النائب "نوغيس" Nogués الذي اوضح انه بفضل ملازمين اثنين من الشرطة الأهلية، ومورو واحد يعرف اليوم باسم القايد عبد القادر، لم يدخل الموروس إلى مليلية. واقتضت الضرورة بأن يعرض هؤلاء الضباط على المورو الموالي لإسبانيا مسألة انتحارهم معه،[47] فجاءت نجاة مليلية عبر ثلاثة وعود بالانتحار.

المستوطنون بين القتل والنهب

اقتحمت ثلة من المعمرين في فجر الرابع والعشرين من يوليوز، إلى جانب فرق مشتتة اخرى مدينة مليلية. ووصلتها هذه الجموع مرورا بطريق الناظور والمسالك التي تصب فيها انطلاقا من الزغانغن Segangan وسان خوان. كانت الكتائب عبارة عن حشد غير متجانس، يجر عددا غير قليل من العربات التي اغلقت الطرقات للحظات. وفي خضم هذا الضجيج والصخب، تمكّنت مائتان من الأحصنة المحملة بالمدافع والمؤن بقيادة ضباطها[48] من المرور في تماسك. كان رجال "غالبيس" Galbis من الأوائل الذين عبروا الطريق.

كان الكولونيل "فرنانديث طماريت" في الصفوف الأولى بضواحي مليلية، كان عمره يناهز الثمانية والأربعين سنة، وكان في رخصة مرضية سببها الم حاد في العين. لكن وبعد معرفته بالأحداث، التحق بموقعه.

بعد ان راى "طماريت" هذا السيل المنهمر من البشر، أدرك صعوبة عبور إيزومار، ففسح المجال لهذه الحشود، واوقف الجنود العزل، وسأل "فالديس" و"فرنانديث بينيدو" Valdés y Fernandez Pinedo، ضباط طابور إفريقيا عن سبب تخلفهم عن ركب جنودهم وما قصة أسلحتهم. فارتبك الضابطان واجابا بصراحة انهما سلما سلاحهما لزملاء كانوا في حاجة إليه. دوّن فرنانديث طماريت هذه التصريحات ومرّرها لكولونيل الفرقة الذي لم يكن سوى خمينس أرويو[49] الذي لم يفعل اي شيء.

كانت قنطرة "تريانا" التي تربط طريق الناظور بمليلية، قاعدة للقبطان خوصي غرسيا اغوجا" José García Agulla، والملازم "فاليرو بريث أونداطيكي" Valero Pérez Ondategui من الحرس المدني. وكانت برفقتهما زمرة من الجنود. واحتداء بـ"فرنانديث طماريت"، سمح الرجلان للمدنيين الفارين بالمرور، وركزوا اهتمامهم اكثر على الجنود. وفجأة لمحوا من بعيد اناسا يزحفون في تثاقل عبر الطريق، فحسبوهم جنودا، وباقترابهم ادركوا انهم ضباط هاربون، إذ لم تكن على ستراتهم الحربية اوسمة ولا شارات شرفية، فتركوهم.

كانت مسالة الحياة او الموت بالنسبة للمعمرين رهينة بتصرفاتهم القديمة مع الريفيين، فبمنطقة بوشادا مثلا، قُتل مهندس وسبعة من العمال. في حين اعتقل بونيلا Bonila، رئيس العمال. وأُخذ إلى منزل القايد الحاج اعمار (صاحب تلك الأراضي) الذي دفع فدية لشراء حريته. اما "البطيرا" Albatera من جهة كرط، فقد أدى ما مقداره خمسة آلاف بسيطة ثمنا لحريته، بعد ان نهب له حدو بن عيسى الحيوانات ومعدات الحرث.

وبأراضي افراو، حيث وكالة "سوطولاثار" Sotolazar، التي كانت تقوم بمجموعة من التنقيبات المنجمية، حصل "خوصي خمينس غاريدو"José Jiménez garrido وعائلته على حماية، منحها إياهم عامل قديم يعرف بميمون الذي اخذهم إلى بيته. وبعد ان أمنهم لمدة ستة وخمسين يوما، تفاوض مع زعيم الحركة (عبد الكريم) بشأن حرية الرجل. لكن الأسوا هو ما سجل مع احد المعمرين الفرنسيين "إدموندو شفاول"

Edmundo Chaffaeul، فبعد هروبه من مزرعته في "زايو" رفقة عائلته وامتعته، باغته في الطريق احد المورو الهاربين من الجندية، فنهب منه الملابس وبغال العربة. ولم يكتف بهذا القدر فقط، بل جرح زوجة المستوطن في محاولة لسرقة خاتمها، وكاد ان يقتل رضيعها الذي لم يتجاوز الشهر الواحد، حيث أسقطه بعنف على الأرض؛ لكنه نجا بفضل امه التي احتضنته بجسدها[50].

الملحمة المزيفة لمدافعي البئر رقم 2

وبعد زحفهم نحو أعرويت، ترك رجال "نفارو" في الخلف مجموعة من المواقع والحصون، اثنان منهما عاشتا حدثا افرز ما يشبه بطولة عظيمة، ما لبثت أن تلاشت باكتشاف ان المسالة لم تكن سوى خدعة دنيئة.

فعلى يسار الطريق بين الدريوش -الباطل، كانت توجد ضمن المراكز الواقعة هناك ثكنة دار ازوكاش والبئر المعروف (بالبئر رقم 2). وكانت هذه القشلة بمثابة حصن، يتسع لحامية صغيرة مكونة من خسوس ارينثا لاندا Jesús Arenza Landa، ورفائيل ليلو Rafael Lello، وخسوس مارتينيث طريو J. Martínez Terrio، وإميليو مونيرا Emilio Muniera، واخيرا رفائيل صوردو كوليو Rafael Dordo Colio. فالستة كانوا يحرسون محرك البنزين الذي كان يستخرج الماء من البئر. هذا الماء كان حيويا بالنسبة لكل سكان المنطقة.

كان "ارنثانثا" Arenzanza [51] رئيس الفيلق العسكري، قد اتخذ قراره بالمقاومة. في حين واصلت المواقع المجاورة احتضارها الواحدة تلو الأخرى. وأمام استحالة الوصول إلى الباطل، حيث كان نفارو مايزال يقاوم، قررت جموع الفارين السطو على البئر رقم 2 واتخاذه ورقة للنجاة. وهذا ما فعله الجندي سيلفيريو كورشادوSilverio Corchado، والمساعد خواكين رودريكز بريروJ. Rodríguez Barreiro.

ميدان الحرب؛ وفي محاولة منه لاستعراض ملحمته الحربية، صور اريثانثا خاصة بعد صموده في وجه العدو ثانية، حيث قال، ،لقد قمنا بجولات استطلاعية واحصينا ثلاثة واربعين جثة للريفيين في ملابسهم الداخلية، لكنهم لم يكونوا مسلحين،[52]. وتلك ملحمة حدثت في الثلاثين من شهر غشت.

وفي اليوم الموالي، التحق بمنطقة البئر رقم 2 الملازم إلدفونصو رويث طبيادور غوادالوبي Ildefonso Ruiz Tapiador Guadalupe، الذي كان رئيسا لفرق دار أزوكاش. كان ضابطا شابا -عمره عشرين ربيعا- وقد وقف هذا الضابط مشدوها أمام سلسلة الكوارث التي كان شاهدا عليها. فلم يشأ أن يخلع "أرنثانثا" من منصبه، وذلك لشعوره بالتعب والعياء الشديدين. وحسب الشهادات الكاذبة (كما سنبين) للقائد، فإن الملازم لم يشارك في القتال الذي اعتبره ضربا من ضروب الانتحار.

كان منبع الماء الذي يحرسه أولئك الرجال التسعة، جد مهم بالنسبة للريفيين وقطعان ماشيتهم. احتكر الإسبان هذا الماء (الذي كان بمثابة الحياة)، وشاء العدو الريفي أن يتنازل عن هذا المورد الحيوي، واقتضت الظروف أن تبرم اتفاقية سلام محلي بين الطرفين، كانت فعالة وفريدة من نوعها. وامتدت منذ الرابع والعشرين من يوليوز إلى غاية الخامس من غشت 1921.

وحسب تصريحات أرنثانثا، فقد غادرت الفرقة البئر فور انتهاء بنزين المحرك، واستطاعت العبور إلى المنطقة الفرنسية. وشاءت الأقدار أن يعترض رجلان ريفيان سبيلها، لكن أرنثانثا قتل بيده واحدا منهما، وانتهز لحظة غفلة، وفعل نفس الشيء مع الآخر فارداه قتيلا بمطرقة[53].

اعتبر الرأي العام هذا القائد بطلا مغوارا، في حين تعددت السخريات بشأن الملازم الفاتر الهمة. وشهد الكل -ماعدا صوردو Sordo- بهذا الحكم أمام بيكاسو فصدقهم. كانت الحكاية جد محبوكة لا يشوبها شك، وتأخرت الحقيقة عن الظهور. لكنها تكشفت في يناير 1922. وكان بيكاسو من الأوائل الذين اطلعوا على الخبر وبادر، بدوره إلى إخبار فرنانديث طماريت، الذي كان لا يشك في براءة أرنثانثا. فنزل الخبر كالصاعقة على هذا الملازم، وتألم من هذه المجازفات. ونتيجة لذلك، فتح تحقيق مضاد يطالب بمنح أرنثانثا وسام البطولة. ولم يغلق ملف المتابعة -الذي كان يضم مائة وخمسة وتسعين ورقة- إلا بحلول الثالث عشر من أكتوبر 1925، حينها تقدمت النيابة العامة للمجلس الأعلى بملخص لكل الشهادات التي تم الإدلاء بها. حيث أورد أنه وبعد هذه التصريحات حول الصراع حتى الموت مع الريفيين الاثنين، التي حفظها المحامون عن ظهر قلب كما يبدو، تحرك شيئا ما بداخل أرنثانثا. لعله الضمير الذي أجبره على

كتابة اعتراف بخط يده، تضمنته الصفحات الثمانين أو الثلاثة والثمانين، يؤكد فيها عدم صحة الأقوال الواردة بشأن الدفاع عن الحصن.

وبواسطة الاعتراف الجديد لأرنثانثا، اعاد المدعي العام صياغة الحقيقة فقال، «بحلول الثامن والعشرين من غشت (لسنة 1921)، وبعد التيقن من عزلتهم واستحالة الدفاع عن أنفسهم، ارتأى الرجال التفاوض مع العدو على قدر المستطاع. فاخذ الريفيون البئر واعتقلوا الإسبان الذين سلموا أسلحتهم للقائد حَمُو، وتلك اعترافات ادلى بها ارنثانثا نفسه»[54]. وحيال هذه الأحداث المخزية والمخجلة، التزمت المؤسسات العسكرية الصمت. فقد فقدت البلاد في شخص ارنثانثا بطلا شعبيا، في حين كان هناك أبطال حقيقيون آخرون.

خيانة في "بوحفورة"
وصخب مقاومات يُدوّي من بعيد

كانت بوحفورة تابعة لمقاطعة الدريوش، وكانت المنطقة الوسطى -ا- تابعة لأنوال. وعرفت المنطقتان المتوغلتان في الجبال المعزولة، تظاهرات واسعة النطاق في نفس يوم الثاني والعشرين من يوليوز. وعاشت بوحفورة يوما آخر قبل حلول الخراب والدمار.

وكان "انطونيو رييغ باليرينو" Antonio Reig Valerino، الذي يبلغ من العمر تسعة وعشرين سنة، ضابطا يراس المدفعية في بوحفورة. وكانت تحت إمرته قوات كبيرة مكونة من ثمانية ضباط ومائتين وخمسة وستين من الجند (مائة واثنتان وعشرون منهم إسبان، ومائة وثلاثة وسبعون من شرطة الأهالي)[55]، التي ستخون الإسبان، فغرقت بوحفورة في خيانة شاملة.

تواردت الأنباء حول سقوط انوال، ونصح القايد حدو القبطان رفائيل كابابلانكا مورينو[56] بإخلاء الموقع. لكن هذا الأخير وبصفته ضابطا للشرطة الأهلية، أبى إلا أن ينادي على شيوخ القبائل المجاورة من أجل الاحتفاظ بهم داخل المدينة رهائن...[57]، وبهذا، يكون قد وقّع على وثيقة الحكم بالموت على رجاله دون أن يقصد.

اقترب الريفيون من بوحفورة، وبادروا بإطلاق النار. ودون تردد أصدر كابابلانكا اوامره للشيوخ بالتمركز عند الأسوار والتحدث مع المهاجمين[58]. وهكذا تم إيقاف

الهجوم وسجن الشيوخ في إحدى الخيمات. وبعد برهة، ظهر محمد نجل حَدُو الذي اعرب عن رغبته في إرسال برقية إلى الكولونيل رئيس الشرطة الذي كان في الدريوش. كانت الخطوط مازالت صالحة، وقوبل طلبه بالقبول. فجاء في برقيته التي كانت موجهة لمورالس الذي كان قد لقي حتفه، ما يلي، «إذا كنت تثق بي، فابعث إلي بقوات وذخيرة إلى مراكز بوحفورة وميضار، وإن لم تجب طلبي فسأضطر إلى الانسحاب إلى قبيلتي رفقة رجالي». وحدث ما لم يكن متوقعا، فالذي اجاب هو الجنرال "نفارو" نفسه، الذي اصدر امره بتسليم صندوق من ذخيرة البنادق. فسلمه "كابابلانكا" إلى نجل الشيخ المذكور[59]. وهكذا اصبح المهاجمون مسلحين.

ارخى الليل سدوله على بوحفورة، وعلى الساعة الرابعة والربع من يوم الثالث والعشرين من يوليوز، جاءت الأوامر من الدريوش بالانسحاب نحو شيفت، (أهم المراكز القريبة). وحدث أن اتفق الضباط الثمانية (القبطانان رفائيل كابابلانكا، ولويس لاثي دي اغيلار Luís Lacy de Aguilar والملازمون انطونيو انطون بلاثيو Antonio A Palacio وفرانثيسكو مالدونادو مير Francisco Maldonado Mir، وانطونيو كيروا مولينا Antonio Quero Molina ورييغ باليرينو Reig Valerino ورامون روديرو سرانو Ramón Rodero Serrano ومانويل سوسا كساني Manuel Sousa Casani) المجتمعين في مجلس الحرب، على البقاء[60]. في حين كانت الخيانة تشق طريقها في صمت، حيث اقتربت مجموعة من رجال القبائل من الأسوار، وحددوا مكان الخيمة التي يحتجز فيها شيوخهم، وفتحوا في الحائط ثلاث فتحات أشار إليها بيكاسو الذي اعتدنا منه هذه الدقة في الوصف، في رسمه التخطيطي لهذا المعسكر. سلموهم من خلالها الأسلحة والعتاد دون أن يحس الحرس بشيء. وبذلك ضاعت بوحفورة.

ومرت صبيحة الثالث والعشرين من يوليوز، كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء، كل شيء كان يبدو هادئا في بوحفورة. كان القبطان لاثي Lacy، يقوم بدوريات عسكرية. وبوصوله إلى مكان الخيمة، ربما لأنه احس بما كان يدبر، واشتعل فتيل الثورة. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والربع، وبالاستماع إلى تصريحات ريغ Reig، اشار بيكاسو في رسمه التخطيطي إلى مكان الحادث المشؤوم بحرف "X" و"B"، مذيلا ذلك بتوضيحات تقول، «هذا هو المكان الذي توفي فيه الكبطان لاثي»[61]، اما رييغ الذي كان على راس البطارية -المكونة من اربع مدافع متآكلة من نوع كروب- فكان لديه

متسع من الوقت لتحريك إحدى قطعه الحربية، خاصة الدبابة الأولى على اليسار والتي اشار إليها بيكاسو -المدقق دائما- بالحرف "C". وفتح رييغ النار على المنزل (الزنزانة) محدثا ثقبا كبيرا ومخلفا عدة ضحايا بالداخل. وبالمقابل سيطر العدو على المقهى الصغير المجاور للمعسكر. بيد ان احد الضباط (غير المعروفين) تصدى وبشجاعة لهذا التهديد بواسطة حربة بندقيته، لكن المقاومة اصبحت مستحيلة. وبذلك ضاع المقهى الصغير وولج الريفيون المكان، وسقط كابابلانكا ومعه كل الضباط باستثناء رييغ الذي ترك وشانه احتراما لمهمته بصفته مدفعيا. كان الوقت كافيا له لتعطيل بطاريته، بالرغم من ان العدو كان قد سيطر على اثنين من المدافع الصالحة وعربة محملة بمائة وسبعة وعشرين قذيفة[62].

وبقي رييغ وعشرون آخرون على قيد الحياة، لم يسلم منهم سوى ثلاثة اشخاص وهم: النائب سلفادور غونثاليث Salvador Conzaléz، والجندي أيوستاكيو البثيتي Eustaquio Albacete، ورييغ نفسه. وبحلول الظلام على بوحفورة سمع الملازم دوي عيارات نارية صادرة من تاواردا، أطلقها جنود المنطقة الوسطى -أ-. واستمر رييغ في سماع هذه الأصوات لمدة ثلاثة أيام أو أربعة. وسيخبره بالأحداث القايد حدو. وسيق رييغ إلى انوال حيث كان هناك ما يناهز ثلاثمائة وتسعة عشر أسيرا. ويوم الثامن عشر من غشت، تمكن من الفرار[63] والوصول إلى مليلية رفقة جندي جريح. وقد قيل إن الاثنين تنكرا في الزّيّ الريفي ليصلا إلى مليلية. وصرحت الإحصائيات الرسمية وقتها بغياب ثلاثة واربعين قائدا من شرطة الأهالي، زيادة على اثني عشر من ضباط الصف، وستة من المترجمين[64].

"لعبة خبيثة" بمنطقة سمار

وبجوار مليلية، في جبال بني شيكر غرب مليلية، كان يوجد سمار Sammar، وهو موقع في الجانب الشمالي لخط كرط. وفي الرابع والعشرين من يوليوز تمت محاصرته. ومن المشاكل العويصة التي طرحت، كان مشكل الماء الذي يجب جلبه من مكان يبعد بثلاث كيلومترات[65].

ثلاثة وثمانون رجلا كانوا يدافعون عن سمار (اربعة واربعون منهم من الأهالي). وبالرغم من قلة هذا العدد[66]، فإن المكان كان يحتضن اربع مدافع من نوع كروب

وعيار 88 مليمتر. وكان على راسها جندي واربعة عساكر من فرق المدفعية، وكان هذا الجنون في حد ذاته إجراميا، لأن استخدام مدفع واحد من تلك المدافع كان يستلزم خمسة عشر رجلا[67]. اما ضباط القشلة فكانوا هم: القبطان والدكتور مانويل بريس طورس، والملازمون ريكاردو ساينث اندرو -على راس فرقة الشرطة- وخوان ماركو مير Juan Marco Mir، الذي كان قائدا للمعسكر. وتجدر الإشارة إلى ان القبطان بيريث كان يدير مستوصفا أهليا، وهو ما يفسر وجوده بمنطقة نائية صغيرة كسمار.

ويوم الرابع والعشرين من يوليوز، خرجت القافلة كعادتها نحو إشافين -الراس العسكري للمقاطعة- يحرسها اربعة من الجنود وثلاثة عناصر من الشرطة، ممتطين صهوات جيادهم، لكن العدو اعترض سبيلهم، ففرت الشرطة مع الطلقات الأولى[68]. وبخصوص النقص الحاصل في المؤن، قامت الشرطة بحل هذا المشكل بذبح بقرة، وإحضار بقرتان اخريتان إلى الحصن[69]، وظهيرة نفس يوم الأحد الرابع والعشرين، شاهد الجندي آنخل طورس Ángel Torres، كيف ان ثلاثة من الضباط كانوا يتفاوضون مع أحد النواب المورو بشأن الاستسلام، حيث اقترح عليهم تسليم سلاحهم وتوليه هو حراسة الحصن، وحسب تصريحات القائد إيدالغو Hidalgo، فإن ملازم الشرطة (ساينث) حاول إقناع ملازم مليلية (ماركو Marco) بتسليم الحصن والسلاح إلى رجال الأمن. وبالرغم من ضغوطات زميله الذي كان يعتبر الوضع خطيرا[70]، فإن ماركو امتنع عن تسليم السلاح. والأدهى من ذلك، امتناعه عن الذهاب إلى الثكنة عبر الحقول، وذلك لتخوفه من الخيانة.

وعند اقتناع الملازم، ذهب المساعد لإحضار عناصر من عائلته، من بينهم مجموعة من النساء جئن للذهاب مع الجنود غير المسلحين...[71].

كان ماركو على علم بأن الأهالي الموالين لسانث، ينتمون إلى المداشر المتاخمة لسمار، الشيء الذي جعله يشك في صحة ولائهم. لكن التفاهم في الراي الذي أعرب عنه كل من سانث وبيريث اذهل ماركو، الذي لم يجد من حل آخر سوى قبول الاستسلام رغم اشمئزازه من الأمر. فاستسلم الجنود لقدرهم وتنازلوا عن السلاح. وبهذا يكون الملازم سانث قد فتح للعدو الباب على مصراعيه.

خرج الإسبان وكان الضباط يحملون مسدساتهم[72]. وكان الجنود المساعدون يسوقون البغال، وتقدم الركب صحبة مجموعة من النساء الريفيات، لكن الشرطة الأهلية لازمت اماكنها ولم تتقدم معهم، فارتاب ماركو للأمر وسال سانث، «الم تقل بأن الشرطة سترافقنا؟». فحاول زميله أن يهدئ من روعه بقوله، «إن القوات ستظل هناك لحراسة المكان، ولن يجرؤ أحد على اخذ شيء من الحصن»، فاستشعر ماركو الخطر الذي لاحت بوادره بسماع دوي طلقات نارية، حاصرهم بعدها المورو... واعتقد الرهائن أن هذه الطلقات ما هي إلا إشارة لهجوم مرتقب، ففرت الريفيات في اتجاه المهاجمين وعمت الضجة في المكان. فاستغل ضابط الشرطة هذا الموقف وامتطى جواده. فتعجب ماركو قائلا، «ترجل عن حصانك يا سانث، إنك ستؤدي بنا إلى الهلاك». لكن سانث وكز حصانه وهرب، وفي طريقه أسقط (إيدالغو) لكثرة انتقاداته[73].

وانضم بيريس Peris إلى سانث في هروبه، وبقي ماركو وحيدا مع رجاله الذين التفوا حوله، لقد تعرّض للخيانة، وقتها تحدث الملازم إلى رفقائه في يأس قائلا، «أبنائي، إننا ميتون لا محالة، فمن كتبت له النجاة، فليصرح بالحقيقة»[74]. وركض الجميع في اتجاه الشاطئ القريب، وركض آنخيل بيريث كذلك رفقة ملازمه، وما هي إلا لحظات حتى سقط جريحا، فتردد رفيقه في مساعدته، لكنه واصل ركضه. فداهمه الريفيون وانقضوا عليه، وبعد أن جردوه من ممتلكاته القليلة والثمينة سمحوا له بمواصلة الطريق في اتجاه مليلية، لكن الأمر كان مختلفا مع بيريس Peris، الذي تم أسره بعد إصابة حصانه. وبعد أن نهبه الريفيون، أخذوه إلى منزل التقى فيه بالملازم سانث Sanz من الشرطة[75]. ومن هناك خرج الاثنان صوب مليلية، وفيما بعد تمت محاكمتهما.

طالب والد ماركو مير وهو السيد خوان ماركو روكامورا Juan Marco Rocamora، أستاذ الفروسية، بفتح تحقيق في هذه القضية. فحُكم على بيريس بسنة من السجن النافذ، وحرم من مزاولة عمله، أما سانث، فتم اعتباره متمردا فرّ من مليلية بعد أن وجد نفسه محاصرا. هذا ولم يذكر شيء عن الوسام المطالب به لتكريم الملازم ماركو. ومضت الشهور، ويوم الثالث عشر من مايو 1922، ورد على جمعية الإغاثة وتعاضدية فرقة المشاة، بلاغ مفاده أنه منذ يومين بالتحديد، تم دفن جثة الملازم دون خوان ماركو مير، التي عثر عليها عند موقع السمار. ومن المفترض أن تكون وفاته قد جاءت نتيجة لتاثره بالجراح التي احدثها العدو[76].

ورود حمراء على موقع "المنطقة الوسطى أ"

كانت منطقة تاوَرْدا Tahuarda، عبارة عن كتل كبيرة من الصخور والأحجار الرملية، وهناك كانت "المنطقة الوسطى أ". كانت الدريوش بعيدة جدا، لدرجة انها كانت تتخيل إليك من بعيد وكانها لعبة أطفال. وكانت الكتيبة الصغيرة والمكونة من ثمانية وستين من المشاة، وإحدى عشر مدفعية واربعة جنود من المهندسين المسلحين بمدفعيتين رشاشتين، وقطعتين حربيتين من عيار 70 ملم، يتراسها القبطان إسكريبانو Escribano، الذي تلقى فيما بعد مساعدات الملازمين داريو فرنانديث رايغادا Darío F.Raigada، وانطونيو ماركيث طيشيا Antonio Márquez Tellechea، وانطونيو ميدينا دي كاسترو Antonio Medina de Castro. هذا الأخير كان رئيس البطارية الحربية، أما ميدينا Medina فكان ينتمي إلى الفوج "206". ومنذ عامين وخلال فصلي الصيف، كان مايزال في شيقوبية يتابع دراسته.

كان اصله من بلد الوليد، وبالضبط من منطقة سيرادا Serrada، وكان يبلغ من العمر اربعة وعشرين عاما، وتحت جبهته العريضة وابتسامته الصريحة وتصرفاته الصبيانية، كانت تختفي علامات الأبطال، وكذا علامات العاشق الولهان. كانت له خطيبة في خيرونا تدعى روسا مرغاريطا برسلو Rosa Margarita Barcel، وكان يراسلها يوميا. فمن انوال التي عين بها، كتب الملازم إلى محبوبته (بتاريخ السابع من مارس) هذه العبارات: «إذا حصل ونظرت إلى السماء، نظرتي تتجه صوب النجوم وتعانق روحي روحك. المعسكر يغط في نوم عميق، وضجيج آت من بعيد، إنها سكرة نور سماوي. أحبك روسا مارغاريطا، يا حياتي الجميلة، أحبك صغيرتي»[77].

كان قبطان "انطرميديا أ"، وهو السيد خوصي إسكروبانو اغوادو من قدماء المحاربين المنتمين إلى فوج 1909، وهي السنة التي انجز فيها حملات عسكرية دامية في كل من خنادق الكوروكو وحقول الناظور. ومنذ سنة 1912، وهو يتباهى بأوسمة القبطان التي منحت له. كان ينتسب إلى مدينة طليطلة، وكان عمره ثمانية وثلاثين عاما، كما كان ابن العسكري القبطان انطونيو إسكريبانو أونسونبي Antonio Escribano Onsunbe[78]، وكان على راس كتيبة مكونة من خمسة وثمانين رجلا، من بينهم ثلاثة ضباط[79]. تعرض القبطان لنفس ظروف زميله بيريث غارسيا، إذ لم تصله تعليمات ليس فقط من انوال ولكن

كذلك من الدريوش، إذ نسي المكلف بالبرقيات إخباره بأمر الانسحاب[80]. ومصائب قوم عند قوم فوائد، إذ نزل هذا الأمر بردا وسلاما على نفارو، الذي انسحب بسهولة. وذلك لأن فرق "انطرميديا ا" كانت قد استمالت عددا لا يستهان به من الريفيين. وحذق الخطر، وخيم شبح الموت على إسكريبانو ورجاله ماعدا انطونيو طافيرا مورالس، الرجل الوحيد الذي تمكن من البقاء حيا.

صمد إسكريبانو ورجاله طويلا، وقُدّر لهم ان يشهدوا مرور الموكب المأساوي للفارين من أنوال، ولم تصل إلى الدريوش أية مساعدات. ورغم ذلك، لم تفتر همّة الجنود الذين واصلوا إطلاق النار ورفضوا أية مساومة للاستسلام. وهو ما أدهش الريفيين الذين اعتادوا الظفر بالمواقع الإسبانية بسرعة. لم تستسلم "انطرميديا ا" إذن، وظل العلم الإسباني يرفرف خفاقا في الأعلى، وكأنه ذلك الجزء العلوي في سفينة تبحر في ايام "ترافا لغار". وواصلت الحركة هجوماتها مخلفة العديد من القتلى والجرحى في صفوف الإسبان. ومع ذلك، رفضت الفرقة التي كان يراسها ضباط اكفاء أية مساومة. فلم تتوقف البطارية بقيادة ميدينا Medina عن إطلاق نيرانها. هكذا إذن، لم يكن احد في"انطرميديا ا" يعرف معنى للتكاسل او التقاعس.

ومرت ظهيرة الثاني والعشرين من يوليوز، وتبعتها ظهيرة الثالث والعشرين، وتبقى "انطرميديا ا" لوحدها، ولم تعد الدريوش سوى مصدر لأعمدة الدخان الكثيف. ذهب نفارو تاركا وراءه موقعا كان بالإمكان ان يكون احسن مواقعه الدفاعية، واتجه صوب أعرويت التي لقي حتفه عندها الجيش، وخلفه بقيت "انطرميديا ا" تنتظر الجواب من مدريد بعد مراسلات وتلغرافات أعلنوا فيها عن تربص العدو من كل جانب. لكن مدريد ظلت على صحتها[81]، وادلى كل من الطبيب بنيا Peña وملازمو المدفعية رييغ، وغوميث لوبيث، بشهادات ضد الإهمال، وشهدوا بالصمود البطولي لكل من اسكريبانو واتباعه.

وليلة الرابع والعشرين من يوليوز، اعد اسكريبانو عدته وحاول الانسحاب. وما أن تخطت الفرقة الصغيرة الموقع ببضع خطوات حتى وقعت في قبضة العدو. وأبى القبطان إلا أن يبقى بجانب فرقته التي طوقها العدو في محاولة منه لمنعها من الخروج[82]. وحدث ان استغل الجندي طفيرا Tavira هذا الظرف ففر بجلده. كان يريد اللحاق بنفارو بتيزطوطين وبعدها الذهاب إلى مليلية.

واصلت فرقة "المنطقة الوسطى أ" مقاومتها، فسقط الملازم ميدينا قتيلا رفقة مدافعه، لكن بطاريته واصلت إطلاق النار. ويومي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من يوليوز، سقطت سيدي ادريس وافراو، لكن فرقة "المنطقة الوسطى أ" التي كانت آخر معقل إسباني في ريف "سيلفستري"، استمرت في صمودها الشامخ بين صخور تاوردا.

وفي غضون ساعات اخرى، فرضت الحقائق نفسها؛ نقص في المياه، ونفاد في الذخيرة والمؤن. كان لابد من التفاوض، وذلك يوم السابع والعشرين من يوليوز (وحسب شهود عيان كان اليوم يوم الخميس). وبالرغم من أن الحديث عن الاستسلام كان أمرا ترفضه كرامته، فإن القبطان خرج من الموقع بغية التفاوض بشانه، فالتفت حوله كوكبة من أعيان القبائل -وعددهم أربعة حسب شهود عيان- فذهب معهم إسكريبانو للتفاوض الذي استغرق مدة طويلة. وفي لحظة معينة تضايق إسكريبانو وشك في جملة قيلت، وحركة صدرت ونظرة القيت، فتنبه إلى أن بعض المجموعات الريفية شرعت في اقتلاع أوتاد السياج، فاشتم القبطان رييغ Reig رائحة الخيانة تتطاير في الهواء، فهمّ باستئصال الشر من جذوره. فانفصل عن المفاوضين واسرع خطاه في اتجاه السياج، واصدر اوامره لجنوده بإطلاق النار. فكانت نهايته هناك، وسقط إسكريبانو إثر إصابته بطلقة نارية من تلك التي كان يطلقها رجاله، وربما إثر طعنة غادرة استهدفته من الخلف، فهوى واختلط مع الأهالي. كانت الضربة قاضية ودقيقة، إلى درجة أن الصفوف الريفية انهارت عن آخرها، حيث عُلم من مصادر وصلت إلى الملازم رييغ أن حصيلة الوفيات في صفوف الأهالي بلغت ثمانين قتيلا. لكن الحركة استرجعت انفاسها، وانقضت على الموقع في موجة لا يمكن حصرها. وعلى ما يبدو، بقي شخص آخر على قيد الحياة، فالتقى في أعرويت بزميله طافيرا الهارب، فروى له تفاصيل الملحمة. وفي أعرويت نفسها، لقي هذا الجندي المجهول الهوية حتفه، في حين تمكّن طافيرا من الفرار حيا من تلك المذبحة[83].

وصلت أنباء عن بطولة فرقة "المنطقة الوسطى أ" إلى حدود اجدير، وهو أمر أورده المدعي العام في الدعوى المضادة لفائدة وسام الشرف لاسكريبانو (في مايو 1924)، حيث قال: «إنه لمن دواعي الشرف والعزة أن نتباهى بالتعليقات التي تداولتها الأوساط الريفية المتمردة، والتي صدرت مؤخرا بشان تحركات افراد هذا الموقع...»[84].

كانت بطولة إسكريانو ملحمة عظيمة بالنسبة للريفيين، لا بالنسبة للإدارة العسكرية الإسبانية فقط، والتي تبين انها العدو الحقيقي. ولم تفد في شيء مرافعة المدعي العام الذي اقر بأن هذا الفعل البطولي، تضمنه البند الحادي عشر من الفصل الرابع والخمسين من القانون المنظم لتشريع سان فرناندو والذي ينص على: «دعم انسحاب الجيش -بعد تلقي الأمر بذلك- دون التخلي عن الموقع، حتى ولو هوجم هذا الأخير أو حوصر من طرف العدو، أو حتى مقتل ثلث عناصره».

ولم تسجل بطولات اخرى في صفوف "فرقة المنطقة الوسطى ا"، وذلك لموت المدافعين عنها بما فيهم القبطان. وحتى إن طالب المدعي العام بتطبيق الفصل المذكور أعلاه على الحالة الراهنة، بغض النظر عن كيفية وفاة إسكريانو الذي قيل عنه إنه لم يؤد فقط المهمة المنوطة به، بل تجاوز الشروط فيما يخص عدد الضحايا. وهذا التصريح مرفوض، باعتبار ان الشهادة التي ادلى بها "طافيرا" الهارب من الجندية[85]، والوحيد الذي بقي على قيد الحياة كانت غير كافية.

وهكذا، حرم القبطان إسكريانو من وسام الشرف، فلم يكترث للأمر. لكن الحال لم يكن كذلك بالنسبة لزوجته السيدة ماريا دي لوريطو اوغارثا خورادو María de Loreto Ugarza Jurado، واخيه ريكاردو Ricardo ملازم المشاة. اما عبارات المدعي العام الذي عرف كيف يحترمه، فقد ارتقت إلى مستوى تاريخي عال، واصبحت تصريحاته فصلا في تقرير بيكاسو. وجاءت هذه العبارات على النحو التالي: «وسط هذا الجو العام من الضعف، وامام المنظر المهول للعديد من المواقع وهي تشتعل نارا، وتشهد فرار كل المدافعين، يسطع بقوة نجم القبطان إسكريبانو، الذي شاهد بأم عينيه هروب الجيش وراى كيف ان ثلة من الجنود كافحوا في حالة يرثى لها للسيطرة على مواقع اكثر امانا. ولم يحذُ إسكريانو حَذْوَ هذه الكتائب، بل رفض كل الشروط التي فرضها العدو عليه للاستسلام، فبقي لوحده يدافع عن المعسكر بكل ما اوتي من قوة. لقد تشكلت لديه بعدما راى انسحاب الجيش، قناعة مفادها انه لا سبيل سوى الاعتماد على إمكاناته الشخصية والتي لم تدم طويلا»[86].

شيء واحد لم يضمحل ولم يفتر ابدا، وهو حب روسا مرغريطا لأنطونيو، فقد انتظرته بلهفة وصبابة طيلة مدة غيابه ولم تتزوج، ولم تنسه قط. وفي مارس 1924، تم العثور

والتعـرف على جثمان "مـيدينا" من طرف القـبطان خوان دييث ليـثانا Juan Díez lizana، الذي قـام بمـواراة جثـمانه في مليلية[87]. وعلمت روسـا بذلك، فـأبت إلا أن تبقى خطيبة أبدية لأنطونيو حيث رحلت سنة 1937 إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن ميامي، واظبت "روسا Rosa" على كتابة الرسائل التي كانت تبعث بها إلى والدي انطونيو. وبعد سبعة وخمسين عاما من فاجعة أنوال، عادت "روسا" إلى إسبانيا. فنزلت في البـدايـة في بلد الوليـد، وبعـدها رحلت إلى مليليـة. وهنـاك كلف الجنرال إدواردو ربرسا Eduardo Represa الكومندان مانويل كرمونا مير Manuel carmona Mir، بمرافقة تلك المـراة العنيـدة إلى المكان الوحيـد الذي كـانت تشتـاق إلى زيارته، ويتـعلق الأمـر بالجبال التي كانت تأوي فرقة "المنطقة الوسطى أ". وبحكم عامل السن (سبعة وسبعون عـامـا)، عـانت "روسـا" من مـشـقـة الطريق وهي تصـعـد جبـال الريف. ورغم ذلك تابعت مـسيـرتهـا، وكلها رغبة في إيصال باقة الورود الحمراء التي كانت تحملها إلى أعلى نقطة في الجبل. كـانت تود تقبيل هذه البـاقة أمام كل تلك الصـخور التي دافع عنها حبـيبهـا، ووضعها هناك. كما كانت تعتزم معاودة ذلك الصعود لكن طول المسافة، وكبر سنها حالا دون تحقيق هذه الأمنية. وفي العام الموالي، لم تتوان "روسا" عن إرسـال شيك (بالدولار الأمريكي) اقتنى به الكومندان باقة الورود، وقام بتغطية مـصاريف وضع إكليل الزهور على صخور تاوردا، أو على مقبرة مليلية. واستـمر الأمر كذلك سنة بعد أخرى، كانت النقود تصل، وباقة تلو باقة من الورود الحمراء تراكمت عند مقبرة الأبطال في فضاء معزول كما هو الحـال في صـخـرة تاواردا. وهكذا دواليك، إلى أن حلت سنة 1991، حـيث توقـفت الحوالات بسبب وفاة "روسا مارغريطا" خطيبة القبطان[88]. لكن إخلاصها للسيد "ميدينا" الشجاع، ووفاء هذا الأخير ورجاله لمهامهم العسكرية مستمرة إلى الأبد.

دار الكبداني، أسرار ووصمة عار في أعرويت الأولى

سبقت أحداث جبل أعرويت أحداث أخرى مروعة حدثت بدار الكبـداني. وهناك كانت كتيبة أراوخو Araújo، هذا الكولونيل الذي سمح بأن يمر يوم الثالث والعشرين من يوليوز بسلام. وما أن انتهى اليوم حتى كان الحصار قد تم، لكن مـا حدث في الثمانية والأربعين ساعة المقبلة، شكل فصلا من فصول الأحداث التعيسة والبئيسة للتواجد الإسباني بأنوال.

كان أراوخو مسؤولا عن حياة الف رجل تقريبا، قائدان إضافة إلى سبعة وثلاثين من الضباط، وتسعمائة وسبعة وخمسين من الجند[89]. لم يكن اراوخو يحترم فرقته بكل مكوناتها، والأدهى من ذلك، انه كان لا يعير اهتماما لمنصبه، وكذا للبديهيات التكتيكية المقدمة بمصادقة "نفارو"، والتي تنص على الانسحاب في اتجاه القندوسي والتشبث بالمقاومة عند خط كرط.

وبعد إطلاق سراحه بالريف سنة 1923، تم الاستماع إلى شهادته التي أدلى بها خلال الدعوة المنسوبة ضده، والتي أشار فيها بأصبع الاتهام إلى نفارو، الذي اتهمه بعدم القدرة على التقرير، وذكر أن ما فهمه هو أن هذه الأوامر كانت تهدف إلى الزج به وبكتيبته وبكل معسكرات بني سعيد في التهلكة، وذلك حتى لا تزعج فرقته مسار كتائب نفارو التي كانت تحت إمرته بالدريوش. وفي سنة 1925، تطرق المدعي العام لهذه التضحية التي قام بها أراوخو وبعض ضباطه، وأردف في حسرة وسخط عارمين أن وفاة المعني بالأمر جاءت بكل برودة وعلى حين غفلة، فلم يكترث لها أحد[90].

دخلت المباحثات مع الريفيين مرحلة حاسمة، ففي صبيحة الثالث والعشرين من يوليوز، اجتمعت زمرة من الشيوخ الريفيين مع أراوخو، واقترح السي حمو (واحد من هؤلاء الأعيان الريفيين) الاجتماع بمنزل قريب من مورد الماء، وذلك بعد إجراء قرعة. وإلى ذلك الاتجاه خرجت فرقة "امادور"، وبوصولها أصدر القبطان أوامره (دون إخبار صاحب المكان) بحرق كومة من التبن كانت في الخارج تحجب الأنظار. وبانتهاء العملية، اهتم امادور، هذا المحترف المحتاط بترتيب المكان وتحصينه. لكنه لم يسلم من انتقادات الكولونيل المسؤول الذي ما لبث أن قال بلسانه، إنه لا يحسن التصرف، وانه اخفق في المهمة التي أنيطت بفرقته، وذلك لأن كل من امادور وصاحب البيت تحولا إلى أعداء شرسين[91].

ضرب الريفيون الحصار على منبع الماء، وبقيت الكبداني حبيسة العطش. وعوض أن يسارع إلى رفع الحصار عن معسكر امادور، قَبِل أراوخو بشراء الماء من المورو. فاتفق الكومندان الفونصو فرنانديث مارتينيث مع أحد الزعماء الريفيين وهو حامد اشهور احسوب Hamed Achehur Ahssub على الثمن، ودفع له مسبقا خمسمائة بسيطة عربونا، اداها ملازم إدارة التموين ريكاردو مارتين لوبيث. فبدا أن الأمر انتهى

هنا، لكن اراوخو نفسه تنبه عشية (الثالث والعشرين من يوليون) إلى خطورة الأمر، فقرر تاجيل الموضوع، فتم إخبار احسوب بهذا التغيير، هذا الأخير وعد بالعودة في صبيحة اليوم الموالي، لكنه لم يف بوعده، وذكر احسوب -الذي بقيت خمسمائة بسيطة في حوزته- ،ان مجموعة من المورو اعترضوا سبيله (!!) واطلقوا عليه النار، ففر بجلده تاركا البغال الثلاثة[92].

بعدها بقليل، وصل الملازم لويس طابيا كانتون Luís Tapía Cantún إلى دار الكبداني، وذلك بعد الإفراج عنه من اسره بتيزي إيزنورن. تمكن من عبور الخطوط الريفية بفضل رسالة كان يحملها معه إلى الإسبان يقنعهم فيها بالاستسلام. ورافق طابيا في مهمته الجندي خوصي لوبيث عازف البوق، وذلك المورو الذي كان يحظى بنفوذ ومكانة كبيرتين، والمعروف بالكونبوي (أو القافلة)[93]. وياتي لقبه هذا، من ان المعني بالأمر كان يموّل المنطقة باللحم.

حمل طابيا الرسالتين من قدور نمار زعيم بني سعيد إلى كل من الكولونيل أراوخو والقبطان خوان اوثيطا غورا Juan Ozaeta Gurra، الذي كان يوما ما يشغل وظيفة رئيس مجلس المدينة بدار الكبداني، وقام بتحرير هاتين الرسالتين القبطان سانتيث ابارثيو Sánchez Aparício من موقع سيدي عبد الله، والذي تم شحنه بتيزي إيزوزن من طرف قدور[94].

كانت الاتفاقيات المشؤومة بشان الاستسلام قد بدات بدار الكبداني (القصبة الحمراء)، وكان على رأس هذه الثكنة، حامية مكونة من ستين رجلا يراسهم القبطان نرسيسو سانتيث ابرسيو الذي امر بإفراغ الموقع. فخرج مع كتيبة نحو تيزي إيزنورن. وفي الطريق، فقد جزء لا يستهان به من قواته، لدرجة انه تخلّى عن جثث ثمانية او تسعة من الضحايا[95]. وفي إيزنورن، التقى سانتيث بطابيا الذي كان يتقلد هناك زمام الأمور، فحاصرهما الريفيون. وبعد محادثات وجيزة و"صاخبة" مع الأعداء، اخرجوا الراية البيضاء واخرج القبطان اخرى. وهكذا تم الاستسلام والإذعان، حيث خرج الجميع من الموقع منزوعي السلاح ما عدا الملازم مانويل ارويو مورنو، الذي أعلن عن عزمه على عدم الاستسلام كما روى ذلك الجندي خوصي كالثادو بيريث José Calzado Peréz. وهكذا تخلى الإسبان عن بنادقهم وهمّوا بالفرار. في حين استولى الريفيون على الأسلحة وصوّبوها نحو اعدائهم من الظهر، فنالت الطلقات من ارويو الذي اصر على

صموده، في حين كان سانتيث ابرسيو يتدبر اموره في سبيل إنقاذ حياته وحياة القليل من الذين تبعوه عندما فاجاه واحد من المورو المسلحين، واجبره على الانبطاح ارضا وتمكّن من استمالته بواسطة شيك بالف بسيطة.

مشهد مرير آخر حدث بميادين انوال، حيث تفاوض قبطان حول اجل حريته بدفع شيك من الدفتر البنكي. وهكذا تحولت الكرامة العسكرية إلى خزانة مال، ولم يبق من ضمن مائة وعشرين رجلا كانوا تحت إمرة ومسؤولية سانتيث سوى أربعين من الأحياء، وصلوا إلى دار الكبداني، ليلقوا فيما بعد حتفهم بعد اتفاقية أخرى انتهت بدفع المال. وبدار الكبداني التقى سانتيث مع بقية حامية سيدي عبد الله التي استسلم قائدها، ليوبريو بيريث رنونثيو Liborío Peréz Renuncío، في ظروف كارثية مماثلة[96]. وتجدر الإشارة إلى أن سانتيث ابرسيو (هذا القبطان المحرر بحسب عبارة المدعي العام) كان يعرف جيدا ما تعنيه التنازلات والاستسلام، وكان يعرف بداياتها وكيف تنتهي بالموت. ورغم ذلك، كان يكتب لزملاء -مجبرين على المقاومة- ويقترح عليهم نفس الصفقة مع العدو، صفقة كانت تؤدي بعد تطبيقها إلى نفس النهاية القاسية.

وفي رسائله، طلب سانتيث من أراوخو المال والمؤن والأغطية لصالح فيلقه الذي تعرض للأسر، وهدّد الكولونيل بتسليم الكبداني (وما تعنيه لحياة المعتقلين)[97]. كما عرض وعد قدور بمرافقة الجيش بسلاحه وذخيرته إلى خارج أرض القبيلة معطيا ضمانات بعدم التعرض للأذى. والهدف من كل هذا، كان هو الوصول إلى مصب واد الكرط، حيث كانت في انتظارهم ثلاثة قوارب صيد ريفية ستحملهم إلى مليلية. والحقيقة أن هذا الاقتراح بقدر ما كان خياليا ووهميا، كان مغريا، مما جعل أراوخو يقبل به. كما أن القبطان مكاريو باسكونيس إدالغو Macarío Bascones Hidalgo، كان على علم بعروض الاستسلام هاته، وكان مصدر الخبر هو أحد الزملاء الذي استقى المعلومات من اناس آخرين. كان نبأ الاستسلام قد انتشر منذ ليلة الرابع والعشرين دون أن يكذبه احد[98].

وفي اليوم الموالي، الاثنين الخامس والعشرين، دعا أراوخو إلى انعقاد مجلس حربي يعد الثاني من نوعه -الأول كان يوم السبت الثالث والعشرين- وفي انتظار وصول المشاركين، جاءت المفاجآت مع عودة الرجل القافلة -كونبوي- المعروف. احضر هذا الريفي بيده رسالة اخرى من سانتيث ابرسيو. كان القبطان قد كتب ثلاث رسائل كما

اوضح ذلك باسكونيس في المرافعة القضائية. لقد شكل وصوله حدثا كبيرا، ولاسيما أن الرسالة الموجهة إلى أراوخو كانت مفتوحة. وقبل ان تصل إلى يده، كان العديد من الضباط قد اطلعوا عليها وقرؤوها[99]. فلم يعد احد يخشى قلة الاحترام.

واعطيت الانطلاقة للاجتماع، الذي عقد بخيمة القيادة التي امتلأت عن آخرها بتسعة وعشرين ضابطا. وقرأ أراوخو الرسالة الجديدة التي يخبر فيها قدور انه كان يحب كثيرا الكولونيل، وانه كان يريد إنقاذه وإنقاذ حاميته. واصل أراوخو تلاوته، لقد استوعب الحاضرون أن زعيم بني سعيد يطلب عشرين غطاء للأسرى الإسبان الذين يحتجزهم علاوة على ثلاثة بنادق يريدها لنفسه، وبندقية اخرى لمغربي آخر قدم خدمات مهمة[100].

وبانتهاء قراءة النص عرض "أراوخو" على ضباطه ثلاثة خيارات، المقاومة والصمود بالمعسكر، أو الانسحاب، أو التفاوض بشأن الاستسلام. فتقدم واحد من الضباط ليعرض فكرته كخطوة اولى للمباحثات وجنح للخيار الثالث. وقد وصف أراوخو هذه المبادرة بغير المقبولة على حسب سانس. وبعصبية شديدة، أوقف الاجتماع وطلب من الجميع موافاته بآرائهم موقعة ومكتوبة في ظرف لا يتجاوز خمس دقائق. لكن واحدا من الذين شهدوا الحدث وهو الملازم خواكين بيون روكا طوغورس Joaquín Bellón Roca Togores، تجرأ على تكذيب هذه الذكريات المشرفة، واقر أن الكولونيل وقف امام كل الضباط قائلا: «يصعب تنفيذ الاقتراحين الأولين»، واوضح بعد ذلك انها كانت وجهة نظر[101].

واستعد الضباط للتصويت، حينها دخل النائب "بينو Pino"، وسأل سانث عما إذا كان سيرسل "لنمار" الأغراض التي طلبها. واكد الكومندان ذلك وبدأ التصويت. جاءت النتيجة مرضية، واحد وعشرون من اصل تسعة وعشرين صوتوا على خيار التفاوض. احتفظ أراوخو بهذه الأصوات بين وثائقه، واضاف إليها تعهدات بعض الضباط الذين تبين من خلال تصرفاتهم اللاحقة، أن ضم أصواتهم إلى الأصوات السالفة الذكر، إنما كان ظلما وعدوانا[102] على حسب عبارات المدعي العام.

يتعلق الأمر بالقبطان لويس كوادرادو غارابا Luis Cuadrado Garaba، وماريانو فيغتيس أغيلار Mariano Viegtiz Aguilar، والملازم سالفادور رلييا كمبوس salvador Relea Campos، والملازم الثاني رامون مونتي الغري دياس Ramón Montealegre Dias. فقد

خرج الأربعة من الكبداني رفقة فرقهم العسكرية، وماتوا بشرف في مقدمة جيوشهم. وقد ذكر المدعي العام بشأن هؤلاء الضباط الأكفاء، انه يجب رد الاعتبار لهم بغض النظر عن المهام السرية التي كان يوكلها إليهم الكولونيل[103].

ضيع أراوخو تلك الرسائل الشهيرة، وقال إنها سرقت منه في "اجدير"، وذكر محامي الدفاع في قضيته، ،انه من المؤسف، ان تسرق من الكولونيل خلال فترة اسره تلك الرسائل وكل الأوراق المهمة، وهو الذي كان يحتفظ وبحرص شديد بتلك الوثيقة المتضمنة لتصويت الضباط[104].

وبانتهاء الاجتماع، لم يعد احد يحس بالخجل. وبمحاذاة العنبر، كان طيف الرجل الملقب بالقافلة "كونبوي" يظهر جليا. كان الريفي ينتظر شيئا معينا، ينتظر ان تُمَرِّر هيئة الضباط الصحن لجمع المال الذي سينقذ حياتهم، أو بالأحرى حياة الجميع. كان العدد يقدر تقريبا بالف ضابط. وكان سانث غارسيا هو من دعا كل الرؤساء والضباط وبعض الأطر إلى تسليم المال الذي كان بحوزة وحداتهم، وإن اقتضى الأمر فليدفعوا مدخراتهم ليدخرها لهم ذلك المورو المذكور، إلى حين إيجاد حل نهائي للأزمة التي تمر منها الفرقة[105]. وانتهى سانث من جمع المال الذي وصل إلى خمسة آلاف بسيطة بالتمام والكمال، وهو مبلغ قليل بالنسبة لألف رجل، لكنه كان كافيا بالنسبة لثلاثين رجلا. واشار المدعي العام ،إلى أن هذا المبلغ كان يثير بحق الانتباه، نظرا لضآلته[106]. كما شكك المتحدث بالقضية في أن يكون ذلك المبلغ هو المتفق عليه لتنفيذ الاتفاقيات[107].

ولم تكن هذه الكمية المحصل عليها هي كل المال الموجود في الكبداني، فقد ذكر النائب فرانثيسكو باسايو بيثيرا Fransisco Basallo Becerra كيف أن القبطان كان يدفع ريالا واحدا لشخصين اثنين، موضحا أن هذا المبلغ يجب الاحتفاظ به في حالة ما إذا أرادوا الانسحاب من المعسكر. وأُصدرت الأوامر للجيش بتغيير ملابسهم وارتداء افضل ما لديهم من ثياب. بعدها، جاءت أوامر اخرى بترك السلاح والأحزمة ووضعها على الأرض أو تعليقها على الأسلاك، كما جاء في تصريح الشهود...[108]. بسيطتان اثنتان وخمسون سنتيما، كان هو ثمن الجندي الإسباني المنضوي تحت إمرة أراوخو.

وحدثت الكارثة وقبيلها كانت هناك إشارة جديدة، ذلك أن الملازم مانويل ثاراغوثا فرنانديث Manuel Zaragoza Fernández راى مجموعة تسوق بغلا محملا بالبطانيات

والبنادق، فاشتم رائحة أمر غريب، وبعد لحظة، وصل واحد من المورو. فاعتقد أنه واحدا من أعيان القبيلة. وكان صحبة هذا الريفي، رجال آخرون يحملون بأيديهم أعلاما بيضاء. بداية جلسوا عند الأسلاك، في حين توجه الريفي الأول إلى حيث يوجد الكولونيل؛ فاجتمع مع أراوخو لمدة خمسة عشر دقيقة حسب شهادة ثاراغوثا.

وبغض النظر عن مشاعر الشك التي خالجت الفرق العسكرية الإسبانية، إلا أن هذه الكتائب كانت تثق بسيرورة الأمور. ووصلت الأوامر إلى بطارية القبطان فيكتوريو ألفريث غرينيون Victorío Alvárez Griñon توصي بعدم استعمال المعدات الحربية[109]. ومن جهة أخرى، كان الريفيون يقتربون في حشد كبير. كانت رغبتهم في الانتقام والنصر، وحديثهم الزائف عن السلام يربك الإسبان. وتعجب القبطان بسكونس لعدم فعل أي شيء لتفرقة تلك الحشود المتراصة على جنبات المعسكر الذي امتلأ بالريفيين، الذين يحملون الرايات البيض. واصل أراوخو محادثاته مع الريفي إلى النهاية، فتم الاتفاق على أن يخرج الكولونيل أولا، تتبعه هيئة الضباط، وفي الأخير الجيش[110]، لكن ما حدث هو العكس.

هجم الريفيون وكسروا الأسلاك، فركضوا نحو الأسلحة الإسبانية وسط صياح قوي. فذهلت الفرق العسكرية التي لم تكن تتوقع هذا الهجوم. فقفز الجميع فوق السياج، وحاول بعض الضباط وهم يلوّحون بدورهم برايات بيضاء أن يكبحوا جماح هذا السيل العارم، لكن دون جدوى. بل كانوا هم أول القتلى. وكان البعض الآخر يقاوم ويدافع إلى أن قضى نحبه. ووسط هذه الأحداث، انزوت بعض العناصر من هيئة الضباط التي وافقت على الاتفاقية وابتعدت عن الضجة، اعتبارا بأنها أصبحت بعيدة عن أداء مهامها العسكرية، فاجتمعت بالكولونيل تنتظر تنفيذ ما اتفق عليه. ودخل أراوخو وأتباعه إلى خيمة القيادة[111] بحثا عن النجاة، حسب شهادة القائد بلاس Blas والنائب لوبيث رودناس López Ródenas. أما "كوادرادو" و"مونتي الغري" و"رليا فيغث" فقد لقوا حتفهم في القتال، إذ سقطوا إلى جانب جنودهم.

وحينما أراد أراوخو أن يبرر هذه الأحداث، تحدث عن خراب الجيش الذي فَقَدَ السيطرة على بنوده -حسب تعبيره- بسبب إحباطه وسماعه عن أهوال أنوال. وكان هذا سببا في تدخل المدعي العام سنة 1925 معاتبا بقوله: «ما الذي كان يجب أن تفعله تلك الحامية المعزولة من السلاح، حامية تخلّى عنها عدد كبير من الضباط».

وابتعد الدمار عن العنبر شيئا فشيئا، وغدت الكبداني مقبرة. فقرر ضباط أراوخو الخروج من المكان، إذ أجمع الكل انه من الأفضل الانصراف، حيث لم يعد هناك شيء يمكن القيام به. وهذا بالضبط ما فعلوه، فخرجوا بتانٍ من الباب الرئيسي. وهناك كان في انتظارهم قدور نمار على بعد ثمانية او عشرة اقدام من السياج[112].

كان زعيم بني سعيد مايزال عند وعده، وبجواره كانت جثث أزيد من تسعمائة جندي إسباني مرمية على الأرض، لكنه كان يريد تلك المجموعة الذليلة، اولئك الأشباح الذين كانوا ضباطا لإسبانيا. كان يريدهم أحياء لا امواتا، وان يتخذهم ورقة رابحة ضد اي هجوم مضاد محتمل يقوم به "برنكر". وبلا شك فإن ثمنهم كان يفوق الخمسة آلاف بسيطة التي جمعت. واكتفى في حديثه بأمرهم باللحاق به والإسراع في المشي. وهكذا، سار الجميع حتى وصلوا إلى دوار الثلاثاء لبني سعيد، وهناك حملوا الكولونيل الذي كان متعبا على ظهر بغل[113].

رجال القبطان أمادور المسلحين بخناجر البنادق

كان مورد الماء يوجد على بعد ثمانمائة متر من الجبل الذي يأوي دار الكبداني، بجوار منزل السي حمو. وهناك كانت الفرقة السادسة من الطابور الثالث لوحدات مليلية. كان العدد الإجمالي يصل إلى مائة وستة رجال يتراسهم إنريكي امادور أسين Enrique Amador Asin، هذا الرجل صاحب اللحية والنظرات الحادة، والذي يبلغ من العمر واحدا واربعين سنة. كان متزوجا بكونثبثيون Concepción اخت القائد فرانثيسكو فرانكو سلفادور اراوخو[114]. كما أن أسين كان نحيف الجسد ذا طبع بسيط، وكان قبطانا منذ سنة 1910، إذ خاض موقعة اللوبو، واشتد عوده في خدمته وإشرافه على القوافل الإفريقية الصعبة.

لاحظ أمادور اقتراب الحشود الريفية، فواصل إطلاق النار عليها منذ السبت الثالث والعشرين، لكنه فوجئ بدعوة «الكولونيل» بالاستسلام. فثارت ثائرة أمادور الذي أجاب بالرفض، إذ لم يتسلم أمرا مكتوبا بذلك. لم تكن الفوضى قد وصلت بعد إلى دار الكبداني، وهو ما سهل للقبطان إجراء اتصالات مع الكولونيل.فأجابه سانث غرسيا بإن الفرقة العسكرية بالكبداني تراقب عن كثب تحركات الموقع وتتابع نشاطاته. وبعد هذه

المراسلة، تلقى امادور امرا آخر بتسليم كل شيء إلى العدو وبالتالي الانسحاب[115]، لكن القبطان أصر على رفضه وذلك كان واجبه.

كانت صيحات مجازر الكبداني تصل إلى حدود مورد الماء، فاستمر القبطان في اتخاذ قراراته. اما رجاله، فقد غلبهم الجوع، وكيف لا؟! لم تكن في حوزتهم سوى علبة سردين واحدة لكل فرد، وعلبة لحم اخرى لشخصين. ولما اكلوا وشربوا، عنوا أن تكون الموت عن جبهة القتال. وفي تلك اللحظات، حضر بعض الريفيين إلى الموقع حاملين معهم خبر استسلام المعسكر الرئيسي، وانه حان الوقت بالنسبة لهذه الثكنة كذلك[116]. كانت هذه وصمة عار، لكن امادور الذي رفض للمرة التالية تلبية هذا الطلب، ومعه الملازمون فيلب كاسنيوس لوبيث Felipe Casinello López، وفرانسيسكو دلغادو Fransisco Delgado، واومبرطو بدورا سيغي Humberto Padura Segui، فهاجمت موجة من الأعداء الباب، وتبادل الطرفان إطلاق النار عن قرب، وأمر امادور بالمهاجمة بخناجر البنادق، فذهب الكل إلى هناك في اتجاه الموت.

اخترق الجنود المسلحون بزعامة امادور الصفوف الريفية وتوغلوا في الوسط، فتراجع العدو. لكنه ما فتئ أن استعاد انفاسه وطوقهم من جديد. فاشتد القتال وتوفي الإسبان عن آخرهم، وفي مقدمتهم "امادور" و"دلغادو". اما بدورا Padura و"كسنيو"، فقد أصيبا بجراح، فاسر الأول وفرّ الآخر. وتوجه القائد سي حمو إلى مكان المجزرة، حيث كانت تنتظره هدية متوحشة. فهو الذي يتباهى بقتل القبطان امادور بيده[117].

وبعد دحر رجال أمادور الشجعان، تنبه الريفيون إلى كتيبة كانت تحاول الفرار، وهي تحتمي بأعلام بيضاء ترتجف في أيديهم، فتعقبوهم وفتحوا النار عليهم. فشتتوا صفوفهم ودخل العديد من الإسبان في متاهات لا مخرج منها.

كان عددهم يصل إلى حوالي ثلاثمائة رجل، وكان من بينهم الجندي خوان غوال Juan Gual المنتمي إلى فرقة الملازم أرخونا Arjona -في دوريات الكبداني، والذي استسلم دون أن يقاوم. كان "غوال" قد لاحظ كيف أن الريفيين انتشروا على المرتفعات وشرعوا في إطلاق النار. في حين انبطح الضباط في يأس على الأرض، ولم يفعلوا اي شيء لرد الهجوم. وبعدما رأى غوال أن الكل يتساقط من جراء النيران التي لا ترحم، خرج يركض صحبة جندي آخر كان قد أصيب بجراح، وبعد أن هام على وجهه بالليل[118] وقع أسيرا بالقرب من الزغنغن Segangan، ثم افرج عنه وتمكن من بلوغ مليلية.

بعد يومين، وبالضبط في السابع والعشرين من يوليوز، بعث أراوخو برسالة إلى "برنكر" مع رسول له جاء فيها، «إننا نعتقد أن الريفيين سيطالبوننا بتبادل الأسرى المحتجزين بمليلية، وكذا ببعض المال»، وأوضح الكولونيل للسيد المقيم العام أن كل المواقع تم إفراغها بسبب نفاد الماء والمؤن والوسائل الضرورية لنقل الضحايا، وهو ما كان ضروريا لمن يحسن القتال. بعدها حدثه عن الرفقة التي كانت معه، والمتمثلة في مجموعة من الضباط وجزء من حامية دار الكبداني[119]. وجاءت تصريحات أراوخو هاته في وقت لم يكن معه سوى اثني عشر ضابطا، وأربعة مساعدين وقائد واحد، كان العدد إذن ستة عشر نفرا من أصل تسعمائة وثمانية وتسعين رجلا. وكان من بقي على قيد الحياة قليل جدا، إذ تحدث المطالب بالحق المدني عن عدد يتجاوز العشرين، ممن بقوا على قيد الحياة[120] من عدد إجمالي يصل إلى تسعمائة وسبعة وخمسين بين جنود وقواد. يتعلق الأمر هنا، إذن، بأربعين شخصا من أصل ألف تقريبا. كل هذا وأراوخو مايزال يجرؤ على كتابة ما يلي: «ونظن أن الباقين يوجدون الآن في قبيلة بني سعيد، ونعتقد أنهم يحظون بعناية ومعاملة حسنة»[121].

بقي الكولونيل وأتباعه بمنزل قدور، وسُمح لأحدهم بالتجول في جنبات دار الكبداني الحزينة. كان غرسيا هو من وصل إلى مورد الماء فوجده مغطى بالجثث وبعض المحروقين. وقد نُقلت مجموعة أراوخو إلى بوحرمانه Bu Hermana، وبعدها إلى أجدير، حيث مكثوا هناك ثمانية عشر شهرا كأسرى باستثناء سانث، الذي استطاع الفرار فوصل إلى الحسيمة سباحة[122].

الانسحاب من بوبكر وهرم "أوزاي"

كان سوق الثلاثاء بوبكر خلف شيفت، يتربع على عالم من الصخور والأعشاب اليابسة. وبهذا السوق، كانت توجد قاعدة عسكرية أخرى من الوحدات المتحركة، والمكونة من ست فرق (واحدة منها من حاملي المدافع الرشاشة). وكان عددهم يصل إلى تسعمائة وسبعين رجلا (ثلاثون ضابطا وتسعمائة وأربعون جنديا). وإذا ما أضفنا إلى هذه النسبة عدد الحاميات المجاورة، والتي يقدر عددها بأربعة وعشرين فرقة عسكرية، فإن العدد الإجمالي هو ألف وخمسمائة جندي[123].

كانت القيادة بيد التنينتي كولونيل ساتوريو غرسيا إستيبان Saturio García Esteban، والذي يبلغ من العمر ستة وخمسين عاما. واجه هذا الملازم امتحانا عسيرا تجلى في حيرته أمام خيارين. فإما المقاومة، أو العبور للمنطقة الفرنسية، وذلك لأن الكولونيل المسؤول كان غائبا منذ شهر ماي[124].

كان المعسكر يضم أربعة مدافع قديمة في حالة سيئة من نوع "كروب"، وعيار 90 ميلمترا، وكان على رأسها اثنان وعشرون رجلا يتزعمهم الملازم أوريليو أريناس مولينا Aurelio Arenas Molina. كان المعسكر عبارة عن صور من الأحجار المتماسكة، بالطين تعلوها طبقة من الطوب، كما طوقت المنطقة برمتها بسياج. كان الماء يجلب من عيون "إرميلا" التي تبعد بثمانية وثلاثين كلم. كما كانت هناك إمكانية جلبه من تيزطوطن، حيث كان يحمل على متن القطار، بعد جلب هذا الماء من آبار الناظور. فيما بعد، كان يتكلف أسطول من الشاحنات المزودة بالصهاريج، بنقل هذه الحمولة الثمينة إلى المراكز الرئيسية. في حين تبقى المناطق النائية في انتظار وصول الإبل التي تحمل إليها الماء. ومما زاد الطين بلة، هو أن مخازن الذخيرة لم تعد تكفي سوى لسد حاجات ساعتين من القتال الشرس، أما المؤن والأدوية فكانت توشك على النفاذ[125].

وبعد التحدث مع خمينيث أريو (في الباطل)، أدرك غارسيا إسطيبان أنه من الواجب الاعتماد على النفس بعدما تبين له أن الانسحاب في اتجاه أعرويت بات أمرا مستحيلا. وبعد التفكير في الخيارات المطروحة، قرر الاستسلام. كان بإمكانه المقاومة، لكن ذلك كان يعني الموت المؤكد لكل رجاله، أو طلب الحماية من الفرنسيين، وهو ما يمكن أن ينقذ جنوده دون المدفعية.

وما بين الثاني والعشرين والرابع والعشرين من يوليوز، اشتدت وطأة الحصار وتزايدت البرقيات التي كانت ترد على مركز القيادة لغرسيا إستيبان. فغدت منطقة حاف Haf وسيدي جغوت Sidi Jagut تعيش تحت هجوم مستمر. وغرقت (لوما ريدوندا) وسيدي علي في صمت مريب، كما هوجمت مناطق "أرين" Arreyen، وسياش 1 وسياش 2 بالإضافة إلى تزروت - أوزاي. وفي النهاية، تمكّنت حاميات "ابن حيدور" و"لوما ريدوندا" و"سيدي علي" من إبلاغ الجهات المعنية، أنها تعرضت لنفس الهجوم. وجاءت الأحداث بثلاث معسكرات، المعسكر الأول كان معسكر "حاف" في الشمال، والذي يبعد عن سوق

الثلاثاء بأربعة عشر كلم. فبعد التصدي لهجوم عنيف، طلب هذا المعسكر المساعدة بإلحاح. هنا صدرت بعض ردود الفعل الفريدة من نوعها، إذ استدعى غرسيا إستيبان هيأة الضباط لحضور اجتماع تحدث لهم فيه عن تفاصيل الوضع بحاف. وبعد انتهاء الاجتماع من أعماله التي كانت -كما كان متخيلا- جد مقتضبة، دعي المجتمعون للمصادقة على محضر جاء فيه، «نظرا لصعوبة إنقاذ الموقف، فقد رُخص لحامية المعسكر بالانسحاب نحو سوق الثلاثاء. وأمام دهشة الجميع، أعلن الملازمون فرانثيسكو اروناس غسبار Fransisco Aronas Gaspar، وارتورو ماندلي راميريث Arturo Mandly Ramírez؛ والملازم الثاني لويس مونيوث برتيت Luís Muñoz Bertet بأنهم يفضلون التضحية والخروج مع وحداتهم لتوفير الحماية لحامية "حاف" عوض الزج بها في التهلكة. وبعد نقاش حاد، صار اقتراح الضباط الثلاثة هو الأرجح، وهو ما كان على الكولونيل ان يفكر فيه منذ البداية. وهكذا، تشكلت الفرق للخروج، لكن لا شيء تم بعد ذلك. لقد وصلت انباء تخبر بسقوط المعسكر[126]. وبعد سقوط "حاف"، انقضت الحركة على ارين لاو arreyen Lao ودورياتها الاستكشافية، وكذا على رين دي غرواو Reyen de Guerruao، التي كان يتزعمها الملازم الثاني برطلومي ليون Bertolomé León رفقة ثمانية وعشرين من الجنود. وعرض الريفيون النجاة مقابل دفع المال، لكن لم يكن في حوزة ليون سوى قطع نقدية معدودة، الشيء الذي دفعه إلى طلب المساعدة من زملائه.

وتم اتخاذ قرار سريع وعام بسوق الثلاثاء، فخرج القبطان الونصو إستريغانا Alonso Estrigana، قائد الفرقة السادسة من وحدات الشرطة الأهلية صحبة الملازمين بلاثيوس وسالاما. خرج الثلاثة إذن بغية التفاوض مع المورو بشان دفع ما قيمته الفين وخمسمائة بسيطة، مقابل السماح للحامية واسلحتها بالخروج من المعسكر. فدفع القبطان وضباط آخرون هذا المبلغ. وهنا وقع حادث غريب آخر، فقد اقترح أحد الضباط، الذين نجهل اسمهم، إعطاء الف بسيطة تستخلص من رصيد فرقته لتعويض النقص الحاصل في المبلغ الذي سلمه القبطان الونصو ورفقاؤه، لكن الكولونيل رفض هذا العرض. وكان الطبيب البيطري خوصي مونطرو الضابط بصفوف الكانطرا[127] شاهدا على هذه الأحداث، وما إن دُفع المال حتى تم خرق المعاهدة، فتقدم الريفيون لنهب السلاح. وذاك مازق تخلص منه الونصو المدبر بعد تسليمه لخمس بنادق إلى

العدو، إذ لم يسلم من الأذى سوى حامية "رين غيرواو". اما أصحاب "أريين لاو"، فقد هاجمتهم الحركة مخلفة عدة ضحايا. وفي الوقت الذي بادرت فيه عناصر من الشرطة بالفرار، أصدر غرسيا إستيبان أوامره بالانسحاب التدريجي في اتجاه السوق.

ورغم ان بعض الأهالي من الشرطة بقوا على عهدهم ووفائهم، فإن الونصو اكد للكولونيل ان هؤلاء الأشخاص كانوا على استعداد «للموت معنا، نحن الضباط، لكن شريطة ان ينظم خروج فوري وسريع في اتجاه مليلية، موضحا انهم لن يمكثوا طويلا بالمعسكر، حيث الموت الأكيد يحدق بهم من كل جانب[128]. كانت الساعة تشير إلى الخامسة زوالا من يوم الرابع والعشرين من يوليوز، وكانت الحيرة والغموض يكتنفان سوق الثلاثاء.

الحدث الثالث جاء مع الهجوم النهائي ضد معسكر "سياش"، إذ خرج الفرسان الذين كانوا بالسوق، رفقة الضابط أورتيغا Ortega في "اتجاه إغان"، وتعقبهم الملازم بيتيتو وسالاما في محاولة لإقناعهم بالعدول عن نواياهم، لكن دون جدوى. وتحت النيران المتاججة، ارتمى الملازمان لإنقاذ الطليعة. كان الأحياء يدافعون عن انفسهم بصعوبة شديدة، ودخلت أفواج من الجرحى إلى المعسكر. بعدها حدثت واقعة مذهلة رواها غارسيا إستيبان لبيكاسو، وهو أن مجموعة مكونة من ثلاثين (مونطيرو تحدث عن خمسين) فارسا كانت تحمل العلم الإسباني، ويُعتقد انهما الملازمان بنيتو وسالاما، وكذا زمرة من الشرطة، كانت تشق طريقها في اتجاه سوق الثلاثاء. ففتح عليهم الإسبان النيران معتقدين انهم ثوار[129].

خلف هذا الحادث دهشة كبيرة، إذ كيف لم يتبين لغرسيا إستيبان ان أولئك الرجال العائدين والحاملين للعلم الإسباني هم ضباطه. كل ما وقع هو أن خسوس بنيطو مرتينيث وبسيليو سالاما ميغيل[130] واتباعهما، هرولوا في اتجاه "افصو" وهو اتجاه العدو لحظة مباغتة نيران إخوانهم لهم. وشهد القبطان "Moreno" من أعلى الربوة، كيف أن هذا الفريق من الفرسان كان يركض في يأس. كان بنيطو وسالاما عنصرين من الشرطة الأهلية، ومعا لم يسلما من الانتقادات اللاذعة التي وجهها إليهم التنيتي كولونيل فرنانديث طماريت، حينما كان قائدا بسوق الثلاثاء[131]. وبمثولهم امام الهيئة العليا، عرفا كيف يجيبا على الاتهامات الموجهة إليهما، وبقي "مورينو" يتذكر بإعجاب تلك الكتيبة المدهشة والقليلة العدد، والمصحوبة باثنين من الضباط، والتي ابيدت عن آخرها.

أعرب بيكاسو عن إعجابه بهذا الحدث، وفي عبارات لا تخلو من انتقادات لاذعة ضد ما أسماه بموجة التنازلات التي اغرقت الريف الإسباني، قال: «وبالنظر إلى المعلومات المتوفرة التي يمكن الاستدلال بها، كان هذا التصرف جيدا إذا ما تمت مقارنته بسيل التنازلات والاستسلامات التي وقعت»[132].

لم يبق من خيار آخر سوى النزوح إلى المنطقة الفرنسية، لأجل ذلك دعا غرسيا إستيبان ضباطه للاجتماع على الساعة العاشرة ليلا. وبالاتفاق كليا على الانسحاب، طرحت أربع خيارات: فإما الخروج نحو اليسار مرورا بالسهول القاحلة، أو التسلل من الوسط (من اليسار) عبر طريق تمتد بين سيدي علي وابن حيدور، وهو مكان يُحتمل أن تكون الحَرَكة على مشارفه. أو الانسحاب من الوسط (وهذا هو الطريق المختصر) مرورا بالمنحدرات الغربية لبني حيدور وأخاديد توريرت، أو الخروج من الوسط جهة اليمين باتخاذ معبر تزروت - أوزاي في اتجاه إغان، بعيدا عن الاتجاه الذي قد تشك فيه الحركة. وفي النهاية وقع الاختيار على الحل الرابع وهو الصائب[133]. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحا، وكان من المرتقب إجراء الانسحاب على الساعة الثالثة.

في البداية، كان كل شيء على ما يرام. كان الليل والضباب الكثيف حليفين ممتازين للكتيبة. وما إن انقشع الصباح، حتى تبدد الضباب وانكشفت عمليات الانسحاب للريفيين ولبعض الإسبان المرابطين في بعض نقاط صحراء "أوزاي" القاحلة. كان المعسكر الذي يشبه هرما مفتوحا، يطل على مرتفع ابن حيدور، هذا السور من الصخور الذي تحلق فوقه النسور.

بقي حصن **تزروت - أوزاي** الذي كان آخر معقل على الخط في الخلف، ولم يعد أحد يستنجد بالآخر. وفي إحدى زوايا المعسكر، بقيت حامية مؤلفة من ثلاثة وثمانين رجلا، إضافة إلى خمسة وثلاثين وحدة أخرى من الشرطة الأهلية، كانت في الطليعة. وكان الكل تحت إمرة الملازم الذي تلقى امرا بإفراغ المركز واللجوء إلى المنطقة الفرنسية. وحينما قرا الملازمون هذه الأوامر، لم يفهموا جيدا محتواها ولم يتقبلوها، فاعتبروها خطأ. فليس من المعقول أن يطلب منهم الكولونيل الفرار، وليس من الممكن أن تلجأ الكتيبة إلى الفرنسيين. فهذا الأمر ليس له معنى أو ربما كان خطأ، ولهذا لم يتم تنفيذه[134]. كان رؤساء "أوزاي" هما الملازمين إيلياس برنل كونثالس Elías Bernel Conzales، وثان

فرانثيسكو دونياس سانتيث Fransísco Dueñas Sánchez، وقد ظلت أسماؤهما مجهولة ولم يعترف احد ببطولتهما. لكن وبفضل جهود بيكاسو، عرفنا قيمتهما وكيف انهما أحسنا التصرف[135]. كان هرم "اوزاي" عازما على المقاومة.

كان كل من "برنيل" و"دوينياس" يؤمنان بصحة تصرفاتهما، ويبدو أن رجالهما كانوا مستعدين للقتال. كانت في حوزتهم مدفعيتان من النوع الرديء -كروب عيار 88 مليمتر، من تلك التي استعملت في كوبا. لكن هذا كان افضل من لاشيء. فما قل من العتاد كانت تعوضه قوة العزيمة، كان عددهم يصل إلى مائة وعشرين رجلا، وما إن حل الليل حتى لقي الكل حتفه ما عدا سبعة اشخاص.

وما إن تنفس الصباح الذي بدد الضباب، حتى اكتشف كل من "برنال" و"دوينيلاس" عمليات الانسحاب التي انطلقت على بعد أربع كيلومترات. ومن يدر بالفعل ان "برنيل" و"دوينياس" كانا انتحاريين، بدليل انهما لم يسمحا لجنودهما بالعيش والفرار وراء فرصة النجاة التي تحدث زوبعة من الغبار من الخلف. شكوك قاسية انتابت أولئك الملازمين، لكنهما تغلبا على هواجسهما ولازما اماكنهما.

وهناك في السفح، كانت الكتائب تسرع خطاها، وفجأة انطلقت نيران المقاومين التي كانت تصيب هدفها دون ان تخطأ، لأن جيوش غرسيا إستيبان كانت مجتمعة ومنتظمة في فرق من أربعة جنود. فكان هدفا يستحيل الإخفاق في إصابته.

وفيما بعد حلت الكارثة، إذ سقط العديد من الضباط الذين اختارتهم فوّهات بنادق الريفيين بكل عناية. وسقطت البغال خاصة تلك التي كانت تحمل المدافع الرشاشة. فذعر الجنود وتشتتوا، ودبّت من جديد موجة اخرى من الرعب. إنها فصول مشابهة لأحداث "إيزومار". تربص المرضى والجرحى في الخلف. وبعد أن تملكهم الخوف، حاولت فرقة منهم الإفلات من النيران، وبالتالي التوغل في جبل يعرف «بكوادريلاترو Cuadrilátero»، فتنبه الريفيون لذلك وتصدوا لهم.

بعد ذلك ظهرت مجموعة صغيرة من الفرسان، كان عددهم لا يتجاوز الخمسين أو الستين[136]. لكن الرقم كان كافيا لزرع بذور الفوضى في الصفوف الإسبانية. وتواصل تدفق الريفيين، كانت طقطقة الأسلحة تسيل لعابهم، فنزلوا بالممرات القريبة من تزروت إشباون وجبل بوبريس، وحدث ان ترددت المجموعات التي كانت تحمل بعض

المدافع الرشاشة بين متابعة السير في الطريق الذي يضيق عند الفجاج، والمرور عبر السهل. فكان الخيار الأخير، ومن ثم التقدم نحو "غيرواو". ولم تستطع كل الأصوات التي ارتفعت، أن تعيد هذه الشرذمة إلى صفوف الكتيبة. فلم ينج منهم احد[137].

وانتهى المسير ببقية الجيش، عند سلسلة جبال ابن حيدور المتوجة بأطياف العدو. وهناك سجلت الجروح الأخيرة، جروح الخزي والعار التي عبر عنها القنصل الإسباني في وجدة بقوله، «كل الجرحى الذين وصلوا إلى هنا، كانت جروحهم في الجانب الأيسر. موضحا ان غالبية الثقوب والجراح كانت جهة الخلف، وهو ما يؤكد انه لم يكن هناك اي رد فعل للقوات[138].

كانت حدود "حسي اوينزغا" Hassi Uenzga تظهر للجميع، لقد شل الرعب كل الرجال، حيث أُطلق العنان لأسوا الغرائز، فنشبت شجارات بالسكاكين من اجل الحصول على البغال. ولم يشأ احد مساعدة الجرحى الذين سقطوا، ولم يمتثل احد لأوامر الضباط الشجعان "كالونصو" الذي بقي على قيد الحياة و"مييي" Mille الذي قُتل. واخترق غرسيا إستيبان صفوف الهاربين في محاولة يائسة منه للسيطرة على الوضع، لكن الكل تجاهله.

واخيرا، تمكنت الفرق الهاربة من عبور الحدود، فارتمى الجنود المنهوكون وسط غابة صغيرة مجاورة "لحسي اوتنزغا"، دون أن تكون هناك وسائل لإغرائهم بالخروج من هناك. كما ذكر القبطان براتس Prats، وهو ما يفسر اختفاءهم كليا تلك الليلة. لم يكن عدد القتلى قليلا على بعد امتار من سياج المنطقة الفرنسية التي دخلت في صمت رهيب، وتلك ايضًا كانت حالة كل من القبطان فرانسيسكو اسنسي ردريغز Fransisco Asensi Rodriguez، والملازمون مانويل اسايس دي لوكاس Manuel asaise de Lucas، وفرناندو نونيس Fernando Nuñez، والملازم الثاني نيكولاس الدريطي إيريديا Nicolás al derete Heredia [139].

ما بعد حرب وجدة ورسالة من الجزر الجعفرية

تمكن غرسيا إستيبان من إنقاذ رجاله بمعدل النصف حسب تصريحاته، كما انه اضاع كل محاضر مجلس الدفاع لأنها كانت في حوزة الملازم "مييي" الذي اعتبر في عداد المفقودين. كانت الخسائر فادحة، وقدم التنينتي كولونيل تقارير بشأن اربعمائة رجل بقوا على قيد الحياة، وهو ما يعني نسبة 59% من الضحايا. كان العدد الإجمالي

للكتيبة هو تسعمائة وسبعين، أي بنسبة 74٪ إذا ما تم اعتبار أن عدد الجنود الذين كان تحت إمْرَتِه عنهم وصل إلى الف وخمسمائة جندي[140].

لم يعط بيكاسو تصورات واضحة بشأن أحداث سوق الثلاثاء. لهذا، جاءت تصريحاته مقتضبة، ،يجب النظر بإمعان إلى هذا الضعف، وكذا إلى قلة المعنويات، وإلى فتور الحماس الذي تسبب في هذا الانسحاب في ظرف قصير، تخللته مطاردة العدو. هذا الأخير الذي استفاد من عجز القيادة، ليتخذ في حقها التدابير اللازمة،[141]. ولم تنته الأزمات عند هذا الحد فقط، بل خرج إلى الوجود فصل مأساوي آخر تعلق بمحنة وجدة.

حينما ضاقت الفرق العسكرية ذرعا بما شهدته من أحداث، انتقلت إلى "كامب بغطو" Camp Bertaux. ومن هناك نزحت إلى تاوريرت (يوم الثامن والعشرين من يوليوز) ثم إلى وجدة، فوهران، حيث استقرت هناك وطاب لها المقام وعاشت حياة سليمة ومنظمة[142]، كما أوضح ذلك الطبيب البيطري مونطيرو. لكن بعض الجنود جلبوا الخزي والعار لزيهم العسكري، وهو ما اكده التنينتي كولونيل نفسه امام بيكاسو في تصريح ثالث، ،فقد وصل إلى علمه انه بتاريخ الثاني من غشت، وقعت حادثة بين ضابطين وثلاثة من المساعدين بأحد دور الدعارة. فزجرهم غارسيا إستيبان الذي شهد الحادث، ونبههم بعدم مطالبتهم بالزيادة. فالأجرة التي كانت تصرف لهم كافية[143]. كان الجنود يعيشون بالمعسكرات، أما الضباط فكانت الفنادق هي مقر إقامتهم، حيث يبذرون أموال صندوق القنصلية في الملاهي والسهرات الليلية. في حين كان الجنود يتقاضون خمسة وعشرين سنتيما تؤدى إليهم يوميا[144]. ويوم الثامن من غشت، أبحرت هذه الفيالق العسكرية التعسة من وهران على متن بارجة "بيفر" Bellver، متوجهة نحو مليلية. آنذاك عُرف الرقم الحقيقي لأحياء "برنكر"، فجاءت الأرقام على النحو التالي، اثنان وعشرون ضابطا، وأربعمائة واثنان وستون جنديا، وما يزيد عن تسعة جرحى مكثوا بوجدة. كل هذه التفاصيل نقلها "برنكر" إلى إيزا يوم الثلاثاء العاشر من غشت[145].

ومن بين أولئك الفارين من الموت، كان هناك رجل قوي البنية من اراغون يعرف باسم بيدرو كامبو Pedro Campo، كان من منطقة "كوستيان" Costean في (ويسكا Huesca). كل ما في الأمر هو ان هذا الشخص تم توجيهه إلى الجزر الجعفرية. ومن هناك كتب

إلى أبيه "موديستو Modesto"، يوم الخامس والعشرين من غشت. كان بيدرو أميا -كبقية الخمسة والستين أو 70٪ من الجيش- فناشد زميلا له ان يكتب له رسالة ظلت أخطاؤها الإملائية والنحوية رمزا خالدا وتذكارا رائعا لتلك الفترة. وقد تركنا النص على حاله، وهذا ما جاء فيه: «والدي العزيز، متمنياتي انه بوصول هذه الرسالة، ان تتمتعوا بكامل الصحة وهو اقصى ما أتمناه، اما صحتي انا فهي متوسطة منذ ان حكمت على نفسي بالموت واظن انكم علمتم بكل شيء (...)». ويتابع «والدي، كل الأراضي التي كانت بيد إسبانيا منذ العام التاسع إلى يومنا هذا، أصبحت في يدهم. ويوم الخامس والعشرين، وهو يوم سانتياغو، اضطررنا لمغادرة المعسكرات والارتماء في المواقع الفرنسية مخلفين وراءنا طريقا مليئة بالموتى (عبارة موتى كتبت بحروف كبيرة في الرسالة الأصلية)، خرجنا من المعسكر وعددنا ألف وخمسمائة رجل ولم يدخل إلى فرنسا سوى (وبحروف صغيرة) اربعمائة، وبقي الآخرون بيد المتمردين، اما نحن فقد تملكنا الغضب كثيرا...»[146].

لم يكن "برنكر" يصلح لا للخطب الحماسية ولا لاستقبال الطائرات

بإشراق صباح الرابع والعشرين من يوليوز، احتشدت جموع مليلية كلها على أرصفة الميناء. وعلى الساعة الثامنة، انطلقت هتافات ترحب بقدوم مركب أطل على المرفأ. وصلت إذن القوات الملكية المشهود لها بالتفوق. لكن وبنزول القوات، صمتت الجماهير. إذ إن الحمولة لم تتعد العشرين ضابطا وأربعمائة وخمسين جنديا وتسعة عشر دابة. في حين، كانت الحاجة ملحة إلى عدد اكبر من الرجال والعتاد لإنقاذ مليلية. وبعد منتصف النهار، حل طيف آخر من بعيد لبارجة مدينة قادس التي استقبلت على الواحدة زوالا بتصفيقات ضعيفة.

وسرعان ما هدات الحشود من روعها بعدما رات الأزياء العسكرية للذين هبطوا على الجسر الصغير، نزلت الوحدات العسكرية لفرقة (طيرثيو Tercio) تضم اثنين وثلاثين قائدا وضابطا، وثمانمائة وواحد وأربعين جنديا. كان معهم سان خورخو San jurjo، هذا الجنرال الأكرش المنشغل البال دائما، كانت نظرة واحدة من عينه تكفي لكي تطاع اوامره دون أن يصدر صوتا. بجانبه كان "ميان اسطراي" Astray Millán، الذي كان عدوانيا، يمشي في تبختر وخيلاء، كما كان فظا وخشنا في تصرفاته.

من فوق السفينة ارتجل "ميان" خطبة أذكت روح الحماسة، فسمع المواطنون عبارات النصر أو الموت، وعبارات النجاة للكل والتضحية إلى آخر رمق. فصفقت الجموع، وتعالت التصفيقات للجنود المحترفين، وترامت في الصفوف الأولى أغلبية العناصر العسكرية، في حين اهتمت البقية بتعبئة الشارع. فكانوا يمرون بكل محاوره فيصلون إلى مؤخرته، وتعاد العملية مرة أخرى إلى أن يجنّ الليل، ويموت الخوف في الموقع. على ما يبدو، كانت هذه تعليمات "برنكر" حسب شهادته[147]، أو بالأحرى مبادرة صدرت من ميان أسطراي ووافق عليها سان خورخو، الذي انزعج كثيرا لأن المقيم العام لم يحضر لاستقباله.

ومساء الرابع والعشرين من يوليوز، كانت مليلية تحصي قدراتها، أربع فرق - بريون - كورونا - إسطرمادورا - وغرناطة، بالإضافة إلى فرق المحترفين. ففي يوم واحد وصلت فيالق قوامها ثلاثة آلاف ومائة وتسعة وأربعين جنديا. كانت إسبانيا إذن تستجيب وتلبي الطلبات فقط، أما الذكاء العسكري فكان جامدا لا يتحرك.

وفي فجر يوم الرابع والعشرين من يوليوز، وفور تلقيه إعلان وصول "برنكر" إلى مليلية، طلب "إيزا" من المساعدين موافاة المقيم العام بهذا البلاغ،

سعادة الوزير، «بلغوا من فضلكم السيد المقيم العام، أنه يمكن إرسال، ثمانية طائرات تخرج من مدريد إن رأى أن الأمر ضروريا. أربعة من نوع بريغيط Breguet، ولا يمكن إرسال المزيد بسبب النقص الحاصل في الطيارين، أما الأربعة الأخرى فيمكن إرسالها من تطوان حيث توجد هناك أربع عشرة طائرة بطيارين ممتازين...

وأضاف إيزا أن هذه الاستشارة قدمها قائد الملاحة الجوية (الكولونيل فيفس Vives) إلى المقيم العام ليبث فيها[148].

وبعد ساعات ذكّر الوزير المقيم العام بما يلي، «كل ما ذكرته لك البارحة بشأن الطائرات أصبح جاهزا، ونحن الآن ننتظر موافقتك»، فصدر عن "برنكر" جواب مبهم لم يستوعبه إيزا بسرعة حيث قال، «بالنسبة للمعدات الجوية فأنا لا أحتاجها، علاوة على أن المطار سلوان، أظنه لا يفي بالغرض. أما مطار الناظور، فقد أصدرت أوامري هذه الصبيحة بإحضار كل آلياته إلى مليلية، وتلك عملية لم يتم تنفيذها لفوات الأوان»[149].

كان "برنكر" غريب الأطوار، فالريف كان خاليا من الآليات الجوية، لكنه كان يتوفر على اربع عشرة طائرة في منطقة جبالة، وها هي مدريد تقدم له ثمان آليات اخرى، كان بإمكانه ان يهيئ قاعدة للإقلاع في ميدان الفروسية بمليلية، حتى إن الوزير كان ينتظر جوابه بعد ان أعد كل الترتيبات، لكن "برنكر" رفض كل شيء.

وقبل ان يودعه، كلف إيزا "برنكر" بمهمة فريدة من نوعها، فخاطبه قائلا: «انبه سعادتكم بشان طائرة مدنية ستهبط بمليلية، وعلى متنها مراسلون صحفيون من مدريد». فاعترت الدهشة "برنكر" الذي اجاب: «لا علم لي بالطائرة التي تحدثت عنها، والتي تقل الصحفيين، والحقيقة اننا لا نتوفر على اية قاعدة برية لنزول الطائرات»[150]. يتعلق الأمر بمبادرة جريئة ليومية "الليبيرال" التي بعثت بوفد لها على متن آلية جوية من نوع بريسطول 230 س. ف، التي كان يقودها ربان محترف ،اقلع من مطار - كواترو فينطوس - يومه الرابع والعشرين صباحا»[151]. كانت الطائرة تقل المحرر خوصي إسبنوزا José Espinosa، فمرت بقرطبة - إشبيلية - جبل طارق ثم تطوان. ركز المسافرون اهتماماتهم على إفريقيا، فقطعوا الأراضي المرتفعة واطلعوا على قممها واحدة واحدة، وحلقوا فوق صخرة الحسيمة، وفوق العشرات من المواقع وهي تنفث الدخان، وشاهدوا العديد من الطائرات المعطلة التي تركت بسلوان والناظور. فنزلوا بميدان رستروغردو Rostrogordo الحصين، وسط دهشة الجميع بدءا بـ"برنكر".

وفي نفس اليوم، الرابع والعشرين من يوليوز، وعد إيزا "برنكر" بانه في ظرف يوم وليلة ستصل إلى هناك خمس سفن محملة بالجنود لإكمال الطوابير الستة عشر التي أرسلت من قبل. واوضح للمقيم العام قائلا: «واود ان اخبرك ان العتاد الذي طالب به مؤخرا الجنرال سيلفستري اصبح جاهزا»[152]، الستون الف قذيفة التي كان يطالب بها سيلفستري اصبحت جاهزة، بعد يومين من وفاته. وعند منتصف الليل استقبل "برنكر" في مكتبه واحدا من الملازمين، فطلب منه هذا الضابط الشاب إذنا بالرحيل إلى مدريد. استغرق الحديث مدة من الزمن، كان إيزا خلالها يحث على فتح الخط للحديث مع المقيم العام، لكن "برنكر" ترك الوزير ينتظر. وما إن ربط الاتصال معه حتى قدم له اعتذارات حيث قال: «كانت تجمعني بنجل الجنرال سيلفستري محادثات مؤثرة».

وتسقط حصون البحر

كانت قلعتا سيدي ادريس وافراو تطلان على البحر، فسقطتا بعد حصار وعزلة ومقاومة شرسة. ويوم الرابع والعشرين من يوليوز، وعلى الساعة الخامسة وخمسة وعشرين دقيقة، بعث قبطان باخرة الأميرة La princesa، ببرقية إلى "برنكر" يستعجله فيها بإمدادهم بقوات المساندة. وفيما يتعلق بالمدافعين، طلب عدم تركهم للموت[153].

كانت قيادة سيدي ادريس بيد الكومندان خوان بلاثكيث إيخيل دي أرانا Juan Velázquez y Gil de Arana، هذا الرجل القرطبي الذي يبلغ من العمر خمسة واربعين عاما. كان يدير شؤون الحامية بحيوية ولباقة، ورغم كل الظروف لم يتردد في بعث رسالة إلى قبطان "الأميرة" (سانتيث) لينقلها بدوره إلى "برنكر". وجاء هذا البلاغ في شكل وثيقة مختصرة تحمل معاني اليأس، «إننا ضائعون، فليطلبوا من السيد المقيم العام أن يبعث لنا سريعا بقوات مساعدة، ولنرى هل سيخرجون فورا من الموقع. إننا نموت هنا، ولا نستطيع التحمل اكثر[154].

وبتزايد الضغط الريفي، ضاعت آخر علامات الحيطة والحذر. فبدا أن الكل كان يريد الفرار ما عدا القبطان وثلة من حاميته، الذين أرادوا إعطاء العبرة، ففعلوا ذلك ولقوا حتفهم. كان فيلاثكيث (الذي منح وساما بعد وفاته) من الأوائل الذين سقطوا، كما تعذر إتلاف المدافع الأربعة لضيق الوقت، وتدخل الملازم الثاني خوصي ماريا لاثاغا رويز José María Lazaga Ruiz، الذي كان واحدا من طاقم بارجة "لايا". فتقدم بزورقين -الأول كان يعمل بمحرك والثاني بمجدافين- لإنقاذ الهالكين الذين رآهم يحتضرون، ليمد لهم يد العون. فأمر بإرساء زورقهم على الشاطئ، وانقذ بعض الجنود. لكنه خسر نصف بحارته واصيب هو كذلك بخمس رصاصات، فتوفي في مليلية يوم الثلاثين من يوليوز، عن عمر يناهز الخامسة والعشرين عاما.

وغير الأسطول الصغير اتجاهه، كانت هذه المناورات تحذق بها المدافع من كل جانب، وأدار الريفيون فوّاهات الآليات المصفحة، وبخبرة شديدة فتحوا النار[155]. وقبل الانطلاقة، وبين تلاطم الأمواج ليلا، تم إنقاذ أربعة جنود آخرين اضفوا على العملية صبغة التلاحم، بعد أن انضم هذا العدد إلى جملة الناجين بفضل "لاثاغا Lazaga"، وإن كان العدد ضئيلا، فإنه لا يخلو من اهمية (ثلاثون من ثلاثمائة).

وصبيحة السادس والعشرين من يوليوز، رَحل التاجر اليهودي المعروف باسم خاكوب فاراتشي Jacob Farachi، الذي كان يعمل على تلبية طلبات كل من الجيش والعمال المنكبين على عمليات التنقيب بالمناجم من افراو، رفقة عدد من المواطنين الإسبان، فتمكنوا من اللجوء إلى بيت احد المورو الأصدقاء[156]، وبفضل هذا اليهودي استقينا بعض الأنباء.

خرجت حامية افراو وكل همها اللحاق بالمراكب. كان الملازم "خواكين فارا دي ريي Joaquín Vara de Rey" يقود الجيش، وذلك لأن رئيس المعسكر السيد فرانثيسكو غارسيا، كان قد سقط في عمليات انسحاب جيوش الطليعة. كان "فارادي ريي" عازما على إنقاذ رجاله، لكنه لم يكن آخر من ذهب، مما جعل بيكاسو يتهمه كذلك. وكان هناك مساعد آخر هو من قام بتلك المهمة، يتعلق الأمر بماريانو غرسيا ماتينس Mariano García Martin، كان عمره خمسة وعشرين سنة، وكان ينتسب إلى بلدة صغيرة بطليطلة تعرف باسم لاطوري دي إستيبان امبران La Torre de Esteban Hambran. كان قد اتم دراسته بالسنة الثالثة، وينتظر الحصول على الإجازة، غير انه سيحرم منها بفعل رصاصة اخترقت بطنه. وبعد ان احس بعمق الجرح وبدنو اجله، اخذ بندقيته واحتمى وراء صخور كانت هناك. وطلب من زملائه المتاثرين بان يرحلوا. اما هو فسيبقى هناك ليحمي ظهورهم اثناء الانسحاب[157].

ومرت الجموع الأخيرة من افراو، كانت البوارج ترسل زوارقها، فسمح فارا دي ريي بعملية اخيرة، حين تم إنقاذ ما مجموعه مائة وثلاثون جنديا (اربعون منهم جرحى) من اصل مائة وتسعة وسبعين. وهناك في الخلف، بقي جندي بجرح عميق في بطنه طريح الطريق يصوب سلاحه نحو العدو الذي انقض عليه. وفي يوليوز 1922 منح له وسام الشرف.

حالة استنفار قصوى بالناظور، وغموض بسلوان

في ليلة الثالث والعشرين من يوليوز، وبالناظور، شاهد الملازم فريسنو Fresno (الذي كان يحمل المؤن للكنيسة الجديدة، حيث كان ينوي الاحتماء بها مع حرس آخرين) وصول كتيبة في حالة يرثى لها، فعلق ضابط الفرقة متحدثا عن الجزء الكبير من قواته التي هلكت مستسلمة او جريحة، ومنهم من لقي حتفه رجما بالحجارة[158]، وعند رؤية هذه

المشاهد، طلب الناس البنادق للتحصن بالكنيسة، فلم تعط لهم بعلة عدم وجودها. لم يكن الأمر كذلك، كل شيء كان موجودا، السلاح والمؤن، لكنهم احرقوا كل شيء. وبطلوع الفجر أطلقت صفارات الاستنفار من معسكرات الفرق العسكرية.

كانت صفارات الإنذار تلك التي تكررت بأمر من باردو اغودين Pardo Agudin، بمثابة إشارة ثمينة استغلها الريفيون، إذ شرعوا في السرقة والنهب وإشعال النيران[159]. فعمّت الفوضى صفوف الجنود الذين تفرقوا، وتمكّن فريسنو من إنقاذ تسعة وستين شخصا انضموا إلى أولئك الذين قرّروا البقاء، فشكلوا حامية هزيلة مكونة من مائة واربعة وستين مُدافعا، من بينهم ثلاثة عشر ضابطا. وتم التنازل عن الكنيسة التي حصنها "فريسنو" واللجوء إلى معمل الدقيق. وقبلها امر "باردو اغودين" باستخراج ،اربعين صندوقا من الذخيرة من المخازن، وازيد من مائة وعشرين بندقية بعثها إلى مليلية على متن عربة يعلوها علم الفرقة[160]. وفيما بعد، أصدر أوامره بإضرام النيران في العنبر ونسف الذخيرة. هذه الذخيرة وتلك التي ارسلت إلى مليلية، كانت الناظور تحتاجها لتدافع عن نفسها.

وفي سلوان، تمردت الفرقة الثالثة للنظاميين. وهَمّ حوالي المائة بالفرار، بعد أن سقط في صفوفهم أربعة عشر قتيلا من العناصر المخلصة، التي شاركت في مناورة بالقصبة، برئاسة القائد "كاراسكو carrasco". وعلى بعد اربعمائة متر من هذا الموقع، كان المطار الذي اتخذت منه الفرق التي كان سيلفستري يعتمد عليها، قاعدة لها. وهناك كانت توجد خمس طائرات في حالة لا بأس بها، وطائرة وحيدة معطلة تحت قيادة المهندس السيد بيو فرنانديث موليرو Pío Fernández Mulero. ولحماية المطار، كان هناك ثلاثة نواب و ثلاثة واربعون جنديا، انضاف إليهم ثلاثون فارسا من فرقة الكانطرا. علاوة على ثلاثة من الضباط وهم، الملازم مارتينيث بيبانكوس Martínez Vivancos الملازم الثاني ماروطو Maroto، ومارتينيث كانياداس Martínez Cañadas.

كانت حامية سلوان تتالف اساسا من اربعة طيارين وثلاثة من المراقبين. اما الضباط فكانوا ينامون دائما في مليلية، ويبقى واحد منهم فقط للسهر على المطار. وإذا ما حدث طارئ، فالقانون يقول، «إنه وفي حالة سماع صفارات الإنذار، على الجميع ركوب السيارات والالتحاق بسلوان»[116].

تلقى "فرنانديث موليرو" في بيته بمليلية خبرا ابلغه إياه الملازم الثاني مارتينيث كانياداس، الذي حضر على متن سيارة عسكرية سريعة. كان سبب الزيارة -كما أوضح ذلك قائده- هو الإخبار برغبة ضابطين وهما، أريثون Arizon ورويدا Rueda، في المبيت بالمطار، فكان جواب فرنانديث موليرو أن هذا التصرف غير لائق، وذلك حتى لا تنزعج القوات المرابطة هناك. اما بيكاسو فلم يفهم لماذا تكبد هذا الملازم مشقة السفر من اجل امر تافه كهذا.[162] لكن كل المؤشرات كانت تدل على أن مارتينيث كانياداس سافر إلى مليلية للتشاور مع قائده بشأن الطائرات، وما يجب فعله بصددها. فإما نقلها إلى الناظور أو إلى مليلية. لكن المحادثات في تلك الساعات، لم تسفر عن اي قرارات -كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف زوالا من يوم الثالث والعشرين من يوليوز- فضاعت الطائرات.

ومرت ساعتان قبل أن يتمكن فرنانديث موليرو من ربط الاتصال بالمطار، حيث املى على طياريه أمرا جديرا بالذكر. وقد لخصه بيكاسو على النحو التالي: «ونظرا لحالة الهدوء العام، فقد اذن لمن يشاء من ضباط الفرق العسكرية بالنزول إلى الموقع (مليلية)»[163]. واضاف فرنانديث موليرو، انه عشية الثالث والعشرين، لم تكن هناك أوامر بالخدمة، فترك الحرية لضباطه ليتصرفوا كيف يشاؤون. كانت الديموقراطية العسكرية قد استبدت بالريف الإسباني. البداية كانت في إيزومار، وفيما بعد في سلوان. لكن الأمر كان مختلفا في "بوحفورة"، فهناك كان الرهان شديدا على تحمل المسؤولية وحفظ ماء الوجه.

وبحلول الليل، علم فرنانديث موليرو أن طلقات نارية استهدفت المطار،[164] فبقي هناك بمقر الإقامة العامة إلى حدود الخامسة صباحا. بعدها، استقل سيارته وخرج في اتجاه الناظور، لكنه لم يستطع تجاوز الموقع الثاني على بعد ثلاث كيلومترات من مليلية.

وادلى خوصي غرسيا مونيوث José García Muñoz، -الذي كان طيارا كذلك- بشهادة تفيد انه بتاريخ الثاني والعشرين من يوليوز، تلقى أوامرا بتنفيذ جولات استطلاعية، والقيام بقصف جوي. لكن وبعد الاطلاع على أحداث (انوال)، تم التراجع عن هذه القرارات[165]. ويوم السبت الثالث والعشرين، وفي عملية جمعت كل الطائرات الموجودة، بادر فرنانديث موليرو بقصف ابن طيب -الذي سبق وأن اشعل النار فيه كل من "لوبو Lobo" واتباعه-،

وبسبب هذه المناورة الجوية، تلقى سنة 1925 ميدالية عسكرية. وما إن حطت الطائرة حتى عاد القبطان إلى مليلية دون ان ينتظر وصول الطائرات الأخرى[166].

وفي تصريحاته المقنعة أمام بيكاسو، اشتكى غارسيا مونيوث من كون القبطان "موليرو" لم يشأ ان يصحب معه باقي الضباط، حينما عزم على الذهاب إلى سلوان صبيحة الرابع والعشرين، إذ لا أحد يتوفر على سيارة سوى قائد الفرقة. وعن الرحلة الفاشلة التي قام بها فرنانديث موليرو قال: «إن الأمر كان مقصودا ومتعمدا». لقد كان واضحا ان الطريق إلى الناظور ظل مفتوحا حتى الساعة الثامنة والنصف[167]، وكان قطار السابعة صباحا قد وصل بدوره إلى الناظور.

واثناء دفاعه ذكر فرنانديث موليرو، انه حتى ولو بقي الضباط في المطار فإنه كان سيتعذر عليهم إنقاذ الطائرات. كان هذا خرقا سافرا للأحداث، قضى على الروح القتالية للجنود وقضى على احترافيتهم[168]. ولما بقيت الطائرات بدون طيارين، قام الريفيون بإحراقها.

قائد عند منحدر أعرويت وشجار بين زعيمين اثنين

ولمدة أربعة ايام مضنية، مكث "نفارو" واتباعه في الباطل تحت سيل رصاصات العدو. ويوم الأربعاء السابع والعشرين من يوليوز، قرر "نفارو" الدفع بكتيبته المنهكة نحو تيزطوطين المجاورة. لكن وفي غضون ساعات قليلة، نفد ماء البئر. فجاء القرار بالزحف نحو أعرويت التي كانت تبعد بأربعة عشر كلم. وكان يقود مؤخرة الجيش ضابطان اثنان من المهندسين، وهما القبطان فيليكس أريناس Félix Arenas، وخسوس أغيري أرتيس دي ثراطي Jesús Aguirre Ortiz de zírate.

وكلاهما حقق عملا ذا اهمية يوم الثلاثاء الخامس والعشرين بتيزطوطين، إذ أشعلا النار في كومات تبن كان يحتمي وراءها الريفيون المسلحون بالبنادق، فكانت هذه ملحمة ثانية على طريقة كاسكورو. شكل "اغيري" صفا من القناصين الجيدين، في حين وقف أريناس بصحبة الجندي كليكسطو أرويو Calixto Arroyo، وجندي آخر على طول الخط الذي كانت تطاله البنادق الريفية، فحمل ثمانية صفائح من البنزين، سلمها له "اغيري" من خلال الأسلاك، فأضرم النار في كومات التبن التي ما فتئت ان احترقت بكاملها. كما همّ بإحراق ثمانية أو عشرة جثث كانت تنبعث منها رائحة نتنة جد قوية[169].

ويوم الجمعة التاسع والعشرين من يوليوز، مكث "اريناس" و"اغيري" في المؤخرة لحماية ظهر الجيش، وواصلا إطلاق النار على الريفيين. كان كل أولئك القواد يدافعون عن انفسهم باستعمال البنادق، وكانت يد "اريناس" مضمضمة من جراء الحروق التي اصابته خلال بطولته السالفة. وعلى مشارف اعرويت، طوقهم العدو الذي كان قد احكم قبضته على فرق الطليعة كذلك. فاشتد القتال واحتدم على طول الجبهات الأربع، وراى "اغيري" سقوط احد ملازميه جريحا وهو "ماروطو Maroto"، فحمله على كتفه ودخل في صفوف رجاله[170] والبندقية بيده. وهكذا بقي "اريناس" لوحده بين المدافع.

وضاعت كذلك بطارية "بلانكو" الوحيدة التي بقيت، وكان قائدها يريد الدفاع عنها، لكن رجاله حالوا دون ذلك، فظهر "اريناس" الذي دافع عن هذه المدافع وكانها جزء من حياته.

ولد فيلكس أريناس غاسبار Felix Arenas Gaspar، الإسباني ببويرتوريكو يوم الثالث عشر من دجنبر 1891. كان والده فيلكس أريناس إسكولانو Felix Arenas Escolano، قائدا في المدفعية، وبعد مروره باكاديمية طليطلة، التحق بمدينة غوادا لخارا (وادي الحجارة) لتلقي تكوينه كمهندس، والتحق بخدمة المناطيد سنة 1911. كان "اريناس" تقنيا كبيرا وماهرا، ذا خبرة بالمناطيد، درس بالمدرسة الحربية العليا التي حاز فيها على نقط جيدة، بالإضافة إلى مهارته في الطبوغرافيا والاتصال التليغرافي. كما انه كان يتطوع باستمرار ولا تعوقه اي ارتباطات. كان اخوه فرانثيسكو، الملازم في كتيبة سوق الثلاثاء، قد لقي حتفه اثناء عمليات الانسحاب تلك، لكنه لم ولن يعرف شيئا عنه. تقلد بمحض الصدفة زمام الأمور بتيزطوطين، فكان قدوة لكل أولئك الفارين.

كان يقاوم بيأس وكانت يده المحروقة، تحول بينه وبين استعمال البندقية بشكل جيد. اندهش الريفيون من هذا الصمود، فاوقفوا هجومهم إلى أن تجرا واحد منهم، فصوب بندقيته نحو راسه فارداه قتيلا.

وبدخولهم إلى اعرويت، طلب العديد من الضباط -ومن بينهم الملازم كالدرون Calderón وسانتيث- من نفارو منح الوسام "لأريناس"، فكان ذلك في نونبر 1924.

أخذ الريفيون تلك المدافع وابعدوها عن المكان لكي لا يطالها الإسبان في هجوم مضاد محتمل، ودرسوا طريقة تشغيلها، فقاموا بفتح النار. واخترقت أولى القذائف جسم القبطان بلانكو، هذا المصارع الكبير "الإيغان"، الذي لقي مصرعه بطلقة من مدفعيته، التي لم يتمكن من إنقاذها بسبب رجاله الذين منعوه.

وعلى نفس الهضبة، توفي الأخوان غارسيا مارتينس، "موديستو Modesto" و"فيكتور Victor"، حيث كانت لهما رتبة ضابط.

وهكذا، بقي نفارو بدون كتيبة عسكرية، وضاع منه تقريبا كل قادته، فعلى مشارف اعرويت، توفي كل من التنينتي كولونيل "ألفاريس دل كورال Álvarez del Corral"، وبيكيراس Piqueras. ولحسن الحظ، بقي بجانبه بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera، وبيرث اورتيث Peréz Ortiz.

قطع رئيس فرقة "سان فرناندو" أربعة عشر كيلومترا مشيا على الأقدام، وهو لا يكف عن تشجيع وإصدار أوامره لكتيبته المنهكة، التي قطعت نفس المسافة مرورا بنفس الهضاب والسهول. كان عمره يصل إلى سبعة وخمسين عاما. وبوصوله إلى اعرويت ضمآنا ومبحوح الصوت، جلس على الأرض يلتقط انفاسه ويشكو من تشنجات عضلية. لم يبق كذلك طويلا، حيث علم أن الجنرال يبحث عنه. وقد لخص بريث أورتيث رد فعله على هذا النحو: «إن ساقاي لا تطاوعاني، لقد توصلت بالرسالة، وجوابي هو أني لا استطيع الذهاب»، فحضر نفارو بنفسه للبحث عنه. وقد بدا جد مغتاظ، والامتعاض باد بشكل جلي على محياه. وما إن سمع التنينتي كولونيل الأمر الذي صدر في حقه (والذي نجهله)، حتى خرج عن طوعه منفجرا: «لا، مستحيل، وخاصة بهذه الطريقة»، لكنه سرعان ما هدأ من روعه. أما بريث أورتيث، فمازال يتذكر عينا نفارو المتوقدتان[171].

كان عدد الأسرى بأعرويت يصل إلى ثلاثة آلاف وسبعة عشر رجلا. أما المؤن المتوفرة، فكانت تقدر بمائة وتسعة لترات من الزيت، وثلاثة وعشرين كيسا من الأرز، وخمسة أكياس من القهوة، ومائتين وثمانية وعشرين من الشعير، وعشرة أكياس من الحمص، وستة عشر أخرى من الفصوليا. زيادة على أحصنة "الكانطرا"، والبغال التي يمكن اللجوء إلى اكلها إذا اقتضت الضرورة ذلك.

كان ألفونصو الثالث عشر
يعتقد أن "برنكر" يقوم بواجبه

في يوم الثامن والعشرين من يوليوز، لم تكن بمليلية اي طائرة. وفيما بعد، تمت تعبئة المئات من الجنود، الذين تحركوا بأمر صدر بنحو اسبوع، لتنظيف الطريق من الأحجار. و في اليوم الموالي، السبت التاسع والعشرين، وصل الدعم الجوي الأول من غرناطة. إذ وفدت طائرة من نوع "بريسطول"، يقودها القبطان "منثنيكي" Manzaneque، الذي رافقه القبطان كريو Carrillo. وبحلول المساء، قام الضابطان معا بجولات ميدانية للبحث عن كتيبة نفارو[172]، فوجدوها محاصرة عند أعرويت تواصل المقاومة. فرجعت "البريسطول" ادراجها وانبأت بالخبر، وعاودت الإقلاع مرة اخرى. كان طاقم الطائرة يحمل معه كيسا من الشكولاته والبسكويت وخمس قطع من الخبز من الحجم الكبير، وصندوقا من عشرين كيلوغراما من الذخيرة[173]. كانت الرحلة تستغرق اربعين دقيقة ذهابا وإيابا، فقام "كريو" و"منثنيكي" بثلاث رحلات جوية في نفس اليوم.

وفي نفس اليوم، التاسع والعشرين من يوليوز، وبعد أن علم الفونصوالثالث عشر انه تم الاتصال بكتيبة نفارو، ارسل لإيزا رسالة تشجيع ليبعثها بدوره إلى المحاصرين. لكن عندما اخبره عن اعتراض "برنكر" على استقبال اي دعم جوي، الح الملك على أهمية هذه الوحدات للقيام بعمليات الإنقاذ، واضاف انه يظن أن الجنرال يفكر في نفس الحلول، ولربما هو شارع الآن في تنفيذها، وجاءت رسالة "إيزا" إلى "برنكر" تحمل هذه العبارات: «وفي نفس الوقت تساءل جلالة الملك بروحه النبيلة، إذا كنتم تظنون أن تزويد تلك الكتيبة بالذخيرة والمؤن عن طريق الجو شيء ممكن. وافيدكم انه حصل عند جلالته يقين بأن سعادتكم بالتأكيد قد فكرتم مسبقا فيما يمكن فعله وكذا طريقة إجرائه، أطيب التحيات»[174].

لم يكن الفونصو الثالث عشر يعلم بأن طائرة واحدة هي التي تحلق في سماء أعرويت، في الوقت الذي كان بالإمكان ان تكون هناك اثنان وعشرون طائرة (أربعة عشر كانت في جبالة وثمانية في مدريد). وواصل كل من "كاريو" و"منسنكي" مجهوداتهما لأربعة ايام أخرى، وهي المدة التي كانت كافية لتشكيل فيلق جوي يقصف المدافع التي تم نهبها. وعوض أن ترمي الوحدات الجوية بالقنابل على العدو، كانت

ترسل للمحاصرين العتاد، الذي سرعان ما يتكسر عند ارتطامه بالأرض، والأكل الذي ضاع بسقوطه في مجال يسيطر عليه العدو[175].

لكن "كاريو" و"منسنيكي" واظبا على مهامهما، واستمرا في رمي الخبز وعلب اللحم، وصناديق الدواء وذخيرة البنادق وقطع الثلج. وكل هذه الأشياء كانت معبأة في أكياس تتحطم عند ارتطامها بالأرض. لم يعبأ العشرات من الجنود بهذا التحطم، فخرجوا يتسابقون على قطع الثلج المتكسرة، فماتوا بسبب الرصاص الريفي. اما من كتبت له النجاة، فكان يعطي جزءا من الثلج للجرحى وجزءا آخر للرفاق، في حين يحتفظ هو بقطعة صغيرة ليبلل فاه[176]. لاحظ "مانسنيكي" بنفسه كيف أن الجنود كانوا يجمعون أكياس الخبز، ويتركون أكياس الذخيرة، وهذا ما يوحي بانعدام المعنويات عند الجيش. إذ كانت دوافعهم مادية ليس إلا. وبسبب قلقه، قام "مانسنيكي" بتجربة في التحليق بطائرته فوق الميدان وإنزال كيس مملوء بالخراطيش. وكانت النتيجة أن سحقت هذه الأخيرة، وبالتالي اصبحت غير صالحة للاستعمال[177]. فاغتاظ الطيار وقام بتصميم مظلة تقلل سرعة الهبوط، وزودها برزمة تقي الكيس من الارتطام القوي بالأرض، فعاود التحليق فوق مليلية ورمى بالحمولة التجريبية، فكانت النتيجة أن وصلت الذخائر والعتاد بسلام، لكن كان الوقت قد انتهى.

واصل الريفيون هجوماتهم بالمدفعية، ففي يوم واحد أطلقوا ما يناهز مائة وأربعة عشر قذيفة، سقطت واحدة منها على مستوصف المعسكر، وتسببت في مقتل ستة عشر جريحا. ويوم الجمعة الواحد والثلاثين، بعث "برنكر" ببرقية إلى نفارو جاء فيها، ،أود أن أعرف ما إذا كان تموين بسيط من الجو يكفي لتواصلوا المقاومة،[178].

وقد ذكر "بريث أورتيث" بالتموينات التي وصلتهم يوم الثلاثين من يوليوز، إذ قال، ،لقد التقطنا كيسا من خبز من حجم صغير، قمنا بتوزيعه على الجرحى، قطعة صغيرة لكل واحد[179]. وهكذا بقي الرجال فريسة للجوع، أو لرشاشات العدو والأمراض. وحتى دفن الجثث لم يكن بالأمر الممكن، إذ لم يكن في حوزة المحاصرين سوى مِعْولين اثنين ومجْرفة واحدة[180]. وبهذه الأدوات، كان عليهم حفر قبور لدفن ما معدله خمسة وعشرون جثة يوميا. وكانت الحيوانات الميتة تقذف خارج المعسكر، كان الخطر يحذق من كل جانب[181].

وصول نجدة بدون معنى ومنطق رسمي مماثل

في اليوم الثاني من شهر غشت، وعلى الساعة الثامنة واربعين دقيقة، وصلت خمس طائرات من نوع "هافيلاند Havilland" من مدينة تطوان، يقودها الطيارون، القبطان "بورواغا Buruaga"، والملازمان "ماتيو Mateo"، و"إدالغو Hidalgo"، والمساعدان كاربيو Carpio، واغليسياس Iglesias. وكمراقبين، كان هناك الكومندان ايمات Aymat، والملازمون كماشو Camacho، وبيود Bellod، وغونثالث González، وفالدس Valdés [182]. اكان يجب ان تمر عشرة ايام على وفاة سيلفستري لكي يقرر "برنكر" تحريك جزء من قواته الجوية بالمغرب؟

وقبل ذلك بيوم واحد، وفي مدينة تطوان كذلك، اجتمع الطاقم الجوي الذي جاء بعض عناصره من العرائش في مادبة أُعدت بهدف توديع الزملاء، الذين تم اختيارهم للذهاب إلى مليلية عن طريق القرعة[183]. حلقت الطائرات بكل حذر فوق ساحل الريف، وعلى طول هذا الساحل، المقدر طوله بثلاثمائة كيلومتر، اصطفت البوارج تحسبا لإجراء عملية إنقاذ في حالة سقوط إحدى الطائرات في البحر.

كانت لأعرويت تعزيزاتها العسكرية، والمتمثلة في ست طائرات -تحطمت اثنتان في عمليات الهبوط- بما فيهما طائرة "كاريو" و"مانسكي". وفي اليوم الثاني من غشت، قامت كل تلك الطائرات بأربع رحلات جوية، وصلت إلى تسع رحلات في اليوم الموالي. ويوم الرابع من غشت، لم تقلع اي طائرة. وفي السادس من نفس الشهر، قامت بأربع رحلات اخرى، ارتفعت إلى ستة في اليوم الموالي، وإلى سبعة يوم الأحد السابع من غشت. وتقلص العدد إلى ثلاث رحلات في اليوم الثامن، ثم ارتفع من جديد إلى خمسة في اليوم التاسع، وهو اليوم الأخير. وكانت الحصيلة هي، ثمانية وثلاثين دورية جوية[184].

كانت الطائرات تحلق وتلقي بحمولتها، فكانت تنجح مرة واحدة في كل ثلاث محاولات، فيئس المُحاصرون، واستغل الريفيون هذا الوضع، وتعالت أصواتهم بالسخرية قائلين، «طيور الحكومة ترمي بالخبز إلى المورو»[185]. هكذا كانوا يصرخون. وبالليل كان التعذيب اشد، كان الأسرى يسمعون رنين جرس المحطة، في حين كان الريفيون يقومون «بإطلاق تصفيرات ويقلدون بها وبسخرية صوت القاطرة، ويصرخون كصبيان مشاغبين ضاحكين، «إنهم يستدعوننا لركوب القطار الذاهب إلى مليلية»[186].

لم تقصف أي طائرة المدافع التي كانت قد سُرقت، ومن بينها تلك التي كانت متمركزة عند هضبة يصل ارتفاعها إلى الف متر، وتقع في الشمال الشرقي للمعسكر، وتلك مسافة حددها بيكاسو في الخارطة التي رسمها[187].

كان "إيزا" يريد إنقاذ أعرويت، لكن كانت تعوزه خطة محكمة. أما "برنكر" صاحب الحلول، فلم يجرؤ على المبادرة. كان المقيم العام شديد الحيطة والغموض، وانتهى الأمر بانتقال هذه العدوى إلى الوزير، الذي كان بطبعه يميل إلى الخمول. فجاء حديثه كالتالي: «إنني اشاطرك الراي، واتفهم جيدا حرصك فيما يخص مجريات الأمور، فيجب التضحية بكل شيء في سبيل سلامة وامن الموقع، وتفادي اي انهيار في القوى العسكرية»[188]، وهكذا اتضحت، وبشكل جلي، اسباب التخلي عن اعرويت. فـ"برنكر" و"إيزا" لم يكن يهمهما شيء سوى سلامة مليلية، وماعدا هذا، فسلامة وحياة ثلاثة آلاف رجل لا تهم. ومن مليلية ومدريد، كانت الاستعدادات جارية للاستسلام.

ويوم الواحد والثلاثين من يوليوز، وعلى الساعة التاسعة والربع ليلا، ذكر "برنكر" لإيزا انه سمح لنفارو بالتصرف حسب ما تمليه الظروف[189]. كان قد بعث برسالة إلى نفارو -الذي اخبره عن إرهاقه الشديد- وأعطاه مطلق الصلاحيات قائلا: «وإنني اسمح لك باتخاذ القرارات التي تقترحها، أو تلك التي تراها مناسبة، وإني أوصيك باستمالة الرهائن تفاديا لأي إمكانية للخيانة»[190].

لم يكن هناك شيء أكثر عشوائية في الريف الإسباني، الغارق في تلك الهزيمة المشابهة للهزيمة القوطية، من مسألة إبعاد اي محاولة للغدر والخيانة، لكن "برنكر" كان يثق في ذلك. ويجيب إيزا قائلا: «طبعا، وإنه لمن دواعي الأسف أن يكون نفارو قريبا نسبيا منا، ولا نستطيع نحن فعل شيء يتناسب ومركزنا الاجتماعي كنبلاء، لكن البلاد ستتحمل هذه المسؤولية الجسيمة، التي يمكن أن نتحملها نحن في حالة التزامنا بشيء جوهري»[191].

أصبح ميدان الهبوط جاهزا، بعد حصاد حقول القمح للتو. لكن ست طائرات، لم تكن كافية للانتصار في الحرب. هذا وقد قال رودولفو بينياس Rodolfo Viñas: «لو كان في هذا الحقل الذي جمعت غلته الآن، ما يعادل عشرين طائرة، لتوفرت الوسائل اللازمة للانتصار لكتيبة نفارو التي تقاوم، وللمدافعين الشجعان من سلوان والناظور، والذين لم يفكروا قط في الاستسلام حتى الموت...»[192]. كان بينياس قد كتب ذلك قبل حدوث الكارثة.

معركة بين الوزراء = استهتار بأسلحة فتاكة

في الوقت الذي كانت فيه كتيبة نفارو محاصرة في أعرويت، كانت صحافة مدريد تنشر مقالات تثير جدالا ساخنا بين الجنرال "لوكي Luque"، وزير الحرب السابق في حكومة رومانونيس، والدوق "إيزا" الذي كان على وشك إنهاء الخدمة.

اتهم لوكي في مقالاته، التي كانت تنشر في يومية "الصول"، والموقعة باسم مستعار (أ- دي - إلي)، الوزير "إيزا" بالاستهتار في أمر صفقة كبيرة، تهم شراء كمية من العتاد الحربي البريطاني بثمن جد مناسب. وقد وصف "لوكي" هذه العملية، التي أخفاها الدوق عن سيلفستري و"برنكر" باللامعقولة، ونعت الوزير بالمختل عقليا. كما أن هذا التصرف، جعل كلا من الجيش والشعب، يلتجئون إلى طلب الرحمة من العناية الإلهية، لتنجيهم وتجاوز عن حماقاتهم.

أخطأ "إيزا" في الرد على الاتهامات المنسوبة إليه في يومية "لاإيبوكا" "La época" المحافظة، ففي أول رد له بدا متهورا، إذ بلغ به الأمر إلى وصف العتاد الحربي الذي رفضه بـ"التجريبي"، ذاكرا بأن الأمر يتعلق فقط بمدافع تصلح للخنادق، وبعض الجرارات، وعتاد لإدارة التموينات، ووسائل تتعلق بالصحة. وهو ما دفعه إلى الوقوع في خطأ غريب، فصرح بما يلي: ،كما أن تفاهة هذه الوسائل، لا تتناسب مع المشكلة المطروحة في المغرب، وهذا أمر واضح وجلي،. وبغض النظر عن هذا الهذيان، فإنه تحدى "لوكي" بأن يكون أكثر دقة ووضوحا في تصريحاته(193).

أما جواب "لوكي"، فجاء ليوضح عجز وعدم كفاية "إيزا" فيما يخص الترتيبات العسكرية. فما نعته الدوق بكونه عتادا لا قيمة له، لم يكن شيئا آخر سوى قذائف الهاون الشهيرة من عيار 81 ملم، والتي كانت إلى جانب المدافع الرشاشة، سلاحا فتاكا خلال حرب 1914-1918. وعن هذه القذائف، تحدث "لوكي" بقوله، ،أن القذيفة الواحدة كانت تحتوي على كيلوغرام واحد من المواد المتفجرة، وأن مداها كان يصل إلى تسعمائة وخمسين مترا. وما إن تطلق هذه القذيفة حتى تحدث فوهة يبلغ قطرها ثلاثة أمتار، وعمقها مترا واحدا، فيصير من الممكن دفن مجموعة من المورو هناك. ناهيك عن أن هذه المدافع كان بوسعها أن تطلق اثنين وثلاثين قذيفة في الدقيقة الواحدة.

فإلى جانب جهله بقيمة تلك الأسلحة، كان "إيزا" عاجزا عن الإلمام بالوضعية الحقيقية للجيش. وهكذا تكشفت الحقائق التي اثبتت عدم صلاحية "إيزا" وزير لحرب، وعدم تبصر الشخص الذي اوصله إلى ذاك المنصب.

وإزاء هدوء إيزا المتجاهل لهذه الزوبعة، أعرب "لوكي" عن سخريته، ثم بادر إلى إعطاء خصمه وصفا جيدا، وشرحا مفصلا لما تعنيه كلمة مدفع حرب، وكم يساوي من المال قائلا: «لا يتعلق الأمر بانبوب بسيط من الفولاذ، وثمنه خمسمائة بسيطة». وكختام لهذا الجدال، نشر الجنرال قائمة بأسماء كبار الضباط المكونين للجنة اقتناء الأسلحة، وهم الجنرالات غارسيا مورنو García Moreno، ومونيوث كوبوس Muñoz Cobos، وفيالبا Villalba، دون التستر على عدد تلك الأسلحة، ووجهتها (نحو المغرب) وكمية الذخائر: اثنان وسبعون آلية لوحدات المشاة، زيادة على ثلاثمائة وثمانية عشر مدفعا للقذائف تسلم للمعسكرات، وعشرين الف قذيفة.

وضمن هذه الكمية الهائلة، كانت هناك آلاف من القنابل الحارقة التي تثير الدخان، وكذا ثلاثة آلاف ومائة وخمسة وعشرون قنبلة يدوية لإحداث سحابة من الدخان، من شانها تغطية عمليات الانسحاب، كما جاء في عبارة "لوكي" الاستهزائية.

علاوة على كل ما ذكرناه، تنضاف مائة وخمسون محطة للاتصالات اللاسلكية (ت.س.هـ.TSH)، جاءت في وقت لم تبق فيه ولو محطة واحدة. خصوصا بعد ضياع تلك التي كانت عند سيلفستري بانوال، وخمسمائة وخمسة وسبعين هاتفا نقالا، مع مائة وخمسة واربعين جهازا لتلقي وتحويل المكالمات الهاتفية. اضف إلى ذلك، ثمانين خزانة للإسعافات الأولية، ومائة الف علبة من الدواء، وخمسمائة خيمة مخروطية الشكل، وسبعين خيمة تستخدم كمستوصف، وستة واربعين آلية لتطهير الثياب من الجراثيم، واثنتي عشرة اخرى لتعقيم المياه، وسبع عشرة سيارة للإسعاف، وأربع سيارات تضم مختبرات للتصوير بالأشعة لإجراء فحوصات بالأشعة في قلب ميدان المعركة. وفي كلمته الأخيرة والمشحونة بالسخرية، ذكر "لوكي" انه: «من المؤسف التفكير في أن الطبيب بإفريقيا، يصعب عليه البحث اليوم عن رصاصة اخترقت جسم رجل من رجالنا».

لم يدع الجنرال للأرستقراطي مهلة لكي يلتقط انفاسه، بل بادر بتذكيره بأن صفقة السلاح كان قد صادق عليها مجلس الوزراء و"ايند سلاسار" نفسه، وأيدها مدير المالية (بوغيال Bugallal) و(ليما Lema). وإذا لم يكن الأمر كافيا، فإن الجنرال اعطى تفاصيل دقيقة بخصوص تكلفة هذه الصفقة التي قدرت في البداية بحوالي ثمانية ملايين بسيطة. في الوقت الذي كان فيه الجنيه الإسترليني يساوي تسعة عشر بسيطة. لكن وببلوغ الجنيه ثمانية وعشرين بسيطة للجنيه الواحد، غدت عملية الشراء مستحيلة. وفي إشارة مستهدفة، ذكر بأن الفرق الحاصل، والذي يقدر (بازيد من ثلاثة ملايين)، جاء نتيجة لتماطل السيد الدوق. وفي تحد كبير، أضاف لوكي عبارة: «العتاد الحربي ينتظر في إنجلترا»[194]. لقد كانت تلك الملايين الثمانية التي صادق عليها المجلس ولم تصرف، من أسوأ الأموال التي ادخرتها ووفرتها الحكومة الألفونصية، وبتلك السياسة الاقتصادية النحسة، تكون قد دفنت عقليتها الاستعمارية البسيطة أصلا، ومعها ما بين تسعة أو عشرة آلاف حياة، علاوة على تضحيتها باستمرارية النظام. ثمانية ملايين كانت أقل بقليل، من الراتب الذي يتقاضاه الملك سنويا.

استسلام مزدوج:
الأول لن يغتفر والثاني غير منطقي

في سلوان، كانت المقاومة على اشدها مع كاراسكو وفرنانديث. ونفس الشيء كان يفعله أو يبدو -ذلك- مع باردو اغودين بالناظور. وحدث ان اورد "برنكر" في حق هذا التنينتي كولونيل، كلمات جد قاسية حيث قال: «لم نجد من اثر للعزيمة أو روح للتضحية في سبيل الوطن، في تصرفات هذا القائد»[195]. ولم يكن المقيم العام فقط محقا في كلامه، بل كانت لديه الحجج والدلائل. فكل هذه السرعة للتخلص من الذخيرة، وإرسال أربعين صندوقا منها إلى مليلية، والاحتفاظ فقط بثمانية صناديق، وكل هذه العجلة للاختباء في مصنع الدقيق دون التزود بالمؤن التي كانت تعج بها دكاكين البلدة. فالرسالة الأولى لالتماس النجدة، والتي حملها الجندي **إسماعيل مونيوث** Ismail Muñoz، الذي قطع البحر سباحة بكل إيثار وشجاعة[196]، والتي يطلب فيها **باردو اغودين**

المعونة لاعتبارات لها علاقة بالضمير[197]. فبهذه التصرفات والطلبات التي ليس لها اي علاقة بما هو عسكري، عرف "برنكر" حقيقة من يوجد في قيادة الناظور.

ورغم ذلك، اعطى "برنكر" بنفسه -يوم السادس والعشرين من يوليوز، على الساعة السادسة والنصف- مهلة للإنقاذ بدت وشيكة وإن كانت مغلوطة، حين قال: «أتمنى الا اتاخر اكثر من يومين في الحضور، والأحرى ان تقاوموا»[198]. آنذاك، كتبت جريدة (ا.ب.سي) بعنوان عريض ما يلي: «الأوضاع تتحسن بمنطقة مليلية، والجنرال "برنكر" يريد أن تعرف البلاد كل الحقيقة»[199].

وفي نفس الوقت، تقدم واحد من الأعيان الريفيين، وهو أوعمر بن امحمد بن عبد الله بطلب إلى "ريكيلمي" Riquelme، يقترح فيه ذهابه رفقة مائتي رجل من فرخانة لإغاثة الناظور. فقرر الكولونيل الذي أُعجب بهذا الإخلاص والوفاء والشجاعة، إبلاغ "برنكر" بالأمر، وهو شيء ما كان عليه ان يفعله بتاتا. فرحل اوعمر بنفسه إلى مليلية بهدف إخبار الكومندان "لوبيرا" Lopera، الذي كان يشغل منصب رئيس الوكالة المركزية للشؤون الأهلية، فاصيب بخيبة الأمل لأن العرض أو الاقتراح تم رفضه[200] رغم أن أولئك الريفيين المقدر عددهم بمائتين، والذين وصلوا في زوارق عبر "مارشيكا Marchica"، كان بإمكانهم إنقاذ حامية الناظور، لأن المسافة التي كانت تفصل بين رصيف مصنع الدقيق والبحر لم تكن سوى مائة متر في المجمل[201].

كان على "برنكر" أن يهاجم ويخترق الحواجز، عله يلفت انظار الحركة التي كانت مقاومتها تنصب على الناظور. خاصة وان القوات الريفية كانت تحتمي بجبهة يحسب لها حسابها، فا"لكوروكو" أصبح ملكا لهم.

ظنت البلاد أن "الكوروكو" بات في قبضة الإسبان، وكانت الحكومة هي اكثر من يثق بهذا الوهم. اما "إيزا" فكان الرجل الوحيد الذي يشك في هذا الأمر. وفي اليوم الثامن من شهر غشت، وخلال مكالمة هاتفية مع "برنكر"، تحدث إيزا قائلا: «وبالمناسبة، فقد تحدث إلي بعض (الطيارين) عن بعض المعسكرات التي رأوها قائمة في إحدى فجاج الكوروكو، فحسبوها للعدو، فخلت الأمر غير صحيح، لأننا سيطرنا على كل الكوروكو بما فيه قممه النائية الـ كو-لا Kol-la، وباسبيل Basbel». فجاء جواب المقيم العام كالصاعقة: «لم تكن لنا اي سيطرة على الكوروكو، ولم اتطرق انا لهذا الموضوع أبدا في

كل البلاغات التي كنت أرسلها،[202] فبقي الوزير دون حراك، فالكوروكو في أيدي الريفيين إذن.

كان الكوروكو قد ضاع بسبب تهاون مبهم، لكن القائد أوعمر بن محمد -الذي عرض اقتراحاته بشأن تحرير الناظور- لم يقف مكتوف الأيدي، فاقترح على ريكيلمي جمع ألف ومائتين من أهالي القبائل، والذهاب للسيطرة على نقطة "حسدو" Hasdu في الكوروكو، قبل أن تقوم الحركة بذلك. تردد ريكيلمي كثيرا، بيد أنه لم يستطع غض النظر عن هذا الاقتراح من جديد، فأرسل أوعمر للمرة الثانية إلى مليلية ليخبر "لوبيرا"، الذي قام باستشارة جديدة مع "برنكر". لكن الجواب لم يتغير، فكل العروض تم رفضها بسبب التموين، وما يمكن أن يترتب عنه من أخطار[203].

تواصلت عمليات الدفاع المستميت في الناظور، فآزرتها فرق من الحرس المدني -المارشا Almarcha، ولوثانو Lozano- بقيادة فريسنو Fresno. لكن باردو أغودين، كان قد تلقى رسالة من الملازم إباروندو Ibarrondo، الذي كان قائدا على الحصن الصغير "بإمعروفن"، يخبره فيها بضرورة تسليم المصنع إذا أراد النجاة بحياته وحياة رجاله. فأجاب التنينتي كولونيل ،نظرا لضيق الوقت، فإنه لا يمكن الآن الدخول في محادثات. فضرب للأعيان المورو موعدا في اليوم الموالي (1 غشت)،[204]، ومن مدينة مليلية شرع ضابط آخر، وهو القبطان خيمينس أورطوندا Jiménez Ortoneda، الذي نجا من مجازر جبل الودية -القريبة من المنطقة الوسطى أ- وعمل على تفعيل وساطة ثانية من مليلية.

وبعد أن علم "برنكر" بأخبار مفاوضات الاستسلام، بعث إلى باردو أغودين ببرقية ينبهه فيها ضرورة تأجيل تلك المحادثات ستة أو سبعة أيام أخرى[205]، كانت هذه هي المهلة الجديدة التي حددها لمد يد العون. وفي زوال اليوم الثاني من غشت، تم إخبار "برنكر" بأنه تمت مشاهدة مجموعة من الناس قادمة من طريق الناظور تحمل أعلاما بيضاء. لم تكن تلك الحشود سوى جنود الناظور الذين بقوا على قيد الحياة، وكان عددهم يقدر بمائة وستة وخمسين رجلا، يتقدمهم قائدهم الذي رجع معهم مستسلما، دون أن ينتظر نهاية المحادثات. وصلت القوات المهزومة، وقبل أن يصعد باردو أغودين إلى السيارة ليواصل سفره إلى مليلية، خاطبه القائد خمينيس قائلا، ،أنتم مدينون لي بخروجكم أحياء من هناك،[206].

وفي سلوان، وبالضبط في تلك الساعات، كانت تجري أحداث مأساة أخرى، فقد سقط المطار بسبب النقص الحاصل في المياه والزاد. وكانت جثث خمسة عشر فارسا من فرقة الكانطرا تحيط بالمعسكر، ولم يبق على قيد الحياة من الخمسة عشر الآخرين سوى فارس واحد. فسلم مانويل مارتينيث فيفانكوس Manuel Martínez Vivancos الموقع، وانقذ حياة الجند في ظروف عصيبة. بعد تسليم السلاح والسير نحو الناظور التي حسبوها في يد الإسبان، طوقهم الريفيون من كل جانب، وطاردوهم، فقتلوهم بالرصاص وطعنا بالخناجر، عدا قلة منهم استطاعت الفرار[207].

أما في القصبة، فكانت النهاية يوم الثالث من غشت، حيث فَقَدَ "كاراسكو" مائة من المدافعين من أصل اربعمائة، كانوا يختبئون معه ومع فرنانديث في قلعة الروكي القديمة. وخلال عمليات المقاومة وقع حادث سيئ، يتعلق الأمر بخوليو ليومبارت سزار Julío Leomport César، مساعد إدارة التموين، الذي احتكر كمية مهمة من المؤن باعها فيما بعد للجنود[208]، ووصل به الأمر كذلك إلى إخفاء الماء. وقد كشف هذه القضية الجندي خوان غوميس أوريا Juan Gómez Oria، الذي وجد يوم الانسحاب ثلاثة براميل من الحجم الكبير مملوءة بالماء[209]. مات "ليومبارت" أثناء الانسحاب الذي انتهت فصوله الأخيرة باغتيالات جماعية فظيعة.

وقبل الاستسلام، وافق كاراسكو على خروج أزيد من خمسين امرأة ريفية من القصبة، وكذا أبنائهن من عائلات الشرطة[210]. بعدها سمح له الريفيون، ومن ضمنهم كانت فرق من الشرطة الموالية له في السابق -قبل أن يتخلى عنهم في أعرويت- بالخروج. دون شك، أحس كاراسكو بنهايته، أما زميله، فرانثيسكو فرنانديث بريث فقد أذن له بالخروج كذلك. خرج وهو يجر شهرته بصفته ضابطا حذرا وصديقا للمورو، كل هذه الصفات لم تسعفه في شيء. واتفق كاراسكو مع حمو الابن ومع خَرْكَة ابن شلال على الاستسلام. وعلى بعد عشرين مترا من الباب، فتحت النيران على كاراسكو وفرنانديث. فتقدم الريفيون لإهانة الأول وضربه وتعذيبه، بوضع خرقة في فمه، ثم أطلقوا عليه الرصاص وأحرقوا جسده فيما بعد. ولا علم لنا إن كان فرنانديث، هو ذلك الضابط الذي بعد أن خلعوا عنه ثيابه، فتحوا بطنه بخنجر. وبخصوص الجنود، فقد تم أخذهم إلى حظيرة (إينا Ena)، وهناك أعدموهم رميا بالرصاص ثم أحرقوهم. وقد

تمكن من الفرار من هذه المجزرة، وبمشقة كبيرة، خوان غامس الذي روى في مليلية ملحمته هاته. كما أن بعض زملائه فروا عبر طريق الناظور، لكن هناك كان في انتظارهم حمو من "الزغنغن" رفقة فرسان آخرين، طاردوهم على طول أربع كيلومترات، وقتلوا كل من استطاعوا القبض عليه[211].

وفي منطقة أطاليون Atalayún، تلقى رجال الناظور المستسلمين الأوامر بالتزام الصمت والانتظار. فانتظموا في تشكيلة رباعية للاستماع إلى التنينتي كولونيل ميان استراي، الذي يكثر من الحركة أثناء الكلام. فهددهم هذا الأخير بإنزال أقصى العقوبات على كل من تحدث أو روى ما جرى لهم، أو أدلى بتفاصيل الأحداث. بعدها أمرهم بالانصراف، فتحركوا بخطى متوازنة حتى وصلوا إلى القطار، الذي ركبوه في فزع وحزن، وخوفا من أن يقتلهم العدو. وفي الوقائع التاريخية لـ ليبيرال Liberal، وُصفت هذه الفرقة التي تعرضت للإهانة على هذا الشكل بأنهم: «لم تكن لهم رغبة في الاستماع أو التحدث إلى أحد»[212].

مفارقات ومعاناة واعتراضات "برنكر"

يوم الثاني من غشت، أخبر "برنكر" "إيزا" بفكرة جهنمية، تتلخص في إعداد مخطط لإنقاذ كتيبة نفارو. فاستمع إليه إيزا دون أن يوليه الأهمية التي يستحقها.

يتعلق الأمر بعملية هجوم واسعة على الجبهات الريفية، وذلك بإنزال القوات عند ريستينكا، وبعد الإيحاء بالهجوم على سوق الأربعاء بفرقة عسكرية وكتيبتين من المشاة، يتم الهجوم الحقيقي ... وستكون الفرصة سانحة للتحول إلى الناظور من هذه النقطة، ومن ثم إعلان الحرب على الفرق العسكرية المرابطة هناك. والحقيقة أن هذا المخطط كان محكما باعتباره يدبر للهجوم على العدو من الخلف، ويستغفله عند سحبه لقواته من الجبهة الرئيسية. ستكون ضربة موجعة لا محالة. وبهذا المخطط ظهر خيال ومنطق "برنكر" وهو يصمم ويخطط لعملية هجومية ممتازة، جعلت معارضيه ومنتقديه -كـ:ويلر Weyler، ولوكي Luque- يشيرون إليه بأصابع الاتهام لعدم تفكيره من قبل في هذه الأمور، وتطبيقها على أرض الواقع. ويوم الرابع من غشت، فكر "برنكر" في القيام بجس النبض، لكنه كان بحاجة إلى أمور أربعة: الجرأة، وبارجة حربية، ووزيرين جيدين.

وقبل التجربة، طالب "برنكر" بالبارجة الحربية المسماة بالفونصو الثالث عشر. كان ذلك في اليوم الموالي من سقوط الناظور وفاجعة سلوان. كما اقترح شراء باخرتين للنقل قائلا، ،بعثتُ بهما إلى جبل طارق لإجراء الفحص التقني، فاخبروني انهما جيدتان وصالحتان لأي عملية إبحار نتوخى من ورائها تقويض المقاومة بالمارشيكا، وطالبوا مقابلها ثلاثمائة الف بسيطة،[213]. لم يكن الطلب مستعصيا، لكن خواكين فرنانديث بريدا Joaquín Fernández Prida -هذا الأستاذ صاحب الكرسي في التاريخ والقانون الدولي- والذي وجد نفسه فجاة على راس الأسطول، فقاده كما يقود مركبا للتجوال في بحيرة "ريتيرو"، لم يفهم شيئا مما يجري.

كان هذا البرلماني الموريستي (نسبة إلى ماورا Maura)، والذي شغل من قبل منصب وزير العدل ثم وزير الحكومة، من اشد المعارضين لنوايا إيزا. فتصدى له بكل شكوكه، فخضع وزير الحرب واستسلم مستطردا اكثر، ،إن وزير البحرية يقول بإن إبحار "الفونصو الثالث عشر" إلى مليلية، سوف تكون له مساوئ وسلبيات كبيرة بالنظر إلى حمولته، بغض النظر عن جملة من الصعوبات التي ذكرها،. وكخطوة موالية، الغيت كلّ عمليات شراء العتاد الذي سيستخدم في إنزال القوات، وذكر كذلك، ،كما ان (فرنانديث بريدا) أخبرني أن لا حاجة لنا ببواخر النقل،. وفجاة تغير مجرى الحديث، وحسب اعتقاده، (أي فرنانديث بريدا)، فإن القضية يمكن حلها بتعيين مساعد أدميرال، يحمل على عاتقه مسؤولية قيادة القوات البحرية،[214]. ليس من الصعب تخيل دهشة وغضب "برنكر". لم تكن هناك مدرعات، ولا مراكب للنقل، لكن مساعد الأدميرال كانت مسالة إرساله محتملة، ولهذا جاء جوابه (برنكر) على هذا النحو، ،اظن انه من الخطأ عدم إرسال بارجة الفونصو الثالث عشر،. واضاف بسخرية كذلك، ،ارى انه ليس من الضروري أن تبعث لنا مساعد أدميرال، إذا لم توافينا سعادتك ببعض القوات،. وفي عفوية كانت اقل من عفوية سيلفستري، جاء جوابه على إيزا في الرابع من غشت مشابها لجواب الأول يوم الخامس يوليوز، ،فلتحتفظ بهذا "المساعد ادميرال"،.

على ضوء الأحداث السالفة الذكر، بات من المستحيل انتظار اي نتيجة من عملية الرابع من غشت المزمع إجراؤها على ريستينكا. فمن الحديث عن عمليات هجوم كبرى، تم الانتقال إلى إجراء مناوشات بسيطة فاشلة، حتى وإن خلفت ثمانية وثلاثين

فردا من الخسائر البشرية. وبات نفارو الذي سمع بأصداء حملة عسكرية، يطلب النجدة بكل استعجال. ووصلت البرقية التي ابرقت إلى "أطاليون" بيد "سان خورخو" الذي كان على متن بارجة "كاطلونيا"، فحول بدوره هذه الرسالة إلى المقيم العام الذي كان على متن سفينة "خيرالدا". وفي الوقت الذي كان فيه "برنكر" يفكر بالجواب، وصلت مجموعة من المكالمات المزعجة من أعرويت إلى أطاليون، فالتقطها ملازم التلغراف كاسترو. إنه نفارو الذي يتساءل عما إذا كانوا سيوافونه بفرق الإنقاذ. ولم يستطع "برنكر" الذي ضاق ذرعا بهذه الأحداث، أن يرسل له شيئا أكثر من آمال في إجراء مفاوضات مع العدو. وكان المبعوث هو، «صديقنا ادريس بن سعيد، الذي تعرفه. وقد أرسلته إلى حضرتك لكي يسهل انسحاب الكتيبة»[215].

دبت الهزيمة والانكسار في نفوس رجال نفارو، وهم يتطلعون إلى أعمدة الدخان المتصاعد من سلوان. كانت المدافع الكبرى للأسطول غارقة في صمتها، وقد تساءل بريث أورتيث قائلا: «ترى، ألا تملك إسبانيا قنابل ولا طائرات أخرى أكثر؟، وباسم المعتقلين ناشد الدولة: «أي تنظيم هذا، الذي لم يستطع في تسعة عشر يوما -من الواحد والعشرين من يوليوز إلى التاسع من غشت- إرسال كتيبة إلى ريستنكا، لتقطع خمسة وعشرين كيلومترا من الأراضي المنبسطة، وتنقذ أسرى جبل أعرويت؟»[216].

ويوم الواحد والثلاثين من يوليوز، تراس "برنكر" اجتماعا للجنرالات، وتركز الحديث اساسا على موضوع إنقاذ نفارو. لكن المقيم العام -وبجانبه الجنرالات "كبانياس Cabanellas، وكبلكانتي Cavalcanti (الذي وصل لتوه)، و"فرسنيدا" Fresneda، ونيلا Neila، وسان خورخو Sanjurjo، إضافة إلى الكولونيل خوردانا Jordana- لم يوافه أحد من الحاضرين بأي خطة، لإنقاذ الوضع في أعرويت. وبعد جرد متشائم لقائمة التعزيزات الضرورية، والتي كانت على وشك الوصول، والتي وصفها بكونها مجموعة من الوحدات غير المتماسكة، تحدث "لإيزا" قائلا: «وبعدم تحريك القوات، أظن أنني أسديت خدمة كبيرة، وقدمت أكبر تضحية يمكن أن تعطى للوطن، بعد التضحية بالنفس طبعا». فأجاب الوزير "برنكر" قائلا: «إن الرعية برمتها تقدر جسامة التضحية التي تقوم بها، والإكراهات التي تواجهك كرجل يملك قلب المحارب وعقل الحاكم المدبر، وثق بأنك ستنال المكافأة التي ستجعلك مفخرة بين الملك وشعبه»[217].

هذا وقد تسببت هذه العبارات التي اشيعت فيما بعد، في إثارة موجة من الانتقادات اللاذعة، كتلك التي صدرت من "اثانيا" Azaña، المراقب الخطير الذي ذكر سنة 1923، «إن الجنرال ("برنكر")، برهن على اننا مستعدون لتصديق ان عبد الكريم والريفيين كانوا هم المخطئين، والهدف كان هو نشر التفاؤل الرسمي»[218].

اعرب الجنرالات عن رغبتهم في تجنب القتال، فخالفهم ضباطهم. ويوم العشرين من يوليوز 1922، اكد الكولونيل ريكيلمي، ان كل سكان مليلية يرغبون في الذهاب لإنقاذ كل من يوجد في هضبة اعرويت. ولم يكن "ريكيلمي" وحده صاحب هذه التصريحات، بل كان هناك كذلك التلينتي كولونيل انطونيو زغري Antonio Zegri، وكل من الكومندان الثوغاراي Alzugaray وكرفخال Carvajal وغيرهم من المتعطشين للقتال. اما خطتهم، فكانت تخطيهم الحواجز والخطوط الريفية، ثم الوصول إلى اعرويت، ومن ثم العودة برجال نفارو و"كرفخال"، وهو من عُين ليعرض على القائد الأعلى فكرة تكوين كتيبة يتراسها كل الجنرالات، وكذا هيئة الضباط التي نجت من الكوارث كتيبة ينضَمّ إلى صفوفها جنود من مختلف الفرق العسكرية، وذلك لإنقاذ إخوانهم بجبل أعرويت[219]. وهذا مشهد آخر من المشاهد الرائعة والهائلة لأنوال الإسبانية. الضباط يجتمعون ليطلبوا من الجنرال ان يقاتل وينقذ ما تبقى من جيش سيلفستري.

فقد المقيم العام صوابه بسبب هذه الفكرة، إذ كيف يسمح بهجوم يشنه آلاف من الرجال، سيقطعون خمسة وثلاثين كيلومترا للوصول إلى القشلة المحاصرة، فجاء الجواب بالنفي. وكان محقا من الوجهة التكتيكية، إذ أن مخططه كان افضل بكثير، لكن من الناحية الأخلاقية وربما من الناحية العملية كذلك، كان مخطئا، إذ كان بإمكان هذه التشكيلة التي انتظمت في شكل فرقة، مكونة من عشرة آلاف رجل، أن تقوض (وحتى تاريخ الثالث من غشت، وهو اليوم الذي استسلمت فيه سلوان) دعائم المقاومة الريفية، وتصل بعدها إلى أعرويت، فتبحر ثانية من جهة ريستنكا. والحقيقة انه ولإنجاز هذه العملية، كانت الحاجة ماسة إلى أسطول ووزير بحرية. لم يكن "برنكر" يمتلك شيئا من هذا القبيل، ولهذا جاء جوابه لـ"ريكيلمي" بانه باعرويت، «ليس هناك من خيار آخر، سوى الخضوع والاستسلام».

كان "ريكيلمي" لا يختلف عن سيلفستري في إلحاحه وإصراره، ووصف "برنكر"، الذي اشتد الضغط عليه، الفكرة بأنها جنونية ولا يمكن تطبيقها. لكنه امر باستدعاء

خوردانا، فخاطبه قائلا، ،كولونيل، كم من الأرواح ستُحصَد في هذه العملية؟، فأجاب خوردانا في مراوغة ودقة حوالي الف وخمسمائة،. واعتبر "برنكر" هذه الخسائر كبيرة ولا تحتمل، وعقب "ريكيلمي" ،إن عمليات الإنقاذ هاته، ستؤثر بشكل فعال على نتائج الحملة وعلى سمعة الجنود الإسبان،.

اقترح "برنكر" على ريكيلمي فكرة الذهاب للقاء القائد العام، الذي لم يكن سوى "كبالكانتي" Cavalcante الذي خلف سيلفستري. وكان "كابلكانتي" رجل المفاجآت، فقد راودت "ريكيلمي" فكرة في نيل شرف قيادة فرق الإنقاذ بنفسه[220]، فأيده في ذلك الكومندان أبيليو باربرو ساندانيا Abilio Barbero Sandaña، ومساعدوه كانيدو Cañedo وسانتياغو Santíago. عاد "ريكيلمي" يقفز من الفرحة، وهو يتشوق لملاقاة المقيم العام، لكنه تلقى إجابة حاسمة لا رجعة فيها. فلا خروج من مليلية ولا ذهاب إلى أي مكان، لا من أجل نفارو، ولا من اجل شخص آخر. كل التفكير يجب أن ينصب حول مليلية وإنقاذها، ويجب إعطاء أمثلة من الروح الوطنية العالية والتخلص من الاختلافات اللامعقولة في الراي[221]، كانت هذه إذن، هي خلاصة الجواب بالرفض الذي ورد يوم السادس من غشت في تقرير وقعه ستة من الجنرالات وكولونيل واحد.

وبسقوط اعرويت تكشفت الحقيقة، وبرهن "برنكر" على انه لا يملك سوى تسعة عشر الف وثلاثمائة وسبعة وثلاثين رجلا، ثلاثة آلاف منهم كانوا من القدماء المحاربين، كانوا معاقين جسديا أو ذهنيا، وبما انه كان يحتاج إلى ما تبقى من الجنود لحماية مليلية، فإن ثمانية آلاف وخمسمائة من المشاة هو ما تبقى لتشكيل الكتيبة[222]. لكن تحقيقات ايالا ورويث دي لافونتي Ayala y Ruiz de la Fuente، اثبتت وبطريقة غير قابلة للنقاش، انه وبتاريخ التاسع من غشت 1921، كان بمليلية خمسة وعشرون الفا وثمانمائة وستة رجال موزعين على الشكل التالي، ثمانمائة وخمسة واربعون قائدا وضابطا، واربعة وعشرون الفا وتسعمائة وواحد وستون جنديا[223].

وفي حديث جمع "برنكر" بإيزا، يوم التاسع والعشرين من يوليوز على الساعة الثانية عشر والنصف، استدل "برنكر" بما يلي، ،صحيح ان هذا الوضع فريد من نوعه، فالأمر لا يتعلق فقط بتعزيز وحدات الجيش، بل بإنشاء وخلق جيش آخر ليقاتل في اليوم الموالي،. وافق إيزا "برنكر" على قوله مرددا، ،هذا ما نستطيع إرساله في هذه اللحظات الأولى،[224].

هذا وقد كتب خوان "برنكر" الذي كان مديرا ليومية "إيل بوبولار"، تلخيصا بصفته كذلك رجل حرب، شارك كملازم ثان في المناوشات العسكرية عند سفوح جبال الكوروكو، تحدث فيه عن تلك الأحداث قائلا: «إن الخطر الكبير الذي يجب استئصاله من وسط الجيش، هو التردد وحيرة قاداته»[225]. نعم وبلا شك، لكن أيضا تردد وحيرة وزرائه.

بلاغ ينفي وقوع مجازر (أو محارق) في أعرويت

وفيما يتعلق بكتيبة نفارو، وضع "برنكر" ثقته في كل من " ادريس بن سعيد "، و"ابن شلال"، و"ابن هلول"، وكذلك في "ابن اسماني"، هذا الريفي الذي ذاع صيته في كل البقاع. كان جاسوسا معروفا باسم إيل غاتو، ولا يجوز الخلط بينه وبين ابن حمادي، الذي قطع المدافعون التابعون للقائد اريثا Ariza، اذنيه خلال حرب 1893. وتقدم بن أسماني هذا إلى ابن شلال بطلب الدخول في مباحثات مع الجنرال نفارو.

اجاب قائد بوإفرور برسالة، اكد فيها انه يمتلك مائتي بندقية، والمعنى هنا مائتين من المسلحين الأوفياء. وتحسبا لوقوع الرسالة في أيدي العدو، قام ابن شلال بتغيير عبارة "بنادق" بـ"ريالات"[226]. لكن مائتين من حاملي البنادق، لم تكن تعني شيئا باعرويت، حيث إن رجال الحركة كانوا حوالي خمسة آلاف رجل.

وداخل المعسكر المحاصر، تحولت منابع الماء إلى مقابر، وداهمت المدفعية الريفية بطلقاتها اسوار المكان، وتجاوز عدد الجرحى الأربعمائة نفر. كما افترس التعفن العديد من الجنود، حيث وصل عدد الوفيات في السابع من غشت إلى مائة وسبعة وستين. تجندت الفرق الطبية لاستئصال الأعضاء المتعفّنة بدون تخدير، كما هو الحال مع بريمو دي ريفيرا، الذي قال لأطبائه الملازمين بنيا Peña، وربويار Rebollar، «هيا انهوا الأمر بسرعة». وعض بأسنانه على قطعة القماش التي طلبها، فاستأصلوا له ساعده الأيسر الذي أصيب بقذيفة. وكانت العملية سريعة ووحشية، بقي بريمو دي ريفيرا على إثرها فاقدا للوعي، وبعد يومين مات بسبب التعفن[227].

لم يكن لأعرويت من خيار آخر سوى الاستسلام والثقة بالعدو، حيث أصبح من المستحيل الاستمرار في المقاومة. خاصة بعد صدور امر قيل إن صاحبه هو نفارو، أمر بمنع الاحتجاج بشكل نهائي[228]. فقام بعض الجنود بالانتحار وتمرد البعض الآخر.

استغرقت محادثات نفارو يومين كاملين، تشبث فيهما بمطالبه التي تمثلت في ترك الجنود اسلحتهم، وحمل الجرحى على متن نقالات إلى مليلية بصحبة أطبائهم، واحتفاظ الضباط بأمتعتهم الشخصية واسلحتهم. كان اليوم هو التاسع من غشت، ولا توجد في أعرويت ولا قطرة ماء واحدة. وبحلول الزوال، ثبت مجموعة من الجنود فوق الأسوار، وركضت في اتجاه منبع الماء، فناداهم الضباط بأعلى صوتهم، وهددوهم. كانت النيران تطال كل من يغامر بالخروج، وكان بريث أورتيث عند المدخل، يحاول منع خروج اي جندي طائش. وفجاة سمع تلك الصيحة المرعبة: «لنقتل الضباط». استدار التنينتي كولونيل والمسدس بيده، كانت امامه جموع غفيرة يقدر عددها بحوالي ثلاثين رجلا، كان اليأس سيد الموقف. فسأل عن صاحب الصوت الذي ينادي بالقتل، فانكمش الجنود وتكدسوا في حلقة، وساروا يدلون بشهادتهم. فتقدم واحد منهم وهو يمشي في ارتباك ورعب، واشار باصبعه إلى المتمرد صاحب العبارة، فاتجه نحوه بريث أورتيث، وفي الوقت الذي أراد ان يخرجه من بين الصفوف، ارتمى عليه الرجل فصار يعانقه ويقبله بحرارة، وهو يبكي بكل حزن وكآبة[229].

كان الكومندان بيار، المعروف منذ أحداث أبران، أول من استهل المحادثات مع أعيان الحركة، فخرج لذلك الغرض يوم الثامن من غشت. ومنذ ذلك الحين، انقطعت عنه الأخبار. كان الأمل معقودا في ان يكون أوفر حظا من الملازم نيكولاس سوارث كانطون Nicolás Suárez Cantón، الذي كان عضوا في الشرطة الأهلية، والذي لقي مصرعه بالرصاص بعد خروجه يوم السادس من غشت، وهو يلوّح بعلم البرلمان. كانت الاتفاقيات تجري مع "بوحراي" و"عبيد الحاج" و"ابن شلال" الغني عن التعريف، ولم يتم الحديث عن المال، رغم ان الريفيين كانوا يحسبون ويقدرون قيمة هذا الجنرال، الذي كان يرتدي قميصا، ويشد خاصرته بحزام احمر -وبمثل هذا الزي كان يتحرك نفارو داخل المعسكر- وكذا قيمة بعض ضباطه التي قد تساوي عشرة آلاف ريال. اما الباقين، فأي مبلغ كان يفي بالغرض. وبموازاة ذلك، كانت هناك اتفاقيات يجري الحديث فيها عن الملايين. فقد انتهى إلى العلم، ان ملازما من الشرطة رفقة اثنين آخرين، ركبوا الجياد وذهبوا ليعلنوا استسلام اعرويت، فتمت المطالبة بتسليم السلاح وثلاثة ملايين بسيطة[230].

وفي نفس الوقت، تلقى "برنكر" إعلانا من "كبالكنتي"، احضره له مبعوث عبد الكريم المتواجد بجبل مورو. وطلب منه ان يعمل جاهدا على إرجاع هذه الكتيبة إلى مليلية، لكن العملية جوبهت بمخاطر جمة. لم يكن واردا تمرد كل من قبائل بني بويحيى ومطالسة[231].

وصلت هذه الرسالة، التي أكدها "برنكر" بدوره إلى "إيزا" في محادثة تليغرافية، يوم الثامن من غشت على الساعة الثامنة والنصف، لتميط اللثام عن محاولة الزعيم الريفي تفادي وقوع مجزرة، والتحذير من عواقب الأمور. ولم يكن زعيم حركة بني ورياغل يمثله احد بأعرويت، لذلك وقعت المذابح أثناء غيابه.

آنذاك، علِم "برنكر" من إيزا انه سيوافيه بستة وثلاثين الف رجل لتحصين منطقة مليلية، واعتبر "برنكر" أن هذا العدد سيمكن من تحقيق غارات بسيطة ستعيد الناظور وسلوان واطلاطن ويزانين إلى خط 1910[232]. فلا حديث عن اعرويت، وكأنها لم تكن موجودة. وبموازاة مع ذلك، اخبر المقيم العام بإرساله لأربعمائة الف كيس رملي، وخمسمائة كيلومتر من الأسلاك الشائكة، يوم الثامن والعشرين من يوليوز. إضافة إلى واحد وثلاثين الف قذيفة، وعشرين الف خرطوشة من نوع "ماوسر". في حين أن الطلب كان ينادي بخمسين مليونا[233]، ولو كان سيلفستري لاكتفى بربع هذا المقدار.

انقضت الآجال المحددة في أعرويت وعاد بيار. لم يعرف أحد تفاصيل الاتفاق الذي جرى بين الكومندان والزعماء الريفيين. ويعتبر خسوس بيار الفرادو Jesús Villar Alvarado، شخصية رئيسية لمعرفة تفاصيل الأحداث، وبالضبط في الأيام الأخيرة، ليس فقط في اعرويت، وكذلك معرفة الجوانب المظلمة في المأساة الإفريقية، التي بدات اولى فصولها بجبال تمسمان. لكن شاءت الأقدار، ان يعدم بيار خلال فترة أسره بأجدير في الثاني عشر من يناير 1922.

وفي التاسع من غشت على الساعة الواحدة إلا ربع، أعلن نفارو انتهاء مقاومته. وإبان خروجه لملاقاة زعماء الحركة، أصدر أوامره بإرسال برقية إلى "برنكر" جاء فيها، «اتوسل إلى سعادتكم الموقرة، بان تبلغوا جلالة الملك بعمق شكر فرقتنا العسكرية، وامتناننا لما بعثه فخامته إلينا من سلام حار في لحظات عصيبة مليئة بالأخطار والمحن»[234].

التقى نفارو بابن شلال وبوحراي وعابيد لحاج تحت عتبة بويرتا دي فانتاسيا Puerta de Fantasía، التي لم يبق منها سوى الأطلال، والتي تدل على جبل أعرويت. كان بجانب نفارو كل من بيار والقبطان ساينث Sainz وكالفيط Calvet والمترجم الكايدي Alcaide. نص الاتفاق على التنازل عن السلاح والرحيل مع الجرحى دون أن يصاب احد باذى. وذكر انطونيو الكايدي لينارس Linares Alcaide Antonio، أن الأوامر كانت تمرر بسرعة لتنفيذ الاتفاق. وعلى الساعة الواحدة زوالا من يوم التاسع من غشت، انتقل برفقة الجنرال بعض ضباطه الذين اصطحبوه إلى المحطة...[235]. لم يشك نفارو في شيء، حتى إنه استدار ليدعو "ماركيري" Marquerie للانضمام إلى هيئة أركان حربه، لكن أستاذ الأكاديمية الحربية في سيغوفيا، وبرباطة جاش رفض الدعوة، وفضل مشاطرة جنوده مصيرهم. ورفع يده ليؤدي التحية للجنرال الذي انصرف.

كان الفريدو ماركيري إي رويث دلغادو Alfredo Marquerie y Ruiz delgado رجلا قوي البنية، بدينا نسبيا إن صح التعبير. كانت نظراته حادة، ومعاملاته بشوشة. علاوة على أنه كان أبا حساسا ذا عاطفة جياشة، وكان له ابن في مليلية يبلغ من العمر أربعة عشر ربيعا. ومع مرور الوقت، صار هذا الابن ناقدا مسرحيا مشهورا. وقبل الخروج إلى دار الدريوش، ودع ابنه بهذه العبارات: «ولدي، لن نلتقي مجددا»[236].

اصطفت أمام "ماركيري" صفوف عريضة من المرضى والجرحى، كانت تتأهب للخروج في الدفعة الأولى. وهناك كان الملازمون الأطباء تيوفيلو ريبويار مارتينث Teófilo Rebollar Martínez، وخوصي روفير موطا José Rover Motta، وإنريكي فيديغاين اغيلار Enrique Videgain Aguilar، يتحدثون مع فيليب بنيا Felipe Peña، الذي أصيب بجرح في رأسه أثناء دفاعه عن أسوار المعسكر. كان هذا الحدث سببا في ترشيحه لنيل الوسام. وفي إحدى النقالات، كان يرقد نجل الكولونيل سانتيث مونخي، وقد بترت إحدى ساقيه بسبب نفس القذيفة التي حصدت أرواح ثلاثين آخرين يوم السابع من غشت. وكان ضمن الجرحى، القبطان لوبو الذي كان قائدا على ابن طيب. بالإضافة إلى التنينتي كولونيل "مارينا"، والقبطان "باندين" Bandin، الذي كان القائد الأول في أعرويت، والذي أصبح شبه أعمى.

كان "مانويل باندين" طريح الفراش بمليلية، كان يشكو من الم حاد في عينه. وما أن علم باخبار الكارثة حتى صعد إلى سيارة نقلته إلى أعرويت في نفس اليوم (الثاني والعشرين من يوليون). فوقف منتصبا وبجانبه -وحسب بعض الشهود-[237]،صديقه الملازم بيدرو غاي دي لا طوري Pedro Gay de la Torre، وبالقرب منه، احتشدت مجموعة من ضباط الكانطرا من بينهم، القبطان خوليان تريانا بلاسكو Julián Triana Blasco، الذي دافع عن الباب الرئيسية بمدفعه الرشاش. وحضر الملازمان خوصي دي مانطرولا José de Manterola، وفيكتوريانو بواس إلفيرا Victoriano Púas Elvira، وكذا قس الفرقة السيد "خوصي كابوي إيريغوين" José Capoy Irigoyen [238]. كانت علامات القتال تبدو واضحة عليهم، وظنوا أن أيام الاشتباكات الحادية عشر التي خاضوها قد انتهت. وببساطة تباهوا بأوسمتهم، ووثق الكل بالنصر والنجاة، لكن الموت كان يتريص لهم ولم يسلم احد منهم سوى "بنيا" Peña.

اصدر امر بالخروج، وأعطيت الانطلاقة في مجموعة من النقاط. وكإشارة للتنبيه، تم التلويح بعمامات في الهواء[239].

فاندفع الريفيون للاستيلاء على السلاح والأرواح، وداسوا في طريقهم كل الجرحى، وضربوا الجنود والضباط، فكانت المجزرة، مجزرة كل الجنود. وتوجه "ماركيي" إلى رفاقه بالخطاب: «ادوا الصلاة إن كنتم تؤمنون، لأنها اللحظة الأخيرة». فاختلطت الأمور على الجيش الذي أصبح أعزلا، وانكمشوا على بعضهم البعض بحثا عن النجاة، ومنهم من خرج يركض لا يعرف وجهته. وفي الخارج، كان رجال بني بويحيى ومطالسة ينتظرونهم. سبعة سنين مرت وهم ينتظرون هذا اليوم المشهود، فطوقوا ببنادقهم الباب الخارجية ومرتفع أعرويت، وخرج الإسبان يركضون على طول الطريق المؤدية إلى الموت المحقق. القليل منهم من استطاع الوصول والفرار من الموت. ومن تاتى له ذلك، كانت تنتظره اهوال اخرى كالضياع وسط الحقول، التي تشتعل أملا في الوصول إلى مليلية. وهناك من تظاهر بالجنون ليستميل شفقة سكان بعض الدواوير. وبقي هناك خيار آخر، خيار إنقاذ الحياة بواسطة المال عن طريق الأهل والأصدقاء، وتلك حالة "فيليب بنيا"، الذي تمكن من الوصول إلى الزغنغن رغم جراحه الخطيرة، وهناك تفاوض بشأن حريته[240].

تملك الرعب والفزع نفارو ومجموعته، فقد شلّت المذابح حركاتهم، وظنوا انهم ميتون لا محالة. وكان علي ابن شلال وآخرين من الزعماء الريفيين، أن يتصدوا ببنادقهم لكل من يحاول الاقتراب من المحطة. لقد كتبت لهم النجاة، بعد انصراف الريفيين إلى البحث عن غنائم الحرب. آنذاك، قدم الريفيون جوادا للجنرال، وحملوا معهم ما تبقى من الضباط[241]. كانت الوجهة نحو البيوت التي يمتلكها ابن شلال على بعد كيلومتر واحد أو اكثر في الشمال الشرقي لأعرويت. وهناك مكثوا حتى حدود الخامس والعشرين من غشت، وهو التاريخ الذي رحلوا فيه إلى الحسيمة.

لا احد كان يعلم بالوضع في مليلية، إلى ان وصل في اليوم الموالي اثنان من الجنود، استطاعوا الفرار من المجزرة، ورووا على مسامع "برنكر" ان شرذمة من القبائل هاجمت المعسكر بهدف الاستيلاء على الأسلحة، التي كان الجنود الإسبان قد تركوها مسبقا، الشيء الذي نتج عنه حدوث اشتباكات عنيفة، خلفت العديد من القتلى في صفوف الحامية العسكرية. لم يصدق "برنكر" تلك الرواية، فبدا مرتابا، إلى ان اخبروه بوصول مبعوث (رسول) يحمل رسالة من نفارو. وصف جنرال اعرويت الوضع لرئيسه بقوله، «وبعد الكارثة وقعت في الأسر...». كما عرض عليه قائمة بأسماء من يرافقونه: «الكومندان ثاراغوثا، وبيار، والقبطان ساينث، وكوريا Correa، وإرنانديث واغيري Aguirre، وكذا الملازم إنريلي Enrile، والملازم الثاني اريبالو Arévalo، وجيلبرت Gilabert، والمترجم الكايدي، بالإضافة إلى سبعة من الجنود». وبعد هذا الجرد، عرض عليه الثمن المطلوب مقابل إطلاق سراحهم: عشرة آلاف ريال لكل واحد. واشار إلى المكان الذي يمكن أن يرسل إليه المبلغ -ريستينكا- وختم الرسالة بخاتمه، لقد اكد أن الكارثة حقيقة لا غبار عليها.

أجرى "برنكر" اتصالا مع مدريد يوم الأربعاء العاشر من غشت، على الساعة الواحدة وعشر دقائق، وبعد التحية، اعتذر لإيزا قائلا: «اعتذر عن اتصالي بسعادتكم في هذه الساعة غير المناسبة(!) لأخبركم بالنهاية المؤلمة للمقاومة البطولية في أعرويت». ولتهدئة الوزير، اوضح بأنه كتب لنفارو رسالة يخبره فيها بالموافقة على شروط إنقاذه من الأسر، واشار كذلك أن المبعوثين الريفيين بإمكانهم الذهاب حتى آبار "أوْكّراز"، فهذا هو الطريق الآمن. ومن هناك، السير إلى ريستنكا حيث سيتقاضون الثمن المتفق

عليه. فاجاب إيزا بما يلي، «الحقيقة ان كل ما رويته لي يعد شيئا مؤلما للغاية، وكل هذه الجرائم النكراء التي ذهب ضحيتها إخواننا، تثير بحق السخط»[242].

ومر يوم آخر، وظهر جنديان آخران ممن بقوا على قيد الحياة، فاكدا للحاضرين كل الفظاعات التي كانا شاهدين عليها باعرويت. ومن جهة اخرى، كان "برنكر" يعلم بان الحكومة شرعت في تقديم الاستقالة. وإزاء هذا الحدث، عهد إلى إيزا بما يلي، «إنني اظن ان الأمر تلفه إشاعات، وإن تاكد عكس ذلك، سوف اكون اول من ياسف فعلا لهذه النهاية». واكد له إيزا ان الأزمة حقيقية، فما كان جواب "برنكر" إلا ان اشار عليه بإمكانية الاعتماد على البرقية التي بعث بها إليه يوم الرابع من غشت، والتي تحدث فيها عن تسخير منصبه لخدمة الحكومة. وفي خضم هذه المحادثات الهاتفية سُلمت لـ"برنكر" رسالة مناجاة اتى بها رسول موثوق به، وفيما بعد بثّها إلى إيزا باعتبارها اكثر مواساة من سابقتها.

كان مصدر البريد ابن شلال، الذي اكد ان منزله يحتضن جنرالا وجنودا آخرين، تقاطروا فيما بعد، إلى ان وصل عددهم إلى ثمانية وعشرين. بعدها، تحدث عن ثلاثمائة رجل رحلوا بمحض إرادتهم إلى بني سعيد، بقيادة رجال من بني ورياغل، رافقوهم ليقدموهم إلى عبد الكريم. ونقل إليه انه في صبيحة يوم الانسحاب، كان إطلاق النار مكثفا، فسقط على إثره مائة من رجالنا، لكن جنودنا لم يتعرضوا لخيانات ولا لمضايقات (!). وهكذا، اختلطت الأمور على "برنكر"، فذكر لإيزا ان هذه الرسالة تتطابق مع سابقتها، التي اطلعه عليها مكتب الشؤون الأهلية. وهو ما جعله يفكر، «ان ما رواه الجنود له من قصص مبالغ فيها، وبالتالي إذا اقنعهم بهذا، فلا داعي إلى ان يرسل لهم الرسالة»[243]. وبكل ثقة، اجاب إيزا، «بإمكانك إلغاء الإرسال».

لقد تجرا "برنكر" على اعتبار الأمر ممكنا، بمعنى انه من الممكن ان ينسحب "ثلاثمائة" من الإسبان، وبمحض إرادتهم، لملاقاة زعيم الثورة الريفية، فيجتازون كل الأراضي المرتفعة (والتي تقدر مساحتها بمائة كيلومتر ما بين اعرويت وانوال). وفي نفس اليوم الحادي عشر من غشت، صدر عن يومية "الصول" التي كتبت عنوانا بخط عريض جاء فيه، «المورو يدخلون إلى جبل اعرويت». وفي المقابل، اعلنت صحيفة ا.ب.سي اليومية المحافظة ما يلي، «من المنتظر ان يصل اليوم إلى مليلية الجنرال نفارو مع بعض العناصر من فرقته». لكن الصحيفة التي كانت اكثر مصداقية، هي

"يومية عمليات فرقة مليلية". "**دياريودي اوبيثيونس دي لا إسكوادريا دي مليليه**"، فما بين العاشر والسادس عشر من غشت لسنة 1921، نشرت عبارة مقتضبة تقول: «توقف الطيران»[244]. ليس بسبب النقص في الوقود أو القنابل، أو بسبب خصاص في الطيارين أو الطائرات، كل ما في الأمر أن آخر من حلق فوق أعرويت هما - الثنائي بوروا غا - كماشو، ماتيو فالدس - وكاربيو بيود - اكتشفا الآلاف من الجثث الهامدة دون حراك.

وأضاف "برنكر" لإيزا: «لقد طلبوا مني اليوم (دون ان يحدد مَن) ترخيصا لإلغاء كل الرحلات الجوية، ولأن الطائرات في حاجة ماسة إلى الراحة حتى تستطيع الطيران»[245]. كان التماس الراحة حجة واهية للتقاعس، وعدم الإسراع لإنقاذ ما تبقى من جيوش سيلفستري التي هلك منها الكثير.

إقالة الحكومة وصدور أوامر باستعمـــال الأسلحـــة الكيماويـــة

يوم الثاني عشر من غشت، جرى اتصال تلغرافي آخر بين كل من الوزير إيزا و"برنكر". اما ميان أستراي فكان متواجدا بمكتب الوزير، إذ ذهب إلى (بوينابيستا) ليطلعه على آخر الأنباء بمليلية، وجاءت نهاية المحادثات على هذا النحو:

الوزير: «وبشأن المدفعية التي يشغلني امرها كثيرا، أود القول بأن كل الطلبات في طور الإنجاز، كما قمنا كذلك بشراء عربات مصفحة ومدرعات، ومواد تستخدم في تركيب غازات خانقة ستحضر هناك في مليلية».

المقيم العام: «كنت دائما أعارض استعمال الغازات السامة ضد هؤلاء الأهالي، الآن وقد خدعونا وبعد تصرفاتهم المشينة معنا، فسأستعملها ضدهم بكل سرور».

الوزير: «وفيما يخص الغازات، فقد فكرت في تشييد مصنع في مليلية، ولك انت أن تتدبر كيفية استعمالها ونقلها، هذا هو كل شيء. وداعا الآن ولك مني أحر السلام».

المقيم العام: «صدقني، سأستعمل هذه الغازات. اتركك الآن مع أطيب التحيات»[246].

لم يشعر "برنكر" بصفته مقيما عاما ان اهدافه تحققت كاملة. لكن الكبريت والفوسجين Fosgeno، وهي نفس الغازات التي استعملها الألمان في حروبهم سنة (1915)، كانت في طريقها إلى المغرب.

في تركيبة تعتمد اساسا على كِبْريتور - كلور، ولدت هذه الغازات السامة تشكيلة مميتة، إذ إن تاثيراتها كانت جد خطيرة، فهي تستهدف الغشاءات المخاطية للخلايا التنفسية فتدمرها، محدثة بذلك اختناقات حادة وبالتالي الموت. اعراض اخرى تجلت في ظهور (قروح) خطيرة على الجلد، او التسبب في العمى الجزئي أو الكلي[247]. هذا وقد كانت اتفاقيات لاهاي الموقعة ما بين عامي -1899 و 1907- قد حذرت من استعمال الغازات في الحروب، وجاءت معاهدة فيرساي لسنة 1919 (التي وقعت عليها إسبانيا في عهد الملك الفونصو) لتؤكد على هذا الحظر. لكن اليأس الذي تسببت فيه مجازر الإسبان في كل من اعرويت والكبداني والناظور وسلوان، قضى على كل اشكال الحواجز الأخلاقية التي تمنع استعمال هذه الغازات.

فامام وحشية الحرب التي كان الطرفان المتنازعان، بشق الأنفس يحصلان فيها على الأسرى. وأمام التماطل والتاخير في تكوين جيش قادر على القتال ومداهمة الجبهات بقوة، وأمام عجز القيادات ومعاناة الجيش، طلب البرلمان استعمال الغازات السامة. وبهذه العبارات كان الحديث يجري بين كل من سولانو Solano وكرسبو دي لارا Crespo de Lara [148].

جاء الطلب على هذه الغازات في العشرين من غشت 1921، وهو نفس التاريخ الذي طُلبت فيه غازات سامة لشحن القنابل والمتفجرات المناسبة[249]. لكن المواثيق الدولية أجهضت هذه المحاولة، فمرت سنتان.

وجاء هذا القرار الدموي بعد الاستيلاء على تيزي عزة، جنة الريف، فتبدّدت كل المخاوف، ففي يوم الخامس عشر من يوليوز 1923، تحدث لويس سيلفيلا الذي كان وزيرا سابقا للبحرية، وآنذاك مقيما عاما إلى ايثبورو Aizpuro، عن الرعب الذي احدثته التجارب البسيطة التي تمت في تيزي عزة باستعمال قذائف المدفعية. وطلب سيلفيلا بانعقاد اجتماع غدا بمجلس الوزراء، والعمل على حل الملف العالق، والذي يخص شراء وإرسال خمسة آلاف من قنابل الغازات السامة[250]. وبعد التشاور مع الجنرالين كاسترو جيرونا، ومارتينيث انيدو، اعتبر سيلفيلا أن الحل السريع يكمن في استعمال هذه الوسيلة. وستسمح هذه المبادرة بإنقاذ حياة رجالنا. وكيفما كان الحال فهذا أفضل من أن يُروع الراي العام بمنظر اشتباكات دامية. وقبل شهر، فتح الملف من جديد في برلين، فلم تتوان المانيا في شخص عاهلها "ويمار" Weimar عن تقديم يد العون والمساعدة. فبعد

ان جن جنونها باستيلاء فرنسا على "رور" Rhur، لم تتحفظ في تسهيل وتصدير اسرار الحرب المدمرة لقوة استعمارية كانت عدوة لفرنسا في المغرب.

وعلم الكولونيل ديسبجول Despujol، الذي كان رئيسا لهيئة الأركان الحربية بالإقامة العامة، من مبعوثه في برلين السيد "ف. موهوا F. Mohoa"، بنتائج المباحثات التي تمت بينه وبين بون تشودي Von Tschudi، رئيس الطيران الألماني، ومدير قسم الكيماويات. وفي نفس اليوم (الرابع عشر من يوليوز 1923)، بعث "موهوا" بتقرير مفصل إلى التنينتي كولونيل كيندلان Kindelán، واتفق كل من المبعوثين الإسباني والألماني على ضرورة استعمال الغازات، فجاء في تصريحات لهما، ›إن هذه الوسائل التي تظهر في البداية وكانها غير إنسانية، هي بالعكس جد إنسانية بالنظر إلى سرعة نتائجها‹. واضاف "موهوا" -وحسب تقديرات المهندس الألماني- فإن خمسين قنبلة من وزن خمسين كيلو في كل واحدة، هو عدد كاف لتطهير مساحة عشرين كلو متر مربع.

وانتهت المؤامرة بتشييد مصنع للمواد الكيماوية في سان مارتين دي لافيغا (في الجنوب الشرقي لمدريد)، أطلق عليه اسم "الفونصو الثالث عشر". لكن وامام ضعف الإنتاج، تم ربط الاتصال بمجموعة سطولزنبرغ Stolzenberg الألمانية، التي اقترحت تصنيع -الكبريت- بمليلية بطريقة تقليدية، تعتمد على معالجة المادة الأولية - ديجلكتول- بحمض الهيدروكلوريك. وتمت العملية بشراء أطنان من الديجلكتول، كانت الوحيدة من نوعها في العالم بأسره، وتم تهريبها من المانيا[251]. كل هذه الأنباء والمعطيات وردت في برقية عثر عليها بين وثائق رومانونس. اما عن المصنع الذي كان "إيزا" يريد بناءه بمليلية، فقد تاتّى له ذلك. فالمصنع حسب خريطة انجزتها شركة مناجم الريف للمنطقة سنة 1934 بسلم 1/ 20.000، كان يقع بموازاة الخيمة الثانية، في الكيلومتر 7,400 من الطريق المؤدية إلى الناظور، وسُمي بشكل واضح بمصنع الغازات[252].

المختفون من الجنود

بعد خمسة اشهر من وفاة سيلفستري، وبعد الاستماع إلى العديد من الأحياء، انتهى الجنرال من إعداد مستند ضخم، يتعلق الأمر بالجنرال بيكاسو الذي تطرق وبدقته المعهودة، إلى سرد وقائع الضباط الذين كانوا بأنوال يوم الثاني والعشرين من يوليوز. كان العدد الإجمالي هو مائة وأربعة وتسعين اسما، دوّن في ست صفحات، وشكلوا مقبرة.

ولنا نحن أن نتخيله هناك في مليلية، في خريف وشتاء 1921، وهو منكب على عمله يمحص الشهادات، ويوضح الالتباسات، ويدقق في النتائج، ويقرر الأفعال والتصرفات. استمع بيكاسو إلى ثمانية وسبعين رجلا وامرأة واحدة، ولا حديث إلا عن موضوع واحد، أنوال. ومن بين المُستجْوبين، كان هناك ثلاثة وخمسون ضابطا، واثنان وعشرون من الجنود والمتقاعدين، وأربعة مدنيين (لاندلوثي Landaluce، وبيردو Verdu، والمترجم الكايدي، وخوانا مارتينيث لوبيث صاحبة المطعم).

وبعد الاستماع إلى الشهادات التسعة والسبعين، انتقل بيكاسو للحديث عن الأموات، والمفقودين والأسرى، وكل أولئك الذين رجعوا، فوضع الكل في مكانه المناسب دون أن تضرب له يد. رغم انه عاش لحظات انفعال شديدة، جعلته يكتب إلى جانب الأسماء المائة والأربع والتسعين من ضحايا أنوال[253]، عبارات تخبرنا عن مصير أولئك. فكانت عبارة «ميت» التي أوردها سبع مرات، وكلمة "أسير" التي جاءت مذيلة بست ملاحظات وتعليقات، وعبارة "مفقودين" التي تكررت اثنين وسبعين مرة، وعبارة "حاضر" التي ذكرت في خمس وتسعين مناسبة.

ثلاثة عشر اسما آخر سُجل تحت عبارة غامضة تقول "لا"، والعدد كان مؤلفا من أربعة إسبان، وتسعة من الريفيين، واحد منهم على الأقل وهو ابراهيم بن لحسن، استطاع العودة إلى مليلية. كان شجاعا حيث أضفى صبغة الشرف على مهمته كمُقدّم، وكشف بعض أسرار الدراما التي وقعت عند ضفاف نهر ملوية.

واصل بيكاسو تدوين معلوماته، وهو امر قام به في كل المعسكرات التي كان بها ضباط إسبان أو مُورو. واهتم بالأساس بعدد الجنود الحاضرين يوم الثاني والعشرين من يوليوز في كل من أفراو، بوهفورة، سمار، سيدي ادريس، تزروت أوزاي، طريبن، وفي كل المعسكرات حتى الصغيرة منها. فلم يكن حجم الحصن أو المعسكر ليرمز إلى البطولة أو العار.

ونفس العملية انتهجها بيكاسو مع المعسكرات الكبيرة، كمعسكر ابن طيب الذي سجل فيه عبارة "مختفي" في حق سبعة عشر اسما، من أصل خمسة وعشرين رجلا، ثم معسكر دار الدريوش الذي سجل فيه ما بين واحد وخمسين شخصا، اثنان وثلاثون "مختفيا"، وتسعة "وفيات". وللمرة السادسة عشر، تكررت العبارة المشؤومة، عبارة "مختفي" في حق واحد وثلاثين ضابطا، كانوا بسوق الثلاثاء، وبدار الكبداني، حيث

دمرت كتيبة أراخو عن بكرة أبيها بعد استسلامها المشين. وضع بيكاسو إلى جانب اثني عشر اسما عبارة "اسير"، وأمام أربعة جنود عبارة "حاضر"، وفي حالة واحدة عبارتا "مستشفى" و"جريح". أما الأسماء الخمسة والعشرون المتبقية، فسجلت على هامشها الكلمة النحسة "مختفي". وتلك كانت حصيلة ما وقع هناك يوم الخامس والعشرين من يوليوز 1921 [254].

شهور عديدة وبيكاسو مشغول بكتابة لوائح الحزن والكآبة هاته، تسعة شهور كاملة استغرقها في تقصي الحقائق بهدف الوصول إلى معرفة مصير جيش سيلفستري، هذا الجيش الذي اختفى دون أن يترك أثرا.

كانت أعرويت هي المنطقة التي احتضنت اكبر كَمّ من جثث الجنود المحنطين، والأجساد المتآكلة. جيش من الهياكل كان مستعدا لمعارضة الحقيقة الرسمية.

ولسنتين متتاليتين، ظلت هذه الصور المخيفة تخيم على منابر مجلس النواب. وقد تسبّبت في سقوط حكومات وخلع قادة كبار وزعماء عسكريين، ووصلت حتى إلى أعلى منصب في النظام: الملك.

كان غياب الكفاح المسلح، ككفاح الجنرالات والحكومة على حد سواء، في سبيل إنقاذ قوات أعرويت، السبب في إنساب أسوأ التصورات بالجيش الألفونصي وقادته في إفريقيا. وهكذا أُبيدت الأحلام الاجتماعية والأخلاقية، التي كانت معلقة على الملكية، تلك الملكية التي تركت بأعرويت الأبواب مفتوحة على مصراعيها للجمهورية.

كان بيكاسو ومعه اغليرا Aguilera، ورفاقه: ايالا Ayala، وورومانوس Romanos، ورويث دي لافونتي Ruiz de la Fuente، من الذين يريدون معرفة الحقيقة. ومن نزاعاتهم حفظت المؤسسة العسكرية كرامتها وماء وجهها، وكذا البرلمان، الذي هو عماد السلطة الوطنية، خرج قويا. وبنفس الطاقة، انقذوا ذاكرة الجيش من الضياع والنسيان.

وفي أعرويت، ظهرت جثة الفين وستمائة وثمانية وستين رجلا، في شكل اشباح او ما شابهها. وسنة بعد سنة، وبعد تطاير كتل الغبار والوحل والثلج والحرارة، تكشف للعيان اجساد ذلك الجيش. واستمرت اللقاءات المؤثرة والعاطفية مع رفات وجثث اولئك الأشخاص، وذلك حتى حدود الحرب الأهلية الإسبانية.

هوامش الفصل السادس

1) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 22 يوليوز 1921.
2) صحيفة الصول، نشرة السبت 23 يوليوز 1921.
3) المصدر نفسه.
4) صحيفة *الصول*، نشرة الأحد 24 يوليوز 1921.
5) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأحد 24/07/1971.
6) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر شيفت" 22/07/1921.
7) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات 139-140.
8) المصدر نفسه، ص. 350.
9) المصدر نفسه، ص. 595.
10) *تاريخ الحملات*... الجزء الثالث. ص. 466.
11) ملف الكولونيل اراوخو المصنف، ا-1993 لم يظهر في الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه
12) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد ا-2077.
13) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 355.
14) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
15) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، أ-2077. الملف الشخصي للكومندان، ا فرنانديث مارتينس، الذي يتضمن الحكم ضده "بتهمة الإهمال" المنسوبة إليه من طرف المحكمة، التي أدانت كذلك القبطان أراوخو بسبب مجرى الأحداث الواقعة في 23/07/1921.
16) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
17) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 156.
18) بريث أورتيث، إ، المصدر السابق نفسه، ص. 30.
19) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 479.
20) المصدر نفسه، ص. 484.
21) المصدر نفسه، ص. 156-157.
22) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تقدم الملازم -ريوس غارسيا- يوم "26 غشت 1921" بدعوى ضد هذه الأحداث، فامتثل أمام هيئة الجنرال بيكاسو. ولم تعرف النتائج.
23) غارسيا فيغراس وإرنانديث إريرا، نفس المصدر السابق، ص.351.
24) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)،ص. 480.
25) المصدر نفسه، ص. 160.
26) نتابع هنا تحركات فرق الجيوش النظامية -التي دونت في 29 ورقة- بتحريض من قائدها الجديد، الكولونيل إميليو فرنانديث بريث يوم 20 أبريل 1922 وذلك أملا في الحصول على الوسام الجماعي، وحدث وانتهى الأمر بهذه الوثيقة إلى أرشيف بيكاسو. بعد أن مرت بيد برنكر وميي Mille، ص. 482.

27) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 482.
28) المصدر نفسه، ص. 163.
29) المصدر نفسه، ص. 515 و516.
30) ثيريثو، ريكاردو، *القوات المسلحة الإسبانية في القرن xx*، دار النشر الغرب، مدريد 1983. المجلد 3. الجزء I ص. 109-112.
31) عرفوا باسم "العشيرة، لحملهم اسم العشائر المعروفة داخل الإمبراطورية. جيورجيني جيورجيو، *تاريخ البحرية*، في 9 أجزاء، دار النشر، فابري، ميلانو، 1978. الجزء 8. ص. 322.
32) المصدر نفسه، ص. 325-331.
33) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 278، تم رفض ذلك العرض الإنجليزي المغري، وكذلك عرض إيطاليا التي تقدمت "ببيع بواخر سريعة، ومسلحة بأثمنة جد بخسة".
34) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 128.
35) برنكر، د، نفس المصدر السابق، ص. 89.
36) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
37) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 55.
38) المصدر نفسه، ص. 5.
39) *صحيفة الليبرال*. نشرة الأحد 24/07/1921.
40) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 9/442 محاضرة 24 يوليوز على الساعة الواحدة واربعين دقيقة.
41) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
42) *صحيفة الليبرال*، نشرة الأحد 24/07/1921.
43) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 464.
44) المصدر نفسه، ص. 567.
45) المصدر نفسه، ص. 465-511.
46) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم ريكاردو فريسنو أورسايس (يوم 8 دجنبر 1921)، في الصفحة 1.856 ضمن تقرير بيكاسو الأصلي وحسب أقوال فريسنو، كان خمينس أرويو مسافرا في ذلك القطار، الشيء الذي يتعارض مع شهادة القبطان روانو.
47) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 16 نونبر 1921، ص. 4196.
48) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 132.
49) المصدر نفسه، ص. 6.
50) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، محضر حول "فظاعات المورو" مخطوط في 49 صفحة، مجموعة المستشارين الحقوقيين التابعين للجنرال بيكاسو. وتم إرسال هذا المحضر لبرنكر في شتنبر 1921، ص. 8، 31، 37.
51) حسب النظام العام للجيش في إفريقيا، الصادر يوم 6 غشت 1924، تم تحديد موقع هيغيل بريث ريفيرا المدافع السابع، في البوثو رقم 2.
52) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى العدد، 1-2206.
53) الأوامر العامة للجيوش بإفريقيا، والتي أصدرت يوم 6 غشت 1923، بالحاح من مليلية، 27 يوليوز.

54) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة، ا-2206.
55) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر بوحفورة" 22/07/1921.
56) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 144.
57) *تاريخ الحملات*...، الجزء III، ص. 462.
58) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
59) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 144.
60) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم روكي رييج فالرينو، المدون في الورقة 1.191 في تقرير بيكاسو.
61) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، تصميم خطي لبيكاسو. انظر الملحق.
62) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم رييج الورقة 1191 (تقرير بيكاسو).
63) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة، إ-1213.
64) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 19 غشت 1921.
65) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 227.
66) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر السمار" عدد الجنود في 22 يوليوز.
67) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 226. كانت البطاريات من هذا النوع، ولأنها كانت تتكون من قطعتين اثنتين. فإنها كانت تحتاج إلى "35 رجل وضابط واحد"، فإذا ما اجتمعت ست قطع أخرى كانت الحاجة ماسة "إلى خمس ضباط و152 رجلا مزودين بـ 132 دابة" ذكر هذا "لاريا ليسو فرانثيسكو" في كتابه *التنظيم العسكري لإسبانيا*، مطبعة ووراقة، ارملة وابناء بلايس، طليطلة 1893، ص. 381.
68) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) القائد ماريو إدالغو إدالغو. الورقة 849 من تقرير بيكاسو.
69) نفس المصدر، (ت.م) للجندي آنخيل طورس بريث (13شتنبر1921)، الورقة 849 من تقرير بيكاسو.
70) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، م-856، آراء حول الأحكام المنافية لمنح النجمة للملازم ماركو مير.
71) ا-خ-ك-ي-ل، (ت.م) القائد ماريو إدالغو (تقارير بيكاسو).
72) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد، م-562.
73) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحة 542، و(ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث)، (ت.م) للقائد ماريو إدالغو المندرج ضمن (تقارير بيكاسو).
74) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 573.
75) (ت.م) للقبطان مانويل بريث طورس (14 شتنبر 1921)، الورقة 885 المندرجة ضمن تقارير بيكاسو.
76) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد م-562.
77) مير برلنغا، فرانثيسكو، *عبق التاريخ، مليلية. 1992*. (الفصل 19 ص. 265-267، وكذلك محادثات مع سنتياغو دومينكز يوما، يونيو 1997
78) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، إ-1213.
79) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر إنطرمديا ا" يوم 23 يوليوز 1921.
80) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 116.
81) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

82) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد إ-1213.
83) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للملازم روكي رييج فالرينو (اكتوبر 1921) الورقة 1191 المندرجة ضمن تقرير بيكاسو.
84) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد، م- 1213، ص. 4، فتاوى سابقة.
85) حالة "إسكريبانو" التي تمخض عنها إعداد عرض تراسه الجنرال ميي، ووافق عليه المجلس الأعلى للحرب والبحرية (الذي كان عضوا فيه). ميي رفض كل تلك الرسومات الجبائية التي فرضت يوم 22 مايو 1924. (الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه) المجموعة إ-1213 ص. 6 (من توجيهات)، و1-2 (من العرض المجهز).
86) المصدر نفسه، ص. 5 من نفس التعليمات.
87) بريث سيفيا ايالا، ذكريات لا تنسى، مطبعة الأكاديمية الحربية، شيقوبية، ص. 54.
88) محادثات مع سانتياغو دومينكز يوسا، يوليوز 1997.
89) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، حسب بيكاسو، كان هناك 41 ضابطا ومعهم أراوخو، لكن هذا الضابط الواحد والأربعين لم يتم التعرف عليه.
90) نفس المصدر والصفحة، مراجعة المحاضر التحقيقية التي كتبت ضد الكولونيل سيلفستري، يوليوز 1924. ويوم 2 مارس 1925 تم النظر كليا في هذه المحاضر التي كانت مكونة في الأصل من 95 صفحة، ثلاث -منها بخط اليد- ذيلت بالعديد من الملاحظات بخط بيكاسو، ص. 15.
91) المصدر نفسه، ص. 18.
92) المصدر نفسه، ص. 25-26.
93) المصدر نفسه، ص. 28.
94) المصدر نفسه، ص. 28.
95) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، الصفحات، 210-211.
96) المصدر نفسه، ص. 208-212.
97) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "دعوى ضد الكولونيل اراوخو"، ص. 30.
98) المصدر نفسه، ص. 29.
99) المصدر نفسه، ص. 34.
100) المصدر نفسه، ص. 34-38.
101) المصدر نفسه، ص. 38-51.
102) المصدر نفسه، ص. 39.
103) المصدر نفسه، ص. 40-72. أسماء شخصية وعائلية استخرجت من لوائح كانت في أرشيف بيكاسو وتعود إلى "معسكر دار الكبداني" لـ 22 من يوليوز.
104) المصدر نفسه، دعوى ضد الكولونيل أراوخو ص. 32.
105) المصدر نفسه، ص. 45.
106) المصدر نفسه، ص. 47.
107) المصدر نفسه، ص. 61.
108) المصدر نفسه، ص. 53-69-72.

109) المصدر نفسه، ص. 56.
110) المصدر نفسه، ص. 52-71.
111) المصدر نفسه، ص. 71.
112) المصدر نفسه، ص. 56-57.
113) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، دعوى ضد الكولونيل أراوخو. ص. 73.
114) فرانكو-سلغادو اراوخو، فرانثيسكو، *حياتي بجوار فرانكو*. دار النشر بلانيطا. برشلونة 1977، ص. 57.
115) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 357.
116) المصدر نفسه، ص. 356-357.
117) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "*دعوى ضد الكولونيل اراوخو*"، ص. 18.
118) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، الصفحات 204-205.
119) نشرت هذه الرسالة للكولونيل اراوخو في جريدة *ا-ب-سي* من لدن غريغوريو كوروشانو، بعد ان اخذ إذن برنكر.
120) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "دعوى ضد الكولونيل اراوخو"، ص. 82.
121) *صحيفة ا-ب-سي*، 28/07/1921.
122) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للكومندان رافاييل سانس غارسيا 18اكتوبر 1921 المدون على الورقة 1354 و1382 والمدرج ضمن تقارير بيكاسو.
123) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، كان عدد الجنود المتواجدين بالمعسكرات الأربعة والعشرين لمعسكرات سوق الثلاثاء قد ارتفع إلى1873 (54 ضابطا و1819 جنديا).
124) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 127.
125) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 365.
126) المصدر نفسه، ص. 239.
127) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للطبيب البيطري خوصي مونطيرو مونطيرو (07/10/1921) والمدون على الورقة 1.242 والمدرج ضمن تقرير بيكاسو الأصلي.
128) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 239.
129) المصدر نفسه، ص. 240.
130) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، اسماء تم الحصول عليها انطلاقا من لوائح جمعها بيكاسو من "معسكر سوق الثلاثاء" يوم 22 يوليوز.
131) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا رسالة من فرنانديث طماريت للجنرال سيلفستري بتاريخ، سوق الثلاثاء 16/05/1921 ص. 3-5.
132) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 240.
133) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، خريطة وتوقيع بيكاسو، انظر الملحق.
134) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) الصفحات 253-254.
135) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "معسكر تزروت أوزاي" 22 يوليوز.
136) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 243.

137) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للطبيب البيطري خوصي مونطيرو مونطيرو (1921/10/04) الورقة رقم 1242 والمدرجة ضمن تقرير بيكاسو الأصلي.

138) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 600.

139) كل اسماء هؤلاء الضباط، مصدرها اللوائح الصادرة عن "معسكر سوق الثلاثاء، والتي عمل بيكاسو على مراجعتها وتنقيحها.

140) أحسن دراسة أنجزت حول الأحداث، هي تلك التي تعود لدومينكز يوسا سانتياغو وخيل روييث، سرفيانو ب، *سوق الثلاثاء الفاجعة الأخرى*، 1992، ص. 112-122.

141) المصدر نفسه، ص. 246.

142) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للطبيب البيطري مونطيرو. الورقة 1.242 للتقرير الأصلي لبيكاسو.

143) المصدر نفسه (ت.م) للملازم كولونيل غارسيا إسطيبان (18-22 غشت 1921) الورقتين 202 و209 للتقرير الأصلي لبيكاسو.

144) رسالة بيكاسو إلى لاثيربا بتاريخ 9 نونبر 1921.

145) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 9/442 مكالمة هاتفية جرت بين إيزا-برنكر على الساعة 15،20، يوم 1921/08/09.

146) ملخص هذه الرسالة الموقعة حصل عليها الكاتب بفضل بلاس بروطو كامبو، حفيد الجندي الذي كان بالجزر الجعفرية.

147) برنكر، د، المصدر السابق نفسه. ص. 91.

148) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 9/442، مراسيم تم الاحتفال بها بين برنكر ومساعديه، بحضور إيزا وذلك على الساعة الثانية عشرة وخمسة وأربعين دقيقة، بتاريخ 1921/07/24.

149) المصدر نفسه، مكالمة هاتفية بين إزا-برنكر على الساعة 05،14 بتاريخ 1921/07/24.

150) المصدر نفسه.

151) *صحيفة الليبرال*، نشرة الثلاثاء 26 يوليوز 1921.

152) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 9/442 حوار تلغرافي بين إيزا وبرنكر على الساعة 05،14 بتاريخ 24 يوليوز.

153) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 125.

154) المصدر نفسه، ص. 124.

155) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 9/442، بهذا يجزم برنكر إلى إيزا -في محادثة هاتفية جرت يوم 26 يوليوز على الساعة 15،15- حينما تحدث له عن "قصف" البارجة.

156) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) خكوب فراشي (1921/09/09) الورقة 676 المدرجة ضمن (تقارير بيكاسو الأصلي).

157) عن النص الأصلي وما سبق من تقديم النجمة للقائد المكلف بعشرة جنود، السيد غارسيا. *ابطال إسبانيا*، المصدر السابق نفسه. ص. 893.

158) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 275.

159) المصدر نفسه، ص. 280.

160) المصدر نفسه، ص. 279.

161) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث (ت.م) للقبطان بيو فرنانديث موليرو (ليوم 4 اكتوبر 1921) الورقة 1184 المدرجة ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.

162) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للقبطان فرنانديث موليرو المدرج ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو، بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 288.

163) المصدر نفسه، ص. 289.

164) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للقبطان فرنانديث موليرو.

165) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للقبطان خوصي غارسيا مونيوث (6 اكتوبر 1921) الورقة 1225 المدرجة ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.

166) إريرا الونصو، إميليو، كولونيل. "الطيران عند الانسحاب من انوال". مجلة، *تاريخ الملاحة الجوية*، رقم 9، نونبر 1991. ص. 22، وحسب اقوال "إريرا" كان فرنانديث موليرو هو آخر من وصل من الريابنة "وذلك لأنه تخلف عن الركب بنصف ساعة"، وتجدر الإشارة إلى أن الملاحظات الأولى والتي دونت في مذكرة المناوشات الجوية لسرب طائرات مليلية تنطبق على بلاغات 1921/07/29، مع غياب صفحتي اليومين السابقين. الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية المجموعة، أ 1 /5.

167) (ت.م) للقبطان خوصي غارسيا مونيوث.

168) المصدر نفسه (ت.م) للقبطان فرنانديث موليرو.

169) ارشيف سانتياغو دومينكز يوسا، "مذكرة العمليات لقيادة المهندسين بمليلية" يوليوز- غشت 1921، ص. 4.

170) المصدر نفسه، ص. 6.

171) بريث أورتيث، إ، نفس المصدر السابق، ص. 78.

172) (الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية) مذكرة العمليات، 29 يوليوز المجموعة، أ 4 /5.

173) *صحيفة الصول*، نشرة الثلاثاء 2 غشت 1921.

174) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 9 /442 البرقية المسجلة تحت رقم 8112.

175) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو) ص. 183.

176) المصدر نفسه، (تقارير بيكاسو)، ص. 183.

177) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة 1921/08/04.

178) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 63.

179) بريث أورتيث، إ، نفس المصدر السابق، ص. 86.

180) المصدر نفسه، ص. 79.

181) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للمترجم انطونيو الكايدي لينارس (10-11 اكتوبر 1921) المدون على الأوراق 1.282-1.302 والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو (ت-ا-ب).

182) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، العدد ا 1 /5.

183) *صحيفة الصول*، عدد الخميس 1921/08/04.

184) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، العدد، ا 1 /5.

185) بريث أورتيث، إ، نفس المصدر السابق. ص. 99.

186) المصدر نفسه، ص. 84.
187) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، بنصف دائرة بالقرب من أعرويت كان مجرى نهر "كبايو" يزود المنطقة بالماء انطلاقا من منبعين الأول وقد ذكرناه، أما الثاني فقد كان فريسة لرصاص الريفيين.
188) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9، محادثة هاتفية جمعت بين إيزا وبرنكر يوم 1921/07/27 على الساعة 10:00.
199) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9.
190) بيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 64.
191) أ-م.أ-م، المجموعة 442/9 - محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 1921/07/31 على الساعة الثامنة وخمسة عشر دقيقة.
192) صحيفة *الصول*، نشرة الأربعاء 3 غشت 1921.
193) صحيفة *الزمن (لا إيبوكا)*، عدد الثلاثاء 1921/08/02.
194) لوكي أغوستين *"إزاء الكارثة"* في جريدة *الصول*، عدد الخميس 4 غشت 1921.
195) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 61.
196) بيانات وثائقية... (تقارير بيكاسو)، ص. 537.
197) المصدر نفسه، ص. 281.
198) المصدر نفسه.
199) صحيفة *أ-ب-سي*، عدد الأربعاء 1921/07/27.
200) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.
201) المصدر نفسه، ص. 9.
202) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 442/9 محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 2 غشت 1921 على الساعة الثامنة وعشرة دقائق.
203) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.
204) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتنينتي كولونيل فرانثيسكو باردو أغودين (1921/08/20) المدون على الورقة 261 (للتقرير الأصلي لبيكاسو).
205) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 62.
206) الوثائق... (تقرير بيكاسو) ص. 285.
207) المصدر نفسه، ص. 270.
208) المصدر نفسه، ص. 273.
209) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للجندي خوان غامس أوريا (22 شتنبر 1921) المدون على الورقة رقم 992. لتقرير بيكاسو.
210) الوثائق... (تقارير بيكاسو) ص. 271.
211) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "فظاعات المورو" ص. 18/ 19.
212) صحيفة *الليبرال*، عدد السبت 1921/08/06.

213) ا-م-ا-م، العدد 442/9 محادثة بين إيزا وبرنكر يوم 03 غشت 1921 على الساعة 20:35.

214) المصدر نفسه، مكالمة هاتفية بين إيزا وبرنكر يوم 04/08/1921 على الساعة 09:10.

215) البيانات... (محاكمة برنكر) الصفحة 64. اما ألفونصو الثالث عشر فقد وصل إلى مليلية يوم 6 غشت، وكان معه على ظهر السفينة حشد من رجال المدفعية وكم من الذخيرة.

216) بريث أورتيث، إ، المصدر نفسه، ص. 99، والخامس والسادس من مقدمة الكتاب الذي الفه.

217) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 69 و70.

218) اثانيا، مانويل، في *الأعمال الكاملة*، طبعة خوان ماريشال، دار النشر لوازيز. المكسيك 1966، الجزء الأول، ص. 517، في الفصل المعنون بـ"مذكرات الحرب".

219) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.

220) المصدر نفسه، ص. 8/9.

221) برنكر، د، المصدر السابق نفسه. ص. 248/249.

222) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 60.

223) المصدر نفسه، ص. 86/87.

224) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9.

225) برنكر، خ، المصدر السابق نفسه، ص. 73.

226) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 8.

227) بريث أورتيث، إ، المصدر السابق نفسه. ص. 84.

228) وهذا ما تم تاكيده في *صحيفة لاكورسبونديثيا دي إسبانيا*، في نشرة الخميس فاتح دجنبر 1921، فيما يتعلق "بالرواية الماساوية لواحد من الأحياء" وهو ما أوردناه هنا بتحفظ.

229) بريث أورتيث، إ، المصدر السابق نفسه، ص. 135.

230) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "قطاعات المورو" ص. 8-9. هناك إشارة إلى "بيوت Boyut تليتي دي لاكطورثي ميا، الذي صوب النار في ذلك الاتجاه (اعرويت، وعمل على نهب ازغنغن).

231) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9.

232) المصدر نفسه، محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 09 غشت1921 على الساعة 20:15.

233) المصدر نفسه، محاضرة جرت يوم 10 من غشت على الساعة الثامنة وأربعين دقيقة.

234) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 442/9. التلغراف رقم 11.247.

235) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث،(ت.م) لأنطونيو الكايدي لينارس 10/10/1921، المدون على الورقة رقم 1282/1302 والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.

236) *ابطال إسبانيا*: المصدر السابق نفسه، الفصل XXVII، ص. 864.

237) بريث دي سيفيبا إي آيالا، ف، نفس المصدر السابق. ص. 97-98.

238) فرقة كاسادو ريس دي الكانطرا، ملخص عمليات هذه الفرق خلال شهر يوليوز 1921. مليلية. مطبعة ريخمينطو، 1923. ص. 5/1.

239) فيفيرو، أ، المصدر السابق نفسه، ص. 236.

213) ا-م-ا-م، العدد 9/442 محادثة بين إيزا وبرنكر يوم 03 غشت 1921 على الساعة 20:35.
214) المصدر نفسه، مكالمة هاتفية بين إيزا وبرنكر يوم 04/08/1921 على الساعة 09:10.
215) البيانات... (محاكمة برنكر) الصفحة 64. اما الفونصو الثالث عشر فقد وصل إلى مليلية يوم 6 غشت، وكان معه على ظهر السفينة حشد من رجال المدفعية وكم من الذخيرة.
216) بريث أورتيث، إ، المصدر نفسه، ص. 99، والخامس والسادس من مقدمة الكتاب الذي الفه.
217) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 69 و70.
218) اثانيا، مانويل، في *الأعمال الكاملة*، طبعة خوان ماريشال، دار النشر لوازيز. المكسيك 1966، الجزء الأول، ص. 517، في الفصل المعنون بـ"مذكرات الحرب".
219) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 8.
220) المصدر نفسه، ص. 8/9.
221) برنكر، د، المصدر السابق نفسه. ص. 248/249.
222) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 60.
223) المصدر نفسه، ص. 86/87.
224) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442.
225) برنكر، خ، المصدر السابق نفسه، ص. 73.
226) البيانات... (محاكمة برنكر) ص. 8.
227) بريث أورتيث، إ، المصدر السابق نفسه. ص. 84.
228) وهذا ما تم تأكيده في صحيفة *لاكورسبونديثيا دي إسبانيا*، في نشرة الخميس فاتح دجنبر 1921، فيما يتعلق "بالرواية المأساوية لواحد من الأحياء" وهو ما أوردناه هنا بتحفظ.
229) بريث أورتيث، إ، المصدر السابق نفسه، ص. 135.
230) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "قطاعات المورو" ص. 8-9. هناك إشارة إلى "بيوت Boyut تليتني دي لاكطورثي ميا، الذي صوب النار في ذلك الاتجاه (أعرويت، وعمل على نهب ازغنغن).
231) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442.
232) المصدر نفسه، محادثة تلغرافية بين إيزا وبرنكر يوم 09 غشت1921 على الساعة 20:15.
233) المصدر نفسه، محاضرة جرت يوم 10 من غشت على الساعة الثامنة واربعين دقيقة.
234) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، المجموعة 9/442. التلغراف رقم 11.247.
235) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث،(ت.م) لأنطونيو الكايدي لينارس 10/10/1921، المدون على الورقة رقم 1282/1302 والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو.
236) *ابطال إسبانيا*، المصدر السابق نفسه، الفصل XXVII، ص. 864.
237) بريث دي سيفيبا إي آيالا، ف، نفس المصدر السابق. ص. 97-98.
238) فرقة كاسادو ريس دي الكانطرا، ملخص عمليات هذه الفرق خلال شهر يوليوز 1921. مليلية. مطبعة ريخمينطو، 1923. ص. 5/1.
239) فيفيرو، ا، المصدر السابق نفسه، ص. 236.

240) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، (ت.م) للتنينتي فيليب بنيا مارتينيث والمصنف ضمن التقرير الأصلي لبيكاسو. وقد تمكن بنيا من العودة إلى مليلية يوم 14 غشت.

241) المصدر نفسه، (ت.م) للمترجم أنطونيو الكايدي.

242) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 9/442.

243) المصدر نفسه، بلاغات جديدة تبادلها كل من برنكر وإيزا يوم 11 غشت 1921 على الساعة التاسعة وواحد وأربعين دقيقة.

244) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، المجموعة 1 4/5 ص 3.

245) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 9/442، إيزا وبرنكر في محادثة هاتفية انتهت على الساعة التاسعة وأربعون دقيقة ليوم 11 غشت 1921.

246) المصدر نفسه، محادثة هاتفية جمعت كل من إيزا وبرنكر يوم 12 غشت 1921 على الساعة الثامنة وخمسين دقيقة.

247) لوستيجن الساندرو، *تأثيرات غازات الحرب*، ترجمة م. بيتلوغا، دار النشر إسباسا كالبي. مدريد 1935. ص. 49/ 70 و76/ 78.

248) مذكرة الجلسات البرلمانية، مداخلة سولانو في جلسة الخميس 20 اكتوبر 1921 (صفحة 3684) ومداخلة كرسبو دي لارا يوم الخميس 17 نونبر من نفس السنة (ص. 4.238).

249) مذكرة الجلسات البرلمانية، المصلحة المغربية، المجموعة 8، دفاتر 2.

250) المصلحة التاريخية العسكرية، القوات العسكرية في المغرب، المجموعة 79، دفاتر 7.

251) ارشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ، مصنفات رومانونيس. المجموعة -6 الملحق 9.

252) (جمعية الدراسات الخاصة بمليلية).

253) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، التقرير حول "أنوال" ملخص لكل الشهادات التي عاينت الأحداث التي وقعت بهذه المقاطعة وبالمعسكر الذي يحمل هذا الاسم، 35 صفحة. و3 صفحات في فهرس الإيضاحات.

254) المصدر نفسه، لوائح الأحياء والأموات الحاضرين في مليلية في كل موقع ذكرناه سابقا.

◆ ◆ ◆

الفصل السابع
إسبانيا بيكاسو

حكومة جديدة و مشكل متجدر

أحيى الحاكم الجديد **انطونيو ماورا** Antonio Maura، تحمسات قديمة كانت مؤسساتية أكثر مما هي شعبية. حكم ماورا البلاد في ظروف جد معقدة، ولأربع مرات 1903-1904/ 1907-1909/ 1919 و1918. لكن الصعوبات تجسدت وبالخصوص في المرحلتين الثانية والثالثة.

فبعد اختفاء **سغاسطا** Sagasta **وسيلفيلا** Silvela، اصبح **ماورا** زعيما للمحافظين. وكان بإمكانه ان يمثل النظام وبشكل فعّال، خاصة بعد غياب الليبرالي **كانلخاس** Canalejas سنة 1912. لكن المعارضة المزدوجة، التي أعرب عنها كل من "رومانونيس" و"داتو"، والتي كانت أقوى بكثير، حالت دون تطبيق نموذجه الأخلاقي الفاضل، الذي رسمه لحكومة كانت مناسبة لإسبانيا.

وهكذا، نشأ ما اصطلح عليه "بالموريسمو" Maurismo، وهي تجربة وضعت الشجاعة والقناعة على المحك، فلم يكتب لها النجاح الرسمي، وإن كانت قد حققت تفوقا اخلاقيا ومعنويا. ان تكون ماوريستيا، هذا أمر كان يعادل الشرف داخل إسبانيا الألفونصية. ولم يكن "ماورا" يتوقع أبدا أن ينادي عليه الملك مرة أخرى. لكن الملكية في غشت 1921، كانت في حالة يتم، بلا ولي ولا وصي على الحكومة. فإما ماورا أو الديكتاتورية العسكرية.

أما وزير الحربية الجديد، خوان دي لاثيربا وبنيفييل Juan de la Cierva y Peñafiel، فقد كان رجلا محافظا راديكاليا ومثابرا. نال درجة الدكتوراه، وعمل برلمانيا سنة 1894

بتعيين من مجلس بمرسية وطنه الأم. فشغل كل تلك المناصب التي لها علاقة بالدفاع عن النظام، مرورا بمنصب الحاكم المدني ووصولا إلى وزير الداخلية ثم وزير الحربية.

كان خوان دي لاثيريا رجلا لطيفا وخدوما مع كل من يحبهم ويقدرهم، وفظا عدوانيا مع كل من يكرههم. هكذا كان خوان دي لاثيريا، سبع وخمسون سنة، رجلا يكره النفاق.

كما انه كان مخلصا للملك، محبا له أكثر من إخلاصه للملكية -عكس ماورا- شاءت الأقدار أن يكون الرجل الحديدي، لكنه اخفق في أن يكون كذلك في المكان المناسب، أي إزاء الوضعية العسكرية. كما أنه كان مثقفا وسخيا في أفعاله، شحيحا في أفكاره، عبوسا لا يرضى بالنفاق. فكانت تصرفاته سببا في موجة من الانتقادات، التي وجهت إليه داخل البرلمان، فكان يجابهها بأسلوبه المتحدي والدرامي.

روح حماسية مثلت أفضل تطلعات الملكية

العوائق التي تصدت لتحقيقات بيكاسو

فتح إيزا خزانة المستندات السرية، كان قعرها مظلما، وعلى بابها كتب العنوان التالي: مديرية الجيش الإفريقي. لم يعرف أحد اسم المرسل إليه الذي بقي مجهولا. وبالضبط بعد صدور تعليمات سامية يوم الرابع والعشرين من غشت، تعليمات سلطت الضوء على جواب "لاثيريا" لبرنكر الذي بدت توتراته واضحة. وبمقتضى هذا الجواب، أعفيت القيادات العليا من إجراء التحقيق. ونفس الإنذار، تكرر يومه الواحد من شتنبر، وفيما بعد وردت مذكرة ثالثة تؤكد على ضرورة عدم خضوع الإقامة العامة لأي نوع من التحريات أو التحقيقات. وجاء هذا في برقية شخصية وسرية بعث بها لاثيريا إلى بيكاسو يومه السادس من شتنبر، وفحوى البرقية هو كالتالي: «بالرغم من ان الوزير يريد أن تُحاكم هذه الأحداث الكئيبة بنوع من الإنصاف والوضوح والشمولية الكافية (...)، إلا انه يبدو أن الوقت قد حان لوضع كل المعلومات التي جُمعت، أو تلك التي سنحصل عليها رهن إشارة التحقيق القضائي. والهدف هو، (...) إعداد محاضر لها خصوصياتها. وعلى القاضي المعني بالأمر، أن يخبر المقيم العام بتفاصيل كل قضية على حدة، ويُرفقها بالشهادات التي أدليت في حقها. وعلى المقيم العام كذلك، وبعد

اطلاعه على المحاضر، ان يعين (بصفته جنرالا) رئيس القضاة الضروريين...»[1].
ساهمت هذه البرقية بالرغم من تحفظها وسريتها، في جعل اللامشروع قانونيا امرا طبيعيا ورسميا. وسنة 1922، جاء في محضر برنكر ان هذا النص يفتقر إلى مقومات المرسوم الملكي، ليس فقط لأنه يفتقر إلى الشكل الخارجي المميز لنص المرسوم، ولكن بالضبط لأن صفة السري التي كُتبت في النص الأصلي بحروف مائلة، جعلته يفقد الشرط الأساسي لكل نص تشريعي[2].

وبتلقي بيكاسو لهذه البرقية التي تفتق إلى الأسلوب والمنهجية، ثار بشدة واغتاظ من فحوى الرسالة التي كان لاثيريا اشار إليها بتاريخ الرابع والعشرين من غشت في رد له على بيكاسو، ذاكرا له موضوع الصعوبات التي جاءت في رسالته. هذا واعرب الجنرال عن معارضته للوزير، الذي امره بإعداد تحقيق حكومي يشمل كل الحجج التي وردت في حق موضوع الجيش الإفريقي، وذكر ان اي إخفاء او بتر للحقائق، سيجعله يرفض معرفة كل ما فعلته او لم تفعله القيادات العليا. وهدأ لاثيريا من روع بيكاسو قائلا، «يُستحب ان يكون التحقيق في هذه الأحداث كاملا وشاملا، حتى لا تبقى هناك ثغرات في هذه التراجيديا الكبيرة، التي تسببت في العديد من الأضرار لإسبانيا في مختلف مؤسساتها»[3].

ومن مليلية، يومه الأربعاء الواحد والثلاثين من غشت، تحدث بيكاسو إلى لاثيريا بعزيمة شفافة، فقال، «لقد تحملت تبعات هذا التكليف، فتصديت له بإصرار يفوق كل قدراتي، وقد جعلت الصبر سلاحي، واعترف انني عزمت وبطريقة متعمدة ان اقحم في الأمر القيادات العليا، وان اتحدث عنها لمكانتها وسمعتها من جهة، ولأن هذا مكسب قضائي. فإن حدث وان حذفت عبارة او اخفيت حقيقتها، فهذا في رايي من باب الملاطفة (عبارة كتبت بين عارضتين في النص الأصلي). ولهذا اتخذت من الأحداث المأساوية والمعبرة لأبران، نقطة انطلاق لأبحاثي»[4].

واوضح بيكاسو ان اولى التعليمات السامية التي أصدرها إيزا يوم الرابع من غشت، سمحت له، وتماشيا مع روح الفصل سبعمائة واثنان وستون المنظم لقانون الحرب، برصد كل الأسباب والأحداث التي اسهمت في تشكيل كل التداعيات التي طرات في ذلك الميدان. اما عن التعليمات الثانية التي صدرت من لاثيريا يوم الرابع والعشرين من غشت، فقد قال عنها، «مع كل احتراماتي، فهذا أمر لا يتناسب مع تصوراتي، فثمة

تناقض كبير في الأمر...». وفيما بعد، اخبر الوزير بأنه من تمام الدقة، ربط كل تلك المسؤوليات بالأحداث العرضية، التي جاءت نتيجة حتمية وطبيعية لجملة من الأخطاء والإخفاقات التي ارتكبتها القيادة.

كان بيكاسو واضحا جدا كما هو معتاد. ومع ذلك، وبعد إدراكه لنوعية المستنقع الذي يتخبط فيه، ترك للاثيريا حرية إعفائه من المهمة التي كُلف بها، فذكر: «وبغض النظر عن كل الأمور، اظن انه من واجبي الحضور، وتلبية الدعوة التي وجهت إليّ يوم الخامس من شتنبر، لحضور جلسات اللجنة الاستشارية للجمعية الأممية التي أمثلها كطرف معني بالأمر، فربما يساعد هذا في إيجاد حلول اخرى تتناسب وتصوراتكم. حلول سأحترمها مسبقا»[5].

وبتخوف لاثيريا من استقالة بيكاسو، أصدر مرسوما ملكيا آخر بتاريخ ستة شتنبر، وبعث بمضمونه مسبقا في رسالة أُرسلت في الواحد من شتنبر إلى الجنرال، جاء فيها: «إذا ما نحينا جانبا وبشكل قطعي كل ما له علاقة بالقيادات العليا، اي بالمقيم العام، فإن تقييم تصرفات كل المسؤولين وبدون استثناء، تدخل في دائرة اختصاصك (أي من اختصاص بيكاسو)». وعاود بيكاسو قراءة هذه الزلات المتكررة. فقرر عدم الاستقالة، والبحث عن الحقيقة بأسلوبه وطريقته[6].

رجل حرب فريد من نوعه

ولد خوان بيكاسو غونثاليث Juan Picasso González، بمالقة يوم الثاني والعشرين من غشت 1857، واقترن اسمه ببابلو رويث بيكاسو Pablo Ruiz Picasso، الرسام الشهير الذي كانت تربطه به رابطة دم.

يعود نسب عائلة بيكاسو إلى إيطاليا، وبالضبط إلى مدينة سوري Sori، الواقعة على ضفاف البحر الأدرياتيكي. وإلى هناك يرجع أصل طوماسو بيكاسي Tommaso Picassi المزداد سنة 1787، وبعده بيكاسو الذي عقد قرانه على السيدة ماريا غواردينيو María Guardeño، التي كانت تنتسب إلى مالقة. وسنة 1851، توفي بيكاسو الأول تاركا ولدين وهما فرانثيسكو Fransisco وخوان باوتيستا بيكاسو غواردنيو Juan Bautista Picasso Guardeño، اللذان بفضلهما تشعبت جذور العائلة، وامتدت لتشمل الأرجنتين، وإسبانيا وإيطاليا.

تزوج خوان باوتيستا بيكاسو من دولوريس غونثاليث سوطو Dolores González Soto، فرزقا بستة أبناء وهم: ترينيداد Trinidad، دولوريس Dolores، إولاليا Eulalia، اديلا Adela، خوان Juan واميليا Amelia. وهذا الذكر الوحيد، هو من صار فيما بعد جنرالا شهيرا.

تزوجت ماريا María إحدى بنات فرانثيسكو بيكاسو، من خوصي رويث بلاسكو Blasco Ruiz José، فمنيا بولد سمي بابلو رويث بيكاسو، ولمدة أربعة وعشرين سنة، تعايش بابلو رويث وخوان بيكاسو. وبين العم وابن الأخت، كانت تسود مشاعر الألفة والود، خاصة بعد ان فرق الزمان بينهما، فرحلت عائلة رويث بيكاسو إلى مالقة، ومن هناك إلى كورونيا ثم إلى برشلونة، وانتهت الجولة بباريس حيث استقر بابلو. اما عائلة بيكاسو غونثاليث، فقد ساقها الزمان إلى غرناطة، وبعدها إلى مدريد. وكل ما عرف عن الجنرال بيكاسو سنة 1921، انه كان عضوا بالمجلس الأعلى، وانه كان يتباهى بنجمة سان فرناندو، التي ظفر بها في إحدى المناسبات العصيبة، حيث كانت مليلية محاصرة من طرف اهالي الريف.

كان بيكاسو شديد الولع بالجياد، وكان فارسا مغوارا. وسنة 1876، وعن سن تناهز الثامنة عشر ربيعا، ولج اكاديمية الأركان الحربية، وهي هيئة سمحت له بصقل مواهبه، فسجل اسمه في تخصص غريب بالنسبة لبلد يُعتبر ذا توجه عسكري محض. وبحصوله على حق ركوب مطية، (تكلفت الوحدة المختصة بتغطية كل مصاريفها)، منح بيكاسو الحصان برينثبي (الأمير)، الذي سلمه له الكولونيل غيرمو إريارطي Guillermo Iriarte، يوم التاسع من اكتوبر 1893. ورفقته خرج في دورية هائلة، تصدت لها نيران الحركة، عند جهات مليلية بعد ثلاثة أسابيع[7].

كان يوم الثامن والعشرين من اكتوبر، يوم وفاة الجنرال مارغايو Margallo، عند مدخل حصن كابريرثياس Cabrerizas. وبضرب الحصار على القوات الإسبانية، لم يكن من الضروري فقط طلب التعزيزات العسكرية، بل الإشارة كذلك إلى كيفية إرسالها ومكان وصولها. كانت الحاجة ماسة إلى خطة معينة. وكان من الضروري أن تتوفر شجاعة كبيرة وبريد سريع. وكان لابد كذلك من رفع الحصار، واختراق الأراضي للوصول إلى حصن روستروغوردو Rostogordo. فتطوع بيكاسو وتقدم رفقة شرذمة من الحرس -وصل عددهم إلى خمسة وعشرين رجلا- ساروا في الخلف بمواقف. لكن وفور خروجهم، داهمتهم نيران رجال المقاومة، فقرر الجنرال آنذاك المضي قدما نحو

المقاومين معرضا حياته للخطر[8]. فجمع لجام فرسه، وركض بقوة إلى ان وصل إلى ميدان رسترو غوردو وكانه زوبعة. لكن كل الخطوط الهاتفية كانت مقطوعة، وتقطعت بذلك كل سبل الاتصال بمليلية، حتى عبر التلغرافات الشمسية. وطرح خيار العودة إلى برج كبريرشاس و المكوث هناك. كان المعسكر مطوقا من كل جانب، فقرر بيكاسو عكس ذلك. لقد عزم على الدخول إلى مليلية، وامام عينه كانت تمتد مسافة تزيد عن ثلاثة آلاف متر، إذا ما واصل الطريق عبر حافة الخنادق، التي كانت بمثابة فخاخ. فقرر الذهاب لوحده. كان على وعي بحدود إمكانياته، وكان يرفض المزيد من القتلى بجانبه. وما إن خرج وجاوز اسوار رسترو غوردو، حتى تحول كل من الفارس وجواده إلى هدف، صَوّبت نحوه نيران العدو. بلغ تاثير هذه الغارة على النفوس لدرجة ان كل الجيوش خرجت من مواقعها، لتشجع هذا الركض اليائس. فتعالى الصياح الذي كان مدويا إلى درجة انه حجب صدى الطلقات النارية، ولم يتوقف إلى ان دخل بيكاسو إلى مليلية.

لم يؤمن الوسام الشرفي لمعان المسيرة المهنية، لكنه كان يضمن الحق في الترقية. فبعد سنة واحدة من بطولته، ترقى بيكاسو إلى رتبة كومندان. وسنة 1895، وصل إلى تيلينتي كولونيل. وفي اكتوبر 1902، نال النجمات الثلاث ذات الرؤوس الثمانية، ورغم ان الرقم ثلاثة كان يشير إلى درجة سلم الكولونيلات، إلا انه لم يصعد إلى درجة برغادير Brigadie، إلا بعد مرور السنين، حتى (1915). وبعد سنة واحدة، تم إلغاء ما اصطلح عليه بقسم هيئة أركان الحرب، فاسف بيكاسو لهذا القرار غير المعقول، والذي جرد هيئة الضباط الإسبانية ليس فقط من وضع تصور فلسفي للحرب، ولكن كذلك من فهم الميليشيات بشكل عميق. وأبى بيكاسو إلا ان يواصل اجتهاداته في المهام البيروقراطية التي تشغله. وسنة 1919، قدم استقالته من منصبه بصفته وكيلا لوزارة الدفاع، بعد أن رفض مسبقا منصب الوزير، لخوفه من فقدان شرفه، والذي جعل منه إنسانا متميزا. ويوم السادس عشر من فبراير 1921، ترقى إلى درجة رئيس الفرقة، وذلك بعد مرور شهر على وصول سيلفستري إلى انوال. لم يكن بيكاسو يطمح إلى ترقية اخرى، كان يحس بدنو المعاش، وهو امر طبيعي إذا ما نظرنا إلى سنه الذي ناهز الرابعة والستين عاما. كما ان اهتماماته واجتهاداته المهنية، توجهت إلى كل ما يدور في العالم الخارجي، في بلدان القوى العظمى. كما انشغل بالقرارات المعقدة التي انبثقت منذ

فترة ما بعد الحرب العالمية. وباختياره ممثلا لإسبانيا في اللجنة الأممية، اصبح عنصرا دائم العضوية داخل اللجنة الاستشارية للشؤون الحربية، البحرية منها والجوية. إنها مهام انيطت به في يوليوز 1920. وبحلول هزيمة انوال، ركز إيزا اهتمامه عليه، وقد كان هذا بلا شك افضل واصوب قرار اتخذه الوزير في حياته باكملها.

كان بيكاسو يقدر المغرب ويعرفه حق المعرفة، إذ كانت له دراية بقساوة طقسه ووعورة جباله، وكذا بشدة مقاومة سكانه. كان يتصور ان كل هذه الأمور قد اخذت بعين الاعتبار، فذهل لما راى عكس ذلك، إذ لم تقدر ولم تحترم الحكومة كل هذه المعطيات. واتُّهم بيكاسو بانه جمهوري وماسوني وبروتستاني. وبعد أن تجاهلته الجمهورية الثانية بالمرة، وادارت له ظهرها، لم يساند ابداً في حياته اي إيديولوجية. كان دائما يحمل معه ميدالية بها صورة عذراء غرناطة، المعروفة بعذراء الهموم (Las Angustias)، وهذا هو كل تشيعه المخفي[9]. كان بيكاسو متزوجا من السيدة التي اخذت بتلابيب قلبه. يتعلق الأمر بماريا لوث فيثنط لاسو دي لافيغا María Luz Vicente Lasso de la Vega، وكانت تصغره بأربع سنوات. كانت لها وجاهة ورشاقة فريدة من نوعها. رزق الزوجان بذكرين وهما: نيسطور Nestor وادلبرطو Adalberto المزدادين على التوالي عامي 1887 و1893[10].

طاردت هتافات الجماهير بيكاسو، وتعقبته السياسة بعينها التي لا تنام، وتتبعت خطواته المؤسسات. تلك المؤسسات التي تنصلت منه في نهاية المطاف، بعدما كانت تتفهمه. فبقي لاثيريا بشهامته، يدافع عنه بكل ما اوتي من قوة. كان على بيكاسو ان يرضي الجيش والحكومة والبرلمان والشعب. وفي حدود إمكانياته خدم الحقيقة. وفي سبيل كشفها، لم يطاطئ الراس ابدا، ولم يعترف بصداقات ولا بتوصيات مهمة.

حملات العون والإغاثة، وأوديسة سفينة المياه

بحلول شهر غشت 1921، عاشت إسبانيا على إيقاع موجات الحزن والأسى، فعمت ارجاء البلاد بطائق التعزية والجنائز، وخرجت إلى الشوارع مواكب دينية، كموكب عذراء الملوك بإشبيلية، الذي بادر بجمع التبرعات باسم ارواح الجنود بإفريقيا[11]. وتناسلت اليانصيب الخيرية والاشتراكات العمومية، وتراست الملكة فيكتوريا اوخينيا Victoria Eugenia، بنفسها اربع مسيرات. وبعد انقضاء اسبوعين، كانت الحصيلة اكثر من ثلاثمائة الف بسيطة. وحتى

حلبات مصارعة الثيران، لم تبق في مناى عن الأحداث. إذ بانتهاء العرض، كان المصارعون والمساعدون يصولون ويجولون داخل الحلبة، وبأيديهم علم كبير يرفرف خفاقا. كما أنهم كانوا يلقون على الأرض بذلك القماش الأحمر الملطخ بالدماء، بهدف استمالة عطف الجمهور، الذي كان يرمي بصدقاته وهباته، ستؤول إلى جرحى مليلية. وهذا ما فعله في مدريد كل من ناثيونال الثاني Nacional II، وفواستو باراخاس Fuasto Barajas، وسط صخب وفوران شعبي هائل، تردد صداه في مدرجات فيستا الغري Vista Alegre[12].

وفي منطقة الباسك، أُصدر نداء إلى البسكيين الميسورين يستميلهم للانخراط في حملة جمع التبرعات، وذلك بهدف اقتناء مدفع حرب سمي بمدفع فيسكايا. قيل عنه من الوجهة الحربية، إنه كان اكبر سلاح فتاك ضد وحشية الريفيين[13].

وشملت هذه التبرعات كل شرائح المجتمع، إذ وهبت السيدة الأرستقراطية كطلينا اوركيخو دي اوريول Catalina Erquijo de Oriol، مبنى هائل كانت تمتلكه بسان تورسي، لفائدة الجرحى والمرضى. وبإشبيلية، تقدمت زمرة من سائقي القاطرات والآلات البخارية، كانت تعمل لحساب شركة السكك الحديدية (خط مدينة ديل كامبو نحو سامورا) بهبة قدرها مائة بسيطة، سلمت للحاكم من اجل إرسالها إلى مستشفى الدم. وحتى المستعمرة البريطانية بمالقة، ساهمت بمبلغ قدره ثلاثة آلاف وستمائة بسيطة، أعطيت لمداواة الجرحى[14].

وفي برشلونة، كانت الحركة دؤوبة بهدف تكوين فيلق من المتطوعين الكطلان[15]، لإحياء انتصارات عام 1860 من جديد. وحتى طلبة الدراسات الدينية، انضموا لهذه الحملات. وتجدر الإشارة إلى حالة خاصة سُجلت مع بيو بريثوسا Pío Brezosa، هذا التنينتي كولونيل التابع للصحة، والذي وهب نفسه أمام لاثيريا متطوعا للذهاب إلى أوحش القبائل واشدها عداوة لإسبانيا، وذلك بهدف مداواة جرحاها والسعي إلى تحريرهم، حتى إنه اقترح تكوين فرقة من الأطباء، يرحلون إلى المغرب لأداء مهامهم، فينالون بذلك ثقة الريفيين. لم ينقطع سيل المحسنين، فهناك من قرر طرق باب الحظ وسيلة للتضامن، وتلك حالة السيد خوصي فيثينطي José Vicente، الذي أهدى ثلاثة أعشار من ربح ورقة اليانصيب لصالح الجنود بإفريقيا[16]. ولم يُعرف إن كانت ورقة اليانصيب تلك، قد ربحت شيئا أم لا.

وفي مجمل التراب الوطني، نُظمت حملات لجمع التبرعات، بغية شراء طائرات للجيش، طائرات حملت أسماء وشارات هذه الأقاليم. ففرناطة، لم تكن سوى آلية جوية من نوع دي هافيلاند De Havilland، قوتها خارقة، وثمنها كان يقدر بأربعة وثمانين الف بسيطة[17]. وفي الميرية وقادس، فتحت اشتراكات بقيمة خمسمائة بسيطة. وفي العاصمة، وصلت قيمة الاشتراكات التي شجعتها يومية "الصول"، بهدف اقتناء طائرة مدريد، إلى إحدى عشر الفا وثمانية وسبعين بسيطة في اقل من شهر[18]. وذهب الأمر بعيدا بثاراغوثا، حيث القبطان جنرال السيد امبوديا Ampudia، (عوض فرانثيسكو امبوديا لوبيث Fransisco De Ampudia López، الذي كان برغادير في فرقة المشاة)، والذي طرح فكرة فتح المساهمات الوطنية، وذلك بهدف شراء طائرات حرب وقنابل، وغازات سامة[19].

وبحلول شهر اكتوبر، وبفضل المساهمات الشعبية، وصل عدد الطائرات المتبرع بها إلى عشرة، اربعة منها وهبتها مرسية وكارطاخينا، واثنتان من ثاراغوثا واثنتان اخريتان من سلمانكا، وواحدة من آفيلا، واخرى من فيغو. وكان من المنتظر، ان تُسلم عشرون آلية اخرى، تعود في الأصل إلى سبعة عشر إقليما[20]. علاوة على ست طائرات اخرى، تبرعت بها بعض الشخصيات.

وإزاء ملحمة جمع التبرعات هاته، كانت تتمثل المأساة الحقيقية. ففي "المضيق" (جنوب غرب تطوان) مثلا، كانت تصطف وحدات الفرق العسكرية في انتظار إجراء تلقيح ضد حمى التيفوس، ولم يكن في متناول اليد سوى اربع أو خمس حقنات فلادية. كان من الصعب تطهيرها جيدا من الجراثيم. خمس إبر لحقن ما يزيد عن الف رجل. وبفضل التدخل المتحمس للفرنسي تيبولط Thiebault، وابنته ماريا طريسا María Teresa، وإهدائهما لاثنتي عشر او ثلاثة عشر علبة من إبر البلاتين، تم إنقاذ الموقف الذي يستحق ان يُنعت حسب عبارة البرلماني سولانو، «بالمخجل جدا»[21].

وبكاستيون، وجيان ومالقة، تبرع موظفو المجالس الإقليمية بيوم عملهم. وبإشبيلية، تم الاحتفال بيوم السيجار لفائدة الجنود. فكانت الحصيلة يوم الثالث والعشرين من غشت، سبعة عشر صندوقا مملوء بعلب السجائر، وثلاثة صناديق أخرى بها سجائر منفردة، وخمس علب من السيجار الفخم. وعلقت في كل مكان، بالبنوك والمحلات

التجارية، والملاهي الليلية والفنادق، صناديق خُصصت للتبغ، وكتبت عليها العبارة التالية: «في سبيل الجنود الذين يقاتلون بإفريقيا»[22].

ووصلت إلى موانئ اندلسيا والشرق، بواخر قادمة من وراء البحار. فخرجت من تلك السراديب الكئيبة، حشود مثخنة بالجراح، مريضة وتائهة ومنهوكة، مخلفة وراءها حربا غير مالوفة. وباتت مليلية في خصاص تام في الماء الصالح للشرب.

كانت مالقة وحسب الاتفاق، ترسل يوميا إلى مليلية خمسين لترا من الماء، وهي كمية لم تكن كافية. فاقترحت صحافة بيلباو على قرائها إهداء شاحنات - كوبا لجنود غاريانو Garellano، وهي فرق كانت ترابط بمليلية[23]. وهكذا، استأجرت الحكومة بارجة الكونت شوروكا El Conde Churruca، التي اقلعت قاصدة لندن، وهناك شحنت ستة آلاف طن ثم عادت.

وعن إبحار سفينة شوروكا، تقدم الماركيز خوصي غومس اثيبو José Gómez Acebo وزير البحرية، بالشروحات التالية، والتي كانت مدهشة حقا: «كانت السفينة تجلب المياه من إنجلترا، حتى لا تضطر للوقوف بإسبانيا، مواصلة السير مباشرة نحو مليلية»[24].

امتلأ ميناء مليلية عن آخره بحشود رحبت بقدوم بارجة شوروكا. بيد ان خيبة أمل كبيرة دبت في صفوف الشعب، فالسفينة لم تُفرغ حمولتها كاملة. إذ الخزان كان يقدر بثلاثة وعشرين قدما أي (6.7 متر)، لكن لم تكن هناك خراطيم مياه ولا براميل ولا حلول. وهناك بقيت سفينة الماء تتمايل في الخليج الصغير، فتعطلت مهمتها وضاعت شحنتها، ومر شهر والحالة المخجلة مازالت على ما هي عليه[25].

اختلافات عسكرية بين الإنجليز والإسبان

استطاعت حرب إفريقيا أن تستميل طاقات بشرية متحمسة أكثر مما كان متوقعا: طاقات كانت تتوق إلى الحرب، وتتطلع نحو إسبانيا. فبعد أن فتحت القنصليات شبابيكها لتسجيل المتطوعين في الجندية، كان رد الفعل مذهلا. ففي لندن، ويوم الخميس الثامن عشر من غشت، وعلى الساعة التاسعة صباحا، تدفق الآلاف من قدماء المحاربين المتحمسين، وتزاحموا عند بوابات السفارة الإسبانية، التي تقع في الحي الراقي المعروف بـ"شلسيا Chelsea". فمنذ الثالثة صباحا، انتظر أولئك المتعطشون

للكفاح في إفريقيا دورهم. وما إن حلت العاشرة صباحا، حتى فاق عدد المتطوعين الألف وخمسمائة رجل. المئات منهم كانوا ضباطا قدامى، عرفوا بحنكتهم وخبرتهم في مجال القتال. فذُهل الدبلوماسيون الإسبان من هول ما رأوا من كثرة الجموع، فطلبوا من مدريد توضيحات عن الأمر.

كان الحل الذي وقع الاتفاق عليه مؤسفا للغاية، إذ تم إصدار أمر يقضي بقبول الجنود فقط، دون إعطاء تعويضات لعائلاتهم. كما اذيع خبر توقيع العقود بإسبانيا. فكان على المتطوعين الرحيل إلى هناك على نفقاتهم الخاصة. الشيء الذي ولّد الدهشة وفجر ينابيع الغضب، والذي اتخذ اشكالا من العنف. فكان من الضروري اللجوء إلى شرطة مكافحة الشغب لتفرقة تلك الجموع[26].

لم تكن عمليات التطوع للجندية بنيويورك تعرف شغبا كثيرا، بالنظر إلى مثيلاتها بلندن. إذ تم قبول مائتي رجل، ابحروا ليلا في اتجاه إسبانيا يوم الثالث والعشرين من غشت[27]. وبموازاة ذلك، كان المشكل الإنجليزي يزداد تفاقما.

كان الفونصو ميري دي فال Alfonso Merry del val، سفير إسبانيا بلندن. وقد اتسمت تقاريره خلال الحرب العالمية بالنموذجية. لكنه، وأمام احتدام موجات التعبئة البريطانية الموجهة نحو إسبانيا، وبسبب طبيعة الحرب في المغرب، تذمر كثيرا وأدلى بتصريحات مزعجة.

وفي رسالة بعث بها يوم الثامن عشر من غشت 1921 إلى وزير الحكومة، السيد غونثالث اونطوريا González Hontoría، حذر من مغبة تجنيد الإنجليز، نظرا لمجموعة من الاعتبارات. ولخص هذه المساوئ فيما يلي:

«إن الجندي الإنجليزي هو شخص متعود على التفنن والعناية بالمآكل والملبس... وعلى ضوء هذه المعطيات، فإن شروطه لن تكون قليلة. وليس هذا هو الأسوأ، نظرا لطبيعته المتردة، فإنه يهيج بسرعة ولأسباب لا علاقة لها بالسياسة نهائيا. يفقد صوابه لتفاهات تتعلق بالثكنات العسكرية (...). إن الجيوش الإنجليزية لم يحركها اليوم إسبارطيرو Espartero ولا اودنيل ODonnell، (في إشارة إلى القوات الإنجليزية التي خاضت غمار حرب كارلوس الأولى)، ولا حتى القوى النقابية. فإذا ما قُدم لهم طعام غير كاف، او قليل بالنسبة للكمية التي طالبوا بها، وإذا تم تموينهم بعتاد ومعدات من

نوع رديء، او غابت الذخيرة في قتال دموي، او تعامل معهم ضباط بقسوة، فإنهم يتخذون من كل هذه الأمور ذريعة، فينقلبون على رؤسائهم. يخربون ما حولهم او ببساطة يختفون من الميدان. (...) وفي بلدان اجنبية، شوهدوا لمرات عديدة، يتعاملون مع العدو، طمعا في مناصب وقيادات لم تكن لتخطر على بالهم[28].

وبما ان شروط ومتطلبات الجنود البريطانيين كانت كثيرة للذهاب إلى القتال، وامام غياب هذه الإمكانيات في المغرب الإسباني، فالأولى على حد تعبير السفير الإسباني الاستغناء عن هذه الخدمات الأجنبية، والاعتماد بالأساس على الجنود الإسبان الذين يقاتلون ويرضون ليس فقط بوجبة هزيلة، او عتاد مترهل، او نقص في الذخيرة، وإنما يحاربون وهم جياع وعراة، في ظل حضور او غياب أسلحة رديئة، ونفاد ذخيرة. ومع كل هذه الظروف، لا يتمردون ابدا. إنهم افضل جنود في العالم.

وبتلقائية وحيرة، اوجز **ميري دي فال** اقواله، فاستطرد قائلا، «علينا ان ناخذ بعين الاعتبار انه مهما بلغت درجة السفالة بالمتطوعين الإنجليز، الذين ليسوا اكثر من اشخاص عاطلين يمقتون العمل، فإن السفير البريطاني سيظل دائما خلفهم، يساندهم في اي مطلب يطلبونه، وهو ما يزيد الأمر تعقيدا. وباختصار، فانا لست موافقا على تجنيد عدد كبير من الإنجليز، لأن إحساسهم الفطري بانهم ارقى شعب من كل الأجناس، يجعل منهم عناصر يصعب التحكم فيها. وإذا حدث واستُقطبت اعداد هائلة منهم، وليس الأمر مستبعدا إذا ما نظرنا إلى براعتهم في القتال، فمن الأفضل وضعهم تحت قيادة واحد من ضباط هذا البلد، لأنه سيفهمهم ويسيرهم كما ينبغي[29].

ولى المحاربون البريطانيون وجوههم شطر إفريقيا. كانت السلطات الإسبانية مستاءة منهم كثيرا. فعند منتصف شهر نونبر، قرر اربعون رجلا منهم -حسب المعلومات الواردة- العودة إلى الوطن الأم. وتداولت الأوساط العامة وصحافة لندن اخبار ملتمساتهم. واشتدت التهكّمات والسخريات المعادية لإسبانيا، فبعث غونثالث اونطوريا برسالة احتجاج يوم السابع والعشرين من نونبر 1921، إلى السفير البريطاني بمدريد السيد إسمي هووارد Esme Howard يندد فيها بالعبارة الهجومية، ("الجماهير الإسبانية الفقيرة" Spanish Horde)، التي تناقلتها يومية التايمز تحت عناوين تسيء إلى إسبانيا وجنودها[30]. وبحلول فبراير 1922، طلب احد المتطوعين وبعد إصابته بجراح،

بتعويض عن الخسارة التي لحقته، وكأنه عامل وقع ضحية حادثة عمل. وهو ما نقله لاثيريا بغضب إلى برنكر[31]. لكن لا أحد منهم تطاول بالحديث عن صفوف عبد الكريم، التي كانت تضم مرتزقة فرنسيين وألمانا.

وحدث أن استمدت إسبانيا قوتها من أولئك الإنجليز الجيدين، وتعلمت معنى الإخلاص من صديق قديم كان يعرف بالجنرال رودكين Rudkin، الذي كان شاهدا على ذلك الهجوم الذي شنته قوات سيلفستري على تفرسيت.

وفي رسالة بعث بها إلى جريدة التايمز، أعادت يومية الصول نشرها، ندد رودكين بالأخطاء الفادحة التي ارتكبها الإسبان في مجال الصحة والغذاء واللباس. في حين وصف كل أشكال المعاملات التعسفية بالهزيلة والفكاهية. كما أورد معلومات دقيقة بشأن تأخير دفع الأجور. إذ كانت تدفع بريطانيا العظمى الرواتب للمرتزقة مسبقا كي يعودوا، وتعطى لهم ملابس مدنية نظيفة، وتشترى لهم تذاكر السفر البري والبحري. ومن جهة أخرى، وبعد وصولهم إلى أوطانهم، لم تسلم لهم تذاكر القطار الذي سيقلهم إلى بلداتهم. ولهذا السبب، انتقد رودكين هذا التخاذل وعدم الاهتمام المستمر من الوزارات البريطانية الخارجية والحربية. وختاما، لم تكن لرودكين سوى هذه العبارات التي مدح بها قيادة الفيلق قائلا:

«الشيء الذي أثار إعجابي، هو أن الكولونيل ميان أسطراي وضباطه، استطاعوا بمعية فرق المتطوعين الأجانب، تحقيق نجاحات باهرة، رغم قصر مدة التداريب. وهذا شيء من الواجب التنويه والاعتراف به في حق شرف الضباط وجنودهم»[32].

حصار مليلية:

ملائكة في صورة مدفعيين، ومعجزات يومية

انعقد الاجتماع الأول لمجلس الوزراء في حكومة ماورا، يوم الاثنين السادس عشر من غشت 1921. وأسفرت المداولات عن بيانات، تم إصدارها بطريقة شبه رسمية، ونصت على أن شمال المغرب يعتبر بمثابة رهان، لا يمكن التنازل عنه، وذلك لضمان استقلال وأمن إسبانيا. وبموازاة مع ذلك، تم التطرق إلى قيادة برنكر، التي وصفت بالهائلة،

لكونها تعتمد اساسا على سبل ومناهج تقدمية رائعة. وقيل عن الحرب إنها ستستمر بلا هوادة، واضافوا انها لن تتوقف حتى ينتهي هذا الإنجاز السياسي الذي دعمته وساندته اسلحة المواطنين[33]. كل هذا، لم يكن سوى ملخص حاسم عن النزعة الحربية التي طبعت الاستعمار الألفونصي.

ويوم الخامس عشر من غشت، جمع برنكر خمسة وثلاثين الف رجل في مليلية. كان بالإمكان الشروع في حرب الاسترداد، لكن وبعد مرور خمسة ايام، اقر برنكر للاثيريا بان بطارية ريفية، تمكّنت من إحكام طلقاتها، واطلقت قذائف وصلت إلى داخل معسكر سيدي حامد الحاج، فخلفت قتيلين اثنين واربعة جرحى[34]. وهكذا، اصبحت مليلية تعيش على إيقاع النيران التي يصدرها طبجيو الكوروكو.

ولم يُعلم بحقيقة رسالة بعث بها ريكيلمي إلى برنكر يوم الثالث من غشت، إلا بعد مرور سنة ونصف. وقد تضمن هذا الإنذار، الإشعار التالي: هناك حرس يقدر عددهم بمائة رجل بالكوروكو، ومن المحتمل ان تحدث اي مفاجاة بالليل عبر "البرانكو دي اللوبو"[35]. المفاجاة كانت هي الاستيلاء على الغابة الكثيفة برمتها وانطلاق القصف.

استعمل الريفيون المدافع التي غنموها، واستغلوا اليد العاملة الأسيرة التي كانت تحت سيطرتهم. فكانت القطع الحربية تُسير من قبل المحتجزين الإسبان، الذين حملوها سابقا على اكتافهم، وصعدوا بها إلى مرتفعات وعرة تختلف مستوياتها بـ 20٪. شارك في هذا الكفاح المسلح، حوالي مائة وخمسين اسيرا، لقي العديد منهم حتفهم في خضم تصويبهم لفوهات تلك المدفعيات. وحسب بعض المصادر، فإن بعض الإسبان ذوي النوايا السيئة، هم الذين كانوا يسيرون تلك المدافع، وهو ما اكده الجنديان بنيطو فرجس كاسطيل Benito Verges Castell، والفونصو إسبينوسا سانتيث Alfonso Espinosa Sánchez، الذين فروا من ميادين المورو، فحكوا أن حرسهم كانوا يدفعون للأحياء الذين ينقلون المدافع إلى الكوروكو، ريالين اثنين وعلبة صغيرة من السجائر[36]. وهكذا، ظلت مليلية تعيش على إيقاع نيران العدو، وهو امر لم يحدث منذ حصار 1774-1775، حينما اراد سيدي محمد بن عبد الله، رابع الملوك العلويين، استرجاع المدينة. ومنذ ذلك الحين، والمدينة في مامن من هذا القصف، الذي شهد حصارا دام اربعة اشهر[37]، قُذفت المدينة فيه بثمانية آلاف ومائتين وتسعة وثلاثين قنبلة، وثلاثة

آلاف ومائة وتسعة وعشرين رصاصة قاتلة. لكن الشيء الذي خدش، الروح الوطنية للشعب بعدوانية كبيرة، هو منظر المدينة وهي تُقصف بمدافع سيلفستري.

لم تكن ابدا بحوزة الريفيين اكثر من ثلاث آليات مصفحة لقصف المدينة، ولم تكن قذائفهم عند تفجيرها تفزع ساكنة مليلية، بقدر ما كانت تؤجج روح الحماسة فيهم. وما ان ينجلي الهلع الأول، حتى تحل محله الأنفة والتحدي. وبعد ان تاكد مؤرخ أ.ب.سي، السيد كوروشانو Corrochano، بأن التسلية وإرضاء الفضول، هما من دفعا بمدافع المورو إلى البحث عن القلعة، جاء تحديه لفوّاهات مدافع الكوروكو على هذا المنوال: «إنهم يقصفون؟ فليقصفوا»[38]. ويأتي الحديث عن الطبجيين الإسبان -الريفيين، الذين صوبوا طلقاتهم بالضبط على الحي الرئيسي، حيث كانت تقطن ساكنة شديدة الجرأة والجسارة. ساكنة باتت تعتبر وصول دوي الطلقات المدفعية أمرا عاديا. ولم تكن هذه الطلقات بالكثيفة كما كان يروج، ولم تخلف خسائر عديدة كما كان مرتقبا. فإذا ما أصابت القذائف اهدافها (الميناء - الثكنات العسكرية - الحصون - المطار)، كان لا ينفجر منها سوى اثنين او ثلاثة من أصل عشر قذائف.

وعن مدافع الكوروكو، قال السيد بوراس Borrás، انها تطل براسها لهنيهة، فتقذف بلعابها وتعود أدراجها بسرعة. وبعد أن قارنها بآليات حقيقية اخرى، كتلك التي تفتح فوهاتها فتصدر أزيزا قويا، وصفها وكأنها ذلك الطائر الصغير، الذي يطل براسه من الساعة الخشبية ليحدد الساعة بمليلية، فيحذر المدينة من غفلتها ومن نسيانها للخطر. وتساءل الصحافي عمّن باستطاعته القبض على وقواق الساعة؟ ومن ذا الذي يتحكم فيه؟ ومن يصوب زناده؟ وحسب بوراس، كان المسؤول هو احد الهاربين من الجندية، القائد ريو Rillo، الذي أُشيع عنه، ان قذيفة صادرة من مليلية استهدفت ساقه، فمر إلى جبهة العدو ليتحالف معه، لكنه لم يكن خائنا مائة بالمائة. فالغدر لم يكن إلا لعبة مزدوجة ومحكمة، إذ ريو كان قائد مدفعية يحسن إعداد المتفجرات. وحسب بوراس، كان ذلك الهارب من الجندية (ريو) رجلا طيبا، وبصفته خبيرا بالمتفجرات، كان يمنع من ان يقصفنا العدو بقنابل مميتة، كانت ستهوي علينا عوض هذه الأجسام غير الضارة وغير المؤذية[39].

لم تتاخر الحقيقة طويلا في الظهور، فإمليو ريبو إيريرا Emilio Rillo Herrera، كان يعمل وعن سن تناهز الست عشرة سنة، كبواق في جيش أراغون رقم 21. وبعد أربع سنوات من الخدمة، التحق بفرق المتطوعين الأجانب. بعدها، فرّ من الجندية سنة 1920. وبعد إقامة عابرة وعاجلة بفندق بلاص بثاراغونا، حيث كان يعمل ترجمانا، قرر التطوع والانضمام إلى صفوف فرق الجيش الإفريقية، فارسل إلى دار الكبداني. كان واحدا ممن نجوا من مذابح الخامس والعشرين من يوليوز. سقط أسيرا في يد العدو، وظل يصوب فوهات المدرعات حتى منتصف شهر شتنبر. وقتها، شك الريفيون في مدى إخلاصه في العمل، فساقوه حتى أنوال. فهرب من الدريوش ووصل إلى مليلية في شهر نونبر.

ادلى "ريبو" بتصريحاته أمام هيئة الاستشاريين التي يترأسها بيكاسو، وكان القائد يحتفظ بساقيه الاثنتين. ففيدل بورس مارتينيث Fidel Porres Martínez، الذي كان بدوره على راس المدفعية، كان هو من فقد ساقه من جراء إصابته بطلقة مدفعية. لم يتردد ريبو في الوشاية به لدى السلطات الإسبانية، فجمع ضده سبعة شهود من زملائه القدامى[40]. وسواء كان المعني بالأمر هو القائد ريبو أو البوطخار El Botajar، وهو لقب خوان لوبيث خورادو Juan López Jurado (احد الفارين كذلك من الجندية عام 1911)[41]، فإن مليلية وفي خضم القصف الريفي، نجت بفضل أولئك الفارين من الجندية الطيبين، والذين عانوا من تانيب الضمير. وكذلك، بفضل وفاء وعناية العذراء (صوليداد).

كانت صورة العذراء توجد في بيت متواضع. وفي إحدى غرفه، كان ينام طفلان صغيران في نفس السرير. وحدث أن اخترقت قنبلة سقف الحجرة، فدمرت الطابق العلوي، وهوت بالقرب من الأميرين الهادئين. لكن وباصطدام القذيفة بالسرير ذي النوابض، وثبت في الهواء بشكل عجيب، وزاغت فوارتها المتفجرة. كانت قذيفة من نوع شاربنيل Charpnel، وانحرفت نحو السقف والحيطان حيث خلّفت ثلاثمائة جريح. فنجا الطفلان بفضل حضور العذراء معهم. فشاع الحديث عن معجزة لاكتها السنة العديد من النساء اللواتي، انبهرن بالحدث[42]. وهكذا، تحول المنزل الواقع بشارع بولافييخا Polavieja رقم 48، إلى رمز لمقاومة مليلية. وربما بسبب العامل المعنوي، أو بسبب فشل القنابل المتفجرة الإسبانية في إصابة هدفها، كانت مليلية تنام في هدوء في مأمن من الخطر، تحرسها عذراء لاصوليداد بعينها وملائكتها المتمثلين في رجال المدفعية في الكوروكو.

معجزة اخرى جسدها سؤال ظل مطروحا وهو، لماذا لم يستول عبد الكريم على القيادة العامة في مليلية، ولم يُجهز بالمرة على المدينة؟ الجواب هو، أن المقاومين الذين استدعتهم عائلاتهم لإنهاء الأشغال الفلاحية، كان لديهم ما يكفيهم من غنائم كثيرة. كانوا يتمتعون باستقلال شبه مضمون عن إسبانيا، وكذا عن السلطة المركزية. وكذلك بشرف قومي عظيم، واعتراف من الشعوب الإفريقية والعربية بعظمتهم بعد فتكهم بقوة أوربية. علاوة على ذلك، انتشرت في الريف فكرة (كانت عائلة عبد الكريم تشاطرها كذلك) أن الإسبان، وبعد فشلهم سيتنازلون عن حقوقهم لفرنسا. وبالتالي، سيخرجون من سبتة ومليلية. لكن هذه الرحلة في اتجاه البحر لم تحدث، فمكث الإسبان في مواقعهم وقاوموا، لكن هذه المرة بصدق.

أول جيش وطني:
أثرياء ومعوزون يقاتلون جنبا إلى جنب

جاء على لسان برنكر أن المعمعة كانت فريدة من نوعها. يتعلق الأمر بتشكيل جيش أراد الخروج به إلى القتال في اليوم الموالي، فطلب مهلة شهر كامل ليتصدى للهجوم. فانقضى الأجل دون أثر لهذا الجيش. وفي المقابل، أعد الريفيون عدتهم في ظرف لا يتجاوز الخمسة أيام فقط، فاستمروا في هجوماتهم يحصدون الأرواح. بخلاف الإسبان، الذين لم يحركوا سوى مشاعر التأثر والحيرة العارمة.

تطوع للجندية ضباط مشاة لا دراية لهم بالميدان بتاتا. كما أن المخازن كانت فارغة من العتاد والذخيرة. مما جعل الحكومة تمد يدها بالسطو على ممتلكات مستودعات مديرية الأشغال العمومية بإسبانيا[43]. كان النقص كبيرا في كل شيء، والأدهى من ذلك هو واقع فرق الرشاشات، حيث إن عددا كبيرا من الجنود، كانوا يجهلون كيفية استخدام تلك الآليات. ومما زاد الطين بلة، أن هذه الرشاشات البائسة (من نوع كولط)، كانت تتوقف عن العمل فور استخدامها[44]. فاهتز الراي العام الوطني إزاء هذه الأخبار الواردة من مليلية، والتي تفيد بوجود جيوش عراة بلا ملابس ولا سلاح، فاتخذ نائب من إسطريمادورا قرارا فعالا وجريئا.

حسب ما يبدو، فإن السيد خوان فيطوريكا كاسوسو Juan Vitórica Casuso، هو صاحب المبادرة المفاجئة[45]. فبعد أن علم أنه بمدينة ليون تُصنع البنادق الرشاشة،

ذهب إلى هناك دون تردد، واشترى بماله الخاص ستة آليات أوتوماتيكية -من طراز شوشاط- مزودة بذخيرتها. فعاد إلى إسبانيا، ثم ركب على متن الباخرة الأولى في اتجاه مليلية. وهناك سلم ما اشتراه إلى كولونيل إحدى الفرق، الذي اندهش لهذا الفعل. وتمت هذه البطولة في اربعة ايام كاملة، تحدث عنها الكل داخل البرلمان "أرسنيو مارتينيث دي كامبوس دي لافيسكا" Arsenío Martínez de Campos y de la viesca، الذي أورد في جلسة الواحد والعشرين من اكتوبر ما يلي: «إذا استطاع السيد فيطوريكا جلب ست قطع من هذا السلاح، فإن واحدا من ضباط الجيش كان بمقدوره إحضار ستين قطعة»[46].

حوادث أخرى سجلت بشأن الدواب، حيث كانت الحاجة ملحة لألف من الجياد، لتعزيز القوات الموجهة إلى الريف. لكن ما حدث هو أن شراء عدد ضئيل من الخيول، لا يسد الحاجة، فكان لابد من القيام بعمليات شراء واسعة من الجزائر وهنغاريا والبرتغال، وحتى من الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ندد مارتينيث كامبوس بالوضع، مذكرا بوجود ما يناهز مائتين وخمسين قائدا وضابطا كانوا يهتمون بتربية الخيول، فكيف اللجوء إلى الخارج لاقتناء هذه الجياد، وبشكل قاطع، استدل على أنه لا حاجة له بهذا النظام، إذا كان هناك نقص في الخيول[47].

وندد برلماني آخر السيد "سولانو" Solano، بمهزلة الجند الذين يستخدمون الدواب في نقل بنات وعقيلات بعض الضباط للتنزه. واوضح أن إحدى فرق المشاة، كانت تمتلك ما يفوق مائتي حصان. كانت كلها تخصص لهذه الأغراض التي لا علاقة لها بالمهام الرئيسية التي انيطت بها (وعم الضحك في المكان). وبما أن الوحدة العسكرية واصلت دفع ثمن غذاء الخيول، فإن الضباط كانوا يدسون في جيوبهم ثمن هذا الغذاء. وآخر الخروقات سجلت مع موت الجياد، حيث كانت تحرر شهادة الوفاة، وينتهي الأمر بسلام. ولكن بيع الأحصنة التي أُشيع عنها انها اصبحت جيفة، كان ممكنا. وحذر سولانو الجموع الحاضرة بقوله: «فإذا عارض احدهم، فانا مستعد لأثبت ذلك متى شئتم، فسرَت همسات كبيرة في البرلمان[48].

وفي مقابل هذا الفساد الأخلاقي المتفشي، ظهر نوع من المساواة في اداء الواجبات. وعن هذا الظرف، قال السيد مايطثو Maetzu بإحساس حاد: «هذه هي الحرب الإسبانية الأولى التي خاض فيها أبناء الأثرياء غمار الحرب، جنبا إلى جنب مع ابناء المعوزين»[49].

قلعة محاصرة: ارتياب ومقاومة

عند أواخر شهر غشت، تكدّست في الشوارع، والثكنات العسكرية وحصون مليلية، حشود وصل عددها إلى سبعة وأربعين ألف رجل. كان الوضع مقلقا، ففي الوقت الذي كان فيه الضباط مرتاحين في إقاماتهم أو في أحد الفنادق من الدرجة الثانية، كان الجيش ينام على الأرض، سواء كانت معبدة أو من تراب، ودائما في العراء تحت السماء. كانت الخيام والأسرة قد نفذتا، ولم يبق شيء في الاحتياط. فطالب برنكر لاثيريا بخمسة عشر ألف خيمة فردية، وطالب بتعجيل إرسال ثمانية آلاف منها[50]. وبسرعة كبيرة، تم اللجوء إلى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى، وذلك لتفادي تعقيدات ديبلوماسية.

وحدث أن أعطت أميرة "دي أُروكيخو" de Urquijo، مثالا رائعا عن التضامن، فبعد اطلاعها على الدراما، اشترت بمالها الخاص أربعة آلاف سرير، بعثت بها إلى مليلية، فوصلت إلى المكان في غضون ثمانية وأربعين ساعة. فاحس البعض بالعزاء، واستهتر الكل بحكومة ماورا[51].

وتمت دعوة الصناع المهرة من شرق البلاد ومنطقة كاطلونيا، وطلب منهم "لاثيريا" العمل بثمن رمزي باسم المواطنة، وذلك لتغطية العجز الحاصل في إسفنج الأسرة، الذي كان يقدر عدده بمائة وثمانين ألف وحدة. فتم الاتفاق على ثمن 21,50 بسيطة. كان لابد من انتظار شهر نونبر لتحصل مليلية على عدد كاف من الخيام، يأوي ما معدله سبعة وثمانين ألف رجل من الجيش[52]. كانت الحشود كثيرة، لكن الجيوش قليلة. فالنواة الفعالة -والقتالية- كانت مكونة من رجال نظاميين، وفرق المتطوعين، وبعض وحدات المدفعية، وثلة من الفرق المسؤولة عن تزويد الجنود بالعتاد والذخيرة. علاوة على الفرق المعروفة باسم بورغس - كورونا، غرناطة ولابرنثيثا. وضحت كل هذه الفرق بالغالي والنفيس. كان المشهد الأول مع هيئة ضباط فرقة "لابرنثيثا"، التي فقدت خمسة من قوادها في أول هجوم لها، وأصيب ضابطان اثنان، وهما، غونثالث طابلاس González Tablas ومولا Mola من فرق الجيوش النظامية، بجروح خطيرة. وخسرت كتائب النظاميين، المؤلفة من سبعمائة وستين جنديا من منطقة جبالة، العديد من

افرادها، ولم يتمكن من النجاة سوى مائة واربعين رجلا، استطاعوا البقاء على قيد الحياة بعد ثلاثة اشهر، عانوا فيها من أربعين مواجهة دموية في مذابح الكوروكو. ومرة اخرى، وبعد مشاهدته لعروض الجنود الذين بقوا على قيد الحياة، ذعر برنكر وبادر بإخراج خمسة آلاف بسيطة من محفظته، وسلمها لغونثالث طابلاس بهدف توزيعها على جنود طابور فِرير Ferrer، (نسبة إلى الكومندان خوصي فرير José Ferrer)، الذين عادوا منهوكي القوى[53].

وبعد إطلاق عشر عيارات نارية، اتضح أن جنود فرقة صقلية قد دخلوا غمار القتال. أما "كتائب وادراس"، ففعلوا ذلك بعد خمس طلقات. ورغم كل الظروف المزرية، صعدت القوات الإسبانية بكل جد لملاقاة العدو، فقاتلت وهوت عند خنادق الكوروكو.

تعودت الجيوش الإسبانية على القتال بدون تعليمات عسكرية هادفة، ولا سلاح في المستوى المطلوب. كما تعوّدت كذلك على القتال بدون تعليمات جنرالات اكفاء. وفي برقية بعث بها إلى "إيزا" يوم التاسع والعشرين من يوليوز، وصل الأمر ببرنكر، إلى درجة الاعتراف امام الوزير بأن الجنرال الوحيد الذي يثق به، هو القائد سان خورخو، الذي اعتاد الخروج يوميا لتفقد أحوال المعسكرات الخارجية، كما انه يحرس القلعة ليلا[54].

وهكذا، وبعبارات مقتضبة، يكون برنكر قد ترك على الهامش كل من كابنياس cabanellas وكبلكانتي Cavalacanti، وفرسنيدا Fresneda ونيلا Neila وحتى خوردانا Jordana (الكولونيل وجنرال الأركان الحربية). وفي أواخر شهر غشت 1921، اصبحت مليلية عبارة عن حصن يحاصره جيش من جبالة العدوانيين، الذين لا يتجاوز عددهم الخمسة عشر الفا. وبالرغم من وجود سبعة وأربعين الف مُدافع، إلا انها كانت لا تمتلك سوى مقيم عام واحد، وجنرال آخر على رأسها.

شرارة الحرب امتدت لتطال بألسنتها بلاد جبالة

تفاوض برنكر مع عبد المالك، احد الشيوخ الأجلاء. كان يثق في قدراته لمنع زحف فتيل الثورة إلى بلاد جبالة. فاعطى عبد المالك كلمته لبرنكر، ووعده بالضغط على الشيوخ الآخرين دون أن يقدم له وعدا بالإخلاص (وُضع على المحك ساعة وفاته عند الخنادق الإسبانية في عزيب ميضار، في صيف 1924). وعند منتصف شهر غشت،

بعث برنكر إلى عبد المالك بخمسين الف بسيطة، بهدف واد حَرْكة غمارة، التي تتكون ضده، وكذلك لاستمالة الضمائر حتى لا يذهب الريفيون في ذلك الاتجاه[55]. لكن هذا المال وصل متاخرا.

قررت قبيلة بني يسف، التي كانت بمثابة حلقة وصل بين جنوب بني عروس (التي ينتمي إليها الريسوني)، ووزان (التابعة للنفوذ الفرنسي)، والتي تحوي افضل المقاتلين، إعلان تمردها وعصيانها. ولتفجير مكنونات غضبها، اختارت عقبة القلة في ربوة معزولة. كان يُعسكر عندها نصف طابور ثيوداد دي رودريكو la Ciudad de Rodrigo، وكان يقوده التنينتي كولونيل إسيدرو فالكارثل بلايا Isidoro Valcárcel Blaya، الذي كان على راس مائة وتسعة وتسعين رجلا. كما ان الثكنة كانت تضم اربع قطع حربية من نوع سان شاموند، وعيار 75 مليمترا. لكن وقبل يومين، سُرق منها مدفعان. كانت الدوريات والحراسة تتم بالمنطقة بطريقة روتينية واعتيادية، وكان ما يجري في الريف لا يمت لهذا العالم بصلة.

وليلتَي السابع والعشرين والثامن والعشرين من غشت، اقتربت حشود من قبيلة بني يسف في صمت من عقبة القلة. كان المعسكر يغط في نوم عميق. الجنود ركنوا إلى الراحة، وتبعثر الحرس الليلي في كل مكان. فحل الخطر والموت في آن واحد. وبما ان الدفاع بالمدافع كان امرا مستحيلا، فإن الإسبان ارتاوا تكوين إطارات دفاعية عنيدة، تلتف حول ثلة من الضباط. فمات الواحد منهم تلو الآخر.

وفي الدقائق الأخيرة من القتال، اتخذ الملازم **إغناثيو غومس دي غيفارا** Ignacio Gómez de Guevara، الذي كان على رأس المدفعية، قرارا وحشيا تمثل في تفجير مستودع البارود والذخيرة، الذي كان يتواجد بداخله. وفي اللحظة التي تدفقت فيها افواج وجموع جبالة، شغل إحدى المفجرات، فسمع ذوي انفجار هائل وضع حدا للصراع. وتوفي كل ما تبقى من الضباط[56]، ومعهم فالكارثيل. في حين كُتبت النجاة لأحد ضباط المورو، وهو سيدي علي ساحلي[57]، الذي تمكن من الوصول إلى الخطوط الإسبانية. اما الجيش، فلم ينج منهم سوى اربعة وعشرين شخصا، خمسة عشر منهم من الأهالي، كان معظمهم مثخنا بالجراح. اما الآخرون (مائة وخمسة وسبعون)، فقد لقوا حتفهم. واللائحة طويلة ممن بُترت وقطعت اعضاؤهم.

ويوم الثلاثين من غشت، وصلت قوات دفاعية من العرائش إلى المعسكر الذي لحقه الدمار والخراب، فاستولت على المراكز الأمامية فقط، لأن القشلة برمتها كانت مكسوة بجثث القتلى والجيفة. واستغل برنكر هذا الوضع، ليخبر لاثيربا بما يلي: «بعد الاستماع إلى الأنباء السالفة الذكر، اظن انه تمت السيطرة على الوضع. إنني قد هنأت القائد العام (السيد باريرا Barrera)». لم يتغير برنكر، فها هو الآن يكرر اثناء احداث عقبة القلة، ما ذكره بعد ايام أبران.

ولم تكد تمر اربعة وعشرون ساعة اخرى، حتى حلّت مصيبة جديدة ازاحت الوشاح عن هذا الإصلاح العسكري، الذي لم يكن في الأصل سوى افتراء. وجاءت الضربة الثانية هذه المرة من الشمال الأقصى، بالقرب من نوادر Nuader. وعلى هذا المنوال، جرت فصول النكبة، كالعادة، كان فيلق من العساكر ينزل كل يوم إلى الواد (واد المخازن) بغية الارتواء، وهناك كان في انتظارهم ما يناهز اربعمائة كمين نصبه أناس من سماتة، كانوا بارعين في استخدام البنادق والاختباء والتربص للعدو من داخل الغابات. ترك أهل سماتة لكل الأشخاص والدواب فرصة الوصول إلى مورد الماء، دون أن يضايقوهم أو يزعجوا حرسهم. وما أن وصلوا، حتى فتحوا عليهم نيرانا كثيفة خلفت ثمانية وعشرين قتيلا في صفوفهم واربعة عشر جريحا، علاوة على خسائر تزيد عن الأربعين من المواشي[58]. كل هذا حسب تقرير أعده برنكر إلى لاثيربا، الذي اندهش من جديد وثارت ثائرته.

لم يجد الوزير من بُد سوى التصريح بما يلي: «إنه من غير الضروري أن اذكرك، لأنك بالتأكيد قد فعلت هذا، بدافع تحذير الكل من مكايد وحيل العدو، الذي اظهر من خلال أحداث اليوم انه يستغل اي غفلة لينقضّ علينا».

وهكذا، انشغل الوزير بتذكير المقيم العام بمهامه العسكرية، بغية أن يلفت هذا الأخير انتباه أتباعه إلى ضرورة اتخاذ احتياطات لازمة.

شعر لاثيربا بالتعاسة، إذ تلقى لتوّه وقبل بضع دقائق، خبر انسحاب حاميته من إحدى الحصون الخشبية الصغيرة الواقعة على جنبات الكوروكو، والمعروفة بـ"تكلمانين". فكان لابد من اتخاذ تدابير صارمة ضد قائد هذه الحامية، حسب قرارات برنكر.

منح مسدس لملازم ثان دبّ الياس في نفسه

كان الخطر الدفاعي لمليلية يمتد على خط، كَسَبونا تيزا -سوق الأحد- آيت عايشة -سيدي موسى- سيدي حامد الحاج، وعطليون. فكل هذه الميادين كانت عبارة عن ساحات للقتال سنة 1909. وهناك كانت توجد ثلاث معسكرات في الواجهة، ترمز إلى الشجاعة والتعاسة في نفس الآن. يتعلق الأمر بقشلة دار حامد الملقب بالشرير، وقشلة "إكسطر تمدورا"، واخيرا قشلة "تكلمانين"، المعروفة كذلك باسم برج الموت. وحدث ان تحولت هذه الحصون المرتفعة التي كانت تتصدى لنيران الحصار الريفي، إلى قمم لها قيمتها. ففي معسكر "إكسطر تمدورا" مثلا، ويوم الواحد والعشرين من غشت، أُبيدت نصف حامية القشلة في هجوم شنته الحَرْكة بالليل. كل هذا، والقائد خوليو أرا ايثكيريدو Julio Ara Izquierdo، عازم على مواصلة المقاومة وسط كَم من الجثث والمحتضرين، فكُتبت له النجاة. وفي سنة 1923، وشح بالوسام تقديرا للصمود في تلك العمليات القاسية والصعبة جدا.

وفي أولى تلك المعسكرات الانتحارية "معسكر الشرير"، وبعد الغارات الليلية التي شنّها الريفيون ليلة الخامس عشر والسادس عشر من شتنبر، كادت أن تفقد الحياة كل حامية المعسكر. وبعد إشعار عطليون Atalayon، والتي علمت بالأحداث، خرج من هناك القائد طوريرو Torrero واربعة عشر جنديا من فرق المتطوعين ضاربين بعرض الحائط كل الأوامر والتحذيرات، فحاولوا الدخول إلى الحصن الدموي. وقبل الخروج، أحس المتطوعون انهم ذاهبون بلا عودة، الشيء الذي جعلهم يوزعون على زملائهم كل ممتلكاتهم، حتى إنهم نقلوا عناوين خطيبات الحرب، وعناوين الأقارب لموافاتهم برسالة النعي المشؤومة. كان لورينثو كامبس بويكردون Lorenzo Camps Puigredón، واحدا من اولئك الذين خرجوا من المعسكر. ويحكى انه كان قد تقاضى لتوه جزءا من علاوة، صرفت له لتطوعه في الجندية. فتقدم نحو إدواردو اغويا خمينس كورونادو Eduardo Agulla Jiménez Coronado، الذي كان رئيسا على عطليون، مخاطبا إياه، «سيدي الملازم، بما اننا ذاهبون إلى موت اكيد، اتَقَبل مني تسليم هذا المال إلى منظمة الصليب الأحمر»[59]. فمد الجندي يده إلى الضابط وسلمه خمسين ريالا. وبإيماءات

من راسه، وافق "اغويا"، فتناول الأوراق النقدية والدموع تجري في عينيه. خرجت هذه المجموعة، وعبرت الأسلاك الشائكة، واختفت بعيدا داخل الجبال. فركضت بقوة ودلفت معسكر دار حامد. فدنا منهم الريفيون بدورهم، وصوبوا مدافعهم نحوهم. وعلى بعد مائتي متر فتحوا النار، فانهارت القذائف على سقف الحصن، الذي اشتعل نارا. فهوى على من فيه من المقاومين، فانقض الريفيون، وهم يفكرون في السلب والنهب اكثر مما يفكرون في القتال. لكن مفاجاتهم كانت كبيرة إزاء الجرحى الذين تصدوا لهم. لم ينج من المتطوعين الخمسة عشر اي احد. اما فيما يخص العشرين جنديا من الفرق النظامية، والمكونة لحامية المعسكر، فقد عاش منهم اثنان، وكلاهما كانا مصابان بجراح. كما انه لم يُعثر على أثر لكامبس وطوريرو.

وفي قشلة "تكلمانين"، جرت الأحداث على مرحلتين، فبعد هجوم آخر للحَرَكة في غارة ليلية تمت يوم الثلاثين من غشت، قرر قائد المعسكر، الذي كان ملازما ثانيا وشخصا عاقلا وناضجا، الانسحاب برفقة الأحياء من الجنود. كان رامون مافيولي- رودس Ramon Mafioli Rodés، يبلغ من العمر واحدا وثلاثين سنة، سجل دخوله إلى الجيش في سنة 1899 جنديا متطوعا لا اكثر ولا اقل. وكان يرى الانسحاب من الحصن امرا ضروريا، فانصرف تاركا وراءه تسعة من القتلى، انغرس واحد منهم في الأسلاك، حيث كان يقاتل وجها لوجه مع العدو، ولاذ بالفرار مع أحد عشر جريحا، وعشرة آخرين سالمين[60]، فالتجؤوا إلى الخط الثاني واعتصموا هناك. لم يعد مافيولي-رودس يخشى شيئا، ففرقته المكونة من ثلاثين رجلا خسرت عشرين نفرا، وهو ما معدله 66%. وكل الخسائر جاءت نتيجة لنكبات يوليوز، التي حدثت بدون أسباب معقولة، وبسبب جبن الكولونيلات الذين لم يساندوا فرقهم العسكرية. كل هذه الأسباب كان يؤمن بها مافيولي.

وفجر الفاتح من شتنبر، وصل سان خورخو إلى ميادين "تكلمانين". كانت القشلة مخربة عن آخرها، ولا اثر للعدو، وكان المكان مفروشا بالقتلى الإسبان. وحسب ما اشيع، فإن ضابط الجيش كان هنالك في الخلف. فاصدر سان خورخو اوامره بإحضار الملازم ثان. وأمام الجيوش التي تشكلت وانتظمت، وأمام الملازم الذي ذهل وشحب لونه، أصدر سان خورخو أوامره باعتقال هذا الأخير فورا، ودعا إلى مثوله أمام مجلس الحرب. وفي نفس اليوم، أعطيت الانطلاقة لحملة الاعتقالات التي بدات في حصن

روسترو غوردو. وبعد مرور أسبوعين، اختنق مافيولي من كثرة الإنذارات التي كانت تحمل في طياتها الإهانة والذل، وقرر وضع حد لاحتضاره، فانتحر برصاصة في راسه.

وجاء هذا الحادث في بلاغ حرر يوم الخامس عشر من شتنبر، كانت خيوطه متشابكة بطريقة غير عادية، فصار الموضوع غامضا يلفه اللبس. وجاء في هذا المحضر ما يلي: «لقد توفي الملازم ثان، السيد مافيولي رودس، الذي حاول الانتحار». ثم جاء سولانو، وروى الحادث التعيس. وعن تصرفات مافيولي اورد انه كان يظن ان تبعاتها لن تؤدي به إلى المحاكم، في الوقت الذي كان عليه قتل الكل رميا بالرصاص. واسترسل في حديثه امام قلق الحاضرين في البرلمان، واوضح ان رؤساء الملازم «هم من اشفقوا عليه، وناولوه مسدسا ليضع حدا لحياته»[61].

وبعد توقف العمليات العسكرية، انتشرت انتقادات جاءت هذه المرة من داخل الجيش. فتزعم "ريكيلمي" هذه التنديدات، فاوضح قائلا: «إن إسبانيا لن تقوى على احتمال سيطرة مستديمة على المنطقة، فإذا ما ارادت ذلك فلها ان تؤمن وجود خمسمائة الف رجل هنا»[62].

اما بالنسبة للريفين، فقد غدا حلمهم الكبير هو طرد المستعمر الإسباني. ومفاد ذلك، انباء اوردها بعض الفارين الذين اخبروا الإسبان بتحركات بعض الأولياء الصالحين، الذين يصولون ويجولون في الأسواق، ذاكرين أن بنادق ومدافع المسيحيين ستتحول إلى ماء، وان المسلمين سيحكمون العالم[63].

ومن جهته، ادلى برنكر إلى الصحافة بتصريحات مفاجئة، فبعد استجوابه من طرف "بوراس" Borras، وسؤاله عن نوعية الاستعمار الذي يفضل، اجاب: «إنها الحماية، وبالضبط كما يفهمها الإنجليز، على اساس انها روابط ائتلافية كونفدرالية». وبعزيمة وحزم غير مألوفين، اضاف ان كل المستعمرات ينتهي بها المطاف إلى نيل الحرية والانعتاق من العبودية، والمغرب لن يكون في المستقبل حالة خاصة.

وبعد ان ذكره "بوراس" برغبة الشعب الجامحة في الأخذ بالثار، علق قائلا: «إذن، انتم لستم موافقين على إبادة هذه السلالة». فاجابه برنكر، وهو يهدئ من روعه: «لا احد يريد هذا وانا كذلك. كفى من هذه الهراءات. إننا نعاقب إلى الحد الذي نراه مناسبا. نعم، لكن أن نبيد ارضا من سكانها، فهذا غير مقبول»[64].

الموتى يعودون إلى الزعيم الريفي

قبل ان تستانف حرب الاسترداد مسيرتها بيوم واحد، تنفست مليلية على صخب وضوضاء عارمين. وكان ذلك بسبب ظهور فيليب بنيا Felipe Peña، الذي حسبه الكل قد مات في أعرويت. فقدم إلى المكان صحبة اثنين من الأهالي. انتهى الأمر بـ"بنيا" الذي لم يستعد عافيته بعد من جراء الجرح الذي اصابه في راسه[65]، بإحدى المداشر المجاورة "لأطلاطن". وهناك احترف مهنة الطبيب-العشاب، واستطاع بخبرته وبشاشته ان ينال إعجاب الريفيين وينال ثقتهم. وفي يوم السادس عشر من غشت، وصلت أفواج متعددة من كتيبة نفارو تناهز العشرين جنديا[66]. اصبح الموتى يعودون إذن.

وبعد مرور شهر كامل، وصل إلى مليلية شبح آخر، كان لطبيب يعرف باسم انطونيو فاثكيث برنابو Antonio Vázquez Bernabeu، الذي عاش بعد سقوط قشلة بوجماجن، المركز الأمامي لقوات سيلفستري آنذاك. نزلت الحامية إلى حفرة أنوال بعد إتلافها للمدفعية، وهناك طوقتها الحَرْكة ففتكت بها عن آخرها[67]، ولم يسلم من واحد وتسعين جنديا سوى خمسة وعشرين، كان القائد "سالطو" Salto واحدا منهم. ولم يكن رد فعل "فاثكيث" معاكسا للسلوك الذي انتهجه "بلوما دي لوس آربوليس" في تلك العملية العصيبة يوم السادس عشر من يونيو، حيث كان يدافع عن جرحاه بطلقات نارية نظيفة، وذلك حتى لا يتم القضاء عليهم كليا. فاعجب الريفيون به، واحترموه وقدروا مهنته كطبيب.

وعن انطباعاته حول ايام يوليوز المشؤومة، اشار فاثكيث برنابو إلى أحد المشاهد البطولية، حيث وُجد بين انقاض احد الحصون جثة قائد واثنين من الملازمين التابعين لفرقة الرشاشات، مرمية فوق آليات مصفحة. وما ان حل بانوال، حتى راى مشاهد السلب والنهب التي قام بها الريفيون، فعلق على هذه الفرجة بقوله: «لا اظن انني سارى في حياتي مجانين اكثر من هؤلاء المجانين المهووسين بالنهب، حيث يسلب الواحد منهم من يد الآخر، ويرتمون على صهوة البغال التي تفزع فزعا شديدا، فتهوى بهم على الأرض وترفسهم بحوافرها، وهم يصيحون كمن يتخبطه الشيطان من المس».

وحدث أن سيق فاثكيث هذا، إلى حيث زعيم الثورة الذي استقبله وهو محاط بكتلة هائلة من الغنائم، وهي حصيلة ما نبهوه من المعسكر. فاقترح عليه عبد الكريم الذي

كان يعرف سمعة فاثكيث وشهرته بالريف، التي اكتسبها بعد توليده لنساء الشيوخ (وهذا مكسب عظيم وثقة كبيرة)، أن يكون طبيبه. وبالرغم من أن العرض كان لا بأس به ماديا، إلا أن فاثكيث أجابه قائلا: «إن الإسبان ليسوا أنذالا، ليتظاهروا بالصداقة وفيما بعد تأتي الخيانة». فاغتاظ عبد الكريم وأمر بحجزه بأجدير.

كان فاثكيث يعتني بالأسرى الإسبان، دون أن يهمل الريفيين. وعن ذكرياته قال: «كنت أداوي وأعالج الناس في بعض الأسواق وسط احتقار بعض الأطباء وفضول الكثيرين. ومرة رأيت كيف أن جريحا أصيب برصاصة في صدره، يتداوى بمعجون الأسنان». هكذا كان هذا الإسباني يداوي رجالا عششت الديدان في جروحهم، حتى يتماثل الجرح للشفاء. واصطدم الطبيب بجهل القبيلة، التي لا تتوانى في مسح مرهمه وتعويضه بدهنات مركبة من خبز ممضوغ، وأوراق الذرى وبعض الحبال والأنسجة القذرة»، فأكد فاثكيث أن الأغلبية كانت تموت وهذا أمر طبيعي[68].

تميزت الأسابيع الأولى من الأسر بحسن المعاملة والمآكل الطيب، دجاج وأرز في الصحون مع الشوكة والسكين. وما إن توغلت القوات الإسبانية أكثر داخل الريف، حتى تغيرت الأوضاع واشتدت القسوة. فهذا الزحف لم يولد سوى إفساد معنويات الأسرى، إذ لا حديث سوى عن سبتة ومليلية، وفي كل مرة نسمع عن سقوطهما.

وبوصول أحياء أعرويت، كان لابد من التنازل لصالح الجنرال نفارو عن السرير الوحيد الذي كان موجودا. لقد تكدست جموع تزيد عن اثنين وستين رجلا، في بيت واحد أُعد لاحتواء الأسرى. وعند إحساسه بالضعف والهوان، قرر فاثكيث الفرار واللحاق بالحسيمة سباحة.

وربما في إحدى ليالي شتنبر، مر الزمان على فاثكيث دون أن يشعر، وخانته قواه فلم يعد يستطيع مواصلة السباحة. كانت تفصله عن الشاطئ ثلاث كيلومترات، فَأسرع، لكن ولسوء حظه، اكتشفه الحرس الريفي وبادروا بإطلاق النار عليه.

وبالرغم من حرصه على عدم الشوشرة أثناء سباحته، إلا أن الريفيين واصلوا إطلاق عياراتهم النارية المصوبة في اتجاه الصخرة. توقفت أخيرا هذه الطلقات المنهمرة، وخيم صمت رهيب. وللتخفيف من حدة التعب، واصل رحلته بالسباحة على الظهر[69]،

فوصل إلى الصخرة الوعرة والرمادية اللون، وصعد من جهتها الشمالية إلى أن وصل إلى فتحتها الأولى، فاندس فيها. ويوم الثالث والعشرين من شتنبر، حل بمليلية. وفي نفس يوم وصوله، وفي حضرة برنكر، أدلى بتصريحات نُقلت إلى لاثيريا. وهكذا، تم الكشف عن حقائق مذهلة، تم التستر عليها وإخفاؤها عن الراي العام،

،إن الضباط يُعاملون معاملة حسنة، بالرغم من أن الغذاء كان هزيلا. إلا أن الوجبات التي كانت تُرسل من هنا كانت تكميلية. أما عبد الكريم فكان يعامل أسراه ببشاشة. (...) وعن الجنرال نفارو وباقي المحتجزين، فإنهم يتشوقون إلى الحرية، لكنهم صابرون على ما أصابهم، ينتظرون، (...) في البداية، كانت الحركة تطمع في أن نتخلى عن معاقل سلطاتنا، لكنها فيما بعد، سمحت بأن تظل هذه النقاط تحت سيطرتنا، واشترطت أن نبادر إلى إرسال معلمين ومهندسين...إلخ، لكي يعلموهم الحضارة[70].

ومع الصحافة، أعطى فاثكيث صورة ذات وجهين لعبد الكريم، فقال عنه إنه رجل لا يعرف للطمع معنى ،فقد أكد لي أنه لا يريد المال، وأن كل مبتغاه هو أن نرحل من المكان. وفيما بعد، وصفه بالحقير والانتهازي إلى اقصى حد، إذ أوهم العديدين أن الأوراق النقدية الإسبانية من فئة خمسين -مائة- ألف بسيطة لا تساوي شيئا، فاحتفظ بها لنفسه، وها هو اليوم يمتلك أكياسا كاملة.

وأدلى فاثكيث بتفاصيل أخرى تميط اللثام عن هذا الجانب القاسي لعبد الكريم، الذي كان فظا غليظ القلب مع رجالاته. فحينما أخبرته بالعدد الهائل من الخسائر البشرية التي ذهبت ضحية إحدى المعارك، قال لي، ،هذا أفضل، لينقص عدد المتوحشين،. ونفس المواقف امتدت لتشمل الأسرى، وذلك أن الأدوية التي كنا نحتاجها، بقيت هناك في الشاطئ قرابة ثمانية أو عشرة أيام، دون أن يرسل أحد لجمعها. كما أضاف فاثكيث نعتين آخرين، مثال أن عبد الكريم خُلق لمهام عظيمة ولجمع شتات شعبه، وأنه كان زعيما مهموما، فتوقع أن تكون نهايته هي إما السقوط في يد الإسبان أو الموت على يد أتباعه، وإما الفرار إلى مكان لا يعلمه سوى الله[71].

هكذا إذن، صُورت معالم شخصية أنوفة ومتعجرفة، شخصية قاسية وبرغماتية، صلبة وعنيدة. لقد كان الرجل الريفي بحق.

خوان، بحار الناظور وسبعون آخرون

كان القتال على الكوروكو قد احاط بالجبل من كل جوانبه، وامتدت الاشتباكات بعيدا لتطال حصن كسابونا Casabona. وبعد اصطدامات عنيفة وشرسة جرت هناك يومي الرابع والثامن من شتنبر، تم إخضاع الخط، واهدرت أرواح ستة وخمسين شخصا، وجُرح مائتان من الجند، أسف لهم الإسبان كثيرا. وفي المقابل، سجلت الحَرَكة في صفوفها ضياع مائتي رجل. وهكذا، باتت الجبهات الريفية تتقلص رقعتها وتتراجع في اتجاه الناظور.

ويوم السادس عشر من شتنبر، خرجت كتيبباين بقيادة سان خورخو وفيدريكو برنكر، اخ المقيم العام، مؤلفتين من خمسة عشر الف رجل، معززة بخمسين قطعة من المدفعية، واسطولين بحريين. فذهب الإسبان لملاقاة عدو يقدر عدده بنحو ستة آلاف عنصر.

وسُجلت خسائر فظيعة في كلا الطرفين المتنازعين. فإسبانيا على سبيل المثال، فقدت ثلاث وثلاثين شخصا، وجرح لها مائة وثلاثة عشر جنديا[72]، لكن الريفيين وبعد تيقنهم من فشلهم في بسط نفوذهم على جبل عروس، وكذا تلك الريوتين المتاخمتين للناظور، ارتأوا أن يتنازلوا عن السيطرة على تلك البقاع المقفرة. ومن جهة اخرى، وصفت جريدة أ.ب.سي، العملية بالهائلة جدا، ونعتت هذا الزحف الذي كانت ترافقه فرق المشاة والفرسان وتظلله أسراب الطائرات "بالجميل جدا"[73].

كانت الآمال معقودة على العودة إلى الناظور، وكانت حماسة حرب الاسترداد قوية لدرجة كبيرة. كما أن الرغبة في الانتقام التي تذكيها الصحافة، كانت تحرض الناس. ففي صحيفة أ.ب.سي، تمت المطالبة بعملية صارمة ومدمرة لكل الأوكار، التي يختبئ فيها الأعداء. ودققت الجريدة، «أنه في حالة ما إذا تفادى الريفيون المواجهة، ولكيلا تبقى الخيانة في معزل عن العقوبة، فعلى حرب الإبادة أن تتجه إلى مداشر العدو. فإذا استسلمت ساكنة القبائل، آنذاك يكون الوقت سانحا للتحاور والاتفاق على نوعية السياسة التي يجب أن تنتهجها إسبانيا مع المغرب»[74].

وهكذا خرج الإسبان بروح حبلى بالرغبة في الانتقام والأخذ بالثأر. لهذا السبب، سميت تلك الحملة الحربية المتاججة بحرب *الانتقام*. لكن ثأر الإسبان لم يَدع لهم خيارا

آخر سوى الإجهاش بالبكاء. فانتشرت قواتهم في كل مكان، وصارت تسلب وتنهب وتخرب البساتين والديار. وعن تلك البقاع التي التهمتها النيران، قال كورشانو Corrochano، «إن روائح الحريق والجيفة، كانت تنبعث من هناك. فكان لابد من دفن الجثث، إلى أن وصل العدد إلى واحد وسبعين جثة. وبالرغم من اكتشاف ثمانية أشخاص يحتضرون تقريبا، في قاع بئر متعفن، فإن ذكرى أحداث الناظور ستظل وشما محفورا في ذاكرة الزمان.

لكن الفاجعة الكبيرة، تجسدت فيما يسمى بالبيت-المجزرة، وهو مكان ذاق فيه المعمرون ألوانا شتى من التعذيب. فمنظر البيت كان يُفضي بالواحد، مهما كان طبعه هادئا، إلى الغثيان والتقيؤ. فالأرض والأركان والجدران كانت ملطخة بالدماء، دماء سالت وانسابت إلى أن اجتمعت في بركة كثيفة تكونت على وجهها قشرة، حامت فوقها كل أشكال الحشرات. أما فيما يخص الجثث، فقد كانت مشوهة المعالم لدرجة يصعب معها التعرف على أصحابها. كل ذلك كان بسبب التعذيب الوحشي، لكن الشيء الوحيد الذي أثار انتباه الكل، هو ما تضمنه أحد الجدران من عبارات تقول: «إذا حدث ودخل أحد إلى هذه الغرفة، فليعلم أن النيران قد التهمتنا جميعا، ثلاثون رجلا وامرأتان. مرت بنا خمسة أيام لم نذق فيها طعم المأكل والمشرب، وما رأيناه كان فظيعا. إخواني الإسبان دافعوا عنا. وتضرعوا لله أن ينقذ أرواحنا. كتبه خوان، صاحب الزورق بالناظور».

تطرق "بوراس" لهذا الحادث بالتفصيل، ورصد لنا منظر الجنود الإسبان وهم يتجولون داخل هذا الوكر السافل، فلزم البعض الصمت، واقسم البعض الآخر على الانتقام لخوان، بحار الناظور الذي مات شهيدا، وكذا لكل أولئك الذين ذهبوا مثله ضحية الغدر والوحشية[75].

تيزا: جنرال يركض وقبطان عند العقبة

بعد استرجاع الناظور، لم يكن التقدم نحو سلوان أمرا ممكنا إلا إذا تم تحرير تيزا. هذا المعسكر الشامخ، والمتموقع جنوب غرب مليلية، والمحاصر منذ تسعة وأربعين يوما. وللتخفيف من وطأة الأحداث الدرامية، تشكلت كتيبتان يقودهما كل من الجنرال سيرفنط Sirvent، والكولونيل طويرو Tuero، من عشرة آلاف شخص. معززين بثلاثة عشر بطارية (أي ما يعادل خمسين قطعة حربية تقريبا). ويوم السادس والعشرين من شتنبر، خرجت

الكتائب لتباشر عملها. لكن نيران الريفيين تصدت للمهاجمين، وأردتهم أرضا، فتقهقرت الصفوف الإسبانية، وعادت أدراجها لا تنوي شيئا. تطايرت الشتائم وتبادلت القيادات مع "كابلكانتي" -الذي كان قائدا عاما آنذاك بمليلية- عبارات اللوم والعتاب.

كان خوصي كبالكانتي دي البوركركي José Cavalcante Alburequerque، واحدا من خاصة الملك. الكل كان يعتبره رجل حرب لا يشق له غبار. كيف لا، وهو الذي تصدى يوم العشرين من شتنبر 1909، لألف وخمسمائة مقاتل ريفي بجيش لا يتعدى خمسة وستين فارسا من الفرقة الرابعة لكسادورس التابعة لأفونصو الثالث عشر [76]. كان كبالكانتي -الذي تم توشيحه بوسام الشرف- يعرف كيفية الهجوم. ومرة، وببطولة كبيرة، شن هجوما جديدا وهو ابن الرابعة والأربعين عاما، وذلك بعد إقناع القبطان. من جهة أخرى، وبعد مرور ثلاثة أيام على فشل الحملة ضد تيزا، تكررت المحاولة فجمع كل من "سيرفنط" و"طويرو" ستة عشر الف شخص، تبارزوا مع حركة مخيفة مكونة من تسعة آلاف مقاتل. وفي مناسبة أخرى، فتك الريفيون بالإسبان. الشيء الذي أفرز من جديد تطاير الكلام الجارح بين قيادات مليلية.

وبعد أن تيقن كبالكانتي أن القافلة مازالت متوغلة هناك في العقبة دون حراك، دنا من القبطان المسؤول وهمس له بالحديث، «إني ذاهب إلى تيزا، وعليك أن تلحق بي رفقة القافلة. فإذا ما وصلت، وهذا شيء أستبعده، فلتشعرني بذلك»[77]، ودون أن يهمس بكلمة أخرى، وكز كبالكانتي دابته، وانطلق بجواده المعروف باسم "بادو" Bado، وتتبعه حارسه الذي أصيب بالدهشة. وفي الخلف بقي هناك الرجال والدواب.

امتدت خلف القبطان ماريانو أرانغورن لانديرو Mariano aranguren landero، الذي يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنة، قافلة طويلة كثيرة البغال (ثلاثمائة بغل). كان هذا القائد قد رأى سابقا كيف أن كبالكنتي كسر كل حواجز وأسلاك المعسكر، فوجد نفسه مجبرا على فعل نفس الشيء. تقدم نحو الأمام مع رجاله، لكن رشاشات وبنادق الحركة تصدت لهم. لم يكن لأرانغورن حصانا يركبه، وكذلك الحال بالنسبة لرجاله. كان سيره بطيئا ومتعثرا. لكنه ورغم كل الظروف، دخل إلى تيزا وساعده ينزف دما. فباغت كبالكانتي بقوله، وهو يتأرجح من جهة إلى أخرى، «سيدي الجنرال، تفضل، ها هي ذي القافلة أو ما تبقى منها إن صح التعبير. فغالبية البغال توفيت خلال رحلتها الدموية. وعن مرافقيه من الرجال، لم يعط سوى لائحة طويلة من الضحايا.

كانت حصيلة احداث تيزا، تبلغ واحدا وثمانين قتيلا وثلاثمائة وثلاثة وثمانين جريحا[78]. اما فيما يخص الماء والمؤن والذخيرة، فكمياتها لم تصل إلى المكان إلا في حصص ضئيلة. اما الكرامة العسكرية، فقد فقدت ماء وجهها[79]. لولا جسارة كبالكانتي وشجاعة ارانغورنا ورجاله، لكانت الطامة الكبرى.

هذا وقد سجل محضر قضائي ضد "طوريرو" و"سيرفنت"، وكذلك الحال مع كبالكانتي. ورغم حماستهم وولائهم للعرش، لم يتوان الملك في انتقاد تهوراتهم، لكن سنة 1924 ، أصدر عفو ملكي في حقهم، وبقي أرانغورن بدون وسام الشرف، الذي ترشح له سنة 1922. لكنه ترقى إلى درجة جنرال ممتاز[80].

واصل الإسبان مسيرتهم، وأمام هذا الزحف، وقف الريفيون وقفة رجل واحد، وعن هذا القتال العنيف والهائل قال "بوراس"،

،كان الريفيون يقاتلون بالفطرة، فلا رئيس لهم ولا تعليمات عسكرية ولا أوامر تصدر من احد. كان الشخص الواحد منهم ينقض على قافلة مكونة من عشرة آلاف رجل، واحيانا اخرى كانت العشرة آلاف هاته تهاجم جنديا واحدا منهم. كل فرد من الطرفين المتنازعين كان ياخذ بمبادراته[81].

نزل خبر وصول متطوعين من فرق إسبانية-كوبية إلى سبتة -والمقدر عددهم بنحو سبعمائة وواحد وثلاثين نفرا- بردا وسلاما على الشعب، الذي كانت معنوياته قد هوت إلى الحضيض.

وصلت الفرق الإسبانية-الكوبية -المكونة من أربعمائة وستة وستين إسبانيا، وخمسة وعشرين كوبيا، وباقي الجنسيات المختلفة التي وصل عددها إلى خمس عشرة جنسية، على متن سفينة مانويل دي كامبس Manuel de Camps. كانت الانطلاقة من لاكورونيا، حيث حطوا رحالهم يوم الرابع من اكتوبر، وذلك بعد اجتياز رحلة سريعة، استغرقت اثنا عشر يوما من لاهافانا. ويوم التاسع عشر من شتنبر، وصلت فرق اخرى من المتطوعين، يقدر عددها بمائتين وسبعة وثمانين وحدة، ابحرت على متن باخرة الأميرة إسبيلا دي بريون Isabel de Borbón، فانطلقت الرحلة من بوينوس أيرس وانتهت بميناء قادس. كانت مخيلة المتطوعين مشحونة بذكريات مثيرة تعود للحظة الوداع، التي جرت

فصولها بموانئ بوينوس ايرس، حيث اجتمعت حشود كبيرة وصل عددها إلى خمسين الف شخص تقريبا، اتوا ليشدوا على أيدي الجنود، ويشجعوهم في انطلاقتهم نحو الحرب بالمغرب[82]. كانت سبتة هي المحطة الأخيرة التي وصلوا إليها في بارجة غيين سرويا Guillen Sorolla. وبعد انقضاء أربع سنوات، عاد المتطوعون الأرجنتينيون إلى نفس الميناء السبتي، ليبحروا من هناك في اتجاه أوطانهم، بعد ان ذاقوا مرارة الحرب في الريف. ولم يرجع من ذلك العدد الإجمالي (مائتين وسبعة وثمانين) سوى خمسة وعشرين نفرا[83].

* ماورا وضميره المهني

وفي نفس اليوم الذي رفع فيه كبالكانتي الحصار عن تيزا، انعزل ماورا عن العالم وانفرد بنفسه داخل مكتبه. كان كل همه هو التخلص من هذا الثقل المعنوي الذي يؤرقه، فحاول التغلب عليه بمفرده. فهم بكتابة كل ما يختلج صدره من شكوك، والبوح بكل تصريحاته. كل هذه الأحاسيس تولدت ساعة وجوب التفاوض بشان الأسرى الإسبان في كل من انوال واجدير.

ويوم العشرين من غشت، اخبر برنكر لاثيربا بنبأ عظيم، يفيد انه استقبل (عبر رابط يجمعني بعبد الكريم) رسالة تتضمن شروط هذا الأخير لإطلاق سراح المحتجزين. وأعرب عن اندهاشه من الرقم المطلوب، الذي كان خياليا (إذ يقدر بثلاثة ملايين)، رفضتُ إعطاءها[84]. وبمرور الوقت، أضاف عبد الكريم إلى طلباته مليونا آخر تعويضا عن الأضرار والخسائر التي لحقت بالممتلكات الريفية، الشيء الذي أثار حنق ماورا. كما طالب كذلك، بالإفراج عن المائتين من الأهالي المعتقلين بالسجون الإسبانية بالمغرب. وعند منتصف شهر شتنبر، وبعد اجتماع مغلق للوزراء، استدل ماورا بقوله، «بما ان عبد الكريم وعشيرته قد رفضوا تماما إرسال قوات لقتالنا، فإنه بات من المباح ومن الأحسن إرضاءهم بالمال». وبعد وصفه لقبيلة بني ورياغل بأنها العصب الأكثر قوة وعداوة، والأكثر إصرارا على جلائنا من أرض المغرب، وبما أنه معترف بهم من لدن المورو والعالم بأسره، اكد ماورا انه ما دام التفكير في السلاح خيارا وحلا للمشكل هو المطروح، فإن كل السبل لإطلاق سراح الأسرى لن تؤتي اكلها.

وعن تلك الخيارات المطروحة، ذكر ماورا (الذي بقي حبيس شكوك حادة، فتحرير الأسرى لن يزيد العدو سوى قوة من الناحية الاقتصادية أو السياسية) ،أن النظر في هذه الحلول سيضاعف من حجم الانتقادات بشأن هذا التماطل الذي يطبع المباحثات والقتال[75]. وافادت مجموعة من القراءات التي جرت في تلك الأيام لتصريحاته، أن حالة يأس أصابت ماورا، الذي أدلى بأفضل تصوراته السياسية التي تتلخص في تقديم البلاد على العباد. وفي سنة 1923، أوّل "غارسيا بريطو" الأمر بطريقة أخرى، بمعنى أن الشعب قبل الدولة. فهذه هي الأخلاقيات، وبهذا تعيش الحكومات طويلا.

لم تستطع الحكومة بصلابتها أن تتصدى للاكتئاب الجماهيري ولا للانشقاق البغيض الذي وقع في صفوف الجيش. هذا وقد تزعمت مجموعة من الضباط المهندسين أولى مظاهر التمرد. قام بالتنسيق فيما بينها الكومندان الثوغراي Alzugaray، الذي كان على اطلاع بالمآسي التي يعيشها زملاؤه، والمقدر عددهم بأربعة وعشرين نفرا، والذين طالب عبد الكريم بثلاثين الف ريال لتحريرهم[86]. كانت فدية الأسرى على وشك التسليم، وبعد أن احتشد المحتجزون الثلاثة والعشرون من أصل أربعة وعشرين بأجدير، تدخل لاثيريا ونبه الجنرال لوس أركوس Los Arcos إلى تلاعبات هذه الاتفاقيات. كانت الحكومة على حق، لكن الجرح الوطني كان ينزف، فآل به الحال إلى التنديد بالملكية.

اهتزت إسبانيا: وتمت السيطرة على الكوروكو والحديث عن سلوان

بعد إعادة الاستيلاء على "تيومة" يوم الثالث والعشرين من شتنبر، سلكت المناورات الإسبانية مسلكا آخر. إذ حولت وجهتها نحو الجهة اليمنى، وذلك بهدف التربص للعدو من الخلف، حيث الجبال الجنوبية المحاذية للكوروكو، الزغنغن وهضبة أطلاطن. فظهرت بذلك إمكانية تقويض المقاومة الريفية من الخلف، ورفع الحصار عن مليلية.

وفجر اليوم الثاني من اكتوبر، انطلقت ثلاث فرق عسكرية قوية - بقيادة برنكر (فديريكو)، كبانياس، وسان خورخو - وانتشرت على طول الخط. وأثناء المناوشات الأولى، حافظت الحركة على قوتها وتماسكها، وهي تستند إلى حافة الخنادق، التي حُفرت بعمق وامتلأت عن آخرها بأشخاص دافعوا عنها دفاعا مستميتا، حسب عبارات

المقيم العام لوزير الحربية. وبعد قليل، حل الدمار بالريفيين. البداية كانت مع المدفعية، التي أجبرتهم على الانسحاب إلى الخلف، فبقي عدد كبير منهم ملقى على الأرض. وفيما بعد، وتحت وابل النيران، اعترض الفرسان سبيلهم، فوقعوا بأيدينا وهم يتلفظون انفاسهم الأخيرة[87]. والحقيقة ان فصول هذا القتال، جرت بدون شفقة ولا تانيب ضمير. وهكذا أصبح الكوروكو يوم العاشر من اكتوبر ملكا للإسبان.

وفي مجلس النواب، كان الموعد ساخنا مع جلسات تحديد المسؤوليات. وفي هذا الجو المشحون والمكهرب، تحدث بريطو عن تعليق تناولته صحافة مدريد -ولربما نشرته كذلك صحيفة ا.ب.سي بقلم كاتبه كورشانو- منتقدا التصوير التالي: «تلقت دوقة فكتوريا هذا الصباح من الجنود، سلة من الورود الحمراء تلألأت بداخلها، أجمل رؤوس اثنين من المورو، من أصل مائتي جثة لقيت حتفها البارحة[88]. كانت الرؤوس تشع بلونها الأسمر وكأنها رخام مبلط». فتملك الهلع كل الحاضرين بالبرلمان.

ولدت كارمن انغلوطي إي ميسا Carmen Angloti y Mesa دوقة فيكتوريا -وهو لقب نسب إليها عن طريق زوجها، الذي كان حفيد الجنرال إيسبارطيرو Espartero- يوم السابع من شتنبر 1875 بمدريد. كانت امراة ذات كفاءات عقلية وجسمانية عالية، فبعد اطلاعها على أحداث انوال، انزعجت كثيرا للوضع الصحي الذي أطبق على مليلية، فلم تتردد في اللجوء إلى منظمة الصليب الأحمر لطلب العون من مجموعة من الممرضات اللواتي تطوعن للخدمة. وفي غضون أيام قليلة، وصلوا إلى المكان. كان "بريطو" قد تعرف عليها بمليلية، فاعجب بشجاعتها ومهنيتها المتفوقة. وبعد مُضي اشهر، وبمناسبة إحياء الذكرى الشعبية لكارمن انغلوطي، قال في شانها: «هي تجسيد حي للطيبوبة، والتواضع والشجاعة. وكلها خصال تتمتع بها شخصية دوقة فيكتوريا»[89]. لكن وبحلول السابع والعشرين من اكتوبر 1921، كان على "بريطو" ان يشهر أولا الحقيقة التي كانت تدور في إفريقيا.

همّ لاثيريا بالحديث، وذكر انه حينما عثر الجنود في تلك الأيام على جثث زملائهم ممزقة، وعليها علامات التعذيب واضحة، وبجوارهم العديد من النساء التعيسات والأطفال وشيوخ تلك الحاضرة (الناظور)، كان اي حديث داخل البرلمان الإسباني عن فظاعة الإسبان، وفي ظل غياب اي مراقبة، سينسب إلى السيد بريطو.

وأضاف الوزير قائلا، «من المستحيل أن نكون نحن مثل الحيوانات المتوحشة. إننا شعب متحضر، ومن واجبنا التعامل معهم رغم كل الفظاعات بأسلوب حضاري، واعتبارهم آدميين». وأكد لاثيربا أن معاملتهم للريفيين جرت تبعا لمواثيق حقوق الإنسان، مطبقين في ذلك القوانين والمعاهدات العسكرية، كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وأنهى حديثه بقوله: «وكل هذه الأمور التي قرأتموها عن رؤوس المورو التي أهديت لسيدة جليلة، وسعيتم أنتم لتكريسها، لا تعدو كونها أساطير لا أساس لها من الصحة»[90].

لم يكن بريطو بحديثه يكذب أو يصور للعامة حقائق خرافية أو وهمية. فالحرب حقيقة كانت ضروسا، وخصوصا بالريف، والوزير هو من كان يخدع الناس. فـ لاثيربا كما لا يخفى على أحد، تلقى إشعارا من المقيم العام الذي تحدث معه بشأن معركة اليوم الثاني من أكتوبر -والتي قال عنها برنكر، «لا أذكر أنني شاهدت في حياتي قتالا أعنف من هذا الذي رأيته اليوم، ولا شراسة أعرب عنها كلا الطرفين المتنازعين، وهم يتقاتلون في شجاعة». وعن الخسائر التي تكبّدها العدو، قال: «إن نسبة ما يزيد عن مائتين من القتلى كانوا مرميين بميدان القتال، مما يؤكد أن موتاهم تجاوزوا الألف قتيل». لكنه وبوصوله إلى الحديث عن المراحل الأخيرة من النزاع، دقق المقيم العام في تصويره للوزير، فقال: «في هذه الجبهة (الواقعة بين السبت والزغنغن)، كانت فرقنا من المشاة تصب جام غضبها على جموع الريفيين المتعطشين للفتك بمقاومينا، فسقط منهم الكثير، وبتر جنودنا رؤوسهم وجلبوها إلى الناظور»[91].

لم يتساهل الريفيون أثناء القتال، ولا حتى أثناء التنازلات التي جاءت نتيجة للغدر. وكذلك كان الحال مع الإسبان، الذين لم يتسامحوا بدورهم. وقد حمي وطيس القتال، وانبثقت سلسلة من المفاجآت. ففي نفس البلاغ لليوم الثاني من أكتوبر، ذكر برنكر بعد الإشارة إلى التدخل الشجاع للفرق النظامية السبتية، التي أُبيدت عن آخرها بعد اشتراكها في اشتباكات عنيفة، وبعد تطرقه إلى تصرفات "طرسيو"، التي لا تقل مثالية عن سابقاتها، ذكر بشأن الفرقتين العسكريتين معا، أنهما وصلتا مع العدو إلى القتال جسدا لجسد وبشجاعة تفوق كل إطراء، فأجهزتا عليهم داخل خنادقهم، وخلفتا في صفوفهم العديد من القتلى والجرحى الذين قضوا عليهم. وهما تقاتلان طيلة اليوم الواحد بكل جسارة[92]. كانت الحرب في الريف ريفية بحق، وبالنسبة للجميع. وهذا ما لامسته قوات سان خورخو في الزغنغن ما بين الثامن والتاسع من أكتوبر، إذ وجدوا

هناك جثثا للاسبان، وقد بدت عليها علامات التعذيب الشرس. ومن بينهم كانت امراة تعيسة، ثقب بطنها بوتد للخيمة[93]. (حسب الرواية الدرامية التي حكاها لاثيريا للملك).

وبعد فشل الحاميات الخلفية، سقط الكوروكو بيد الإسبان وتمكّنت الفرق العسكرية الثلاث -فرقة برنكر (فيدريكو)، فرسنيدا، وسان خورخو- من إحكام السيطرة على الجبل، وذلك في صبيحة يوم الاثنين العاشر من اكتوبر على الساعة التاسعة والربع. ونُكس العلم الإسباني على قمة باسبل Basbel الشاهقة.

وبعد مرور ثلاثة أرباع من الوقت، تمت السيطرة كذلك على قمة القلة وهضبة حاسدو التي كانت تحتضن المدفعية. وبعد اجتياز خنادق اللوبو وإنفيرنو (Infierno)، تم العثور على اسلحة شنايدر من عيار 75 مليمتر، التي كانت تقصف مليلية. وطفقت المدينة تحتفل باليوم العظيم، فقُرعت الأجراس واكتظت الشوارع بالجماهير، التي همت بإهداء النبيذ والحلوى والماء لكل الجنود العائدين، والذين حققوا انتصارا باهرا في الجبل الملعون[94]. لكن وبالليل، حدث ما لم يكن متوقعا، فحل الفزع والخوف، إذ يمكن القول إن الكوروكو اصبح كومة حطب مشتعلة[95] على حسب لاثيريا، وجاء هذا الفصل انتقاما لكل من راح ضحية حرب يوليوز.

كانت الحركة تنتظر ريثما تشرع كتائب سان خورخو في الانسحاب، لترسل بقواتها فتنقض على العدو وتطوقه. وهكذا، تسببت القيادة المزدوجة -لكل من سان خورخو وكاسترو خيرونا، وقوة العزيمة والإصرار على عدم الاستسلام، في وفاة أربعة وسبعين فردا، ومائتين وثمانية وتسعين جريحا[96]. فتحقق انتصار مفاجئ، بعدما كانت الهزيمة وشيكة. فدبّت انتعاشة في صفوف الجيش، لكن منظر سقوط العديد من الزملاء افقد الرجال صوابهم، فصبّوا جام غضبهم على الجبل. فباتت السنة اللهب تلتهمه ليوم وليلة.

كانت الطريق إلى سلوان خاوية على عروشها، وكانت قلعة الروكي تبدو هناك شامخة لا يقوى على المساس بها أحد، اصطفت بداخلها وخارجها طوابير عريضة من المحكوم عليهم بالإعدام. كانت الحصيلة هي مقتل ستمائة رجل. الصحافة بدورها لم تدخر جهدا في نشر تفاصيل الحادث، فاذاعت رسومات ومخططات تشير إلى مواقع تلك الجثث، اربعة وعشرون منهم كانوا عند القصبة، إضافة إلى ستة آخرين كانوا

بجوار المقبرة، واربعة عند حافة النهر. وعلى حسب الوضع الذي كانت عليه اجسادهم، فإن الموت باغتهم وهم يشربون. ثمانية جثث اخرى كانت توجد بين السكة الحديدية والقرية المجاورة، ومن بينهم كان واحد من جنود الكانطرا، توفي بجانب جواده ولجام الفرس مازال في راحة يديه. وفي الطريق، في اتجاه تيومة لم تقل حصيلة الموتى عن مائة وخمسين، وآخرون كثر كانوا صرعى في الطريق القديم[97]. لكن الفظاعة الكبرى تجسدت بمنزل "إنا" -نسبة إلى نبيذ "شريس الشهير" (Jeréz)- كان مارتينس كامبوس حاضرا بالمكان، فوصف ذلك الكابوس قائلا: «إن المكان لم يكن منزلا فحسب، بل مجزرة، إذ وجدنا في بهو البيت ازيد من مائة جثة. كانت لأجساد مزقت بسكاكين حادة، واخرى صلبت على الجدران، وغالبية الضحايا كانت اعضاؤهم التناسلية مفحمة. والكل كانت ترتسم على صفحات وجهه علامات الألم الشديد»[98].

هذا وقد وجه كبانياس، الذي كان يراس إحدى الكتائب العسكرية، رسالة مفتوحة إلى السادة رؤساء مجالس الدفاع والإعلام، متهما إياهم بعدم الاهتمام والعناية بمعنويات وعتاد الجيش. وهذا ما قاله في النشرة الكاملة، والأكثر مصداقية: «أيها السادة، اسمحوا لي، أن اتحدث بكل عفوية»

«لقد انتهينا لتونا من الاستيلاء على سلوان، وانتهينا كذلك من دفن خمسمائة جثة ضابط وجندي. فافتقار البلاد إلى لآلاف من الجيوش النظامية، جعل الجند ينهزمون بسرعة. وإزاء هذه المشاهد الدرامية، لا يسعني إلا أن أبعث إليكم بكل أشكال الانتقادات واللوم اللاذعين. وإني لأحملكم تبعات اهتمامكم فقط بقشور الأمور. فأنتم المسؤولون الأولون عن تمريغ سمعة القيادة في التراب، وانتم المسؤولون عن التلاعب في الميزانية. فهل نسيتم اننا كنا في حاجة ماسة إلى الذخيرة، عندما أوليتم ظهوركم للجيش، فلم تهتموا بتحسين جودة وحداته».

«لقد عاش أولئك الجند تحت رحمة بعض الجبناء، الذين كنت امقتهم. فليقتص منكم التاريخ، وليقتص منكم اقارب أولئك الشهداء. وإني أعتذر عن اسلوبي الصريح في الكلام، لكنني بهذه الطريقة، اكون قد ارحت ضميري، ورسالتي إليك كبانياس ليست بالسرية»[99].

كان ميغيل كبانياس فرر Miguel Cabanellas Ferrer، يبلغ من العمر تسعة وأربعين سنة. كان صارما مع ضباطه، متفهما إلى درجة انه كان يعتبر نفسه ابا لهم. اما لحيته الكثيفة. الطويلة والبيضاء، فقد اعطته هيبة الجنرال المحنك. كان ذا بنية قوية ونظرة ثاقبة وصريحة، وعرف عنه انه كان قليل الكلام، كثير السمع. ولم تنتشر شهرته إلا بسبب الرسالة، فقد واجهته المجالس الحكومية، وقدمت ضده شكوى بالكذب والفضيحة، تسببت في إقالته فيما بعد من منصبه. وما من شيء اراح الجنرال اكثر من مشاهدته سنة (1922)، كيف ان تلك المجالس تفككت وتفسخت عن آخرها.

مقارعات ومشادات كلامية بين وزير الدفاع ، وبرلمانيين

بحلول خريف 1921، عمّ الغضب في أرجاء البلاد. فمن الوجهة التاريخية، كان من العار ان تظل المكاتب الحكومية مفتوحة، بعد كل ما قيل عنها داخل المؤتمرات، لكنها بقيت تزاول عملها. كان محكوما عليها بالفشل، إذ باتت الأخطار تحدق بها من كل جانب، وجاءت تهديدات تطالب بتفسخها العاجل.

وريثما تحين ساعة الموت المؤسساتي في شتنبر 1923، اعلن البرلمان عدم خضوعه لأي شكل من اشكال التهاون والجبن والاستبداد والمكر. لقد كان حقا برلمانا متمردا ونبيلا، وبما انه (ورغم كل التنديدات) لم يغير من طبيعة الأمور قيد انملة، وبالرغم من كل التوبيخات الموجهة إليه -كان الموبخون هم من يديرون رحى الحرب في المغرب دون أن ينجحوا في إنهائها- قرر البرلمان اتخاذ تدابير اخرى، تتلخص في التصريح بالعجز والاستهتار ورفع لواء الفضيحة، فانتفض الجيش بقوة أمام تلك الهيئات.

وحول موضوع الحرب في إفريقيا، اندلعت نقاشات حادة داخل البرلمان يوم العشرين من اكتوبر. كان ذلك قبل اربعة ايام من وصول القوات إلى جبل اعرويت.

وجاءت مداخلة السيد رامون سولانو Ramón Solano، عنيفة جدا. إذ علل موقفه وبعد تقييمه للأحداث، وبعد إجرائه لمقارنة بين نتائج نكبة الثمانية والتسعين، والواحد والعشرين، قائلا، «إن كل تلك الأسماء، أسماء الجنرالات التي كانت ترن عاليا في

شوارع مانيلا. أولئك الثمانون او التسعون من البلداء، والمعتوهين واللصوص، بغض النظر عن اناس آخرين محترمين، هم بالضبط من كانوا بشوارع مليلية،. ودون أن يسمح للحاضرين بالغرفة بالتقاط انفاسهم، واصل سولانو حديثه واصفا الأحداث بكونها فاجعة فريدة من نوعها. وبعد أن اشار إلى مسؤولية القيادات العسكرية، استدل على ان هول الفاجعة، تتحمل تبعاته كل البلاد، وخاصة الحكومات والقوى الشعبية التي اعربت عن جبنها أمام العدو[100]. هذا وقد قام السيد سولانو بدوريات استطلاعية على جبهات مليلية، وهناك عند الصفوف الأمامية، بادره العديد من ضباط -"طرسيو"، والنظاميين، وضباط بعض الفرق العسكرية كفرقة بورغوس-وكورونا وغرناطة- بالسؤال، والغضب يتطاير من اعينهم، ،تُرى اليس من حقنا، ونحن من نقامر بحياتنا هنا، خاصة بعد ان تساهلنا وتسامحنا، في عملية خلط اسمائنا بأسماء من ذهبوا في فاجعة يوليوز. اليس من حقنا ان نشهد على فرض العقوبات اللازمة في حق هؤلاء الأشخاص الذين استسلموا، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة، ونهبوا الأهالي المنكوبين اشياءهم، وتسببوا في موت العديد من مواطنينا،.

وتعهد سولانو بتبليغ هذه الملتمسات إلى البرلمان، وضمنها انتقاده لوجود جندي واحد تحت إمرة قيادتين اثنتين. وذكر بهذا الصدد، الكولونيل الذي كان يتراس فرقة سبتة، والذي بادره بالحديث، ،بمقدور رجالي أن ينتشروا في كل مكان، لكنك ترى سيدي، الحالة التي هم عليها. بلا أسلحة ولا خيام ولا مؤونة،. في المقابل، همس له في أذنه ضباط آخرون بهذه العبارات، ،لا امل مع هؤلاء الجنود،. فتساءل سولانو عن مغزى الخطاب الأول والثاني، ماذا يعني هذا وذاك؟ فاستنتج ان الأول (أي كولونيل سبتة) عرف كيف يُسير الفرقة، لقد كان قائدا حقا واحسن القيادة، اما الآخرون فلا شيء من هذا القبيل[101].

وروى سولانو تجربة شخصية اخرى، أعطى من خلالها مثالا مؤثرا لمجموعة من الرجال، كان تصورا خاصا عن الجيش، فقال، ،إنني رأيت مجموعة من جنود طرسيو، كيف أنهم كانوا يقتربون من أحد الملازمين، فيهمسون له في أذنه، ،إنك انت الإله،. وذلك لأن الملازم المذكور، استطاع ان يثب ويتخطى الخنادق ليحمل جريحا والعدو امامه، فأعطى بذلك عبرة للجيش. لأجل ذلك كانت الفرق العسكرية، تدرك تمام الإدراك انها صحبة جنود يفضلون الموت، على أن يسقطوا في يد المورو،[102].

ودون ان يعطي مهلة للحاضرين بالغرفة، ندد سولانو بنوع آخر من الجنود المتواجدين بمليلية: اولئك الأشخاص (برتبة قبطان)، الذين يتقاضون راتبا شهريا قدره ستمائة بسيطة، ويصرفون في المقابل ما قيمته اثنتا عشر الفا، بل وحتى اربع عشرة الف بسيطة شهريا على محبوباتهم، اللواتي يمتصن كل ميزانية الجيش. وباسم هيئة الضباط النزيهة، طالب احد الحاضرين بالبرلمان اتخاذ عقوبات من هذا النوع، «كان يُعدم الجبناء وكل الخسيسين، وان تُمنح الجوائز لكل الشجعان والشرفاء». وتبين لسولانو بعد كل هذه الخروقات اللااخلاقية والجائرة، ان ثمة خيطا ابيض بدأ يلوح في الأفق الأسود.

واصل سولانو حديثه بنفس حماسته المعهودة دون ان يعبأ باحد، موجها للحضور انتقادا لاذعا، جاء فيه: «هناك من الضباط من كان يقوم بتهريب السلاح والذخيرة، (ودبت في القاعة همهمات)، وذلك بهدف الحفاظ على مظاهر الترف، والاستئناس بعشيقات مليلية». ودون ان يحيد عن كلماته، استرسل قائلا: «إنه بإمكاني ان اثبت لكم كيف تم طرد ستة اشخاص من فيالقهم العسكرية، بعدما تبين تورطهم في قضية تهريب السلاح. وهي امور جرت بسرية بالغة (وتواصلت الضجة داخل القاعة)». وفي اوج الفضيحة تساءل احدهم: «ولكن ايها السادة، أيضم الجيش فقط عناصر شريفة؟ الم يجر نفس الشيء بالنسبة لفرنسا؟ نفس الشيء تماما».

وامام هذه التصريحات، ظهر لاثيربا جالسا في مقعده الأزرق، وقد بدت عليه علامات الحيرة والغضب. وبعد ان التقط انفاسه، اتهم سولانو بتعميم المشكلة وبإلحاق العار بالمؤسسات. واعتبر انه في تلك اللحظة الحرجة جدا من المسيرة الوطنية والقومية، عوض ان يُمجد تضحيات الجندي الإسباني ومجهوداته، انصب حديثه فقط على عاداته السيئة ورذائله (وعلت في المكان من جديد همسات). لكن سولانو قاطعه بقوله: «إنه كان هناك بين الجند لصوصا، وقد قلت هذا واكرره».

وبعد ان تلقى سولانو دعم ومساندة لاثاغا Lazaga، توجه إليهما لاثيربا بقوله: «بحديثكم عن الجيش الإسباني بهذه الطريقة اللامشروعة، تكونون قد أعلنتم عداءكم للوطن». (وعلت اصوات داخل القاعة)، بعدها توجه إلى الحضور بالسؤال في حركية درامية: «هل منكم من يستطيع القول هنا امام الجمع، إن الجيش الإسباني لم يكن سوى شرذمة من اللصوص؟» (وتدفقت احتجاجات قوية، انبعثت من جهة اليسار)، وتطايرت كلمات جديدة لم تطفئها

سوى عبارات فيانويفا Villanñeva، الذي قال: «هناك أسئلة غريبة، خاصة تلك التي يطرحها وزير الدفاع». (احسنت. جيد، وتعالت تصفيقات من جهة اليسار)[103].

اسهب لاثاغا كثيرا في مداخلته، فاستدار جهة لاثيريا، وعاتبه بقوة: «دم الجيش من دمي، وقد افتديته بالدم الذي يجري في عروقي، لهذا لا يحق لسعادتك أن تلحق بي اتهاما من هذا النوع، (احسنت، جيد)». وإزاء هذا التصريح، فضل لاثيريا الصمت ولم يُعقب على ما جاء في كلام هذا البرلماني المحافظ، والذي كان كولونيلا للمدفعية. كانت للاثاغا عدة أسباب دفعته للحديث، اهمها وفاة ولده خوصي ماريا لاثاغا روييث José María Lazaga y Ruiz، الملازم الثاني من جراء خمسة جروح أصابته أثناء عمليات الانسحاب من سيدي ادريس.

وزير بلا "إخوة"
وقبطان تعوزه التأملات وبعد النظر

يوم الواحد والعشرين من اكتوبر، كان الموعد حاسما مع مداخلة السيد "إيزا" داخل البرلمان، إذ أعلن لجموع الحاضرين ان تواجده بعالم السياسة جاء نتيجة لشعوره بإيمان قوي، وأن تصرفاته كانت من باب الضرورة، وان تحمله للمهام العمومية كان يجري في نظام تام. كما انه مستعد الآن للتخلي عن كل هذه المناصب. ووصل به الحد إلى مخاطبة البرلمانيين بعبارة (أيها الإخوة)، فاستمع الحضور وأصغى في دهشة وشفقة. وتحدث إيزا عن شعوره بالضيق لهول الكارثة، وأعلن عن إصراره على قراءة رسائل برنكر، وذلك لإثبات أن ما حدث من نكبات، لم يكن سوى مفاجاة مؤسفة[104].

أعلن لاثيريا عن معارضته لهذا الموقف، لكن رئيس البرلمان السيد سانتيث غيرا Sánchez Guerra، أعطى موافقته بقراءة هذه الرسائل. فهَم إيزا بتلاوة مضامينها بيد أنه لم يُشر إلى برقية فبراير 1921، والتي اشتكى فيها برنكر من الحالة المأساوية للجيش. فاتضح أن "إيزا" كان انتقائيا. ويوم الخامس والعشرين من اكتوبر، وبتنبيه من لاثيريا، علم "برنكر" الذي كان بتطوان، أن "إيزا" يقرأ رسائله أمام هيئة البرلمان، فأصابته دهشة كبيرة وتألم كثيرا. وبمرارة ذكر للوزير: «... ودون أن يطلب إيزا الإذن مني؟ ولي الحق في ذلك، لأن الرسائل هي في الأول والآخر مِلك لي»[105].

إذا كان إيزا قد فاجأ البرلمان، فإن قبطانا من المشاة سبقه إلى ذلك من قبل. يتعلق الأمر بمركيز منطقة فيسكا Viesca، السيد "ارسينيو مارتينيث دي كامبوس"، البرلماني وحفيد الشخص الملقب بـ"صاحب الهدنة". كان يتحدث عن عبد الكريم انطلاقا من معرفة عميقة بمجريات الأحداث، وعنه قال: «إنه المورو، الذي كان سيقودنا للنزول بالحسيمة». ووصف هذا البرلماني الثورة الريفية بالعجيبة لكونها، اندلعت ونشبت بدعم لا يتجاوز ثلاثمائة الف بسيطة، كان عبد الكريم يتقاضاها عن بعض المناجم. وبهذا النصيب، اقتنت قبيلة بني ورياغل وبثمن بخس، مجموعة من البنادق والذخيرة التي اشترتها من ذوي القبائل التي كانت تخضع لإسبانيا[106].

كان مارتينيث دي كامبوس Martínez de Campos، أول من قدم للحاضرين بالبرلمان بيانا تفصيليا عن اخطاء حصيلة الموتى، والمتعلقة بما يزيد عن ثمانية آلاف من الخسائر البشرية سقطت في الريف. فبعد ان اكد ان عدد من وصل إلى مليلية من الأحياء، كان لا يتعدى الف وثمانمائة رجل، وقدر ان عدد الباقين كان يناهز تسعة آلاف شخص، تساءل عن أولئك الرجال العشرة آلاف ونيف، الذين لم يعثر لهم على أثر في أي جهة.

كبيرة هي، تلك الضجة التي احدثها داخل القاعة بعد ما روى للحاضرين أمثلة عن خروقات برنكر بمليلية، إذ تحدث عن عودة بعض الضباط إلى الحياة، بعدما لقوا حتفهم في بعض الكمائن. هم رجال ساقتهم ارجلهم إلى الإقامة العامة، وما إن رآهم برنكر، حتى بادرهم بالحديث في دهشة: «لقد ظننتكم في عداد الموتى».

تركت كلمات مارتينيث، وقعا كبيرا في نفوس الحاضرين: «على حسب علمي، توجد في مراكز التجنيد، وإسطبلات تربية الخيول، وفي المخازن، وكذا داخل إدارات الحكومات العسكرية، ما مقداره ثلاثة آلاف رئيس وضابط، يمكن الاستغناء عن خدماتهم حاليا، حري بهم في هذه الظرفية الحرجة الرحيل إلى المغرب».

وبعد أن تبينت له دلائل النفاق والرياء، وبّخ وبشكل قوي مجموعة من الجنود الجدد. كانوا ينعمون بمناصب هائلة في مليلية، وذلك بدعم من عائلاتهم واصدقائهم. وذكر على سبيل المثال، كتيبة كانت تهيمن على ستين منصبا. وهنا قاطعه برلماني آخر، واضاف إليه اسم كتيبة أخرى كانت تبسط سيطرتها على مائة وأربعة عشر مقعدا. واستغل رفائيل غيرا ديل ريو Rafael Guerra del Río، هذه الظرفية وطالب من رئيس

الهيئة موافاتهم بالأسماء حالا. ودون أن تراوده الشكوك، أشار مارتينيث ديل كامبو إلى أن السيد غارسيا باسو García Vaso، واصل حيله إلى أن صار نجله ساعيا للبريد (وتعالت من جديد التمتمات والتصفيقات). كان خوصي غارسيا باسو البرلماني الليبرالي، رجل ثقة بالنسبة للفيكونت رومانونيس.

هاجم مارتينيث مجالس هيئة الدفاع، وأوضح أن خمينس أرويو Jiménez Arroyo، كان الرئيس الأعلى لهذه المجالس بمليلية. في حين كان أراوخو Araújo -الذي قيل عنه، ،ليته لم يكن في جبهات القتال، نظرا لما قام به من انسحاب،- رئيسا لفرقة المشاة بمليلية. بعدها دقق في حديثه قائلا، ،ولم يسجل في صفوف إداريي هذه الهيئة سقوط أي قتيل أو جريح.، (ودبت الضجة من جديد)[107].

وأثناء مداخلته، اقترف مارتينيث ذنبا كبيرا، جاء نتيجة لإكراهات تلك الأيام. يتعلق الأمر باللحظة التي وصف فيها تلك الحالة المزرية، التي لن ينساها تاريخ العالم. لحظة ضياع مائة وسبع عشرة قطعة حربية بالجنون. كما تحاشى الحديث عن الخسائر البشرية، التي وقعت في صفوف القيادات. كان "بريطو" هو من ذكره بتضحيات الكومندان ماركيري Marquerie، وآخرين مثل بلانكو Blanco، الذين كانوا على رأس مدفعية أعرويت.

مسودة العزاء، ومقابر أعرويت

باستعادة السيطرة على سلوان، عمت الفرحة بشكل كبير كل أرجاء إسبانيا. ولم تكن مليلية في منأى عن هذه البهجة التي عمت البلاد، وأثلجت صدور العباد. أما أعرويت، فكانت بعيدة عن المنطقة بعشر كيلومترات. وهناك كان أكبر تكتل للجيش الضائع.

وثمة إحساس بالتناقض، كان يتملك الإسبان وهم يجتمعون في سلوان. فلا أحد كان يريد الوصول إلى مركز الذل والعار، ولا أحد كان يستطيع نسيان الأحداث. وكان مراجعة الأخطاء، كانت هي السبيل لفهم هذه الحرب اللاشرعية.

ولشهور عدة، كان أقارب المفقودين يطرقون أبواب مليلية في الذهاب والإياب، كانوا ينتظرون بلهفة سماع أية أخبار عن الشهداء. وقد ارتفع عددهم إلى درجة أن "برنكر"

اقترح على "إيزا" في مكالمة هاتفية ما يلي: «تتدفق إلى مليلية حشود هائلة من الناس، مدفوعين برغبة في التعرف على مصير اقاربهم المختفين، أو ربما يدفعهم إلى هناك فضول بسيط(!؟)، الشيء الذي يستحيل معه توفير الإقامة لهم جميعا، فالأحرى بنا أن ننصحهم بعدم المجيء»[108].

ومن بين المئات المكتظة، كانت هناك سعادة الكونتيسة هورناتشوش Hornachuelas، التي اتت لتبحث عن أي دليل، أو بالأحرى اي عزاء، يواسيها في شخص كان يعرف باسم خوصي أوثيس إي اولايا José de Hoces y Olalla، نجلها الذي كان عضوا في فرقة نفارو. ومنذ اوائل شهر غشت[109]، وهي في بحث مستمر لمعرفة مُستقر ابنها. وعند أواخر شهر اكتوبر، بعثت برسالة حزينة إلى بيكاسو. وفيما بعد، تم العثور على مسودة جواب بيكاسو، موقعة بخطه بتاريخ الرابع من نونبر 1921. جاء فيها:

«إليك جوابي سيدتي: لقد تلقيت رسالتك يوم الواحد والثلاثين، وإني اقدر هلعك الذي أعتبره طبيعيا، وتشوقك إلى معرفة ما حدث لابنك. فثقي بي اني سأسأل باهتمام كل الأسرى، وسأستفسرهم واحدا واحدا حول ما إذا كانوا يعرفون شيئا عن ولدك. وساوافيك بكل ما توفر لدي من معلومات. المشكلة الآن هي الحالة النفسية للجنود الذين بقوا على قيد الحياة بعد احداث أعرويت، ومعنوياتهم المنحطة حالت دون اهتمامهم بما يجري حولهم، وهو ما يجعلني أشك في المعلومات التي سيوردونها. وكل ما تختزنه مُخيلاتهم من مشاهد لا تعدو كونها إشاعات. اكرر لك كامل احتراماتي، ولك مني أسمى عبارات التقدير»[110].

لم يوقع بيكاسو هذه الرسالة، وشطب عليها بريشته، وهو يفكر في كتابة خطاب آخر جديد. كان قد وصل إلى اعرويت باحد عشر يوما من قبل. وكانت الكونتيسة على علم بذلك، فوجد نفسه وجها لوجه أمام المشكلة، فاستعصى عليه أن يكتب إليها رسالة.

لم تحاول الحركة أن تقاوم باي شكل من الأشكال، لأنها كانت تدرك تماما وأمام التكتلات الحربية والهائلة للإسبان -ما يناهز مائة آلية مصفحة كانت مرصوصة على طول الخط - وقوات جوية تقدر بنحو عشرين طائرة- انه لا حول لها ولا قوة. فبدا الانسحاب نحو الباطل حلا ضروريا ساعة خروج الإسبان من سلوان.

لم تكن اعرويت منطقة تستأثر باهتمام القيادة الريفية، فهي منطقة لا أهمية لها من الناحية العسكرية، وإن كان لها وزنها من الناحية المعنوية. أما مقاتلوا الريف، فكانوا لا يدفنون جثث أعدائهم أبدا لأنهم مسلمون، وأهل هذه الديانة يشمئزون من لمس أجساد الكفرة. إلا انهم كانوا لا يتوانون في استعمالها وسيلة ضغط نفسي جديدة ضد أعدائهم، بإرغامهم على الاعتراف مرة أخرى بانهزامهم.

وهذا ما أكده وعاينه إسبانيان بنفسهما. يتعلق الأمر برفائيل فرنانديث دي كاسترو إي بدريرا Rafael Fernández de Castro y Pedrera، وروخيليو نفاريطي إدالغو Rogelio Navarrete Hidalgo، الأول كان صحافيا والثاني صيدليا. وقد عزم الاثنان على خوض الهجوم، فكان ذلك يوم الثالث والعشرين من أكتوبر، حيث خرجا سالمين، وصور الأحداث عالقة بأذهانهما[111].

لم يكن الهجوم الإسباني كثيفا، ويوم الرابع والعشرين من أكتوبر، على الساعة الثامنة والنصف صباحا، بسطت الكتائب العسكرية سيطرتها على جبل اعرويت. وكل ما قيل عن أخطاء هذه الحملة، وُجدت له ظروف مخففة. كان الموت يحدق بكل جانب، وشخصت الوحشية أبصارها، وافصحت اعرويت عن حالتها التي أصبحت بمثابة مقبرة مفتوحة، فظلت وشما على جبين سياسة الدولة. كانت الغربان والصقور، قد هجرت أوكار اعرويت منذ أسابيع، وحتى الديدان اختفت من تحت الشمس اللطيفة والباردة لأيام الريف ما قبل الشتوية. عجزت فرق كل من "سان خورخو" و"كابنياس"، التي انتشرت في المنطقة بغية معاينة كل أشكال الفظاعة، عن إجراء جرد للأحداث، وتحجرت العيون، فلم تذرف أي دمعة. فالفاجعة كانت أكبر مما يمكن أن يطيقه شخص واحد. كان الجيش الذي قضى نحبه، يمثل مجتمعا وأمة كاملة. ورويدا رويدا جُمعت أشلاؤه، ووضع فوقه صليب، كان الألم والاحترام يلفان الثلاثة آلاف من وفيات أعرويت.

وقد وصفت جريدة أ-ب-سي هذا المشهد "بالمرعب"، في حين ذكرت صحيفة "الصول" أن الرائحة كانت جد كريهة، إلى درجة أن الجنرالات أعطوا أوامرهم بعدم الدخول إلى ذاك المستنقع،[112] لكنهم ولجوا المكان بنظرات تائهة، وقلب منقبض وأفواه مزكومة بمناديل، وظهر في الصور برنكر، الذي كان قد وصل لتوه، مرتديا معطفه الرمادي اللون، والخشن الثوب، وهو يرتاد عيادات الثكنات العسكرية، حيث وقف على مائة وسبع جثث.

ومع مرور الأيام، بدات تظهر مقابر اخرى، حيث عُثر على مقبرة عند منحدر المعسكر، وبها ما يزيد عن "الف قتيل". وعند مورد نهر كَبَايو، تم تسجيل ما قدره "مائتي جثة محنطة". وفي إحدى البيادر التي كانت ملكا للمستعمر، عُثر على مائتين من الوفيات. وفي بيوتات ابن شلال -حيث تم عزل نفارو وضباطه عن المذابح التي ارتُكبتْ في حق جيشه- على بعد كيلومتر واحد، كانت ترقد ستمائة جثة هامدة. وخلال ستة ايام من الإحصاء، كان الغثيان والقيء هما المشهد الغالب. ودفنت فرق النظافة ما يزيد عن الفين وستمائة وثمانية عشر جثة[113].

وما إن علمت مليلية بنبأ وصول الجنود إلى جبل اعرويت، حتى تدفقت جموع عائلات المختفين في أعداد هائلة، فاخترقت كل الخطوط، وحلوا بهضبة أعرويت مذعورين من هول ما رأوا من كوارث غريبة. وهناك تلاشت كل الآمال، ليس فقط لرؤية رجال نفارو المفقودين، ولكن للياس من عودة الفرق العسكرية الأخرى والمختفية، والتي بات الكل يحسبها في عداد الموتى. كان الريف يحتضن المئات من أعرويت.

وبعد لحظات الدهشة التي أربكت الجيوش، وإثر عمليات التعرف على الجثث التي لم تكن سهلة بتاتا بالنسبة لغالبية الجند، وإن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبعض الضباط، الذين ميزوا جثمان الكومندان ماركيري Marquerie، الذي كان يرقد إلى جانب اتباعه، وجثة القبطان سانتيث مونخي Sánchez Monje، الذي تمكنت إحدى القذائف الريفية من بتر ساقه، وهو ملقى على إحدى النقالات يوم التاسع من غشت وبجواره الجنود الأربعة، الذين تكلفوا بنقله إلى بر الأمان الوهمي، وقد مُزقت اجسادهم شر ممزق. وقريبا جدا من عين المكان، كانت ترقد جثث كل من التنيتي غي ديل لاطوري Gay del la Torre، والقبطان باندين Bandín، وقد تعانق الاثنان في محاولة من الأول لحماية جسد صديقه المملوء بالجراح. وعلى تلك الشاكلة، تم وضعهم داخل القبر. لا أحد استطاع ان يفصلهما عن بعضهما البعض.

وفي الطريق المؤدية إلى الباطل، تم العثور على جثة القبطان ارىناس Arenas، المقاتل الباسل الذي أبلى البلاء الحسن في هضبة أعرويت. كان وحيدا حين اختطفته المنون، وقد فاجاته وهو يدافع عن تلك العربات المصفحة، التي ضاعت منه يوم التاسع والعشرين من يوليوز. وليس ببعيد رقد الإخوة غارسيا مارتينيث Garcáa Martánez للأبد. كان الاثنان ضابطين اطباء، الأول كان يدعى فيكتور Victor، والثاني موديسطو Modesto، وكان عمرهما يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين سنة.

وفي إحدى زوايا المعسكر، تم العثور على جثة رئيس الكانطرا، الذي فقد ساعده الأيسر. كان المنظر مرعبا وينبئ بالتحدي. ويوم السادس من غشت، تمت مواراة جثمانه المتعفّن. لكن الريفيين نبشوا قبره من جديد، واخرجوه من هناك. لم تكن العملية صعبة، فقبره لم يكن عميقا جدا. وجاء جنوده ودثروه بحفنات من تراب، قبلوها بعاطفة جياشة. إنه "بريمو دي ريفيرا"، الذي بدت عليه علامات الصرامة، وبات جسده عرضة لرياح أعرويت المتعفنة. كان وجهه الشاحب يؤكد للريفيين، أنه ذاك الرجل الذي لا يقهر. وفي تشوقهم لمعرفة المزيد عن هذا الشخص، الذي هاجمهم أربع مرات بسيفه، وصراخه الذي كان يدوي بقوة في أرجاء إغان، وكلهم رغبة في معرفة الكيفية التي عليها ذلك الرجل، واحتراما له ولمكانته، لم يلمسوه واكتفوا بتامله.

وفي احسن مقالاته حول المعركة، والمعنونة بالقائد المخلوع الساعد بهضبة أعرويت، كشف كروشانو Corrochano النقاب عن امور كان لها صدى، «كنت افضل ان اجد نفارو إلى جانب بريمو دي ريفيرا. وليس هذا بالأمر العسير على عبد الكريم، الذي كان يأوي أسرى جبل أعرويت». واستمر في حديثه ينتقد غياب عروض عسكرية تلقائية، تسير في "طابور شرفي" مكون من عساكر ومدنيين (فكلنا إسبان)، يمر بجانب جثمان التنينتي كولونيل، كتكريم لكل من سقط هناك. ووصل الأمر بكروشانو إلى درجة الاتهام قائلا، «حقا تعوزنا الحماسة والروح الوطنية»[114].

ووسط تلك الجموع البائسة، ظهر بعض الشباب القساوسة كالإخوة التابعين لطريقة **كريستينا**، والذين طلبوا الإذن من الطبيب التلينتي مانويل ميراندا فيدال Manuel Miranda Vidal، بالسماح للمصورين بالتقاط صور لهم، وهم يقومون بدفن العديد من الجثث التي كانت مرمية هناك. فاستجاب ميراندا لهم، وزودهم ببعض المجرفات وعربة واحدة، وانصرف إلى حال سبيله.

وفيما يخص الأقنعة، لم يكن هناك سوى ثلاثين قناعا لخمسة عشر الف جندي ذهبوا لتحرير اعرويت، اما كلورور الملح الذي كان ضروريا لمضادة الجراثيم، فقد نفذ تماما، ذلك لأن الأوعية التي ارسلت من مليلية لم تغط، فتبخر محتواها. وهذا ما انتقده أورثيغا إي نوغس Ortega y Nogués [115].

وفي الوقت الذي كان فيه ميراندا ورجاله منغمسين في مهامهم الإنسانية، أنهى الإخوة القساوسة أعمالهم فور انتهاء حصة التصوير. واكد خوصي رامون فرنانديث اكسيا José Ramón Fernández Oxea، -الذي كان يعلل مراقبا لأي عمليات غش- ان اولئك القساوسة، كانوا يخدعون ويغشون في شفقتهم، إذ لم يفعلوا شيئا ينكر، مؤكدا ذلك بعبارة" ،اقسم لكم بحياتي، [119].

وعكس هذه التصرفات، نجدها مع الرهبان الكبوشيون من أصل اندلسي، كإميليو بابيثا Baeza Emilio، وفيليكس سيغوروا Félix de Segura، وخوان دي لاكروث أوبيدال J. de la cruz Ubedal، الذين ذكرهم في مجمل عرضه غونثاليث كبايرو González Caballero، واللائحة طويلة لرجال الدين المنتمين إلى نفس الطريقة الرهبانية. وهنا يتعلق الأمر بالقشتاليَيْن إميليانو ريفيا Emiliano Revilla، الذي ذاع صيته بعد مرافقته لجنود الطرسيو في المقدمة، ومانويل دي أونطوريا Manuel de Hontoria. وقد امتاز الاثنان بإسعافهما للجرحى والمرضى.

وقبل استعادة السيطرة على اعروويت بثلاثة ايام، كان مارتينيث دي كامبوس قد طالب بتفكيك هيئة رجال الدين الحربية. وبعد التذكير بان ويلر Weyler، فعل ذلك بموجب مرسوم، تم التأكيد على ضرورة إصدار "قانون"، وندد قائلا: ،بصفة عامة، فهيئة القساوسة لا توجد في مكانها المناسب. ففي مقاهي مليلية توجد بعض تجمعاتهم، [118].

كانت إسبانيا في حالة حمى بسبب أحداث الريف. ويوم الرابع والعشرين من اكتوبر، وبعد العودة من اعروويت، ذكر برنكر للاثيريا بأن المشهد كان مروعا، وأضاف: ،من النظرة الأولى، يتخيل إليك ان الجثث وصلت إلى ثمانمائة جثة،. واستغل لاثيريا هذا الرقم، واستعمله معدلا إجماليا لمجمل الخسائر البشرية.

وبذهاب برنكر إلى تطوان، اتصل لاثيريا مع بكبلكانتي، المقيم العام بمليلية، وذلك يوم الخامس والعشرين من اكتوبر[119] على الساعة الثامنة ليلا، وجاء في الخطاب:

المقيم العام: ،عن جنودنا بهضبة اعروويت، اذكرك انهم الآن منكبون على تطهير المعسكر، وإنهم يؤدون المهمة التعيسة التي انيطت بهم، ويوارون جثمان اصدقائهم الذين لقوا حتفهم هناك على اتم وجه. واليوم فقط، تم دفن خمسمائة وتسعة وثلاثين جثة، في حين دفنت اربعمائة وواحد وثمانين جثة اخرى البارحة. وحسب ما توصلت إليه من بلاغات، فمازالت الآلاف من الجثث تنتظر دورها،.

الوزير «الا يوجد خلل في الأرقام؟»

المقيم العام «لا، لأنه بالإضافة إلى التلغراف، توصلت بأخبار شخصية مصدرها فرنانديث مارطوس Fernández Martos، مدير خدمات النظافة».

وبعد دقائق[120]، تحدث لاثيربا مع برنكر، وتلقى منه تصريحا غير قابل للنقاش. فجف ريق الوزير، الذي أصبح في حيرة من أمره بعد سماعه لتلك الأرقام المهولة.

قرر لاثيربا الذهاب إلى أعرويت، فكانت الرحلة يوم التاسع والعشرين من دجنبر. وبعودته إلى مليلية، اخبر الملك بتفاصيل الأمور. وبعد وصفه للمشهد -حيث غالبية الجثث قد دفنت- وحديثه عن الجو العاطفي، المتمثل في الهتافات الشعبية الحارة باسم إسبانيا والجيش، وذاكرة الضحايا التي اثرت في الجميع، ضمن استقالته بجملة معبرة تقول «كان ذلك مشهدا يستحق ان تعيشه يا صاحب الجلالة»[121].

استغرقت عمليات جمع اشلاء ضحايا أعرويت، المقدر عددهم بنحو ثلاثة آلاف، سنين عدة. كانت الجماجم وفقرات العمود الفقري، وعظام الفم أو أجزاء من الفك دائما في موعد مع من يبحث عنها. وهكذا، كانت المئات والمئات من اجزاء الأعضاء البشرية، منفصلة عن بعضها البعض بالكيلومترات. كل هذه الأشلاء، كانت لرجال معطوبين، وبضمها إلى بعضها البعض، يتخيل إليك وكانها تشكل هوية واحدة. هوية جيش كان له وجود في يوم من الأيام.

فيما بعد تم نقل كل تلك الأشلاء إلى مستودع العظام بأعرويت. وفي سنة 1949، نقلت إلى جناح الأبطال بمليلية. واليوم، لا شيء بأعرويت يذكر بتلك الاستشهادات. تأمل بسيط في المناظر الطبيعية للمنطقة، حيث سقط كل اولئك الجنود، يسهل عليك تخيل نهايتهم وقبورهم.

برلماني من بلباو يهز دعائم البرلمان

بعد الوصول إلى أعرويت بثلاثة ايام، احتدمت النقاشات بشدة داخل البرلمان. كان ذلك يوم السابع والعشرين من اكتوبر. حيث اخذ "بريطو" الكلمة.

فبعد انتقاص المختفين، والمقدر عددهم بثلاثة عشر الفا ومائة واثنين وتسعين من جملة الحاضرين بمليلية، تم استنتاج عدد الخسائر البشرية والمقدرة بثمانية آلاف

وستمائة وثمانية وستين، وهو عدد أجبر الغرفة على الاعتراف، بأن الخسائر في الأرواح وصلت إلى ثمانية آلاف. واسترسل قائلا، ،ثمانية آلاف من القتلى تحتم الوقوف أمام هذا الرقم، وتشير بالأصبع إلى مسؤوليات محددة،. وأوضح بريطو أن معلوماته حول قوات الجيش التابعة للإقامة العامة بمليلية، والتي يصل قوامها إلى أربعة وعشرين ألفا وثلاثمائة واثنين وثلاثين، يختلف عن العدد الذي قدمه "إيزا"، والذي يشير إلى خمسة وعشرين ألفا وسبعمائة وتسعة. وذكر أنه لو كان هذا الرقم الأخير صحيحا، لكان عدد الضحايا الإسبان، يمكن أن يرتفع إلى عشرة آلاف ومائة وستة وعشرين.

وعند حديثه عن إيزا، ضمن "بريطو" تصريحاته مدحا غامضا للوزير السابق، مقحما في حديثه حتى الملك. فقال، ،إنني أرى أن أكبر خدمة أسديت للعرش خلال مدة هذا الحكم البائس، هي تلك التي أسداها وبسخاء لا حدود له، السيد "إيزا". وذلك ليسدل الستار على مسؤولين كبار،. (ودوت همسات داخل القاعة). بعدها تطرق إلى حيرة الحكومة فيما يخص أحداث أبران، وتحدث كذلك عن جريمة سيدي اقلعي التعس، ولفقها دون أن يدلي بدليل[122] إلى سيلفستري. لم يكن بريطو يعلم شيئا عن رويداس لادسما Ruedas Ladesma، فهذا القبطان كان واحدا من الضباط السبعة عشر المرشحين للترقية، إذ ورد اسمه ضمن القائمة التي أحالها يوم الرابع والعشرين من اكتوبر، السيد المقيم العام إلى لاثيربا[123]. كما أن برنكر ارتقى بدوره إلى درجة تلينتي، وذلك لاستحقاقات حربية.

وما إن حل شهر دجنبر، حتى علم بريطو بملابسات الجريمة التي دارت رحاها في *كويستا كولورادا*. وبسبب تداعيات هذا الحدث، أدين رويداس أمام الملأ.

أدهش بريطو الحاضرين فور إخبارهم أن سلطات مليلية، رفضت عرض العديد من القبائل فيما يخص استرجاع جزء من المدفعية التي ضاعت منذ أيام أنوال قائلا، ،وإنني أقدم بين أيديكم تصريحا يؤكد أن جزء من هذا العتاد، الذي يصل إلى ستين مدرعة، والذي رفضته سلطات إسبانيا، قد اقتنته الجيوش الفرنسية،. وأكد أن الخطأ يكمن في عزوفنا عن الشراء، لأن فرنسا اشترت كل هذا العتاد بثمن بخس. المهم أنها تنازلت عن ستين آلية مصفحة، قد تستخدم يوما ضدها، وعلى ضوء هذه المعطيات،

ندد بالتقاعس وذكر انه كان يجب على الوكلاء الإسبان، المضي إلى المنطقة الفرنسية وإعادة شراء الجزء الأكبر من دواب مدفعيتنا، وكل ما كان بمخازننا. وأخيرا دقق قائلا: ،لقد عدنا لشراء ذلك القطيع الذي نهب منا،[124].

وفي خضم حديثه المتشابك، تطرق بريطو إلى أربعة مواقف جد حساسة، تتلخص في قضية الأسرى، والتكتيكات الحربية العاجلة التي انتهجتها الجيوش الإسبانية في زحفها نحو الأمام، وكذا الترخيص الذي مُنح لسيلفستري ليتقدم نحو الحسيمة. وأخيرا المسؤوليات التي كانت ملقاة على عاتق مستشاري الملك.

آنذاك، كان إنداليسيو بريطو طورو Indalecio Prieto Tuero، يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين سنة. ولد في اوبيدو، في كنف أسرة متواضعة، ثم رحل إلى بلباو، حيث اشتغل كاتبا في جريدة "صوت فسكايا". وبعدها في صحيفة الليبرال، التي أصبح مديرا لها، ومسؤولا عنها سنة 1932. كان ضخم البنية، في إشارة إلى الوزن وإلى تلك الكتلة اللحمية التي كانت تحت ذقنه، والتي كانت تميزه -فصارت عنصرا أساسيا في الرسومات الكاريكاتورية في عهد الجمهورية الثانية- وعكس لاثيريا تماما، كان انانيا، جريئا ودقيقا في تصريحاته، وصارما في نواياه. وكانت له فصاحة وسلاسة وحجة قاطعة يصعب دحضها. وبتاريخ السابع والعشرين من اكتوبر، ذكر بريطو أن ثمن فدية سراح الأسرى، وصل إلى أربعة ملايين بسيطة. واوضح أن الشعب هو من صرح بأن الحكومة، ،لا ترغب في إعطاء بسيطة واحدة لفائدة المعتقلين. وهناك من ربط هذا التصرف، بجملة إيحائية يفهم من محتواها، أن لحم الدجاج قد يكون اغلى ثمنا. (وتعالت اصوات صاخبة ومدوية داخل القاعة) كانت الإشارة واضحة إلى الملك، وذلك ما اكده سانتيث غيرا Sánchez Guerra، الذي حاول في حديثه تفادي أي إهانة او سب لجلالته، اعتبارا لمكانته، فهو يوجد خارج دائرة الانتقادات (وتعالت من جديد اصوات صاخبة)،[125].

وتطايرت هذه العبارات، إلى أن وصلت إلى حدود عنابر أجدير، مخلفة ضررا بليغا. وباقتراب ساعة الإفراج عن الأسرى، وما إن رأى بيريث اورتيث Pérez Ortiz، (يوم السابع والعشرين من يناير 1923) انطونيو لوبيث Antonio López يدخل إلى خليج الحسيمة، حتى كتب في مذكراته هذه الصيحات: ،لقد تم شراء الدجاجات،. واوضح في السطر الموالي: ،من جهتي، فانا لا ابالي بهذه الإهانات، لكنها احزنتني جدا،[126].

اصر بريطو على مواصلة مهمته التخريبية، والرامية إلى كشف المستور. فأزاح النقاب عن حكاية سيلفستري العائد إلى مليلية من بلد الوليد، والذي اكد انه سيذهب إلى الحسيمة بموافقة الملك. لقد أدان الخروقات الماثلة في كون والد عبد الكريم، مايزال يتقاضى معاشه من الحكومة حتى بعد وفاته بسنتين. وهو ما دفع ماورا الذي أصابه الذهول، إلى مطالبة غوثاليث انطوريا بتقديم إيضاحات بهذا الشأن. فعلم من وزيره ان ثمة ميزانية، كانت تُصرف سنويا إلى مليلية، يصل قدرها إلى نصف مليون بسيطة[127]. وعلق بقوله، «إن مليلية، يا سيد سولانو، قد غدت بحق بيتا للدعارة ووكرا للصوص». وواصل هجوماته كاشفا القناع عن نفاق الرقابة، التي تصدت، لتلك الرواية التي تحدثت عن إهداء رؤوس اثنين من الريفيين إلى سيدة لافكتوريا، واذنت لصحيفة الصول يوم الرابع من اكتوبر، بأن تذكر أن معارك البارحة، لم تخلف أسيرا واحدا. وأخيرا وصف النظام "بالتعيس"، الشيء الذي تسبب في تبادل الشتائم واللوم مع خوصي سانتيث غريرا José Sánchez Guerrera.

وفي وسط الضجة، ذكر بريطو بالزيارة التي قام بها الفونصو الثالث عشر، إلى مرتفعات "وجان" الملقبة بحصن الموت. لكن بتطرقه لشهادة واحد من رواد القصر، الذي مدح الملك واثنى عليه، باعتبار حدث زيارته الأول من نوعه منذ عهد فيليب الثاني. إذ لا احد من الملوك وطئت قدماه أرض المستعمرات الإسبانية، تدفقت من جديد موجة من الغضب في صفوف الحاضرين من محافظين وليبراليين.

ووردت هذه العبارات السالفة الذكر، في خطاب أوخينيو مونطيرو ريوس Eugenio Montero Ríos، داخل واحد من صالونات القصر يوم الثالث والعشرين من يناير 1911، وذلك بعد عودة الفونصو الثالث عشر، من رحلته إلى مليلية ببضعة أيام. كان مونطيرو ريوس -الذي كان وقتها رئيسا لمجلس الشيوخ- يتحدث عن كارلوس الخامس، لا عن ولي عهده. لكن لم ينتبه احد إلى الخطأ.

واصل هذا البرلماني من بلباو حديثه، وهو ينشد بحماسة انشودة الضياع، «كل تلك الميادين التي كانت بالأمس لنا، باتت اليوم مقابر لجنودنا. فما يناهز ثمانية آلاف جثة، أصبحت مكومة هناك... (وتعالت الاحتجاجات والصيحات التي حالت دون سماع الجزء الأخير من الجملة، فتدخل رئيس البرلمان وهو يلوح بالجرس الصغير، فألقى على مسامعه كلمات لم يلتفت إليها احد)[128].

وبانتهاء جلسات السابع والعشرين من اكتوبر، بدا البرلمان وكأنه ساحة معركة. فعلامات الغضب والحيرة كانت واضحة على وجوه البرلمانيين. فحرب المغرب وصلت إلى مدريد، ولا أمل في العفو.

مقترحات بإرسال طائرة محملة "بغبار أصفر"

قبل اشتعال فتيل الشجار داخل البرلمان بثلاثة اسابيع، اتصل برنكر بالفونصو الثالث عشر اتصالا تلغرافيا. ويوم الثامن من اكتوبر 1921، وعلى الساعة السادسة مساء وخمسة وثلاثين دقيقة، نقل المقيم العام لجلالة الملك بعض الأنباء السيئة، التي تفيد بأن عملية إطلاق سراح الأسرى لن تتم إلا بدفع أربعة ملايين بسيطة. وعن عبد الكريم، ذكر بأن قبضته لم تعد قوية على بعض العشائر، حيث اغتاضت مجموعة من القبائل من حجم الخسائر التي تكبدتها دون الأخذ بالثار لها. ومن كثرة ياسه وعجزه، صمت الملك ولم ينطق بكلمة تحدث فيها إلى تلك القبائل، التي أعربت عن استعدادها لمد يد العون. لم يوافقه برنكر على ذلك، دون أن يقدم له حلا آخر. وعلى هذا المنوال جرت المحادثات بينهما:

المقيم العام: «لا اظنك سيدي ستجني ربحا من تدخلك في الموضوع، لأن هؤلاء الأسرى اصبحوا الآن ملكا لقبيلة بني ورياغل، التي انتزعتهم بالقوة من قبيلة -غلاية. وآخر فوج من المعتقلين سلم للريفيين، اعترافا لهم بالجميل في تصديهم لزحفنا نحن. والحقيقة أن قبيلة غلاية، باتت تنزعج اليوم من حضور الريفيين، انزعاجها من حضورنا نحن. وذلك لأن الريفيين يعاملونهم بجفاء واستبداد. وليس هناك سوى مجموعة صغيرة من المارقين، أو من لهم تصفية حساب معنا، يحبذون ويرحبون بتواجد الريفيين معهم».

الفونصو الثالث عشر: « من المؤسف اننا لا نستطيع تزويدك الآن بطائرات، محملة بغازات سامة تنثرها على الميادين الريفية فتدمرها تدميرا، وتلقنها درسا يجعلها تستشعر قوتنا في أرضها. وإنني أرى انه لو تضافرت جهود كل الأجهزة، فإن الوقع سيكون فعالا ومضاعفا. ولا اظن سبعة أو ثمانية بؤر للتوتر، ستصمد كثيرا في المقاومة»[129].

وفي سنة 1925، وصلت الآليات الجوية محملة بغازات من نوع: ث.2 (الإيبريتا Iperita)، وث.3 (الفسجين Fosgeno)، وث.4 (كلورو برثينا Cloropricina)، وقنابل سامة من عيار خمسين، خمسة وعشرين، وعشرة كيلوغرامات محشوة بالغبار الأصفر. وبعد أن حطت

هذه الطائرات رحالها في شواطئ الحسيمة بعشرة أيام، بعث "سان خورخو" بتقرير موجز إلى "بريمو دي ريفيرا"، يسلط فيه الضوء على تفاصيل ونتائج الحادث. وفيما يلي نص هذا التقرير، تلغراف رقم 215 بتاريخ 29 /08 /1925 من مليلية إلى تطوان.

.كما هو في معلومك، هناك انباء تخبر عن ارتفاع عدد المتمردين الذين لقوا حتفهم، أو تسمموا من جراء القصف الأخير. وتاكيدا لذلك، فقد تلقيت اليوم اخبارا تفيد انه انطلاقا من "كيلاتش"، ووصولا إلى الحسيمة، تم العثور على مائة وثمانين شخصا فقدوا بصرهم، ومائة وستين من القتلى. وقد ادلى المخبرون بتصريحاتهم، واكدوا ان كل الأشجار قد تفحمت، وان سكان تلك المنطقة نادوا على عبد الكريم، واخبروه انهم لم يعد بمقدورهم الصمود اكثر. وبالرغم من المبالغة في الأرقام، فإن الخبر تزامن مع إذاعته في وكالات المراقبة، وهو ما يبرهن ان الأحداث كانت واقعية، حتى وإن تضاربت الآراء واختلفت وجهات النظر حول الأرقام،[130].

عاد بيكاسو محملا بملتمسات الجيش الميت

عاد بيكاسو إلى شبه الجزيرة الأيبيرية يوم الثالث والعشرين من يناير 1923، وهو يتابط تحت ذراعيه ملفات تحمل اسمه. كانت تقاريره عملاقة وحاسمة، وضمت الفين واربعمائة وثلاثة وثلاثين صفحة.

أصبحت تقاريره سجلات عدلية لأحداث إفريقيا الألفونصية، وبالتالي، غدت كابوسا مزعجا للدولة التي تحمل على عاتقها عشرين عاما من الأخطاء والزلات الاستعمارية. كانت الدولة ممثلة في أجهزة خطيرة وقوية، لكن الجنرال لم يول الأمر اهمية كبيرة، بل ظل شامخا وكانه الوتد الرئيسي لباخرة ذات الأشرعة الثلاثة -الجيش والحكومة والدولة-، باخرة كانت قاب قوسين او أدنى من الغرق في المياه العكرة، وسط عواصف هوجاء يتحكم فيها القضاء والنقابات والصحافة. كانت احكام بيكاسو جاهزة، أحكام لم يستطع أحد ان يجد لها ظروفا مخففة.

احيل ملف تقصي الحقائق في المغرب إلى البرلمان، لتنظر فيه اللجان المعروفة باسم ،تسعة عشر، (1922)، و،الواحد والعشرين، (1923). في حين، عاد بيكاسو إلى

مزاولة مهامه في الهيئة الأممية. وبعودته، فوجئ بتغير النظام، ورفع العقوبات التي تبنتها السلطات بموجب مرسوم أصدرته مجالس "بريمو دي ريفيرا" المتهورة، والسلطات الألفونصية الوديعة. فكان من نتائج هذا القرار، أن تصدعت دعائم الملكية وانهارت.

وجد بيكاسو نفسه أمام جيش ميت، لكن، وبتحرياته وتقصيه للأخبار لمعرفة الكيفية التي انهار بها الجيش والسبب في ذلك، يكون قد أعاد الاعتبار إليه، ورد إليه كرامته وحقيقة وجوده في تلك المرحلة من التاريخ. كان الصمت الذي تبنته السلطات الرسمية فيما يخص نهاية رجال سيلفستري، قد أوجع هؤلاء وقضى عليهم للمرة الثانية، كما انه حرمهم من شرف الذكرى، بطريقة تعسفية وقاسية. لكن بيكاسو تصدى لهذا الظلم.

وبعد أن أشهر بيكاسو سلاحه الفتاك، والمتمثل في تقريره الذي انجزه يوم الثامن عشر من أبريل 1922، توقفت الشجارات بين الأشخاص، وكذا المؤسسات التي كانت تتبادل التهم. فإزاء الفاجعة الإفريقية، وقف الكل عاجزا.

وأمام الجميع شخصت روح المسؤولية أبصارها، وبزغ الجحود، وظهر بيكاسو على شكل وصي تدعمه الجماهير الشعبية، وتقدم لمناصرة جيش كان على وشك الاندثار والنسيان، فدبت الحياة فيه من جديد. كان كل همه، هو طلب العدالة وإحلال السلام.

حكاية أوراق كانت في ملك الدولة

يوم العاشر من يوليوز 1921، تشكلت اللجنة الثنائية المكلفة بتقصي الحقائق. وهكذا، ظهرت اللجان المعروفة بـ «الواحد والعشرين، والمؤلفة من برلمانيين، أوكلت إليهم مهمة الحكم والنظر في أحداث 1921. كانوا مجبرين على إصدار قرارات في أجل اقصاه واحدا وعشرين يوما، وهي مدة لم تكن كافية. ولهذا، تم اقتراح الفاتح من اكتوبر، كأجل أقصى لتقديم النتائج، وذلك بتزامن مع افتتاح الدورات الرئاسية. وقبل هذا الموعد بأسبوعين، حدث انقلاب عسكري جرف معه كل التطلعات والنوايا الجنسية.

وتجدر الإشارة إلى أن أعضاء لجنة «الواحد والعشرين»، كانوا أعضاء يمثلون الإيديولوجيات التالية داخل البرلمان، الاس بومرنيو Alas Pumariño، (من الحزب المحافظ)، دييث دي ريبينغا Diez de Revenga (من حزب لاثيربا)، دومينكو سان خوان

Domingo San Juán (من حـزب اليـسـار لمنطقـة كـاطلونيـا)، فـرنانديث خـمـينيث Fernández Jiménez من شيعة (الكلا - سمورا)، غارسيا كيخارو García Guijarro (محافظ)، إينثا Inza من انصـار (غـاسيطي Gasseti)، لكيـريكا Lequerica من اتبـاع (مـاورا)، لوس ريوس فـرناندو Los Ríos Fernándo، من الحـزب الاشـتـراكي، مـارتينيث دي كـامـبوس Martínez de Campos (من حزب الاستقلال)، موروطي Morote من انصار رومـانونيس، بلاثيوس Palacíos من حزب الإصلاح، بريطو Prieto (من الاتحاد الاشـتـراكي)، رودس Rodés من الحزب القومي، رودريغس فـالدس Rodríguez Valdés من انصـار (لاثيربا)، رودريغس دي فغوري Rodríguez De Viguri (من الحـزب المحـافظ)، روانو Ruano (من المحـافظين)، سغـاسطا Sagasta (من الحـزب الديموقـراطي)، سوطو ريغيـرا طابوادا Soto Reguera Taboada (من الحـزب المحـافظ)، طخيـرو Tejero (من يسـار كطالونيـا) وسانكادا Zancada من الديموقراطيين. وتم اختيار (رودريغس دي فيغوري) نائبا للرئيس. أما الرئيس، فكان برناندو ماتيو سغاسطا إشـفريا Bernando Mateo Sagasta Echeverria الذي كان واحدا من نـواب البرلمان، بتعيين من كالدس دي ريس Caldas de Reyes، في (بونطي فيدرا).

جاءت إنطلاقة اشغال البرلمان في شهر غشت، وحدث أن امتنعت حكومة غارسيا بريطو عن موافاة الحاضرين بمحاضر مجلس الدفاع، فكانت هذه هي العقبة الأولى. وبعدها، وقع ما كان يخشاه الكل، انقلاب بريمو دي ريفيرا.

ويوم الثالث عشـر من شتنبر 1923، كان سغـاسطا بمدريد. ومـا إن علم بنبـأ قدوم بريمـو دي ريفيـرا إلى العـاصمـة على متن القطار، حـامـلا معـه مـوافقـة الملك على مخططاته، حتى راودته كتلة من المشاعر، ساقته إلى التخمين بانهم قادمون من اجل تقارير بيكاسو، وسوف يمزقونها أو يسرقونها. لم يتردد سغاسطا، وقصد البرلمان، وهناك ذكر الكل بواجبه كرئيس للجنة، فانقذ تلك الملفات. وكل هذه الوقائع كانت حقيقية، ففي شتنبر 1998، عثرنا على جزء من هذا الملف في أرشيف البرلمان، وبالضبط في حزمة من الأوراق كتب عليها، (فهرست وثائق الإقامة العامة التي تم العثور عليها في المجلس الأعلى للحرب والبحرية) وكتبت هذه العبارة بقلم أحمر، وذيلت بملاحظة تقول «لقد حملها معه السيد سغاسطا»[131].

وبعد أن أصبح المالك الوحيد لتلك الوثائق المهمة جدا، ارتأى سغاسطا أن يضعها في مكان آمن بمدرسة المهندسين الزراعيين، التي كان يديرها هو، والتي كان يعمل بها مدرسا. ولحمايتها من الإتلاف، عهد بها إلى أستاذ آخر كان يشتغل بنفس المؤسسة، يتعلق الأمر بإنريكي خمينيث خيرون Enrique Jiménez Giron. وهذا الأخير، هو من روى تفاصيل هذا الحادث لخوان كارلوس بيكاسو لوبيث Juan Carlos Piccaso Lopez [132].

وصل بريمو دي ريفيرا إلى مدريد، وبالفعل أول شيء طالب به هو تقارير بيكاسو. وحينما توجهت شرطته إلى البرلمان للبحث عنها، كانت الأوراق قد اختفت من هناك. لم تكن كذلك في حوزة بيكاسو، فتملك العجز بريمو دي ريفيرا. وبعد أن عرف من المسؤول عن الحادث، أصدر أوامره لسغاسطا، وطالبه بإرجاع التقارير. وفي رباطة جاش، ذكر الأستاذ أن لا علم له بالأمر. فثارت ثائرة بريمو لهذه الجراة، لكنه لم يشأ اعتقال هذا المهندس الجريء، وجاء الانتقام بعد سنوات وبشكل تقني، إذ بعد مطالبة كلية الزراعة -رابطة المدينة الجامعية- بإمدادهم بقطع أرضية تصل شساعتها إلى ستمائة هكتار، وذلك لإنجاز تداريب مدرسية، أبى الديكتاتور إلا أن تُمنح فقط واحدا وعشرين هكتارا من الأراضي.

وحينما فقد بريمو دي ريفيرا ثقة الملك، وانصرف إلى حال سبيله إلى منفاه في باريس، وبالضبط إلى فندق "موغيس"، حيث وافته المنية هناك يوم السابع عشر من مارس 1930، لم يبقى سغاسطا في مناى عن المشاكل، كان لابد من انتظار أفول حكومة برنكر والأرميرال اثنار، لتغلق نهائيا ابواب النظام الألفونصي، الذي أطاحت به صناديق الاقتراع سنة 1931.

وبعد أن استقر المقام بالفونصو الثالث عشر بالمنفى، انقذ سغاسطا التقارير واودعها في البرلمان. وتسببت أوراق بيكاسو في جملة من النزاعات الأهلية، انتهت بالنسيان. وفي سنة 1923 كان عمر سغاسطا سبعة وخمسين عاما، وحسب ما علمناه، فقد توفي قبل سنة 1961. وبخصوص خيمنس خيرون، فقد عرفنا فقط تاريخ ميلاده (1890) [133]، لكن تاريخ ومسيرة تلك التقارير لم تنته هنا.

ديكتاتور منشغل بالمحاكمات التاريخية

بعد أن استقرت الأوضاع نسبيا بالبلاد، قام سغاسطا بإرجاع محاضر بيكاسو إلى البرلمان. بيد أن جزءا مهما منها، كان قد وصل إلى هناك مسبقا على يد خصمه، الذي كان يعمل رئيسا للإدارة، وذلك سنة 1927.

أما عن الأعضاء النيابيين، والتجمع الوطني، فقد حدد مرسوم ملكي، أصدر سنة 1927 تحت رقم 1.567، هويتهم، وجاء في فصله الثاني: «مطالبة الغرف الجديدة بالنظر في السياسة العامة منذ مستهل شهر يوليوز 1909». وعن هذا النهج غير المعتاد، قال بريمو دي ريفيرا: «لا مجال للشك أنه ابتداء من هذا التاريخ، ستعرف إسبانيا موجة من القلق والتمرد والصعوبات. وبما أن القيادات والحكومة حتما ستكونان متورطتين، فإن ضرورة فصل الخطأ عن الصواب ستطرح، والبحث عن مسؤوليات ترتبط بالأحزاب والهيئات التي أثرت في حياة الشعوب»[134].

وفيما بعد، صدرت تصريحات وجيهة وبناءة هذا نصها: «تجدر الإشارة إلى أن النصف الثاني من العام التاسع، والمواكب لما أطلق عليه الأسبوع الدموي -الذي لا حديث فيه عن إنجازات وكفاءة السلطات- وبداية الحملة في المغرب، وفصول أخرى، جاء ليزرع بذور السوء التي أخمدتها ثورة 1923، والتي مازالت ظلالها تخيم ولو بصورة خفيفة. وهكذا، ارتأت الحكومة أنه لصياغة حكم تاريخي معقول، ولتحديد المسؤوليات الملقاة على عاتق كل من النظام والأشخاص الذين كانوا آنذاك طرفا في صنع القرارات، يستحب الشروع الآن في عمليات التحليل والتمحيص للإصلاح الاجتماعي، الذي لن ينبني سوى على أسس ترتكز على الفهم العميق للأحداث وإلقاء الضوء على تصرفات صناع كل القضايا»[135].

كان بريمو دي ريفيرا يمجد فكرة التمرد والثورة التي يعتز بهما، وهو يوصي بتصفح كل الوثائق الخاصة بالمغرب. علاوة على ذلك، كان يريد من التجمع الوطني أن يقوم بمهامه على مراحل متتابعة، وبانتهائها، أوكلت من جديد تبعات هذا الملف للحكومة.

وهكذا عادت الصورة الحقيقية لبريمو دي ريفيرا -الذي عرفناه سنة 1917. وبدا في نفس الوقت، وكأنه ذلك الدكتاتور المنشغل بضرورة تشكيل أحكام تاريخية. كان هلوعا ولكن محقا، وفي هذا لم يجاريه -طيلة القرن XIX- أحد. فانشغالاته كانت نبيلة، لكنها ظلت خرساء.

وفيما بعد، تشكلت "لجنة" ثالثة مؤلفة هذه المرة من احد عشر عضوا؛ الوي Allué، بوين Buen، بورون Burón، فرنانديث Fernández، سانتيث بويرطا Sánchez Puerta، غارسيا غويينا García Goyena، يانوس Llanos، بلاثيو فالدس Palacio Valdés، برمتين Permatín، بيرلطا Peralta وطريبو Trillo، يترأسهم آنخيل غاسو إي فيدال Ángel Gassó y Vidal. ويوم الثاني والعشرين من نونبر 1927، افتتحت هذه اللجنة اولى جلساتها التي انتهت بالفشل، لأن غالبية الأوراق المطلوبة كانت "اوراقا سرية"، سحبها الوزراء مسبقا من الوزارات. فاعتبر هذا التصرف "تعسفا" -وهذا ما اورده يانوس في محضر جلسة السابع والعشرين من يونيو 1928. وهكذا، بدات اللجنة تلفظ انفاسها الأخيرة يوما بعد يوم -فآخر اجتماع لها كان يوم الثالث والعشرين من مارس 1929-، إلى أن اضمحلت بشكل نهائي، وذهب معها التجمع الوطني. وقبل ان يسحب سغاسطا الوثائق فيعيد جزءا منها سنة 1931، كانت هناك بادرة اخرى، تمثلت في شخص بريمو سنة 1927، الذي قام بجمع الوثائق الموجودة داخل البرلمان -ولربما اضيفت إليها المستندات المصنفة في ارشيفات المجلس الأعلى للحرب والبحرية- واستثنيت من هذه العمليات ملفات الإقامة العامة (التي كان سغاسطا قد اخذها، فلم يعثر لها على اثر). وفي ظل غياب بحث هادف وموضوعي عن المستندات التابعة في رفوف ارشيفات البرلمان، تبقى عروض بيكاسو وتقاريره هي المرجع الوحيد. وقد رتبت في أوراق من الرقم الفين ومائة واثنين وسبعين إلى الفين واربعمائة وسبعة عشر، وضمت خمسين تصريحا، بدء من الكولونيل ريكيلمي، ووصولا إلى القنصل الإسباني باكوسدا. علاوة على مصادر النيابة العامة، مع آنخيل رومانونيس Ángel Romanos، والتي تعتبر تحفة ثمينة.

بريمو دي ريفيرا، وأفول الألفونصية

يوم الرابع من يوليوز 1924، قام الفونصو الثالث عشر بفعل حجب تطلعاته العادلة التي جبل عليها. يتعلق الأمر بالعفو الذي أصدره في ذلك التاريخ، والذي اتخذ شكل مرسوم ملكي. ففي إصراره على إنقاذ الزعماء العسكريين المتورطين في بعض القضايا، ظهر مفهوم رفع *العقوبات* الذي الحق به ضررا كبيرا. وبعد العفو عن كفلكانتي ونفارو (ما بين فبراير ويونيو 1924)، أصدر الفونصو الثالث عشر عفوا آخر في حق اراوخو، برنكر،

لاكنال، وطويرو، وذلك بعد مرور شهر. وبنفس الحماسة والاندفاع، صدر عفو آخر في حق كل من ميغيل دي أونامونو Míguel de Unamuno، ورودريغو سوريانو Rodrigo Soríano، وقد عُرف عن الاثنين أنهما كانا جمهوريين وأعداء للنظام. وتلك كانت مصادفات ومفارقات مؤسفة.

وافق الفونصو الثالث عشر على المقترحات الديكتاتورية التي تقدم بها بريمو دي ريفيرا. كان يأمل في أن يجد النظام الجديد حلولا للأزمات الأهلية التي تسببت فيها الحرب الإفريقية، وأن يقوّم اعوجاج وفساد الإدارة، وأن يتصدى لمأساة نظام حكومته. وإلى هذه العناصر الثلاثة، تنضاف الرغبة في السيطرة بالقوة على الريف وجبالة. وبشجاعة وتبصر قويين، قضى بريمو دي ريفيرا على حماقات تلك القوات المسلحة - التي كان يقدر عددها بمائة وثمانين الف رجل، موزعين على خمسمائة موقع عسكري- فأصدر أوامره بالانسحاب الكامل من (شفشاون) سنة 1924، كما أعد هجوما آخر انتصر فيه على الحسيمة سنة 1925. وجد بريمو دي ريفيرا نفسه لوحده في هذه المهمة، إذ لم يساعده الملك، الذي لم يشأ أن يكون في مقدمة الأحداث السياسية والعسكرية. وكان على بريمو أن يواجه جيشا سئم من تكاليف الحياة، وتنكر لفكرة المناورات مع فرانكو فاريلا Franco Varela، لكن بريمو هو من ساقهم إلى أبواب الانتصار. ولولا انه انسحب من الساحة السياسية بعد السلام الذي حققه يوم العاشر من يوليوز 1927 في باب تازة، لصار بريمو دي ريفيرا رمزا من رموز تحرير الشعب الإسباني.

وبدافع من حدته التي تخلو من النفاق والرياء، طلب بريمو دي ريفيرا من القواد المعنيين يومي السادس والعشرين والسابع والعشرين من يناير 1930، تجديد العهد في وثيقة غير رسمية، دون ان يعلم الملك. فاعتذر زملاؤه الذين أصيبوا بالدهشة، فتدخل الفونصو الثالث عشر، بكل برودة فأقاله من منصبه. والنتيجة، تكشفت للعيان حكومة الأخطاء التي يترأسها برنكر. وبظهور محاولة خاكا Jaca، تأسيس جمهورية يوم الثاني عشر والرابع عشر من دجنبر 1930، لم يشأ الفونصو الثالث عشر، أن يصدر عفوا في حق الزعماء المتمردين، وتلك كانت نصيحة جوفاء من برنكر. فلقد تناسى الاثنان العفو الذي أعطته السيدة ماريا كريستينا إلى كل من الجنرال فيكامبا Villacamba، وأتباعه

الذين ثاروا بسبب الجمهورية سنة 1886. وكانت النتيجة، أن انفصل الجيش عن الملك، وكره الشعب نظام الملكية.

تقبل الفونصو الثالث عشر نتائج انتخابات البلدية، وتألم لازدراء واحتقار رعاياه له. لكن رفضه استعمال القوة للبقاء في الحكم يوم الثلاثاء الرابع عشر من أبريل 1931 بمدريد، جر عليه احترام الشعب، لقد حمله هذا التصرف إلى ارتقاء في سلم العظمة والحقيقة العسكرية، فقد كان لوبيث بوثاس López Pozas، وكبلكانتي، بمساعدة من لاثيريا، هم من حاولوا الحفاظ على الألفونصية باستعمال السلاح. ولا احد من القادة العسكريين، شاء أن يكون الذراع القوي للملك.

وبالنظر إلى تدخلاته العديدة في عالم السياسة، كان الأولى بالفونصو الثالث عشر، أن يتدخل لفك النزاع الناشب في المغرب. هذا الموضوع، كان هو رحى المحادثات طيلة مدة حكمه. ولو انه سنة 1923، بعد عودة الأسرى إلى أوطانهم، وضع حدا للمشكلة باتباع نصائح كل من كامبو وماورا، لكان الأمر قد انتهى، ولذاعت شهرته في سائر أرجاء إسبانيا، بثقته في عرشه الذي كان سيحافظ عليه إلى آخر يوم وفاته. أما الآن، وبعد أن تفككت مجالس الدفاع، فمن المستبعد ان يتجرأ الجيش على التراجع عن مواقفه.

ولم ينقسم هذا الجيش، الذي عاد من المغرب بموجب أمر من الملك، بدء من العاشر من غشت 1932 (مع الانقلاب الفاشل لسان خورخو)، ولم يدافع عن شرعية الجمهورية من اساليب القمع باستورياس 1934، كما انه لم يتوان في أداء واجباته المتمثلة في حماية النظام الدستوري الشرعي (1936).

هوامش الفصل السابع

1) الوثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 303-304.

2) البيانات...(محاكمة برنكر)، ص. 142.

3) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، "رسالة من لاثيريا إلى بيكاسو" بتاريخ 24 غشت 1921 -ولربما بعثها من مدريد قبل انصرافه إلى مليلية.

4) المصدر نفسه والصفحة نفسها، رسالة من بيكاسو إلى لاثيريا بتاريخ، مليلية 31 غشت 1921.

5) المصدر نفسه. ص. 5.

6) رسالة من لاثيريا إلى بيكاسو. 1921/09/01.

7) محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، في يونيو 1997، وقت مباشرته لعمله، أو في مقر عمله بغرناطة حيث كان يتقلد منصب رئيس هيئة أركان الحرب. كان هذا الجنرال شغوفا إلى حد كبير بالجياد.

8) الحديث عن الاستحقاقات لمنح بيكاسو وسام الشرف (نجمة سان فرناندو) -ليوم 26 يناير 1894- المعرض العسكري الحديث، 1980، الجزء VI، ص. 46 و47.

9) هذا هو التصريح النهائي لحفيد الجنرال، واتفاق عائلته على جملة من الذكريات التي لازالت الذاكرة تختزنها. محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو في يونيو 1997.

10) أدالبرطو بيكاسو المتزوج من ماريا روسا لوبيث كان له ولدان ماريا روسا (المزدادة عام 1922) وخوان كارلوس (المزداد سنة 1924) وهو الحفيد الوحيد للجنرال الذي مايزال حيا. لكن نيسطور بيكاسو فيسنتي هو من تابع المسيرة العسكرية، إلى أن وصل إلى درجة كولونيل المهندسين. توفي عام 1974.

11) *صحيفة ا-ب-سي*. ليوم الأربعاء 17 /1921/08.

12) المصدر نفسه، الثلاثاء 23/1921/08.

13) *صحيفة الليبرال*. نشرة الجمعة 12 /1921/08.

14) المصدر نفسه، الأحد 21/1921/08.

15) *صحيفة الصول*، نشرة الجمعة 12 /1921/08.

16) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 12 /1921/08.

17) *صحيفة ا-ب-سي*. نشرة الثلاثاء 23/1921/08.

18) *صحيفة الصول*، نشرة الأربعاء 13 /1921/09.

19) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة 19 /1921/08.

20) تلك المدن هي، أستورياس، بدخوص، برشلونة، سيوداد ريال، كوينكا، غرناطة، أويلفا، جيان، لوغرونيو، مدريد، مالقة، سلمنكا، سانطندير، طينيريفي، طيرويل، بلد الوليد، سامورا. جاء هذا في *صحيفة ا-ب-سي*، عدد الاحد 09 اكتوبر 1921.

21) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 20 /10/ 1921، ص. 3.684.

22) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 24/1921/08.

23) المصدر نفسه، نشرة 19 /1921/08.

24) المصدر نفسه، نشرة الخميس 29 /09/ 1921.
25) مشتكى به من لدن إندالسيو بريطو اثناء النقاش حول موضوع تحديد المسؤوليات -مذكرة الجلسات البرلمانية- جلسة 27 /10/ 1921، ص. 3824.
26) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 19 /08/ 1921.
(27) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 24 /08/ 1921.
28) (ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا)، العدد 5 /442، رسالة من ميري دي فال إلى غونثالس اونطوريا بتاريخ، 18 غشت 1921، لندن.
29) المصدر نفسه.
30) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1 /360. رسالة من مانويل غونثالس اونطوريا إلى ميير إسمي هووارد بتاريخ 27 /11/ 1921، مدريد.
31) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 3 /364 محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا جرت يوم 8 /02/ 1922 على الساعة الثامنة وخمسة واربعين دقيقة.
32) صحيفة *الصول*، نشرة الخميس 8 /12/ 1921.
33) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 5 /442.
34) أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1 /364 حوار تلغرافي بين لاثيريا وبرنكر جرى يوم 20 /08/ 1921 على الساعة الثامنة والنصف.
35) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 12.
36) صحيفة الصول، نشرة الأربعاء 13 /09/ 1921.
37) ميير بيرلنغا، فرانثيسكو، *الموجز في تاريخ مليلية*، تم طبع الكتاب من طرف كاتبه برعاية اللجنة المائوية الخامسة. مليلية 1996، ص. 21.
38) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الخميس 08 /09/ 1921.
39) بوراس. طوماس، مطاردة المدافع. الصورة الخامسة، نشر في صحيفة *الصول*، نشرة الجمعة 16 /09/ 1921.
40) الوثائق... (تقارير بيكاسو)، ص. 559-564.
41) صحيفة *الصول*، نشرة السبت 01 /10/ 1921.
42) عن الحادث وآثاره الشعبية تحدث بوراس. في صحيفة *الصول* - في سلسلته المعنونة بـ"صور *القصف*" في نشرة الأحد 2 /10/ 1921.
43) برنكر. د، المصدر السابق نفسه، ص. 249-251.
44) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 9 /442 محادثة هاتفية جمعت إيزا وبرنكر يومه 30 /07/ 1921. على الساعة الثامنة والنصف.
45) الشكوك جاءت من نائب برلماني آخر كان حاضرا بالهيئة التشريعية لسنة 1921. ويدعى انطونيو غاراي فيطوريا. مهنته "مالك" وتم اختياره عن طريق مقاطعة الكانطرا بـ (كاثيريث).
46) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21 /10/ 1921، ص. 3701.
47) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21 /10/ 1921، ص. 3702.

48) المصدر نفسه، ص. 3.684.

49) مايتسو، راميرو، "*جنود الكووطا بإفريقيا*" في جريدة *الصول*، نشرة الخميس 13/10/1921.

50) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 364 محادثة تلغرافية جمعت لاثيريا ببرنكر يومه 17/08/1921. على الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة.

51) مذكرة الجلسات البرلمانية، دورة 20/10/1921، ص. 3.684.

52) صحيفة *الصول*، نشرة الأحد 25/09/1921.

53) صحيفة *الصول*. نشرة الجمعة 14/10/1921، *وصحيفة ا-ب-سي* في نشرتها ليوم الأحد 17 غشت.

54) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 9/442، محادثة هاتفية بين إيزا وبرنكر يوم 29/07/1921 على الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة.

55) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 1/364، محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا يوم 15/08/1921.

56) رتبة قبطان، رامون غارسيا بلانكو، ومانويل مورالس الونصو، رتبة تلينتي، رامون شنشيا أورانطيس، وبوليكاربو مورسيانو غوميس، ورفائيل بريث سولر، رتبة ملازم ثان كان هناك إسحاق لوبيث غالان، وخوليو سولا فونط، في، *تاريخ الحملات*... الجزء الثالث، ص. 205، وكذا في السجل العسكري السنوي 1921.

57) الإقامة العامة الإسبانية بالمغرب. قوات التدخل السريع، الأوامر العامة لـ 9 أكتوبر 1922 حول الحكم المنافي لمنح الوسام الشرفي للقائد إمليانو برناشرا مولفيدرو الذي توفي في الحادث، وكان الجواب بالنفي بعلة عدم توفر كل الدلائل.

58) أرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، المجموعة 1/364 في محادثة هاتفية بين لاثيريا وبرنكر بتاريخ 31/08/1921 على الساعة 21:00.

59) *فرق المتطوعين الإسبان، 50 عاما من التاريخ*. المصدر السابق نفسه، الجزء الأول، الصفحات 128 و134.

(60) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة، م- 148 وأرشيف مؤسسة أنطونيو ماورا المجموعة 1/364، محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا بتاريخ 31/08/1921.

61) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 20/10/1921، ص. 698.3

62) صحيفة *الصول*، نشرة الثلاثاء 20/09/1921.

63) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 13/09/1921.

64) "*الفكر السياسي لبرنكر*"، مقال كتبه طوماس بوراس في صحيفة *الصول*، نشرة الثلاثاء 06/09/1921.

65) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد ب-986، جرح بنيا على إثر انفجار عبوتين ناسفتين أطلقهما الريفيون بعيادة أعرويت، حينما كان بنيا يسهر على تقديم الإسعاف للمرضى.

66) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 17/08/1921.

67) البيانات... (محاكمة برنكر)، ص. 111.

68) صحيفة *الصول*، نشرة السبت 01/10/1921.

69) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 27/09/1921.

70) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد1/364، بلاغ تلغرافي أعاد برنكر إرساله إلى لاثيريا يومه 23/09/1921 على الساعة 21:00.

71) صحيفة *الصول*. نشرة 01/10/1921.

72) *تاريخ الحملات*...، الجزء الثالث، الصفحات، 494-495.

73) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 20/09/1921.

74) صحيفة *ا-ب-سي*، عمود في نشرة 17/08/1921.

75) "جزر الأموات". مقال في جريدة *الصول* نشرة 20/10/1921.

76) تلقت القوات العسكرية (وساما جماعيا) عبارة عن رباط العنق، سان فرناندو، في حين تلقى القائد الذي كان آنذاك كومُندان. نجمة شخصية.

77) حكاية كوروشانو لـ صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 02/10/1921.

78) *تاريخ الحملات*... المصدر السابق نفسه، ص. 504-502.

79) تلقى الجندي بيدرو غوتيرس دي ديغو الذي كان مايزال في فترة التدريب وسام الشرف، وكذلك لويس فوريو موريو (بعد وفاته) المعرض العسكري... الجزء السادس، نفس المصدر السابق، ص. 334-335.

80) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، ا-2057.

81) صحيفة *الصول*، 16/09/1921.

82) صحيفة *الصول*، نشرة الثلاثاء 20/09/1921.

83) *إيرالدو دي مدريد*، الأربعاء 16/09/1925.

84) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364 محادثة هاتفية جمعت برنكر بلاثيريا يوم 20/08/1921 على الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة مساء.

85) المرجع نفسه، العدد 5/442، مذكرة من 7 صفحات، كتبها ماورا بنفس المصدر ورقنها سكرتيريه، بتاريخ 26/09/1921.

86) إرنانديث مير، ف، *من الكارثة*... نفس المصدر السابق. ص. 68.

87) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364 محادثة هاتفية بين برنكر ولاثيريا بتاريخ 02/10/1921، على الساعة 22:15.

88) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الخميس 27/10/1921. ص. 3.835.

89) انغوليطي دي كاردناس، إغناثيو، *دوقة النصر*، دار النشر الطاميرا. مدريد 1958، وقد تم الاحتفال فيما بعد بكارمن انغوليطي، في حفل حضرته العديد من الشخصيات السياسية، من بينهم بابلو إغليسياس الذي صرح بهذه العبارات "رغم كوني من المعادين للحرب، فأنا هنا لتكريم هذه السيدة التي ابانت عن عزة نفس عالية وتواضع عظيم".

90) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27/10/1921.

91) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364 محاضرة 02 اكتوبر 1921.

92) المصدر نفسه.

93) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364، محادثة تلغرافية جمعت الفونصو الثالث عشر بـ لاثيريا يوم 10/10/1921 على الساعة السابعة مساء.

94) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 12/10/1921.

95) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1 /364 محادثة تلغرافية 10 اكتوبر.

96) *تاريخ الحملات*... الجزء الثالث، ص. 512.

97) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 19 /10 /1921.

98) مارتينس دي كامبوس، أرسنيو، مليلية 1921. منشورات بلدة لامانشا، ثيوداد ريال، ص. 258.

99) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1 /364.

100) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة الخميس 20 اكتوبر 1921، ص. 3677.

101) المصدر نفسه، ص. 3.680.

102) المصدر نفسه، ص. 3.685.

103) المصدر نفسه، ص. 3682 - 3686 - 3687، نظن أن هذه المداخلة كانت لميغيل فيانوفا غوميس (1852-1931)، إذ كان هناك نائب برلماني آخر في صفوف الديموقراطيين ويدعى البرطو فيانوفا لاباين. وتجدر الإشارة إلى أن ميغيل فيانوفا كان وزيرا عدة مرات - في حكومة كل من مونطيرو ريوس- كنالخاس- رومانونيس - غارسيا بريطو. وكان معارضا، يعارض بشدة ديكتاتورية بريمو دي ريفيرا.

104) المصدر نفسه، 21 /10 /1921، ص. 3721-3723.

105) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 2 /362 محادثة هاتفية جمعت بين برنكر ولاثيريا من تطوان. 25 /10 /1921.

106) نفس المصدر، 21 /10 /1921، ص. 697.3.

107) نفس المصدر، ص. 3.698 وفي صحيفة *الليبرال* في نشرة 10 شتنبر1921 تم التطرق كذلك إلى هذه الأحداث.

108) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 9 /442، حديث برنكر مع إيزا يوم 30 /07 /1921 على الساعة 13:05.

109) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة 19 /08 /1921.

110) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، مسودة رسالة الجنرال بيكاسو إلى دوقة إرناشولوس، مليلية 04 /11 /1921.

111) محادثات مع دومينكز يوسا. يوليوز 1998.

112) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة 26 /10 /1921 وصحيفة *الصول* يوم 25 اكتوبر1921.

113) صحيفة الصول في عددها ليوم الأحد 30 /10 /1921.

114) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة الجمعة 28 /10 /1921.

115) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 08 /11 /1921، ص. 4014.

116) فرنانديث أوكسيا، خوصي رامون، *مذكرات المغرب، بعد هزيمة انوال*، منشورات سوطيلو بلانكو. برشلونة 1985، ص. 23-62-64.

117) غونثالس كبايرون فراي البرطو، *الرهبان التابعون للطريقة الكابوشية في شبه الجزيرة الإيبيرية، 400 عام من التاريخ (1578-1978)*. منشورات، المحاضرة الإيبيرية للكبوشيين. إشبيلية. 1985، ص. 303.

118) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21 اكتوبر، ص. 3705-3706.

119) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 2 /364 محادثة بين كبلكانتي ولاثيريا على الساعة التاسعة من يوم 25 /10 /1921.

120) المصدر نفسه، اتصال هاتفي بين برنكر ولاثيريا يوم 25/10/1921 على الساعة التاسعة وثمانية عشر دقيقة.

121) المصدر نفسه ، اتصال هاتفي بين لاثيريا والفونصو XIII يوم 29-12-1921 على الساعة السادسة وخمسين دقيقة.

122) نفس المصدر، ص. 3821. اكد بريطو ،ان المورو اقلعي كانت بحوزته تذكرة الإذن بالمرور التي خولها له الجنرال مارينا. وبامر من سيلفستري لقي هذا الرجل حتفه عند احد المواقع الأمامية (كويستا كولورادا) التي كان يجتازها،.

123) بيان الترقيات الذي نقله برنكر إلى لاثيريا في اتصال هاتفي جمعهما يوم 24/10/1921 (ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا) العدد 4/362 وفي اليوم الموالي نشر هذا البلاغ في محاضرات البرلمان.

124) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 27/10/1921 ص. 3823.

125) المصدر نفسه، ص. 3823.

126) بريث أورتيث إ، المصدر السابق نفسه، ص. 311.

127) ارشيف مؤسسة أنطونيو ماورا، العدد 1/360 رسالة من غونثاليث أونطوريا (وزير الدولة) إلى ماورا بتاريخ 30/10/1921.

128) مذكرة الجلسات البرلمانية، جلسة 21/10/1921، ص. 3832.

129) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد 1/364.

130) (الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية) /(المصلحة التاريخية العسكرية)، القوات العسكرية في المغرب العدد 68.

131) مذكرة الجلسات البرلمانية، العدد 650.

132) ارشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، رسالة من خوان كارلوس بيكاسو لوبيث إلى خوصي ماريا اريلسا بتاريخ 10 ماي 1981، مدريد. وتم التوسع في حكاية هذه الأحداث في غشت 1997.

133) محادثات مع خوان كارلوس لوبيث، اكتوبر 1997.

134) أمر رئاسي مرسل إلى رئيس التجمع الوطني السيد (خوصي ماريا يانغواس إي مسيا) مصدرها الهيئة العليا للسلطة التنفيذية لمجلس الوزراء بتاريخ 13 نونبر 1927 مدريد. وبتوقيع من ميغيل بريمو دي ريفيرا.

135) المصدر نفسه، الفقرة الثانية.



خـاتمة:

ما مصير كل أولئك الرجال؟

وفاة ماورا وشخصيات أخرى

عاش رؤساء الحكومة **أيندي سلاسار** Allende Salazar، و **ماورا** Maura، كوارث انوال واعرويت عن قرب، ووافتهم المنية قبل ان يشهدوا حل مشكل المغرب. وهكذا، توفي الأول سنة 1923، وبعد سنتين رحل الرجل الثاني.

بوصول **بريمو دي ريفيرا** إلى الحكم، عانى **ماورا** من عزلة شديدة، وابتعد كثيرا عن امور القصر. لكنه احتفظ بانتقاداته ومعارضاته، وإن جاءت منمقة وغير خالية من الصرامة. وبديلا لذلك، ولج عالم الرسم الذي افنى فيه بقية عمره. وذلك في منزل "البيكو"، الذي يعود لصاحبه الكونت دي لاس الميناس (خوصي ماريا دي بلاثيو إي اربوروا José María de Palacio y Arburúa)، في ضاحية طوريلونديس Torrelondres. فإلى هناك، توجه ماورا يوم الثالث عشر من دجنبر 1925، وكله استعداد للرسم، خاصة في ايام الآحاد. ومرة ترك أدواته في باحة القصر الصغير، وصعد إلى الطابق الأول ليجمع لوازمه، وبعد ذلك بقليل، اراد ان يستانف عمله في اللوحة المائية التي احضرها معه من مدريد، وكانت تحتاج إلى بعض التنقيحات، وبعض اللمسات الأخيرة. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف صباحا. حينما هم ماورا بالنزول من أدراج البيت رفقة الكونت، وفجأة امسك بذراع هذا الأخير بقوة. كان شاحب الوجه، فتمتم بكلمات «الميناس Almenas إنني لا ارى...»[1]. تقدم ماورا بخطوات، ثم هوى على الأرض بالقرب من مدخل الدار. فذهب ضحية نزيف في المخ.

أما الدوق إيزا، فقد انتهت حياته السياسية مع الدورة التشريعية لسنة 1922-1923. كانت حوادث انوال قد اثرت فيه بشكل كبير، وكان يظهر بقوة داخل البرلمان. كانت صورته اكثر من سيناتور بسيط او وزير دفاع مشدوه، او رجل ثقة بالنسبة للملكية. توفي عام 1945 بمدريد.

لم يكن "للاثيريا" مشاكل في الانتقال من النظام البرلماني إلى نظام الاستبداد والديكتاتورية، الذي ينهجه بريمو دي ريفيرا. فقد عاد إلى مهامه الحكومية في المجالس التنفيذية، وشغل منصبا داخل وزارة الدعم. وفي الساعة الحاسمة ليوم الثالث عشر والرابع عشر من ابريل 1931، دافع عن فكرة (كل شيء في سبيل كل شيء)، التي كانت تتناسب مع شخصيته. لكن الفونصو الثالث عشر، لم يعره اهتماما. وسنة 1938، وافته المنية بمدريد.

وفيما يخص الشخصيات الأخرى، كالبارس كامبو Álvarez Cambó، غارسيا بريطو García Prieto، رومانونس Romanones، وسانتيث غيرا، فقد كانت امامهم عند نهاية 1921 فرص سياسية هائلة ومأساوية في نفس الوقت (وتلك حالة السيد ميلكيادس Melquíades).

كان من جانب المسؤولين البرلمانيين الأكفاء -امثال الكلاثامورا Alcalá Zamora، بسطيرو Besteiro، كرسبو دي لارا Crespo de Lara، مارتينيث دي كامبوس Martínez de Campos بريطو، وسولانو- أن يتابعوا السير حتى نهاية النظام الذي افل نجمه سنة 1923، حتى وإن امتدت خسائره إلى الشعب إلى حدود 1936. كما كان بجوارهم كل من الفونصو الثالث عشر، بريمو دي ريفيرا، بورغيطي Burguete، فرانكو، وسان خورخو. وإليهم انضاف الإخوة عبد الكريم.

من برنكر وبيكاسو إلى خرافة بيغبيدر

باتت شمعة برنكر تنطفئ يوما بعد يوم، إلى ان أصبح حبيس عزلة تسببت فيها أحداث 1930. ويوم الثامن والعشرين من يونيو 1923، رفعت ضده شكاية، وبعد شهرين، تعذرت امامه كل السبل وأغلقت الأبواب. لكن برنكر لم يجب يوما على تحقيقات البرلمان، التي يعتبرها دوما هو وأصدقاؤه الحميمين، مجرد تحقيقات تحضيرية لا تخلو من طابع سياسي.

وبإعلان الجمهورية الثانية، ولج برنكر سلك الاحتياط، وذلك في غشت 1931. كان عمره آنذاك ثمانية وخمسين عاما. وكان يتباهى برتبته كتليتني جنرال. وفيما بعد واجه

قضية ثالثة رُفعت ضده، بسبب الإجراءات التي كانت بـ جاكا Jaca. كان فرانكو واحدا من الشهود، وفي إحدى التصريحات التي أدلى بها يومي السابع عشر والثامن عشر من دجنبر 1931، ودون أن يتقدم لرئيس الحكومة السابق بكلمات مدح أو إطراء، أكد أن العدالة يجب أن تعطي الأولوية للجانب العسكري أكثر من الجانب المدني، خصوصا إذا كانت الجرائم تهم الطرف الأول. وذكر في جملة غريبة -ومتناقضة- أن العسكريين كانوا يتلقون السلاح من الشعب من "مخازن مقدسة"، فإذا أشهروا يوما السلاح في وجه هذه الأمة، وفي وجه الدولة التي زودتهم بالعدة والعتاد[2]، فإن تصرفهم سيكون جرما كبيرا. وسنة 1935، حكمت المحكمة العليا لصالح برنكر.

وسرعان ما نسيت البلاد برنكر، فوفاته جاءت في التاسع عشر من مايو 1953، ساعة الفجر. كانت العاصمة وقتها تعج بالاستقبالات الرسمية، التي نظمت على شرف رئيس جمهورية البرتغال، الجنرال كرفيرو لوبيث Craveiro Lopez، الذي كان يستعد للعودة إلى لشبونة في نفس اليوم الذي دفن فيه برنكر. من جهة أخرى، كان على رأس الموكب الجنائزي، فديريكو، أخ برنكر، وحضر نيابة عن فرانكو، وزيره لويس كررو بلانكو Luis Carrero Blanco. وحدث أن احتشد بالقرب من باب منزله -المتموقع بحي أطوتشا رقم 15- ما يناهز مائتي شخص، حضروا لتشييع الجنازة. ووصف هذا الحادث "بالبسيط والمؤثر"، وأوضح المؤرخ أن النعش كان بسيطا وجد متواضع[3]. ومساء الأربعاء التاسع عشر من مايو، تقدم الموكب الجنائزي واتجه صوب حي المنثاناريس، في طريقه إلى كنيسة سان لورينسو. وهناك عانق جثمان برنكر جثة بيكاسو.

رضي برنكر الذي تجند لأصعب مهمة عرفها تاريخ الجيش الإسباني، بتغير نظام الحكم، ولم يشأ بيكاسو أن يفعل مثل ما فعله أغيليرا Aguilera وويلر Weyler فيتآمر على الديكتاتور. ويوم الثالث والعشرين من غشت 1923، اتخذ مكانه بين صفوف جيش الاحتياط. كان عمره آنذاك، ستة وستين ربيعا، واستمر عضوا داخل المجلس الأعلى للحرب والبحرية، وأقحم نفسه في مرافعات برنكر ونفارو. كما أدلى بصوته الشخصي والمعارض لقضية إصدار العفو، الذي استفاد منه الكولونيل أراوخو. ويوم الثامن والعشرين من غشت 1925، انتقل إلى الفرق الاحتياطية الثانية برتبة تلينتي جنرال. كان التعب قد أنهكه، والمرارة قد اعتصرته.

لم يفاجئه خبر إعلان الجمهورية الثانية، بقدر ما افجعته نتائج الفوضى العارمة التي انتشرت في المجتمع الإسباني، بغض النظر عن المتمردين، سواء كانوا مدنيين او عسكريين. وعن انطباعات عائلته، فالشيء الوحيد الذي ظل عالقا بذهنه، هو صورة عودته ذات يوم إلى منزله بحي امنستيا، وقد بدت عليه علامات التعب والحزن والصمت، وهي أشياء غريبة عنه، وخصال لم تالفها العائلة. تاخر ذووه كثيرا، في معرفة سبب هذه الحالة. وكل ما في الأمر هو أن الجنرال، رأى في (لا بويرتا ديل صول) ضابطا شابا، يضرب بسوطه حذاءه وقبعته المائلة. كان رباط عنقه مفسوخا، وقميصه مفتوحا، وهندامه مهملا. وكان هذا الضابط يمشي الخيلاء وسط الناس[4]. واثرت هذه الصورة في نفسية بيكاسو، الذي بات ينظر بعين الأسى إلى الجيش المنحط، وإلى هذه الروح العسكرية التي باتت في الحضيض، كان واعيا من أن ثمة فاجعة اخرى ستحل بالبلاد.

لم يحمل النظام الجديد شيئا لصالح بيكاسو، ولم يفكر في طلب شيء. كان رجلا عادلا ومخلصا لمبادئه. ولكنه ظل نكرة وفريسة للنسيان. كان بيكاسو يعاني من مرض شل مناعته التي تدهورت منذ أعوام المستندات والتقارير (1921-1922). فقد كشف له الطب عن سرطان الحنجرة، الذي عجز عن مقاومته، وتوفي في مدريد يوم الجمعة الخامس من ابريل 1935. وجرت مراسيم الدفن في سرية تامة، لأن الجنرال سبق له وأن أعطى أوامر صارمة بعدم إخبار احد بوفاته، لكن الناس علموا بالنبأ، إثر نشر جريدة أ.ب.سي للنعي بعد يومين من الحادث[5]. وبعد مرور شهر، توفيت كذلك ماريا لوث فيثنط María Luz Vicent، التي ذهبت ضحية سرطان الثدي. واجتمع الزوجان في سان لورنسو، وهناك في فناء سان روكي رقد الاثنان للأبد. اما عن ايالا Ayala، الصديق الوفي لبيكاسو واغيليرا، فقد وافته المنية في الطافويا Altafulla بمنطقة كطالونيا، وذلك بعد إعلان الجمهورية بقليل في الثامن والعشرين من مايو 1931. كان عمره آنذاك ستة وستين عاما[6].

وبخصوص آنخيل روييث دي لافونتي Ángel Ruiz de la Fuente، الغرناطي الأصل، وسانتيث بويرطا Sánchez Puerta، الذي شغل سنة 1928 منصب مستشار القسم، فلا ندري شيئا عن ايامهما الأخيرة. فقط علمنا ان سانتيث وعمره آنذاك تسعة واربعين سنة[7]، كان واحدا من الضباط الذين يثق بهم كثيرا السيد خوردانا، زمن اشتغاله بالإقامة العامة بتطوان. علاوة على انه كان العنصر المهم في المرافعات الحقوقية للمجلس، والرجل الخبير بشؤون إفريقيا.

كان رومانونيس إي سانتا رومانا Romanones y Santa Romana، ينتمي إلى مدينة الباثيطي، ولد بها عام 1857. وفي سنة 1881، نال الجائزة الشرفية للإجازة من كلية الحقوق بثاراغوثا. واشتغل بكوبا خلال ايام الحرب الأخيرة (1895-1898). وفي سنة 1911، ترقى إلى أعلى الدرجات الممكنة، حيث وصل إلى درجة مستشار حقوقي للجيش، ومستشار للحربية والبحرية سنة 1921. كانت نظرياته حول الموارد المالية، المبنية على أسس صلبة ومثيرة كذلك، من اولويات ملفات بيكاسو، ووثيقة قضائية منقطعة النظير. خاصة، وانها استندت إلى كل ما جاء في محاضر برنكر. وافت المنية رومانونيس في مدريد، وذلك يوم العاشر من ابريل 1923[8]. وعن مساعدين آخرين لبيكاسو كخوان مارتينيث دي لا فيكا Juan martínez de la Vega، فلم نعثر على معلومات ذات أهمية.

أما عن أغيليرا، فبعد دسائس واحتيالات متواصلة من اجل ملف برنكر، أعرب عن رغبة في الإطاحة بنظام بريمو دي ريفيرا، رغم أنف هذا الأخير. ففشلت كل محاولاته، وتنصل من كل شيء، فوافته المنية عام 1931.

توفي ويلر الذي ظل منسجما مع نفسه حتى النهاية -يدافع عن النظام الدستوري ويندد بالخروقات العسكرية- في مدريد سنة (1931)، عن سن تناهز الثانية والتسعين عاما.

ترقى خوان بيغبيدر اطينثا Juan Beigbeder Atienza، إلى درجة كولونيل، وتم تعيينه سنة 1937 بتاريخ الثالث عشر من مارس مقيما عاما، وفيما بعد، تم تعويضه بأسنسيو كبانياس Asensio Cabanillas، الذي كان واحدا من المراقبين في انوال. وفي غشت 1939، تحول إلى اكبر شخصية تشارك في تجنيد الفرق -الريفية- الجبلية- التي ستوظف لصالح فرانكو. هكذا، قطع احفاد طارق بن زياد المضيق من جديد، كانوا جنودا لا يشق لهم غبار. وصل عددهم إلى اثنين وستين الف رجل، فخاضوا غمار الحرب فقَاتلوا وقُتلوا. وعن عدد الجرحى الذين سقطوا في صفوفهم، تحدث سلاس لاراثبال Salas Larrazábal، عن خمس وثلاثين الف رجل. اما فيما يخص القتلى، فالعدد كان هو سبعة آلاف[9]، وبعد ان انهى بيغبيدر مهامه كوزير للشؤون الخارجية في اكتوبر 1940، ظل نظام فرانكو محط شكوك واتهامات، وذلك لما عُرف عنه من تضامن وإعجاب بالإنجليز. وفي سنة 1948، تم رد الاعتبار إليه، فتوفي في مدريد سنة 1957، عن سن تناهز التاسعة والستين عاما، مخلفا وراءه مقالات مذهلة عن زحداث انوال.

جاء ذلك يوم الرابع والعشرين من غشت 1921، حينما بعث برنكر باحسن مساعديه إلى مدريد، ليخبر الملك بمستجدات الأحداث. وما إن حل ببوابة القصر، حتى التفت حوله كوكبة من الصحفيين يريدون وجهة نظره. فعبر عن رايه بهذه العبارات: «لقد انهارت الإقامة العامة بمليلية في ظرف ساعات، ولا احد يستطيع أن يشرح كيف حصل ذلك. إنه منزل تصدعت كل دعائمه، فهوى على كل المتواجدين فيه. ولهذا، يصعب كثيرا الإشارة إلى شخص معين، ويصعب كذلك تحديد المسؤوليات»[10].

جنرالات الملك والجنرالات الحقيقيون

ترقى نفارو إلى رتبة جنرال على راس فرقة عسكرية في يوليوز 1924، وكان على علاقة جيدة ببريمو دي ريفيرا، وكذلك بالفونصو الثالث عشر. وفي غشت 1926، وصل إلى درجة تلينتي جنرال. وما بين سنتي 1929-1931، اصبح قبطانا على الفرقة الأولى بمدريد. وبإعلان الجمهورية، تمت إحالته على الاحتياط.

سنة 1936، تم إلقاء القبض عليه، فسيق إلى سجن نموذجي بعد احتراق السجن الاعتيادي، وذلك يومه الثالث والعشرين من غشت 1936. ورغم كل الفوضى المتاججة، استطاع نفارو استعادة حريته.

وصل الجنرال إلى بيته وكله أمل في لقاء عائلته. بداية كان يرغب في الاغتسال، خصوصا بعد قضاء زهاء شهر من العذاب داخل زنزانته. وما أن خرج من الحمام، حتى القوا القبض عليه ثانية. وهذه المرة، اخذوه إلى براكوييوس ديل خراما Paracuellos del Jarama. وفي هذه الرحلة اصطحبه نجله، القبطان كارلوس نفارو مورينيس Carlos Navarro Morenés، الذي كان يبلغ من العمر اربعة وثلاثين سنة. وبالقرب من براخاس Barajas، وعند إحدى المنحدرات قتلوه، في ساعة من ساعات الفجر المشؤوم ليوم السابع أو الثامن من نونبر 1936. وحضر هذه النهاية الفظيعة، إدواردو أراوخو سولر Eduardo Araújo Soler، الكومندان الشاب الذي تمكن من الهروب من فاجعة دار الكبداني[11]، وإن لم يسلم من كراهية الأعداء.

وبخصوص اغوستين لوكي إي كوكا Agustín Luque y Coca، الصديق الحميم لرومانونس، والخبير باسرار نظام الفونصو، فقد توفي بهندايا Hendaya، التي كانت منتجعه المفضل، وذلك سنة 1937. كان عمره آنذاك، سبعة وثمانين سنة. ومنذ سنة 1898، كان يشغل منصب تلينتي جنرال.

اما مارينا Marina، صاحب المشادات الصحافية الصارخة مع **طوماس مايستري** Tomás Maestre، والعضو في مجلس الشيوخ، والكتدرائي البارز في الطب، فقد توفي سنة 1926، بعده بعشر سنوات، توفي مايستري عام 1936. وتعتبر مراسلات طوماس- رومانونس جد مهمة، إذ تساعد على فهم بعض الأخطاء، كما تسلط الضوء على جملة من الفرص التي ضيعتها إسبانيا الألفونصية عام 1913.

وبشكل متاخر، نال مارينا الوسام الشرفي -الذي كان يستحقه اكثر في كوبا- جاء ذلك بتزامن مع الذكرى الإجرامية لوفاة سيدي اقلعي. لكن الأيام شاءت ان يكتب هذا الوسام لشخصية شهيرة أخرى.

وبانتهاء شهر ابريل 1939، وقبل ان يتراس فرانكو العروض العسكرية لفرقته المظفرة، تم البحث في كل أرجاء العاصمة على نجمة شرفية، ليوشح بها صدر الجنرال، فلم يعثر لها على أثر ولا على أي صائغ يمكن أن يصوغها. وما إن علمت عائلة مارينا بالحادث، حتى وهبت النجمة الكبيرة التي كانت ملكا للجنرال المسن، والتي كان الملك الفونصو الثالث عشر يدفع نفقاتها. وبهذه النجمة، وشح فاريلا Varela ، البذلة الرسمية لفرانكو الذي خرج في ذلك الموكب الصاخب في شوارع كسطيانا، في يوم ممطر(12).

سنة 1929 ، صعد فيدل دافيلا fidel Dávila ، إلى رتبة بريغادير. كان رجلا وفيا للملك، وبإعلان الجمهورية انضوى تحت لواء اثانيا Azaña، وانزوى في إقامته ببورغس. كان واحدا من المتآمرين النشطاء الذين أحكموا قبضتهم على العاصمة، فور حدوث الانتفاضة الشعبية. وبعد وفاة مولا Mola، في حادثة جوية يوم الرابع من يوليوز 1937 ، خلفه دافيلا في رئاسة جيش الشمال. فكان الراس المدبر لمعركة الإبرو، التي وقعت في غشت ونونبر 1938 ، كما كان رئيسا لهيئة الأركان الحربية عام 1941، ووزيرا للجيش ما بين سنتي 1945-1949. وهكذا كافاه فرانكو بمنحه لقب مركيز. إلى كل ما ذكرناه آنفا، كان دافيلا مستشارا للحكومة. وفي سنة 1962 ، وافته المنية عن سن تناهز الرابعة والثمانين عاما.

كان ايثبورو وزيرا للحربية رفقة غارسيا بريطو، قبل الانقلاب العسكري لبريمو دي ريفيرا. بقي على هامش الأحداث، وحينما دعاه بريمو وكلفه بمهمة تسيير الإقامة العامة، وافق على الطلب وهو يدرك أن الاختيار كان نابعا من قناعته باحترافيته في العمل، لا بروابط الصداقة التي كانت تجمعه ببريمو. وفيما بعد، انسحب بصمت من كل المؤسسات الحكومية.

وباندلاع الحرب الأهلية عاش أيثبورو مواقف درامية وقف إزاءها مكتوف الأيدي: سنة 1936، كان عمره يناهز الثالثة والثمانين سنة، وقدرت له النجاة لوحده في الساعات الأولى من اندلاع الحرب، وذلك بفضل الصدى الطيب الذي خلفه حينما كان بالمغرب. وفور إلقاء القبض عليه، تعرف عليه واحد من جنود الميليشيا، فأخذه من ساعده بعطف وحنان، وقال له: «لا تنزعج سيدي الجنرال، فلن يصيبك مكروه»[13]. لكن المكروه طال من كان يعيش حوله، فتوفيت اخته كارمن ايثبورو موندخار جوعا، وذلك يوم التاسع والعشرين من يناير 1939 بمدريد. وبنفس السبب، توفيت إحدى بناته التي كانت تدعى **كارمن ايثبورو مارتين - بينيوس** Carmen Aizpuru Martín penillos، يوم التاسع من مارس. وبعد دخول قوات فرانكو إلى مدريد بثلاثة أيام، ويوم الواحد والثلاثين من مارس 1939، توفي أيثبورو بعد أن أصبح نحيفا لا يبالي البتة بما يدور حوله. فدفن في المودينا Almudena، تحت لوحة من الرخام رمادية اللون. هناك إذن، كان يرقد واحد من أذكى الجنرالات الإسبانية الذين كانوا بإفريقيا.

اما عن مورالس الساعد الأيمن لأيثبورو، وصاحب المواقف الساخنة التي جوبهت بتجاهل تام من طرف سيلفيستري. فقد ترك بصمة قوية في ذاكرة كل من عرفه. وفي يونيو 1923، اجريت محاكمته حيث انعقدت في حقه جلسات لاتخاذ القرار، وتدارس ما إذا كان يستحق وسام سان فرانثيسكو ام لا، وذلك لمواقفه الشجاعة بإيزومار. وبالطبع، كان يستحق هذا التوشيح، وإن كان من باب احترام مكانته ووضوحه. لكن النتائج الأخيرة التي عرضت يوم السابع من اكتوبر 1924، لم تكن في صالحه[14]. ورغم ذلك، ظلت ذاكرته حية. وبخصوص زوجته كارمن مورينو دي الكانطرا Carmen Moreno de Alcántara، فقد توفيت عام 1952. وبوفاة نجله غابريل -الذي كان جريئا وواضحا في كتاباته- بقيت عقيلته السيدة كارمن ارمايشي دي مورالس Carmen Ormaeche de Morales لوحدها تحافظ على الروح الأسطورية للكولونيل.

تمت ترقية ميغيل نونيوث دي برادو Míguel Nuñez de Prado -الذي كان يؤم فرق النظاميين في تلك المحاولة الفاشلة لتحرير إيغريبن- إلى درجة جنرال، ثم إلى مفتش الملاحة الجوية للجمهورية. ويوم السابع عشر من يوليوز 1936، لم يتردد في الطيران نحو ثاراغوثا، حيث كان زميله الإفريقي كبانياس، على راس الفرقة الخامسة.

تمكن نيونيوث دي برادو، من النزول بأرض العاصمة الأرغونية والتحدث مع كبنياس. وبينما هو جالس بمكتب هذا الأخير، وصلته انباء تفي بأن الثوار اتلفوا طائرته. وهكذا أصبح الرجوع إلى مدريد مستحيلا، وفي حضرة صديقه، القوا القبض عليه. وبعد اعتقاله بالسجن، لم نعرف عنه سوى النزر اليسير، إذ تم قَتْله رميا بالرصاص. وتجدر الإشارة إلى أن نيونيوث دي برادو، كان واحدا من المهتمين المثاليين بشؤون إفريقيا. وساعة وفاته، كان عمره يناهز الثالثة والخميس ربيعا. ويوم الثالث والعشرين من يوليوز، توجه كبانياس جوا نَحْو بورغوس ليتولى هناك رئاسة المجالس الحربية. كان يدرك أن سلطاته ستكون محدودة. لم تكن الاجتماعات والمجالس تستهوي كبانياس، الذي وُورِيَ الثرى سنة 1938.

ينحدر البرطو كاسترو خيرونا Alberto Castro Girona، بطل شفشاون لسنة 1920، من منطقة بونتا برينثيسا Punta princesa حيث ولد بالفيلبين عام 1875. كان يعاني من مشاكل عويصة في الوزارة والإقامة العامة اهمها؛ ما يتعلق بترقيته إلى جنرال، مع العلم أن مواقفه بالمغرب كانت تلقى صدى طيبا على مجال واسع، إذ عرف بـ"مورالس جبالة". وفيما بعد عرفنا أنه وصل إلى تلينتي جنرال عام 1930. وبخصوص سنة وفاته، لم نعثر لها على أثر في ملفاته الخاصة[15].

وصل خواكين فنخول Joaquín Fanjul، إلى جنرال قسم. وفي مدريد سنة 1936، انتفض ثائرا وهو يصيح بأعلى صوته، «فلتحيا إسبانيا، ولتحيا الجمهورية، وليحيا الجيش»[16]، فتحمل نتائج تصرفاته تلك. كان يراس الفي رجل، وما يقارب خمسمائة متطوع مقيم في الثكنات الجبلية. ولو أنه أمر بخروج هذه الحشود إلى الشارع في الساعات الأولى من الثامن عشر من يوليوز، لما آلت الأمور إلى ما آلت إليه. ومن يدر، فربما وقعت مجزرة كبيرة. وبما أنه كان عسكريا ومحاميا في نفس الوقت، فقد تولى مسؤولية الدفاع عن نفسه. فامتثل أمام هيئة المحكمة، وهو يرتدي جبته، لكن لجنة التحكيم لم تجد من خيار آخر. فالجريمة كانت واضحة، إنها محاولة لإشعال فتيل الفتنة العسكرية. فجاء الحكم بالإعدام رميا بالرصاص، وتلك كانت عقوبته التي سمعها ووقّع عليها يوم السادس عشر من غشت 1936، فشنق في الفجر الموالي في ساحة السجن، وكان رفقته الكولونيل فرنانديث كينطانا. وهكذا جاءت نهايته عن عمر يناهز السادسة والخمسين سنة.

أسماء أخرى ، ومواقف نهائية

كان مانويل المارشا غارسيا Manuel Almarcha García، من أكبر المدافعين الشجعان عن الناظور. يخرج لوحده للقتال ولمرات عديدة. وفي كل مرة، كان يواجه الريفيين وجها لوجه. ولأجل هذا، كان يستحق وسام الشرف، الذي حرم منه. فظل دائما في رتبة "حارس" متواضع. وجاءت حرب 1936، التي باغتته في مدريد، وهو يباشر عمله في معسكر الفنون الجميلة. فكانت مناسبة لترقيته إلى قائد عشرة، وذلك باختيار من أعضاء اللجنة المكونة للفريق الجمهوري. وكادت هذه الترقية أن تؤدي به إلى الموت، إذ حكم عليه في السابع من دجنبر 1939 باثنتي عشر سنة من السجن، وجاء القرار من داخل مجلس الحرب الذي انعقد باليكانطي. وهكذا، تم طرده من داخل المؤسسة، فاهدرت كل حقوقه. وحتى حدود سنة 1974، كان المارشا مايزال حيا، كان عمره آنذاك ثمانين عاما. وحدث أن طلب نجله سلفادور مراجعة المحاضر، وهذا من حقه، لكن طلبه جوبه بالرفض.

باندلاع ثورة فرانكو، كان ريكاردو فرنسو أورزايس Ricardo Fresno Urzaiz -هذا الضابط المغوار الذي أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن الناظور- متواجدا بالإقامة العامة للحرس المدني بمدينة بامبلونة Pamplona، ولمدة خمس عشرة سنة، لم يترق إلى درجة قبطان. وبما أنه كان وفيا للجمهورية، فقد تم اعتقاله، ليتمّ نقله إلى حصن سان كرستوبال، وهو المكان الذي لقي عنده العديد من النفاريين نهاية مهولة. ويوم السادس والعشرين من يوليوز 1936، ودون إصدار حكم مسبق في حقه، تم قتله وعمره خمسون سنة. هكذا، جاءت نهاية هذا البطل الشجاع من ليردا Lérida، وبالضبط كان ينحدر من مدينة طرومب Tremp. وبخصوص ارملته السيدة **خوصيفينا اليغريا ريزبال** Josefina Alegría Reizabal، فقد رضيت بالذل والهوان، وأعلنت مناصرتها للحركة الوطنية، بهدف حصولها سنة 1940 على معاش عقيلها المقتول[17]. وبالنسبة لباردو أغودين Pardo Agudín، فقد يئس من محاولاته الجنونية في سبيل الحصول على وسام كان يستحقه بعد دفاعه عن الناظور. هذا الدفاع الذي، استخف به برنكر كثيرا. فنال نجمة سان إرمينخيلدو San Hermenegildo، التي كان معاشها يقدر بستمائة بسيطة. وفي أكتوبر 1925، وافته المنية بمدريد[18].

تمت ترقية فرنانديث طماريت إلى رتبة كولونيل، وفي سنة 1922، كان بمايوركا على راس الجبهة المخصصة للتجنيد. وهناك علم من بيكاسو بتفاصيل المحاكمة التي اجريت في حق اريناانا Arenzana، فتالم فرنانديث كثيرا لملابسات الموضوع، إذ إنه كان يراهن على الشرف، فعاودوا خداعه.

وفي رده على بيكاسو الذي بعثه إليه يوم الحادي عشر من يناير 1922، وبعد أن حذره، «انا لا اصنع الأبطال الذين يُعرضون هناك (اي بمليلية)»، وضمن خطابه رسالتين كانتا لأرينثانا، واوضح قائلا، «بالتفكير مليا في الموضوع، اردت معرفة ما إذا كان هذا التعس (ارينثانا) الذي يتصنع البطولة يريد الترقية». وبعد أن تطرق طماريت إلى صحته المنهوكة من جراء آلامه ومعاناته النفسية، انهى رسالته هكذا، «وبما أن كل شيء تشمئز منه نفسي، فسوف ارحل في اقرب وقت ممكن»[19]، والحالة اننا لم نعرف ماذا حل بهذا الرجل العظيم -الذي كانت مخططاته حول كيفية تطويق بني ورياغل هائلة- إذ لم نعثر بين مستنداته على ورقة خدماته ولا تاريخ وفاته[20].

وحسب رواية دومينكز يوسا فإن الكولونيل **سيلفريو اراوخو** Silverio Araújo، توفي عام 1931، وإن كان الأمر كذلك فعمره آنذاك كان خمسة وستين عاما. اما عن ملفه، فلم يعثر له على اثر في الأرشيفات العسكرية[21]. وعن **ساتوريو غارسيا إستيبان** Saturio García Esteban، فقد اقيمت دعوى ضده، وحكم عليه بالبراءة يوم الثالث عشر من اكتوبر 1924. فيما بعد، أحيل على التقاعد سنة 1929. كانت له الجراة في طلب الترقية إلى درجة جنرال شرفي للفرقة، وهو منصب ناله في عهد الجمهورية الثانية التي لبت طلبه في دجنبر 1931، وعمره ستة وستون سنة[22]. آنذاك، كان يعيش بعيدا في منطقة **بورجسوط** Burjasot بفلنسيا.

بقي **ريكيلمي لوبيث إي باغو** Riquelme López Bago، بعيدا عن نظام بريمو دي ريفيرا، وخلال الحرب الأهلية الإسبانية ذاع صيته في البلاد، وهو يؤم العديد من الفرق العسكرية. في البداية كان يتصرف بحكمة، بيد ان تشابك المشاكل افقده صوابه. فتم نفيه إلى فرنسا. ويوم الثاني من شتنبر 1969[23]، منحه فرانكو درجة رئيس الجيش. توفي في باريس عام 1972، كان واحدا من خيرة الجيش الإسباني بإفريقيا.

اكد خوليو فورطيا غارسيا Julio Fortea García -القبطان الذي فقد الكلام من جراء الانفعالات والصدمة التي عاشها يوم الثاني والعشرين من يوليوز 1921- أن الخرس الذي أصابه، جاء نتيجة لحضوره ذلك المشهد الرهيب، ساعة تمزيق مورو بني ورياغل لجثة سيلفستري. وبعجزه عن الكلام، اهتدى فورطيا للكتابة. وبكلمات خطها بيده، روى المشهد المفجع الذي ذكرناه آنفا. وهذا ما جاء في نشرة صحيفة الليبرال[24]. لكن لم يرد في تصريحاته الرسمية سوى أنه، وفور اقترابه من الفصائل العسكرية، حاول تفقد المواقع، وما إن رآها خاوية على عروشها، وان بعض منابرها سيطر عليها العدو، وهو يطلق الرصاص على الجنود المنسحبين، حتى اصيب بالانهيار العصبي الذي افقده الكلام بالمرة[25]. سنة 1952 توفي فورطيا عن سن تناهز الخامسة والستين سنة.

كاريو ومانثنيكي Carillo y Manzaneque، هذان الطياران الوفيان اللذان كانا يسهران على تموين أعرويت، كانت لهما نهاية تختلف الواحدة عن الأخرى. فكاريو مثلا، مكث في الخدمة لثلاث سنوات متتالية، وكانت نهايته في (جبالة) حيث سقط في دار شروط يوم الرابع والعشرين من شتنبر 1924 في محاولة حماسية لإنقاذ ذلك الموقع الإسباني المحاصر[26]. أما عن **لويس مانثنيكي فيلطرر** Luis Manzaneque Feltrer، فقد انسحب من الميدان بتاريخ 1952 برتبة قائد للجيش. وكانت وفاته في الرابع والعشرين من يوليوز 1971، عن سن تناهز التاسعة والسبعين سنة[27].

وصل **مانويل مارتينيث فيفانكو** Manuel Martinez Vivanco، الضابط الوحيد الذي بقي على قيد الحياة في مطار سلوان، إلى رتبة كولونيل عام 1952، ومن ثم، تم تعيينه حاكما على بالما دي مايوركا، حيث وافته المنية هناك سنة 1954 [28] عن سن تناهز الستين سنة.

وبخصوص **بريث أورتيث** Pérez Ortiz، الذي كان واحدا من خيرة القادة بانوال، والحاصل على ثمان نجمات كاستحقاقات حربية. كانت بدايته في الجيش سنة 1884 بواقا متطوعا، وكان صاحب دراسات عديدة حول فنون الرماية والمبارزة، الفها ما بين 1900-1903. وفي مارس 1922، جاءت ترقيته إلى رتبة كولونيل، وهو قابع في السجن. اعتزل الجيش سنة 1930، وحط رحاله بمدينة قادس. وفي ماي 1940، عاد إلى مليلية، ومن هناك قرر طلب تسوية وضعيته وذلك بالتماس منصب قائد الجيش. فجاء جواب الوزارة في اكتوبر 1941، تخبره أن قانون الرابع من نونبر 1931، المنظم لعمليات الترقية لم يدخل حيز التطبيق بعد[29]. وسنة 1941، كان عمره ستة وسبعين سنة.

وعن **خمينس أرويو**، فقد كان محط تهم عديدة، وحوكم بالسجن لمدة ستة اعوام ويوم واحد، وذلك لاقترافه جريمة التهاون والاستهتار في الحملات الحربية، فاعتقل في سجن الجزر الجعفرية. بيد أن زوجته السيدة **ماريا انطونيا اغيري اولوسغا** María Antonia Aguirro Olúzaga، أحسنت التصرف فور صدور المرسوم الملكي بالعفو ليوم الرابع من يوليوز 1924، فاستفاد ارويو يوم الثلاثين من غشت 1925 من عفو الفونصو الثالث عشر، لما تبقى له من سنوات السجن[30]. اما نحن فلا ندري تاريخ وفاته، وكل ما عرفناه انه في زمن أنوال، كان عمره خمسة وخمسين سنة.

وبخصوص **سانتيث مونخي**، فقد تمت ترقيته إلى قائد جيش في يوليوز 1924. وبعد أربعة أعوام، انتقل إلى جيش الاحتياط. وما بين سنتي 1929-1930، تلألأ نجمه بسبب جملة من الخدمات التي قدمها لحزب الحمر[31]، بعد فراره من منطقة الجمهورية. ونحن لا نعرف أين ومتى وافته المنية.

وعن صديق أريناس في الدفاع عن تيزطوطن وهضبة أعرويت، القبطان المهندس **خسوس أغيري أورتيث** Jesús Aguirre y Ortiz، فقد علمنا انه وصل إلى رتبة جنرال، وتوفي في الستينات. بعد إطلاق سراحه في أجدير سنة 1923 -حيث قام بأعمال مذهلة- كان عمره ثلاثا وثلاثين سنة.

تمكن **فاسكيث برنابو** Vásquez Bernabeu من نيل مكافاته، هذا الملازم الذي كان طبيبا لعبد الكريم، والمرشح لنيل الوسام مرتين. وذلك، اعتبارا لأعماله البطولية التي قدمها في السادس عشر من يونيو 1921، حيث دافع والمسدس بيده عن الجرحى عند لالوما دي لوس آربوليس. وسنة 1923، ترقى إلى درجة قبطان. ولد فاسكيث برنابو بالجزائر عام 1896، وترعرع في حضن عائلة من المعمرين الفرنسيين. وفور انتهاء حرب المغرب عام 1927، طلب اللجوء إلى مدينة فلنسية. وسنة 1934، تغلب عليه المرض واصابه الاكتئاب من جراء وفاة زوجته ترينيداد فيدال Trinidad Vidal، وفاجاته الحرب الأهلية بمنتجع "باطيرنا"، حيث كان يقضي عطلته. وهناك، وبتاريخ قيد التحديد لصيف 1936، قتلته الميليشيات الجمهورية رميا بالرصاص.

كان **فيليب بنيا مارتينيث** Felipe Peña Martínez، المزداد ببونوس أيرس عام 1896، طبيبا مشهورا، اشتغل بابن طيب، واعرب عن كفاءة جمة عند أسوار أعرويت. ورغم ذلك، لم يوشح صدره بالوسام الذي كان يستحقه، ولم يكن الحكم الذي تم النطق به في

فبراير 1927 لصالحه. وجاءت الحرب الأهلية، ففاجأته في منطقة الشمال حيث كان بصحبة الجيش الجمهوري. وفيما بعد، تم اعتقاله في ساطونيا. وسنة 1937، بدأت أولى المحاولات للنظر في وضعيته، لكن وأمام غياب المناصب أو انعدامها، انتقل إلى تقديم خدمات صحية في الصفوف الوطنية. كان يؤدي مهامه بإتقان إلى درجة أنه ترقى مرات عديدة، لكن انتماءه في الماضي لحزب الحمر، كان مصدر قلق دائم. وبعد انتهاء الحرب بأربعة عشرة سنة، أصدرت الأوامر بالبحث في قضية الملازم كولونيل بنيا. لم تكن النتائج سلبية. ففي إحدى البيانات التي أنجزتها رئاسة الكتائب يوم السادس والعشرين من شتنبر 1953، تم الاعتراف بسلوكاته الأخلاقية سواء مع العامة أو الخاصة. سلوكات كانت في غاية الكمال والنبل. كما أن الجيران أقرّوا بشخصيته الطيبة. أما عن علاقته بالسياسة فلم تكن مخيفة[32]. وسنة 1946، تزوج **بنيا** من **خوصيفا طيران بريدا** Josefa Terán Barreda، ولم يرزقا بأطفال. وفي أبريل 1954، شخصت له حالة شلل انضافت إليها صور واضحة من الجنون. فتم التعامل معه على أساس مَن أصيب بحادث عرضي، وصرفت له أجرة الكولونيل. عاش بنيا في كرسي متحرك، ونقلته عائلته إلى بلباو. وهناك وافته المنية في التاسع عشر من فبراير 1956.

وأغرب الحالات هي تلك التي سجلت مع إيميليو الزوغراي غويكوشيا Emilio Alzugaray Goicoechea النبري الأصل، إذ طالب المدعي العام بتطبيق عقوبة السجن المؤبد في حقه، وهكذا أصبح وجها لوجه أمام حُكمين. حكم أُصدر يوم الرابع عشر من أبريل 1923، وبموجبه حُكم بالسجن اثنا عشر عاما. أما العقوبة الثانية، فكانت حكما جاء يوم العشرين من أكتوبر الموالي، وتمثل في رفع مدة الحبس إلى عشرين عاما. فكانت هذه أقصى العقوبات التي أُصدرت بسبب أحداث أنوال. نتيجة لذلك، قرر الثوغراي الفرار.

أما محضره فقد تضمن العديد من التناقضات، إذ أكد ثلاثة من القضاة تعاقبوا على دراسة ملفه، أن الحل هو الإعدام، بالرغم من عدم تلمس جريمة معينة في سلوكاته. ولهذا طالب المدعي العام بتطبيق عقوبة الحبس بستة أشهر، ويوم واحد فقط. فانتفض الزوغراي لهذا القرار النهائي، وأشار بأصبع الاتهام إلى الإقامة العامة، التي اتهمها بالحقد عليه بسبب جملة من التحركات، التي كان يجريها لصالح المعتقلين من المهندسين المسلحين[33].

ويوم السابع من غشت 1923، انتهز الزوغراي فرصة زيارة زوجته بسجن ماريا كريستينا بمليلية، فارتدى ملابس مواطن عادي، واصطحبه بعض الأصدقاء، فخرج من الباب الرئيسية واختلط بزوار السجن[34]. اما زوجته فقد مكثت بالداخل، تتظاهر وكانها في صحبة زوجها، وفور اكتشاف الحيلة كان الزوغراي يبحر في اتجاه وهران. ومن هناك، طالب بإعادة النظر في محاضره القضائية. لكن المحكمة العسكرية العليا اجابته يوم التاسع من دجنبر 1931 بالنفي.

سنة 1934، ومن موقعه دائما بوهران، التمس الزوغراي من السلطات المعنية طلب العفو بمقتضى الظهير الصادر في الرابع والعشرين من ابريل لنفس السنة. لكن دون جدوى، فقدم إلى الدار البيضاء عبر الطريق، مارا وبكل جراة من منطقة الحماية الإسبانية كما ذكر إمبرودا Imbroda [35]. وباندلاع الحرب الأهلية، عرض خدماته على الجمهورية، فنُصب على راس الفرقة العسكرية السابعة. وفي فبراير 1937، كان يتباهى برئاسة الفرقة الثانية للجيش، فاصبح يؤم ست عشرة فرقة، مجموع رجالها اربعة واربعون الفا ومائتان وتسعة عشر رجلا، وبرفقتهما كان يقطع الجبهة الدفاعية التي تمتد من منثاناريث Manzanares إلى خراما Jarama [36]، حيث سقط الزوغراي جريحا، فتم نقله إلى منطقة الوسط التابعة للجيش. وهناك، ضاعت كل السبل لمعرفة اخباره.

وكل ما عرفناه لاحقا، أن الزوغراي تمكن من اللجوء إلى فرنسا، وهناك انخرط في انشطة مذهلة ومثيرة للجدل. فحسب تقارير إمرودا أورتيث إي دومينكيز يوسا، انضم الزوغراي إلى حركة المقاومة. وفيما بعد، اشتغل بالمخابرات البريطانية. واثناء هذه المهمة الأخيرة، ابلى البلاء الحسن، إلا ان الألمان تمكنوا من نصب الشباك له، وإلقاء القبض عليه، ومن هناك نقلوه إلى باريس، حيث تعرض لألوان من التعذيب. وفي النهاية، صار جاسوسا للنازية. وفيما بعد ترقى إلى منصب قائد فرقة، تطارد الثوار. فتحول إلى الهدف الرئيسي الذي تسعى إليه المقاومة، فنُصب له كمين راح ضحيته إلى جانب العديد من الرفاق يوم الثاني من يناير 1944، بالقرب من نيزا[37].

واصل السيد **بيو فرنانديث موليرو** Pío Fernández Mulero، القائد الوحيد -الذي كان على راس فرقة الطيران في عهد سيلفستري- عملياته الجوية، واعرب عن شجاعة كبيرة. وحينما اوشكت الحرب على الانتهاء، اصابته رصاصة في ساقه لحظة قيادته مجموعة

القصف الجوي، التي كانت تحلق فوق جبل العلم. وفيما بعد، اخترق عيار ناري رأسه، فتوغلت الخرطوشة في جمجمته إلى أن خرجت من ثُقب احدثته في جبهته، وذلك يوم السابع عشر من يونيو1927. لكن فرنانديث موليرو، لم يسقط وقتها. بل استطاع رغم غيبوبته ضبط مقود الطائرة، إلى أن سلمها فيما بعد للمراقب وانهار داخل المقصورة. وبعد معاناة وأوجاع شديدة في راسه، تمت ترقيته إلى تيلنتي كولونيل، ثم تعيينه عضوا شرفيا داخل الغرفة، ونُصب كذلك قائدا للقوات الجوية بالمغرب ما بين سنتي 1928-1930.

وبينما كان يصطاف بجسطي بمنطقة البائيطي مسقط راسه (1888)، باغتته الحرب الأهلية. فتم إلقاء القبض عليه. وأُفرج عنه يوم الثالث من اكتوبر 1936. كان الأمر خدعة ليس إلا، إذ في اليوم الموالي، أُخذ من الفندق الذي كان مقيما به، واحضر إلى مكان كان يعرف بالقنطرة القديمة على خط طريق البائيطي، وهناك قتلوه، وتركوا جثته مرمية بالطريق. شاركت، في هذه الجريمة، عناصر عديدة من الطاقم الجوي للطيران[38]. فكان هناك الضباط وضباط الصف الذين كانوا على معرفة به خلال فترة قيادته الصعبة بسلوان.

وبخصوص التنينتي ثيفانطوس، فقد حوكم لارتكابه جريمة التهاون. إذ تم اعتبار قراره بالمجيء من الدريوش إلى مليلية[39]، عملا يتنافى مع مبادئه وروحه. وبعد هذه العقوبة التي استوفاها لسنتين (الثالث والعشرين من يوليوز 1923) في سجن ماريا كرسينا، تمكن من الترقية إلى درجة قبطان -وذلك اعتبارا لعامل الأقدمية- وتم ذلك قبل مغادرته الجيش. أما عن **مارتينيث فيفاس** Martínez Vivas، فقد تم التساهل معه واعتبروا أن تواجده بالطاقم التقني، كان عرضيا بموقع إيزومار[40]. وهكذا، ترقى إلى رتبة تيلنتي كولونيل. وبخصوص بيريث فالديفيا Pérez Valdivia، الذي كان ينظم عمليات المقاومة بإيزومار، فقد احتفظ بإطاره قبطانا سنة 1922. وانطلاقا من هذه السنة، اختفى اسمه من السجل العسكري السنوي.

وعن النائب **فرانثيسكو بسايو بيثيرا** Fransisco Basallo Becerra، هذه *الروح الطيبة* لأجدير، فقد توفي بثاراغوثا يوم التاسع عشر من ماي 1985، عن سن تناهز الثانية والتسعين سنة[41]. وهناك وُوريَ جثمانه، وهو ابن قرطبة. كان هناك إجماع واتفاق

وطني عام فيما يخص أهليته وكفاءته. وبالرغم من استحقاقه الوسام عن جدارة، إلا انه حرمه. كان يعالج كلا من الإسبان والريفيين، وترك بصمة واضحة في كل أولئك الذين تعامل معهم.

أما عن التيلنتي **لويس كسادو إسكوديرو** Luís Casado Escuedero، هذا الشخص الذي بقي على قيد الحياة بعد أحداث إيغريبن، فقد ترقى بدوره إلى درجة قبطان بعد ان أطلق سراحه. وكان يحيى بمليلية حياة رتيبة، لكن يوم السابع عشر من يوليوز 1936، تم القبض عليه لميولاته وتعاطفه مع الجمهورية. وبعد مرور ستة أيام، أعدموه رميا بالرصاص عن سن تناهز التاسعة والثلاثين سنة.

وبخصوص **لويس رويداس ليديسما** Luís Ruedas Ledesma، فقد طلب العفو من سيلفستري بعد قتله لسيدي اقلعي، وانتقل إلى الخدمة الجوية برتبة كمندان. وهكذا، شارك في العديد من العمليات الحربية، والقي القبض عليه بإشبيلية، من لدن ميلشيات الجمهورية، وبعد نزاع ومشاداة قصيرة، أعدم على إثرها بتاريخ لا يزال قيد التحرير في يوليوز 1936، وعمره خمسة وأربعون سنة[42].

وعن الصحافيين الثلاثة الذين عاشوا زمن الحرب، **كروشانو** Corrochano، **لوبيرا** Lobera **ولويس ريندا** Luís Rienda، فتجدر الإشارة إلى ان هذا الأخير، عاش مدة قصيرة، فهذا الغرناطي الوجيه والجريء على شاكلة سيلفستري، كان يكتب دائما في صحيفة الصول. وكان يدير جريدة العرائش المغربية، وبموازاة مع ذلك، كان يكتب الروايات والسيناريوهات السينمائية. وبعد تعرضه لحادثة سير بفلنسيا، انتقل إلى مدريد، بتوالي النكسات، لازم الفراش واحتضر لمدة خمسة أشهر، إلى أن وافته المنية يوم الخامس عشر من شتنبر 1928، عن سن تناهز الواحد والثلاثين سنة.

أما أسرته فقد عانت الكثير، خصوصا أيام الحرب الأهلية، حيث قامت عناصر من لافلانخي La Falange بمصادرة الصحيفة المغربية، مقابل كمية هزيلة من البسيطات. بالإضافة إلى ذلك، حرموا أرملة لوبيس من خمسمائة بسيطة كانت تتقاضاها كمعاش، تصرفه لها الإقامة العامة اعترافا بالاستحقاقات الكبيرة لزوجها[43]. فلوبيس ريندا كان ضابط صف في الجيوش النظامية[44] زمن سيلفستري بالعرائش. ومن هناك حصلنا على وثائقه التي تتحدث عن الريسوني وسيدي اقلعي، وثائق ثمينة لم يعلم أحد غيره بوجودها.

اما **غريغوريو كورشانو** Gregorio Corrochano، صاحب المقالات المذهلة حول الحرب، والقلم المتميز في جريدة أ-ب-سي، فقد توفي في مدريد يوم التاسع عشر من اكتوبر 1961. وتاريخ ميلاده هو 1882 بطلافرا دي لارينا.

وبخصوص كانديدو لوبيرا خيليرا Candido Lobero Gilera، مدير تلغراف الريف الشهير -وهي جريدة تم تاسيسها سنة 1902- وكمندان المدفعية، والشخصية المعروفة بمليلية. فقد توفي عام 1932، عن سن تناهز الستين عاما.

اصبحت **كارمن انغوليطي إي ميسا** Carmen angoleti y Mesa، دوقة فيكتوريا التي انقذت المئات من الرجال بغض النظر عن صفاتهم ومناصبهم، وانتشلتهم من براثن تلك الكارثة الصحية ايام الفونصو الثالث عشر، رئيسة لمنظمة الهلال الأحمر الإسباني. ويوم الرابع من نونبر سنة 1958، توفيت في مدريد عن سن تناهز أربعة وثمانين عاما. كانت بحق نموذجا مثاليا.

شخصيات، وروح المقاومة الريفية

أرسى إخوة عبد الكريم دعائم حكومة كان جل افرادها من المقاتلين، فخرجت للوجود الجمهورية الريفية التي صمدت لمدة خمس سنوات في وجه الاستعمار الألفونصي، الذي تكبد خسائر فادحة. ولم يسلم الطرف الريفي كذلك من كوارث دموية.

اثبتت الدراسات التي اجريت استنادا على بلاغات وسجلات العمليات الجوية منذ سنة 1922، والتي توجد ضمن المجموعة الوثائقية التي رتبها الكولونيل **إدواردو آلفاريث باريلا** Eduardo Álvarez Varela [45]، انه لولا تدخل القوات المتحالفة -تكتل القوتين الإسبانية من الشمال والفرنسية من الجنوب- لما تمكن النظام الألفونصي من تركيع الريف سنتي 1926-1927، أو لربما تاخر هذا الانتصار بضع سنوات من الخسائر، راح ضحيتها مجموعة من ربابنة الطيران الإسباني، والعديد من الموتى الذين وصل عددهم إلى أربعة وثمانين ضابط صف، وأربعين آخرين أصيبوا بجراح خطيرة. كما ضاعت مائة وواحد وثلاثين طائرة[46].

وفي إحدى عمليات حرب الاسترداد، تم إلقاء القبض على قدور نمار، فسيق إلى مليلية، وبالضبط إلى سجن رسطرو غوردو. ومن هناك، وردت انباء تفيد أن هذا

الريفي كان يتعامل بانفة وازدراء مع السجانين، فلم يشأ الفرار مثلما فعل عبد الكريم، ورفض التفاوض على شاكلة أراوخو، واختار الموت جوعا. كان رجال الريف لا يرضون بأي نوع من أنواع الأسر، ولن يكون زعيم بني سعيد حالة خاصة. ويوم السابع عشر من غشت 1923، ووُرِيَ جثمانه الثرى في مقبرة سيدي ورياش[47].

توفي الحاج عبد القادر بن الطيب، الذي كانت تبجله مليلية، يوم الثامن من نونبر 1950 عن سن تناهز السادسة والثمانين عاما. فشيع جنازته ما يقارب الفين من الجنود الإسبان. كما ان فرانكو أصدر أوامره بتكريم هذا الرجل الريفي العظيم، ومنحه شرف القائد العام[48]. وتراس هذا الاحتفال، الجنرال باريلا Varela، الذي كان مقيما عاما آنذاك.

ومن بين الألوف المحتشدة، كان هناك رجلان اثنان يرمزان لأحداث 1921-1926 زمن تعبئة المغرب لأبنائه، بهدف التصدي للمستعمر الإسباني. يتعلق الأمر بمحمد بن سعداوي، الذي أصبح لاحقا قائدا لفصيلة عسكرية، وعند نهاية الحرب، كانت تتلألأ على صدره الحبال الثلاثة الحمراء، رمزا لوصوله إلى درجة قائد. وفي الأحداث العصيبة بالحسيمة، فقد ثلاثة أفراد من عائلته، وسنة 1985، كان عمره يناهز الرابعة والثمانين سنة. ورغم ذلك، كان مايزال محتفظا بحيويته ورشاقته.

سنة 1921، كان الحاج ميمون القاسيمي، المنحدر من قبيلة بني أولشيك، يبلغ من العمر عشر سنوات، وكان يعمل رقاصا (ساعي البريد)، فيبلّغ الأوامر العسكرية، ويوزع الذخيرة والمؤن، ويعتني بالجرحى. وبحلول السلام، تسجل في لوائح حَركة صديقة لإسبانيا. ومازال قدماء المحاربين الريفيين وجبالة يتذكرون أزيز الطائرات، وهي تحلق فوق خنادقهم وأسواقهم في محاولة لقصفهم. آنذاك، كانوا يشعرون بالخوف.

وبعد استقلال المغرب في السابع من ابريل 1956، وبعد مرور سنتين على الحدث، ثارت منطقة الريف وانتفضت. وجاءت هذه الثورة ردّ فعل عنيف ضد سلطة الاستقلال المستبدة، التي تواطأت مع العلويين. وبعد عمليات تمشيط واسعة ضد وحدات شرطة النظام، حط جيش قوامه خمسة آلاف رجل رحاله بالحسيمة في يناير 1959. وكان على رأسه كل من الكومندان محمد أوفقير، والأمير مولاي الحسن، ووصلت معهما أسراب من الطائرات محملة بالمفرقعات. وقليلة هي القبائل التي نجت من القصف الجوي. وبمعية قاذفة اللهب،

اخترقت القوات العلوية الدواوير والمنازل، وكانت عين امزورن بمثابة درس لن ينسى، وهذا ما جاء في التقارير المطولة التي رتبها **غارسيا فيغيراس** García Figueras [49].

والحقيقة أن الريف ثار ضد الظلم والمجاعة ولم يستسلم، فأحرقوه ودمروه، وبعد ان تآمر الجنرال أوفقير ضد الملك نصب له شباكا، فمات بالرباط عام 1972، أما الأمير مولاي الحسن، فقد أصبح الحسن الثاني فيما بعد، بعد وفاة والده (1961). ومنذ ذلك الحين، لم يعاود زيارة الريف ثانية.

جماجم أعرويت ومقبرة ظلت خاوية

لم تكن مقابر أعرويت تحوي فقط أشلاء جيش نفارو، بل كانت كذلك مستودعا لجثث جيوش الجنرال سيلفستري، وقبل استقلال المغرب بسبع سنوات، دمرت هذه المقابر عن آخرها ونقلت العظام إلى مليلية. وفي مارس 1949، وبأمر من الجنرال غوسطافو أورتيا غونثاليث Gustavo Urrutia Conzález، تمت الاستعدادات لهذا العمل، فحفرت في مليلية حفرتين كبيرتين للعظام، في حين تم إعداد ستة عشر صندوقا كبيرا من حجم 1,70 x 0,60 x 0,60 متر، لنقل أشلاء الموتى. وفي الخامس من غشت الموالي. حضر وفد من الجنود الحفارين، فشرعوا في نبش القبور.

لم تكن هناك أجساد ولا بذل رسمية، إذ تم جمع ثلاث عشرة قطعة صغيرة من القماش فقط، لكن الجماجم كانت موجودة وبوفرة، إذ وصل عددها إلى الفين وتسعمائة وست وتسعين جمجمة. كان ضحايا أعرويت المقدر عددهم بثلاثة آلاف حقيقة مرعبة.

وتم العثور كذلك على اثني عشر كيسا يحوي أنيابا وأسنانا من ذهب، وثمانمائة وسبعة وتسعين صفيحة، وشارات لمختلف الوحدات العسكرية، وإحدى عشرة قطعة نقدية فضية، وست نحاسية، ومائة وسبعة عشر من الأزرار، وكذلك قلم الرصاص وأشياء أخرى شخصية (ساعة جيب فضية، وخاتمان من ذهب، وأزرار أكمام القميص)... وكل هذه الأغراض، تم انتشالها ووضعها في صندوق حديدي. ويوم الخامس عشر من غشت، انتهت عمليات نبش القبور. وبعد سبعة أيام بدأت عمليات الدفن، حيث عرفت مليلية كيف تستقبل كل ضحاياها.

ظلت المدينة تنتظر مجيء النعوش، وفي الثاني والعشرين من غشت 1949، قامت الحامية العسكرية بعرض السلاح، فأعرب سكان مليلية عن آلامهم. وحانت ساعة الاستعراض، فمرت الصناديق الستة عشر، التي اختزلت ضحايا أعرويت الثلاثة آلاف في هذه الكمية البسيطة، ومرت عبر شارع الفونصو الثالث عشر، في طريقها إلى مأمنها الأخير، وهي تتلقى عبارات الوداع وصلوات مشيعيها الذين أمطروهم بالورود[50]. وفي حفرة واحدة، كان المكان كافيا لثلاثة آلاف جثة. هكذا، بقيت الحفرة الأخرى خاوية على عروشها.

حكايات عن أقارب سيلفستري

ظلت وفاة سيلفستري هاجسا يراود نجله مانويل فرنانديث سيلفستري دوارطي Manuel Fernández Silvestre y Duarte، وبرجوعه إلى المعسكر يوم السادس والعشرين من ماي 1926، التقى مع جملة من الحقائق، لكن الصورة لم تتضح عنده أبدا. أما فيما يخص البحث عن الجثة، فالعملية كانت مضنية وغير مجدية. وبخصوص والدة الجنرال السيدة إلوطريا سيلفستري كيسادا Eleutería Silvestre y Quesada، فقد توفيت في الثاني عشر من يوليوز في منزلها بمدريد، الواقع بشارع فيلاثكيث 120، وتم دفنها بالمودينا[51].

بقي مانويل في الجيش، كان قبطانا حينما انضم إلى سان خورخو في محاولاته لبسط السيطرة يوم العاشر من غشت 1932، لكنه فقدَ عمله. وعلى ما يبدو، تم نفيه إلى مقاطعة ثيسنيروس[52]، وهناك التقى بنجل مانيا Manella المعروف باسم فرانثيسكو مانيا دي كسني Fransisco Manella de Quesne. كان صديقا حميما له. جال مانويل في الشوارع كلها دون هدف محدد، إلى أن حل صيف 1936. ويوم السبت ثامن عشر من يوليوز، حل بمدريد، وبالضبط في الثكنة العسكرية "ماريا كرستينا"، التي كانت مقرا لفرقة واد الراس، التي كان لوبيث رويث آنذاك كولونيلا عليها. وفي اللحظات التي تلت عمليات الدفاع والمقاومة، أجبر الكولونيل القبطان السابق على الفرار. فرفض مانويل، فتدخل طوليو Tulio. ووافق القبطان السابق هذه المرة. فتسلل من بين المهاجمين، لكن الكولونيل وقع في الأسر. ويوم الثالث عشر من شتنبر 1936[53]، سقط لوبيث رويث ميتا بعد قتله بالرصاص.

عاش فرنانديث سيلفستري مغامرات هائلة في عاصمة الجمهورية، كان ينتقل فيها من مخبئ إلى آخر، ونادرا ما كان يخرج لشراء ما يلزمه من المواد الغذائية. وهكذا، عاش لمدة قصيرة. وفي نهاية المطاف، استطاع الفرار إلى بلدة هادئة تقع في الجنوب الشرقي لمدريد، وتعرف باسم فيافيثيوسا دي أودون Villaviciosa de Odón، وذلك صحبة تيلنتي المدفعية، الذي كان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما، ويدعى مانويل غورتيريث ميادو Manuel Gutiérrez Mellado، القائد العام مستقبلا، والذي أعلن تمرده داخل المعسكر. فالاثنان معا كانا ينتميان لحزب لافلانخي الإسباني. وانتهى المشوار بهما إلى منزل المحامي ميادو دي ثولويطا Mellado de Zulueta، الذي كان ابن عم التنينتي المنحدر من عائلة ثرية تملك ممتلكات كبيرة بفيافثيوسا.

وبالرغم من جميع الاحتياطات الأمنية المتخذة من لدن عائلة ميادو، إلا ان سكان البلدة علموا بوجود الضابطين. بيد أن عمدة المنطقة خوصي سانطنديـر José Santander، المنتمي إلى الحزب الاشتراكي، اجتث الشر من جذوره، وواد بكل شجاعة وجراة كل محاولة محلية تتعقب ليس فقط أولئك الزائرين، بل حتى المدنيين أو العسكريين الذين شاركوا في الثورة ،لقد انقذ ذلك الرجل العديد من الناس، عبارة ذكرها نرثيسو إغيراس بابلوس Narciso Higueras Pablos [54]، سنة 1997 بصفته شاهد عيان عاصر الأحداث.

ويوم السابع من غشت 1936، انتقل غوتيريث ميادو إلى مدريد، حيث جرت مراسيم محاكمته، فتم العفو عنه بمقتضى مجلس الحرب[55]. أما فرنانديث سيلفستري، فقد مكث بفيافيثيوسا. وفي الوقت الذي تمكن فيه صديقه من اللجوء مؤقتا إلى سفارة بانما، تمكن هو من عبور الحدود والانخراط في صفوف الجيوش الوطنية.

ترقى نجل الجنرال سيلفستري إلى رتبة كومندان، فاصبح يؤم فيلقا عسكريا من مناصري لافلانخي، وبفيافيثيوسا دي أودون التقى بإيغراس Hegueras، الذي قال عنه، ،كان طويل القامة، نحيف البنية، قويها، وكان يرتدي قميص لافلانخي، بعنقه الأزرق الذي يطل من تحت البذلة الرسمية الكاكية اللون، كان مظهره متميزا، وفي معاملاته متحفظا. وفور تعرفك عليه تتلمس لطافته. كان دائما يتحدث بحماسة عن إسبانيا

والجيش، كان يثيرني حقا»[56]. ومرت الأيام وانتقل إغيراس إلى وحدة عسكرية اخرى (الفيلق الثاني)، ومنذ ذلك الحين، انقطعت عنا اخبار نجل سيلفستري. وما إن انتهت الحرب، حتى انتشر خبر وفاته في ساحة القتال، كان ذلك في ربيع 1937، بجبهة الطاخو، حيث تدخلت الأطراف المتنازعة بأعداد ضخمة من المشاة والمدفعية. وفي إحدى الاشتباكات، سقط نجل سيلفستري فحملوه إلى فيافيثيوسا. وهناك تعرفنا على قبره في الممر الرئيسي لمقبرة سنتياغو ابوسطول، في الصفوف الواقعة جهة اليسار. فبمحاذاة المدخل، وجدنا لوحة من الكلس تآكلت اطرافها بسبب عامل الزمن، وكتبت عليها هذه العبارات «هنا يرقد جثمان مانويل فرنانديث سيلفستري دوارطي كومندان الفرسان، وقائد علم قشتالة، توفي في جبهات طليطلة بكل بطولة يوم العاشر من مايو 1937، عن عمر يناهز السادسة والثلاثين سنة».

وبعثورنا على نجل سيلفستري، نكون كما لو عثرنا على كل رجال الجيش الضائع. وفي نفس القبر، رقد كذلك جثمان سلفادور ميادو دي ثولويطا المتوفى سنة 1988. كان هو من اشترى القبر عام 1946، وأوصى بإعداد اللوحة الحجرية للتعريف به[57].

من سيلفستري إلى "سيلفستري العملاق"

جنرال الشوارب

بات المركز القيادي لسيلفستري بأنوال بمثابة مغناطيس يجذب إليه المشاعر والآراء والأساطير، فالعديد من الجنود الأسرى رأوا الجثة داخل الخيمة فور صعودهم إلى هناك، وهم يحملون المؤن والذخيرة[58]. واقر اراوخو بعد الإفراج عنه في يناير 1923، ان المورو اكدوا ان سيلفستري انتحر[59]. اما ساينث Saínz، فقد علم بالخبر من اولئك الجنود، الذين عبروا فجاج إيزومار المرعبة في المرحلة الأولى.

ويبدو ان الريفيين وبالضبط بعد سقوط دار الدريوش في العاشر من يناير 1922، قد سمحوا للأسرى الإسبان بجمع رفات رفاقهم الهالكين بضواحي انوال. إميليو باجي Emilio Paggi، التاجر الإيطالي الذي فر من سيدي بلعباس بالجزائر الفرنسية، وبعد مروره من انوال في نونبر 1921 في اتجاه الحسيمة، ومن هناك استطاع العبور إلى مليلية.

كان باجي يحمل إذنا بالمرور حصل عليه من عبد الكريم، وما إن حل بانوال حتى التقى وجها لوجه بمشهد مرعب. أكد أنه رأى المئات من الجثث وقد تحولت إلى مومياء، على طول فجاج إيزومار، وفي أسفل الخنادق[60].

وانتهت كل هذه المشاهد المرعبة بفضل الحملات التطهيرية التي قام بها الأسرى، حفاري القبور الذين دفنوا الجثث. وذلك تحت إمرة النقيب بسايو Basallo، الذي كان ينتمي إلى حامية القندوسي، والذي بقي على قيد الحياة إثر المذابح التي كانت بدار الكبداني. واشتهر هذا النقيب بمساعدته القيمية لما يناهز خمسمائة وسبعة وثمانين إسبانيا -خمسمائة وأربعة وثلاثون عسكريا، وثلاثة وخمسون مدنيا- (حسب إحصائياتنا غير النهائية) كانوا تحت نير الأسْر. وتعرف باجي على هذا النقيب في انوال.

استدعى الريفيون بسايو، لعله يتعرف على جثة كان ينقصها الشارب، وكانت ممزقة شر تمزيق، فظنوا أنها لسيلفستري. لكن بسايو لم يتمكن من معرفة الجسد، لكنه وضع إشارة في المكان الذي دفن فيه، وبعد أيام عاد إلى المكان، فإذا بالجثة قد اختفت من مكانها[61]. وقيل العكس كذلك، بمعنى أن بسايو تعرف على سيلفستري من خلال آثار الجروح التي كان يعرفها جيدا، فظن أنها للجنرال[62].

ولنا رواية أخرى جاءت على لسان رقاص (ساعي البريد) يُدعى قدور نمار، الذي قال: «وبعد ثمانية أيام، عدت إلى انوال، فوجدت الجنرال ملقى على بطنه في الأرض، فحملته من شاربه لأتعرف أكثر على وجهه، فعلقت الشوارب في أصبعي»[63]. كان الريفيون يظنون أن شوارب سيلفستري الحادة الأطراف، هي السبب في عظمته وليس انتصاراته الباهرة. وبالنظر إلى ضخامة بنيته الجسدية، كون الريفيون في عقولهم صورة لسيلفستري الضخم العملاق، فحجبت صورة الإعجاب هاته كل أشكال الشعور بالضغينة تجاه العدو الميت.

وفي ظل غياب وثائق أخرى لبسايو[64]، امتزجت الأسطورة والحقيقة في قالب واحد. واختفى سيلفستري للأبد، لكن بعض جنوده لم يختفوا. وفي إحدى التلال عند مدخل إيزومار وجد ضريح، قال عنه السكان المحليون أنه لخليفة شجاع وباسل لا نعرف عنه الشيء الكثير.

وبالقرب من هذا القبر، كان هناك حقل يزرع الناس فيه القمح إذا ما أمطرت السماء في فصل الربيع. وحدث أن ظهرت بعد عمليات الحرث، شارات عسكرية برزت من خلال خطوط الأرض. وفي يوليوز 1998، أكد بعض سكان قبيلة بني اولشيك، ان تلك الشارات دليل على وجود جثث الإسبان بتلك الربوع.

مانيا وخمسة آخرون، الموتى الذين لم يتم قبولهم

وجد الأسرى حفاري القبور بزعامة بسايو، جثة رئيس فرقة الكانطرا، وقد اخترقتها خمس رصاصات[65]. كان مانيا رجلا شجاعا، ومات وهو كذلك. وعن وفاته ووفاء كل من سقطوا إلى جواره بأنوال، أجابت الحكومة العسكرية الألفونصية بطريقة تعسفية وجبانة.

دفن بسايو ورجاله في منطقة انوال، ما يناهز ستمائة وسبعة وتسعين جثة مجهولة الهوية، لكن النقيب أوضح في تقاريره المفصلة، انه وبمكان قريب من الحفرة التي تأوي القبطان سلفرانكا Salafranca، تم التعرف على الأشخاص التالية أسماؤهم: الكولونيل مانيا، الكومندان بنيتيث، القبطان فيدريكو دي لاباث، والملازمون خوليو بوسطمانطي، إوخينيو نوغيس، والبرطو إسكريش[66]. وهذا ما حدث في الأسبوع الأول من فبراير 1922. وفيما بعد، بعث بسايو بهذه الرسالة المهمة جدا إلى الكولونيل ثيفانطوس بونانيو Civantos Buenaño، الذي كان بالحسيمة. وما إن تلقى هذا الأخير هذه البرقية، حتى حولها عبر التلغراف إلى سان خورخو، الذي كان آنذاك قائدا عاما بمليلية. وقام سان خورخو بدوره، بإرسال هذه الرسالة إلى كل من لاثيربا، وزير الحربية، وبرنكر المقيم العام، فصمتت كل هذه الهيئات العليا، ولم تتوصل العائلات بهذه الأنباء، ولم تعلم البلاد بشيء. وكأن البرقية المصنفة تحت رقم أربعة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين، بتاريخ الرابع من فبراير 1922، لم يكن لها وجود في الأصل.

سنة 1997، أعربت كونثيبثيون مانيا Concepción Manella، حفيدة الكولونيل، عن استيائها وسخطها العارم تجاه هذا الحدث الفظيع، إذ إن والدتها ظلت ولمدة عشر سنوات تتقصى الأخبار. عشر سنوات قضتها في إزعاج الجنرالات والوزراء[67] لمعرفة ما

إذا كان ممكنا الحصول على جثة زوجها، لكن لم يتحدث احد عن تلك البرقية رقم 4.33. كان الصمت يخيم على كل إسبانيا التي أعلنت الحداد بسبب أحداث انوال. لم يكن النظام الألفونصي يسلم شهادات الوفاة أو شهادة المختفين، التي كانت بدورها تتطلب وقتا.

ويوم الرابع من مايو 1928، استلمت أرملة مانيا شهادة سحبتها من إدارة وزارة الدفاع، بعد ان وقعها مديرها انطونيو لوسادا أورطيغا Antonio Losada Ortega، وتضمنت هذه الوثيقة تناقضات كبيرة، إذ إن السيدة ماريا استلمت شهادة الاختفاء لزوجها المتوفى، فكيف يكون الشخص ميتا ومختفيا في نفس الوقت. وفي سنة 1953، وافت المنية ماريا دي كسني منوطالبو María de Quesne Montalvo، التي ذهبت دون ان تعرف شيئا عن زوجها الذي ضاع في غيابات انوال.

ويمكن تفسير هذه السلوكات الغريبة، بالهلع الكبير والرسمي الذي كان يخيم على مدريد ومليلية من جراء مطالبة عبد الكريم بمبالغ مالية لتحرير الأسرى. ويمكن الجزم ان تلك المخاوف لم تكن اسبابها اقتصادية، لأن المال كان موجودا.

ويوم السابع من يناير 1922، وبعد ان اخبر برنكر لاثيريا بشروط عبد الكريم الأخيرة -والتي تتمثل في دفع اربعة ملايين بسيطة، واسترجاع كل المعتقلين المورو المقدر عددهم بمائتين وثلاثة واربعين- طالب المقيم العام بإحضار كل أولئك الأسرى إلى مليلية، وأصدر أوامره بإحضار بارجة لوبو او مركب آخر مشابه، مزود بزوارق صغيرة للإبحار. وفي الأخير، ذكر برنكر للوزير ما يلي: «أرجو ان تخبرني بعجالة عن موقفكم من هذه الشروط، فإذا كان الجواب إيجابيا، أرسل إلى مليلية المليون المتبقي لإتمام الأربعة ملايين، وابعث إلينا كذلك بباخرة»[68].

وفيما بعد، حصل برنكر على الملايين الثلاثة الأولى، التي اعتبرها فيما مضى مبلغا خياليا، لكنه تقبل الفكرة في نهاية المطاف. كان برنكر شخصا منسجما مع نفسه، وكان دائما يؤيد فكرة المال مقابل العباد، دونما تبجيل كبير للحكومة الألفونصية كما أعرب عن ذلك ماورا.

وهكذا، تدفقت الأموال بالملايين على مليلية لتحرير الأسرى، كانت الكمبيالات تحال على مفوضية بنك إسبانيا، لكن ماورا كان يمتنع عن الدفع. وواظب لاثيريا على إرسال المال. ولم يتوقف برنكر عن الطلب، ومرت سنة بكاملها، ومازال الأسرى الإسبان في أجدير يموتون جوعا. ومن بين الفرق العسكرية المقدر عددها بخمسمائة

وأربعة وثلاثين رجلا، سقط منهم مائة وتسعة وثلاثون، اثنا عشر منهم أعدموا بالرصاص. وإذا لم تُسجل حصيلة كبيرة من الضحايا، فبفضل المجهودات الجبارة التي بذلتها قوافل الصليب الأحمر الإسباني ما بين سنتي 1921-1922، مثلما فعلت عام 1898-1899 [69].

وتغيرت الحكومات، وأعدت الحقائب الوزارية بحضور الليبراليين، انصار غارسيا بريطو، ومعهم سنتياغو البا Santiago Alba الذي شغل منصب وزير الحكومة، ولوبيث فيرير López Ferrer الذي أصبح مقيما عاما منتدبا بعد ان رفض فيانويفا Villanueva، هذا المنصب. وحضر كذلك واحد من أعيان الريفيين، وهو إدريس بن سعيد. واقنع الوزير البا، أوراثيو إشفريطا ماوري Horacio Echevarrieta Mauri -الذي كان شخصية تناصر الجمهورية، وبرلمانيا ببلباو ما بين سنتي 1910-1917، ورجل أعمال تربطه علاقات عديدة مع عبد الكريم، ومصالح ارتبطت بعمليات التنقيب في المناجم الحديدية- بأن يتعامل بالحسنى مع الزعماء الريفيين.

دفع إشفريطا الغرامة من المال الذي كان بمليلية، ووهب نفسه رهينا وضامنا ساعة انعطاف المحادثات نحو طريق الفشل، وكان ذلك يوم السابع والعشرين من يناير 1923. وهكذا، خرجت الأشباح الثلاثمائة وستة وعشرين من أجدير، وركبت باخرة انطونيو لوبيث، وابحرت في اتجاه الحرية. لكن الملك، لم يذهب لاستقبالهم في مليلية، لأنه كان بدونيانا Doñana، في رحلة قنص دعاه إليها دوق طريفة، السيد كارلوس فرنانديث من قرطبة[70].

وبعد شهر واحد، تم الإعلان عن قرار ملكي يقضي بوضع عدد من اللوائح للمختفين، وتسجيلهم في السجلات المدنية والعدلية، وذلك من أجل تسوية الوضعية القانونية للعديد من ضحايا الجيش، الذي حارب بشمال إفريقيا[71]. وهكذا انتهت كل فصول الحادث.

اما فيما يخص الجثث المجهولة الهوية، والتي دفنت بانوال، فلم تشأ الحكومة الألفونصية فتح ملفاتها. وهكذا، ظل مجهولا مصير ما يقارب ثمانية أو عشرة آلاف من رجال سيلفستري.

مدريد يونيو 1996

شتنبر 1998

هوامش خاتمة الكتاب

1) محادثة بين الفونصو برنكر وبريث ماورا. اكتوبر 1997.

2) برسطون، باول، فرانكو *"قائد إسبانيا"*، ترجمة كل من تريزا كامبرودون وديانا فالكون، دار النشر، منشورات "كريخالبو"، برشلونة 1994، ص. 105-106-112-114.

3) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأربعاء 20/05/1953.

4) محادثات مع خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، يونيو 1997.

5) صحيفة *ا-ب-سي*، نشرة الأحد 07/04/1935.

6) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد ا - 1519.

7) المصدر نفسه، العدد، ر - 3373.

8) المصدر نفسه، العدد، ر - 2777.

9) سالاس لراسبال، رامون، *خسائر الحرب*، دار النشر، بلانيطا، برشلونة 1977، ص. 36. هذه الأرقام تحتاج إلى مراجعة دقيقة.

10) *صحيفة ا-ب-سي*، نشرة الخميس 25/08/1921.

11) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد ا - 2077.

12) فرانكو سلغادو اراوخو، نفس المصدر السابق ص. 278. الكاتب الذي كان مساعدا للديكتاتور وابن عمه، لم يذكر أصل هذه الحكاية لعدم توفرنا على معلومات حولها.

13) محادثات مع حفيدات الجنرال، أيثيورو - امبارو - بيلار - وصوفيا - مايو 1997.

14) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، م - 4104.

15) نتحدث هنا عن الملف رقم، خ 2.226 والموضوع في الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه.

16) هكذا ينتهي بلاغ الجنرال والمؤلف من 10 مقالات، كان ينبغي تسريبها في شوارع مدريد، لكن لم يتم ذلك، بسبب الحظر المفروض. ذكر هذا فاليرو، خافيير وفائكيث، كاتيلدي في، *الحرب الأهلية في مدريد (1936-1939)*، طيباس. مدريد، ص. 60-62.

17) ثيربيرو كاريو، خوصي لويس، *"النهاية المشينة لأربع من الحرس المدني كانوا أبطال الحرب في إفريقيا"* في مجلة الأمن الوطني. يناير 1998 ص. 74-78.

18) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه المجموعة الأولى العدد، ب-440.

19) أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث، رسالة من فرنانديث طماريت إلى بيكاسو بتاريخ 11/01/1922 بالما دي مايوركا.

20) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، خ-1843.

21) بمعنى العدد ا - 1.993 الذي يوجد في الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه.

22) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، خ-1843.

23) المصدر نفسه، العدد، ر-1319.

24) *صحيفة الليبرال*، نشرة الأربعاء 10/08/1921.

25) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، ف-1670.

26) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، ملفات خاصة. العدد، 83.

27) المصدر نفسه، العدد، 99.871.

28) المصدر نفسه، العدد 71.481.

29) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، ب- 1.346.

30) المصدر نفسه، العدد، خ-447.

31) المصدر نفسه، العدد، س-925.

32) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، ب-986.

33) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، العدد، أ-1.516.

34) *صحيفة الصول*، نشرة الأربعاء 08/08/1923.

35) محادثات مع بلاس خسوس إمبرودا أورتيث. يوليوز 1998.

36) مارتينيث باندي، خوصي مانويل، كولونيل، *صراعات حول مدريد في شتاء 1936-1937*. مدريد المصلحة التاريخية العسكرية 1968. ص. 120.

37) محادثات مع سانتياغو دومينكز يوسا. يونيو 1998.

38) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، ملفات خاصة. العدد، 163.

39) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا، "وثائق قضايا تحديد المسؤوليات".

40) أرشيف سانتياغو دومينكز يوسا، "حكاية وظيفة، ملحق وثائقي أضيف إلى التحقيقات الجارية بشأن الأحداث التي وقعت عند ممر إيزومار. بتاريخ 10غشت، مليلية، والسنة لسنا متأكدين منها ربما 1922؟

41) محادثات مع فرانثيسكو بسايو رينا، نجل القائد الشهير، اكتوبر 1997.

42) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى. العدد، ر-3328.

43) محادثات مع خوصي ماركيز لوبيث وإيناماكولادا لوبيث لوبيث حفيدة الصحافي المعروف. مايو-يونيو 1997.

44) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى،العدد، ل-1730.

45) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، انطلاقا من سنة 1989، تصدى الكولونيل الفاريث فاريلا لتحد هائل، يتجلى في نسخ ونقل كل الوثائق التي توجد في المصلحة التاريخية العسكرية والتي تتحدث عن الطيران العسكري الإسباني في المغرب، والتي يبلغ عددها 534 ملف، ووثائق أخرى. وتوج هذا المجهود الضخم بالنجاح لاستماتة الفاريس وموضوعيته.

46) الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية، الملف رقم 13.561 عن فلورس الونصو آنخيل في، *الحرب الجوية على المغرب الإسباني (1913-1927)*، مدريد 1990، ص. 66. نحن من جهتنا وفي حديثنا عن هذه الأرقام لم نتطرق فقط للطاقم الجوي الذي لقي حتفه جراء الحوادث، أو من جراء القصف، بل أدرجنا كذلك كل أولئك الضباط الذين غابوا عن الطيران العسكري وماتوا اثناء العمليات بصفتهم مراقبين جويين.

47) *صحيفة الصول*، نشرة السبت 18/08/1923.

48) دومنكيز سانتيث كونسطانثيو "*عبد القادر مخلص. من بين المخلصين*" في "*تلغراف مليلية*" 31/08/1977.

49) المكتبة الوطنية (م-و) إفريقيا، أرشيف غارسيا فيغيراس. وثائق سرية رقم 309، 314 لسنتي 1958-1959.

50) فرنانديث دي كاسترو إميسان فرانثيسكو "انتقال ابطال جبل اعرويت إلى مليلية، في مليلية اليوم، 10 نونبر 1996.

51) صحيفة *أ-ب-سي*، نشرة الثلاثاء 13 يوليوز 1926، أختى الجنرال تم دفنهما كذلك في مقبرة المودينا، بجوار قبر امهما. وهكذا دفنت مرثيدس فرنانديث سيلفستري يوم 03/02/1950، وَوري جثمان أختها كارمن يوم 31 مارس 1966.

52) صحيفة *أ-ب-سي*، نشرة إشبيلية، الثلاثاء 18/05/1937.

53) الأرشيف العسكري العام لشيقوبيه، المجموعة الأولى، العدد، ل - 1808.

54) محادثات مع نارسيسو إيغيراس بابلوس، أكتوبر 1997.

55) بول دي لافيا، فرناندو، كولونيل غوتيرس ميادو، *احد رجال الحرب في القرن 20* (1912-1995). المكتبة الجديدة مدريد 1997، ص. 94-96.

56) أصبح إيغيراس عضوا في ما يسمى بـ"علم مدريد" الذي تحول فيما بعد إلى "علم قشتالة الثاني" وإلى "العلم الأول" كان ينتسب لفرنانديث سيلفستري دوراطي.

57) الأرشيف البلدي لفيفثيوسا دي اودون.

58) *صحيفة الإمبرثيال*، نشرة الثلاثاء 19/10/1921. لم يذكر فيفرو أسماء أولئك الجنود.

59) *صحيفة الإمبرثيال* (المحايدة)، نشرة الثلاثاء 30/01/1923.

60) رواية خوصي كيلس "وحشية الأسر. معسكر أنوال" نشرت في *صحيفة الإمبرثيال*. نشرة الثلاثاء 6 دجنبر 1921.

61) *صحيفة أ-ب-سي*، نشرة الأربعاء 31/01/1923.

62) *صحيفة لاليبرطاط والصول*. نشرة الثلاثاء 30/01/1923 وكذلك *صحيفة لابوث* في عددها ليوم الاثنين 29 يناير.

63) "لاكوريسبونديثيا دي إسبانيا، 01/12/1921.

64) محادثات مع سانتياغو بسايو ماركيز اكتوبر 1997. لم يتذكر سانتياغو بسايو ابن اخت القائد الشهير، ان عائلته كانت تحتفظ برسم تخطيطي لتلك المقابر ومواقعها.

65) *صحيفة الإمبرثيال*، نشرة الأربعاء 31/01/1923.

66) ارشيف مؤسسة انطونيو ماورا، العدد، 364/4 برقية سان خورخو المسجلة تحت رقم 4333 ليوم 4 فبراير 1922 والتي بعث بها إلى لاثيريا وزير الحرب.

67) محادثات مع كونثبثيون مانيا يوليوز 1998.

68) ارشيف مؤسسة انطونيو ماوراء العدد 364/3. مكالمة هاتفية جمعت بين برنكر ولاثيريا يوم 07/01/1922 على الساعة العاشرة.

69) ارشيف منظمة الصليب الأحمر الإسباني العدد 113-119.

70) *صحيفة لاليبرطاط*. نشرة الخميس 25/01/1923 و*صحيفة لابوث* في عددها ليوم الثلاثاء 30 يناير 1923.

71) *صحيفة أ-ب-سي*، نشرة الجمعة 23 فبراير 1923.



كرونولوجيا

1857

22 غشت. ولد في مالقا خوان بيكاسو غونثالث. زعيم الروح الحربية التي تعود جذورها لإسابيلا.

1871

16 دجنبر. ولد في كاني (سانتياغو دي كوبا) مانويل فرنانديث سيلفستري. اماديو الأول هو ملك إسبانيا.

1873

ولد الريسوني في قصبة الزينات بـ (طنجة)

4 اكتوبر. ولد دامسو برنكر فوسطي Damaso Berenguer y Fusté في منطقة رميدوس (لاهافانا). كان كاسطيلار Castelar رئيسا للجمهورية الأولى.

1874

27-31 دجنبر. انقلاب مارتينث كامبوس، الفونصو الثالث عشر ملك إسبانيا، الحكومة الأولى لكانوفاس.

1880

19 مايو - 3 يونيو. مؤتمر مدريد. الحكومة الثالثة لكانوفاس ودخول المغرب في أجندة التوسع الاستعماري الأوروبي.

1882

ولد في أجدير محمد عبد الكريم.

1886

17 مايو. ولد في مدريد الفونصو الثالث عشر. الحكومة الرابعة لسغاسطا.

1893

28 اكتوبر، نال القبطان بيكاسو الوسام الشرفي بمليلية، بعد جراته في مواجهة العدو.

1895

15 يوليوز. التنينتي سيلفستري ينزل بنويفيناس (كوبا) قادما من قادس. الحكومة الثامنة لكانوفاس.

1898

القوات العلوية بمساعدة من بني ورياغل تشن عمليات تاديب قوية ضد قبيلة بقيوة. الحكومة الثانية عشر لسغاسطا.

18 يناير، القبطان سيلفستري يعبئ قواته في بوتريرو دي كاريداد (كوبا)، ويتلقى ثلاثة عشر طعنة بالسكين، ويصاب بخمس رصاصات والكل يعتقد انه مات.

1 يونيو، كونت بنومار يقترح على الملكة الوصية بيع كوبا للولايات المتحدة الأمريكية وتوجيه السيطرة الاستعمارية الإسبانية نحو المغرب.

شتنبر، فرنسا تتلقى ضربة موجعة في فشودا (السودان)، وكتائب مارشاند انسحبت أمام جيوش كيشنر.

1899

10 دجنبر، معاهدة فرنسا. إسبانيا تفقد مستعمراتها في أمريكا وآسيا. طيوفيل دولكاسي، الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية تنضج لديه الفكرة الاستعمارية، مناطق نهر النيل لدولة بريطانيا العظمى ودول شمال إفريقيا لفرنسا.

1902

17 مايو، تتويج الفونصو الثالث عشر الذي سيصبح ملكا نظرا لكونه الأكبر سنا يوم 2 يونيو الموالي.

شتنبر، فرنسا تقترح على إسبانيا بسط سيطرتها على فاس ووادي ورغة (الذي يحد الريف من الجنوب). سغاسطا يرفض الفكرة خوفا من بريطانيا.

1903

فبراير، تخفق كل من فرنسا وإسبانيا في توزيع المغرب. سيلفيلا يتنازل كي لا يتحدى بريطانيا العظمى. لكنه بذلك أغضب فرنسا.

1904

8 ابريل، معاهدة "التفاهم الودي Entente Cordiale" الفرنسية-البريطانية. القوتان تعلنان بموافقتهما مطالبة إسبانيا باحتلال الأراضي المغربية.

3 اكتوبر، إسبانيا وفرنسا توقعان معاهدة سرية لتوزيع المغرب وذلك بموافقة بريطانيا. وظلت فاس خارج نطاق السيطرة الإسبانية.

1906

16 يناير - 6 ابريل، مؤتمر الجزيرة الخضراء. حكومة "موريت" الثانية، المانيا لم تتمكن من جعل المغرب "بلدا محايدا". والسلطة المغربية بدات تقترب من النهاية.

1907

31 يوليوز - 7 غشت، القوات الفرنسية تقصف مدينة الدار البيضاء، ونهب السكان من طرف قوات اجنبية، والحصيلة كانت الفي قتيل. وماورا يبتعد عن هذه المشاكل.

شتنبر، الحركة الوطنية في المغرب، مولاي حفيظ يطيح بعبد العزيز.

1909

27 يوليوز، اندحار قوات بينتوس في معركة اللوبو. وبرشلونة تعيش اسبوعا مأساويا وداميا.

24 غشت، عرض الروكي في شوارع فاس داخل قفص من حديد. وفيما بعد تعذيبه وإعدامه.

1910

23 يوليوز، سيلفستري يعطي لقب "نبيل"، ومن هناك تبدا علاقته الحميمية مع الفونصو الثالث عشر.

1911

21 مايو، القوات الفرنسية تحتل مدينة فاس وفرنسا تحتجز مولاي حفيظ.

13 يونيو، سيلفستري ينزل بالعرائش. موجة الغزو السريع أتت اكلها بدون عنف، وذلك بفضل الاتفاق الأولي بين كل من سيلفستري والريسوني.

1-9 يوليوز، البارجة الألمانية بانطير ترسو باكادير. خطر حرب شاملة يخيم على اوروبا. عبد الكريم ينتقد سياسة فرنسا في المغرب.

4 نونبر، معاهدات فرنسية-المانية تهم توزيع الأراضي في الكونغو، وانعكاسات اقتصادية على المغرب.

1912

19 فبراير، برنكر يكسر شوكة قبيلة بني بويحيى اصحاب جبل اعرويت، وتتم ترقيته إلى رتبة كولونيل.

30 مارس، معاهدات ما قبل الحماية بشأن المغرب الذي فقد وضعيته كبلد ذو سيادة.

17 - ابريل، تظاهرات في مدينة فاس، لقي فيها ضباط فرنسيون ومستعمرون أوربيون حتفهم.

مايو، سيلفستري يكتب للجنرال الفاو ولألفونصو الثالث عشر، ويقترح عليهم تنصيب الريسوني كخليفة.

13 غشت، مولاي حفيظ يتنازل عن العرش لصالح اخيه مولاي يوسف، ويختار المنفى، وتبقى سلطة البلاد في يد أشباح يتحركون تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي-الإسباني.

17 غشت، سيلفستري يحتل أصيلا قبل فرنسا. الاتفاقية الثانية بين سيلفستري والريسوني.

12 نونبر، مقتل كنالخاس بمدريد. وررمانونيس يشكل حكومة مع لوكي.

27 نونبر، توقيع معاهدة فرنسية-إسبانية تقضي بفرض نظام الحماية على المغرب.

1913

23 يناير، سيلفستري يعطي الإذن بتفتيش معقل الريسوني في أصيلا. وشريف جبالة يحتمي في تازروت ويختار الحرب.

19 فبراير، الفاو يحتل بشكل مفاجئ مدينة تطوان، ويخرق الوعود السلمية التي اعطاها لأعيان المدينة.

13 ابريل، الفاو ينصب كمقيم عام، وتصعيد حرب العصابات بمنطقة جبالة.

27 ابريل، مولاي المهدي، دمية إسبانيا، يدخل تطوان بحماية من قوات الفاو.

15 غشت، شروع مايستري الذي كان عضوا في مجلس الشيوخ ووكيل رومانونيس، في محادثات من اجل السلم في منطقة جبالة. فاصيب بالخيبة إثر اصطدامه بالروح القتالية للزعيم الليبرالي. مارينا يعين كمقيم عام. وعبد الكريم ينصب كقاضي القضاة.

4 نونبر، كامبو يحذر ويؤكد للحاضرين داخل البرلمان أن إسبانيا "تسلك في المغرب نفس الطريق الذي نهجته في كوبا".

1914

يوليوز - اكتوبر، الشروع في عمليات شراء أراضي الكارط واستغلالها. وصول المستعمرين الإسبان والفرنسيين القادمين من الجزائر.

1915

12 مايو، مقتل سيدي اقلعي بكوستا كولورادا في مؤامرة دبرها ضباط إسبان كانوا بالعرائش، وادريس الريفي الباشا الجديد لأصيلا.

9 يوليوز، مارينا وسيلفستري يقدمان استقالتهما بسبب موضوع اقلعي. غوميس خوردانا المقيم العام الجديد بتطوان. سيلفستري يعين كمساعد لألفونصو الثالث عشر.

15 غشت، محمد عبد الكريم يعرض على زعيم مكتب الشؤون الأهلية مخططه السلمي الذي يقضي بعدم تجاوز إسبانيا الخط الواقع بين إصحافن (بوادي كرط) والباطل (بالقرب من إغان).

6 شتنبر، اعتقال الابن الأكبر لعبد الكريم وحبسه في حصن كابريرساس.

23 دجنبر، ابن عبد الكريم يفر من معتقل كابريريساس، يسقط في حفرة، فتتكسر قدماه، فيلقى القبض عليه ثانية.

1916

20 مايو، حفل ودي في الفندق (بتطوان) واجتماع القوات الإسبانية بنظيرتها من جبالة. وخوردانا والريسوني يوقعان اتفاقية دفاع مشترك.

غشت، إطلاق سراح عبد الكريم الذي استانف من جديد محادثاته مع ايشبورو، املا في الوصول إلى تحالف قوي.

25 مارس، الجنرال ميفيل بريمو دي ريفيرا يقترح امام هياة الأكاديمية الإسبانية-الأمريكية لقادس، إمكانية التعامل مع (بريطانيا العظمى) وإعطائها سبتة مقابل جبل طارق.

1 يونيو، انتصار حركة بونابارت التي يتزعمها الكولونيل ماركيز، وتشكيل مجلس الدفاع داخل نظام حكم الفونصو.

1918

فبراير، عبد الكريم وريكيلمي يوقعان اتفاقية حول نزول القوات في أجدير في يوليوز المقبل. وخوردانا يلغي كل الوعود المشتركة.

5 يوليوز، ترقية برنكر وسيلفستري إلى رتبة جنرال في نفس اليوم.

9 نونبر، غارسيا بريطو يشكل حكومته الثالثة، وبرنكر يعين كوزير للحرب.

18 نونبر، وفاة الجنرال خوردانا داخل مكتبه بالإقامة العامة بتطوان.

11 دجنبر، باقتراح من برنكر وبظهير ملكي تم فصل مهام المقيم العام والقائد العام للجيش بإفريقيا.

1919

25 يناير، برنكر يعين مقيما عاما. وبيكاسو يرفض منصب وزير الدفاع.

محنة إسبانيا في بني صالح (عند مرتفعات غورغيس، قبالة تطوان).

11 - 12 يوليوز، تعثر دموي للقوات الإسبانية بكدية الروضة بقبيلة واد الراس في الشمال الشرقي لتطوان.

9 غشت، الكومندان والنائب البرلماني خواكين فانخول يتحدث داخل البرلمان عن ضرورة فتح ملف تقصي الحقائق لمعاينة أحداث المغرب.

12 غشت، سيلفستري يحكم قبضته على الإقامة العامة بسبتة، وتنشط من جديد الحرب ضد الريسوني.

1920

30 يناير، سيلفستري يعين كقائد عام لمليلية، ويوم 13 فبراير الموالي يتقلد منصبه الجديد.

5 مايو، داتو يشكل حكومته الثالثة، التي دخل فيها الدوق إيزا كوزير للحربية.

9-20 يوليوز، زيارة تفقدية للوزير إيزا إلى المغرب الإسباني. الوزير ينقل شكوكه لـ"ليما" (Lema) دون إعطاء اي حل.

7 غشت، وفاة سيدي عبد الكريم، ربما مسموما. وقوات سيلفستري تسيطر على تافريست.

1 شتنبر، بمقتضى مرسوم ملكي وإصرار برنكر، تجتمع من جديد كل من وظيفة المقيم العام والقائد العام لجيش إفريقيا.

14 اكتوبر، احتلال شفشاون، المدينة المقدسة لجبالة، بتدبير كل من كاسترو وخيرونا ونبلاء المدينة. وبرنكر يتلقى لقب كونت شفشاون.

1921

15 يناير، سيلفستري يصل إلى انوال، ويقيم هناك قاعدة قواته الأمامية. ومورالس ودافيلا يعارضان إمكانية التقدم التكتلي نحو الحسيمة.

26 يناير، في رسالة بعث بها إلى برنكر، يحكي سيلفستري بالتفصيل عن الطرق المهجورة، ويخبر عن تعطيل السكة الحديدية التي تربط كل من الباطل والدريوش منذ خمسة سنوات.

4 فبراير، رسالة من برنكر إلى إيزا يحدثه فيها عن الحالة المزرية للجيش.

16 فبراير، مورالس ينصح سيلفستري بتاجيل اي محاولة للهجوم على الحسيمة، حتى حلول فصل الخريف وبيكاسو يُرقّى إلى رتبة جنرال فرقة.

28 فبراير، رسالة من سيلفستري إلى برنكر يشير فيها إلى "لا إنسانية" وسلبية حكومة داتو إزاء المجاعة التي اجتاحت الريف.

8 مارس، مقتل داتو بمدريد. وفي نفس اليوم شكل ايندي سلاسار حكومته الثانية. واعلن إيزا كعضو داخل وزارة الحرب.

10 مارس، سيلفستري ينهي مخططه الحربي، ويرسله إلى برنكر. وبعد تلاوته أعرب المقيم العام عن معارضته لبعض النقاط، لكنه أعرب عن موافقته على الهدف الأساسي، احتلال الحسيمة.

12 مارس، احتلال وتحصين سيدي ادريس. وهكذا يكون الخط الدفاعي الإسباني في الريف يمتد على طول 135 موقع.

28 مارس - 6 ابريل، برنكر يسافر إلى الحسيمة ويزور انوال. سيلفستري يهنئ جيوشه في مليلية، ويذكر انه يامل "معاودة التهنئة في الحسيمة".

22 مايو، مجالس الدفاع للمملكة تناقش - وتعارض - إمكانية الحصول على كميات كبيرة من العتاد الحربي الحديث الفرنسي والبريطاني الصنع، وذلك باثمنة بخسة.

31 مايو، سيلفستري يضرب عرض الحائط بتحذيرات مورالس، ويعهد إلى الكومندان بيار احتلال أبران. وتبدأ عمليات الهجوم في فجر اليوم الموالي.

1 يونيو، اندحار الحامية الإسبانية بابران. مقتل الضباط وفقدان الذخيرة والعتاد. وهو أمر لم يسبق له مثيل في المغرب الإسباني.

5 يونيو، محاورات بين كل من سيلفستري وبرنكر على متن سفينة "اميرة استورياس" قبالة سيدي ادريس، الحوار يحتدم. وكل طلبات الدعم التي التمسها سيلفستري جوبهت بالرفض.

6 يونيو، برنكر يهاجم الريسوني في منطقة جبالة، وينوي تطويقه في "عرينه" بتازورت.

15 - 17 يوليوز، سيلفستري يكتب إلى برنكر، ويقترح عليه إرساء قاعدة بحرية بمنطقة صالح وذلك لدعم انوال، لكن هذه الفرصة الأخيرة للنجاة ذهبت مع الريح بسبب التماطل في تحريك الأسطول البحري.

18 - 21 يوليوز: فشل المحاولات الأخيرة لنجدة إيغريبن. وموت ضباط بنيتيث على الأسوار. ووصول بعض الأحياء إلى أنوال.

21-22 يوليوز: اجتماعات حربية متعددة ومتتالية داخل خيمة سيلفستري بأنوال. قرار الانسحاب من ابن طيب، وبرنكر في الركبة (بجبالة) لم يستوعب ملابسات الأحداث في الريف الإسباني.

22 يوليوز: نكبة أنوال، ودمار قوات سيلفستري بإيزومار، حوالي ألف قتيل. سيلفستري ينتحر ومقتل مساعديه، وسقوط جل الثكنات العسكرية.

23 يوليوز: مناوشات بريمو دي ريفيرا وقواته بإغان. ووصول برنكر إلى مليلية ليلا.

25 يوليوز: معاهدة الاستسلام المشينة والكارثية لأراوخو بدار الكبداني. وفاة 950 إسباني. وسقوط القبطان أمادو بجوار منبع الماء أمام قواته.

28 يوليوز: نفارو يبقى محاصرا باعرويت، في صفوف إنطرميديا ا، وفتور المقاومة عند وفاة آخر شخص.

2 غشت: باردو اغودين يستسلم بالناظور، وعبد الكريم يسلم جثة مورالس التي حملها طاقم بارجة "لايا" بسيدي ادريس.

3 غشت: كارسكو يستسلم بسلوان، وباستسلامه تفتح الأبواب من جديد على المجازر: 500 من القتلى الإسبان.

4 غشت: إيزا يعين بيكاسو كمحقق في قضية مذابح مليلية.

6 غشت: في مجلس للجنرالات عقد بمليلية، تم اتخاذ القرار بعدم إنقاذ المحاصرين باعرويت.

9 غشت: استسلام نفارو بجبل اعرويت، ومجازر بدار الكبداني، والحصيلة كانت ثلاث آلاف قتيل.

12 غشت: إيزا يربط اتصالا هاتفيا ببرنكر، والاتفاق على صنع واستعمال غازات سامة ضد الريفيين.

13 غشت: ماورا يشكل حكومته الخامسة والأخيرة، ولاثيربا يعوض إيزا في وزارة الحرب. برنكر يقدم طلبا بالاستقالة. لكن طلبه قوبل بالرفض.

15 - 20 غشت: ما يقارب 600 أسير إسباني كانوا محاصرين بأنوال واجدير، وعبد الكريم يطالب بأربعة ملايين بسيطة للإفراج عن المعتقلين.

24 غشت: اوامر عليا تحذر بيكاسو من توريط القيادات العليا في تحقيقاته.

1 شتنبر: اوامر اخرى - بطلب من برنكر - تعاود تحذير بيكاسو بالابتعاد عن المقيم العام.

6 شتنبر: برقية "شخصية وسرية" من لاثيربا إلى بيكاسو تحمل شكل "الأوامر الملكية السامية"

17 شتنبر: احتلال الناظور من جديد. ومشاهد مرعبة للتصفية الجسدية بـ"لا كاسا ديل ماطاديرو - المنزل المجزرة". واكتشاف بؤر واسعة للفساد بالعرائش.

29 شتنبر: معارك ضارية لتحرير معسكر تيزا. وكبلكانتي يكسب الرهان.

10 اكتوبر: مقاومة مستمرة بين الإسبان والريفيين حول جبل الكوروكو الذي تمت مداهمته من الخلف.

14 اكتوبر: احتلال سلوان من جديد. وموعد آخر مع الرعب في " منزل إنا Casa de la Ina" و500 جثة. وكبانياس يدون رسالة يندد فيها بقرارات مجلس الدفاع.

24 اكتوبر: الوصول إلى هضبة اعرويت. اخبار تأكيد المحارق هزت إسبانيا.

1921

23 يناير: بيكاسو ينهي تحقيقاته بمليلية ويعود أدراجه إلى مدريد.

7 يوليوز: المجلس الأعلى للحرب والبحرية يفتح تقارير تحضيرية لبرنكر.

10 يوليوز: تشكيل اللجنة التاسعة عشر (لتدارس قضية تحديد المسؤوليات).

1923

27 يناير: تحرير 326 أسير إسباني بقوا على قيد الحياة بعد 18 شهرا من الأسر.

10 يوليوز: تشكيل اللجنة الواحدة والعشرين من النواب البرلمانيين (لتدارس قضية تحديد المسؤوليات وتقصي الحقائق).

28 يوليوز: مجلس الشيوخ يطالب المحكمة العليا بالنظر في قضية برنكر.

13 شتنبر: انقلاب بريمو دي ريفيرا في برشلونة. وخرق لمواثيق الدستور المسطر سنة 1876.

1924

4 يوليوز: القرار الملكي لألفونصو الثالث عشر والذي يقضي بالعفو على كل المتهمين العسكريين والمدنيين.

1925

غشت: الهجوم الجوي بالغازات السامة التي قضت على القبائل الريفية. وعدد كبير من الضحايا.

8 شتنبر: القوات الإسبانية تشرع في النزول بميناء الحسيمة بمساعدة من الأسطول الإسباني-الفرنسي. وفرض العقوبات على جمهورية الريف.

1926

26 مايو: القوات الإسبانية، الجناح العسكري لبوثاس Pozas تعاود احتلال كل ما تبقى من معسكرات سيلفستري المحروقة.

1927

10 يوليوز: سان خورخو يعلن عن انتهاء الحرب في المغرب في ساحة باب تازة (شرق شفشاون).

22 نونبر: تشكيل اللجنة الحادية عشرة لتقصي الحقائق في مغرب ما بين 1909 - 1921 وذلك بأمر من بريمو دي ريفيرا.

1937

10 مايو: وفاة الكومندان مانويل فرنانديث سيلفستري إي دوارتي، في ساحة المعركة، قبالة الطاخو.

1956

7 أبريل: فرانكو يسلم لمحمد الخامس مفاتيح استقلال المغرب. وتبقى سبتة ومليلية تحت سيادة إسبانيا. الريف ينتظر ساعة تحريره.

1959

يناير - فبراير: انتفاضة الريف ضد سلطات الاستقلال المغربية. ونزول جيش علوي بالحسيمة قوامه خمسة عشر الف رجل. المقاومة الريفية تنكمش على تقسمها بسبب القمع الذي نهجته القوات المسلحة الملكية.

◆ ◆ ◆

فهرس الوثائق

الملحق I

Annual (1)

Uelly 6 Junio — 21.25 Ocupación de Igueriben.

(24) 16 (28) " 20.45 Harca enemiga pretende avanzar sobre Sidi Dris mostrando [illegible] avanza contra dos grupos [illegible] Fernández [illegible] a 4 km Igueriben. Marcha a [illegible] y [illegible]

17 [illegible] 21.3 · Ataque [illegible] Annual el 16. Columna Annual

18 Julio 19.1 Ataque [illegible] (40) Columna Annual [illegible] — Ben [illegible] [illegible] sobre Igueriben.

19 — 12.52 [illegible] Melilla [illegible] Uelly [illegible] 17, [illegible] 17 [illegible] (41) [illegible] Igueriben. Buimeyan Annual, [illegible] [illegible] — Convoy [illegible] a Igueriben y Buimeyan [illegible] del 18 22.30 [illegible] 12 [illegible] Igueriben, llegando [illegible]. [illegible]

[illegible] 19 → 2.35 Confirma [illegible] 17 [illegible] Igueriben-Buimeyan. — (42) Convoy a Igueriben [illegible] — Noche pasada (18) [illegible] a Igueriben Annual, [illegible] muy [illegible]

[illegible] 20 — 23.30 [illegible] (el 1.35?) [illegible] Annual-Igueriben, (41?) (46) [illegible]. [illegible] convoy [illegible] y 2 comp.ª [illegible] columna [illegible] — Retirada. [illegible] — Acciones — [illegible] — [illegible] Ben Tieb [illegible] — ..

— [illegible] Uelly [illegible] 14.9 [illegible] avanzada [illegible] [illegible]. Convoy [illegible] [illegible]

21 (48) 14.30 Melilla: [illegible] Annual [illegible] [illegible] no puede realizar ... [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible]

SITUACION EL DIA 22 DE JULIO
Posicion de Annual

CUERPOS	OFICIALES	TROPA	GANADO
Suma anterior	148	3836	1299
Comandª. Artilleria		4	"
P.M. Ingenieros	1	"	1
1ª Zapadores		194	27
P.M. Com. Artilleria	1	"	1
2ª Compª. Intendencia	1	"	47
Zapadores 2ª y 5ª		283	
Compª. Telegrafos	1	29	24
Ingenieros Red	1		
Policia Indigena 13ª mia	1	40	"
Estacion Radio			
3ª, 4ª y 5ª seccion S.M.	2	71	70
Sanidad (Enfermeria)	4		
Intendencia (Deposito)	1	29	"
Policia Indigena	19	668	244
Intª. Cia. impedimentª S.E.	"	9	"
Total	194	518	1788

Comandante General Exmo. Sr. D. Manuel Fernandez Silvestre
Teniente Coronel de Cabª *Muerto* Enrique Manera
Comandante de Intendencia *Muerto*, Pedro Hernandez
Capitan E.M. *Muerto Sepa* Don Emilio Sabate Satorre
Capitan Ingenieros *Prisionero* Antonio Valcarcer Gallegos
Coronel de Caballeria *Muerto* Francº. Manellas Corrales
Capitan de Caballeria Ramon Aros Iradier

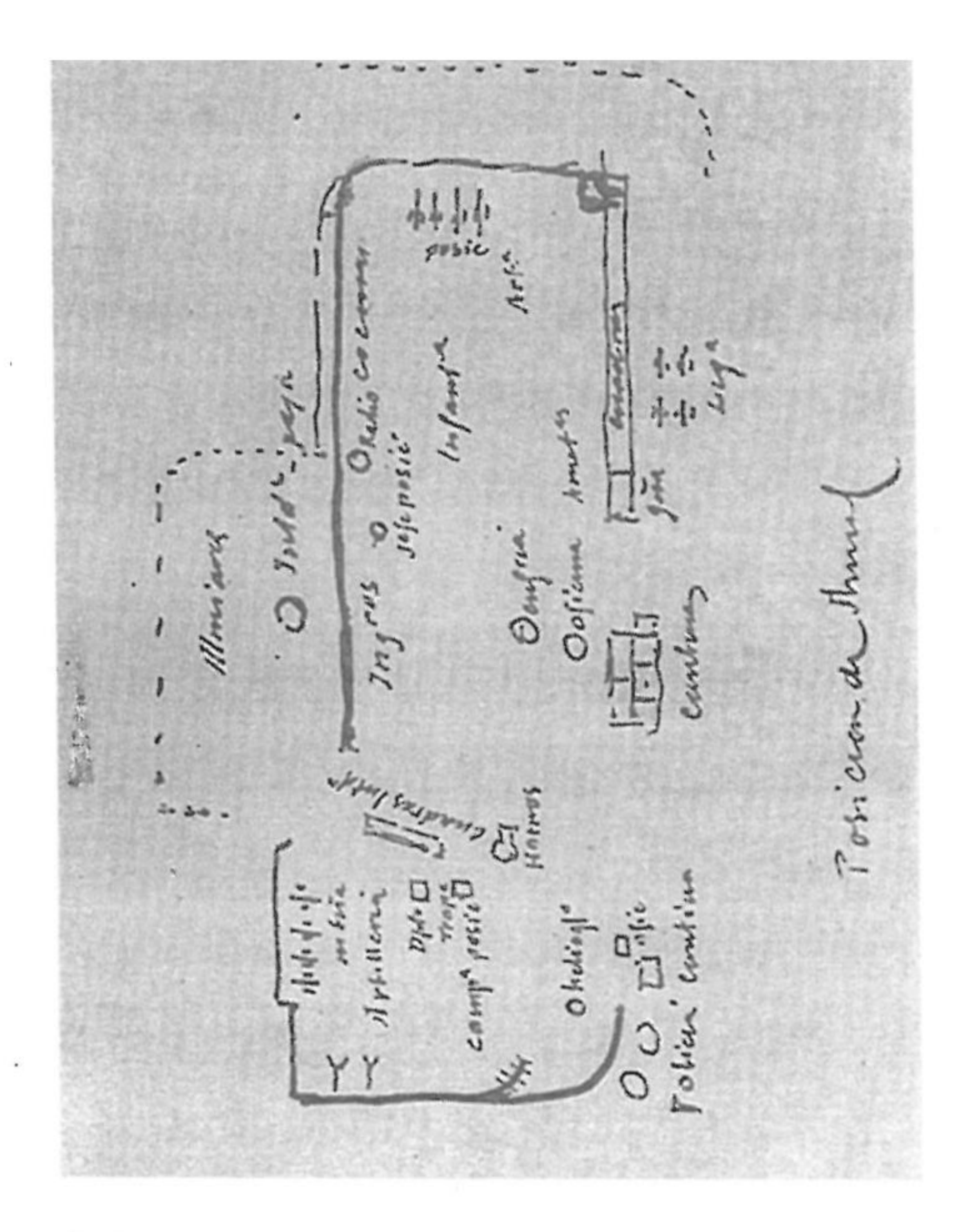
Alferez *Desaparecido* Don Francisco Sabates Galtier
Teniente *Muerto* — Agustin Carrasco Carrasco
Capitan *Prisionero* — Fernando Correa Cañedo
Teniente Coronel Pedro Marina-Villares
Capitan Luis Catalan Ocon Alterriba
Teniente Abelardo Pons Valenti
Capellan *Plana* " Fernando Nomoza Mendez
Capitan Medico *Presente* Juan Perez Ruiz Crespo
Teniente *Desaparecido* Juan Cañas Sanchez
" Fernando Zamaza Muños
" *Desaparecido* Evaristo Meana Brun
Alferez *Desaparecido* Luis Moudejar Gil Pareja
Capitan *Desaparecido* Emilio Morales Tovalina
Teniente *Desaparecido* Francisco Oros Guerrero
Alferez *Desaparecido* Fernando Cosido Cuenta
" *Presente* Antonio Moreno Farriàles

Declaracion medico D'Harcourt -

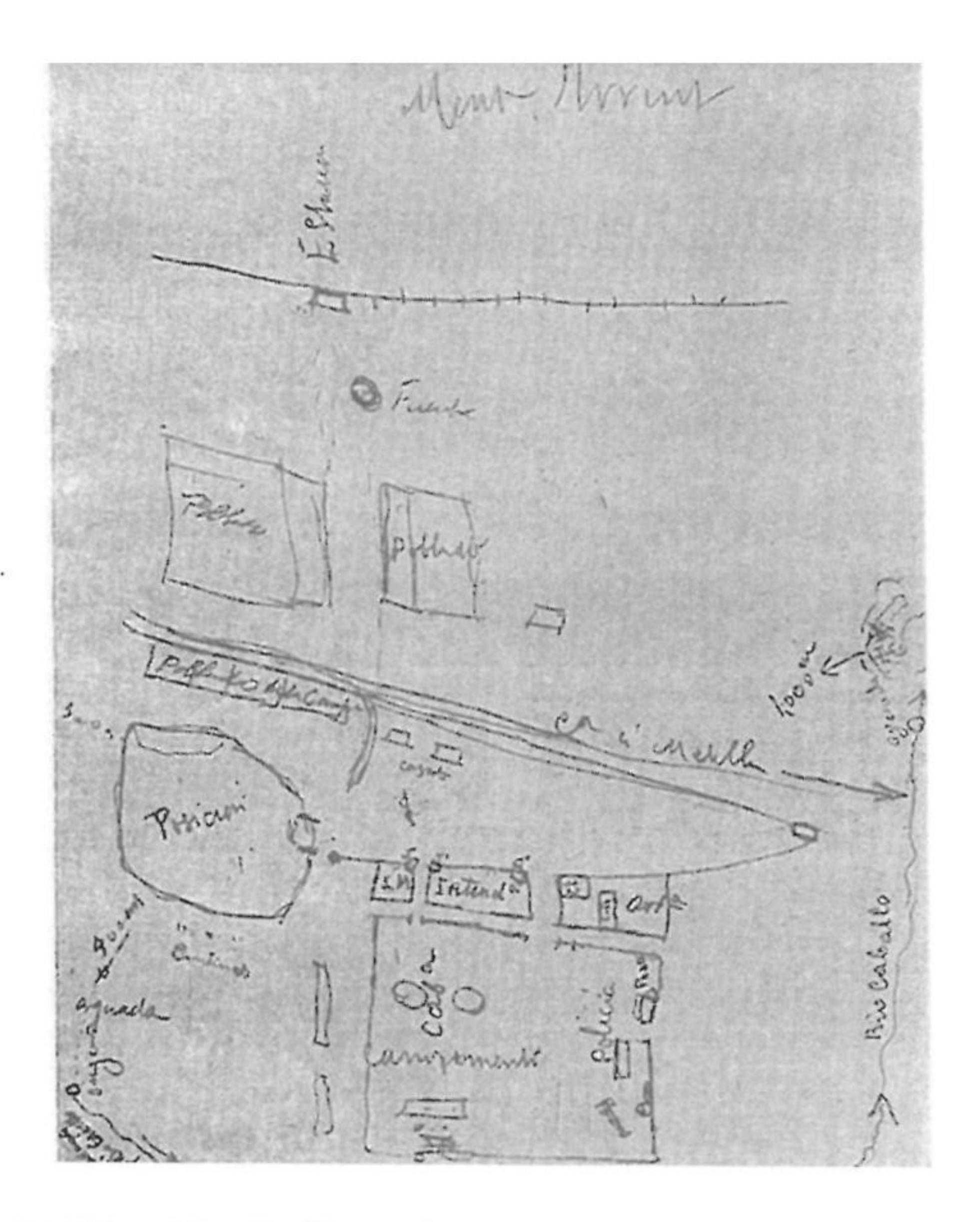
الصفحة الأولى والثانية من أصل ستة صفحات للوائح الخسائر البشرية التي سجلت بأنوال، مع بعض الملاحظات التي ادرجها بيكاسو مبينا مصير أولئك الضباط. أما الموتى والمختفون فقد وصل عددهم إلى 44 (وهو رقم ارتفع إلى 79 من أصل 193 ضابط بأنوال).

Posicion de Anual

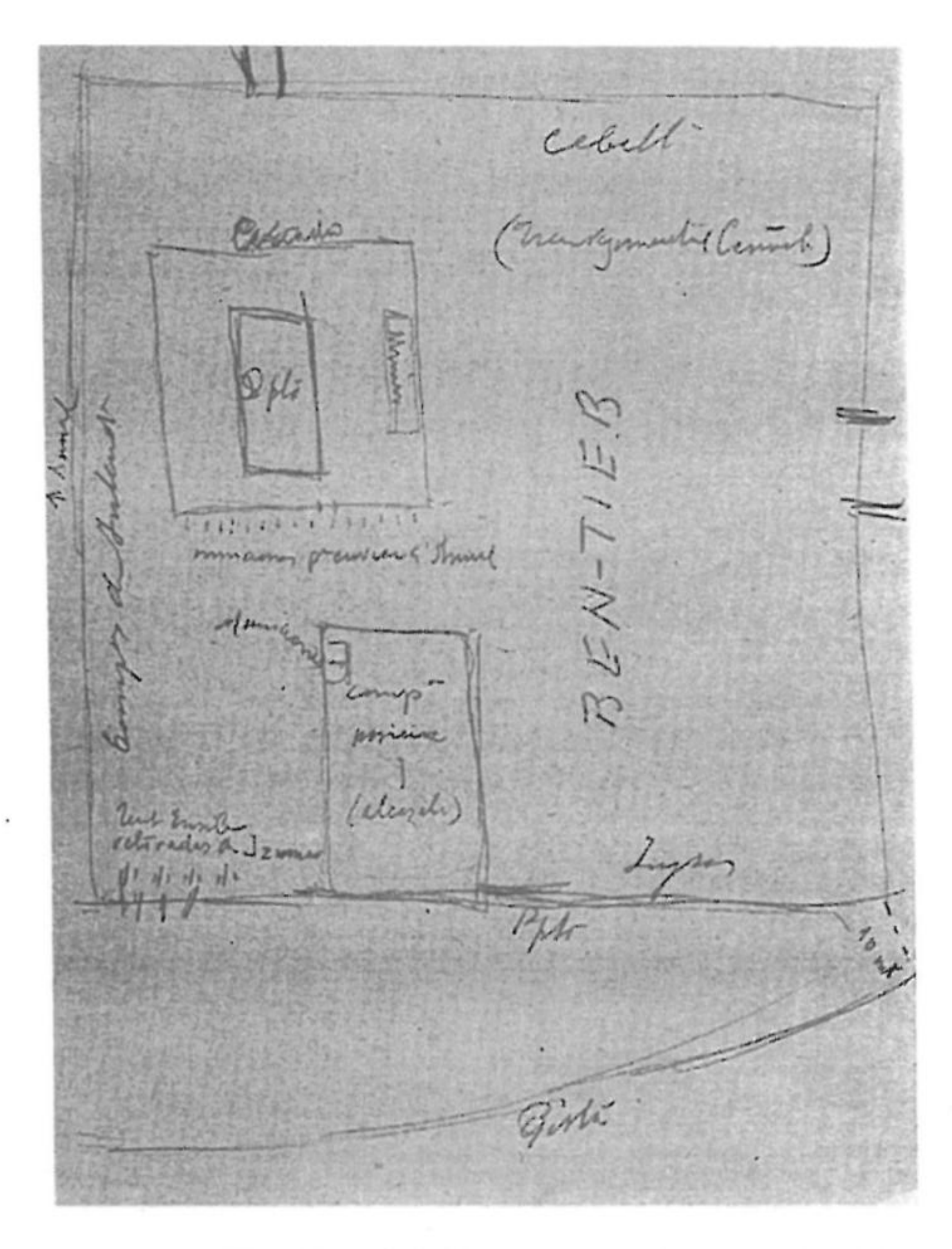
Capitan	desaparecido	Don Jose Acuña y Dias	Alcazarquivir [handwritten over "Mitchuelo"?] – Ceriñola
Teniente	plaza –	Enrique Carballo y Lozada –	id
"	desaparecido –	Andres Loztan Sanchez –	id
Alferez	presente –	Pedro Fernandez Carballo	Ceriñola
Capitan	desaparecido –	Aristides Cordi Pi –	id
Teniente	desaparecido –	Jose Castrillos Sanchez –	id
Alferez	desaparecido –	Julio Moral Moral –	– id
"	desaparecido –	Modesto Martinez Taboada –	– id
Teniente	desaparecido –	Pedro Valles de la Torre –	id
"	desaparecido –	Ignacio Vizcaino Romero –	id
Capitan	plaza –	Rafael Valcarcel Garcia –	Ceriñola
Teniente	presente –	Demetrio Fontan Cadarso –	Ceriñola
Comandante	desaparecido –	Andres Piña Rodrigues –	Africa
Teniente	desaparecido –	Joaquin Lago de Lauzolauaga –	id
"	Medico desaparecido	Enrique Videgain –	—— id
" medico	plaza – No –	Francisco Muguruza –	—— id
"	No –	Luis Ferdez de Piñedo Alvarez –	id
"	plaza – No –	Alfonso Lopez Pampier –	—— id
Alferez	desaparecido –	Filoñcio Carnicero Reudos –	id
Lt.	— Ambulancia –	Francisco Arevalo Nicolas –	id
Teniente	desaparecido –	Julio Alonso Lahoca –	Alfonso XIII
"	desaparecido –	Jose Gracia Tenites –	—— id
"	desaparecido –	Jose Lacave de la Rodea –	—— id
Capitan	desaparecido –	Luis Martin Moreno –	—— id
Teniente	plaza –	Domingo Carballo Gonzales –	id
Alferez	desaparecido –	Luis Selgas Villar –	—— id
"	plaza –	Pedro Valdes Nicolas –	—— id
Capitan	desaparecido –	Mariano Gonzalez Valle –	—— id
Teniente	desaparecido –	Manuel Fernandez Capalleja –	id
Alferez	desaparecido –	Jose Diaz Sandiez –	—— id
"	plaza –	Vicente Lopez Gimenez –	—— id
Lt. Teniente	Coronel Prisionero	Eduardo Perez Ortiz –	San Fernando
Comandante	desaparecido	Santiago Fernandes Nurres –	idem
Teniente	Medico desaparecido	Miguel Cadenas Rubi – – –	idem
"	desaparecido –	Luis Andujar y –	idem
Teniente	desaparecido –	Manuel Garcia Pallargas –	idem
Capitan	desaparecido –	Sebastian Sabater Gomila –	idem
Teniente	desaparecido –	Jose Sanz Martinez –	idem
"	desaparecido –	Isidro Velasco Agudo –	idem
"	desaparecido –	Enrique Martin Martin –	idem
Capitan	desaparecido –	Angel Gil Cabrera –	—— idem
Teniente	desaparecido –	Ricardo Fernandez Viñer –	idem
Capitan	desaparecido –	Jesis Lopez Vicente	idem



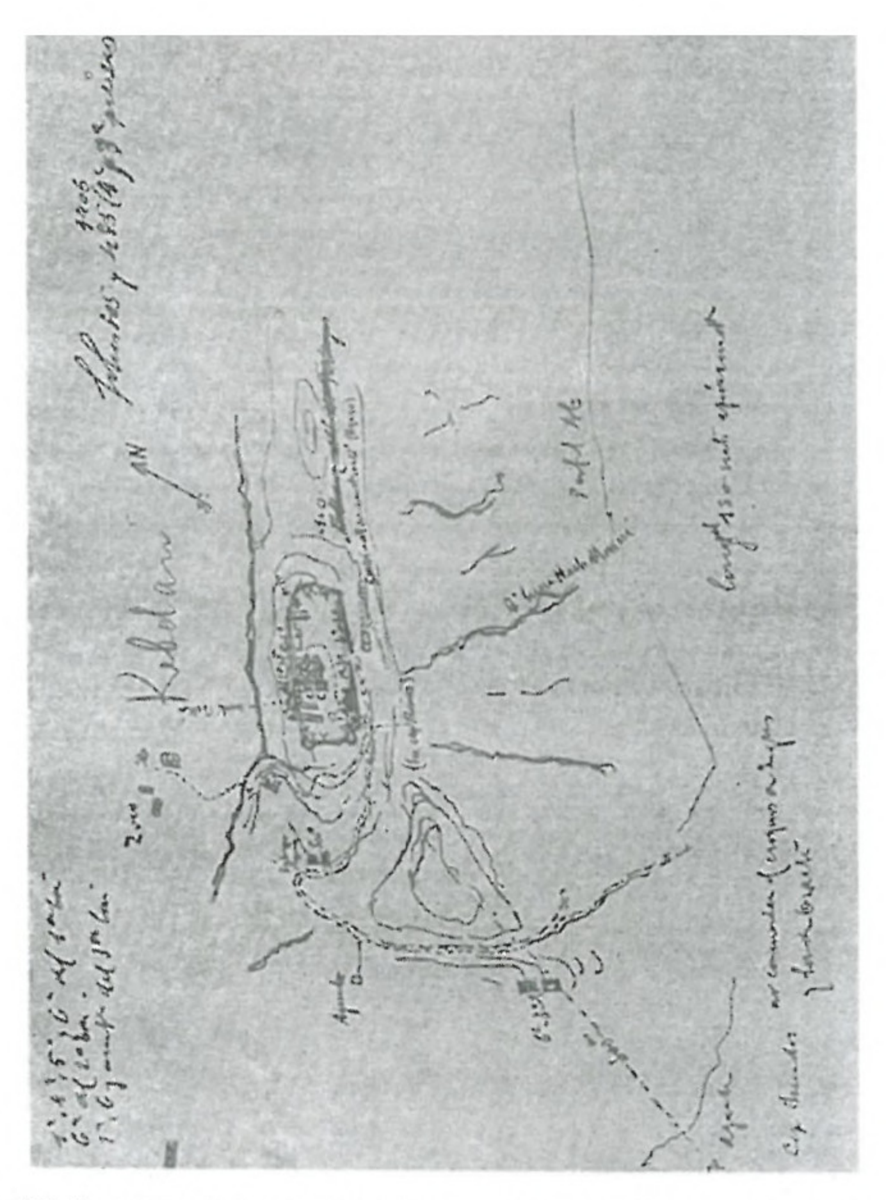
رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه معسكر أنوال. ويبين مكان محطة الراديو -التي كانت على يمين خيمة سيلفستري- وكذا بطاريات المدفعية والأفران والحانات واكوام التبن.



رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه حالة المناوشات الحربية بهضبة اعرويت. وتظهر هناك، بيوت المعمرين (التي احتلها الريفيون) المتاخمة لأسوار المعسكر. ويوضح البعد عن مورد الماء (بوادي كبايو)، والقرب (بالف متر) من بطارية ريفية تمكنت بنيرانها من إخضاع كتائب نفارو.



رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه معسكر ابن طيب، قاعدة الدعم الأساسية لأنوال. تظهر على اليسار المدافع الأربعة التي تم (سحبها) من إيزومار. (وفي الوسط) تظهر المؤونة والذخيرة التي كانت ستوجه إلى أنوال. سعة الطريق (عشرة امتار).



رسم تخطيطي لبيكاسو يوضح فيه معسكر دار الكبداني؛ وهو المكان الذي أبيدت فيه كتيبة أراوخو (المؤلفة من 988 جندي) وذلك بعد استسلام الكولونيل المسؤول عنها في 25 يوليوز. وهنا تظهر الثكنة العسكرية، وفي الأعلى، في الجهة الجنوبية الغربية يظهر مورد الماء الذي توفي عنده الكبطان أمادور الذي لم يستمع لأربع تحذيرات وجهها إليه رؤساؤه، فخرج بقوة عارمة ومات هناك مع رجاله.



Número de origen
de orden
del registro de Subsecretaría 4333

Copia del telegrama del

[redacted] COMANDANTE GENERAL

al Ministro de la Guerra

Melilla 4 de febrero de 1922 a las 17

Recibido a las 17 (hilo directo)

Segun me manifiesta Comandante Militar de Alhucemas en carta que recibe de Sargento Bassallo, prisionero, este le dice que desde 1º de enero al 31 han fallecido los paisanos y militares siguientes: José Garcia Vazquez de la mina Afra, Rafael Alesandre de la Alicantina, Serafin Piñeiro Gea y Francisco Ferrer Villegas del 59, Francisco Jimenez Escudero, Pablo de la Torre Matamans, Antonio Ramon Lucas del 11 y Victor Rubio Ordoñez del 42. Se han incorporado A. Fernandez del 59, Eugenio Moreno Sarmenta de Intendencia, Julian Abellan de Ingenieros y Bernardino Ferrer de Alcantara.

Nuestro prisioneros de Anual han enterrado seiscientos noventa y siete cadaveros sin identificar en las posiciones de Anual, Izumriben, Sidi-Dris, Buimeanen y la Intermedia; ademas identificados en lugar proximo a la fosa del Capitan Salafranca los siguientes: Coronel Manella, Comandante Benitez, Capitan Federico de la Paz y tenientes Julio Bustamante, Eugenio Noguer y Alberto Escrich.

Es copia.

نص البرقية التي بعث بها سان خورخو للاثيريا يوم 04 فبراير 1922 يخبره أن الأسرى الإسبان بقيادة بسايو الرقيب الأول قد دفنوا "697 جثة مجهولة الهوية " في ميادين أنوال. في حين استعادوا أجساد العديد من الضباط الذين تم التعرف عليهم، بنيتيث. بوسطمانطي. إسكريش. باث أوردونيا. نوكس ومانيلا. لكن عائلة هذا الأخير لم تعلم بالحدث.

El Director general
de Instruccion y Administración
del Ministerio de la Guerra

B. L. P.

a la Sra Da María ,Viuda de Manella,y tiene el gusto de remitirle el adjunto certificado de desaparecido de su difunto esposo el Coronel Manella,único que puede extender la Sección de este Ministerio.

ANTONIO LOSADA ORTEGA

aprovecha con gusto esta oportunidad para ofrecer á dicha Sra las seguridades de su mas distinguida consideración.

Madrid 4 de Mayo de 1928

"شهادة الاختفاء" التي تسلمتها ماريا دو كسني أرملة الكولونيل مانيلا من وزارة الدفاع يوم 04 فبراير 1921 والتي تشير إلى "زوجها المتوفي" في 22 يوليوز 1921 عند مرتفعات إيزومار.

28 Octubre folio 1482 pieza 7ª

Andreu

Antonio

Modol

Artillero del regto misto de artilleria de Igueri ben

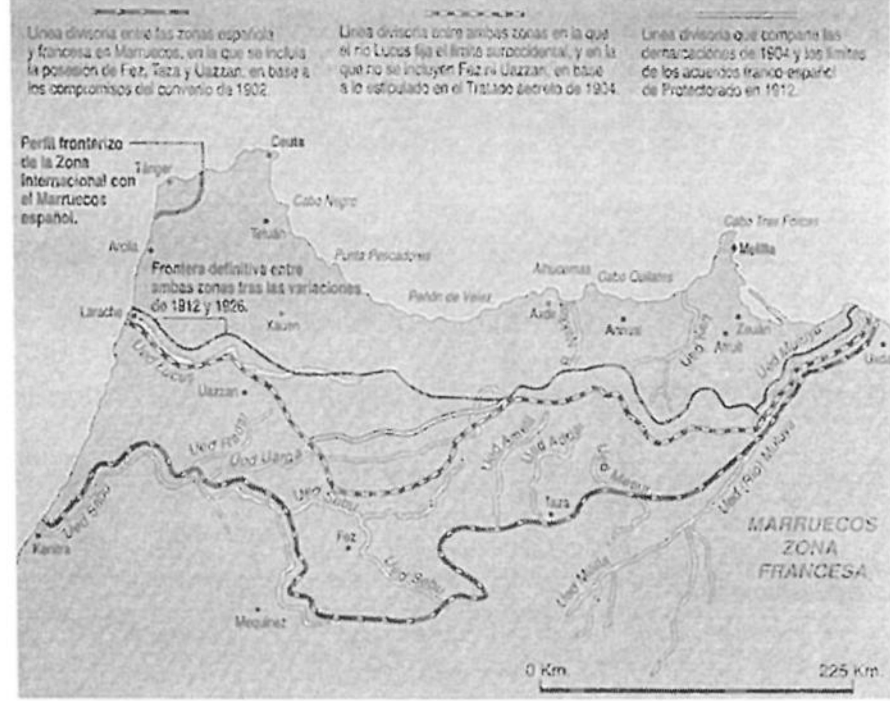
Povos dias despues de establesida la posición de Igueriban los moros empezarón á hostilizarla y trataban de hacer trincheras y emplazar un cañon de Ambarran, a las cuales contestaba la posición. En las immediaciones vivia un moro de confianza que llevaba viveres para los oficiales y antes de hacer la descubierta reconocia los alrededores de la posición y en la madrugada del I7 de julio les aviso que los moros esñaban ocultos para sorprender la descubierta y servicio de aguada, y puesta la tropa en el parapeto empezo el tiroteo queduro todo el dia, del convoy solo entro parte, que permitio dar un vaso por plaza de agua, quedando el ganado del convoy entre el parapeto y la alambrada, que fue muerto por los moros aquella noche, logrando la guarnición matar las acemilas del convoy que se llevaban los moros
En los dias sucesivos no pudo llegar el convoy y dado lo desesperado de la situación el comandante jefe de la posición puso al mando un telegrama anunciandole su decisión de abandonar la posición y exhoerto a la tropa para defenderse energicamente para abrirse paso á viva fuerzaDurante el asedio tuvierón IO ó I2 muertos y I6 ó I8 heridos. Aunque tenian viveres carecian de agua para condimentarlos no podian utillizarlos bebiendo orines y colonia y comian latas de conservas Inutilizadas las piezas y ametralladoras, solio el comandante con la sección de vanguardia siendo recibidos con un fuego tan int enso que perecierón todos, escitando á los artilleros el capitan Paz á socorrer á los que habian salido ó perecer con ellos, pero acosados por los moros se produjo gr an confusión, debiendo el testigo su salvación á la energia de un sargento de S.M. que se impuso á los moros de policia y regulares para que los protegiera Llegarón á Anual I5 ó I6 hombres de los 400 españoles que aprosimadamente defendian la posieición, que consevarón el mejor espiritu no obstante estar agotaños de cansancio y estenuado por la sed

نسخة موجزة من التصريح الأصلي لأنطونيو اندرو مودول الذي بقي على قيد الحياة بعد أحداث إيغريبن. وكان الجنرال بيكاسو قد طالب بنسخة مرقنة لجميع التصريحات التي أدلى بها الشهود في قضيته.

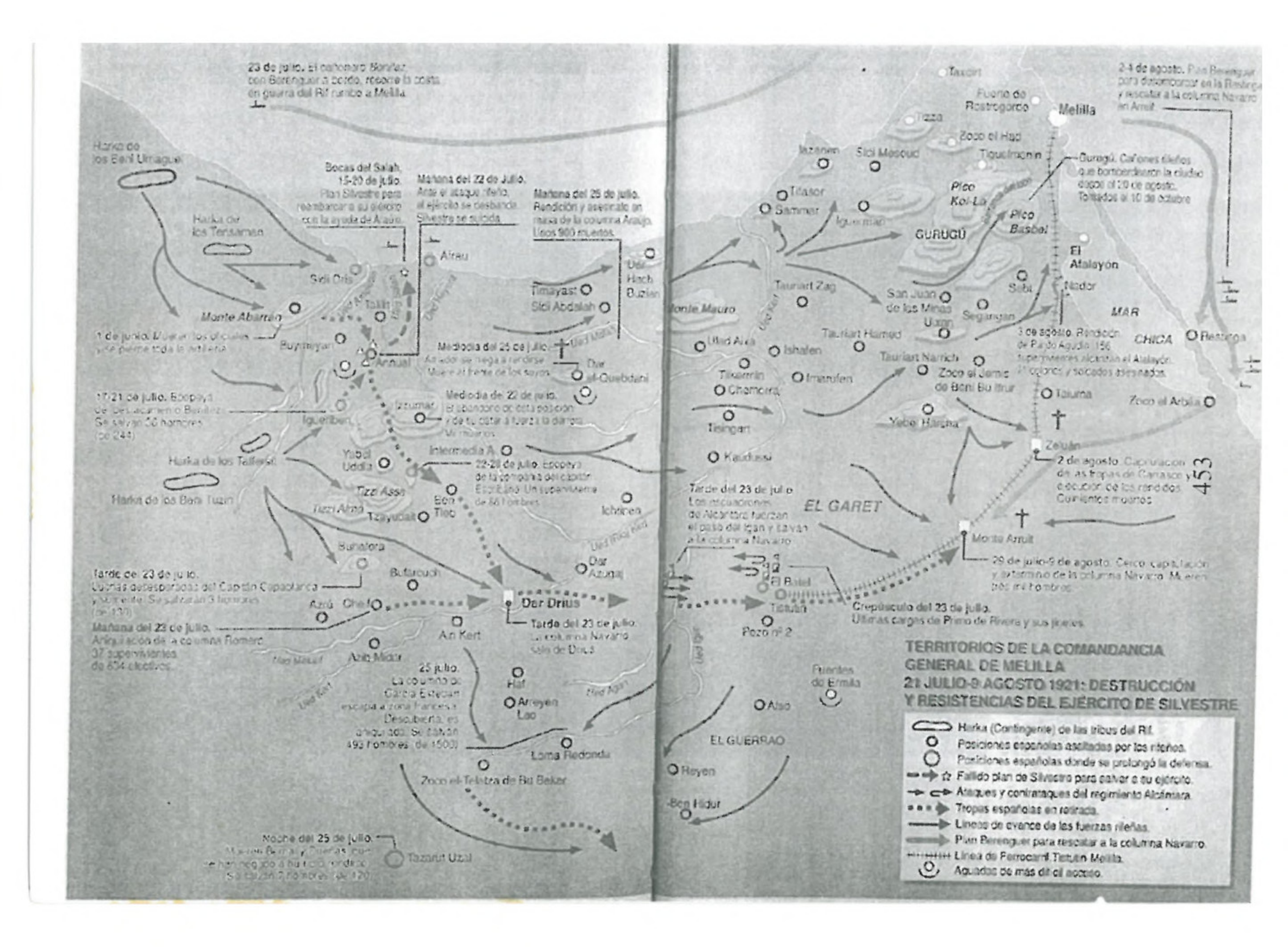
الملحق II



REPARTO COLONIAL DE MARRUECOS
Marruecos español.
Área de máxima expansión territorial de la República del Rif (1923-1925).
Límites Zona Internacional de Tánger.
Límite fronterizo del Marruecos francés con el Sáhara español y Argelia.
Sáhara Occidental, bajo dominación de España.
Zona internacional 1912
Frontera meridional del Protectorado español 1912
Ocupado por España en 1934
Retrocesión en 1969
el Reino de Marruecos
Entregado a Marruecos en 1958
Línea divisoria entre los territorios "franceses" de Marruecos y Argelia 1912-1954
Ceuta
Tánger
Arcila
Larache
Xauen
Melilla
Uxda
Taurirt
Kenitra
Rabat
Fez
Taza
Mequinez
Casablanca
Mazagan
ATLAS MEDIO
GRAN ATLAS
ANTI ATLAS
Safi
Mogador
Marraquech
Agadir
Tiznit
Sidi Ifni
Tan Tan
TARFAYA
SAHARA OCCIDENTAL
ARGELIA
0 Km.
200 Km.



Línea divisoria entre las zonas española y francesa en Marruecos, en la que se incluía la posesión de Fez, Taza y Uazzan, en base a los compromisos del convenio de 1902.
Línea divisoria entre ambas zonas en la que el río Lucus fija el límite suroccidental, y en la que no se incluyen Fez ni Uazzan, en base a lo estipulado en el Tratado secreto de 1904.
Línea divisoria que comparte las demarcaciones de 1904 y los límites de los acuerdos franco-español de Protectorado en 1912.
Perfil fronterizo de la Zona Internacional con el Marruecos español.
Frontera definitiva entre ambas zonas tras las variaciones de 1912 y 1926.
Ceuta
Tánger
Cabo Negro
Tetuán
Arcila
Punta Pescadores
Larache
Xauen
Peñón de Velez
Alhucemas
Cabo Quilates
Cabo Tres Forcas
Melilla
Axdir
Annual
Zeluán
Uazzan
Taza
Fez
Mequinez
Kenitra
MARRUECOS
ZONA
FRANCESA
0 Km.
225 Km.


TERRITORIOS DE LA COMANDANCIA GENERAL DE MELILLA
21 JULIO-9 AGOSTO 1921: DESTRUCCIÓN Y RESISTENCIAS DEL EJÉRCITO DE SILVESTRE
Harka (Contingente) de las tribus del Rif.
Posiciones españolas asaltadas por los rifeños.
Posiciones españolas donde se prolongó la defensa.
Fallido plan de Silvestre para salvar a su ejército.
Ataques y contraataques del regimiento Alcántara.
Tropas españolas en retirada.
Líneas de avance de las fuerzas rifeñas.
Plan Berenguer para rescatar a la columna Navarro.
Línea de Ferrocarril Tetuán Melilla.
Aguadas de más difícil acceso.
23 de julio. El cañonero Bonifaz con Berenguer a bordo, rodea la costa en guerra del Rif rumbo a Melilla.
Harka de los Beni Urriaguel
Harka de los Tensaman
Bocas del Salah. 15-20 de julio. Plan Silvestre para reembarcar a su ejército con la ayuda de Araújo.
Mañana del 22 de julio. Ante el ataque rifeño, el ejército se desbanda. Silvestre se suicida.
Mañana del 25 de julio. Rendición y asesinato en masa de la columna Araújo. Unos 900 muertos.
Sidi Dris
Afrau
Monte Abarrán
Talilt
Annual
Buymeyan
Timayast
Sidi Abdalah
Dar Hach Buzian
Dar al-Quebdani
Mediodía del 25 de julio.
Mediodía del 22 de julio.
Izzumar
Igueriben
Harka de los Tafersit
Harka de los Beni Tuzin
Yebel Uddia
Intermedia A
22-28 de julio. Epopeya de la compañía del capitán Escribano. Un superviviente de 88 hombres
Tizzi Asse
Tizzi Alma
Tzayudait
Ben Tieb
Ichtiren
Buhafora
Bufaruch
Tarde del 23 de julio.
Azrú
Chef
Dar Drius
Dar Azugaj
Mañana del 23 de julio.
Ain Kert
Ain Midar
Tarde del 23 de julio. La columna Navarro sale de Drius
25 julio.
Haf
Arreyen Lao
Loma Redonda
Zoco el-Telatza de Bu Beker
Noche del 25 de julio.
Tazarut Uzai
Oued Kert
Monte Mauro
Ulad Aixa
Ishafen
Tikermin
Chemorra
Imarufen
Tisingart
Kaddussi
Tarde del 23 de julio. Los escuadrones de Alcántara fuerzan el paso del Igan y salvan a la columna Navarro
EL GARET
El Batel
Tistutin
Pozo nº 2
Crepúsculo del 23 de julio. Últimas cargas de Primo de Rivera y sus jinetes.
Fuentes de Ermila
Afso
EL GUERRAO
Reyen
Ben Hidur
Taxdirt
Fuerte de Rostrogordo
Melilla
Tizza
Zoco el Had
Tiguelmamin
Sidi Mesoud
Iazanen
Tifasor
Sammar
Iguerman
Pico Kol-La
Pico Basbel
GURUGÚ
El Atalayón
Nador
Sebt
Segangan
San Juan de las Minas
Uixan
Tauriart Zag
Tauriart Hamed
Tauriart Narrich
Zoco el Jemis de Beni Bu Ifrur
Yebel Harcha
Taurirt
Zeluán
Monte Arruit
2-4 de agosto. Plan Berenguer para desembarcar en la Restinga y rescatar a la columna Navarro en Arruit
Gurugú. Cañones rifeños que bombardearon la ciudad desde el 20 de agosto. Tomados el 10 de octubre
3 de agosto. Rendición de Pardo Agudín. 156 supervivientes alcanzan el Atalayón
MAR CHICA
Restinga
Zoco el Arbáa
2 de agosto. Capitulación de las tropas de Carrasco y ejecución de los rendidos.
29 de julio-9 de agosto. Cerco, capitulación y exterminio de la columna Navarro.


ÁREAS POLÍTICAS DEL MARRUECOS ESPAÑOL
-DIVISIÓN POR CÁBILAS-
Ceuta
Punta de la Almina
Cabo Espartel
Tánger
ANYERA
AL FHAZ
YEBALA
AMAR AL FHAZ
Cabo Negro
EL HAUS
UAD RAS
Tetuán
Río Martín
El Fondak
Cabo Nazari
GARBIA
BENI IDER
BENI HOZMAR
Uad Lau
Punta Targa
Arcila
BEDAUA
BENI HASSAN
BENI ZIAT
BENI AROS
BENI GORFET
Tazarut
Xauen
BENI ZEYYEL
JOLOT
GARB
SUMATA
BENI ISSEF
EL AJMAS
GOMARA
JOLOT TIGUIL
Alcazarquivir
AHL SERIF
GUEZAUA
BENI JALED
BENI AHMED
RIF Occidental
SENHAYA
Punta Pescadores
Peñón de Vélez de la Gomera
BOCOYA
Tamasint
BENI URRIAGUEL
RIF Central
Peñón y bahía de Alhucemas
Cabo Quilates
Punta Afrau
Tugrut
TEMSAMAN
BENI TUZIN
Annual
BENI SAID
Punta Negra
BENI AMMART
GUEZNAYA
Ocupado por Francia en 1926
Midar
Driuš
Zoco el Telatza de Bu Beker
METALZA
Ain Zorah
RIF Oriental
BENI SIDEL
Cabo Tres Forcas
Melilla
Nador
La Restinga
Islas Chafarinas
Cabo de Agua
ULAD SETUT
QUEBDANA
Zaio
Hassi Berkan
BENI BU YAHI
ZONA FRANCESA
0 Km.
50 Km.

مصادر وبيبليوغرافيا

- الأرشيفات التي جرى البحث فيها (مصادر غير منشورة)

1- الأرشيفات الرسمية

- أرشيف مجلس النواب.
- الأرشيف التاريخي العام للقوات الجوية.
- الأرشيف العسكري العام لمدينة شيقوبية.
- الأرشيف العام للقصر الملكي.
- أرشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ.
- المصلحة التاريخية العسكرية.
- المكتبة الوطنية أرشيف غارسيا فيغيراس.

2- أرشيفات ومصنفات شخصية، وأرشيفات المديريات الإقليمية.

- أرشيف مؤسسة انطونيو ماورا.
- أرشيف منظمة الصليب الأحمر الإسباني.
- أرشيف خوان كارلوس بيكاسو لوبيث.
- أرشيف سنتياغو دومينكز يوسا.
- جمعية دراسات مليلية.
- المجموعة الوثائقية لعائلة مانيلا.

- مصادر أخرى

- مذكرات الجلسات البرلمانية.
- الفصل التشريعي لسنتي 1912-1913 في 19 مجلد.
- الفصل التشريعي لسنتي 1919-1920 في 13 مجلد.
- الفصل التشريعي لسنتي 1921-1922 في 10 مجلدات.
- الفصل التشريعي لسنتي 1922-1923 في 17 مجلد.
- وثائق مرتبطة بالتحقيقات التي انجزها الجنرال خوان بيكاسو بشأن تحديد مسؤوليات التدخل الإسباني في المغرب في يوليوز 1921. بالإضافة إلى ملخص مطبوع لنفس الملف التحقيقي (والمكون من 2.433 ورقة) والذي سيحمل فيما بعد الاسم العائلي للجنرال، الذي كان عضوا في المجلس الأعلى للحرب والبحرية. منشورات موراطا. (1922) في 616 صفحة (ويتضمن ملحقا للملف نفسه).
- تحقيقات حكومية *لمعرفة ملابسات وظروف الانسحاب من المواقع المحاذية للمفوضية السامية بمليلية في شهر يوليوز 1921*. وهذه التحقيقات شكلت دعامة وثائقية مهمة، بموجبها تحركت بعض الأوساط سنة 1922 بطلب من المجلس الأعلى للحرب والبحرية، بهدف تحريض مجلس شيوخ الدولة عل المطالبة بإجراء محاكمة للجنرال دامسو برنكر الذي كان آنذاك مقيما عاما.
- *تاريخ الحملات العسكرية على المغرب (1859-1927)*. هياة أركان الحرب الوسطى لقوات الجيش والمصلحة التاريخية العسكرية. مدريد، منشورات1951-1981. في أربع مجلدات وخرائط عديدة.
- *الرواق العسكري المعاصر. التشكيلة الملكية والعسكرية لسان فرناندو، الميدالية العسكرية*... دراسة كل القرارات التي تقضي بمنح تلك الامتيازات للعسكريين والمواطنين ما بين سنتي 1893 (حرب مليلية) و1958 (حيث الهجوم على إفني والصحراء المغربية) المصلحة التاريخية العسكرية. مدريد. منشورات 1973-1974-1981-1984، في سبع مجلدات.
- *السجل العسكري السنوي لإسبانيا*. نظام وحدات الجيش، مخازن المعدات، وأوراش الأسلحة التي (كانت توزع حسب درجة واقدمية الجيش) والوحدات العسكرية والعلاقات التي كانت تربط مختلف الهيئات العسكرية، وفهرس اسماء الضباط، بترتيب ابجدي. وزارة الحرب. الأرشيف الحربي. مدريد. منشورات -1923-1926-1928-1931 1921-1922.

جرائد ومجلات

- *أ-ب-سي.*
- *دياريو اونيبرسال.*
- *لاكورسبوندنثيا دي إسبانيا.*
- *لا إيبوكا.*
- *إرالدو دي مدريد.*
- *الإمبرثيال.*

- *الليبرال.*
- *الصول.*
- *تلغراف الريف.*
- لابوث.
- *مليلية اووي.*
- *مجلة الدراسات المغربية.*

ببليوغرافيا مختارة

- الونصو، خوصي رامون، **التاريخ السياسي للجيش الإسباني**. دار النشر الوطنية. مدريد 1974. 567 صفحة.
- أيندي سلاسار، خوصي مانويل، **الديبلوماسية الإسبانية والمغرب 1907-1909**. منشورات ديسبوغراف. المكتبة الديبلوماسية الإسبانية. مدريد 1990. 274 صفحة.
- عياش جرمان، **أصول حرب الريف**. منشورات سمير. الرباط 1981. 374 صفحة.
- بيكر غونثالس. **خيرونيمو، تاريخ المغرب**. مطابع جيمس راطيس. مدريد. 1915. 590 صفحة.
- برنكر دامسو، **الحملات العسكرية على الريف وجبالة. 1921 - 1922** ملاحظات ووثائق من مذكرتي حول العمليات العسكرية. مدريد. سوثيسوريس. فيلاسكو. 1923. 267 صفحة.
- بالنكو إزاغا، إميليو، حياة مكرسة لخدمة إسبانيا، الجنرال دون فيدل دافيلا اروندو(1878-1962) الصحافة الإسبانية، مدريد. 1978. 617 صفحة.
- إزا. فيكونت (لويس دي ماريشلار ومونريال)، **مسؤوليتي كوزير للحرب في كارثة مليلية**. منشورات غرافيكاس ريونيداس. مدريد. 1923. 521 صفحة.
- فرانكو سلغادو - أراوخو، **فرانثيسكو، حياتي بجوار فرانكو**. دار النشر بلانيطا. برشلونة. 1977. 404 صفحة.
- غارسيا فيغيراس، طوماس إي إرناندس دي إريرا كارلوس، **التدخل الإسباني في المغرب، (1927-1492)**. مطبعة البلدية. مدريد 1929. 691 صفحة.
- لرشوندي، خوصي، **المفردات الإسبانية-العربية في العامية المغربية**. المطبعة الإسبانية-العربية للبعثة الكاثوليكية. طنجة 1932. 856 صفحة.
- لوبس ريندا رافائيل، **وجها لوجه مع الفشل، الريسوني. من سيلفستري إلى بورغيطي**. الشركة العامة للمكتبات. مدريد 1923. 274 صفحة.
- مونطغومري هارت، دافيد، **"انتوغرافية الريفيين، قبيلة بني ورياغل"** في مجلة الدراسات المغربية، السنة الثانية، 1954 الصفحات، 51-86.
- بايني ستانلي خ، **العسكريون، والسياسة في إسبانيا المعاصرة**، دار النشر ساربي. مدريد 1986. 393 صفحة.
- بريث اورتيس، إدواردو، **من أنوال إلى اعروويت وثمانية عشر شهرا من الأسر. حكاية شاهد عيان.** ارطيس كرافيكاس. بوسطال إكسبرس. مليلية. 1923. 318 صفحة.
- ساينث غوتيرث سيغفريدو، **مع الجنرال نفارو. في الحروب وفي الأسر** (مقدمة البارون دافاليوس - فيليب نفارو وثبايوس إسكاليرا). سوثيسورس ريفدينيرا. مدريد 1924. 668 صفحة.
- فيفيرو، اوغوستو، **الانهيار، رفائيل كارو راجيو.** الناشر. مدريد 192. 238 صفحة.
- ولمان دافيد، **عبد الكريم وحرب الريف** (الترجمة بالإسبانية لمارغريدا غراطكوس) اويكوس-طاو. برشلونة. 1971. 298 صفحة.

فهرس الأعلام

- سانطاندر، خوصي (رئيس بلدية فيفسيوسا دي اودون)
-ساينث انديرو، ريكاردو (تنينتي)
- ساينث دي بورواغا بولانكو لأبوليناز (قبطان الملاحة الجوية)
- ساينث غارسيا، رفائيل (كومندان)
- ساينث غوطيريث، سيغفريدو (قبطان)
- سباتي سوطورا. إميليو (قبطان)
- سطولزنبرغ (شركة كيماوية المانية)
- سغاسطا إشفريا، ماطيو برناردو (نائب برلماني ديمقراطي)
- سغاسطا، براكسدس ماطيو
- سلاس فرانكا باريو، خوان (قبطان)
- سلاس خافير (تنينتي الملاحة البحرية)
- سلاس لاراثبال، رامون (جنرال ومؤرخ)
- سلامة ميغيل، باسليو (تنينتي)
- سلثيدو مولينوبيو، إنريكي (كولونيل)
- سلفادور (مسير نقابي)
- سماتة (قبيلة في ناحية الغرب)
- سنتياغو (مساعد كبلكانتي)
- سنتياغو اغيرببينغوا، لويس (جنرال ووزير)
- سواريث كانطون نيكولاس (تنينتي)
- سوتو كوندي، ماونيل (تنينتي)
- سوردو كوليو. رفاييل (جندي)
- سوريانو رودريغو (سياسي جمهوري)
- سوسانا طورنطس، فرانثيثكو (تنينتي كولونيل)
- سولانو مانسو دي ثونيغا، رامون (نائب برلماني محافظ)
- سي حمو (شخصية من بني سعيد)
- سي علال الورطي (تاجر وأستاذ بمليلية)
- السيد (بواق)
- السيد المقاتل (رودريكو دياس دي فيفار)
- سيدة اورناشويلوس، (مرثيدس دي كوباس إي إركيخو)
- سيدي اقلعي ابن احمد (واحد من اعيان جبالة)
- سيدي او سي، عبد الكريم الخطابي. (واحد من أعيان اجدير)
- سيدي امحمد عمار (شخصية بارزة من بني ورياغل)
- سيدي امساند (شخصية من بني ورياغل)
- سيدي دادي (واحد من اعيان بقيوة)
- سيدي دادي امحمدي جينايس دا الله (واحد من أعيان بني ورياغل)
- سيدي علي ساحلي (ضابط اهلي)
- سيدي محمد امزيان (زعيم الريف سنة 1910 - 1912)
- سيست روبيبو، فيثنتي (قبطان)
- سيطمينات إي فونتكو برتا، خوصي ماريا (مستشار حقوقي)
- سيغورا، فيليكس (راهب واحد من الرهبان التابعين للطريقة الكابوشية)
- سيلبيلا كسادو، لوبيث (مقيم عام)
- سيلفستري كسادا، إلوطيريا
- سيلفيريو كورشادو، مانويل (جندي)
- سيلفيلا، فرانسيسكو (رئيس الحكومة)
- سييرا سرانو، خوليان (تنينتي)
- سييربنت بيرغانثا، خوان (جنرال)
- شافتر، روفوس (جنرال أمريكي 1898)
- شافول إدموندو (معمر فرنسي بزايو)
- شاكون إي فالدكانياس، بيدرو (قبطان)
- شرفاء مزيان (زعماء ذو سلط دينية)
- شلي سكوط، وينفليد (قائد اسطول امريكي لسنة 1898)
- شيكوتي اركوس، ريكاردو (قبطان)
- صادق عمار (شخصية من بني حذيفة)
- صادق موحند (شخصية من بني حذيفة)
- صالح بن منصور الحمياني (مغامر يميني)
- طابوادا طونديدور، انطونيو (نائب برلماني من

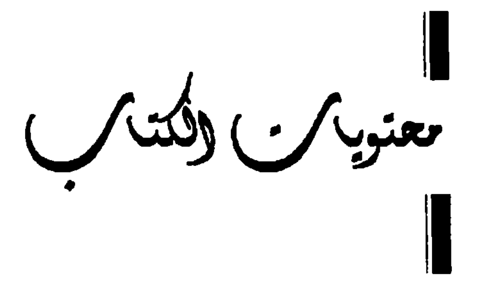
- مــيــريت، وسليي (جنرال الحــرب من الولايات المتحدة الأمريكية 1898)
- ميلون (نائب وسائق نفارو)
- ميمون (عامل في مناجم سوطولوثار)
- ميي فييغا، رامون (تنينتي)
- نافاريطي إيدالغو، روخيلو (صيدلي)
- نفارو باديا، كارلوس (بريغاديي)
- نفــارو ثبــايوس إسكاليــرا، فـيليب (جنرال، وبارون كاما دافاليو)
- نفارو مورينيس، كارلوس (قبطان)
- نوغيس باريرا، إرنيستو (تنينتي)
- نوغيس سوبيرا، خوليان (نائب برلماني جمهوري)
- نونيـوث دي برادو إي سوسبـيلاس ميـغيل (تنينتي كولونيل)
- نونيوث، فرناندو (تنينتي)
- نييلا دي ثيريا، فرانثيسكو (جنرال)
- هاركوط إي غوط، خواكين (طبيب تنينتي)
- هاريس والتر (صحافي بريطاني)
- هافيلاند جيوفري (طيار ومهندس طائرات)
- هوارد، سير إسمي (السفير البريطاني بمدريد)
- ولمان دافيدس (صحافي ومؤرخ)
- ويلز نيكولو، باليريانو (قبطان جنرال)
- ياماس مارتين، مانويل(كومندان)
- يانوس (عضو في مجلس)
- يعقوب فراشي، (تاجر يهودي بأفراو)
- يوسف بن تاشفين (سلطان مرابطي).

◆ ◆ ◆

فهرس المناطق الجغرافية

- بيسكرا (الجزائر)
- بيفيثيوسا دي أودون (مدريد)
- بيكو (بونطيفيدرا)
- بيلشيطي (ثاراغوثا)
- بينار ديل ريو (كوبا)
- بيوطت (معسكر وميادين)
- تاجنيت (بلدة ومعسكر)
- تازاغين (واد)
- تازروت (معقل الريسوني)
- تازروت (ممر) إشباون
- تازروت أوزاي
- تاغلمانين (حصن الموت)
- تافريسات (بلدة)
- تافريست (بلدة ومعسكر)
- تاوريرت (بلدة وقاعدة عسكرية فرنسية)
- تجيديرت
- ترغة (بلدة بغمارة)
- تركيست
- تسينغارت (ربوة قريبة من بوجمجان).
-تطوان (عاصمة الحماية الإسبانية)
- تلاثزا (بلدة في بني سعيد)
- توريبات
- تيريبين (معسكر)
- تيزا (معسكر)
- تيزطوطن (معسكر ومحطة للقطار)
- تيزي انزورن (معسكر)
- تيزي تاكاريست (ممر)
تيزي عزة (جبال)
- تيومة (بلدة ومعسكر)
- ثيباديا (شاطئ الحسيمة)
- جبالة (اراضي او بلاد)
- جبل أعروس (معسكر)
- جبل العلم (وهو جبل مقدس عند جبالة وغمارة)
- جبل القامة (القريب من ابران)
- جبل المصور
- جبل طارق (مستعمرة بريطانية)
- جبل كوديه و(هو معسكر)
- جبل ماورو في (الريف المتوسط)
- الجزر الجعفرية
- الجزيرة الخضراء (قادس)
- حاسدو (بالكوروكو)
- حاسي أوينزغا (معسكر فرنسي)
- حاسي بركان (بلدة ومعسكر)
- الحسيمة (خليج، ومنطقة وجبل)
- حمان (طليعة في دار الدريوش)
- خاكا (ويسكا)
- دات احمد (إيل مالو، حصن خشبي بالكوروكو)
- دار ازوغاي (معسكر)
- الدار البيضاء (المغرب)
- دار الحاج بزان (معسكر القصبة الحمراء)
- دار الدريوش (معسكر ومقاطعة)
- دار الكبداني (معسكر ومقاطعة)
- دار شروطة (في نواحي شفشاون)
- دوار أجدير الذي أصبح فيما بعد عاصمة لجمهورية الريف
- دونيانا (أويلفا)
- رأس الماء (قبالة الجزر الجعفرية)
- ربوة الأشجار "لومادي لوس آربوليس" (القريبة من إيغريب)
- ربوة بوسفيمادين
- رحور (منطقة في المانيا)
- رستينغا (في ناحية الناظور)
- ركبة الغزال (معسكر)
- رمديوس (بلدة قريبة من لاهفانا)
- رملة (دوار)
- روضة (ربوة)
- الريف
- رين دي غيراو (معسكر)

- الزاوية (وهي ربوة قريبة من بوجماجن)
- زايو (جبال وبلدة)
- الزغنغن (بلدة ومعسكر)
- سابنا دي مايث (كوبا)
- ساليناس دي إيبل (الصحراء المغربية)
- سان خافير (مرسيه)
- سان خوان دي لاس ميناس (بلدة)
- سانطونيا (سانطاندير)
- سانكتي سبيريتوس (كوبا)
- السبت
- سلوان (بلدة ومطار)
- سمار (معسكر)
- ستياغو دي كوبا
- سوري (إيطاليا)
- سوق إنوناتن (بلدة في ناحية انوال)
- سوق الأحد (بلدة في الريف المتوسط)
- سوق الأحد (بلدة في ناحية الحسيمة)
سوق الأحد (بلدة ومعسكر في مليلية)
- سوق الأربعاء (بلدة في الريف الشرقي)
- سوق الأربعاء (بلدة في الريف المتوسط)
- سوق الثلاثاء (في الريف المتوسط)
- سوق الثلاثاء بوبكر (معسكر ومقاطعة)
- سوق الخميس (بلدة في الريف المتوسط)
- سوق السبت (بلدة في الريف المتوسط)
- سياش1، سياش2 (معسكرات عسكرية)
- سيدي ابن العباس (قاعدة القوات الأجنبية بالجزائر)
- سيدي احمد الحاج (معسكر)
- سيدي ادريس (معسكر)
- سيدي الحسين (افراو)
- سيدي جغوت
- سيدي صالح (بلدة)
- سيدي علي (معسكر)
- سيدي محمد بن عبد الله (ضريح الولي الصالح)
- سيدي موسى (معسكر)
- سيدي ورياش (ضريح ومقبرة)
- سيردا (بلد الوليد)
- سيغوندا كاسيتا (معسكر بجوار مليلية)
- شاطئ الحرشة (بالحسيمة)
- شاطئ وجداين (بالحسيمة)
- شامبانيا (منطقة فرنسية)
- شفشاون (مدينة لها قدسيتها في الشمال المغربي)
- شيف (معسكر)
- صالح (واد)
- صنهاجة
- الصويرة (التي كانت سابقا موغادور)
- طابلادا (قرية ومطار بإشبيلية)
- طريس فوركاس (شبه الجزيرة)
- طريمب (ليريدا)
- طلفيرا دي لارينا (طليطلة)
- طمبلاديرامس أرويو (في ناحية العرئش)
- طنجة (مدينة في شمال المغرب كانت منطقة دولية)
- طهواردة (جبال وصخور)
- طهودة (الجزائر)
طوري دي إستيبان امبران (طليطلة)
- طوريلو دونيس (مدريد)
- طيطاس دي الناظور (منحدرات محدبة)
- العرائش (المغرب)
- عقبة القلة (معسكر)
- عمار اولاد سعيد (تل قريب من ابران)
- عين زوراح (دوار وممر)
- عين زورن (بلدة)
- عين كرط (معسكر)
- الغرب (منطقة في شمال المغرب)
- غرنيكا (فسكايا)
- غمارة (أراضي وبلدة)
- غيراو (الأراضي الجرداء)


محتويات الكتاب



سلسلة ضفاف

❖ العدد الأول / التحليل النفسي

تأليف: كاترين كليمان

ترجمة : محمد سبيلا وحسن أحجيج

❖ العدد الثاني / التحليل النصي

تأليف: رولان بارت

ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي

❖ العدد الثالث / سقوط الأمبراطورية الحمراء

تأليف :د.ميخائيل فوسلينسكي

ترجمة : د.سناء المصطفى الموصل

تقديم: د. اسماعيل العلوي

❖ العدد الرابع / أسرار مهمتي بالمغرب

تأليف : جيلبير كرانفال

ترجمة : محمد بن الشيخ

تقديم: د. عبد الهادي بوطالب

❖ العدد الخامس / رسائل إلى شاعر ناشئ .. إلى روائي ناشئ

تأليف: ماريا ريلكه/فارغاس يوصا

ترجمة وتقديم :أحمد المديني

❖ العدد االسادس /أبي يرقص(مذكرات)

تأليف: نيكولاس باباندريو

ترجمة: مروان عكاوي

❖ العدد السابع /التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية

تأليف: أمبروسيو هويثي ميراندا

ترجمة: عبد الواحد أكمير

- العدد الثامن /التحليل النفسي (أسسه الفلسفية ومكتشفاته الكبرى)

تأليف: بول لوران أسون

ترجمة: محمد سبيلا

- العدد التاسع /السياسة الخارجية للمغرب

تأليف: ميغيل هيرناندو دي لارامندي

ترجمة: عبد العالي البروكي

- العدد العاشر /مغاربة في خدمة فرانكو

تأليف: مارية روسا دي ماداriياغا

ترجمة: كنزة الغالي

- العدد الحادي عشر /الإسلام والمسلمون في إسبانيا

تأليف: خيما مارتين مونيوث

ترجمة: كنزة الغالي

❖ ❖ ❖



خوان باندو

- من مواليد سنة 1943 بمدريد.
- حاصل على الدكتوراه في التاريخ والجغرافية.
- خبير في العلاقات الدولية والتاريخ العسكري.
- ألقى العديد من المحاضرات على طلبة الماجستير في كلية علوم الإعلام وجامعة كومبلوتينسي والأكاديمية العامة بسرقسطة.
- سنة 1998 تم تكليفه بمعرض "حلم ما وراء البحر" الذي احتضنته المكتبة الوطنية بمدريد.
- يعدّ واحدا من أبرز الأفريقانيين، وعضو شرفي داخل مؤسسة نويسترا سينيورا دي أفريكا.
- من كبار المهتمين بقضايا المغرب، خاصة منطقة الريف وجبالة. جاءت زيارته الأولى لمنطقة أنوال سنة 1969. فيما بعد تكرّرت الزيارات، عام 1971، 1972، 1985، 1990 و1998، وذلك للاطلاع على أدق تفاصيل تراجيديا جيش الإسبان بقيادة الجنرال سيلفستري. بموازاة مع ذلك عزز مجهوداته العلمية ببحث وتنقيب دقيقين استغرقا منه ثماني سنوات في الأرشيف العدلي الإسباني.